

رسم بیکاسو

الشاعر أوفيد



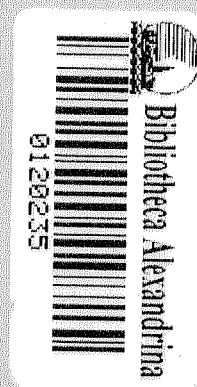
مسح الكائنات

میتامورفوزس
التحولات

ترجمه و قدم له

د. ثروت عكاشه

رأسه على الأصل اللاتيني
د. مجدى وهبه



مسح الكائنات

الطبعة الثالثة

الشاعر أوقييد
رسوم بيكاستو

مسح الكائنات

«ميتامورفوزس»

ترجمه و قدم له
د. ثروت عكاشه

راجعه على الأصل اللاتيني
د. مجدى وهبه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

صمم الغلاف : حسن عثمان

تقديم

١

إنى إذ أقدم هذا العمل « مسخ الكائنات METAMORPHOSES » من تأليف « بوبليوس أوفيدىوس ناسو PUBLIUS OVIDIUS NASO » إلى قراء اللغة العربية أحسن بالحاجة إلى أن أمهد له بمقدمة أبسط فيها الصلة بين عالمنا الحديث والمعاصر من جهة وبين الآداب الكلاسيكية والدراسات القديمة من جهة أخرى ، كما أعرف بحياة المؤلف ومكانته شاعراً ، وما تركه من أثر فى شتى المجالات . وحسبى فيما سأقدم من أعمال أوفيد أننى سأتيح للقارئ أن تقع عيناه على قصص يسحر الوجدان ولفكره أن يشرد فى عالم أسطورى رحب . ولست أحسب فى ذهب الأرض كله ما يعدل نشوة الفكر حين يصيبه الدوار ويترنح محلقاً فى عالم الخيال الخصب .

ويروى هذا الكتاب جملة من الأساطير القديمة المختارة من خرافات اليونان والرومان وحضارات الشرق السابقة ومن التراث الشعبى الرومانى نفسه ، تجعلنا نتبين حقيقته ونقف على مدى صلته بثقافتنا الحاضرة . وكما كان الدارس لثقافة اليونان والرومان فى فروعها المختلفة من فلسفة أو سياسة أو أدب أو تاريخ أو فنون بعامة يجد نفسه يتعثّر فى دراسته لتعدد أسماء الشخصيات الأسطورية القديمة وزحمتها ، ولكثرة أسماء الآلهة المتكررة هنا وهناك . وقد أدّى الجهل بحقيقة الأسماء وصلتها بحضارة اليونان أو بعقائدهم الدينية إلى قلة الإقبال على دراستها . ولعل شيئاً من هذا القبيل هو الذى حال بين العرب الأقدمين وبين تناول آداب اليونان والرومان أو فنونهم ، والاكتفاء بفلسفاتهم وعلومهم لأنها نجلت عن الأساطير المعقدة التى تزخر بها تلك الفنون الكلاسيكية .

ودور الأسطورة فى الأدب القديم والحديث واضح لا يحتاج إلى بيان ، أفاض فيه الكتاب والمؤرخون بما لا يحتاج إلى مزيد . والواقع أن الأسطورة قامت بأكثر من دور ، فكانت فى صورها المحلية حكايات يقصد بها التريية والتثقيف ، واعتاد التلاميذ فى المدارس اليونانية القديمة أن يحفظوا أشعار هوميروس عن ظهر قلب . ولكن لم يلبث أفلاطون أن ثار على هذا الوضع وطرد شعراء الأساطير من المدينة الفاضلة ونظر إليهم نظرتهم للمفسدين للفكر .

غير أن الأسطورة عادت وظهرت في شكل جديد وقد تحولت إلى تراجيديا ، وصار هذا التحول نفسه نقطة تغيير واضحة ووجهة نظر جديدة في الأسلوب الأسطوري نفسه . ولم تعد التراجيديا حكاية من الحكايات ، بل تأملا في موضوع بذاته أو في حدث من أحداث روائية مسلسلية ، وامتاز هذا التأمل أول الأمر بالغنائية معبراً عن ذلك عن مآسى الحروب وويلات الحياة الإنسانية في صراعها الضارى .

ولم يلبث كل من أيسخولوس وسوفوكليس وأوريبيدس أن أسهموا في كتابة التراجيديا غير أن عنايتها بأن تكون هذه التراجيديا عملاً أدبياً عدلت كثيراً من تكوين الأسطورة نفسها وغيّرت من طريقة سردها . فكانت بعض الشخصيات تحظى باهتمام لم تحظ به في الحكاية الأصلية ، كما كان الضوء يُسلط فجأة على بعض المظاهر أو الطباع التي ليس لها نظير في القصة القديمة . ولا شك أن الأهداف الأدبية التي كان يتطلع إليها المؤلف المسرحي هي التي كانت تؤدي إلى تحريك الأحداث والوقائع والأشخاص على نحو مختلف بين صياغة مؤلف وآخر . ولكن لا شك أيضاً في أن الحرص على تحقيق بعض الأهداف الاجتماعية والسعى إلى تثبيت عدد من المعاني الفكرية والفنية قد أسهما في إحداث تغيير جوهري في طريقة الاستفادة من الأسطورة على المستوى الأدبي والفني .

ولهذا كله كان لانتشار الفلسفة في القرن الثالث قبل الميلاد أثر في تحويل الأسطورة من أجل استخدامها الفكري استخداماً لم تعرفه من قبل ، إذ بدأت تشارك مشاركة جادة في حمل أعباء الفكر الفلسفي إلى جانب الاهتمام بالمعاني الأدبية الخالصة . وعندما اتسع المجال في استخدام الأسطورة على هذا النحو صارت غنية بالرموز التي تُفُلتُ بها من عقاب أصحاب السلطان دون أن تفقد دلالتها الأصلية .

ومنذ عرفت الأسطورة الإشارة إلى معان معينة عن طريق الرمز باسم البطل أو الإله أو الشخصيات الأسطورية المختلفة اكتسبت هالة فنية معبرة وطاقمة روحية تهدف إلى تغيير القيم في المجتمع . ولم تلبث أن استيقظت الأساطير من جديد وسأيرت التاريخ ، حتى إن كُتِّبَ عصر النهضة وكتب القرن الثاني عشر بأوروبا ورواد الآداب الحديثة والمعاصرة لجأوا إلى إحياء الأساطير القديمة وتناولوا وقائعها وشخصياتها في رواياتهم الحديثة في ظلّ فلسفات العصر .

ومن الصعب أن نتعقّب هذا الاتجاه إحصاءً لدى المؤلفين والأدباء والشعراء وكتب المسرح ، ولكننا لا نكاد نلقى نظرة على الآداب الحديثة والمعاصرة حتى ندرك أمرين : أولهما أثر الأسطورة في إحياء بعض المعاني ، وثانيهما أثر تكرار استخدام الأسطورة أو الأسماء الأسطورية لدى الأدباء والمؤلفين لإثارة المعاني الخاصة المطلوبة ولتوجيه العمل توجيهاً هادفاً ، فنجد راسين مثلاً يعيد في مسرحيته « صحراء طيبة » أو « الأخوة الأعداء » عام ١٦٦٤ إحياء الموضوع القديم نفسه الذي أثاره أيسخولوس في مسرحيته « السبعة ضد طيبة » ، وهو الموضوع نفسه الذي تناوله أوريبيدس في مسرحية « الفينيقيات » ، كما تناول راسين أيضاً موضوع « إيفيجينيا » الذي تناوله أوريبيدس من قبل . وصار من المؤلفين حتى أيامنا هذه مشاهدة

تفسير حديث للتراجيديا القديمة ممثلة في الأسماء الأسطورية أو في الأبطال القدماء أو الآلهة . ولهذا تناول جيروودو « إلكترا » تناولاً جديداً ، كما تناولها سارتر أيضاً تناولاً مختلفاً في مسرحيته « الذباب » .

ولست أحاول هنا أن أتبع كل الآماد والمجالات التي استخدمت فيها الأساطير استخداماً أدبياً مستحدثاً ، ولكني أحاول أولاً أن أؤكد أن الكثير من الأسماء الأسطورية القديمة قد عادت إلى الظهور في مؤلفات الكتاب والشعراء من راسين إلى سارتر ، وأحاول ثانياً أن أقنع القارئ المعاصر بأنه بحاجة ماسة إلى معرفة الأساطير والحكايات الخرافية القديمة ، حتى يتسنى له قراءة الآداب الحديثة وفهمها ومعرفة ما يهدف إليه الكاتب عند تناول الاسم القديم واستخدامه من جديد في المناسبات المعاصرة . ويكفى أن نعرف مدى المرونة التي تحملها الأسطورة القديمة في التعبير عن الأفكار والمعاني من استخدام سارتر لأسطورة « أورستيس » في شرح بعض مبادئ فلسفته الوجودية ، وذلك في أحلك الأوقات التي مرت بها فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية وقت أن احتلتها ألمانيا النازية .

٢

ولد أوفيد في مدينة سولمونه على بعد تسعين كيلو مترا شرقي روما ، وكان مولده سنة ٤٣ قبل الميلاد ، ويعدّ آخر الشعراء الذين كان يطلق عليهم اسم « الأوغسطين » ، وهم جملة من الشعراء الرومانيين الذين سجّلوا أشعارهم وأتموا أعمارهم من سنة ٢٧ قبل الميلاد حتى سنة ١٤ بعد الميلاد ، وهي المدة التي كان فيها أوغسطس قيصر إمبراطورا لروما . وكانت معظم كتابات هؤلاء الشعراء ذات أصالة باستثناء ما استوحوه من الأساطير والآداب اليونانية القديمة وما تبعها من آداب العصر المتأغرق ، وهو العصر الذي عرفت به القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد . وأرفع ما بلغه الأدب الأوغسطي هو ما حققه فيرجيل في « الإنيادة » ، [٧٠ ق.م. - ١٩ ق.م.] ، تلك الملحمة المشهورة التي أعدت على نمط إلياذة هوميروس ، ثم أشرّبت بعض المعاني والملاحم الخاصة بالأدباء المتأغرقين وأخذت طابع تلك الفترة ، وقد كان فرجيل صديقاً لأوفيد .

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً هوراس [هوراتيوس] الذي عاش بين سنة ٦٥ ق.م. وسنة ٨ ميلادية ، وتميز شعره بروح غنائية ، واستخدم عروضا شعرية يونانية خاصة بالأغاني القديمة ، وأعاد تناول بعض الموضوعات والأفكار التي سادت في أشعار الإغريق القدماء ، وكان هو الآخر صديقاً لأوفيد . ومن الشعراء المبرزين أيضاً في هذه الفترة پروپيرتيوس المعاصر للشاعر هوراس ، وكان شعره تقليداً ومجازة للشعر المتأغرق .

أما شاعرنا أوفيد المتوفى سنة ١٨ م بمنفاه « توميس » على البحر الأسود [كونستانزا برومانيا حالياً] فقد بدأ حياته بنظم القصائد الغزلية مثل الشاعر پروپيرتيوس ، وما لبث أن واصل رسالته الفنية متمسكاً ببساطة ميزته عن كل من عداه من شعراء تلك الفترة .

ونستطيع استقراء كل شيء عن حياة أوفيد وأحداثها من خلال حديثه هو نفسه وتسجيله لمظاهر معاشه وعصره . فهو يعترف بأنه لم يكن يجد شيئاً أمتع من الحديث عن نفسه ، وهو القائل في كتابه « فن الهوى » : « فليساعد غيري بأن يجتزّ ذكريات الماضي ، أما أنا فأهني نفسي لأني ولدت في هذا العصر الذي يلائم طبعي ومزاجي » .

وكان أبوه قد أعدّه وربّاه ليشغل إحدى الوظائف السياسية أو الإدارية في الدولة ، فانتقل إلى روما مع أخيه حيث كان يختلف إلى المدارس ، يتلقى العلم على أيدي الأساتذة المشهورين غير أنه لم يجد إشباعاً لذوقه وحسه فيما كان يتعلمه على أيدي هؤلاء المعلمين ، وأحس بخطر الابتعاد عن الأصالة الشعرية الحقة وعن ميوله الذاتية في صناعة الشعر ونظمه ، فقد كان يشعر في قرارة نفسه بأنه خلّق للشعر وأن الشعر يتدفّق من بين شفتيه كما يتدفّق الماء الرائق من ينبوع الصافي . وأخذ بعد ذلك يلقي رجال الأدب في روما وشغل بالتعرّف عليهم دون أن يُغفل متع الحياة ولذاتها في مدينة كبيرة مثل روما ، وصار بعد وقت قصير شخصاً مرموقاً بين خلّان على حظ من الدعابة والمرح .

وكان عهد الامبراطور أوغسطس عهد تفاؤل وانطلاق ومرح ، وعهد تنفيذ للمشروعات المعمارية الكبرى وتشجيع للأدب والفنون بعد أن أشاع روح السلام في ربوع البلاد . ولم تلبث الطمأنينة أن انعكست على حياة الناس ، فأخذوا ينهلون من ألوان السعادة والمتعة دون تحوّل أو قلق . وامتلات ردهات الأدب بالعديد من الكتاب ، كما اكتظت بالشعراء والأدباء الذين اعتادوا شحذ ملكاتهم والمران على التعبير والخطابة والكتابة الأدبية وممارسة الهوايات التي تناسب مواهبهم وتصادف هوى في نفوسهم بعيداً عن المشاغل المادية وعن الظروف المحيطة .

وهكذا هيأت الظروف لأوفيد فرصة قرض الشعر فقصر كل جهوده عليه بعد أن أتاح له ميراث أبيه أن يتحرّر من ثقل الوظائف الإدارية ، فترك لنا مجموعة من الأعمال الشعرية ذات أصالة فنية لا تبارى .

٣

وكانت أولى أعمال أوفيد ديوانه الصغير المسمى « بالغزليات » Amores وهو مجموعة من القصائد التي تدور موضوعاتها حول المعاني الغزلية — كما يشي عنوان الديوان — أكثر فيها من الإشارة إلى أسماء أبطال الأساطير القديمة في غضون القصائد ، الأمر الذي يبنى عن مدى إلمام أوفيد المبكر بالأساطير اليونانية التي



دېلا كروا : اوښد في منقاه بيسكوزيا

مجموعه خاصه - سويسره

اعتاد أن يقتبس منها في أشعاره الغزلية بما يجملها ويعيد إلى الذاكرة الحكايات الخرافية التقليدية ، إلا أن أوفيد كان يتعمد أن يسبغ على هذه العناصر الأسطورية التي يقتبسها في أشعاره نضارة فياضة ، كما اعتاد أن يضيف على الأساطير القديمة حيوية وشباباً متجدداً . وقد نظم قصائده على الوزن الإيليجي ، وهو الوزن الذي يتكون من بيتين أحدهما سداسي والآخر خماسي .

وقد شبّب في « غزلياته » بعشيقته أسماها « كورينا » يعتقد النقاد أنها لم تكن شخصية حقيقية ، ولعلها كانت نمطاً حشد فيه صفات العديد من النساء اللاتي عرفهن . وقد كان أوفيد سريع الوثوب إلى المغامرات العاطفية ، ولو أننا نظرنا إلى بعض ما يكتب على أنه يحمل ظلاً من الحقيقة لاستقر في نفوسنا أنه هام بمُحصّنات إلى جانب العذارى ، وأنه عرف الخليعات كما استمال إليه الخرائر .

وقد قسّم غزلياته إلى كتب ثلاثة^(١) : تحدث في أولها عن وقوعه في أسر كيويدي إله الحب ، الذي صرفه عن الحديث الحرب إلى الخوض في قصص الهوى ، وهكذا علق قلبه بزوجة رجل لم يكن يعباً بوجوده وبخليعة حاول أن يطهرها من دنسها . وتحدث في الكتاب الثاني عن عبوديته لمعشوقته التي اجتاحتها رغبة في هجر المدينة التي كان يرى أنه لا يكتمل بهاؤها إلا بوجودها فيها ، ثم يكشف عن شغفه بأن يجمع بين هوى فتاتين بينما يدفع عن نفسه تهمة خيائته لعشيقتة مع وصيفتها . ثم نجده في الكتاب الثالث يصف بعض ما صادفه من عثرات عاقته عن أن يلحق بمعشوقته ، كما يصف لحظات أخرى نعم فيها بمتعة اللقاء .

وجاء ديوانه الثاني « البطلات » Heroides يشمل عدداً من الرسائل كتبها على لسان نساء شاعت مآسى غرامياتهن في عالم الأساطير والحكايات الشعبية ، فضمّن رسالة « پنيلوبى » إلى زوجها أوديسيوس الشكوى من تبايح الهوى والبعاد وقسوة الانتظار والقلق على الزوج الذي احتجزته حرب طرواده ثم مغامراته البحرية بعيداً عن زوجته . وعرض في رسالة الحورية « إينونية » مأساة انصراف حبيبها « باريس » عنها وانشغال قلبه « هيلينا » التي اتخذ منها زوجة له . ونقرأ في رسالة الأسيرة « بريزيس » عتاباً لأخيّل الذي سعدت بأن تكون محظيته فلم يتحمس لاستردادها حين طمع فيها الملك « أجامنون » . وقد حظى هذا الكتاب بانتشار واسع لتلك البراعة التي لا تجارى في السرد القصصى وعمق الإلمام بطبيعة المرأة وردود فعلها الدفينة .

ثم ظهر كتابه الثالث « فن الهوى » Ars Amatoria^(٢) في العام الميلادى الأول في أسلوب تعليمى جذاب ، وقد قسّمه إلى ثلاثة كتب تضمّن أولها وثانيها نصائح للذكور بينما خصص الثالث للنصائح الموجّهة للإناث .

(١) جرت العادة لدى الكتاب الرومان على تسمية فصول الكتاب الواحد باسم « كتاب Liber » .

(٢) « فن الهوى » لأوفيد . ترجمة كاتب هذه السطور ، وراجعه على الأصل اللاتينى د. مجدى وهب . الطبعة الأولى : دار الشروق ببيروت ١٩٧٣ . الطبعة الثانية والثالثة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ و ١٩٩١ على التوالي .

والأول توجيه للرجل إلى البحث الذكي الدعوب عن المرأة الجديرة بهواه ، ثم عن طريقة التعرف بها واستمالتها وإغرائها بالحديث العذب واللفتة البارعة والاهتمام بأناقة المظهر .

والكتاب الثانى تدريب للعاشق على الاحتفاظ بمعشوقته أسيرة دائمة لهواه ، لا ينسى فى ذلك أثر الكلمة المنعشة للأفئدة أو الهدية الغالية ولا المظهر الحسن أو الخلق الرزين .

والكتاب الثالث نصيحة ثمينة لأية امرأة تريد أن تغزو بهواها القلوب وإرشادها للطريق المثالى الذى يجعل منها امرأة جذابة فى كلماتها ومشيئها ولففتها وزينتها .

ومع ذلك فليس الكتاب دعوة إلى الانغماس فى الغرام بقدر ما هو دعوة إلى الرقة فى المسلك والأناقة فى المظهر والتحلى بالمعارف والفنون التى يعتبرها أوفيد أشد تأثيراً فى القلوب من جمال الملامح وبهاء الحلى والجواهر . هو دعوة إذن إلى خلق مجتمع تنمو فيه أسمى العلاقات بين الرجال والنساء ، وترقى فيه العادات والتقاليد ، ويُصقل فيه الحس ويكتمل فيه الذوق الرفيع .

ثم فاجأ أوفيد قراءه الذين كانوا يتلقفون كتبه السابقة بكتاب يمثل الوجه الآخر لكل ما سبق وقدمه ، فطالعهم بـ « سلوان الحب » Remedia Amoris يستحث فيه الناس على أطراح الهوى والانصراف عن الغرام إلى الأعمال النافعة كالزراعة أو الرماية أو الصيد أو الانشغال بالرحلات والأسفار الطويلة ، وينصح فيه العشاق بنسيان تجارب غرامهم والتخلص من ذكرياتهم ، رسائل كانت أو صوراً . ولم يكن لإقدام أوفيد على وضع هذا الكتاب الأخير إلا محاولة لتهذيب الفلاسفة ودعاة الأخلاق والمتزمتين من الحكام ممن ثاروا عليه واعتبروا كتبه دعوة إلى الفجور والانحلال .

ثم تحدث أوفيد عن الأعياد والمهرجانات والشعائر الدينية والمناسبات التاريخية فى قصيدة تعليمية طويلة مقسمة إلى إثني عشر جزءاً كان كل جزء منها خاصاً بشهر من شهور السنة وسماها « التقويم » Fasti ، ورجع فيها إلى وثائق الدولة ومصادر التاريخ والميثولوجيا وعلم الفلك . غير أنه للأسف لم يُعثر إلا على ستة أجزاء منه ، ولا نعلم هل أكمله كما يزعم وفقد نصفه أو احترق ضمن ما حرقه يوم نفى من روما ، أم أنه لم يكتب أصلاً غير هذه الأجزاء الستة .

وكانت هذه الفترة بمثابة مرحلة للمران على تناول موضوعات تراجيدية أهلتها لكتابة مأساته الرائعة عن « ميديا » التى لقيت شهرة كبيرة فى عصره ونالت استحساناً ضخماً آنذاك ، وإن لم يبق منها شيء مع الأسف لأنها ضاعت ضمن ما ضاع من التراث الرومانى . ويبدو من حديث المعنيين فى ذلك الوقت أنها كانت نفحة شعرية ممتازة ، وإن لم يشجعه ذلك على الاستمرار فى مثل هذا النوع من الإنتاج الأدبى . ثم ما لبث أن ظهر كتاب « مسخ الكائنات » الذى نقدم ترجمته العربية هنا .

ولقد نفى الإمبراطور أوغسطس أوفيد إلى مدينة توميس على البحر الأسود جزاء له على تأليف كتاب « فن الهوى » ، وكذب شاعرنا هذا ، وقال إنما نفى لإذاعته سرّاً من الأسرار لا لهذا الادعاء .

ومما يذكر عن أوفيد أنه نتيجة لغضبه وحزنه معاً في لحظة فراقه لعاصمته المحبوبة قد ألقى بكتابه كله عن « مسخ الكائنات » في النار معبراً بذلك عن يأس قاتم حيال مستقبله الشعري . ولعله كان يحاول تقليد الشاعر فيرجيل الذي مات قبل أن يختتم ملحمة « الإنيادة » ، وإذ لم يكن راضياً عنها كل الرضا حاول التخلص منها ولكن حيل بينه وبين ذلك . غير أن أوفيد كان واثقاً من وجود نسخ أخرى من هذا الديوان لدى الكثيرين من أصدقائه مما يؤكد أن محاولته لم تكن عن رغبة حقيقية في التخلص من الكتاب .

وواصل أوفيد بعد ذلك الكتابة من منفاه ، فدوّن أشعاراً كثيرة جميلة مصقولة ملتصا العفو والغفران ، وسجّل في أشعاره كل ما شهدته في منفاه من صور الهول والفرع . ولكن مضت الأعوام ولم ينل العفو الذي كان يرجوه ، وظل يواصل كتابة أشعاره ، وإن كان قد بدأها مثقلة بالأسى والاكتئاب في كتابيه « المنظومات الحزينة » و « رسائل من پونتس » ، ثم ما لبث أن تخلّى عن هذه الكتابة التي انتابته أول الأمر ، وإن لم تكن مع ذلك نخطيء نغمة الحنين التي ظلت واضحة في كل أشعاره أو نبرة الشوق العارم إلى العاصمة ، فقد طبعنا كل ما نظمته من القصائد في منفاه ، لأن شاعرنا ظل إلى آخر يوم في حياته مشدود الفكر إلى مدينته الأثيرة مشوقاً للعودة إلى ربوعها الحانية .

وقد استهل « أوفيد » أعمال منفاه بمدينة « توميس » بكتاب « المنظومات الحزينة » Tristia الذي يصور عنوانه مضمونه المثلث بأسي الوحدة وشقاء الغربة ، وقسمه إلى خمسة أجزاء وجّه ثانياً إلى الامبراطور أوغسطس يدفع فيه عن نفسه التهم التي ألصقتها به بعضهم بعد نشره كتاب « فن الهوى » الذي اعتبر تحريضاً على الفسق والفجور ، ويستعطف الامبراطور أن يخفف من قسوة عقابه وأن يبدله من « توميس » مدينة أرحب وأفسح لمواهبه الأدبية .

أما أجزاء الكتاب الأخرى فهي مجموعة من الرسائل الشعرية وجّهها لأصدقائه دون أن يذكر أسماءهم خوفاً عليهم من بطش الامبراطور الغاضب عليه ، وتقطر هذه الرسائل مرارة تثير الشفقة عليه في محنته التي كانت تطحنه بلا رفق .

وكأنما لم يخفف كتاب « المنظومات الحزينة » شيئاً من وحدة أوفيد ، فوضع كتاباً ثانياً أسماه « رسائل من پونتس » Epistulae ex Ponto يضم أربعة كتب تحوى رسائل شعرية وجّهها هي الأخرى إلى أصحابه ، لكنه في هذه المرة صدّرها بأسمائهم الحقيقية . وتفيض هذه الرسائل بالشكوى مما يحمله من عذاب تذوّب له القلوب ، لولا ما فيها من إسهاب يهون من وطأة أساه في نفس القارىء .

ولم تكن كتابات أوفيد في منفاه كلها حزناً وشكوى ، فقد كتب مقطوعة طويلة أسماها « إيبس » Ibis أى طائر أبو منجل المائي المعروف باسم أبي قردان ، وفي هذا الكتاب يصبّ جام غضبه على رجل لم يُسمّه متهماً إياه بمحاولة الاعتداء على زوجته وأمواله في غيبته . ولعل هذا الكتاب أعرق موسوعة في السباب لأنه

يضم مجموعة نادرة من اللعنات والشتائم المستخلصة من أقدم كتب التاريخ والأساطير والحكايات الشعبية .

ومات أوفيد بمنفاه عام ١٨ ميلادية دون أن يحقق الحلم الذى ظل يراوده حتى آخر حياته .

* * * *

وقد اخترت أن أنقل هذا الكتاب إلى العربية لأسباب عدة :

أولها : إحساسى بحاجة اللغة العربية إلى مادة تتمثل فيها الأساطير وتشيع فيها الحكايات الخرافية التى تجلو لنا ما كانت عليه آلهة الإغريق والرومان وغيرهما من أبناء الحضارة القديمة .

ثانيا : أن هذا الكتاب يروى قصة هذه الأساطير بأسلوب شعرى متدفق وبلغة عذبة رقيقة لا تنفّر القارئ وترسخ أسماء الآلهة والأبطال فى ذهنه ، مما يجعلها قريبة إلى ذاكرته حين تصادفه مرة أخرى فى قراءاته للأدب القديمة أو الأدب العالمية التى تواصل استخدامها للرمز والإيماء إلى أدوار محدّدة أو وقائع معيّنة .

ثالثها : ما كان لهذا الكتاب من أثر كبير فى تاريخ الأدب العالمى عامة وعند الرومان خاصة ، فلم يحظ كتاب آخر بمثل ما حظى به هذا الكتاب من التأثير فى القراء سواء لما تميّز به من أسلوب أدبى رائع أو لما اختص به من موضوع جذاب .

رابعها : أن دراسة المنجزات الفنية على مرّ التاريخ وتدوّقها باتت تحتاج إلى حد أدنى من الإلمام بالأساطير الإغريقية والرومانية .

فالشاعر أوفيد يعنى هنا بموضوع واحد يخلص عن طريقه إلى التأليف بين عدد من الأساطير والحكايات الخرافية ذات السّمة المميزة ، وهو موضوع تغرّص الكائنات الحيّة وأشكالها وتحوّلاتها من شكل لآخر أو من طبيعة إلى أخرى . ويتابع الشاعر قصص هذه التحوّلات ويرويها عن أصلها مع ما يضيفه على أسلوبها من الأداء الأدبى الممتاز ومن الشاعرية الملهمة ، مما جعل كتابه من أبرز الأعمال الأدبية التى أنتجها الأدباء والشعراء الرومان .

وقد وردت معظم هذه الحكايات الخرافية فى مؤلفات شعراء الإغريق الأقدمين التى كان لها دور أساسى هام فى تثقيف الرومان أنفسهم وفى تربيتهم خلال المراحل الأولى . ولكننا لا نملك بعد قراءتها إلا أن نعترف بقيمة المجهود الفذّ الذى بذله الشاعر أوفيد حين أقدم على اختيار هذه الأساطير القديمة وبعث فيها الحياة من روحه الشاعرية ، مُعيداً روايتها فى رشاقة وسُرّ حتى صار يُضرب بها المثل فى الأخذ بمجامع القلوب والاستحواذ على لبّ كل من يقرأها أو يستمع إليها .

ومن هنا نرى أن العالم قد كسب بهذا الكتاب مصدراً أدبياً ثراً يعدّ كنزاً حافلاً بالأساطير والحكايات الخرافية ، لا يزال يقرؤه ويتطّلع إليه الجميع في كل اللغات بشغف كبير حتى يومنا هذا . وظل هذا الزاد الضخم من الحكايات منبعاً تستقى منه الآداب الغربية الإلهام في فنونها المستحدثة ، كما تستمد منه الحضارات الحالية قوة روحية فريدة . ومع ما يفيض به هذا الشعر من ألوان البلاغة والتعبير البياني فهو ينبض بنضارة العالم الأسطوري الذي يصفه شعره القصصي الجذاب .

وقد وصف كوينتيليانوس هذا الكتاب بأنه ملحمة شعرية ، وإن لم يعدّه بعض النقاد ملحماً لخلوّه من التكوين الموحد الضروري في حالة الملحمة . وفي الحق إن أوفيد قد نجح في أن يخلق من هذا العمل الشعري الذي يتألف من خمسة عشر فصلاً مُصاغاً في وزن سداسي التفعيلات بناءً محكماً أتاح للقارئ الانتقال من قصة لأخرى دون أن يشعر بأى انفصال أو خلط في ترتيب الكتاب .

وفي هذا الكتاب يبدأ الشاعر بالثناء على الآلهة وحمدها على ما أسدت من خير للوجود ، ثم يمضي فيتحدّث عن أصل العالم ومراحل نشوء الكون منذ العماء إلى انبثاق الحياة ، ثم تتابع الأجيال جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر إلى ما انتهى إليه الكون من نظام . وإذا هو يُقسّم تلك العصور إلى أربعة : العصر الذهبي والعصر الفضي وعصر البرونز ثم عصر الحديد الذي تجلّى فيه للبشرية وجودها الكامل . وكان چوبيتر [زيوس] هو الذي أنهى إلى سائر الآلهة بتحوّل أول آدمى إلى حيوان ، وهو ليكاوون ، وكانت تلك العقوبة على ما كان له من شرور وآثام . وعندها شرع العمالقة في هزّ عرش الآلهة إلّا أن چوبيتر كبير الآلهة وربّ البشر استطاع أن يقضى على محاولتهم . وما لبث أن عقد العزم على إفناء العنصر البشري بأكمله قاصداً إنهاء عصر وبدء آخر ، فراح يرسل سيولاً وفيضانات متلاطمة الأمواج لإغراق الأرض ، فلا يبقى سوى ديوكاليون وبيرا لتعمير الأرض من جديد بعد الطوفان .

وقد بدأت أول ما بدأت قصائد الكتاب بوصف هذا الحادث ، ثم استرسلت بعد هذا ، فترى أبوللو وهويفتك بالأفنوان بيثون الهائل ، ثم إذا هويقت في غرامه بدافني . ومن هنا أخذت تبدو غراميات الآلهة وغدت تتوالى في صور مختلفة وصفها أوفيد خلال الكتب الخمسة الأولى [أى الفصول الخمسة] في كتابه عن مسخ الكائنات حتى منتصف الفصل السادس ، لينتقل بعد ذلك إلى موضوعات تتّصل بأبطال اليونان القديمة مثل چاسون وثيسبيوس وأضرابهما حتى حرب طراودة .

ويستمر أوفيد على هذا النحو في سرد البطولات الخالدة ابتداء من شخصية أينياس إلى أن يصل إلى رواية قصص إيطالية ورومانية قديمة تتّصل بحياة الملوك . وفي نهاية الكتاب ترد على لسان أوفيد قصة تحول يوليوس قيصر إلى كوكب وانتسابه إلى الآلهة ، التي كتبها على سبيل الإطراء للإمبراطور الحاكم واستدراار لعطفه .

ولقد تميّز هذا الكتاب « مسخ الكائنات » في مجموعته بحشد هائل من القصص الخرافي المصوغ في أسلوب شعري توفّرت له كل وسائل الخيال والحسّ والعاطفة والمشاعر الوجدانية الدافئة . ولا يكاد المرء

يطالع أبيات شعره عن شخصية من الشخصيات من أمثال بيجماليون أو كاليستو أو فينوس حتى يلمس القدرة الفنية العالية والبراعة في تصوير مواقف العشق والغرام مع ذكاء كبير في النفاذ إلى الطبيعة البشرية في خضم المعارك اليومية .

وليست أحداث الأساطير كلها التي جاءت على لسان أوفيد ذات صلة بالتحوّلات، الخَلْقِيَّة وحدها ، بل كان الكثير مما يرد في غضون رواياته مواقف تشير إلى الرغبة في بعث السرور في القلوب ، من ذلك ما رواه عن أورفيوس وقد هدّه العشق والهوى . ويمضى أوفيد فيربط بين هذه القصة وبين قصة الإلهة سيريس وپروسيرينا [پيرسيفوني] رغبة منه في إحداث تأثير ما في نفسية القارئ بما امتلأت به هذه القصة من ألم دافق وحزن عميق على الرغم من أنها لا تتصل عن قرب بموضوع مسخ الكائنات .

وهذه الفكرة في انتقاء مجموعات من الحكايات الخرافية والأساطير لم يكن أوفيد مبتدعها بل سبقه إلى ذلك شعراء العصر المتأغرق ، فقد شاعت بينهم مجموعات خرافية تتناول موضوع تحوّل الأدميين إلى طيور ، كما وُجدت مجموعات أخرى لأساطير مشابهة في اليونان القديمة . ولا شك في أن أوفيد لم يكن السابق إلى هذا العمل كما لم يبتكره ، لأن فكرة المجموعات الأسطورية من هذا القبيل عُرفت من قبله ، ولكن من العسير أن نعرف إلى أي حدّ كانت هذه المجموعات السابقة ذات تأثير على عمله . غير أنه مما يبعث على الإعجاب بشخصية أوفيد طريقته الفنية الخاذقة في ربط هذه الحكايات بعضها ببعض الآخر ، فليس ثمة رباط بين الحكايات التي يرويها أوفيد ، ولكنه استطاع بما أوتي من المهارة أن يصل فيما بينها بطريقة بارعة ، بحيث يقرن بين طابع شخص وشخص أو بين اسم واسم أو بين موقف وموقف . فيستغل أوفيد هذه المشابهات في إلحاق قصة بأخرى على أساس الانتقال من موضوع إلى ما يشبهه ومن صفة إلى ما يماثلها ، وليس فيما بين هذا الربط الفنى تلفيق أو تكلف إلا في القليل النادر . ومن هنا تجلّت في الكتاب وحدة جامعة ، خاصة أنه عمد إلى الربط بين الأحداث ربطاً درامياً سليماً . لقد استطاع أن يربط بين الأساطير بطريقة شاعرية كى يبعث في نفوس المستمعين إحساساً واضحاً بالصلة العميقة القوية بين حياة البشر والوجود الطبيعي من حولهم الذى يضم سائر الكائنات الموجودة من إنسان وحيوان ونبات وجماد في وقت واحد ، تلك الرابطة التي تصل بين الإنسان والكون المحيط به ، وهى الأساس الذى بنى عليه هذا الموضوع ، وأصبح عاملاً مشتركاً بين هذه الحكايات الخرافية الواردة بين دفتي الكتاب ، وإن كانت الرابطة بين الحيوان والإنسان في عالم الطبيعة الحيّة هى الغرض المنشود من إثارة هذه الحكايات وروايتها في هذا الأسلوب العذب الجزل .

ويتكرر ورود أسماء الآلهة لأنها تكاد تشترك في معظم الأحداث ، فچوبيتر هو مصدر التهديد الدائم للحواريات من ناحية وللعدارى من ناحية أخرى ، كما يرد دائماً ذكر أبوللو وميروكوربيوس دون أن يُحاطا خلال الأقاصيص التي يرويها أوفيد بهالة القدسية والتقدير . وليس هذا الموقف مستحدثاً فقد جرت العادة على ذلك منذ أقدم العصور كما هى الحال مع هوميروس الذى لم ينظر دائماً نظرة الإجلال إلى آلهة

الأوليمبوس الذين يرتكبون كل الخطايا التي يرتكبها البشر ، ويلهون مثل الناس ويقعون أحياناً فريسة للغيب والحسد والحقد والكراهية والطمع والشراسة . وهو ما أتاح لأوفيد أن يستغل خياله في تصوير هذه الأحداث المتصلة بالآلهة ، وأن يستفيد من هذا المجال الرحب لإثارة المشاعر المختلفة – فضلاً عن السخرية – لدى قرائه ومستمعيه . فَيَرِدُ كلام الآلهة كما يَرِدُ كلام البشر على لسانه وكأنهم معاً أبطال في مسرحية كبيرة يعدّها القدر ، ويرسم خطوطها المصير المحرّك لكل ما يجري في الكون من أحداث ، ويسيرها القضاء المحتوم بإرادته ، ويخضع لها الصغار والكبار بما في ذلك الآلهة والأبطال على السواء .

واعتماد أوفيد أن يكرّر بعض الأبيات من حين لآخر وسط أشعاره دون أن يستشعر القارئ غضاضة في ذلك ، بل قد يجد في هذا التكرار نوعاً من الأنس والطرب المستحبّ ، فلم يكن ينقص أوفيد براعة الاستهلال أو القدرة على تغيير النغم والأسلوب في بعض الأحيان .

ولم يتخلّف أوفيد عن أن يسمو بعباراته إلى أرفع المراتب باستخدام الفقرات الشعرية ذات الوقع الجميل المرهف . فيبدأ الفصل الأول – كما أسلفت – بعبارات عليها مسحة من جلال إذ هي تتصل بقصة خلق العالم ووصف أحداث الكون وهو في مرحلة النشوء والتطور ، ولهذا فقد امتاز هذا الفصل بطابع أشعار الملاحم بما لها من جلال ورهبة ، وهو ما يصدق أيضاً على الفصل الخامس عشر ، لأنه أكثر جنوحاً إلى الأفكار الفلسفية . ومن هنا تتهدّر الأنغام قوية التأثير عندما تعمد إلى وصف ريح الشمال ، ثم تعانق النشوة الغنائية عند ذكر باكخوس [ديونيسوس] إله الخمر ، وفيما بين هذا وذاك تمضي الألفاظ والعبارات رقيقة هادئة وديعة حتى تكاد تبلغ في عذوبتها همس الموسيقى .

ويسرد أوفيد في الفصل الخامس عشر حديثاً مُسهباً للفيلسوف اليوناني پيثا جوراس ، متبنياً فلسفته الشاعرية الحاملة مُعارضاً بها الفلسفة الأبيقورية التي كانت شائعة في وقته . وقد أورد قبل ذلك بعض الآراء التي تدور حول نظرية تناسخ الأرواح التي قال بها پيثا جوراس خلال حديثه عن مسخ الكائنات ، كأنما يلتبس فيها تعصيذا وتبريراً لما يتعرّض له موضوعه الشعري في هذا الكتاب وهو مسخ الكائنات من حال إلى حال ، وتناسخ الأرواح كما نعرف هو انتقال روح الميت بعد وفاته إلى كائن آخر حيواناً كان أم نباتاً . ولكنه لم يستطع أن يجلو هذا الأمر حق جلالة لغلبة الروح الشاعرية والبلاغية عنده على قدرته الفكرية ، ثم ما كان منه من عدم ميل إلى أن يضحى بأناقة العمل الشعري من أجل بسط بعض الأفكار الفلسفية أو بعض الأحداث التاريخية ، وكان أوفيد يتجنب دوماً أن تطفئ الأفكار أو الموضوعات على التعبير الشعري أو على جماله وإبداعه . وهذه الميزة في الواقع هي التي عملت على وقاية شعره من الإسفاف ومن التحوّل إلى نظم تعليمي فحسب خال من روح الشعر .

وانساب أثر ذلك كله على مجموعة أعمال أوفيد الشعرية فامتلاّت بوصف نادر للطبيعة وجمالها وروعها . ولعلنا لا نبالغ كثيراً إذا قلنا عن أوفيد أنه كان من أبرع الشعراء الذين وصفوا الطبيعة بخصوبة خيالهم الخلاق . وستظل أوصافه للطبيعة غطاً فذاً لشعر الوصف بين كل الشعراء الأقدمين والمحدثين ،

فلقد أدت هذه البراعة إلى تحويل المشاهد الخيالية إلى مشاهد ناطقة بحكم ما تميز به من دقة التعبير ومن القدرة الخارقة على الأداء الشعري . وهكذا نال شاعرنا تقدير كل من دانتي وشكسبير ، وحسبنا شهادة مثل هذين الشاعرين دليلاً على بلوغه المستوى الأعلى في كتابة الشعر . فهذه الأبيات تحدثت دانتي عن أوفيد :

سمعت وقتل صوتاً يقول : « مجدوا الشاعر الأعظم : فطيفه يعود بعدما ارتحل » . وبعد أن توقف الصوت وسكت ، رأيت أشباح عظماء أربعة قادمين نحونا لم يكن لهم مظهر الحزن ولا السعادة . بدأ أستاذي الطيب يقول « انظر إلى من حمل بيده ذلك السيف ، ويتقدم ثلاثة كأنه السيد . ذلك هو هوميروس أمير الشعر ، والثاني الذي يأتي بعده هو هوراتيوس الساخر ، والثالث أوفيدوس والأخير لوكانوس . ولأن كلا منهم يشترك معي في الاسم الذي نطق به الصوت الوحيد ، فهم يشرفونني ، وبذا يحسنون صنعا » (٣) .

لقد ظل شعر أوفيد مثلاً فريداً في الأداء الفني ، وأمكن للكثيرين ممن درسوه وتعمقوه وفهموه أن يجدوا في قراءته متعة حققة وأن يتبينوا في ثنايا أعماله فناً أصيلاً ملك قلوب الناس في كل البقاع وفي كل اللغات . ولعلّ أسهم هنا إسهاماً ما في إتاحة هذه المتعة لأبناء لغتنا حتى يشاركوا أبناء العالم أجمع في الاطلاع على هذا الكنز النادر .

وقد تناول الكثيرون كتاب « مسخ الكائنات » بالدراسة والنقد العميقين ، وتعدّ الدراسة التي عرضها الأستاذ هرمان فرانكل في كتابه « أوفيد شاعرٌ بين عالمين » من أهمّها جميعاً ، ونستطيع أن نوجز ملاحظاته في أمور ثلاثة :

أولها : أن هذه الملحمة أول محاولة لأوفيد يقصّ فيها قصصاً بطريقة فنية متصلة بحيث يكون لها بداية ووسط ونهاية ، وبحيث تتناسب مع قواعد كتابة الملحمة التي تتطلب من الشاعر التزام البيت الطويل ذي التفعيلات الست والاسترسال في القصّ خلال ملحمة طويلة ضمت أكثر من إثني عشر ألف بيت في خمسة عشر فصلاً [أو كتاباً] . فقد فرض عليه تسلسل القصص في ملحمة أن يربط بين أجزائها بروابط لا يحسّ معها القارئ هذا الربط فلجأ إلى حيل شتى ، وذلك بأن تكون ثمة صلة بين شخصيات القصص أو بأن يكون ثمة تشابه بين موضوع القصص ، إلى غير ذلك من وسائل مماثلة .

ثانيها : أن اختيار موضوع التحوّلات أو مسخ الكائنات الذي تناوله الشاعر يرجع إلى نظرة له في الكون اكتسبها من شغفه بالقصص الأسطوري بما فيه من فتنة وإثارة للخيال يستطيع أن يسبغ بها على ما يرويه منطقاً لا يرتبط بالواقع في شيء ، حيث يبدو الموت وكأنه لا وجود له في ذلك العالم السحري الذي لا يموت فيه كائن بل يتحول من شكل إلى شكل ، وفي هذا سلوان للنفس ، على حين أن الواقع ينطق بغير هذا ، إذ فيه فناء كل شيء لاسيما في عصر عنفوان الدولة الرومانية المؤسسة على القهر والطغيان . ومن

(٣) الكوميديا الإلهية لدانتي : الجحيم . النشيد الرابع ٩٠ . ترجمة حسن عثمان . دار المعارف ١٩٥٩ .

ناحية أخرى يكشف أوفيد عن إيمان بـ « وحدة الروح » فيذهب إلى أن الروح تنقسم على نفسها وتزدوج ، وينصب كل جزء منها في كائن آخر غير الذى فنى ، وفى هذا ما يدل على وحدة الروح الخالدة . وهذا يفسر لنا اهتمامه فى الجزء الخامس عشر بخطبة پيثا جوراس حين يناشد الناس أن يتجنبوا ذبح الحيوان لأن فيه إهدار للروح وحيلولة بينها وبين الخلود ، ويمكن اعتبار هذه الخطبة أساساً فلسفياً لاتجاه أوفيد فى قصص هذا الكتاب .

ثالثها : أن عقيدة أوفيد الدينية كانت أقرب إلى اللا أدرية منها إلى الإيمان الإيجابى ، وهو ما يكشف عنه بيت فى الكتاب الأول من منظومة « فن الهوى » حيث يقول : « حقاً إنه من الخير أن يكون ثمة آلهة . فلنؤمن إذن بوجودهم » . غير أن القراءة الدقيقة للنص تبين أنه يقرّ عبادة الآلهة بل يجبّدها بشرط ألا يظن الناس — كما ظن الفلاسفة الأبيقوريون — أن الآلهة فى علاهم لا يكثرثون بما يحدث على الأرض . فأوفيد يعتقد أن الآلهة يشغلون بأمور البشر من وقت لآخر ، ومن ثم يجعل بنا عبادتهم فى خشوع ، فهم من يمنحون جزاء البرّ والثواب لمن لا يعتدى على غيره . والراجح أن أوفيد كان يعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة صالحة إن لم يؤمن بأن ثمة قوة عليا تراقبه وتحاسبه على سلوكه . ولم تكن الديانة التى يعتنقها أوفيد هى تلك الديانة البدائية المرتبطة بالعبادات اللاتينية العشائرية المحلية ، بل هى الديانة الإغريقية العامرة بالأساطير الذكية اللامحة الرامزة لحياة النفس وحالات الطبيعة ، بامستثناء ربة الحظ « فورتونا » فى الديانة المحلية القبلية التى لم ترق إلى مستوى الآلهة وإن كانت تنفّذ إرادتهم فى أمور الدنيا . ولقد انعكس هذا الميل نحو الديانة الإغريقية القديمة بالمثل على الإمبراطور أوغسطس لما فى الديانة القديمة من توفير لفكرة النظام وتوطيد للاستقرار بالرغم من تقلّبات الدهر والطبيعة . ولذلك عدّت الديانة الرسمية فى روما الإمبراطور ممثلاً شخصياً لرب الأرباب جوبيتر على الأرض ولقبته « بالآله المائل بيننا » . هكذا أصبحت الديانة الرسمية وسيلة لربط الأمة بولاء دينى موحد ومشترك لا يهتم بتعاليم خاصة دون أخرى وإنما يفتح المجال للديانة الإغريقية القديمة الموحدة فغداً الآلهة حلفاء للدولة ، والدولة حليفة الآلهة . وقد حاول أوفيد مجازاة العقيدة الرسمية السائدة وإن كان فى قرارة نفسه لم يهتم كثيراً بأمور السياسة والمُلك ، فهو لا يؤمن إلاّ بأمرين اثنين : الفن والإنسان . وكان اهتمامه بالأساطير من مظاهر إيمانه بالفنون والآداب لا لإيمانه بمعتقدات دينية بعينها .

ومن حيث تكوين الملحمة لاحظ الأستاذ فرانكل شيثين هامين :

أولهما : التوازن بين الكتاب الأول والكتاب الخامس عشر ، ففي الأول وصف لبدء الخليقة من حيث هو تحوّل من حالة فوضى وانقسام إلى حالة نظام وانسجام . وفى الكتاب الأخير وصف لتاريخ روما من حيث هو تحوّل من مغامرات فردية إلى نظام سياسى يصبح فيه الإمبراطور إلهاً ، فعلى حين كان الآلهة فى الكتاب الأول هم خالقى النظام الكونى ، إذا « النظام السياسى » فى الكتاب الأخير هو الذى رفع قيصر من البشرية إلى الربوبية .

ثانيهما : أنه على حين تحتفظ الملحمة بأسلوبها القوي في الأحد عشر جزءاً الأولى ، تفقد قدرأ من حيويتها في الأربعة الأخيرة .

٥

وبالرغم من أن أوفيد قد أنهى حياته في المنفى بعيداً عن جمهور قرائه في روما ، وبالرغم من أن كتاب « فن الهوى » الذي كان قد ألفه قد حُرِّمَ تحريماً قاطعاً ، وأن كتاب « مسخ الكائنات » كان قد أُلقيَ به صاحبه في النار ، إلا أن نسخاً من هذين المؤلفين كانت في متناول القراء في روما نفسها أثناء السنين الأولى من الامبراطورية . وهناك شعراء من القرن الأول الميلادي من أمثال مارتياليس وستاتيوس جوفيناليس كانوا يطالعون دواوين أوفيد بحماس ، وكذا تحدّث عنه الناقد كوينتيليانوس في كتبه كما أسلفت على أنه شاعر ملحمي وغنائي ومسرحي وامتدحه وإن أخذ عليه الانطلاق على هواه ، كما لم يؤمن أن الكتاب كله يستحق التقريظ بل بعضه . ثم ما لبث ذوق العصر أن تغيّر وأخذ قراء أوفيد ينقصون شيئاً فشيئاً إذ كانت العصور الأولى للمسيحية عصر انكماش لأوفيد ، فلقد تعمّد الكتاب المسيحيون الأول الحطّ من كافة الكتاب الوثنيين وخاصة الشعراء منهم بوصفهم أشدّ الكتاب خطراً على عقول القراء ، إذ تزخر مؤلفاتهم بقصص ماجن عن آلهة الوثنية كما تنطوي على عريضة واستهتار . وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على تخوّف رجال الدين من أثر هذه الكتب في نفوس المؤمنين لما فيها من جاذبيّة وتشويق . وبالرغم من ذلك كله مضى النساخ ينقلون شعره سرّاً فيطالعونه الناس من جميع الطبقات في الخفاء . بل إن بعض رجال الدين أنفسهم كانوا يطالعونه ، إذ يشير عالم اللاهوت المشهور « لكتانتايوس » إلى كتاب « مسخ الكائنات » مستشهداً ، ليبرهن على أن إلهاً واحداً قد خلق العالم ، حتى وإن جاء ذلك على لسان شاعر وثني !

فلقد وصلت إلينا بعض المخطوطات من القرن السادس كتبها عالم لغوي اسمه « لكتانتايوس پلاكيدوس » تحوى ملخصات نثرية لبعض الأساطير التي ذكرها أوفيد ، وأغلب الظن أن هذه الملخصات كانت تدريبات لغوية مدرسية لطلاب اللغة اللاتينية . وفي عصر الامبراطور شارلمان قرّظه « ثيودولفوس » أسقف أورليان – وكان من أهم رعاية التعليم في بلاط الأمبراطور – تقريظاً معجباً ، هذا إلى أنه ذكره بين كتّاب اللغة اللاتينية الذين ألف قراءة ما يكتبون طوال حياته . ثم أضاف قولاً له شأنه ، هو أن مطالعة كُتب أوفيد لا شك تفيد القارئ لأن ما يليق منها يتضمّن حقائق عميقة كامنة وراء قناع الخيال .

ومع ذلك كان فرجيل هو الشاعر الأشهر ، ولم يرق أوفيد إلى درجته ليحلّ محله في كافة أنحاء أوروبا إلا مع بدء العصور الوسطى . وكان ذلك التطور طبيعياً بالنسبة لعصر مولع بقصص الخيال والمغامرات . ويبدو أن شعره الغزلي قد اجتذب جمهوراً كبيراً ، فعنّه شعراء « الجوليارد » وهم الطلاب الرّحل ناظمو

الشعر الماخن راعهم . وما لا شك فيه أيضاً أن شعراء التروبادور والمينيزنجر قد وجدوا في أعماله ينبوعاً ثراً للإلهامهم أشعارهم .

وقد ورد اسم أوفيد في القرن الحادى عشر ضمن قوائم كتب المطالعة المدرسية في مدن ألمانيا . كذلك ظهر اسمه في فرنسا خلال القرن الثانى عشر ، فوضع « ألكسندر نيكام » أستاذ الآداب بجامعة باريس وأكسفورد كتاب « مسخ الكائنات » لأفيد ضمن الكتب المقررة في منهجه الدراسى . وقد سمي البعض القرنين الثانى عشر والثالث عشر « بالعصر الأوفيدى » Aetas Ovidiana ، إذ ظهرت ترجمة ألمانية لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت في فجر القرن الثالث عشر إلا أنها لم تصل إلينا . كذلك كان لهذا الكتاب تأثير كبير في إسبانيا خاصة في « ملحمة الإسكندر » Libro de Alexandre الشهيرة في أواخر القرن الثالث عشر . وفي فرنسا ترجم « كرتيان دى تروا » أول شاعر فرنسى جدير بالذكر إبان القرن الثالث عشر أجزاء من كتاب مسخ الكائنات ، كما نسبت إليه معالجة موسعة لأسطورة فيلوميلا عنوانها « فيلومينا » . وثمة معالجات بالشعر الفرنسى القديم ترجع إلى نفس العصر لأسطورة نارسيوس وأسطورة بيراموس وثيريزى ، والثابت أن أوفيد هو أول من دَوّن الأسطورة الأخيرة للآداب اللاحقة على عصره .

وكذا نتبين لكتاب مسخ الكائنات في المنظومة المشهورة المسماة « قصة الوردة » Roman de la Rose وهى من روائع الأدب الفرنسى القديم التى يتجلى فيها تأثير أوفيد الغزلى . وهناك أيضاً قصيدة بلغة بروفانس في القرن الثالث عشر عدداً من القصص التى ينبغى على كل شاعر أن يتعرف عليها ، منها قصص كثيرة لم ترد في غير كتاب مسخ الكائنات ، وفي الوقت نفسه تقريباً حدث تحول غريب لكتاب مسخ الكائنات نفسه ، فلكى تتاح للقارئ فرصة الاطلاع على الكتاب دون المساس بقيمه الأخلاقية جُمعت بعض نصوصه مع تفسيرات رمزية مسهبة لمغزى الأساطير تربط كلما أمكن بين حكايات أوفيد وقصص الكتاب المقدس ! حتى لقد استُغلت قصة الخلق والطوفان على سبيل المثال استغلالاً دينياً وأخلاقياً بارعاً . بل لقد ذهب بعض الكتاب إلى أبعد من ذلك فاستخلصوا من الأساطير عبراً لو وصلت إلى علم أوفيد لأصيب بالدهشة والعجب . وثمة نص فرنسى قديم من أوائل القرن الرابع عشر فيه تأويل رمزى لما جاء على لسان أوفيد Ovid Moralise فإذا هو يربط قصة الطوفان التى جاءت في التوراة بنظيرتها في « مسخ الكائنات » ويجعل من حديث أوفيد ما يدل على أن الطوفان عنده لا يُراد به غير طوفان الخطيئة التى يغرق فيها الأثمون ، كما ذهب إلى أن مُراد أوفيد بالأفعوان ييثون هو الشيطان ، وأن مراده بأبوللو الذى قضى عليه هو المسيح ، واحتملت أسطورة أبوللو وادفى ما لا يقل عن خمسة تفسيرات رمزية مختلفة . وثمة أيضاً كتاب إيطالى لمؤلف مجهول من القرن الرابع عشر يحاول أن يفسّر فيه بعض الأساطير تفسيرات لا أساس لها ، فوصف أكتايون بأنه صياد يذهب إلى أن الصيّد لون من ألوان الجنون ولذا هجر الصيّد ، غير أنه رحمة بكلاب الصيّد احتفظ بهم ، فإذا هذه الكلاب تكثر عليه بمطالبها الشرهة ، وإذا هو يعجز عن الاستجابة لها فتجتمع عليه وتنهشه . وقد شاع هذا النوع المؤوّل من التفاسير شيوعاً كبيراً وقتذاك .

وفي القرن الثالث عشر تُرجم كتاب مسخ الكائنات إلى اللغة اليونانية ، وهي اللغة الأصلية لأغلب هذه الأساطير ، وبقيت هذه الترجمة الهامة التي قام بها الراهب البيزنطي « بلانوديس » حتى يومنا مرجعاً أساسياً في تحقيق الأعلام الجغرافية .

وفي إيطاليا نفسها جاءت ملحمة دانتي العظيمة عامرة بالإشارة الدالة على مدى إلمامه بمؤلفاته أوفيد وإعجابه بها . ولا شك أن كتاب مسخ الكائنات كان أهم مصدر لدانتي لما جاء في ملحمة عن الأساطير الكلاسيكية ، بل إنه يتحدى أوفيد في أحد مواضع ملحمة بأنه سيبزّه في حقل اختصاصه ، بأن ابتكر نمطا مزدوجاً من التحوّل هو مسخ الإنسان إلى ثعبان ثم تحوّل الثعبان إلى إنسان من جديد . وكان « بوكاتشيو » أيضاً من المولعين بأوفيد ، ففي قصيدته الطويلة « الرؤيا العاشقة » *Amorosa Visione* يعيد سرد قصص كثيرة من قصص أوفيد ومن بينها الأسطورة الشهيرة لپيراموس وثيزبي .

وإن لم يكن كتاب ديكاميون « الأيام العشرة » لبوكاتشيو قد أخذ عن أوفيد مباشرة فهو في إطاره العام يوحى بأسطورة من أساطير أوفيد ، فقصص ديكاميون هي مسامرات لبعض الأشراف للتخفّف من ملل حياة الريف بعد أن هربوا من طاعون كان يعمّ المدينة ، مما يذكّرنا بأسطورة بنات مينياس في كتاب مسخ الكائنات اللاتي أخذن يتسامرن على حين كانت سائر النساء قد اختلفن إلى مهرجان باكخوس .

وكان أوفيد حاضراً في أذهان الأدباء الإنجليز أيضاً منذ القرن الثاني عشر ، فذكره المؤرخ « وولتر ماب » ، غير أن « تشوسر » في القرن الرابع عشر هو الذي تأثر تأثراً كبيراً بشاعرنا الروماني ، وأغلب الظن أنه قد تعلق بأوفيد أثناء وجوده في فرنسا . ففي قصيدته الطويلة « دار الشهرة » *The Hous of Fame* كرّس أحد أعمدة الدار لأوفيد « أديب فينوس » . ولا شك أن لشعر أوفيد الغزلي تأثيراً كبيراً على كتابات تشوسر إلى جانب شعره القصصي ، ففي « أسطورة الفاضلات » *The Legend of good Women* نجد قصة لپيراموس وثيزبي شديدة الصلة بالأصل الأوفيدي ، كما نتيّن أيضاً بعض القصص الأخرى المستمدة من كتاب مسخ الكائنات . ولا شك أيضاً أن أروع ما كتبه تشوسر وهو « قصص كانتربري » *Canterbury Tales*^(٤) كان متأثراً فيها إلى حد بعيد بأوفيد . وفي الوقت نفسه روى الشاعر جاوار بعض أساطير أوفيد في منظومته الكبرى « اعتراف عاشق » *Confessio Amantis* .

وما لا شك فيه أن شهرة أوفيد بلغت ذروتها فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر . ومع ذلك فقد استمر عالماً بأذهان القراء حتى بعد ذلك العصر باعتباره من أشهر كتاب العصر الكلاسيكي ، إذ أخذت ترجمات كتاب مسخ الكائنات تكثر شيئاً فشيئاً في لغات أوربية مختلفة على الرغم مما شاع في بعض هذه الترجمات من خروج على النصّ وتأويلات رمزية خلقية ، فظهرت ترجمات عدة في القرن السادس عشر بالإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والفرنسية . والمعروف أن الشاعر الإيطالي « أريوستو » كان مولعاً

(٤) انظر « حكايات كانتربري » ، لتشوسر : ترجمة د. مجدى وهبه ود. عبد الحميد يونس . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

بأوفيد وينسج في شعره على منواله ، وأن الفيلسوف الفرنسي « مونتيني » قد اعترف بأنه التهم كتاب مسخ الكائنات من قبل أن يلتحق بالمدرسة . وظهر تأثير قصص أوفيد واضحاً في كتابات « ثيرفانيز » ، وبصفة خاصة في مسرحيات الكتّاب المسرحيين الإسبان في القرن السابع عشر . وقد ترجم الشاعر الفرنسي لافونتين بعض أساطير أوفيد في كتابه « القصص » ، بل استخدم أسطورتين من كتاب مسخ الكائنات في مراثيه عن أدونيس . وكانت أول أوبرا ظهرت في العالم والتي قدمت في فلورنسا عام ١٥٩٤ هي « دافني » المشتقة من أسطورة بنفس الاسم في كتاب مسخ الكائنات .

وترجم كتاب مسخ الكائنات في إنجلترا خلال القرن الخامس عشر وطبعه وليام كاكستون عام ١٤٨٠ على أول مطبعة صنعت في إنجلترا . أما أول ترجمة هامة لهذا الكتاب فهي ترجمة آرثر جولدنج التي نُشرت عام ١٥٦٧ . وكان شعر أوفيد يُقرأ إما كاملاً أو كمنتخبات شعرية في كافة مدارس إنجلترا حتى قبل ترجمة جولدنج .

واقبس « إدموند سپنسر » الكثير من كتاب مسخ الكائنات في ملحمة « ملكة الجان » The Faerie Queene . أما شكسبير فأغلب الظن أنه قرأ بعض أوفيد في الأصل اللاتيني غير أنه من المؤكد أنه قرأ ترجمة جولدنج كاملة . وذهب ناقد معاصر له يدعى فرانسيس ميرز إلى « أن نفس أوفيد العذبة الذكية مازالت حية عند شكسبير ذى اللسان المعسول » ، وأغلب الظن أنه كان يشير إلى روح أوفيد أكثر مما يشير إلى موضوعات مؤلفاته . ومع ذلك فثمة مواضع في أعمال شكسبير تدل على التأثير المباشر بموضوعات أوفيد . وقد تكون أشهر الأمثلة ذلك التقليد الساخر لقصة بيراموس وثيزيوس التي أدخلها شكسبير في مسرحيته « حلم ليلة منتصف الصيف » . وثمة مثل آخر في مسرحيته « العاصفة » حيث نتيين أن دعوات بروسبيرو لأرواح الجان شديدة القرب من تعاويذ ميديا في الكتاب السابع من مسخ الكائنات ، وتحكى أول قصيدة كتبها شكسبير وهي « فينوس وأدونيس » حكاية واردة عند أوفيد .

ومع أن شعر ميلتون كان أقرب ما يكون إلى شعر فيرجيل أسلوباً غير أنه أولع بكتاب مسخ الكائنات ولعاً شديداً ، حتى لقد كتب بعض الأشعار باللغة اللاتينية يُذيل بها مجموعة من الصور المطبوعة على لوحات محفورة تمثل بعض مواقف كتاب مسخ الكائنات .

وظهرت في عام ١٦٢٦ ترجمة ثانية مشهورة لكتاب مسخ الكائنات « لجورج ساندز » بعنوان طويل هو « مسخ الكائنات لأوفيد مترجمة إلى الإنجليزية ومعالجة علاجاً أسطورياً ومزودة بصور تفسيرية » . وفي أواخر القرن السابع عشر ترجم الشاعر الإنجليزي « جون درايدن » أجزاء كثيرة من مسخ الكائنات وكان الجزء الخامس عشر يُعد أرفعها شأنًا ، ونشر هذه الترجمات إلى جانب ترجماته الشعرية لقصص من هوميروس وتشوهر وبوكاتشيو تحت عنوان « حكايات قديمة وجديدة » .

وفي القرن الثامن عشر كان الإلمام بكتاب مسخ الكائنات لأوفيد جزءاً من تربية كل مثقف . وكان كتاب ذلك العصر كثيراً ما يترجمونه إلى الشعر الإنجليزي ، وذكر « ألكسندر بوب » أنه ترجم أكثر من رُبُع

كتاب مسخ الكائنات كممارسة أدبية ولكنه لم يُعدّ للنشر إلا مقطوعتين هما قصة « دريوي » وقصة « پومونا وفيرتوموس ». وبعد القرن الثامن عشر أخذت شهرة أوفيد في الازمحلل ، فلم يتحمس له شعراء العصر الرومانسي ولو أن استلهامه واضح بعض الشيء في شعر كيتس وشيلي وبايرون وبراوننج .

٦

ولذا كان لعبقرية أوفيد التصويرية في شعره أثر كبير في آداب أوربا الغربية منذ فجر العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر فلا شك أنه كان لشعره أيضاً الأثر نفسه في الفنون التشكيلية . وكانت موضوعات الفن التشكيلي في أوربا الغربية منذ أوائل العصور الوسطى تختلف بين اثنين : قصص الكتاب المقدس من ناحية مع الاهتمام خاصة بحياة المسيح وموته ، ومشاهد الحياة اليومية المعاصرة من ناحية أخرى . كذلك اختلطت التصاوير الذاتية التي بدأت تظهر في ذلك الحين لرعاة الفنون من الحكام والأثرياء بتصوير الموضوعات المقدسة أو بتصوير الحياة اليومية .

وقد شهد بدء عصر النهضة في إيطاليا مصدراً جديداً للفن هو العنصر القصصي في شعر أوفيد الذي غدا موضوعاً جديداً يُصوّر بجانب الموضوعات الدينية والاجتماعية ، وذلك بعد أن تحوّل رجال الكنيسة عن تحريمهم الأول لموضوعات أوفيد لما تحويه من زندقة ودينونة بالحسنة . وقد سائر هذا الاتجاه الجديد في الفن نهضة العلوم والآداب الإغريقية واللاتينية القديمة المعروفة بـ « المذهب الإنساني » والتي تُعدّ عند كثير من المؤرخين الأساس الفكري والدوّقي لما يسمى بعصر النهضة في أوروبا .

وكان « لمسخ الكائنات » بطبيعة الحال أثر كبير في تزويد خيال الفنانين بموضوعات شتى تتجاوز نطاق ما ألفوه من قبل ، وخاصة أن تعدّد الترجمات لهذا الكتاب قد ساعد على ذبوعه بين العامة والخاصة على السواء ، فضلاً عن أنه بالنسبة للدارسين والمثقفين كانت اللغة اللاتينية أكثر شيوعاً من اليونانية ، وهو ما أفسح المجال أمام قرائه . كما أن وجود الأساطير مجتمعة في كتاب واحد قد أعان كثيراً على استيعابها في سهولة ويسر .

وعلى سبيل المثال نستطيع القول بأن أسطورة « بيرسيوس » وانتصاره على الجورجونة ميدوسا قد كُتبت لها الحياة في خيال العصور التالية لعصر النهضة في تمثال برونزي « لبشنتوتو تشلّيني » ، وأن أسطورة مسخ « دافني » شجرة غار قد كُتبت لها الحياة هي الأخرى في تمثال « برنيني » المرمري ، وأن الأسطورة المشهورة لاختطاف « أوروبا » لا تتصوّرها إلا من خلال لوحات « بؤلُو فيرونيزي » و « كورجيو » و « بيرو دي كوزيمو » . أما قصة مغازلة « فيروتوموس لپومونا » فقد أصبحت ترتبط في أذهان الناس بتصويرها في النسيجيات المرسمة التي أنتجتها مناسج بروكسل في القرن السادس عشر .

ومن أدلة ذبوع كتاب « مسخ الكائنات » ما قاله أحد نقاد الفن واسمه كارلوريدلفى فى كتاب له عن فنون عصره سماه « روائع الفن » (١٦٤٨) من أن فنانى عصره باتوا لا يستطيعون العثور على مصدر أكثر إثارة لخيالهم من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد لا لأنه موسوعة أساطير قديمة فحسب ، بل لأن أوفيد فى شعره الواصف يهْدِي الفنان إلى الطريقة المثلى لتصوير الموضوع من خلال دقة تجسيده اللفظى لمواقف الأساطير المختلفة .

ولا مجال هنا لأن أستطرد فى اختيار نماذج التصوير أو النحت التى استوحاها أعلام الفنانين على مسرى السنين من كتاب « مسخ الكائنات » وإلا لاقتضى ذلك مجلداً بأكمله ، ولذلك فقد اجتزأت بانتقاء أهم هذه الأعمال وجمعتها فى دليل ألحقته بهذه الترجمة^(٥) . وأغرانى هذا البحث عن تأثير الفنانين التشكيليين بأعمال أوفيد على أن أضيف دليلاً آخر يضم أسماء المعزوفات الموسيقية والغنائية والراقصة التى استوحاها مؤلفوها من المصدر نفسه^(٦) .

يقول كنيث كلارك فى كتابه « المناظر البرية تتحول إلى فن » : هناك شاعران فحسب من العصر القديم هما أوفيد وفرجيل اللذان ملاً مخيلة الفنانين فى عصر النهضة . وعلى حين كان أوفيد أحب الشعراء إلى مصوّرى الشخصوس لما فى شعره من وصف واضح وتفصيلى للقصص الخرافية كان فرجيل هو مصدر الوحى لمصوّرى المناظر البرية .

ويقول إروين بانوفسكى فى كتابه : [مشاكل إيقونوغرافية متعلقة بتتسيانو] : « كلما أراد تتسيانو أن يقصّ حكاية حقيقية كان يستوحاها من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد باستثناء موضوع لوكرتسيا الذى كثيراً ما اجتذبه ، إذ أنه كان قليل الاهتمام بالموضوعات الكلاسيكية التى لا تمت إلى الأساطير بصلة » . وحسبنا فى هذا الصدد أن نقدر جَهْدَ أوفيد حقّ قدره الذى بدأت الدراسات الإنسانية الغربية تعنى به منذ حوالى عام ١١٠٠ إلى يومنا هذا . فليس ثمة كاتب كلاسيكى آخر تناول مثل ما تناول هو من موضوعات أسطورية ، وليس ممن كتبوا فى هذا الموضوع من يضارعه فى إقبال الناس على أعماله بالقراءة والترجمة والتفسير والتعليق والتصوير . وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب ، فلم يكن عبثاً أن طُبعت طبعات عديدة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد والتعليقات عليه كما ذكرنا قبل ، وقد تضمّن عنوان أغلب هذه الطباعات عبارة « إنجيل الشعراء » بين الفرنسيين و « إنجيل المصوّرين » بين الألمان .

وكانت صلة تتسيانو بهذا الشاعر الذى « عاش بين عالمين » كما كان يدعى صلة خاصة ، فمما لا شك فيه أنه أحسّ بالوشائج القوية التى تربطه بكاتب يتميز بالعمق وبسرعة البديهة وبالنزعة الحسية فى الوصف ، كما يتميز أيضاً بإيمانه بمأساة خضوع الإنسانية لنواميس القضاء والقدر . وكانت هذه الصلة الروحية هى التى أتاحت لتتسيانو أن يؤوّل نصوص أوفيد تأويلات تجمع إلى الحرفيّة التصرف ، كما كان

(٥) انظر الملحق الأول : دليل المنجزات الفنية التشكيلية المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد .

(٦) انظر الملحق الثانى : دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والراقصة المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد .

يُعنى عناية كبرى بالتفاصيل كأن يُطلق العنان لروح الابتكار تشيع في جوانبه دون كبت . وليس ثمة فنانٌ كبير مثله اهتم بالقصص الأسطورية واعتمد أكثر ما اعتمد هو على أوفيد ، فهو يستطيع من جملة واحدة في النص أن يصورها وقد أودع فيها انطباعات شتى لها شأنها . ومع ذلك فلم يقتصر اقتباسه على نص أوفيد وحده بل كان شأنه شأن غيره من كبار الفنانين يعود إلى مصادر أخرى يستمد منها إلهامه ، باستثناء حالة فريدة استطاع فيها أن يغيّر من دلالة النص تغييراً جوهرياً . فلا عجب إذن إذا كان تيسانو بوصفه مترجماً لأوفيد قد كانت له الحرية المطلقة في استخدام جميع أنواع النماذج المرئية قديمة كانت أم حديثة ، غير متأثر بالتيار التصويرى في هذا المجال الذى ازدهر من حوله في كثير من الطباعات المصوّرة والترجمات والتفسيرات المرفقة لكتاب مسخ الكائنات .

وكننت قد ضمنتُ إلى مقدّمة الطبعة الأولى من هذه الترجمة تسع عشر لوحة للفنان تيسانو تمثل بعض الأساطير التى جاءت بالكتاب ، وكذا مائة وتسع وعشرين تصويراً إيضاحية أبدعها الفنان ب . بيكار يعاونه فنانون آخرون في طبعة قديمة لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت عام ١٧٣٢ بأستردام باللغتين اللاتينية والإنجليزية وتعليق باللغة الفرنسية للأب بانيه ، وقد طُبعت على أصل حجري محفور^(٧) . وهو كتاب من القطع الكبير فيه النص اللاتينى في نهر ، وفي نهر أمامه ترجمة شعرية بالإنجليزية بعضها للشاعر الكبير جون درايدن (١٦٣١ — ١٧٠٠) والبعض الآخر للشاعر الشهير ألكسندر پوپ (١٦٦١ — ١٧٩١) . وقد كانت هذه الصور التى ضمنتها إلى تلك الطبعة من الكثرة بمكان مما زاد في ضخامة هذا الكتاب ورفع سعره فعزّ اقتناؤه على الجماهير ، وهو ما دفعنى إلى أن أستبدل بها في الطبعتين الثانية والثالثة مجموعة أخرى من الصور أقل عدداً وإن كانت لا تقلّ قدراً ، فجاءت في ثلاثين تصويراً خطية نادرة للفنان پابلو پيكاسو رسمها خصيصاً لكتاب « مسخ الكائنات » ، وتفضّلت دار الكتب القومية بباريس فسمحت لى بنقلها عن نسختهم الفريدة ، هذا إلى رسم آخر للفنان نفسه يمثل أسطورة موت أورفيوس بالفصل الحادى عشر .

وكان پيكاسو قد أخذ حوالى عام ١٩٢٣ فى رسم بعض اللوحات المستقلة التى تصوّر رؤوس رجال ونساء تضم معاً وجهين متراكبين أو متجاورين على جسد واحد ، ضارباً صفحاً عن المظهر الحقيقى المرئى للشخص طاملاً أنبنا لا نستطيع أن نرى سوى جانب واحد منها . غير أن پيكاسو الشاعر المتمرد لم يلبث أن

(٧) Lithography الطباعة بواسطة الحجر هى استنساخ اللوحات بعد رسمها بقلم شمعى أسود على سطح الحجر الجيرى الأملس الدقيق الذرات والمسام ، ثم يُغمّر الحجر فى الماء حتى يتشبع به ، مع ملاحظة أن السطح المغطى بالشمع يطرد الماء على حين تمتص المسام الحجرية عن الشمع الماء ، فإذا دارت الأسطوانة المشبعة بالحبر على سطح الحجر استقر الحبر على الأسطح المغطاة بالطبقة الشمعية التى مرّ عليها القلم ، على حين لا يلتصق الحبر بالأجزاء المبلّلة ، حتى إذا تم بسط الورق على الحجر بعد تحبيره والضغط عليه انطبعت الصورة عليه بشكل عكسى بنفس الدقة التى رُسمت بها بالشمع على الحجر . وقد ابتكر هذه الطريقة سويسرى يُدعى سيفلدر سنة ١٧٩٦ فغدّت من أكثر وسائل طبع اللوحات المرسومة إتقاناً [المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية . لورنجان ١٩٩٠ م.م.م.ث.] .

عدل عن هذا الاتجاه ، مُهملاً تصوير الوحدة المظهرية للشيء المرئى إليه ، مهتماً بتصوير مظاهره المتعاقبة ، محققاً بذلك نوعاً من الحركة الزمانية – المكانية للوضعات المختلفة في الفراغ . ثم عاد في عام ١٩٢٧ فهجّر هذا الأسلوب متمسكاً بأهداب التقاليد الفنية ، وخاصة في لوحاته التي استخدم فيها طريقة الحفر الحمضى Eau - Forte على الزنك أو النحاس لطباعتها بعد ذلك على الورق^(٨) ، مضمناً رسومه نماذج لنساء عاريات أو مكتسيات ولشخص تَعَدُّ إرهاباً للأسلوب الموقّق الذي استخدمه في رسومه الثلاثين الخطيّة^(٩) لكتاب « مسخ الكائنات » وغيره من الروائع .

وفي عام ١٩٣١ طبع ألبرت سكيرا في لوزان ثلاثين لوحة من تصاوير بيكاسو مع النص الكامل لكتاب « ميتامورفوزس » في نسخ محدودة هي الآن مبعثرة في جهات مختلفة من أنحاء العالم ، وصفحاتها متنازعة بين المتاحف وبين أيدي الهواة ، وأصبح جمع هذا السّئات اليوم من الصعوبة بمكان . وقد استطعت بعد تدليل مصاعب جَمّة الحصول على مجموعة الصور كاملة نشرتها في الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، وأعيد نشرها هنا في الطبعة الثالثة^(١٠) .

وأغلب الظن أن بيكاسو قد أتم هذه الرسوم دفعة واحدة ، وهي تستمد قوتها وأناقتها – كما يلمس القارئ – من الخطوط المحوّطة^(١١) النابضة بقوة التعبير ، ومن تلقائية الفنان الحيّاشة ، ومن تركيزه الذي كان يقصد فيه إلى الاهتمام بمواضع من الجسد أكثر من غيرها .

وقد أصاب بيكاسو التوفيق في الإفصاح عما أحسّه وتخيّله ، فالرسم – فيما أظن – إذا خلا أحياناً من التحوير كان رسماً جامداً لا ينبض بانفعال أو تعبير . ومن هذا المنطلق شاع الزعم بأن ثمة صلة بين بيكاسو وأنجر مصور القرن التاسع عشر الذي عمد إلى الخروج على الواقعية بخطوطه الأرابيسكية^(١٢) المنحنية النابضة بشهقة أوتار الكمان حين تعلو على أنغام جوقة الأوركستر ، فأضاف فقرات إلى العمود

(٨) Etching الطباعة بطريقة الحفر بالإبرة (الخربشة) على سطح معدني . هي نوع من أنواع حفر الرسوم على صفحات معدنية من الزنك أو النحاس بعد تغطيتها بطبقة شمعية أو برنيقية تشقّها أداة الحفر ، وهي سن مدببة رفيعة . ثم تغمر الصفحة بطناً لوجه في الحامض الذي يتخلّل الخدوش فينفذ إلى السطح المعدني ليغور في مواضع تلك الأخاديد . وينزع الفنان الطبقة الشمعية ويغسل الصفحة لإزالة آثار الأحماض ، ثم تُمرّر الأسطوانة المشبّعة بالحبر على الصفحة المعدنية حتى تمتلئ الفجوات الغائرة بالحبر الذي يبقى فيها . وبعدها يُحَقِّف السطح الخارجى ، وبهذا تصبح الصفحة صالحة للطباعة فتوضع في المكبس لتنطبع الأخاديد المشبّعة بالأحبار على سطح الورقة [م.م.م.ث.] .

(٩) Linear التشكيل الذي يعتمد في تأثيره على المشاهد على الأشكال المكونة بالخطوط أكثر من اعتماده على الكتل اللونية والتظليل [م.م.م.ث.] .

(١٠) ظهرت هذه اللوحات في طبعة سكيرا في غير أماكنها من فصول الكتاب ، ولقد حاولت جهدى أن أضعها في أماكنها الحقّة من فصول الكتاب في هذه الطبعة مستعيناً بالنص .

(١١) Outlines أو الحواف المحوّطة أو الحدود الخارجية ، وهي ما يحيط بجسم أو مساحة ما من حدود تكون فاصلة بين أى منها وبين الفراغ رسماً وتصويراً سواء أكانت فواصل خطيّة أو فوارق لونية [م.م.م.ث.] .

(١٢) Arabesque الخط الرشيق المتأوّد المتسق المنغم [م.م.م.ث.] .

الفقرى وأسبغ انتفاخاً على العنق ، كما هى الحال فى لوحة « المحظية » المشهورة بمتحف اللوفر ولوحة « إيفيجينيا وثيتيس » بمتحف إكس ، وهكذا انتصر الخط المنعم « الأرايسك » وانحنت الواقعية أمامه مستسلمة . فأنجر لم يبال بأى تحريف تشريحي حتى يتيح لخطوطه البروز بكمالها كله للتعبير عن خط متناغم لا يعنى بمطابقتها للواقع ، فكان قصاره أن يحفظ لهذا الخط المحوط تأثيره النوراني ، وجاء من بعده بيكاسو فاستعار هذا الخط النوراني فى رسومه كافة . ولا ندرى أكان أشد تمسكاً بإبراز طرافة المشهد بتسجيل جوهره المحرك للعواطف ، أم أنه استوحى الفن الإغريقى فى تمسكه بإظهار جمال الجسد ورفضه التعبير عن التفاصيل التى قد تهون من شأنه ؟

على هذا النحو استطاع بيكاسو بمهارة أن يقدم لنا المثالية الإغريقية بلغة عصرية . ويتجلى لنا هذا الجهد فى هذا الإنسجام الذى بلغ أقصاه وكذا جمال الخط فى لوحة « يورديكى » بعد أن لدغت الأفعى كاحلها [الكتاب العاشر] ، فقد كان هذا المضمون كفيلاً بأن يثير فى الصورة الجزع والهلع ، غير أننا لا نرى فى التصويرية غير جسد بديع يتهاوى فى رفق يُحدّده خطٌ منحني لطيف يفيض حسية زائراً بعطف تابعاتها وهن يُهرعن إلى حملها وامتنصاص السم من موضع اللدغة . ويخلو الرسم مما يشير إلى أن ثمة انزعاجاً ما باستثناء تلميح جاءت غاية فى البساطة لامرأة تستدير بجسدها طلباً للنجدة .

وثمة عناصر فى هذه التصاویر تشترك كلها فى الإيحاء بقلة أكتراث الفنان بما يمس دخيلة نفوس الشخص المصوّرة ، كالوجه التى يغشاها السكون والدعة ، ومجموعات النساء والرجال التى تضمّ - فيما تضمّ - الرواة والمستمعين . وهو ما يدفعنى إلى مناشدة القارئ ألاّ يعبأ كثيراً بخروج بيكاسو على النص منساقاً وراء استقلاليتة فى رؤيته الفنية الذاتية . ويصل بيكاسو قمة البلاغة الخطية فى لوحة مطلع الكتاب الرابع عشر حيث يصور ردّفى أنثى فيما لا يجاوز أقواساً أربع تحوى كل ما يمكن أن تنطلق به مشاعر الإنسان الغريزية أمام هذه المتعة المشتهاة .

ويستعين الفنان لما يثراء الملابس ببعض الوحدات الزخرفية البسيطة أو الخطوط المستقيمة ، أو بالإيحاء باستخدام درجات الضوء الثلاثة ، كما هى الحال فى لوحة مطلع الكتاب التاسع ، حيث يعبر عن الضوء والغبش والعتمة بالخطوط الطولية تارة وبالشبكة تارة أخرى .

غير أن كافة الرسوم تجلونا ثقة الفنان بنفسه وتَشَبُّعه بالإحساس بالموضوع المصوّر ، وعدم التردد فى إسقاط الخطوط على اللوحة ، وتعّمده تجنّب استخدام الظلال ، مانحاً التفرد بالبطولة للخط فى التعبير ، مما يُكسب اللوحات شفافية أثرية تربطنا بأساطير الماضى . وبالرغم من السكينة التى يوحى بها الخط إلا أنه فى تحوّه يُعرب عما يعتلج فى نفوسنا من أجاسيس دفينه .

وكلمة « ميتامورفوزس » التي هي عنوان الكتاب تعنى حرفيا الانتقال من حال إلى حال لا يُشترط فيها حال دنيا ولا حال عليا . وإذ كان الكتاب كله تحوّل من مرتبة عليا إلى مرتبة دنيا غير حالات أربعة : هي تحوّل رومولوس وأينياس مؤسسى روما إلى الألوهية ، وهذا ضرب من إضفاء الهيبة على الدولة بتمجيد زعمائها الأسطوريين ، ثم حالتا تأليه يوليوس قيصر وابنه بالتبني قيصر أوغسطس ، وكان ذلك فيما يبدو لي نوعاً من التملق للامبراطور ولم يجر مع الأسلوب الذى ألف المؤلف الكتاب من أجله أو مع مساق سائر حديثه . من أجل هذا حين آثرت أن أسمى الكتاب « مسخ الكائنات » لا تحوّلها أو انتقالها غير ملتزم في ذلك بما جرى عليه من ترجم هذه الكلمة ، جنحتُ إلى ما عليه الغالب من أساطير الكتاب من التحوّل من الحالة العليا إلى الحالة الدنيا ، ثم مسترشداً بما جاء في القرآن الكريم من استخدام هذه الكلمة التى توحى بأن المسخ كان من أعلى إلى أدنى . يقول الحق : « ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ﴿ يس ٦٧ ﴾ » . ومن هذا كله أجدنى لم أحد في ترجمتى لهذا العنوان حين جعلته المسخ لا التحوّل ولا الانتقال ، وغاية ما فعلت أنى استوحيت الترجمة من معنى الأساطير الواردة في الكتاب ولم أقف جامداً عند حرفية اللفظ .

كذلك يرى أصحاب التناسخ أن « النسخ » هو نقل الروح إلى جسم أرفع ، و « المسخ » هو نقل الروح إلى ذوات الأربع ، و « الفسخ » هو نقل الروح إلى الحشرات ، و « الرسخ » هو نقل الروح إلى النبات والجماد^(١٣) .

وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء المعرى^(١٤) فى التناسخ :

تَعَوِّذُ بِالْإِلَهِ مِنَ الْمَسْخِ وَسَلُّهُ أَنْ تَكُونَ مِنَ النَّسْخِ
لَقَدْ خَابَ امْرُؤٌ يُنْسَى وَيُضْحَى يُنْقَلُ فِي فُسُوحٍ أَوْ رَسْخِ

* * * *

وترجمتى هذه تعتمد على الترجمة الإنجليزية للنص التى قام بها الأستاذ « ميلر » فى مجموعة « لوب » الكلاسيكية التى ظهرت باللغتين اللاتينية والإنجليزية وصدرت فى مجلدين ، ثم على ترجمة إنجليزية ظهرت

(١٣) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٤ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .

(١٤) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٥ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .

في مجموعة پنجون للسيدة « ماري إينيس » فيها شيء من التصرف ، إذ ثمة فقرات جاءت نثراً مسروداً مبسّطاً وهي في الأصل فقرات خطائية . كذلك اعتمدت على ترجمة فرنسية حرفية للأستاذ « شامونار » ظهرت في مجموعة الإخوان جازنييه لترجمات روائع الأديين اللاتيني واليوناني ، في مجلدين باللغة اللاتينية والفرنسية في صفحات متقابلة . واستعنت بالمثل بترجمة فرنسية أخرى للأستاذ جورج لافاظ في سلسلة « مجموعة جامعات فرنسا » نشرت بباريس عام ١٩٢٨ في ثلاثة مجلدات . وقد آثرت الاحتفاظ بأسماء الآلهة كما وردت في النص الأوفيدى ، وهي الأسماء اللاتينية ، مضيفاً إلى أهمها بين قوسين مقابلها اليوناني .

وكانت الرغبة التي استأثرت بوجداني طوال صياغتي لهذه الترجمة هي أن أقدم نصّاً يتميز إلى جانب أمانته بالنسبة لفكر المؤلف بالبساطة والوضوح اللذين يجتذبان القارئ ويشيعان في نفسه الإحساس بالمتعة التي يجدها قارئ النص الأصلي في لغته اللاتينية . وقد واجهتني خلال هذه المهمة عقبتان : كانت أولاهما هي ازدحام النص بأسلوب الالتفات ، وهو الانتقال المفاجيء من صيغة المتكلم أو الغائب إلى صيغة الخطاب أو عكس ذلك ، وهو أسلوب لا يشيع في العربية بقدر ما يشيع في الشعر الملحمي اللاتيني . وقد حاولت قدر جهدي أن أقلّل هذه الانتقالات حيث يصعب فهمها أو تكون مصدراً للبلبله القارئ . وكانت ثانيتهما إفراط المؤلف في الاستشهاد بأسماء الآلهة وأبطال الأساطير اليونانية والرومانية التي كانت معروفة أيامها للقارئ العادي في حين أنها لا تعطى نفس إيجاءاتها ودلالاتها للقارئ العربي المعاصر الذي لم تتح له قراءة معمّقة في الكلاسيكيات والأساطير القديمة . ومع أني قد أضفت في نهاية كل فصل تعقيبات وشروحات تناولت عدداً كبيراً من أسماء الآلهة والأبطال وشيئاً لهم إلا أنني سمحت لنفسي أن أقحم هنا وهناك عبارة مفسّرة قصيرة وراء بعد الأسماء أو الأماكن أو الأحداث حتى لا أقطع على القارئ متعته حين يجد نفسه مضطراً لتقليب الصفحات والبحث بين التعقيبات عن تفسيرات لما يقرؤه . ولعلّي أكون بذلك قد أعنت القارئ غير المتخصّص على مواصلة المطالعة الميسّرة ، دون أن أكون قد أثقلت القارئ المتخصّص بوقفات هو في غير حاجة إلى التريث عندها .

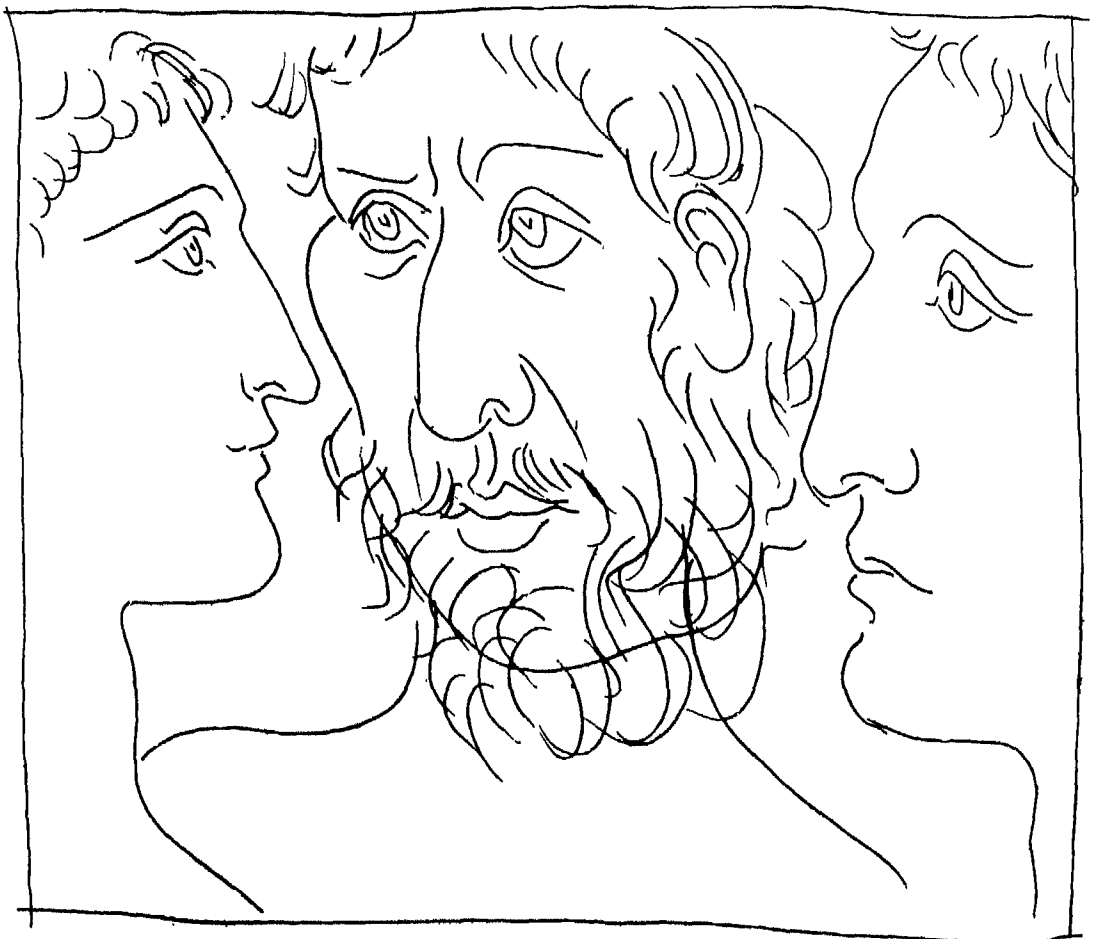
وقد قام الأستاذ الدكتور مجدى وهبه بجهد العالم المدقق الأمين مشكوراً بمقابلة النص اللاتيني لضبط الترجمة وهو النص المطبوع في مجموعة « جيوم بوديه » بباريس ١٩٢٨ والمأخوذة عن المخطوطة الشهيرة « ماريانوس ٢٢٥ » المحفوظة بمكتبة « لاورنتيانا » بفلورنسا ، كما رجعت في حالات اللبس إلى الطبعة التي حققها الأستاذ « ميركل » في لايبزج ، وهي الطبعة الثانية عام ١٨٧٥ .

وحين فكرت في طبع الكتاب طبعة ثانية رأيت ألا ألزم بالصياغة الأولى ، فأحوّرها بعض التحوير ولا أساير النص بحرفيته كما فعلت أولاً بل أنفذ إلى روحه ، فهذا أجدى للقارئ العربي الذي سيجد أنه ليس ثمة خروج عن روح النص لا بقليل أو كثير ، وكما فعلت مع الطبعة الثانية فعلت مزيداً في الطبعة

الثالثة . وبعد أن راجعها الأستاذ الدكتور مجدى وهبه استأنست بالأستاذ الدكتور أحمد عثمان الذى له هو الآخر ضلوعته فى اللغة اللاتينية حرصاً منى على أن أكون كما قلت قبلُ مسيراً للنص بشاعريته . وكم أسعدنى أنه رآنى على الجادة لم أنحرف قيد أنملة ، فله منى جزيل الشكر .

ثروت عكاشة

فولياغمينى فى ١٧ يوليه ١٩٩١



بيكاسو

الكتاب الأول

ها أنذا آخذُ في الحديث عن تحوّل لكائناتٍ كانت على صورة ثم إذا هي صُورٌ أخرى . وإنّي أبتهلُ إليكم أيتها الألهة – وإليكم زمام ما يجري في الكون من تحولات – العون على بلوغ مقصدي بوحى من إلهامكم أقوى به على أن أنسجَ في قصيدي هذا خيطاً من الشّعْر لا ينقطع ، تنتظم بين طرفيه أحداث الكون منذ بدء الخليقة حتى عصرنا القائم .

أصل العالم

قبل أن تكون أرضٌ ، وقبل أن تكون بحارٌ ، وقبل أن تكون سماءٌ تُظَلّ هذا الكون أجمع ، كان ثمة عماء يلفّ العالم كله بردائه ولا يستين منه غير شكل واحد لا سواه . فكان كتلة مضطربة لا شكل لها ، جماداً لا حياة فيها ، أو جملة من بذور مختلفة لعناصر الأشياء ، ليس ثمة بينها صلة ولا رابطة . ولم تكن ثمة

شمس « تيتان » يفيض نورها على العالم ، كما لم يكن ثمة قمر « فُيبي » له مع كل يوم وجه جديد ، يكمل ثم يعود ناقصاً كما بدأ . ولم تكن الأرض بعدُ قد ضمَّها الفضاء تنهادى فيه بثقلها ، كما لم تكن المياه « أمفرتي » قد بسطت ذراعيها على شطآن البرّ ، فلقد كانت الأرض والبحر والفضاء كلها ممتزجة لا انفصام بينها . وكانت الأرض تُعوّزها الصَّلابة والبحر تُعوّزه السيولة ، كما كان الفضاء في عَوَزٍ إلى الأضواء . لم يكن ثمة شيء له شكل مميّز ، وكانت هذه العناصر رغم اختلافها لا تنافر بينها . ثم إنَّها مع كونها كتلة واحدة كان ثمة صراع بين الحرارة والبرودة ، وبين الوَمد والجفاف ، وبين الليونة واليُبس ، وبين الخفة والثقل . وكان لابد لهذا الصراع من حاسم ، فتجلّى الإله — أو الطبيعة الأكثر طواعية — كى يفصل بين الشيء ونقيضه ، ففصل ما بين السماء والأرض ، وما بين الأرض والماء ، وخلّص الهواء الكثيف من الأثير الشَّفيف .

٢٠

وما إن تم له فصل هذا كله وخلّصه من فوضى الكتلة حتى غرس الوثام والسلام بين هذه العناصر فخصَّ كلاً بمكانه المميّز ، فإذا اللهب المتأجج المهدوم الوزن يحتل قبة السماء ويتلألأ في ذروة بناء العالم ، وإذا الهواء الذى يضارع اللهب المتأجج خفةً يحتل مكاناً إلى جواره ، وإذا الأرض وهى أكثف منها معاً تشدّ إليها العناصر المتماسكة فتتراكم بعضها فوق بعض ، وإذا الماء الذى كان يحيط بكل شيء يحتلّ ما خلا في الوجود ويلفّ تلك الكتلة الصلبة الأسطوانية .

وما إن فرغ الإله — أى إله كان — من هذا التقسيم والتنسيق لتلك الكتلة المتراكمة التى لم تكن على شكل ما ، حتى أخذ يجمع بين هذه الأجزاء المختلفة في تماسك كى يجنّب الأرض أن يختل أى قطر منها ، من أجل ذلك سوّاها كروية ضخمة . وكان أن امتدت مياه البحر بفعل أنفاس الريح الهوجاء ، فإذا هى تُمنطق الأرض . ولكى يبلغ الأمر مداه فجّر الينابيع وأفاض المستنقعات التى لا حصر لها ، وشقّ البحيرات ، وجس الأنهار بين ضفافها كما ورّعها على سطح الأرض . فمنها ما يُفضى إلى بحر فتختلط مياهها بمياهه وتفنّى في ذاك الخضمّ ، ثم تعود نائرة فترتطم بالبرّ ، ومنها ما لا ينتهى إلى بحر وتبتلعه الأرض في جوفها . كما بسط السهول وخدّد الوديان ، وجعل الغابات تُنوع بأوراق الأشجار الوارفة ، ورفع قنن الجبال الصخرية . وإذا كان قد قسّم السماء مناطق : اثنتين إلى اليمين واثنتين إلى اليسار ، وبين هاتين وهاتين خامسة أشدّ حرارة ، كذلك قسّم الأرض التى تُظللها السماء مناطق بأمره تتناسب مع مناطق السماء عدّاً ، فالوسطى لا حياة فيها لشدة قيظها ، وغطّت الثلوج منطقتين من هذه المناطق ، وبقيت الوسطيان بين هذين الطرفين تستمتعان بمناخ بين البرودة والحرارة^(١) .

٤٠

وفوق هذا كله خلّق الهواء بما رزق من خفة لم تُرزقها الأرض والمياه بثقلها ، وكانت خفة الهواء دون خفة النار . وأقرّ هذا الإله الضباب والسحاب مقرّهما في الهواء ، كما جعل للرعد مقرّاً ، هذا الرعد الذى يثير الخوف في أفئدة البشر . وكذلك جعل للرياح مقرّها ، تلك الرياح التى تتحد مع الصواعق فينفذ من خللها البرق . غير أن هذا الإله مهندس الكون — حرصاً على بقاء العالم — لم يترك تلك الرياح تجرى على

أعنتها تهب من حيث تشاء وكيف تشاء بل جعل لكل ريج مهابها ، على الرغم من أنها إلى اليوم عصية على أن تخضع لنظام في مهابها ، إذ أن ثمة تنافر شديد بين الرياح الإخوة : فريح « إيوروس » تهب من مناطق ربة الفجر ومملكة النبط في بلاد الفرس ومن سلاسل الجبال التي تكلّل أشعة الفجر قممها . وريح النسيم « زفيروس » تهب من مكان نجمة الليل والشيطان التي تشع عليها الشمس في غروبها فتخلّفها دافئة . أما ٦٠ .
الرياح اللافة « بورياس » فتهب من بلاد السكوثيين [السكيثيين] وشتى نواحي الشمال . وريح « أوستير » على غير مهاب الرياح كلها وتجلب إلى الأرض سُحباً لا تفتأ ممطرة في غزارة . ثم خلق الإله الأثير الذي لا وزن له ولا تعلق به شائبة من شوائب الأرض . وما كاد يفصل بين هذه العناصر أجمع ويجعل لكل منها حدّاً حتى أخذت الكواكب تتألق في رقعة السماء بعد احتجابها طويلاً في طيّات الكتلة التي كانت تُكنّها .

ولكى تستمتع الكائنات الحية بوجودها أجرى الكواكب في فسيح السموات في رعاية آلهة مجسّدة . واتخذت الأسماك بحراشفها البراقة المياه مسار لها ، واحتضنت الأرض الحيوان منذ نشأته الوحشية الضارية ، كما احتضن الهواء في تموج الطير . وكان ثمة كائن غاب عن هذا كله ، على الرغم من أنه كان أكثر المخلوقات انطباعاً بطابع الآلهة ، هذا إلى ما تميّز به من ذكاء مفرط فرض به سلطانه على سائر المخلوقات ، فكان الإنسان . ومن يدري لعل إله هذا الكون الذي صوّر العالم على تلك الصورة البديعة هو الذي خلق الإنسان من بذرته ! أو من يدري لعل الأرض في عنفوانها حين نبذت عنها طبقات الأثير ٨٠ كانت قد انطوت على بذرة من صلب أخيها ربّ السماء ! ثم أتى پروميشيوس بن ياپيتوس^(٢) فقبض قبضة من تراب الأرض وعجنها بماء المطر وسوّاها إنساناً على صورة الآلهة المهيمنة على كل شيء . وعلى حين خلق الحيوان مكباً بوجهه على الأرض لا يطالع سواها ، خلّق الإنسان مشرباً بوجهه إلى السماء متأملاً فيها داعياً ربه أن يشدّ بصره بالكواكب . وهكذا تحوّلت الأرض من كتلة غليظة غير مميّزة إلى أشكال جديدة ، هي أشكال البشر .

وكان ثمة عصر ذهبي في بدء الخلق أظّل قوماً على إيمان عميق ومبادئ سامية ، لم يشرّع لهم قانون يلزمون حدوده أو يخافون عقابه ، وعاشوا ليس لهم وازع غير الضمير : فلا قضاة يفصلون بينهم ، ولا حكام يجازونهم ، إذ لم يكن ثمة نزاع أو عدوان ، وكان الناس حيث هم : لا هجرة ولا نزوح عن أرضهم . ولم يكن جذع شجرة الصنوبر قد اقتلّع بعد من مكانه فوق الجبال ليطفو فوق الخضمّ المائج ويطوّف حول العالم ، ولم يكن البشر على علم بغير تلك الشواطىء التي نشأوا عليها . ولم تكن القلاع تحوطها الخنادق المغمورة بالمياه ، ولم تكن قد ظهرت تلك الأنايب النحاسية التي اتخذت بعد أبواباً مستقيمة ولا القرون الموعجة . ولم تكن ثمة خوذات ولا سيوف ، إذ كان الناس آمنين لا تفزعهم حروب ، ولا هم في حاجة إلى جيوش تدفع عنهم شرّ المعتدين . وكانت الأرض تؤقّ أكلها دون عزق أو حرث والناس بما لديهم من طعام قانعون . فهم وادعون لا يكّدون ولا يعملون ، يأتيهم رزقهم رغداً من بلوط چوپيتر^(٣) ١٠٠
المتددة فروعه ، ومن ثمار الشجيرات ، وتوت الجبال ، وأعناب البراري العالقة بالغصون الشائكة . وكانت

النسائم الرّخية تحمل عبق الزهرات في ربيع لا ينتهى فتتشرّ في الجوّ أريجها . . ومَرّت الأيام ، فإذا الأرض تكتسى بعيدان القمح ، وإذا سنبله الثقيلة البيضاء تحيل رقعة الأرض ناصعة ، وساد الربيع الأعوام فلا برد ولا مطر ، وفاضت الأنهار لبنا ونكتارا [شراب الآلهة] ، وسالت الأشجار شَهِداً ذهبى اللون .

ووقع ساتورن^(٤) [كرونوس] أسيراً في يد جوبيتر [زيوس] فألقى به في ظلام تارتاروس وانفرد هو بحكم العالم ، وكان من هذا بداية العصر الفضى الذى حلّ محل العصر الذهبى وإن كان مع ذلك في مرتبة أدنى منه وأرقى من عصر البرونز المصْفَرّ السُّمرة الذى تلاه . واختصر جوبيتر فصل الربيع الذى كان يمتد على مدار السّنة في العصر السابق ، وقسّم السنة إلى فصول أربعة : شتاء وصيفا وخريفًا متقلّبا وربيعا قصير الأمد ، وجعل الهواء بين بارد وحار ، وظهرت الثلوج بين الأعاصير العاتية ، وأخذ الناس يبحثون عن مأوى يقيهم المطر ، فلجأوا إلى الكهوف والأدغال . ومضى الناس يكّدون في فلاح الأرض وحرثها ، ويبدرون فيها حبوب الحنطة التى جادت بها عليهم سيريس [ديميتر عند الإغريق] ، وأخذت الثيران تن تحت نير المحارث . ١٢٠

ثم كان العصر الثالث ، وهو عصر البرونز ، الذى طُبع الناس فيه بطابع من الغلظة والقسوة فاستسلموا للمنازعات وشاعت بينهم الخصومات ، غير أن الشرّ لم يكن قد غلبهم على كل أمورهم .

ثم كان أخيراً عصر الحديد الصّلب الذى اشتق اسمه من معدن أقلّ قدراً ، حين برزت الجرائم في أشنع صورها وغاب الحق وانمحى الصدق ووُثِدَ الوفاء واختفت الطاعة وطغت الغطرسة والخيانة وساد الطمع والخذاع وتفتّت القسوة . وأعدّ البحّارة أشرعة ينصبونها للريح وهم بعدّ على غير معرفة معمّقة بالسفن وأشرعتها ، واصطنعوا من الأشجار التى كانت تُزحَم سفوح الجبال الشاخنة سفناً تمخر عباب البحر بفعل قلاعها المتنفخة وأثر الرياح ، تتقاذفها أمواج المحيطات وتأخذها بعيداً بعيداً عن موطنها . وتجزّأت الأرض وراء حدود بعد أن كانت ملكاً مشاعاً بين الجميع يستمتعون بها استمتاعهم بالشمس والهواء ، وجرى الناس يكّدون بحثاً عن القوت ، ويحفرون الأرض منقبين عن معادنها المخبوءة في أحشائها ، وامتد بحثهم حتى أدركوا مملكة الظلال قرب نهر ستيكس ، وانتزعوا من أعماق الأرض تلك الأشياء التى غدت مصدر آلامهم ، فاستخرجوا الحديد وكانت معه الوليات ، وأتبعوه بالذهب وكان أشد من الحديد ويلاً ، إذ كان كل من الحديد والذهب عوناً لهم على الحرب والقتال . وبالأيدى الآثمة شهّرت السيوف لتلقى السيوف مصلصلة مجلجلة . ١٤٠

وعاش الناس على السلب والنهب لا يأمن الضيفُ مضيفه ، ولا يطمئن الزوجُ لحميه ، ولا يثق الأخُ بأخيه ، وغاض الوء من صدور الناس ، وأصبح كل من الزوج والزوجة مصدر شقاء للآخر ، وغدت زوجات الآباء تدسسن السّم في الطعام لأبناء أزواجهن ، والأبناء يتآمرون على موت آبائهم وعلى الخلاص منهم ، وحلّ العقوق بالوالدين محل البرّ بهم ، ولم يعد للتقوى مكان في القلوب ، كما خرج الناس على

طاعة آلهتهم ؛ فعَمَّ الأرض البلاء وسالت الدماء ، فهجرتها أسترايا العذراء^(٥) آخر من كان على الأرض من أرباب السماء .

العمالقة

وتطلَّع العمالقة إلى الأثير لا يبغون أن يكون أمناء كما لم تعد الأرض أمناء ، ولكى يغزوا ملكوت السموات جعلوا الجبال جبلاً فوق جبل حتى يرقوا إلى حيث النجوم . وعندها أرسل عليهم سيّد الكون القدير صواعقه : فتداعى جبل أوليمپوس ، وتزحزح جبل پيليون من فوق جبل أوسا ، وإذا تحت ذلك الركام الهائل جثت العمالقة هامدة ، وإذا الأرض قد غُطيت صفحتها بدماء أبنائها العمالقة . ١٦٠

ولكى تبقى الحياة متصلة ، قيل إن الأرض قد نفثت من روحها فى هذا الدم الدافئ فكانت مخلوقات لها سمات البشر عمرت الأرض من جديد . غير أنه سرعان ما خالف هؤلاء أمر الآلهة وثارت فيهم ناثرة ذلك الدم المسفوح الذى خلقتهم الأرض منه ، فغلظت قلوبهم وعدا بعضهم على بعض^(٦) .

ليكاوون

ورأى ربّ الأرباب ، ابن ساتورن ، ما حاق بالأرض فثار مغضباً وزفر زفرة مدوِّية وقد تمثّلت فى ذهنه وليمة ليكاوون الرهيبة التى لم يكن يعلم علمها أحد من أفراد ملكوته ، فدعا الآلهة إلى مجلسه واستجابوا له طائعين ، سالكين سبيل المجرة التى تُرى وضياءً عندما تكون السماء صافية حتى انتهوا إلى حيث يقيم ربّ الصواعق الجليل . وكانت من حواليتهم إلى اليمين وإلى الشمال بيوت كبار الأرباب الغاصّة بهم ، وهو المكان الذى لا أجد حرجاً لو أُوتيت شيئاً من الجرة فى أن أُطلق عليه اسم پالاتينوس السموات العلى^(٧) ، على حين كانت دور صغار الأرباب موزّعة هنا وهناك مختلفة عن تلك كل الاختلاف . وفى قاعة من الرخام انعقد مجلس الأرباب ، وقام كبيرهم على منصّته معتمداً على صولجان من العاج ، وهزّ خصلة شعره الرهيبة مرات ثلاثاً أو أربعاً فارتجت الأرض واضطربت النجوم ، ثم خطبهم بقوله : « لم أحسن قط بمثل ما أحسنه اليوم من قلق على ما يسود النظام العالمى من اضطراب ، حتى ولا يوم حاول العمالقة ذوو أذيال الأفاعى أن يلفّ كل منهم أذرعته المائة حول السماء لكى يستولوا عليها ، ولقد كادوا يفعلون لولا أنهم كانوا قلة ولم يكن ثمة من يشاركهم هذا الشرّ . وإن أخوف ما أخافه أن يمتدّ هذا الشرّ إلى غيرهم فيستفحل الخطب ، لذا كان لا معدى عن إفناء البشر كافة فلا يبقى منهم أحد فى العالم الذى تحيط به تلك البحار الصاخبة . أُنقسمُ بأنهار العالم السفلى التى تسرى فى غيضة ستيكس المندسّة فى أعماق الأرض أن قد

جهدت في أن أقوم أمرهم ما استطعت ، غير أن ذلك لم يُغن شيئاً وكان لازماً أن يُبحث الشر من جذوره .
غير أن أنصاف أرباب وأرواحاً وحوريات وساتيرا وجاناً في الغابات والتلال^(٨) لم تكن قد أفسحنا لهم مكاناً في السماء ، لذا كان علينا أن نهيء لهم حياة على الأرض ، وما ظنّي بأنهم ناجون من شرّ ليكاوون الذي أعقب خمسين من الجاحدين وحاك الدسائس من حولى ، وأنا ربّ الصواعق وزمامها في يدي ، بل وربكم أيضاً » .

٢٠٠ وهتهم الأرباب وزمجروا وغمرهم شعور من الذعر أشبه بذلك الذي غمر الناس حين حاولت فئة متمرّدة لإخماد شعلة روما عندما انتهى إليهم خبر مقتل قيصر^(٩) ، فلقد ألقى في روعهم أن ثمة دماراً سيحيط بالعالم يهزه من جميع أركانه . من أجل هذا نادى الأرباب بإنزال العقاب على من كان سبباً لهذا البلاء . وكما أن ولاء رعاياك يُشيع السرور في قلبك يا أوغسطس ، فكذلك كان يسعدُ چوپيتر بولاء أتباعه من الأرباب . ولكن چوپيتر ربّ الأرباب ردّهم إلى سكوتهم بإشارة منه ثم قام فيهم خطيباً فقال : « لقد نال جزاءه ولم يعد يُخشى بأسه ، وإليكم ما فعل وما ناله على ما فعل . فلقد انتهى إلى أن ثمة مرجفات تؤذن بنذر في هذا الزمان الذى يُظنُّنا فهبطت من عليائى في الأوليمپوس على الأرض في صورة آدمى ، ورأيت ، ويا هول ما رأيت ! فلقد سمعت دون ما وقع عليه بصرى . وجُزّت جبال ماينالوس إلى بلاد تعجّ بالحيوانات المفترسة ، ومنها إلى كيلينيه ، ثم إلى ليكاياوس القارسة البرد حيث غابات الصنوبر^(١٠) . وما إن أذنت الشمس بمغيب وأوشك الليل أن يرخى سدوله ، حتى كنت على باب منزل ليكاوون طاغية^(١١) أركاديا . وعندها خلعت عنى صورة آدمى وعُدت إلى ألوهيتى . وما إن رأى الناس حتى ازدحموا حولى مصليّين خاشعين ، فأثار ذلك سخرية ليكاوون وقال للناس غاضباً : سترون إن كان من التفقتم حوله إلهاً أم غير إله ، وكان في عزمه أن ينقضّ على غرة منى فيقتلنى وأنا نائم ، وكان يريد أن يجعل من هذا دليله على بطلان ألوهيتى وأنى من البشر . وكانت ثمة رهائن بين يديه من شعب مولوسوس^(١٢) ، فإذا هو إمعاناً في فجوره وجبروته يقطع رقبة أحدهم بسيفه البتار ، ويلقى بجسده وهو لا يزال ينبض بالحياة في النار ، يجعل منه شواء . وأعدت المائدة وُصفت الصُحاف وجلس يلتهم ما فيها في نهم وشره . فنقمْتُ عليه فعله وأرسلتُ على بيته شواظاً من نار أحرق البيت بما فيه من تماثيل لأسرته نصبها آلهة زوراً وبهتاناً . غير أن ليكاوون استطاع أن ينجو ، ففرّ هارباً إلى الريف وهو نائر غاضب . وهناك وجد نفسه أحرس لا يستطيع تحريك لسانه بكلمة ، وألقى ما عليه من ثياب قد استحالت شعراً شائكاً ، وإذا ذراعاه قد استحالتا ساقين ، وإذا هو قد مُسيخ ذنباً من أشرس ما تكون الذئاب ، فعدا فاغر الفم إلى حيث قطعان الماشية ينهشها نهشاً ويقتلها تقتيلاً . وكان على الرغم من صورته تلك التى استحال إليها لا يزال يحمل شيئاً من ملاعجه الأولى ، فلقد بقى له شعره الأشيب كما بقى له وجهه الجهم البغيض بشراسته وقسوته ، وكذا بقى له بريق عينيه وما فيها من نظرات مرهوبة . ولم تحرق الصاعقة التى أحرقت داره غيرها من دور الفساد ، وهكذا سوف يظل في أنحاء الأرض أثر لربة الانتقام^(١٣) التى لا تمارس غير القسوة . ألا إن ما صادفته لم يكن غير مؤامرة من مؤامرات الإجرام ، لذا قرّ قرارى الذى لا رجعة فيه أن يوفى كلّ جزاءه » .

وهنا صاح بعض الآلهة مناصرين چوپيتر فيما قرّر مطالبين إياه بالمزيد ، على حين لزم آخرون الصمت . غير أنهم قد ساءهم جميعاً ما سوف يلقي البشر من عذاب ، وما سوف تكون عليه الأرض بعد أن يقضى على هذا الجنس البشرى كله ، وما سوف تكون عليه معابدهم في الأرض بعد أن لن تجد منهم من يختلف إليها مقدّماً القرابين ، وخال الأرباب أن الأرض بعد أن ينفذ فيها حُكم چوپيتر سوف تكون مرتعاً للوحوش الضارية . وأحسّ ربّ الأرباب ما يساور أربابه من خوف فأعلن فيهم أن الأمور سوف تجري دون إضرار ، وأنه سوف يخلق بشراً غير البشر يختلفون عنهم الاختلاف كله ، وسيولدون من أصل سوف يكون معجزة من المعجزات .

وكان چوپيتر على وشك أن يرسل صواعقه على الأرض لتأتى على من فيها أجمع ، لولا أنه خشى إن هو أطلق صواعقه الملهبة أن تشبّ النار في طبقات الجو العالية التي يسودها الصفاء وتنتقل منها إلى قبة السماء كلها ، كما ذكر ما جاء في لوح القدر من أنه سيكون وقت تشتعل فيه الأرض والبحار وقبة السماء وينهار الكون أجمع ، فعدل عما كان سيأخذ فيه من استخدام وسائل الدمار التي أعدها « الكيكلوپيس »^(١٤) ، ورأى أن يعمّ العالم بسيول جارفة تأتى على البشر أجمع . فحشد رياح الشمال في كهوف أيولوس ، وضمّ إليها الأعاصير التي تبدّد السحب الكثيفة ، ثم أرسل رياح الجنوب من محبسها ، فثارت تضرب بأجنحة مبلّلة في غياهب الظلمات وثيدة لثقل ما تحمل من أمطار تتساقط من خصلاتها البيضاء ومن حولها الضباب يُنذر بمقدمها ، ثم ما لبثت أن ألقت فيها سيلاً متدفقاً عمّ الأرض وفاض في أرجائها . وكانت إيريس رسولة چونو [هيرا] وراء هذا في ثوب يجمع بين ألوان قوس قزح تُنشئ السحب الأولى لإنشاء وترسل بها مدّدا في إثر بعضها ، فإذا ما على الأرض من زرع وشجر يُقتلع ، وإذا المزارعون يصلّون من أجله طويلاً ويكون في حسرة لذهاب جهدهم طوال العام سدى . ولم يقنع چوپيتر بما تحت يديه من عوامل الدمار التي يسخرها حسب هواه في مملكته بل طلب إلى شقيقه نپتون [پوزيدون] أن يرسل هو الآخر أمواجه اللازمة على الأرض ، فإذا البحار والأنهار والسماء بما ترسل من أمطار كلها حرب على الأرض لم تترك فيها ركناً مشيداً ولا بُنياناً قائماً إلّا أتت عليه ، وإذا صفحة الأرض كلها مغمورة بالمياه .

وأرسل كبير الآلهة يستدعى الأنهار ، وما إن مثلوا أمامه في قصره حتى ابتدرهم قائلاً : « ليس أمامنا وقت نبذّه الآن في مُسهب العظا ، فأمامكم مهمّة عاجلة : أن تمارسوا كل ما تملكون من طاقات وأن تندفعوا بكل سطوتكم مرتدّين إلى أوطانكم تكتسحون ما بها من أسوار ، مُطلقين لمياهكم الجارية العنان » .

هكذا كانت أوامره ، فعادت الأنهار إلى مواطنها ، وبعد أن فتحو أفواه ينابيعهم انطلقوا بعنف صوب البحر في سيول عاتية .

وضرب نپتون الأرض بعصاه الثلاثية [صولجانه ذى الشُعَب الثلاث] فارتجفت واهتزت ، وانشقت مجار للمياه تدفقت فيها وفاضت على الجانيين ، فإذا هي تقتلع النباتات من جذورها ، وتغرق المحاصيل

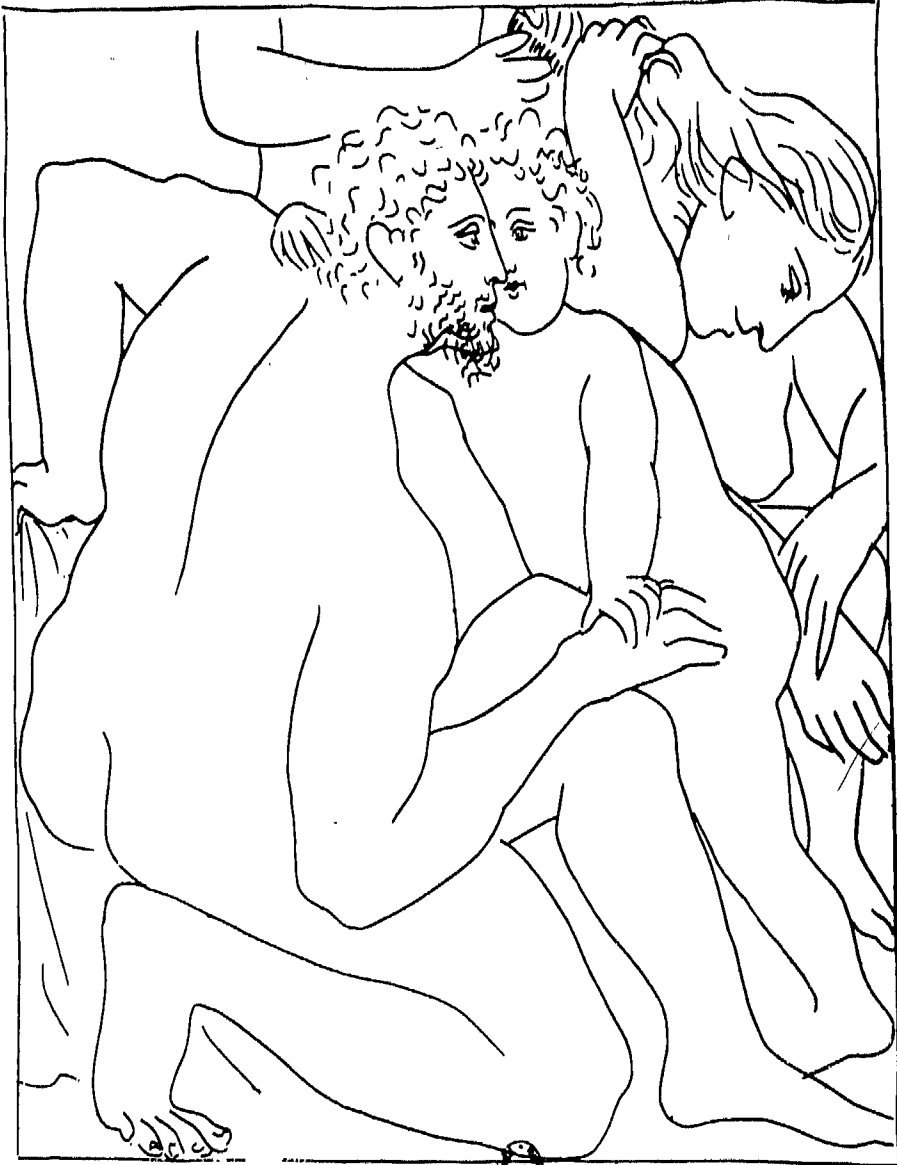
والكروم والناس والماشية ، وتهدم البيوت على من فيها والمعابد على المصلّين بها ، وتسوق الكتل العاتية لأصنام الآلهة سَوَقًا ، وتغمر الشاهقات فلم يعد يُرى منها غير قممها . ولم يفلت مبنى من هذه الكارثة إلّا دمرته موجة أعنت من الأولى فتهاوى سطحه تحت الماء ، واختلط الأمر فلم تعد ثمة حدود بين الأرض والبحر ، بل غدت الأرض كلها بحرًا بلا شاطئان . وهُرع نفرٌ إلى قمم الجبال يجدون فيها عاصمًا من الغرق ، ونفرٌ إلى السفن ذوات الحيازيم^(١٥) المقوّسة يضربون بالمجاديف فوق أرض كانوا يخطّون فيها بالمحاريث ، وأقلع آخرون بقواربهم وسط المياه التي غمرت الحقول وكانت تعجّ بالأمس بحنطتها والبيوت التي كانت فيما مضى مأواهم . وهنا وهناك كانت عيونهم تلمح أسراب السمك عالقة بغصون أشجار الدردار . وأرسي بعض الملاحين سفنهم حيث كانت المراعى الخضراء ، وأحيانًا كانت السفن المسطّحة القاع تمسّ الكروم التي ترقد تحتها . وفي الأماكن التي كانت قطعان الماعز ترعى الأعشاب فيها آمنة انسابت كلاب البحر القبيحة تشقّ طريقها بين الأمواج ، وانتابت الدهشة حوريات النيرباديس حين رأين الغيصات والمدن والدور مدفونة تحت المياه ، واحتلت الدلافين الغابات تلوى الأغصان العالية وتهزّ جذوع أشجار البلوط التي ترتطم بها . وسبحت الذئب بين قطعان الماعز ، وحملت الأمواج النمر والأسود المصفرة السُمر . أما الخنازير البرية فلم تُغن عنها أنيابها القاطعة ، كما لم تسعف الأوعال سيقانها القوية على العدو ، فإذا الفيضان قد ابتلعها جميعاً . وحلّقت الطيور في الجو ما شاءت أن تحلّق حتى كلّت أجنتها فهوت في ذلك الخضم ، وإذا هذا الفيض قد غطّى التلال وبلغ ذروة الجبال ، وإذا الجنس البشري قد فنى أكثره ، ومن نجا منهم من هذا الفيض أهلكه الجوع^(١٦) .

ديوكاليون وبيرا

وكان فيما غمر الماء أرض فوكيس^(١٧) الخصب التي كانت حدًا فاصلاً بين حقول بويوتيا وحقول أويتا . وكان ثمة جبل شامخ هو جبل پارناسوس له قمتان توأمتان تكادان تلمسان النجوم وتحترق سطحه السّحب ، رسي عليه الفلك الذي كان يحمل ديوكاليون وزوجته . وكان ديوكاليون بن پروميشيوس^(١٨) خير البشر وألزمهم للطريق السّوى ، وكانت زوجته بيلا ابنة إييميشيوس أكثر النساء إجلالاً للآلهة . وكان أول شيء فعله الزوجان أن اتّجها بالشكر إلى ربّات الجبل حوريات كوريكيا ، وإلى ثيميس ربّة الوحي الكاشفة عن الغيب ، فقاما يصلّيان لهن من أجل نجاتهما . ورأى چوبيتر الأرض وقد غطتها المياه الأسنة ، وأنه لم يبق من الرجال الذين بلغت عدّتهم آلافًا غير واحد هو ديوكاليون ، وأنه لم يبق من النساء اللاتي بلغت عدّتهن آلافًا غير واحدة هي بيلا ، وكانا من عباد الآلهة المخلصين لذلك نجوا من الهلاك وسلمت لهما حياتهما .

وأطلق چوبيتر رياح الشمال من محبسها فبدّت السّحب بدّدا ، وانقشع الضباب فبدت صفحة السماء صافية وظهرت رقعة الأرض مبسوطة ، وسكنت الأمواج وهدأت ثورة البحر بعد أن ألقي ربّ البحار والأمواج صولجانه ذا الشُعَب الثلاثة من يمينه . وكان نبتون قد طلب إلى تريتون أن ينفخ في صُوره

الخلزوني ، ذلك الصّور الرنان الذي يتسع شيئاً فشيئاً حتى يبلغ مخرج الصوت . وما إن جلجل صوته حتى ارتدت مياه البحار والأنهار منحسرة عن الأرض ، وهذأت الأمواج وسكنت ثورتها منذ أن مسّ فمه الصّور إلى اليوم . ثم ضمّ تريتون شفّتيه على الصّور ثانية ، فصدر عنه صوت غمر الشيطان التي يطلع عليها ٣٤ . فوبيوس إله الشمس مع مستهل رحلته اليومية في الفضاء ومتهاها . وتشتّ لحية تريتون ربّ البحار والأمواج والماء يقطر منها وأمر المياه بالانحسار ، فإذا مياه الأرض كافة ، ومياه السهول التي لم تنحسر والأمواج في أنحاء الكون تستجيب لهذا الأمر الساوي . واستقرت الأنهار في مجاريها والبحار في هداتها ، وبدت تربة الأرض نديّة ، وبرزت التلال والجبال ، وكلما تراجعت المياه اتسعت مساحة الأرض ، ومضت أيام طويلة قبل أن تنفض الأشجار الطّين عنها . وعادت الحياة سيرتها الأولى .



بيكاسو : ديوكاليون وبيرا

ونظر ديوكاليون فرأى نفسه وحيداً ، ليس إلى جواره في الفضاء الممتد غير پيرا فجزع ، وإذا عيناه تدمعان ، فمال إلى پيرا يقول لها « يا ابنة عمى وزوجتى ، أيتها المرأة الوحيدة التى قُدِّر لها أن تبقى بعد فناء النساء كلهن ، إليك أفزع فزع القريب إلى قريبه والزوج إلى زوجه . لقد جمعت ما بيننا الأهوال ، فليس ثمة على الأرض غيرنا ولا تطالع الشمس غيرنا فى مطلعها ومغيبها بعد أن ابتلع اليمّ البشر . وإنى على ذلك غير مطمئن فقد يصيبنا ما أصاب أخوتنا بالأمس ، فلازال خيال السُحب فى مخيلتى يروعنى . ثرى ، على أية حال كنا سنكون لو قُدِّر لنا ألا نلتقى ، وهل كنت ستقوين على مغالبة المخاوف وحدك ، ومن كان سيقف إلى جنبك ليعينك على المخاطر ؟ أقسم لك غير حاث أن أراك بحياى ، وأنى لا أملك غير أن أقذف بنفسى فى اليمّ لو عجزت عن أن أدفعه عنك ورأيتك يتلعلك يا زوجتى الحبيبة . كم أتمنى لو أنى أعدت العالم عامراً كما كان ناهجاً النهج نفسه الذى انتهجه أبى ، وكم أتمنى لو استطعت أن أنفخ فى الصلصال الذى تصنعه يدأى روحاً . إن بقاء الجنس البشرى أمره إلينا وحدنا ، ولهذا جمعت بيننا مشيئة الآلهة . »

وبكت پيرا لكلمات ديوكاليون ، ثم وقفت إلى جانبه يضرعان إلى الربّ أن يلهمهما العون . ثم مضيا إلى مياه نهر كيڤيسوس [فى بويتيا] التى كانت ماتزال تنساب فى قنواتها قبل أن يعاودها صفاؤها القديم ، فغسلا بمياهه رأسيهما وملابسهما ، ثم تقدما إلى مذبح الإلهة المقدسة ثيميس ، وكان سقفه المسنّم قد أحالت لونه الأعشاب المتخلفة عن المياه المنحسرة وساد الظلام هيكله ، فركعاً ولثما أرضه النّدية خاشعين وتوجّها إلى الإلهة ثيميس قائلين : « هل من مطعم فى أن تستجيب الإلهة إلى صلواتنا الخالصة فترفع عنا غضبها ، ألهمينا يا ثيميس كيف نقوى على إصلاح ما حاق بالجنس البشرى ، أيتها الرّبة الرحيمة كونى لنا عوناً فى محنتنا . » وأخذت الرّبة الشفقة بهما فتمتعت بهذه النبؤة : « اخرجنا من معبدى ، وضعا على رأسيكما غطاء ، وتحففاً من تلك الأحزمة التى تشدّ ملابسكما ، واتركا وراءكما عظام أمكما الجليلة » (١٩) . وكان كلام الرّبة غير بين فتملّكهما العجب ، وعزّ على پيرا أن تستجيب لأمر الرّبة خشية الإساءة إلى طيف أمها إذا هى أزعجت عظامها فى مرقدها ، ولكنها لم تلبث أن عاودتها طمأنينة أطلقت شفتيهما الراجفتين بالدعاء للرّبة أن تغفر ترددها . غير أنها أخذت يتدبران كلمات الرّبة الغامضة ، وانتهى ديوكاليون بن پروميشيوس إلى أن قال لپيرا ابنة إيميشيوس : « إن الرّبات على حق ، وهن لا يُشرنّ بما لا تُحمد عقباه ، وإنى لأخال أن الأم الجليلة التى جاءت على لسان الرّبة ليست غير الأرض ، وأن تلك العظام ليست غير الأحجار التى فى باطنها ، وأن علينا أن نترك هذه الأحجار وراءنا . »

وآمنت پيرا بما خال ديوكاليون ، غير أنها بقيت يخالجهام شىء من الشك فيما أشارت به الرّبة ، وكان لابد لهما من أن يمضيا فى التنفيذ ليبين لهما صدق ما قالت . فهبطا من على رأس الجبل ورأساهما مغطيان ، وقد تحففاً من تلك الأحزمة التى تشدّ ملابسهما ، وأخذتا يُلقيان بالأحجار وراءهما كما أشارت الرّبة . مَنْ يصدّق ما حدث بعد ذلك لولا أن التاريخ الخالد يشهد به ؟ فإذا الأحجار تلين ، وإذا هى تتشكّل أشكالاً ، وإذا هذه الأشكال على صور هياكل آدمية رغم أنها لم تكن ذات سمات واضحة بل كانت أشبه بتماثيل من الرخام لم يكتمل نحتها ولم تُصقل بعد . ثم ما لبث أن استحال الحجر لحماً فكسا تلك الهياكل

العظمية ، كما استحالت العروق التي كانت تتخلل الصخور عروقاً في تلك الأجسام الأدمية ، وكان كل حجر يُلقيه ديوكاليون يأخذ صورة الرجل ، كما أن كل حجر كانت تُلقيه پيرا يأخذ صورة المرأة . وإلى هذه النشأة القاسية الصلبة يُعزى كل ما في الجنس البشرى من عنف وغلظة وقسوة ، فكما نشأ كان .

پيثون

عندما أطلقت الشمس المشرقة أشعتها بالدفع تُبَدِّدُ الوَمَدَ المتلبّث من عهد بعيد أخذت الأرض تنشقّ عن حيوانات جديدة مختلفة الأنواع ، وبدأت الوحول والمستنقعات النّدية تعلو لتفسح للبذور الدفينة أن تُطلق سيقانها بعدما تشقّ باطن الأرض الذي كان أشبه بالرحم يضمّ الجنين إلى أن يكتمل نضجه ، ٤٢٠ ومع مرور الزمن تعدّدت تلك النّبات ألواناً وأصنافاً . وإنا لنجد شيئاً من هذا مع فيض نهر النيل ذى المصبّات السبعة حين يفيض تاركاً على الأرض الغرين ، فما يلبث ذلك الغرين بعد أن تُرسل عليه الشمس أشعتها أن ينفرج عن هوام كثيرة يجدها الزارعون حين يقبّلون الأرض بفؤوسهم ، منها ما اكتمل نموه وبات على وشك أن ينبض بالحياة ، ومنها ما دبّت الحياة في عضو واحد من أعضائه بينما بقيت الأخرى صلصالاً لم يتشكّل بعد . ثم ما تلبث الهوام أن تتدرّج في سلّم الحياة بين الدفع والوَمَد وهما قوام الحياة ، كما هي الحال في النار والماء ؛ فعلى الرغم مما بينهما من تضاد ، فمرّد حياتنا إلى دفع هذه ونداوة ذاك . وهذا التواءم القائم على التضاد بين الدفع والنداوة هو سرّ الحياة على الأرض^(٢٠)

وحين بعثت الشمس الحانية في السموات بالدفع إلى الأرض الموحلة بفعل الطوفان انبثت على الأرض ذرارى كثيرة ، منها ما جاء على أنماط ما كان ، ومنها ما جاء على أنماط جديدة لا عهد للأرض بها ، ومنها پيثون المهلول الذي ظهر للوجود على الرغم من إرادة الأرض . ولقد جاء على صورة خارقة تبعث الرعب في قلوب الجنس البشرى الجديد ، فقد كان في جسم الزواحف هائل التكوين يكاد يفتش سفع الجبل أجمع ، فهالت أبوللورامى السهام ضخامته وخافه على الموجودات التي على سطح الأرض . ولم يكن أبوللو يُطلق سهامه قبل ذلك إلّا على شارد الظباء أو مخلوع الفؤاد من قطعان الأغنام البرية ، غير أنه ما إن ٤٤٠ وقعت عيناه على هذا الأفعوان الرهيب حتى سدّد إليه سهامه كلها لم يُبق منها سهماً ، فإذا هذه السهام تنفذ في جسمه وتمزّقه جميعه ، وإذا الدم يتدفّق غزيراً من جراحاته العديدة أسودّ قائماً . وخلّد الإله ذلك النصر بإقامة مهرجان تدور فيه ألعاب تسمى الألعاب البيثونية^(٢١) نسبة إلى هذا الأفعوان الذي قهره . وكانت ثمة تيجان من أغصان شجر السنديان تمنح للفائزين في تلك المباريات التي كانت تنتظم ألواناً من العدو والمصارعة وسباق المركبات ، ولم يكن الغار قد عُرف بعد . ومن ثم مضى فوبيوس [أبوللو] يبحث عن

شجرة تزوّده بإكليل من أغصانها الخانية يحوط رأسه ويتوّج هامته ذات الشعر السَّبُط المسترسل ، وكانت السنديانة أول شجرة صادفته فانتزع منها أوراق الإكليل .

دافنى

٤٦٠ ووقع فوبيوس لأول مرة في غرام دافنى ابنة إله النهر بينيوس^(٢٢) ، ولم يكن هذا شيئاً عارضاً بل كان ذلك من تدبير كيوييد الذى شاء أن يثار من أبوللو لسخريته منه ساعة أحسّ الزهو لفتكه بالثعبان بيثون ، ورأى كيوييد يجتذب قوسه المشدود فقال له : « فيم تطاولك أيها الصبىّ العربيد باستخدام أسلحة المحاربين ؟ إن كنتى وحدهما هما اللتان خلقتا لحمل مثل هذه السهام ، إذ أنا وحدى الذى يقوى على أن يصيب فيُضْمى من يعترضه من الحيوان الضارى أو يناوئه من بنى الإنسان . وحسبك شاهداً على ذلك آثار سهامى العديدة النافذة في جسد بيثون السّام ، ذلك الثعبان الذى كان يفرش المساحات الفسيحة . دع عنك السّهام واقنع بشعلتك وسيلة توجّج بها الهوى ، فما أقصر باعك عن أن تبليغ حظى من الثناء » . فردّ عليه كيوييد بن فينوس قائلاً : « على رسلك يا أبوللو ، فأنت إن قويت على أن تصيب بسهامك الحيوان والإنسان فإنى بقوسى وسهامى قادر على أن أصيبك فلا أخطئك ، فأين مجدك أنت حين تصيب الحيوان من مجدى أنا حين أبلغ بسهامى الآلهة ؟ » .

وما إن فاه كيوييد بقوله هذا حتى انطلق طائراً يشقّ أجواز الفضاء ، وإذا هو يحطّ على قمة جبل بارناسوس . عندها نثر كنانته واختار سهمين : أحدهما ذهبىّ اللون محدّد الطرف يُشعل جذوة الحب في القلوب ، وثانيهما رصاصى اللون ثلّم الحدّ يخمدها . وسدّد كيوييد هذا السهم الأخير إلى دافنى ابنة بينيوس ، على حين رمى أبوللو بالسهم الأول فنفذ في لحمه إلى النخاع ، فإذا أبوللو قد هام حباً ، وإذا دافنى تفرّ هاربة إلى الغابات وقد ضمّت شعرها بشريط كما فعلت الإلهة ديانا حين أبت أن تستجيب للحب .

٤٨٠ ومن قبلُ هام كثيرون بدافنى ابنة بينيوس وهى لا تفتأ تجول بين الأشجار غير مُلقية بالآلما يدور حولها من هيام الرجال بها ، وما دار في خلدها شيء عن الحب أو عن الزواج . وما أكثر ما لامها أبوها على عزوفها عن الرجال وتمنى عليها لو تزوجت وأعقت بنين وبنات ، وكم كان وجهها يحمرّ خجلاً حين كان يحذّثها في شيء من هذا لأنها كانت تعدّ مثل هذا الحديث جرماً ، وكم توسّلت إليه أن يكفّ عن الاسترسال في موضوعه الأثير ، إذ كانت تُؤثّر أن تعيش حياة عذرية كما عاشت ديانا ابنة جوبيتر منذ الأزل . ولم يجد الأب بداً من أن ينصاع لرغبة ابنته فأمسك عن مفاتحتها في هذه الأمور ، غير أن جماها الفتان وشبابها الطاغى ما لبثا أن غلباها فقاداها إلى غير ما تنشد وتريد . وكان أن وقعت عينا فوبيوس على دافنى فإذا هو يهيم بها وإذا هو يتحرّق شوقاً إلى أن يبنى بها ، وأخذ يسعى سعيه لأن يظفر بقلبها إذ كان

٥٠٠ جُهِبَ قَدْ مَلَأَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ كُلَّهُ وَمَلَأَ عَلَيْهِ جَوَانِحَهُ . فَكَانَ إِذَا نَظَرَ إِلَى شَعْرِهَا مُتَهَدِّلاً عَلَى جِيدِهَا إِلَى كَتِفَيْهَا تَمَنَّى أَنْ لَوْ كَانَتْ عَقَصَتُهُ حَتَّى لَا تَوَلَّهُ ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ تُسَبِّحُهُ عَيْنَاهَا الْبَرَّاقَتَانِ بِرَيْقِ النُّجْمَتَيْنِ السَّاطِعَتَيْنِ ، وَتُغْرِيه شَفَتَاهَا الْحُمْرَاوَانِ ، وَتَفْتِنُهُ أَنْامِلُهَا الدَّقِيقَةُ ، وَيَدَاهَا الْبَضَّتَانِ ، وَذِرَاعَاهَا الْعَارِيتَانِ ، كَمَا كَانَتْ تَشْغُلُ خَيَالَهُ مَفَاتِنُهَا الْمُحِبَّةَ عَنِ الْأَنْظَارِ .

٥٢٠ وما إن أحسست دافئاً متابعة فويبوس لها حتى ولَّتْ الأدبار في سرعة الريح ، ولم تلبث لحظة لتستمع إلى توسلاته وهو يناجيها قائلاً : « أيتها الخورية يا ابنة بينيوس لا تفرّى منى فما أنا بعدو نخشيه . رفقا بى ، ولا تفرّى منى فرار الحَمَلِ من الذئب ، أو الغزال من الأسد ، أو الحمامة من الصقر ، فما يحفزنى إلى ملاحقتك غير الحب الذى يتأجج فى صدرى . كم أشفق عليك وأنت تفرّين أن تزل بك قدماك فتدميهما الأشواك وأكون أنا الذى جررتك إلى هذا المصير . رفقا ولا تسلكى سبيلا غير سوّية ، وقرّى حيث أنت ، وإنى أعدك أن أقصر خطاى وألاّ أسرع . وما عليك إلا أن تسألنى نفسك : من هذا الذى خلبت لُبّه وسحرنت قلبه ؟ فلست فلاحاً يعيش فى الوديان ، ولا راعياً يرعى أغنامه بين هذه المراعى . أيتها الفتاة الغريبة ، إنك لا تعرفين ممن تهربين وإلاّ لما هربت . إننى سيدّ دلفى وكلاروس وتيدوس وقصر باتارا(٢٣) ، أنا ابن چوپيتر . بدهائى أعرف ما كان وما يكون وما سيكون ، وبقدرك تردّد أوتار القيثارة أنغام الموسيقى . إن سهامى لا تطيش على الرغم من أن ثمة من هو أقدر منى على التسديد . أنا الطبيب الأسى ، والطب أنا ابتدعته ، وما من خاصة لعُشْبٍ تبدو إلاّ وعندى علمها . ولكن وأأسفاه ليس ثمة من الأعشاب ما ينفع فى شفاء الحب ، وما أشقانى بقدرتى إذا ما أعجزتنى عن عون نفسى على حين أقدر على عون الآخرين . »

وكان فويبوس على وشك أن يسترسل فى قوله ، غير أن ابنة بينيوس ولَّتْ عنه فراراً حياءً وحذراً وخلفته حيث هو ، ولم تتح له فرصته ليقول ما يريد ، وعبثت الرياح بثوبها فجعلته يَعْصُ بِجِسْدِهَا فَيَجْسُدُ مَفَاتِنَهَا ، كما عبثت بشعرها فإذا هو يتهدّل متموجاً ، وإذا هى بهذا وذاك أبهى ما تكون . ولم يقنع الإله الشاب بهذا الغزل ، فدفعه الهوى إلى أن يسرع خطاه ويطاردها ، مثله فى ذلك مثل كلب بلاد الغال(٢٤) الذى يلمح أرنباً برياً عن بُعد وهو يعدو فى حقل أجرد فيعدو فى إثره ويلاحقه ، وكلما خال أنه أدركه ومدّ خطمه ليمسكه إذا هو قد أفلت منه ، وهكذا يَمْضِيَانِ لَا يَدْرِكُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ . وكانت هذه هى حال الإله والفتاة .

٥٤٠ وما إن أحسَّ الإله الشاب انفلاتها من بين يديه حتى خَفَّ فى إثرها ، وإذا هما يعدوان ، كلّ يريد تحقيق هدفه ، العذراء يحدوها الأمل فى أن تنجو ، والإله يملؤه الخوف من أن يخفق . وكان الإله أسرع عدواً لأن أجنحة الحب كانت تعينه ، فإذا أنفاسه تقع على شعرها المتطاير ، وإذا هى تكلّ ولا تقوى على العدو ، فتقع خائفة القوى إلى جانب مياه بينيوس تصرخ قائلة : « أمدد إلىّ يد العون يا أبتاه ، ودع مياهك — إذا كانت لها تلك القدرة القدسية حقاً — أن تمسخ جمالى هذا الذى أثار الإعجاب بى فى قلوب الجميع . » وما إن أتمت كلماتها حتى استرخت ، وإذا صدرها قد استحال جذع شجرة ، وإذا شعرها

أوراقاً ، وإذا ذراعها أغصاناً ، وإذا قدمها جذوراً ، وإذا وجهها قمة تلك الشجرة ، ولكنها على هذا بدت رائعة .

ولم يُثنِ هذا المصير فوبوس عن حبّه لها ، فتحسّس بيده جذعها يتلمّس مكان قلبها الذى ما فتئ ينبض تحت اللحاء ، وأخذ يحتضن الأغصان ويفرق الشجرة بقبلاته ، فإذا هى تتضاءل وتضمّر فصاح بها قائلاً : « إذا كان ثمة ما يحول بينك وبين أن تكونى عروسى ورفيقة حياتى ، فابقى لى كما أنت شجرة أهيم بها وأطوف ، ولسوف يكون شجرى فى وصفك ، ولسوف تتغنى قيثارتك بمدحك ، كما سوف تكون سهامى فى الدّود عنك ، ولسوف أجعل من أغصانك تيجاناً لهامات المحاربين عندما يشهد الكايتولينوس فى روما مواكب النصر ، ولسوف تقفين أنت على أبواب مدينة أوغسطس تحرسينها وفية مخلصه ، كما سوف تذودين عن أكاليل أوراق البلوط العالقة بها . وكما سيقمى رأسى يزينه الشباب ، فكذلك سيظل رأسك تجلّله الخضرة التى لن يعتورها ذبول » .

وما إن انتهى الإله من حديثه هذا حتى طأطأت شجرة الغار رأسها وأرخت غصونها ، وكأنها بهذا رذاك تعلن عن رضاها بكلامه وقبولها لمطلبه .
ولم يعد بعدها عند الإله المخلص أبوللو ما يقوله .

إيو وأرجس وسيرينكس

وثمة غيضة فى بلاد هايمونا^(٢٥) تكتنفها من كل جانب منحدرات عامرة بالغابات تسمى ثيمى . وعلى تلك المنحدرات تفيض مياه نهر بينيوس فتخلف على صفحتها زبداً رايباً . وهذا النهر تتجمّع مياهه أول ما تتجمّع من تساقط الأمطار على جبال پندوس ، ثم تنصبّ منحدره على سفوحه فتستحيل أبخرة ثم سحابة متكاثفة سرعان ما تتساقط قطراتها على تلك الغابات ، فإذا لها صوت مدّويصم الأذان ويتردّد صدها فى الأرجاء البعيدة . وفى هذا الموقع الذى كان ينبع منه هذا النهر ، كان ثمة كهف قد شقّ فى الصخور يعدّ محراباً لهذا النهر الكبير ، ومنه تنطلق كلمته لمياه الأنهار جميعها قبل أن يجرى كل نهر إلى حيث كُتب له ويقضى بين الأمواج كما يقضى بين الحوريات اللاتي يقطن مجراه . وإلى هذه البقعة وفدت أنهار بلاده : نهر سيرينكس الذى تحفّ به أشجار الحور ، ونهر الإنيبيوس ذو المياه الفائرة ، ونهر أيدانوس العجوز ، ونهر الأمفريزوس الهادى ، ونهر أياس وغيره من أنهار أخرى ، لا يدرى أىّ منهم هل يتقدم إلى نهر بينيوس والد دافنى مهنتاً أم مواسياً . ثم جاءت بعد ذلك الأنهار والجدال الأخرى التى تجرى كلها متدفقة لتلقى بأحمالها إلى البحر بعد رحلاتها الشاقة . ولم يتخلف من هذه الأنهار كلها غير إيناخوس فقد قبع فى الكهف لم يغادره ، ولبت يغذى مياهه بقطرات دموعه التى ما فتئت تنهمر منذ أن غابت عنه ابنته إيوا وغابت عنه أخبارها ، فلم يعد يعرف لها مقراً ولا يسمع عنها كلمة ، ولم يعد يدرى أمع الأموات هى أم مع الأحياء .

ولقد كان من قصة إيو هذه أن رآها چوپيتر مرة وهى آيية من شاطيء نهر إيناخوس ، فتصدى لها يقول : « أيتها العذراء ، إنك لست أهلاً لغير چوپيتر ، وسوف يسعد بك من تكوينين له ، ولكن ترى من سيكون هذا السعيد ؟ تعالى غمض معاً فى ظلال تلك الغابات الباسقة ناعم ونهنا . ألا ترين إلى الشمس وقد توسّطت كبد السماء وأرسلت شواظاً من نار ألهبت به وجه الأرض فلم تعد تقوى على مسّه قدم ؟ هنالك فى ظلال أشجار الغابة سوف تجدين من نفحات الهواء ما يعوّضك عن لفح الشمس ، سوف تجدين من تربتها النديّة موطناً سهلاً ، ولكن حذار أن تمضى إلى الغابة وحدك فإنى لا آمن عليك من شرّ الحيوانات الضارية . أما فى صحبتى فسوف تكوينين فى رعاية إله ليس كغيره من عامة الآلهة ، بيده مفاتيح السماء ، فهو الذى يطلق الرعد والبرق ، تعالى إلىّ ولا تحاولى أن تهربى منى » .

وما إن سمعت إيو كلمات چوپيتر حتى ولّت هاربة تطوى مراعى ليرنا ثم حقول لوريون الزاخرة بالأشجار . غير أن چوپيتر ما لبث أن أرسل السحب فغشّت وجه الأرض فإذا هى ظلام كلها ، وإذا إيو أعجز ما تكون عن أن تمضى فى هربها فوقعت فريسة لچوپيتر ، وإذا هو يعدو عليها .

وتطلّعت چونو زوجة چوپيتر من مكانها فى السماء إلى أرجوس ، ودهشت إلى هذه السحب التى أحالت النهار ليلاً فعجبت ، وزاد من عجبها أن هذه السحب لم تنشأ عن مياه النهر ولا عن نداوة الأرض . وإذا كانت على علم بما يرتكبه زوجها من خيانات بعدما أوقعته مرات عدة متلبساً بما لا ينبغى له أن يقترفه ، ولما لم تجده حولها فى السماء ساورتها الظنون بأنه لا بد مرتكب شيئاً إداً ، فهبطت من الأثير إلى الأرض وأمرت السحب أن تنقشع ومضت تبحث عن زوجها فيما حولها . وكان چوپيتر قد توقّع أن زوجته لا بد قادمة ، فمسخ إيو ابنة إيناخوس بقرة ذات أرداف وضّاءة ، غير أنها على الرغم من هذا التحوّل ظلت جميلة فاتنة .

وتقدمت ابنة ساتورن إلى البقرة تطويها زَيْفاً وتمتدح جماها وكأنها لا تعلم من الأمر شيئاً ، وسألت چوپيتر قائلة : « أنى لك بهذه البقرة ، وإلى أية فصيلة من البقر تنتمى ؟ » . ويفطن چوپيتر إلى ما أرادت إليه ابنة ساتورن ، ويسعى إلى الحيلولة بينها وبين الخوض فى الموضوع فيقول لها كاذباً : إنها ابنة الأرض . ولكن ابنة ساتورن كانت أدهى منه ، فطلبت إليه أن يعطيها البقرة هدية . ويغمّ الأمر على چوپيتر ، فهو إن نزل عن البقرة فقد ضعى بأعزّ ما يملك ، وإن هو ضنّ بها على زوجته أثار شكوكها وكان غير بارّ بها إذ لم يسعفها بحاجتها . وتنازعه عاملان ، عامل الحب يُثنيه ، وعامل الوفاء لزوجته التى تعقد بينه وبينها صلة من دم ومولد ، غير أنه أثر ثانيهما ووهب زوجته — التى هى شقيقته فى آن معاً — البقرة حتى لا يكون عاقاً ، وجِزْصاً على ألاّ يثير فى نفسها شكاً بأنها كائن أسمى من مثل هذه البقرة .

وتلقّت الزوجة الإلهة الهدية فى شىء من الحذر ، فلقد كانت تخشى أن يكون چوپيتر قد بيّت شراً وأن قد يعود فيسلبها إياها . من أجل ذلك وكلت إلى ابن أريستور ، وكان يدعى أرْجُس حراستها . وكان لأرْجُس مائة عين تستريح منها اثنتان على التوالى على حين تبقى سائرهما يقظة ، أى أنه كانت من تلك

العيون المائة ثمان وتسعون عينا يقظة دوماً . وكانت تلك العيون تمتد إلى كل مكان فترى ما بين يديه وما خلفه ، وما عن يمينه وما عن يساره . وهكذا ظَلَّتْ إيو في محيط بصره استقبلها أو استدبرها . وكان يدعها مع النهار ترعى من أوراق الأشجار والأعشاب المُرَّة ، حتى إذا ما غربت الشمس حبسها ووضع في رقبتها رباطاً .

وكانت إيو إذا ما عَنَّ لها أن تستريح افترشت أرضاً لا عُشب فيها ، وكان شرابها من مياه كدرة . وكم حاولت أن تشكو إلى أَرْجُس غير أنها لم تكن تملك ذراعين ترفعهما إليه بالشكوى ، فكانت ترسل في الجو خواراً تنزعج هي نفسها له . وحين قصدت يوماً إلى شواطئ إيناخوس حيث كانت ترتع وتلعب فيها مضى ، هالها ما عكسته صفحة الماء من خطم وقرنين فولَّتْ خائفة مذعورة . ولقد أنكرتها جنّيات البحر وما عرفنها كما أنكرها إيناخوس ولم يعرفها . وبقيت مثار إعجاب الأب ودهشة شقيقاتها ، يُطعمها الأب بيديه الأوراق التي يقتطفها فتلثم بيديه وفيها وتلعقها بلسانها ، وهي لا تملك أن تُفصح عن شيء ، وتلمس هذا العجز من نفسها فتنهمر دموعها . واهتدت أخيراً إلى أن تخطَّ على الأرض قصبتها ، ويطالع إيناخوس ما خطَّتْ فيعرف أنها ابنته ، فيتعلّق بقرونها ورقبتها وهي ترتجف بين يديه فيناجيه قائلاً : « ما أشقاني ، أنت ابنتي التي مازلت أطلبها في كل مكان ؟ لقد كان فقدك أهونَ عليّ من أن أراك على تلك الصورة ، إنك لا تقوين على الكلام ولا تستطيعين أن تُجيبيني ، وكل ما أسمع منك تنهّدات تصدر عن صدرك المحزون ، ثم ذلك الخوار الذي يذكّرني بخوار البقر . لقد كان همّي أن أزفك إلى زوج وأن أرى لك بنين وبنات ، وأن أهيمّ لك بيت عُرسك بفراشه ومشاعله ، أما الآن فلن يكون لك زوج إلّا من أبناء جنسك ولن تلدى غير ذرية من البقر . لو لم أكن إلهاً لاثرت الموت هرباً مما أرى . وعلى هذا النحو سأظل في غمرة الحزن إلى الأبد » .

وبينما كان الاثنان في حزنهما يبيّت كل منهما لواعجه للآخر ، طلع عليهما أَرْجُس برأسه ذى الأعين المائة ، وانتزع الفتاة من يدى أبيها وساقها أمامه إلى المرعى ، وارتقى جبلاً حتى بلغ قمته وأخذ يتطلّع هنا وهناك .

ولم يعد سيّد الآلهة يطبق احتمال كل هذه الآلام التي أَلَّتْ بحفيذة فورونيوس ، فصاح بابنه ميركوربوس [هرمس] من مايا إحدى نجوم الهلياديس المتألّقة وأمره بأن يقضى على أَرْجُس . وسرعان ما لبّى الابن أمر أبيه فضمّ جناحيه إلى رجله وأخذ صولجانه في يديه ، ذلك الصولجان الذي يُغرق من مسّه في نوم عميق ، كما ألقي على رأسه غطاءه ، حتى إذا ما أشرف على المكان الذي يضمّ أَرْجُس رفع غطاءه عن رأسه وفكّ جناحيه وهبط إلى الأرض يحمل صولجانه في يده وشقّ طريقه فوق دروب متعرّجة متنكراً في صورة راعٍ من الرعاة يهشّ على غنمه ، وأخذ ينفخ في مزماره فانصرفت إليه الأغنام مجذوبة بما تسمع ، كما شدّه بها أَرْجُس فناداه قائلاً : « إلیّ يا هذا ، ولتكن من تكون ، فليس ثمة مكان تستطيع أن تجلس عليه غير هذه الصخرة ، كما أنه ليس ثمة مكان أخصب من هذا المكان تقع فيه الأغنام على عُشب وفير ، كذلك

لن يجد الرعاة مكاناً ظليلاً غيره » . وجلس حفيد أطلس يحدث أَرْجُس حينا وينفخ في مزماره حينا ، علّه بتلك النغمات الرتيبة يجعل أَرْجُس يهجع فينام ويغمض عيونه . وغالب أَرْجُس النوم ما استطاع ، يغمض بعض عيونه ويفتح بعضها ، وأخذ يسائل رفيقه عن ذلك المزمار كيف أبتدع إذ لم يكن له عهدٌ به . فأخذ رفيقه يحدثه ويقول : « ثمة في جبال أركاديا الباردة وبين الهامادرياد^(٢٦) في نوناكريس^(٢٧) حورية مشهورة بين الحوريات تدعى سيرينكس ، كثيراً ما كانت تفلت من مطاردة الساتير والجنان الذين يسكنون الغابات الظليلة والحقول الخصبية ، وكانت تدين بلهة أورتيجيا [ديانا] تحاكبها في عفتها ومسلكتها ، كما كانت أشبه ما تكون بابنة لاتو [ديانا] في تشمير دائها بحزام ، ومع أن قوسها كان من القرون وقوس الإلهة كان من الذهب غير أن اللبس بينهما كان ممكناً . وذات مرة حين كانت هابطة من مرتفعات ليكييوم ، رآها پان ٧٠٠ وعلى رأسه إكليل من الصنوبر . »

وانبرى ميركوربوس يروي قصة هرب الحورية التي لم تحفل بتضرعات پان وفرارها إلى ضفاف لادو^(٢٨) . وهناك حيث تفيض المياه على الرمال فتصفو وتسكن توسّلت سيرينكس إلى أخواتها حوريات المياه بأن يمسخنها ، وذكرت لهن كيف كان پان يمسك بقصبات المستنقعات وهو يخال أنه قد أمسك بها ، وكيف أن القصبات كانت تنقل صدى أشجانه وترسلها في الهواء أنثت رقيقة حزينة . وفُتن پان بحُسن ما يسمع من أصداء فصاح مشدوها : « فليبقين حديثي معك على هذا النحو إلى الأبد » . وهكذا خلد اسم سيرينكس بفضل تلك القصبات المتفاوتة طويلاً ، والتي ضُم بعضها إلى بعض برباط من الشمع .

وحين أخذ ميركوربوس يتهيأ لاستكمال قصّته وجد أَرْجُس قد استسلم للنوم وأطبق جفونه كلها ، فأمسك عن الحديث ، وأخذ النعاس يشتد شيئاً فشيئاً بأَرْجُس حين مسّه بصولجانه السحري . وما إن رآه قد غلبه النوم حتى حمل عليه بسيفه المقوّس فأطاح برأسه وطوّح به بعيداً والدماء تسيل منه على صخرة عالية فتلَطّخت الصخرة كما تلطّخ سطح الهاوية ، ثم وقف يقول : « ها أنتذا الآن يا أَرْجُس جثة هامة بلا ٧٢٠ حراك ، قد ذُبل خذاك فلم تعدّ لهما نضرتها ، واطلم نور عيونك المائة وكأنه عليها غشاوة » . غير أن ابنة ساتورن جمعت بعد تلك العيون المائة ورصّعت بها ريش طاووسها كما رصّعت ذيله بجملته من الأحجار البراقة^(٢٩) .

وتصدّت نچونو لغريماتها الأرجوسية وهي أشدّ ما تكون غضباً ، فوكلت بها إحدى « الإيرينات » ربّات الانتقام ، وزوّدت البقرة بمنخاس خفى في صدرها يدفعها إلى الهرب دائماً مصطحبة دُعرها أنى حلّت . وبقيت أنت أيها النيل آخر المطاف لرحلة إيو الشاقة المتواصلة . وما إن انتهت إيو إلى النهر حتى خرّت ساجدة على شاطئه ، رافعة رأسها متّجهة إلى السماء — وما كانت تملك غير ذلك — وعيناها تذرفان الدمع ، وهي تطلق خواراً شديداً ، وكأنها تجأ إلى چوپيتر ضارعة أن يجعل لهذه الآلام نهاية . وطوّق الإله بذراعيه عنق زوجته متوسّلاً إليها أن تستجيب لها وهو يقول بعد أن أشهد على نفسه مستنقعات نهر ستيكس : « لا تخشى بعد هذا اليوم منها بأساً » . واطمأنت الإلهة إلى ما قطعته الإلهة على نفسه ، وعادت ٧٤٠

إيو إلى صورتها الأولى ، فتساقط ذلك الشعر الذى كان يكسو جلدها ، وغابت القرون شيئاً فشيئاً ، وارتدت عيناها إلى استطالتهما بعد أن كانتا مستديرتين ، وأخذ فمها يصغر ، واستوت لها كتفاها ويداها ، وانخلعت عنها حوافرها وحلت مكانها أصابعها الخمس بأظافرها ، ولم يتبق من صورتها وهى بقرة غير بياضها الناصع . عندها هبت واقفة على قدميها وهى تردّد فى فيها بعض الكلمات تختبر بذلك صوتها مخافة أن يكون كما كان خواراً ، وحين اطمأنت إلى أنها استردّت صوتها أخذت تستعيد قدرتها على الكلام ، وغدت إلهة بين الإلهات الشهيرات ، تُقدّم إليها القرابين خشوً من الناس قد التفوا بأردية من الكتان (٣٠) .

فايثون

ووضعت إيو ابنًا هو إيبافوس (٣١) يقال إنه كان ثمرة اجتماع چوبيتر الجليل بها ، ونجد معابده تقام إلى جوار المعابد التى لأمه . وكان فايثون ابن إله الشمس أشبه بإيبافوس طبعاً وأقرب إليه سنّاً غير أنه كان معتزاً بأبيه فوبيوس ، فجرّه ذلك يوماً إلى الزهو على إيبافوس الذى لم يعد يحتمل هذه الخيلاء فقال له : « أيها المخدوع يا من يثق بكل كلمة تقولها له أمه ، ويا من أوهوك فاصطنعوا لك أبا عزوك إليه » . فاحمرّ وجه فايثون خجلاً وكنتم غيظه فى نفسه ، وسارع إلى أمه كليمينيه وأخبرها بما قاله له إيبافوس ، ثم أردف قائلاً : « جدير بك أن تألمى لما أصابنى من هوان ، وإنه لعزيز على أن ينالنى ما نالنى وأنا صامت لا أفوه بكلمة ، فقد كنت أخشى أن يكون إيبافوس صادقاً فيما رمانى به ، وعليك أنت وحدك إن كنت حقاً من السماء انحدرت أن تعطينى الحجة على ذلك . عندها سوف تمسح عنا معاً هذا العار الذى لحقنا » . وانكفأ على أمه يطوق جيدها بذراعيه ، ويستحلفها بحقه وحق ميروپس (٣٢) وبشعلات أفراح أخواته ألا أخبرته عن أبيه من هو ؟ وأحفظت هذه الكلمات كليمينيه وأثرت فى نفسها توسلاته ، وانجذبت إلى قرص الشمس الوضاء رافعة ذراعيها فى الفضاء لتقسم وتقول : « أقسم لك يا بنى بحق هذا الكوكب الذى يبهرننا بضوئه والذى هو على ما أقول شهيد ، إنك ابنٌ لإله الشمس هذا الذى يسمعون ويرانا والذى إليه مدار حياة العالم . وإن كنت كاذبة فلتغش الشمس على بصرى فلا أعود أطلع إليها ، ولتكن هذه نظرتى الأخيرة إليها . وما عليك يا بنى كى تعرف أسلافك من الآلهة إلّا أن تمضى غير بعيد حيث موطن هذا الإله الواقع على حدود بلادنا فتسأله عن كل ما تريد » . وملأ الاطمئنان قلب فايثون وعمّه الفرح عند سماعه قولها ، وإذا هو فوق الأثير يقصد ذلك المكان الذى يطلع منه أبوه ، مجتازاً إثيوبيا موطن شعبه ، وبلاد الهند القريبة من قرص الشمس الملتهب .

التعقبات

- (١) كان القدماء يفرّقون بين المناطق الشديدة الحرارة الواقعة داخل المدارين والمناطق المعتدلة الحرارة شمالها وجنوبها مباشرة والمناطق الجليدية حول القطبين . وذكر فرجيل في كتابه « فن الفلاحة » هذا التقسيم للأرض إلى خمس مناطق تقابل خمساً أخرى في السموات .
- (٢) يابيتوس أحد المردة التيتان أبناء جيا وهو والد أطلس وپروميثيوس ، وكان الأخير يُعَدُّ راعي البشر وحاميهم من غضب الآلهة ومانحهم خيرات الحضارة وأهمها النار ، ويقال إنه قد خلق الإنسان من تراب .
- (٣) كان القدماء يتصورون أن الشَّهَد قطرات ندى تساقط من السماء ثم يجمعها النحل من ورق شجر البلوط الذي كان مكرّساً للإله جوبيتر .
- (٤) ساتورن الذي يتحدث عنه أوفيد يقابل كرونوس اليوناني الذي خلعه ابنه جوبيتر « زيوس » عن عرشه وألقى به في نهر تارتاروس بالعالم السفلي . أما ساتورن للإله الذي كان يعبد الرومان فمختلف كل الاختلاف عن كرونوس لما يتحلّى به من صفات طيبة ومن خلق ينجح إلى السلم .
- (٥) هي بنت زيوس وثيرميس ، وكانت قد عاشت في الأرض بين البشر طوال العصر الذهبي إذ كانت تُمثّل العدالة ، وقد ذكر فرجيل نفس الحادث في كتابه « فن الفلاحة » .
- (٦) العالقة كائنات بشعة كثيراً ما يختلط الأمر بينهم وبين المردة . وذكر هزودوس أن العالقة أبناء جايا ربّة الأرض أنجبهم من الدم الذي انتثر من جرح أورانوس « السماء » الذي ألحقه به ابنه كرونوس . وقد جمع عالم لغة يوناني في القرن الثاني قبل الميلاد اسمه أبوللودوروس كل ما يتعلق بقصة صراعهم ضد الآلهة . وكانت هذه القصة من أحب الموضوعات إلى الفنانين الإغريق والمتأخرين ، الأمر الذي نلمسه بوضوح على إفريز مذبح پرجامون الكبير .
- (٧) كان الإمبراطور أوغسطس يعيش فوق تل الپالاتينوس في روما ، وهو التل الذي شيدت عليه بعد ذلك قصور غيره من الأباطرة أمثال سبتيموس سيفيروس وفلافيانوس . ويبدو من هذه العبارة مدى التملق الذي ذهب إليه أوفيد .
- (٨) أغلب هذه الكائنات من الآلهة اللاتين المحليين ولا صلة لهم بأولئك الذين عهدناهم في عصر الإغريق .
- (٩) إشارة إلى مقتل قيصر بواسطة بروتوس وكاسيوس عام ٤٤ ق.م .
- (١٠) أساء جبال ثلاثة في أركاديا بالمورة وكان لجوبيتر معبد مشهور في ليكاويس .
- (١١) أطلق اسم الطاغية Tyrant على الملوك الذين اعتلوا العرش في المدن اليونانية التي خضعت لنظام حكم القلة « الأوليجاركية » بغير نظام الوراثة كما كان متبعاً خلال القرنين السابع والسادس ق.م . وأطلق على عهدهم اسم عهد الملوك الطغاة . غير أن حكمهم لم يكن بالضرورة متصفاً بالطغيان والإرهاب ، فقد التصق هذا المعنى المستهجن باللفظ فيما بعد ، خاصة في عهد دولة المدينة « پوليس » الديمقراطية في القرن الخامس ق.م . حيث ظفر قلة الملوك الطغاة بالتمجيد والتكريم . كذلك جاء أفلاطون فساعد على إضفاء دلالة مستهجنة على هذا اللفظ حين وصف هذا النظام في « الجمهورية » بأنه أسوأ نظم الحكم الممكنة .
- (١٢) كان الأرسيون يقطنون منطقة جبلية شمال شرق اليونان ، ويقال إن نيپتوليموس بن أخيل كان قد أدرك شواطئ مولوسيا « إبيروس الآن » أثناء عودته من طروادة بصحبة أسيرته أندروماخى أرملة هكتور .

(١٣) كانت ربات الانتقام المسماة « إيرينيس » عند الإغريق و « فورياد » عند الرومان مسئولات عن عاقبة كل مخالفة للقوانين الإلهية وغيرها من مبادئ الأخلاق والقوانين الوضعية البشرية . ويقصد أوفيد هنا أنهم يعاقبون المذنبين ببث الجنون فيهم ، الأمر الذي يدفع إلى الإفراط في ارتكاب الجرائم .

(١٤) الكيكلوپيس الثلاثة هم برونس وستروبيس وأرجيس وهم أبناء جايا وأورانوس ، وكانوا حلفاء لجوبيتر في قتاله ضد العملاقة بل هم الذين زودوه بالرعد والصواعق .

(١٥) جمع حيزوم وهو صدر السفينة .

(١٦) شاعت فكرة أن الطوفان عقاب للبشر لورودها في الكتب السماوية . وكانت الأساطير الشرقية تتضمن نفس قصة الطوفان كما نرى في ملحمة جلجامش الكلدانية حيث نجد البطل يسمع قصة الطوفان على لسان جده الذي نجا وحده من الغرق بتشبيده سفينة بأمر الإله « إيا » .

(١٧) تفصل فوكيس بين بويوتيا وأويتا جنوب ثيساليا . وكانت لجبل پارناسوس قمم كثيرة تصل أهمها إلى ارتفاع ٢٤٥٧ متراً فوق سطح البحر .

(١٨) كان ديوكاليون بن عم بيرافهو ابن بروميثيوس وهي ابنة إيميثيوس شقيق بروميثيوس . وثمة أسطورة تقول إن ديوكاليون وبيرافقد وضعا في صندوق مغلق أرسته المياه على قمة جبل پرناسوس ، وقيل إنه جبل أوتريس أو إتنا أو أثوس .

(١٩) يذكر هرمان فرانكل في كتابه عن أوفيد صحيفة ٧٦ أن المقصود من الأم هنا « جايا » الأم الأرض ، أما العظام فهي الصخور والخصى التي كان ديوكاليون وبيرافقدفانها من وراء ظهرهما فيولد منها جنس جديد من البشر .

(٢٠) استمد أوفيد هذه النظرية من فلسفة الرواقين الذين استمدوها بدورهم من الفيلسوف أنكساجوراس .

(٢١) كان الثعبان عند الإغريق تمسيداً لآلهة الخصوبة . وكان فوز أبوللو على بيثون رمزاً لخلق جايا من الألوهية . والمعروف أن عبادتها ظلت في بيثو ، وهو الاسم القديم لدلفي إلى أن وفدت عبادة خليفتها أبوللو على نفس المكان ، وأغلب الظن أنها عبادة كريتية الأصل . وكانت الألعاب البيثوية التي تقام في دلفي تكريماً لأبوللو مجرد مباراة موسيقية في بادئ الأمر ، ثم تحولت في عام ٨٥٢ ق.م. إلى مهرجان يضم مباريات في الفروسية وألعاب القوى كما كانت الحال في الألعاب الإغريقية الأخرى .

(٢٢) يخترق نهر بينيوس إقليم ثيساليا ويجتاز عند نهايته وادي تمهي المشهور .

(٢٣) كانت كلاروس على شواطئ أيونيا ، وتينيدوس جزيرة في مدخل الهليسبونت ، وباتارا مدينة كبيرة على شواطئ ليسييا وكلها تضم معابد أبوللو .

(٢٤) اشتهرت كلاب الغال بسرعة العدو .

(٢٥) هاميونيا اسم آخر لثيساليا .

(٢٦) حوريات الأشجار .

(٢٧) جبل بركاديا .

(٢٨) نهر في أركاديا .

(٢٩) كان الطاووس هو طائر جونو المقدس .

(٣٠) كان الإغريق يخلطون دائماً بين إيو وبين إيزيس الإلهة المصرية الممثلة دائماً بقرن بقر . وكانت عبادة إيزيس قد انتشرت في أنحاء العالم الإغريقي منذ تأسست مدينة الإسكندرية ثم انتشرت عبادتها في الدولة الرومانية مع الأباطرة الأول ، كما كان المصريون يرتدون ثياباً من الكتان في حين يرتدى الإغريق ثياباً صوفية . ويرى أيسخولوس قصة مسخ إيو في مسرحيته « الضارعات » وفي « بروميثيوس مغلولاً » . أما المؤرخ هيرودوتس فيقرر أن إيو بنت إيناخوس ملك أرجوس قد اختطفها تجار فينيقيون وأبحروا بها إلى مصر .

(٣١) اعتبر الإغريق إيبافوس هو العجل أبيس المصري .

(٣٢) كليمينيه هي بنت أوقيانوس وتيثيس ، وهي زوجة ميرويس ملك إثيوبيا « النوبة » ، وكانت قد أنجبت من هليوس إله الشمس قبل زواجها فايثون وأهليادييس بنات الشمس .



بيكاسو

الكتاب الثاني

فايشون

كان قصر الشمس شامخ الأعمدة متألقاً ببريق ذهبه وبرونزه وأسطحه العاجية المصقولة ، تنعكس الأضواء من أبوابه الفضية ذات المصراعين التي كانت صنعتها أكثر قيمة من جواهرها ، فقد نقش مولكيبير^(١) [فولكانوس أو هيفايستوس] فوقها البحار وهي تضم الأرض بين أحضانها ومن فوقها السماء . وفي خضمّ الموج ظهر آلهة البحر : تريتون^(٢) الشاذى ، وپروتیوس^(٣) ذو الأشكال المختلفة ، وأيجيون^(٤) المتكىء بذراعيه على ظهر حوتين ، ودوريس^(٥) وبناتها بين سباحة فى الماء أو ممتطية ظهر سمكة أو جالسة على صخرة تحجّف شعرها الذى كساه البحر من زُرقتة ، وكُنَّ على الرغم من تحالف ملاعهن يربط بينهن ما يشبه الأخوة . وظهرت فوق الأرض جماعات البشر والمدن والغابات والوحوش والأنهار والبحوريات وجنيات

الريف ، تَظْلَهُمْ جميعاً السماء بيروجها الإثني عشر^(٦) ، ستّة على المصراع الأيمن للباب ، والأخرى على مصراعه الأيسر .

وأصعد ابن كليمينيه إلى قصر ذلك الإله وهو يسائل نفسه أية قرابة تلك التى بينه وبين إله الشمس ؟ وتقدّم إلى أبيه ، غير أنه لم يقو على أن يقترب منه فقد بهره بشدّة نوره . وكان إله الشمس جالساً فى ثوب أرجوانى على عرش يتألّق بزمردّه ، واصطفّت إلى جانبه على مسافات متساوية ربّات الزمن : « اليوم » و « الشهر » و « السنة » و « القرون » و « الساعات » . وهناك أيضاً كان الربيع الغضّ مكّلل الرأس بالزهور ، والصيف الأجرد حاملاً سنابل القمح بيمينه ، والخريف بقدميه المبلّتين بعصير الكرّم الأرجوانى الذى هرسه ، والشتاء القارس الأشهب بخصلات شعره البيضاء .

وتملّكت الصّبى رغبة دَهْلًا من غرابة ما يراه ، واستدار إليه الإله الشمس وهو فى جلسته بين حاشيته وحدجه بعينه التى ترى كل شيء ، وسأله : « فيم جئت ؟ وما قصدك من زيارة هذه القلعة يا فايثون ، يا من لا يقوى أبوك على أن ينكر بنوّتك » ، فأجابه قائلاً : « أبى ، أيها الإله فوبيوس ، يا من يهنا كل ما فى الكون الفسيح بنورك ، إذا كنت قد أجزت لى أن أناديك « أبى » ، وإذا كانت كليمينيه لا تكذبني ولا تخفى عنى أسرار خطيئة ارتكبتها ، فلتقدّم لى دليلاً على صدقها وبرهاناً يثبت بنوّك لك ويبدّد كل شكوكى » .

وما إن انتهى من كلماته حتى طرح الأب عن رأسه وهج أشعته وسأل ابنه أن يقترب منه ، وما كاد يفعل حتى احتضنه قائلاً : « إنك حقيق بأن تكون ابناً لى ، وقد صدقتك كليمينيه فيما حدّثتك به عن نسبك ، وسوف أستجيب إلى أى طلب لك كى أبدّد شكوكك مُشهداً على ذلك تلك البحيرة التى يُقسم عندها الآلهة ، والتى لم يقع عليها بصرى قط » .

وأسرع فايثون فطلب من أبيه أن يتخلّى له يوماً عن مركبته ليركبها ويدفع خيولها المجنّحة الأقدام . عندها ندم إله الشمس على وعده ، وهزّ رأسه المتألّقة مرات ثلاث ، وقال : « إن استجابتى لطلبك تكشف عن اندفاعى وتسرعى ، وكم وددت لو نقضتُ ما وعدت . ولتعلم أن هذا الذى تطلبه منى هو ما آباه عليك وأحول دونك ودونه ، فأنت مُقدّم على عمل خطير تقصّر عنه قوتك ويعجز عنه شبابك الغضّ . وهل أنت غير بشر ، وما فى قدرة البشر الفانى فِعْل ما تريد ، وإن جهلك بالأمر هو الذى يجعلك تطمع فيما لا يناله الآلهة أنفسهم ، فهم على ما بلغوا من قوة لا يشاركوننى ارتقاء هذه المركبة الناريّة التى لا يقوى على قيادتها كبير آلهة الأوليمپوس نفسه رغم بأسه وامتلاكه الصواعق يطوّح بها بيده العاتية ، فمن تراه يفوق جوبيتر قوة ؟ والخيل لا تقوى على ارتقاء الطريق الصاعد إلّا بجهد حتى فى الصباح وهى ماتزال فى عنفوانها ، وكم أصابُ أنا بالهلع ويخفق قلبى حين تبلغ المركبة سمّت السموات العليا وأطلّ على الأرض والبحار . ثم إن الطريق ينحدر هابطاً بعد ذلك فتغدو قيادة الخيل فى حاجة إلى يد قوية وصلابة وثبات ، وما أكثر ما كانت الإلهة تيثيس^(٧) التى تستقبلنى فى مياها تحشى أن أسقط من علّ . هذا إلى ما كان يعمل فى

السماء من حركة أبدية تدفع بها النجوم في دورتها العَجَلَة في الأفلاك^(٨) . وكان على أن أشقّ طريقى وسطها دون أن تهوى بها عند صدامها بى ، فأننا وحدى القادر على السير ضد مدار الكواكب الدائرة في أفلاكها . وماذا تملك أن تفعل أنت لو أسلمتكم المركبة ؟ أترك قادراً على الصمود أمام دورة القطبين العنيفة دون أن تقذف بك بعيداً قُبّة السماء الدوّارة ؟ هل تخال السماء ملأى بالغيضات المقدّسة ومُدُن الآلهة والمحارب التي تفيض ثراء ؟ ما أبعد ذلك عن الواقع يا بنى ، إن عليك أن تشقّ طريقك وسط شرك خطر وحيوانات ضارية ، ولو قُدّر لك أن تسلك طريقك السوى دون أن تنحرف هنا وهناك ، فسوف يكون عليك أن تتجنّب قرنى برج « الثور » الخطير وقوس برج « الرامى » وأنياب الأسد الهائج ، وأذرة العقرب التي قد تُطَبّق عليك من ناحية على حين تهذّك أذرة السرطان من ناحية أخرى^(٩) . ثم كم ستثقل عليك قيادة خيلى حين تشتعل النيران المخترنة في صدورها وتنفضها من خطمها وخياشيمها ، فهي لا تكاد تطيق كفى ساعة ثور حماسها ولا تستسلم رءوسها لأعنتى . إننى أحذرك خشية أن يكون في استجابتي لطلبك ما يجرّك إلى الهلاك ، وإن الفرصة لاتزال سانحة بين يديك أن تطلب ما تشاء عوضاً عما منحتك إياه مما ينفعك . فليس ثمة دليل على أبوتك لك أوضح من لهفتى عليك ، وخوفى عليك شاهد أبوتى ، فلتتطّلع إلى وجهى لعل عينيك تستطيعان النفاذ إلى أعماقى ورؤية ما يختلج فيها من قلق عليك . تلفت إلى خيرات الكون حواليك وتثبّ ما شئت من طيبات الأرض أو البحار أو الأجواء فلن أضنّ عليك بشيء منها ، واعلم أنى لن أرجع عما وعدت به ، غير أنه لن يكون تكريماً لك بل عذاباً تشقى به . فيم إذن معانقتك لى تستعطفنى وأنت لا تعى كُنه طلبتك ؟ ولكن على الرغم من هذا فلا تحشى ألا أحقق لك ما طلبت فقد أقسمت على الوفاء بنهر ستيكس ، ولكنى أريد منك أن تُنعم النظر فيه .

وضرب الابن بتحذيرات أبيه ونصائحه عرض الحائط ، فقد كان توّاقاً إلى قيادة مركبة إله الشمس . وحين أحسّ الأب ذهاب محاولاته عبثاً في أن يُثني ابنه عن عزمه أخذه إلى مركبته الهائلة التي صنعها له فولكانوس وصاغ من الذهب محاورها وعريشها وأطر عجلاتها ، كما جعل أقطار العجلات من الفضة ، ووشى نيرها بالزبرجد ، ورصّ بها صفوفاً من الجواهر تُرسل بريقاً حين ينسكب عليها نور فوبيوس . وحين أخذ فايثون الطُمُوح يتحسّس أجزاء المركبة في إعجاب كانت « أورورا » ربّة الفجر المشرق قد بدأت تفتح في أقصى الشرق أبواب قاعاتها المترعة بالورود ، فانسلّت النجوم تدفع صفوفها الطويلة نجمة الزهرة^(١٠) التي كانت آخر من تركت مكانها في السماء . وما إن رآها إله الشمس تغرب مع قرنى القمر وسط السماء الوردية حتى أمر ربّات « الساعات » السريعة الخطى بشدّ الجياد إلى النير ، فاستجابت « الساعات » لأمره وأخرجت الجياد من الحظائر السهوية ، تنفث اللهب مُتخمة بما التهمت من الأمبروزيا [طعام الآلهة] ، وربطتها إلى المركبة .

وطلى الأب وجه ابنه بدهن مقدس كى يُعينه على احتمال وهج النيران ، وتوجّ رأسه بحزمة من أشعة الشمس ، وأطلق زفرة عميقة كشفت عما يترقبه من فجعية محزنة ، وقال : « فلتطع نصائح أبيك ما استطعت . كن مترقّقاً في استعمال السوط ، واقبض على الأعنة بكل ما تملك من قوة ، ودع الجياد تمضى في

عَذُوها فالويل لك إن هي أبطأت ، وتجنّب الطريق المستقيم المار بمناطق السماء الخمسة ، واتبع الطريق المنحدر الدائري الفسيح المار خلال مناطق الكون الثلاثة الوسطى متجنباً القطبين الشمالى والجنوبى وعواصفها الشديدة البرودة ، وسوف تبتين في هذا الطريق آثار عجلات المركبة . ولا تنجح إلى طبقات الجو العليا أو السفلى ، ودع الدفء قسمة عادلة بين الأرض والسماء ، فإنك إن ارتفعت عالياً أشعلت النار في قبة السماء ، وإن هبطت إلى أسفل أحرقت الأرض ، وإن آمن الطرق أوسطها . ولا تنحرف يمينا صوب كوكبة الأفعى الملتفة حول نفسها ، ولا يساراً نحو منخفضات كوكبة المجرمة ، وكن بينهما على بُعد وسط . وسوف أترك ما وراء ذلك لإلهة الحظ « فورتونا » سائلاً إياها أن تحيطك برعاية تفوق ما تملك أنت لنفسك ، وهياً الآن فقد بلغ الليل الشاطيء الغربى وما في استطاعتنا أن نتلبّث ، وعلينا أن نبادر بالظهور فقد بدأ نور الفجر ينبج وأخذت الظلمة تتبدّد . اقبض بقوة على الأعنة ، برغم أنى مازلت أمل أن تستجيب إلى نصحي ولا تُقدِّم على ركوب هذه المركبة ، فما برحت أنت قادراً على التراجع عن رغبة فيها هلاكك ، وما برحت قدماك ثابتتين على الأرض الصلبة . إنك مازلت قليل الخبرة ، وإذا شئت أن تنعم عينك بالنور وأنت آمن ، فدعنى أسكبُ لك على الأرض . غير أن فايثون اندفع في حماسة الشباب واعتلى المركبة التي لم تنؤ بجسده الغض ، وأخذ الأعنة من يد أبيه فرحاً ، واتخذ مكانه واقفاً ولسانه يلهج بشكر والده المحزون .

أخذت خيول إله الشمس الأربعة بيروس وإيوس وأيثون وفليجون^(١١) تملأ الأجواء بصهيلها وأنفاسها المشتعلة ، وتضرب الحواجز بحوافرها ، وسرعان ما أزاحت الإلهة تيشيس الحواجز من طريق الخيل وهى تجهل المصير الذى ينتظر حفيدها ، فتفتحت أبواب السماء أمام الجياد التى اندفعت صاعدة في الفضاء بحوافرها المجنحة متخطية رياح الشرق العاصفة في مهادها . وأحسّت الجياد بالمركبة أكثر خفة مما كانت حين كان يعتليها إله الشمس ، وبدت المركبة كالسفينة التى يتلاعب بها الموج لحقتها ، فأخذت تتأرجح وتعلو وكأنها فارغة ، وما إن أحسّت الجياد بذلك حتى انحرفت عن طريقها وتخلّت عن اتجاهها المعهود . واستولى القلق على قائد المركبة الذى كانت تعوزه المهارة في القبض على أعنة الخيل فانفلت زمامها من يديه ولم يعد يعرف طريقه ، ولو قدّر له أن يعرفه فلن يُقدّر له أن يملك السيطرة على الجياد . عندها التهبت كوكبة الدبّ الأكبر الثلجية للمرة الأولى ، وعبثاً حاولت أن تبتد في مياه البحر المحرّم عليها ، ودبت ثورة محمومة في كوكبة الثعبان التى كانت برودتها تثبط من حركتها ، ويقال إن كوكبة « راعى الشاء » قد ولت فراراً وقلبها مشحون قلقاً رغم بطء حركتها ورغم كونها أسيرة مركبتها المتهادية .

ووقع بصر فايثون التعس من السماء الشاهقة على الأرض التى على بُعد سحيق ، فعلا وجهه الشحوب وارتجفت أطرافه رعباً ، وغشى الوهج عينيه ، وتمنّى لحظتها لو لم تلمس يداها قط جياد أبيه ، وعراه الندم على محاولته تعرّف نسبه وعلى استجابة أبيه لرغبته ، وودّ لو كان ابناً لميrops بدلاً من فويوس^(١٢) وقد أخذت المركبة تهتز كسفينة جرفتها رياح الشمال العتية ، فأسلم ربّانها لها القيادة تاركاً رعايتها للآلهة يضرع إليها بالدعاء . ماذا ترى فايثون فاعلاً ؟ لقد قطع مسافة شاسعة من السماء وكانت

ثمة مسافة أبعد مدى عليه أن يقطعها ، وأخذ ينظر إلى الغرب الذي لن يبلغه ثم إلى الشرق وراءه ، وهو بينهما حائر عاجز عن إرخاء العنان وجذبه والسيطرة على الجياد التي كان يجهل حتى أساءها .

وزادته خوفاً تلك الوحوش الضخمة التي وقع بصره عليها متناثرة على صفحة السماء المرصعة بالنجوم ، ورأى العقرب يمدّ إليه مخالبه على شكل قوسين مُرخياً ذيله ، باسطاً أذرعه المستديرة على جنبه فوق نجمين . ولم يكد الفتى يراه في صورته البشعة يتقاطر منه السم القاتل حتى جُمَدَ الدم في عروقه وعراه فرع أسقط من يده العنان على ظهور الجياد التي وجدت نفسها طليقة مُرسلة الزمام ، فانحرفت عن طريقها المؤلف وانطلقت على هواها خلال أجواز الفضاء تطرق دروباً مجهولة ، واتجهت إلى النجوم العالية تجرّ المركبة وراءها منتقلة من هوة إلى أخرى ، صاعدة المرتفعات تارة وهابطة المنحدرات تارة أخرى حتى اقتربت من سطح الأرض . وأمسك العجب بـ « لونا » ربّة القمر وهي ترى جياد أخيها تهوى والدخان ينطلق من السحب المحترقة والنيران تلتهم مرتفعات الأرض فتتشقق وتبرز فيها الأخاديد لجفاف تربتها وتلتهم المراعى فتقلب هشيماً ، وألسنة اللهب تأكل الأشجار وأوراقها متخذة من حصاد الحقل وقودها . ولم يكن هذا كله غير شيء هين إلى جانب اندثار المدن الكبرى واحترق الأسوار وتهدمها وتحول شعوب بأسرها إلى رماد ، واشتعال الغابات على سفوح الجبال . وقد أكلت النار جبل آثوس^(١٣) ، وجبل الثور^(١٤) في سيليسيا وجبل تيمولوس^(١٥) ، وجبل أويتا^(١٦) ، وجبل إيدا^(١٧) الذي كانت ينابيعه ذائبة الشهرة قبل جفافها ، كما أتت النيران على جبل هيليكون موطن ربّات الفنون ، وجبل هيموس^(١٨) الذي ارتبط اسمه بعد ذلك باسم أورفيوس ، وتآججت نيران بركان إتنا^(١٩) فتناولت ألسنتها إلى آفاق عالية . واشتعلت القمم التوائم بجبال پارناسوس ذات القمّتين وإيريكس^(٢٠) وكيثوس^(٢١) وذاب جليد جبال أوتريس^(٢٢) ورودوبي^(٢٣) وميلاس^(٢٤) ودينديا^(٢٥) وميكالي^(٢٦) وكيثايرون^(٢٧) مهد الطقوس الدينية ، ولم يَحْمَ الصقيع جبال سكيثيا من أن تلتهمها النيران ، وكذلك كان مصير جبال القوقاز^(٢٨) وأوسا وپيندوس ، وتوهّج اللهب في الأوليمپوس^(٢٩) أعظم هذى الجبال شأنا ، وبلغت الجرائق جبال الألب الشاهقة الارتفاع وسلسلة جبال الإپنين التي تتوّج السحب قممها .

ورأى فايثون العالم كله مشتعلًا بالنار فغشيته حرارة عجز عن احتياها وأرسل زفرات حارة كتلك التي تُطلقها الأفران المشتعلة ، يحاصره وهج مركبته فيضيق بالشرّ المتطاير منها ، ويلفّه الدخان الساخن وتُعْمِيهِ الظلمة الخالكة فلا يدرى أين هو ولا أين يسير ، تجمع خيوله العجلى على هواها حيث تقودها أقدامها المجنّحة . وشاع بين الناس أن بشرّة الإثيوپيين قد استحالت سوداء في هذه اللحظة إذ انبثق الدم إلى بشراتهم . وفي هذه اللحظة أيضاً جفّت الحرارة مياه ليبيا فغدت صحراء ، وأخذت الحوريات ينزعن شعورهن ناثحات على ينابيعهن وبحيراتهن المفقودة ، وعبثاً حاولت بويوتيا البحث عن ينبوع ديركى^(٣٠) بين ظهرائها ، وأرجوس عن ينبوع أميمونية^(٣١) ، وإفيري^(٣٢) عن مياه پيريني .

ولم تسلم مياه الأنهار المتدفقة في مجراها السوي من لفح النيران الذي جفّف الينابيع ، فقد تبخّرت مياه نهر تانائس^(٣٣) حتى بدا جافاً ، كما جفّ نهر پينپوس^(٣٤) العتيق ، ونهر كايكوس^(٣٥) في ميسيا ، ونهر

إسمينوس^(٣٦) السريع الجريان ، وحق المصير نفسه بنهر إيريمائوس بأركاديا ، وبنهر زانزوس^(٣٧) الذى غاض ماؤه بعدد . وكذا نهر ليكورمارس^(٣٨) الأصفر ، ونهر مياندر^(٣٩) الذى يتلوى مجراه فى منحنيات شبيهة بالدوائر ، ونهر ميلاس بطراقيا ، ونهر إيروتاس بأسبرطة ، وكذلك نهر الفرات ببابل ، والعاصى بسوريا ، وثرومودون^(٤٠) الجياش ونهر الجنج بالهند ، وفازيس^(٤١) ، وهستر^(٤٢) ، وغلت مياه نهر ألفيوس^(٤٣) والتهمت النيران شواطئ نهر سپيرخيوس^(٤٤) ، وذاب الذهب المكنوز بأعماق نهر تاجه ، واحتترق طيور نهر مايونيا^(٤٥) ، وطيور نهر كايستر^(٤٦) التى أضفى تغريدها على شواطئه ذيوفاً لصيته ، وأمسك الذعر بنهر النيل فولى هارباً وأخفى رأسه فى أقاصى الأرض حيث استقررت هناك ، وخلف مصابيه القنوات السبع جافة لا يغمرها غير التراب ، وبقيت سبع وديان بلا مياه . وحق هذا المصير بنهرى الهيبر^(٤٧) ، وستريمون^(٤٨) الواقعين فى بلاد الإيزماروس^(٤٩) ، وكذلك أنهار منطقة هيسبيريا^(٥٠) وهى الراين والرون وبو والتير الذى وعدت الآلهة بأن يسود الكون .

أخذت الشقوق تغشى الأرض ويتسرب من خلالها الضوء حتى بلغ تارتاروس ، مُلقياً الرعب فى قلبى عاهلى العالم السفلى . وتقلصت المحيطات خلف مساحات شاسعة غطتها أكوام الرمال ، ومُبرزة جبالاً كانت مستورة تحت المياه العميقة^(٥١) ، فتكاثرت سلاسل المرتفعات المنتشرة فى العالم ، وانقلبت الأسماك تغوص فى أعماق المستنقعات ، وجبُن الدرفيل عن القفز فى الهواء كعادته ، وطفئت جثث عجول البحر فوق سطح البحار ، وقيل إن نيريوس وزوجته دوريس وبناتهما قد استشعروا وهج الحرارة وهم فى أغوار كهوفهم ، وعجز نبتون عن إخراج رأسه وذراعيه من مياه البحر بعد أن حاول ذلك مرات ثلاث. لاشتعال الهواء خارج البحار .

وحينما نفذت مياه البحار والمحيطات المحيطة « بالأرض » إلى أحشائها وملأت جوفها المعتم أخرجت « الأرض » رأسها من بين الرماد وأحاطتها بيديها آتقاء للفحات الحرارة ، فاهتز كل شيء اهتزازاً عنيفاً ، وهوت الأرض عن مكانها المعتاد وهى تنبث فى ألمٍ مهممة : « إذا كانت هذه هى مشيئة القدر ، وإذا كان هذا مصيرى ، فلم لا تعجل أيها الإله القادر بإرسال صواعقك لأهلك على يديك إن كان قد قُدر لى أن أهلك بالنار ، فأية كارثة تبعث بها أنت يهون على حملها » . وكانت حرارة الأجواء تلسع حلقتها حين تتحدث ، فأردفت تقول : لكم يشق على أن أفتح شففى لأحدث . وها هو ذا شعرى قد احترق ، وانساب الرماد إلى عيني بعد ما غطى وجهى . أهذا هو جزاء خصوبتى ؟ أهذا هو التكريم الذى أناله على خدماتى ؟ أمن أجل هذا احتملت الجراح التى شقته فى جسدى المحارث والفؤوس دون أن أنال قسطاً من الراحة طوال العام ؟ أهذا ما أجازى به عن تدبيرى الأوراق والأعشاب الرطبة للماشية ، والغلال للبشر ، وإنبات الأخشاب العطرة التى تُحرق من أجلكم بخوراً أيتها الآلهة ؟ . وإذا كنت مستحقة للهلاك ، فأى ذنب جنته المياه ؟ وماذا جنى أخوك حتى تتضاءل البحار التى مُنحها ساعة تقسيم الكون ؟ . فإذا لم تكن بى مُشفقاً ولا بأخيك ، فلتلثف حواليك ولتشفق على مملكته السماوية ، لقد أمسكت النار فى القطبين ولو أتت عليهما لانهدم قصرك . ولتنظر إلى أطلس^(٥٢) يعانى مُثقلاً بحمل السماء المشتعلة فوق كتفيه ، وتذكر

أنه لو هلكت الأرض والبحار والسماء لانتهى الأمر بنا جميعاً إلى الفوضى الشاملة . فبادر إلى إنقاذ ما يسعك إنقاذه من الدمار أيها الإله الأجل ، وأدرك الكون واكتب له النجاة » .

٣٠٠

ولم تكذنته ضراعة إلهة الأرض حتى حنت رأسها ودفنتها في الكهوف المتاخمة لعالم الموت عاجزة عن احتمال مزيد من الحرارة . ودعا ربّ الأرباب الآلهة إليه ومن بينهم إله الشمس الذى أسلم مركبته لولده فايثون ، وبعد أن أشهدهم جميعاً على أن نجاة العالم من الفجعية رهن بمعونة فويبوس صعد عالياً في السماء إلى ذلك المكان الذى اعتاد أن يُطلق منه الغيوم والرياح والصواعق الخاطفة ، غير أنه لم يرسل سحبا ولا أمطاراً وإنما أطلق رعداً مدوياً ، ورفع بيده الصاعقة قريباً من أذنه اليمنى ثم صوّبها إلى قائد مركبة الشمس فأفقدته توازنه وحياته معاً . وكان لهيب الصاعقة أعظم أثراً من نيران مركبة الشمس فأحرقت المركبة وانطلقت خيولها مولية الأدبار على غير هدى ، وتناثرت أجزاء المركبة فراحت عُدّة الجياد يئمة بينها ذهب عريش المركبة يُسرة ، وهنا وهناك برامق العجلات وحطام المركبة . وهوى فايثون في الفضاء والنار مشتعلة في خصلات شعره تتلوى خلفه كأنها نجم لامع في السماء الصافية ، حتى هبط في بقعة قصية من الأرض بعيدة عن مسقط رأسه ، وتلقاه نهر إيريدانوس^(٥٣) العظيم فبلل وجهه المحترق بياهه ، وقامت الحوريات الإيطاليات بدفن رفاته التى التهمت النيران ذات الألسنة الثلاثة ، ثم نقشن على شاهد قبره هذه الأبيات :

٣٢٠

« هنا يثوى فايثون قائد مركبة أبيه .
وهو وإن لم يُكتب له النجاح في قيادتها
إلا أنه قضى نجه شهيد شجاعته الخارقة » .

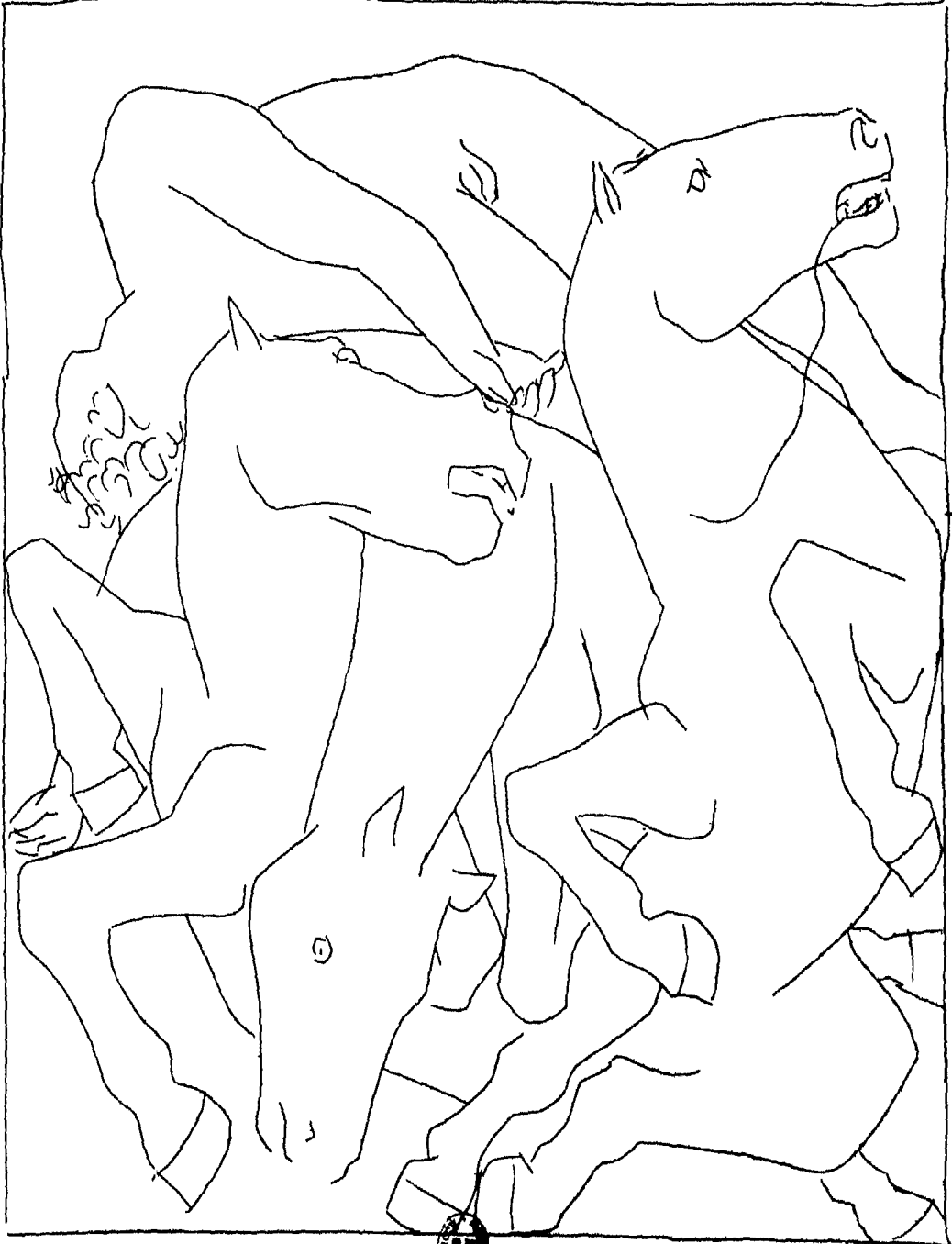
وأدت الحوريات هذا الرثاء عن أبيه التعس الذى أمضه الأسى فغطى وجهه وأخفاه عن جميع الأنظار .

وإذا كان حقاً ما يقول الراوى ، فقد احتجبت الشمس في ذلك اليوم فأضاعت النيران المشتعلة العالم ، وهكذا كانت لكارثة فايثون حسب هذا الرأى نفع ما .

وكانت كليمينيه أم فايثون أول من بكاه بكاء زاد من هول المأساة ، فلقد أفقدها حزنها وعبثها فشقت ثوبها عن صدرها ، وراحت تضرب في الأرض على غير هدى بحثاً عن جثة ولدها حتى وجدت مدفونة بشاطئ ذلك النهر البعيد ، فاحتضنت الصخرة التى نُقش عليها اسمه وبللتها بدموعها مُلصقة صدرها العارى بها^(٥٤) .

٣٤٠ ولم يكن حزن بنات الشمس على أخيهن أقل من حزن أمهن عليه ، فاستسلمن للبكاء والعيول ، وضربن صدورهن بأكفهن وألقين بأنفسهن على قبر فايثون ينادينه ليل نهار دون أن يسمع صراخهن . ومضت أشهر أربعة وشقيقات فايثون مقييات عند القبر يؤدين طقوس الحداد التى أصبحت من كثرة تكرارها إحدى العادات . وفي أحد الأيام تهاوت على الأرض كبراهن فايثوزا وشكت عجزها عن تحريك قدميها ، فحقت لنجدتها أختها الشقراء لامپتية ، غير أنها وقعت في قبضة جذور شجرة نبئت فجأة ،

واكتشفت الثالثة وهي تشدّ شعرها أنها تقطف من رأسها أوراق شجرة ، وأطبق جذع شجرة على ساقى واحدة ، بينما تحوّل ذراعاً أخرى إلى غصنين طويلين . وعلى حين أخذتهن الدهشة بما يجري لهن كان لحاء الأشجار يلتف حول أفخاذهن ويغطي أجسادهن شيئاً فشيئاً فكسا أرحامهن وأثداءهن ثم أكتافهن وأيديهن ، ولم يبق غير شفاهن التي كانت تنادى عبثاً أمّهن .



بيكاسو: فائثون يقود مركبة الشمس

ولم يكن بوسع هذه الأم الملتاعة غير أن تهزول هنا وهناك تدفعها أحاسيسها كي تختلس من بناتها القبلات ما أمكنها ذلك . لقد حاولت في أوج ثورتها تمزيق أجساد بناتها وإنقاذهن من جذوع الأشجار ، وهشمت الأغصان غصناً غصناً ، وكانت كلما هشمت غصناً انسكبت منه قطرات دم كأنه جرح ينزف ، وصاحت إبنة لها وهي تكسر غصنها قائلة : « رفقا بي يا أماه ، ناشدتك ألا تؤذيني بما تفعلين ، إنك تصيين بالأذى جسدى الذى يستحيل إلى شجرة ، فوداعاً يا أماه » .

٣٦٠

وما لبث لحاء الشجرة أن انطبق على هذه الكلمات الأخيرة ، وانسابت دموع جمدتها الشمس فإذا هي كهرمان^(٥٥) أخذ يتساقط من الأغصان الجديدة على صفحة النهر الوضاء ، فتحملها مياهه بعيداً كي تصبح في الأيام القريبة زينة عرائس الرومان .

سيجنوس

وشهد هذه المعجزة سيجنوس [كيجنوس] بن سثينيلوس الذى كان أكثر قرباً إلى فايتون بعواطفه منه بقرباته ، وكان قد بسط سلطانه على شعوب ليجوريا^(٥٦) ومدائهم العظيمة ، غير أنه ترك مملكته ليردد نهر إيريدانوس^(٥٧) وشطانه الخضر صدى أناته وأحزانه ، ولتمتلئ بعويله الغابات التى كثرت أشجارها بعد أن استحالت شقيقات فايتون أشجاراً ، وبخ صوته من طول نحيه فهزل جسمه ، وتحول شعره ريشاً أبيض ، واستطالت رقبته ، واحمرت أصابعه ونما فيها بينها غشاء ، وبرز من جنبه جناحان ، وتحول فمه إلى منقار غير مدبب . وما لبث سيجنوس أن تحول إلى نوع جديد من الطيور هو طائر البجع ، ولم يعد يثق بالسماء أو بجوبيتر ، وظل يذكر في أسى إرسال جوبيتر لصاعقته ، ولشدّة بغضه للنيران أثر بعد ذلك أن يعيش في الأنهار والبرك والبحيرات الفسيحة على أن يخلق في السماء .

٣٨٠

وارتدى والد فايتون ثياب الحداد وانطفأ بريقه المألوف وكأنما غشاه الكسوف ، وسخط على الضياء وكره نفسه كما كره نور النهار وأسلم نفسه لأحزانه وأقعده الغضب عن أن يطالع العالم بنوره ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً : « لشدّ ما سئمت عملي المحدد الرتيب الذى حرمت معه الراحة منذ بداية الكون ، وتولانى الإرهاق من عمل لا نهاية له وجهود لم أنل عليها تقديراً . إذن فليقم غيرى بمن يعينهم الأمر بقيادة مركبة الفضاء ، فإن أحجم الآلهة عن القيام بهذا الواجب ولم يتقدم لها متطوع فليقدّها جوبيتر نفسه ، وهو إن تصدّى لقيادة مركبتى والسيطرة على زمام جيادى فلسوف يعزف عن إرسال تلك الصواعق التى تحرم الآباء من أبنائهم ، ولأدرك وهو يمسك بأعنة هذه الجياد النارية الأقدام الشديدة البأس أن الموت لا يجمل أن يكون جزاء من يعجز عن قيادتها » .

وتحلّق الآلهة حول إله الشمس يلحّون في الرجاء ألا يدع العالم أسير الظلمة ، واعتذر جوبيتر عن إرساله الصاعقة ، وشارك بدوره في الرجاء المشوب بالوعيد على غرار ما يفعل الملوك . وتقدّم فوبيوس

٤٠٠

فأمسك بزمام جياده التي كانت ماتزال تُرْعَدُ خوفاً فألهب ظهورها بسوطه ، ووخزها وهو في غمرة الحزن ووقدة الغضب وكأنها المسئولة عن تلك الفاجعة التي نزلت بولده .

كاليستو

وهبَّ كبير الآلهة الواسع القدرة يطوف حول أسوار السموات يتعرّف الأضرار التي ألحقتها بها ضراوة النيران ، وحين اطمأن إلى أنها لاتزال على حالها صلبة مدَّ بصره فوق الأرض يتأمل ما صنعتته أيدي البشر . وحركت أركاديا^(٥٨) التي يؤثرها قلقه ، فأسرع يعيد المياه إلى الينابيع والأنهار التي كانت قد كَفَّت عن الجريان ، وكسى الأرض بالخضرة وأنبت الأوراق في الأشجار ، وبث النماء والخضرة في الغابات المحترقة من جديد .

وخلال تطوافه وقع بصره على حورية أركادية فإذا هو يجمد أمامها وقد احتدمت في نفسه الرغبة . ولم تكن فتاة من غازلات الصوف الناعم أو المغرّات بتصفيفات الشعر المتنوعة بل كانت إحدى تابعات الربّة فوبيه [ديانا] ، رداؤها فضفاض تُبَتِّ بمشبك ، وشعرها المنسدل على ظهرها يضمّمه شريط أبيض ، وقد أمسكت في يدها رمحاً أو قوساً ، وكانت أحبّ حوريات جبل ماينالوس إلى قلب ربّة « مفترق الطرقات » ، ٤٢٠ غير أن الخطوة لا تدوم طويلاً^(٥٩) .

ومالت الشمس قليلاً عن كبد السماء ، ودلفت الحورية إلى أجمة لم تمسس أشجارها فأس حطّاب ، وحطّت جعبة سهامها عن كتفها وأخرجت منها قوسها الطّيع وتمدّدت على العُشب مُسندة رأسها إلى جعبتها الصارخة الألوان ، وأبصرها چوبيتر في هذا الوضع عزلاء فحدّث نفسه قائلاً : « سيكون لي معها أمر لن تعرف به زوجتي ، ولو فُرض أنها عرفت فسوف يكون كفاء ما أناله من تأنيب » . وأسرع فتقمص شخصية ديانا مرتدياً رداءها ، ومال على الفتاة يحدّثها قائلاً : « يا أحبّ رفيقاتي إلى نفسي ، أين كنت تبحثين عن صيد ؟ أي جبل عبرت سفحه ؟ » فنهضت الحورية وهي تصيح فرحة قائلة : « لك يا سيدتي الربّة تحياتي ، إنني أراك أعظم من چوبيتر ، وما أخشى أن يسمع ذلك مني . » وضحك چوبيتر سعيداً بتفضيلها له في صورته هذه على صورته الحقّة وقبلها قبله لا براءة فيها ولا تقبّل بها فتاة من بنات جنسها . وحين أخذت تقصّ عليه مغامرات صيدها في الغابة لم يمهّلها فضّمها إليه محاولاً أن يغشاها فافتضح لها أمره ، وتأتّب الحورية عليه وقاومته بكل ما تملكه أنثى ، وباليثك كنت شاهديها يا جونو . يقيناً كان غضبك سيخفّ ، ولكن كيف لفتاة مهما أوتيت أن تقهر رجلاً ، ثم من ذا الذي يستطيع أن يغلب چوبيتر على أمره ؟ ونجح چوبيتر في أن يظفر بها حتى إذا ما نال مأربه منها عاد أدراجه إلى السموات العُلى . وصبّت الحورية لعناتها على الغابات والغيضات التي شهدت اغتصابها ، كما أنسيت جعبة سهامها وقوسها وكانت قد علّقتها حيث اقترشت الأرض . ٤٤٠

ورأت ديكيتينا^(٦٠) وهي تسلق جبل ماينالوس الشاهق الفتاة الأركادية فنادت ، فولّت الفتاة هاربة وهي تحالها چوبيتر وقد عاد متمصاً شخصية ديانا ، غير أنها حين رأت تابعات سيدتها محطن بها اطمأنت إلى أنها الربة حقاً وأن الأمر ليس حيلة من حيل كبير الآلهة ، فعاتت أدراجها لترافق الإلهة وتابعاتها . ما أشق أن يخفى المرء إحساسه بالخطيئة ، فقد عجزت الفتاة عن رفع عينيها عن الأرض ولم تدن من الربة على غرار ما كانت تفعل من قبل ، وتحلّفت عن زميلاتها والتزمت الصمت ، وأخذ الحجل مما ارتكبت من خطيئة يغشى وجهها ، ولو لم تكن ديانا إلهة عذراء لاستطاعت كشف سرّها بتلك الأمارات العديدة التي بدت عليها . ويحكى الرواة أن زميلاتها فطنّ إلى ما تكتم من أمرها .

وهلّ القمر بدرأ مرات تسعا ، وأوت ديانا - بعد جولة صيد مرهقة وسط حرارة الشمس اللافتة - إلى أجمة رطبة الأنسام يجرى وسطها جدول هامس يتموّج ماؤه فوق رمال القاع الأملس . ولم تكد الربة تبلغ هذا الجدول حتى غلبتها الغبطة ، فغمست قدميها في الماء ، ونادت تابعاتها قائلة : « طالما أن العيون لا تصل إلينا هنا ، فلنخلع ثيابنا ولنستحم في هذا الجدول » . وحين خلعت الفتيات ثيابهن وقفت الفتاة الأركادية مُحجّمة وقد احمرّ وجهها خجلاً ، فتقدّمت زميلاتها ونزعن عنها ثوبها وكأنهن حين كشفن عنها ثوبها كشفن عن خطيئتها ، وعندها صرخت ديانا فيها قائلة : أعزّبي عني ، ولا تدنّسي مياه هذا الجدول المقدس » ، وأمرتها بالانسحاب من حاشيتها .

ولم يخف الأمر طويلاً على زوجة إله الرعد الجبّار ، فاعتزمت إنزال عقاب قاس بغريماتها ، ولكنها ظلت تتخير اللحظة المواتية حتى وقع ما يستحيل معه الانتظار ، فلقد وضعت غريماتها ابنها أركاس ، وأخذ مرأى هذا الطفل يملأ قلبها وعينيها غضباً فصرخت في أمّه قائلة : « لم يكن ينقصك إلا أن تضعي هذا الطفل أيتها الزانية لكى يُشيع إهانتى ، ولكى يغدو دليلاً على خطيئة زوجى الشائنة . . إننى لن أترك دون عقاب ، وسوف أسلبك هذا الجمال الذى أغرى بك عاشقك أيتها الفاسقة » .

ومدّت يدها إلى جبين الفتاة وقبضت على شعرها واجتذبتها في قوة أسقطتها على الأرض . وحين بسطت كاليستو ذراعيها متوسّلة تطلب الغفران ، إذا بهما تكتسيان بشعر أسود خشن ، وإذا كفّاهما تستديران وتنتهيان بمخالب معقوفة وتغدوان قدمين أماميتين ، وإذا وجهها الذى أسر بجماله من قبل چوبيتر يتشوّه وينفرج فيه فكّان عريضان . ولكى تقضى الإلهة على توسّلاتها حرمتها القدرة على الكلام فصار حلقها يصدر زجرجة خفيفة ، غير أنها تركت لها إدراكها كما كان رغم تحوّلها إلى دُبة ، فأخذت تبثّ حزنها بأنين متصل ، وتفرّج للسماء برفع يديها بعد تحوّلها إلى قدمين . وأحسّت جحود چوبيتر دون أن تستطيع الإفصاح عمّا يدور بخلدها ، وكم ثقلت عليها الإقامة في الغابة فراحت تحوم حول دارها مقترية من مقرها القديم ، وكم من مرّة أخذت تطاردها الكلاب بنبحها إلى أن تعود أدراجها بين الصخور ، وهكذا باتت صيادة الأمس تلتمس الهرب من الصيادين . وما أكثر ما كانت تغيب عن ذهنها صورتها الجديدة فتختبئ عند رؤية الوحوش الضارية . ومع أنها مُسِخت دُبة إلا أنها كانت تخشى رؤية الدّيبية في مكانها بالجبال ، كما كانت تُصاب بالذعر أمام الذئاب رغم أن أباهما كان واحداً منها^(٦١) .

أركاس

وبلغ أركاس الخامسة عشرة من عمره دون أن يدري ما حدث لأمه ابنة ليكاوون . ومضى يوماً
 ٥٠٠ يتعقب آثار الحيوانات المتوحشة في الغابات ويتعرف أفضل الأماكن لصيدها وينصب شباكه في غابات
 إيريمانوس^(٦٣) ، فإذا هو أمام هذه الدبة التي توقفت محدقة فيه مطيلة النظر إليه دون أن تحول عينها عنه .
 وحين دفعها تشوقها الشديد إليه إلى محاولة الاقتراب منه أسرع برفع يده برمحه المميت ليمزق أحشاءها به ،
 فإذا چوپتر الجبار يمسك بيده ليخول بينه وبين ارتكاب جريمة ، مُبعداً الابن عن الأم . وما لبثت أن حملتها
 معا ریح خلال الفضاء ليجعل منها كوكبتين متجاورتين^(٦٣) .

وحيث رأت چونو غريمتها تتألق وسط نجوم السماء تولّاهما غضب عاصف ، وخاضت البحار العميقة
 لتقابل تيثس الشبياء وزوجها العجوز أوقيانوس لما لهما من مكانة بين الآلهة الأخرى . وحين سألتها كلاهما
 عن سرّ زيارتها أجابت قائلة : « تسألاني أنا ملكة الآلهة لماذا تركت مكاني في السماء وهبطت إلى هنا ؟ لقد
 فعلت ذلك لأن ملكة أخرى أخذت مكاني في السماء ، فإذا ما نشر الليل ظلاله فوق الكون انظروا فسوف
 تريان كوكبتين حلتا لتوهّما في السماء محاطتين بإجلال يُلحَقُ بهما الهوان ، إذ تتألقان في أعلى مكان بالسماء وفي
 المنطقة التي تحيط فيها آخر الدوائر بالطرف الضيق من محور العالم . وهل ثم من لا يلعنني حين يراى لا أنال
 ٥٢٠ منها ؟ ماذا جئني أنا ، وما أعظم ما أملك من قدرات ؟ لقد شئت تجريدها من إنسانيتها فإذا هي تتحول
 إلى ربّة ، وإذا هذا هو العقاب الذي أردت أن أنزله بالمُذنب ! وكان هذا أقصى ما أملك ، فليردّ چوپتر
 إليها جاهلها المسلوب وليحررها من صورتها البهيمية كما فعل من قبل مع إيو الأرجوسية ، ولم لا يخطو إلى
 أبعد من ذلك فيطلق چونو ، ويتزوج من هذه الحبيبة الجديدة ويضعها في فراشي ويتخذ من ليكاوون صهراً
 له ؟ إذا كنتما تحسان بأن ما نلت من امتهان يمّسكما وأنا التي ربّيتها صغيرة ، فاعملا على أن تدفعا عن
 أمواجكما الزرقاء هاتين الكوكبتين [الدب الأكبر والدب الأصغر] اللتين لم تُرفعا إلى السماء إلّا تكفيراً عن
 سلوك فاضح ، ولا تتيحا لامرأة زانية أن تستحم في مياه بحاركما النقية » .

وأقرّ إلالها البحر ما قالته كبيرة الآلهة ، وانطلقت چونو ابنة ساتورن وسط الأثير بعربتها السابحة التي
 تجرّها الطواويس المشرقة الألوان بريشها الجديد الذي نبت بعد وفاة أرجس ، والذي يذكّرنا بريشك
 الناصع البياض قبل تحوله إلى أسود داكن أيها الغداف الثرثار ، فقد كان ريش هذا الطائر في الماضي في
 بياض الفضة أو الثلج ينافس اليمام الخالص البياض ، ولم يكن يقلّ بياضاً عن الإوز الذي قدّر له أن يُنقذ
 ٥٤٠ الكايتولينوس^(٦٤) يوماً بصيحاته اليقظي ، ولا عن البجعة عاشقة المياه . غير أن لسان الغداف كان سبب
 مأساته ، فقد كانت ثرثرته سرّ فقدته لونه الأبيض وتحوله إلى اللون الأسود .

كورونيس

لم تكن في أنحاء ثيساليا كلها فتاة أجمل من كورونيس مواطنة مدينة لاريسا . وكم حرّكت إعجابك يا ربّ دلفي ، وكان ذلك لاحتفاظها بعفتها أو لاحتفاظها بأمرها مستوراً عنك حتى رآها يوماً الغداف طائر فوبوس ترتكب جريمة الزنا ، وأسرع إلى مولاه على عادته في نقل الأخبار معتزماً كشف سرّها ، غير أن الغراب الذي لا يقل عنه ثروة تعقّب الغداف مسرعاً متلهّفاً لالتقاط الأسرار ، حتى إذا أحاط علماً بسبب الرحلة قال للغداف : « ما أسوأ الطريق الذي تسلكه ! خذ حذرک ولا تهوّن من نصيحتي ، واعتبر بما حدث لي ، فلو بحثت عن سرّ نحوّل لوجدت أن إخلاصی هو الذي أودى بي : لقد أخذت باللاس يوماً إيرينثونيوس الطفل الذي وُلد بلا أم ، وحبسته في سلّة مجدولة من خيرزان أكتيا^(٦٥) ، وعهدت بالسلّة إلى بنات الملك كيكروپس^(٦٦) اللاتي لم يكن قد تزوّجن بعد ، وكان نصف الملك الأسفل على هيئة ثعبان ، وعاهدتهن على ألا يفتحن السلّة لمعرفة سرّها ، ثم اختبأت بعد ذلك وسط أغصان شجر الدردار المورق لمراقبتهن ، وكانت پاندروسوس وهيرسي أميتين على السلّة بينما أخذت ثالثتهن أجلاوروس تستشير شقيقتها فتتّهمها بالجبن ، وما لبثت أن فكّت رباط السلّة فإذا في داخلها طفل بجانب ثعبان منبسط . ٥٦٠

وحيث قصصت ما حدث للإلهة منيرفا كان جزائي على ذلك طردى من عملي ورفع حمايتها عني ، وصرت أدنى مكانة من طائر الليل^(٦٧) . وما أجدر ما نالني من عقاب بأن يكون تحذيراً للطيور عن ارتكاب جريمة الوشاية ، فأنما لم أسألهما جزاء ما فعلت من أجلها ، بل كان طردى عن إرادتها . وما عليك إلا أن تسأل باللاس فإن غضبها مهما احتدم لن يؤدّي بها إلى إنكار الحقيقة .

ولسوف أروي قصة يعرفها الجميع . لقد أنجبني كورونيس الشهيد في بلاد فوكيس ، فلا تستهن بأمرى . وإن دماء ملكية تسرى في عروقي ، وكثيرون من الأثرياء جاءوا يسعون لخطبتي . ولقد كان جمالي مصدر مأساتي ، فبينما كنت أخطر كعادي فوق الرمال الناعمة أبصرني إله البحر فحرّكت إعجابه ، وجعل يغالظني ويتوسّل إلى برقيق الكلمات ، وحين تبين له أنه لن يجني من وراء ذلك شيئاً أخذ يخطّط لاغتصابي وتملّكي بالقوة ، فهربت منه وخلفت الأجزاء الصلبة من الأرض بينما أمرق عبثاً وسط الرمال اللينة ، ومضيت أسير في غير اتجاه معيّن وصرخت منادية الآلهة والبشر لنجدتي فلم يصل ندائي إلى أذن بشرية ، بينما تحرّكت الشفقة في قلب ربّة العذارى على واحدة من العذارى فمدّت لي يد العون . وحين رفعت ٥٨٠ ذراعي نحو السماء اسودّ لونهما وأصبحت جناحين خفيفين ، وتحول ردائي وأنا ألقيه وراء كتفي إلى ريش تضرب جذوره العميقة في جلدي ، وحاولت ضرب صدرى العارى بيدي غير أنني اكتشفت أن صدرى كيدى لم يعد عارياً . وحين عدت أعدو لم تغص قدماي في الرمال كما كان يحدث من قبل بل وجدتنى أعلو مسرعة فوق سطح الأرض ، وأخذت أحلق عالياً في السماء وصرّت رفيقة طاهرة للإلهة منيرفا . لكن ما جدوى ذلك الآن إذا كانت نيكيتيمينيه^(٦٨) التي تحولت إلى طائر جزاء خطيئتها البشعة قد انتزعت مني شرف

هذا المنصب ؟ ألم يصل إلى سمعك نبأ تلك القصة الشائعة في أرجاء ليسبوس عن تدنيس نيكتمينييه لفراس أبيها ؟ إنها هي الأخرى طائر ، إلا أن إحساسها بالخطيئة جعلها تهرب عن عيون الناس ومن ضوء النهار مخفية عارها في ظلمات الليل ، بينما يتربص بها الجميع في أرجاء الفضاء .

وأجاب الغداف على الغراب قائلاً : « لن تنجح محاولتك في إثنائي عن القيام بواجبي ، وإنني لأسخر بكل نبوءاتك العقيمة » . وواصل رحلته دون تلبّث قاصداً مولاه فوييوس ، فلما جاءه أبلغه نبأ رؤيته كورونيس تضاجع شاباً من ثيساليا . وما كاد عاشق كورونيس يعرف قصة هذه الخيانة حتى سقط إكليل الغار عن رأسه وتبدّلت قسّات وجهه وتغيّر لونه وسقطت ريشة العزف من يده ، واحتدم الغضب في نفسه فقبض على قوسه وأطلق منها سهماً لا يملك أحد الهرب منه ، فإذا هو ينفذ في الصدر الذي طالما نعيم بضمّه إليه . وتأوّهت كورونيس ألماً ، وانتزعت السهم من جسدها فتدفّق الدم القاني غزيراً على أطرافها الجميلة البيضاء ، وصرخت قبل لفظ أنفاسها الأخيرة مع آخر قطرة من دمها ، وسرت في جسدها قشعريرة الموت وقالت : « أما كان الأجدر أن تنزّل بي عقابك بعد أن أضع حمل منك ، فلقد قضيت بصنيعك على ضحيتين معاً ؟ » . وما أسرع ما أحسّ العاشق بالندم على عقابه القاسي ، ولكن الأوان كان قد فات . وحنّ على نفسه لإنصاته للوشاية ولتركه الغضب يتسلّط عليه ، وكره الطائر الذي قاده فضوله إلى كشف خطيئة كورونيس التي حرّكت سخطه عليها ، ولعن يده وقوسه وسهامه التي قذفت بها . وضمّ جسد كورونيس المسجى أمامه محاولاً وقف إرادة القدر ، فذهبت أدراج الرياح محاولته شفاء جرحها بعد أن فات الأوان .

وحين رأى المحرقة مشتعلة والنار موشكة على التهام أطرافها وأيقن بفشل كل محاولاته في إنقاذها ، عصره الألم دون أن تدمع عيناه لأن الآلهة لا تدمع ، وفزع كما تفرع البقرة وهي تلمح ساطوراً قد رفع بها القصباب يده ليهوى به على الجبين المنبسط لوليدها الذي ترضعه . ثم أخذ يصبّ على كورونيس العطور الجنائزية التي لم تعد تقوى على الاستمتاع بها ، وضمّها إلى صدره ضمةً أخيرة ، وقدم لها طقوس الموق المحتومة . وإذا لم يحتمل أن تحيل هذه النيران فلذة كبده إلى رماد انتزع ابنه^(٦٩) من أحشاء أمه منقذاً إياه من اللهب وحمله إلى كهف القنطور خيرون^(٧٠) .

ووقف الغداف منتظراً جزاءه على إخلاصه ، ففضى فوييوس بإقصائه من بين الطيور البيضاء الرّيش .

أوكيرويه

وسعد القنطور باصطفاء الإله له لرعاية ابنه وأفعم قلبه فرحة بهذا التشريف وتلك المسئولية . وفجأة ظهرت ابنته أوكيرويه^(٧١) التي أنجبها من الحورية خاريكلو^(٧٢) ذات الشعر الذهبي الضارب إلى الحمرة

المنسدل على منكبيها ، والتي أعطت ابنتها اسم النهر الذي وضعتها على ضفافه . وكانت هذه الفتاة تجيد فنون أبيها وأضافت إلى ذلك قدرتها على التنبؤ وكشف أسرار الغيب . ٦٤٠

وحين رأت أوكيرويه الطفل الإلهي خفق قلبها حماسة وتولّتها حمى التنبؤ وقالت : « فلتشبّ أيها الطفل ، فإن الأقدار تدّخرك لإنقاذ العالم ، وسوف يدين لك البشر بحياتهم يوماً ، وسوف تُوهب القدرة على إعادة الروح بعد انتزاعها من أجسادها ، وسوف تثير يوماً غضب الآلهة حين تجرؤ على إحياء الموتى ، فتجرّدك صاعقة جدك^(٧٣) من قدرتك على منح هذه الهبة مرة أخرى . وعندها ستتحوّل من جسد إلهي إلى جسد بشري ثم تُبعث إليها ثانياً ، فتبدّل مصيرك مرتين .

خيرون

أما أنت يا أبي الحبيب ، وقد قدّر لك أن تحيا إلى الأبد لأنك واحد من الخالدين ، فسوف تشتاق الموت يوم يسرى في جسدك سمّ الأفعوان عبر جراحك ، وتظل تشقى عذاباً حتى يستردّ الآلهة ما تستمتع به من خلود ، فتحلّ الربّات الثلاثة خيوط قدرك لتموت^(٧٤) .

وهنا طفرت الدموع من عينيها مبلّلة خديها واستطردت متنهّدة تقول : « إن الأقدار تمنعني من أن أزيد على ذلك شيئاً ، فكلماتي محسوبة علىّ ، وقد كانت مقدّرة على التنبؤ مبعث غضب الآلهة علىّ حتى تمنيت لو أني جهلت المستقبل . إنني أرى وكأنني قد فقدت شكل البشري وصار عُشب المراعى غذائي ، والرّكض في السهول الفسيحة مُتعتي ، واستحالت صورتي إلى صورة فرس ، وذلك أثر من آثار القرابة . ٦٦٠ ولكن لماذا أغدو فرساً خالصة ، بينما والدي نصف بشر ؟ .

حملت كلماتها الأخيرة شكاة غامضة وحديثاً مبهماً ، ولم تعد كلماتها كلمات ولا هي صهيل فرس بل كانت أشبه ما تكون به ، وما لبثت أن صهلت صهيلاً حقيقياً ومدّت ذراعيها إلى العُشب ، وإذا أصابعها تلتئم ويحيط بها حافرٌ ناعم يُغشي أظافرها الخمسة ، وكبُر رأسها واستطالت رقبتها ، وتحوّل طرف ثوبها إلى ذيل طويل ، وصار شعرها المنسدل على كتفيها معرفة تتدلى على كتفيها الأيمن واكتمل تحوّل صورتها وجسدها ، وأخذت مع هذا التحوّل المعجز اسماً جديداً هو المُهّرة .

باتوس

وذهب بكاء ابن فيليرا – وكان من أنصاف الآلهة – وتضرّع لأبوللو كي يخلّص ابنته من آثار هذا التحوّل أدراج الرياح ، فلم يكن أبوللو يملك تغيير إرادة چوپتر الجبار ، ولو قدّر له أن يملك شيئاً من ذلك ٦٨٠ فقد كان عندها بعيداً في مدينة إيليس^(٧٦) وحقول مسينيا^(٧٧) حيث يقيم ، وكان هذا التحوّل قد جرى وهو

مرتد ثياب الرعاة ممسك في يده اليسرى بعضاً من غصن شجرة ، وفي يده اليمنى مزاربان ذى القصببات المتفاوتة الأطوال .

ويحكى الرواة أنه حين شرد في دنيا غرامه وهام مع موسيقى زمماره قد غفل عن أبقاره فضربت في حقول بيلوس^(٧٨) ولمحها ميركورىوس بن مايا ، واستطاع بدهائه المعروف أن ينحرف بها ويخفيها خلال الغابات دون أن يراه سوى شيخ كان سكان المناطق المجاورة يسمونه باتوس ، وكان الثرى نيلىوس قد عهد إليه بحراسة غاباته وقطعان خيوله الأصيلة ومراعيها . وخشى ميركورىوس أن يكشف باتوس أمره فانتحى به جانباً وتودّد إليه قائلاً : لست أدرى من تكون أيها الغريب ، ولكنى أسألك أن تخفى أمر هذا القطيع إن سألك عنه سائل ، ولست ناسياً لك جميلك ، وإليك هذه البقرة السمينية مكافأة لك . فأخذ باتوس البقرة وقال له مشيراً إلى أحد الأحجار : « امض ولا تخشى شيئاً ، غير أن هذا الحجر هو الذى سيسبقنى إلى فضح سرقتك » .

وتظاهر ابن چوپتر بالمضى في طريقه ، ثم ما لبث أن عاد متخفياً في هيئة رجل آخر وسأل الحارس بصوت مختلف عن صوته : « أيها الفلاح ساكن هذه الحقول ، إن كانت بقراى قد مّرت أمامك فلتقدّم لى يد العون ولتكشف لى سرّها الغامض بعد أن مضى بها أحد اللصوص . ولا كافئك على ذلك بإعطائك بقرة وثورها » . وأغرّت المكافأة المضاعفة الفلاح الشيخ فقال : « إنها هناك أسفل هذا الجبل » ، وقد كانت هناك حقاً عند سفح الجبل ، فأمسك الضحك بميركورىوس وقال للشيخ : « أهكذا تشي بى إلى نفسى أيها المخادع ! » ، ثم حوّل هذا القلب الذى نكت عهده إلى صخرة صلبة مازالت تُسمى حتى اليوم « الواشية »^(٧٩) ، ارتبطت بها ذكرى هذه الوشاية التى شاعت عن هذه الصخرة البريئة .

أجلاوروس

وحلّق الإله بأجنحته في الآفاق حاملاً صولجانه ، وأخذ يتأمل حقول مونيشيوس^(٨٠) ، والأرض التى تباركها منيرفا ، وأشجار ليسيوم^(٨١) المتألقة ، وكان يقام في ذلك اليوم مهرجان باللاس الذى تقضى تقاليده بأن تسير فيه العذارى العفيفات حاملات فوق رؤوسهن سلاطاً مكلّلة بالزهور زاخرة برموز طقوس باللاس لإيداعها معبد الرّبة . وقد أبصرهن الإله المجنّح أثناء عودتهن إلى دورهن فتلبّث عن متابعه رحلته ، وأخذ يدور حولهن كالصقر الذى يسبق جميع الطيور حين يلوح أحشاء الذبيحة ، غير أن فزعه من رؤية الكهنة المحيطين بالقربان يحمله على أن يدور في الأجواء دون أن يقرّ قراره على الابتعاد ، ويظل يدور نهماً يخفق بجناحيه حول الفريسة التى يشتهى الظفر بها . وكذلك كان الإله الرشيق يفعل فوق قلعة أكتى^(٨٢) ، مهدّئاً طيرانه محدّداً دورته في الأجواء التى تعلو القلعة . وكما يفوق نجم الزهرة « لوسيفر »

النجوم الأخرى ببريقه ، وكما يبرز القمر الذهبى « فوبييه » نجم الزهرة بلمعانه ، فقد كانت هيرسى أجمل فتيات الموكب تزدهى على الأخريات بروعة جمالها ، وقد راق جمالها ابن چوپيتر فتأجج قلبه بنار حبها ، وصار وهو فى الأجواء شبيهاً بطلقة قذف بها مقلع من مقاليع جُزُر البليار أحسّت فى السُّحب حرارة لم تحسّها من قبل . غير الإله طريقه وهجر السماء واتخذ سبيله إلى الأرض دون أن يتخذ شكلاً آخر غير شكله فقد كان واثقاً من وسامته . ورغم ذلك فقد حرص على أن يضيف إلى وسامته لمسة جمال ، فصقّف شعره وأصلح عباؤه لتتسدل على جسده فى أناقة تُبرز الخوافى المطرزة والزخارف الذهبية ، وجلا صولجانه الذى يحركه بيده اليمنى ليُلقي به النوم فى العيون^(٨٣) أو ليطرده عنها ، واعتنى بأن يصقل نعليه المجنّحين فوق قدميه المساوين .

وكانت ثمة حجرات ثلاث فى داخل القصر مزدانة بالعاج والدَّبَل^(٨٤) : اليمنى حجرة بانديروسوس واليسرى حجرة أجلاوروس والوسطى حجرة هيرسى . وكانت ساكنة الغرفة اليسرى هى أول من وقع بصرها على ميركوريوس ، فتقدمت فى جراءة وسألته عن اسمه وعن سرّ مجيئه ، فأجابها قائلاً : « أنا حفيد أطلس وپليونيّه . أنا ابن چوپيتر الذى يحمل أوامر أبيه عبر الأجواء . لن أحاول انتحال أعذار وهمية لمجيئى ، ولكنى أصارحك أنى قادم من أجل أختك هيرسى ولأناشدك أن تُذكى فى فؤادها حبنى حتى تصبحى أنت خالة لابنى » . وما لبثت أجلاوروس أن حملت بنظرة جشع وفضول ، وهى النظرة التى تطلّعت بها يوماً إلى السلّة الخيزرانية لمنيرفا الشقراء^(٨٥) ، وطلبت فنطاراً من الذهب مقابل أدائها المهمة التى يريدها ، ودفعته خارج بابها على ألا يعود إلا محملاً بالذهب .

ونظرت الإلهة المحاربة منيرفا إلى أجلاوروس نظرة غاضبة ، وزفرت زفرة انتفخ معها صدرها فعلاً بها الترس الذى كان يغطيه ، وتذكرت كيف كشفت أجلاوروس الجاحدة سرّ السلّة حين نكثت بوعدها وتطلّعت إلى ابن إله ليمنوس^(٨٦) الذى لم تلده أم ، كما ذهب تفكيرها إلى أن أجلاوروس سوف تظفر بعرفان الإله ميركوريوس وبعرفان أختها الشقيقة وبثروة ضخمة أيضاً حين تتلقى الذهب الذى دفعته شراحتها إلى أن تطالب به ، فتوجّهت الإلهة إلى دار ربّة « الحسد » ، تلك الدار الحقيرة المعتمدة الكريمة ٧٤٠ الرائحة الرطبة التى لا تشتعل فيها نار قط ، ويخيم عليها الظلام الكثيف من حواليتها ، حتى إذا بلغت الإلهة المحاربة الدار وقفت أمامها ، إذ لم يكن لها أن تستظلّ بسقفها^(٨٧) ، وطرقت الباب بطرف رمحها فانفتح على مصراعيه وظهرت ربّة الحسد التى كانت منهمكة فى التهام وجبة من لحم الثعابين ، وهو طعامها الوحيد الذى كان غذاء لروحها الشريرة . وأشاحت منيرفا بوجهها عند رؤيتها ، ونهضت ربّة الحسد على قدميها متراخية تاركة بقايا جثث الأفاعى وتقدمت بخطوات متثاقلة ، فلم يكذبصرها يقع على الإلهة بسحر جمالها وبريق دروعها حتى زفرت زفرة عميقة وقطبت جبينها . وكان وجهها شاحباً وجسدها مهزولاً ، وثمة حَوْل فى عينها يحرف نظرتها إلى الأشياء ، وأسنانها مهشمة حائلة اللون ، تنفث من صدرها نفاثة خضراء ، ويقطر لسانها سماً زعافاً ، لا ترتسم على شفثيها بسمة إلا حين تشهد آلام الغير ، لم تذق فى

حياتها طعم النوم المريح ، فقلقلها وهمومها تركها ساهدة ، وتزداد هزالا كلما وقعت عيناها الزائغتان على
٧٨٠ أحد يزداد ثراء . كانت شقاء على نفسها كما كانت شقاء على غيرها ، وكان ذلك عذابها الدائم .

ومع أن تريتونيا^(٨٨) كانت لا تأبه بها فقد اتجهت إليها قائلة في إيجاز : « إن ما أريده منك أن تنفثي
سُمِّكَ في صدر أجلاوروس إحدى بنات كيكروپس » ، وضربت الأرض برمحها دون أن تضيف كلمة
واحدة وحلقت عالياً في الأجواء تاركة الأرض . ونظرت ربة الحسد إلى الإلهة شزراً وهي محلقة حتى غابت
عن نظرها ، وهممت حاقدة على ما سوف تحققه هي لمنيرفا من توفيق ، وتناولت عصاها المحاطة بالشوك
والتفت بالغيوم المعتمدة وانطلقت ، فإذا الحقول التي مرّت بها قد غابت نضرتها ، وإذا الأعشاب تصبح
هشيماً ، وإذا الأشجار قد يبست أوراقها ، وإذا البشر تعس بتعاستها ، وإذا مدنها ودورها خراب ، إلى
أن انتهى بها المطاف إلى القلعة الأثينية ، حيث المواهب والثروات والأمن وحيث القلوب فرحة مطمئنة .
وكانت كلما نزعت نفسها إلى البكاء كبّت تلك النزعة في نفسها لأنها لم تر من الأحزان بعد ما يكفي لأن
يبعث في عينيها الدمع .

٨٠٠ وحين دخلت على ابنة كيكروپس حجرتها لتقوم بأداء مهمتها لمست صدر الفتاة بيدها الصدئة^(٨٩) ،
وملأت قلبها بالأشواك الواخزة ونفثت سماً زعافاً في أنفاسها ما لبث أن سرى في عظامها ورثتها ، وصوّرت
لها — كى تثير شقاءها — أختها سعيدة بزواجها من الإله الذى أضفت عليه صفات الجمال كلها حتى تثير
غيرتها . وأحسّت ابنة كيكروپس غيرة خفية تنهش قلبها ، وأصبحت تعاني العذاب آناء الليل وأطراف
النهار وتزفر زفرات متصلة ، وما لبثت تعاستها أن أصابتها بالذبول فأخذت تذوب كما تذوب الثلوج تحت
وهج الشمس المختفية وراء الغيم . وكانت سعادة هيرسى تفعل بأجلاوروس فعل الجذوة أو النار الدفينة
دون أن يظهر لها بريق . وكم تمّت الموت حتى لا تشهد عيناها سعادة أختها ، وخطر لها أن تشي بسرّ أختها
لأبيها الصارم وكأنه جريمة تستحق العقاب ، ثم افترشت أخيراً عتبة أختها لتحول بين الإله وبين
الدخول . ومضى الإله يتملقها بعبارات كلها إطراء ورجاء ، ولكنها لم تلقَ بالاً لقوله وصاحت به :
٨٢٠ « كفى ، فلن أترك مكانى حتى أحملك على البعد من هنا » . وأجابها الإله قائلاً : « ليكن ما تشاءين » ، ثم
ما لبث أن لمس الباب بعصاه السحرية لمسة فانفتح له .

وحاولت أجلاوروس النهوض فإذا هي تجد أطرافها قد حُدّرت ولبات ثقيلة فلم تستطع أن تنهض
من جلستها . وعبثاً جاهدت كى تقف لكن رُكبتيتها كانتا خامدتين ، وسرت في جسدها برودة شملت
أطراف أناملها وجُد الدم في عروقها فشحب لونها . وتسَلّلت إلى جسدها شيئاً فشيئاً برودة الموت ،
فهمدت أنفاسها ولم تعد تستطيع الكلام ، واستحالت تمثالاً من الحجر فقدّ بياضه الناصع وغشاه سواد
كالح أضفته عليه روحها .

أورويّا

وبعد أن أنزل حفيد أطلس العقاب بأجلاوروس على ما كان منها رحل عن البلاد التي اشتقت اسمها من اسم باللاس ، وحلّق عاليّاً في السماء يضرب بجناحيه في الهواء . وناداه أبوه إلى جواره دون أن يفصح له عما يكتنه له من حب ، وإنما قال له : « انطلق يا ولدى ورسولي الأمين هابطاً إلى الأرض بما تملك من سرعة ، واقصد البلاد التي إلى يسارنا والتي ترفع أبصارها إلى نجم أمك^(٩٠) والتي يُطلق عليها سكانها اسم مدينة « صيدا » ، ولسوف تلقى قطعياً من ماشية الملك يرعى حشائش الجبل على مسافة بعيدة ، فسُق هذا القطيع الملكي إلى الشاطئ » .

وما إن انتهى من حديثه حتى كانت الثيران قد أُبعدت عن الجبل واتجهت كما أمر صوب الشاطئ ، حيث كانت ابنة الملك الشهير قد اعتادت أن تمرح مع رفيقاتها عذارى مدينة « صور » .

الملك والحُب لا يتواءمان ويستحيل أن يشارك أحدهما الآخر مكانه . من أجل هذا تحلّى أبو الآلهة وحاكمها عن وقار صولجانه ، وهو حامل الصاعقة ذات السنة النيران الثلاثة في يده ، وهو من يهتز الكون كله بإشارة من رأسه ، وتخفى في صورة ثور واختلط بالثيران وشاركهم خوارهم ورعى معهم فوق الحشائش الغضة ، وكان لون جلده أبيض كالثلج الذي لم تطأه قدم ولم تبلّله نفثات ريح الجنوب الرطبة . وكان عنقه منتفخ الأوداج ، وقرناه وإن كانا صغيرين إلا أنها جميلان يتألفان تألق دُرّتين حتى لتجزم أنهما مع صنّع فنان ، لا تلوح الرهبة على رأسه ، ولا تحرك نظرات عينيه الخوف ، بل تشيع في وجهه الوداعة . وسرعان ما أعجبت ابنة أجيونور بوسامته ووداعته ، وكانت قد توجّست خيفة في مبدأ الأمر من لمسه رغم لطفه ، ثم ما لبثت أن اقتربت منه بعد قليل ، وقطفت زهوراً بيضاء قرّبتها من شفّتيه . فبعث ذلك السرور في قلب عاشقها مرتقباً ظفره بالمتعة التي يهفو إليها ، واجتزأ بتقبيل يديها حابساً في نفسه ما يطمح إليه من نيل بغيته التي يتطلّع إليها ، وأخذ يلهو فوق الخضرة ويتقلّب على الرمال الصُفر بجسده الناصع البياض ، وأنست به الأميرة شيئاً فشيئاً ، وأخذ يقَدّم لها صدره تارة لتربت عليه بيديها البريئتين ، وقرنيه تارة أخرى لتكَلِّلهما بالزهور النضرة ، وغامرت الأميرة فاعتلت ظهره دون أن تدري ظهر من تعلو . وابتعد الإله بها عن الشاطئ شيئاً فشيئاً بادئاً بوضع حوافره التي كانت بعض مظاهر تنكّره على سطح المياه ثم خاض بها البحر إلى أن بلغ وسطه ، وهنا تملك الفزع الفتاة ، وأمسكت يدها اليمنى بأحد القرنين بينما وضعت يدها اليسرى على عجزه ، تاركة ثوبها للريح تعبت بها كما تشاء .

التعقيبات

- (١) في الأصل مولكيبير وهو لقب من القاب فولكانوس .
- (٢) تريتون بن نبتون « بوزيدون » وأمفيتري ، وكان إله بحر من المرتبة الثانية مثل نيربوس وپروتوبوس ، وكان يصور على شكل إنسان حتى خصره ، ومؤخرته ذيل سمكة مزدوج .
- (٣) پروتوبوس حارس كلاب البحر للإله نبتون ، وكانت له ملكة التنبؤ كما كانت له القدرة على التشكل في أى شكل يريد به بما في ذلك النار .
- (٤) إيجيون بن أورانوس وجيا ساعد چوبيتر عندما حاول نبتون وچونو ومنيرفا تقييده بالأغلال .
- (٥) دوريس هي بنت أوقيانوس وتيئس وزوجة نيربوس وأم النيرباديس الخمسين .
- (٦) كانت الشمس والقمر والكواكب وقبة السماء نفسها المرصعة بالنجوم الثابتة تدور كلها وفق نظرية پيثاجوراس حول الأرض يومياً من الشرق إلى الغرب ، بينها الأرض ثابتة لا تتحرك . أما فكرة تقسيم النجوم إلى اثنتي عشر برجاً على الطريق الذي تسلكه الشمس فترجع إلى الفلكيين البابليين .
- (٧) تيئس بنت جايا وأورانوس وزوجة أوقيانوس وأم الأوقيانيدس الثلاثة آلاف وكذلك الثلاثة آلاف نهر .
- (٨) كانت الشمس تسير وفق نظرية پيثاجوراس في اتجاه مضاد لاتجاه الكون ، بدفع دورة الكون لها .
- (٩) يهدف أوفيد من ذكر أبراج الثور والرامي والأسد والعقرب والسرطان إلى إبراز للمخاطر التي سيمر بها فايثون . وكان « الرامي » يصور عادة على شكل قنطور يرمى بقوسه . لذلك سمى بالقنطور الهائمون وهو اسم من أسماء ئيساليا ، الوطن الأسطوري للقنطور .
- (١٠) كان الشعراء منذ هوميروس يكثر من ترديد اسمي نجمة الصبح « لوسيفر » باللاتينية و « فوسفوروس » باليونانية أى حاملة الضوء ، مع أنها ليست في الواقع سوى كوكبة واحدة هي الزهرة .
- (١١) يعنى اسم الجواد إيوس « الشرقى » باللغة اليونانية نسبة إلى مشرق الشمس . أما الجياد الثلاثة الأخرى فتحمل كلها صفات الحرارة والبريق في آن واحد .
- (١٢) ملك لاثيوبا وزوج كليمينيه أم فايثون .
- (١٣) جبل آنوس في مقدونيا .
- (١٤) جبل تاوروس في جنوب آسيا الصغرى .
- (١٥) جبل تمولوس في ليديا بآسيا الصغرى .
- (١٦) جبل أويتا في جنوب ئيساليا واشتهر بموت هرقل فوقه .
- (١٧) هناك جبلان يحملان اسم إيدا أحدهما في كريت حيث ترعرع فوقه چوبيتر ، والآخر بجوار طروادة .
- (١٨) جبل هيموس في طراقيا .
- (١٩) بركان إتنا في صقلية .

- (٢٠) جبل إيريكس في صقلية .
- (٢١) جبل كينثوس في ديلوس التي ولد بها أبوللو وديانا .
- (٢٢) جبل أوتريس في جنوب ثيساليا .
- (٢٣) سلسلة جبال رودوبي في جنوب طراquia ، وهي الآن جزء من بلغاريا .
- (٢٤) جبل مياس في شبه جزيرة تواجه جزيرة خيوس .
- (٢٥) جبل دينديما في فريجيا .
- (٢٦) ميكالي شبه جزيرة تواجه جزيرة صاموس .
- (٢٧) جبل كيثايرون يفصل بين أتيكا وبويوتيا وكانت تقام فيه طقوس الأسرار الديونيسية .
- (٢٨) جبال سكيثيا بالقوقاز .
- (٢٩) جبال أوسا وبيندوس وأوليمبوس في ثيساليا . ويضيف أوفيد إلى هذه الجبال اليونانية جبلاً إيطالية هي سلسلة جبال الألب والإپنين .
- (٣٠) ثمة ينابيع كثيرة في بويوتيا تحمل اسم ديركي زوجة ليكوس ملك طيبة اليونانية .
- (٣١) لجأت أميموني إحدى بنات داناوس إلى أرجوس في فترة قحط واقتريت من نهر تشرب منه فحاول ساتير هتك عرضها فاستنجدت ببوزيدون الذي طرد الساتير وقذف برمحه الثلاثي الشُعَب إلى صخرة ما لبثت أن تفجّرت منها المياه .
- (٣٢) إفيرى هو الاسم القديم لكورنث حيث يوجد ينبوعان يحملان اسم بيريفي ، ويروى أن أحدهما نبع من ضربة حافر الجواد بيجاسوس المجنح .
- (٣٣) نهر تانايس هو نهر الدون الحالي في روسيا .
- (٣٤) نهر بينيوس في ثيساليا .
- (٣٥) نهر كايكوس في آسيا الصغرى .
- (٣٦) نهر إسمينوس في بويوتيا بالقرب من طيبة .
- (٣٧) نهر زانتوس هو النهر الطروادى الذى ذكر هوميروس في الإلياذة أنه كان يهدد أخيل بالموت .
- (٣٨) نهر ليكورمارس في غرب اليونان .
- (٣٩) نهر مياندر في كارييا بآسيا الصغرى .
- (٤٠) نهر ثرمودون بمملكة پونتوس الواقعة في آسيا الصغرى والتي تطل على البحر الأسود .
- (٤١) نهر فازيس في كوخيس على الشاطئ الشرقى من البحر الأسود حيث الكرج الآن .
- (٤٢) نهر هيستر هو نهر الدانوب .
- (٤٣) نهر ألفيوس أهم نهر في المورة .
- (٤٤) نهر سبيرخيوس في أواسط اليونان .
- (٤٥) نهر مايونيا في ليديا بآسيا الصغرى .
- (٤٦) نهر كايستر في ليديا المشهور ببجعه .
- (٤٧) نهر الهير هو نهر ماريسا في طراquia .
- (٤٨) نهر سترميون هو نهر ستروما في طراquia .
- (٤٩) جبل إيزماروس على الشاطئ الجنوبي لطراquia .
- (٥٠) تطلق كلمة هيسپريا على أوروبا الغربية ، من إيطاليا حتى شبه الجزيرة الأيبيرية .
- (٥١) هي جزر السيكلاد .
- (٥٢) أطلس بن المردة التيتان وكان قد أسر في حريم ضد زيوس فأمره الأخير بأن يحمل السماء فوق كتفيه إلى الأبد .
- (٥٣) نهر إيريدانوس هو نهر الرون في رأى البعض ، ونهر الهو في رأى البعض الآخر . ويقصد أوفيد هنا نهر الهو .
- (٥٤) اتخذ أوربيديس من أسطورة فايتون مأساة لم تنته إلينا إذ فقدت .

(٥٥) كان الكهرمان عند أرسطو وبلينيوس عصارة تسيل من بعض الأشجار مثل شجر الحور . ويرى غيرهما أنه بول متجمد لحیوان الوشق من فصيلة السنائير ، بينما يميل أوفيد إلى الرأي الأول كما يبدو من النص . وما يلفت النظر أن الكهرمان في روما كان بمنزلة الأحجار الكريمة .

(٥٦) كانت شعوب ليجوريا تقطن الشاطئ الشمالى الغربى من إيطاليا .

(٥٧) إيريدانوس نهر أسطورى اقترن أحياناً بنهر الهو وأحياناً أخرى بنهر الرون .

(٥٨) كان لجوبيتر معبد شهير فوق جبل ليكابوس في أركاديا .

(٥٩) ربة مفترقات الطرق المسماة تريشيا هي في واقع الأمر هيكتا أخت ليتو ، وكانت إحدى الإلهات المتصلة بالقمر ، الأمر الذى أدى إلى الخلط بينها وبين ديانا التى كانت بدورها يخلط بينها وبين فوبيه ، والراجح أن أوفيد يقصد ديانا في هذا النص . أما جبل ماينالوس فهو جبل مقدس في أركاديا للإله بان إله الطبيعة .

(٦٠) ديكتينا لقب من ألقاب الإلهة الكريتية برينومارتيس التى كثيراً ما كان الإغريق يخلطون بينها وبين أرتميس «ديانا» .

(٦١) كاليستو هي ابنة ليكارون الذى سبق أن عرفنا تحولوه إلى ذئب في الكتاب الأول . وكانت الطقوس تقام له فوق جبل ليكابوس إلى جوار طقوس بان حتى حلت محلها عبادة جوبيتر وحده .

(٦٢) إيريمائوس سلسلة من الجبال في أركاديا اشتهرت قديماً بقتل هرقل للخنزير البرى فوقها . وأصبح اسم هذه الجبال يطلق فيما بعد على كاليستو بعد أن تحولت إلى دبة ثم إلى ثريا في السماء .

(٦٣) هما الدب الأكبر وحارسه الدب الأصغر ويطلق عليهما «الساكان» .

(٦٤) إشارة إلى القصة المشهورة التى تعزو إلى الإوز الذى كان يرثيه جند قلعة الكاپيتولينوس الفضل في إيقاظ الجند وتنبيههم بصياحهم عندما اقترب الأعداء البرابرة من القلعة .

(٦٥) كلمة يونانية عتيقة معناها الشاطئ أطلق على أتيكا ، وهذا هو ما يعنيه أوفيد .

(٦٦) كيكرويس هو البطل الأسطورى لمدينة أثينا فهو ابن إلهة الأرض ، ولذا يمثل على شكل حيوان نصفه إنسان ونصفه الآخر أفعى .

(٦٧) أى البومة طائر منيرفا المقدس .

(٦٨) هي بنت نكتيوس ملك جزيرة لسبوس ، واضطرت إلى الخضوع لشهوة أبيها الشاذة وقد حولتها الإلهة أثينا [منيرفا] إلى بومة رفقا بها وجعلتها ترافقها دائماً . وما يلفت النظر أن خطبة الغداف قد استوحاها أوفيد من خطبة مماثلة عزاه الشاعر كاليماخوس إلى نفس الطير في قصيدته الطويلة «هيكاليه» التى نسب فيها الشاعر خطباً للطيور .

(٦٩) هذا الابن هو إسكليبيوس الذى سىروى أوفيد قصة رحيله من إبيداوروس إلى روما في الكتاب الخامس عشر .

(٧٠) القنطور خيرون هو ابن كرونوس وفيليرا بنت أوقيانوس . واشتهر بأنه تعهد أخيل وإسكليبيوس بالتربية والرعاية ، وكان للقنطور وجه إنسان وصدره فوق جسد حصان .

(٧١) معنى أوكريوييه باليونانية التيار الجارف .

(٧٢) خاريكلو هي بنت أبوللو .

(٧٣) كان مقدراً لإسكليبيوس أن يرد الحياة لهيوليتوس [انظر الكتاب الخامس عشر] .

(٧٤) كان خيرون خالداً بطبيعته غير أن هرقل قذفه بسهم مغموس في دم الهيدرا فأصابه بالأم مبرحة جعلته يناشد الآلهة تجريده من الخلود ليستريح من عذابه فاستجابت الآلهة له وحولته إلى كوكبة في السماء .

(٧٥) هوهميه أى المهرة .

(٧٦) إيليس إقليم في غرب المورة يشمل مدينة أوليمبيا المقدسة حيث كانت تقام الألعاب الأولمبية .

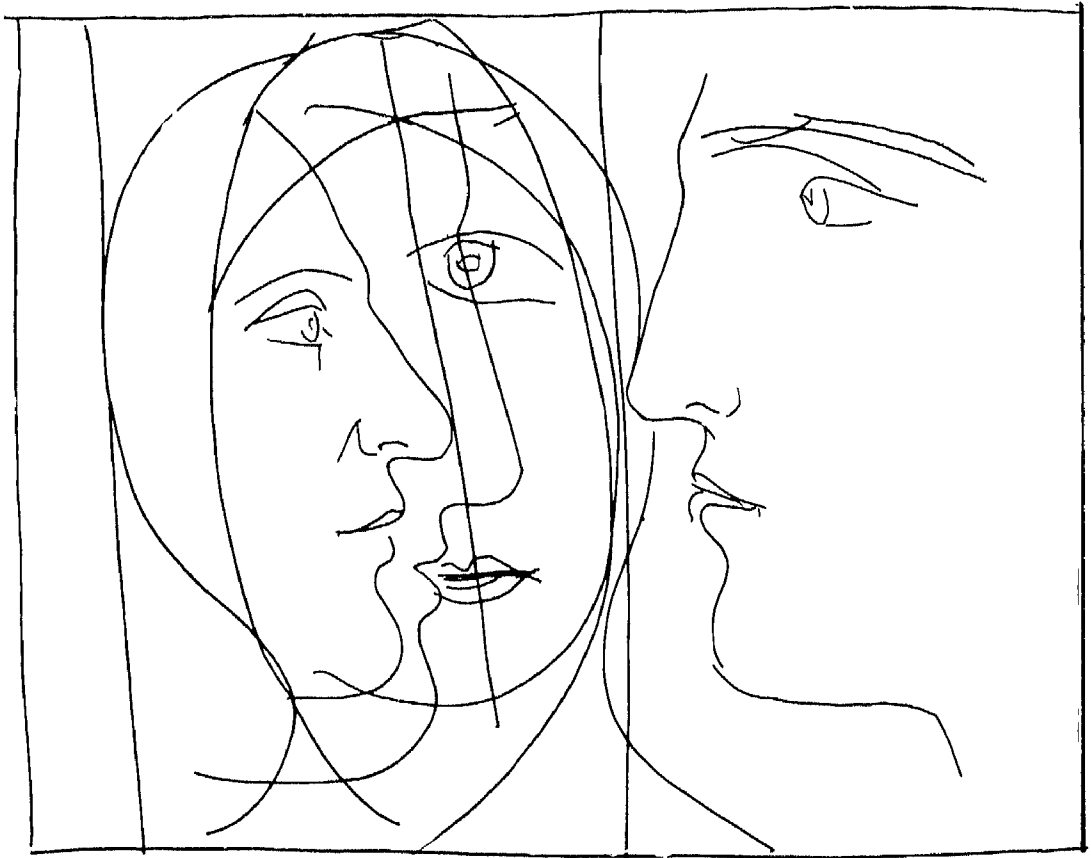
(٧٧) مسينيا مقاطعة بشه جزيرة المورة .

(٧٨) بيلوس مدينة بشبه جزيرة المورة .

(٧٩) صخرة قائمة بجوار بيلوس . وقد ظن بعض الشارحين أن الإشارة هنا إلى حجر الفلاسفة الذى يدل على وجود الذهب .

(٨٠) أحد الموانئ الثلاثة لمدينة أثينا بجوار خليج فاليريون .

- (٨١) ممشى قرب أثينا على ضفاف نهر إليسوس كان أرسطو يلقي فيه دروسه الفلسفية ، وهو أصل كلمة « ليسيه » الفرنسية التي تعنى مدرسة .
- (٨٢) معناها أرض الشواطىء وهو اسم قديم لآتيكا .
- (٨٣) كان من صفات هذا الصوبلجان الشهير أنه يلقي النعاس فى الناس ويشير الأحلام وفق مشيئة ميركورىوس .
- (٨٤) كان الذبل المتخذ من درق السلحفاة مادة أساسية فى الزخارف والترصيع وقتذاك .
- (٨٥) كانت أجلاوروس بنت كيكروبس ملك أثينا . ويقال إن منيرفا كانت ترعى إريخثونيوس بن فولكانوس وأخفته فى خزانة سلمتها إلى پاندروسوس وأمرتها ألا تتطلع إلى ما تحويه فأطاعت پاندروسوس ، غير أن شقيقتها أجلاوروس وهيرسى فتحتا الخزانة ، ولما شاهدتا الطفل بالخزانة تلتف من حوله الأفاعى أصيبتا بالجنون ، وألقتا بنفسيهما من فوق الأكروبول .
- (٨٦) كان فولكانوس من أهل ليمنوس فى الأصل .
- (٨٧) خشية أن يسبها الضرر .
- (٨٨) تريتونيا لقب كثيراً ما يطلق على منيرفا . ويرى البعض أن التريتون جدول صغير فى بويوتيا ترعرعت على ضفتيه الإلهة فى صباها . ويرى البعض الآخر أنه اسم بحيرة فى ليبيا .
- (٨٩) هو لون ذراعى ربة الحسد رمز كل ما هو شرير .
- (٩٠) كان ميركورىوس هو ابن مايا بنت أطلس ، وتشكل أمه مع أخواتها كوكبة فى السماء ، وعليها أن نفترض أن جوبيتر يستطع أن يرى وهو يتطلع نحو الغرب مدن فينيقيا على يساره بالشرق .



هيكاسو

الكتاب الثالث

كادموس

بين بساتين كريت جلس چويتير يستريح وقد نخلّى عن صورة الثور التي تنكر فيها ليخدع الأميرة وظهر لها في صورته الحقّة . ولم يكن الملك أجنور قد عرف شيئاً عما حدث لابنته ، فعهد إلى ابنه كادموس بالبحث عن أخته المفقودة متوعداً إياه بالنفى إن عاد دونها . وبهذا كشف عن أنه إلى جانب كونه أبا يفيض قلبه حناناً كان أيضاً أبا قاسياً لا يرحم .

وراح كادموس يضرب في أرجاء العالم ، ولكن أنّى له أن يعرف ما يُخفى چويتير ؟ ومضى بعيداً عن بلاده خوفاً من بطش أبيه ، ثم حجّ إلى معبد الهاتف الإلهي لأبوللو يضرع إليه أن يرشده إلى المكان الذي عليه أن يستقر فيه ، وأوحى إليه فويوس قائلاً : عليك بالمراعى النائية فسوف تقع عينك على بقرة لم يُشدّ

إلى عنقها نير ولم تضق بجرّ محراث معقوف ، فامض في إثرها واتبعها حيث تسير ، وحيثما تقف شيد أسوار مدينتك وسمّها بويوتيا^(١)

وما كاد كادموس يبتعد عن غار كاستاليا^(٢) حتى أبصر بقرة تنهادى بلا حارس وليس على عنقها أثر نير ، فقبعتها ومضى في أثرها بخطى متصلة وهو يتمم بحمد فويبوس الذي هداه إلى الطريق . وبعد أن عبر مخاضة سيفيسوس وحقول بانوبي ، توقفت البقرة ورفعت نحو السماء جبينها الجميل المزدان بقرنين طويلين وأرسلت خواراً تردّد صدهاء في الجو ، ثم تلفّت وراءها ترى من يتبعها وخرّت على ركبتيها واستلقت على العشب الناعم ، فاتجه كادموس إلى الآلهة شاكراً وقبّل أرض الغربة ، وحيّاً الحقول والجبال التي لم يكن له عهد بها من قبل وتأهب ليقدم قرباناً لجوبيتر ، وأمر أتباعه بالذهاب إلى ينبوع دافق ليغترفوا منه ماء يسكبه قرباناً للأرباب .

كانت ثمة غابة قديمة لم تمسسها بلطة ، يتوسطها غار تكسوه صفصافة كثيفة ، وتشكّل جدرانها الصخرية قبوا منخفضاً يتدفق من تحته ينبوع ثرّ . وكان بالغار أفعوان مارس الداكن الزرق ، يعلو رأسه عُرْف ذهبي ، وتتوهج عيناه ناراً ، ويزخر جسده بالسّم الزعاف ، وفي فمه ثلاثة صفوف من الأسنان ولسان ذو شعب ثلاث .

ودلف الرّحالة القادمون من بلدة صور إلى الغار المشثوم ، وأخذوا يغترفون الماء بجراهم ، فأزعجوا الثعبان الذي نفّض رأسه من غور الغار ، وفجّ فحيحاً خفيفاً جعل الدم يجمد في أطراف الرجال فسقطت الجرار من أيديهم المرتجفة من هول الفزع ، وأخذ الثعبان يزحف إليهم تتضام على زحفه حلقات جسده الحرسى ثم تنفرج على هيئة الأقواس وكأنها أطواء الموج ، وانتصب قائماً على ذنبه فإذا هو قد أظّل على الغابة كلها ، إذ كان جسده بطول كوكبة الثعبان الممتدة بين كوكبتى الدبّين الأكبر والأصغر . وأسرع فهاجم الفينيقيين الذين كانوا قد اختلط الأمر عليهم فلم يعرفوا بأيتهما يأخذون ، أيسدّدون حراهم أم يهربون ؟ وانطوى الثعبان على نفسه ثم قفز فصرعهم وتركهم بين ممزق بأنياه أو معتصر بتلافيفه أو محترق بأنفاسه المسمومة .

وحين توسّطت الشمس كبد السماء وقاربت ظلال الأشياء الزوال أخذ ابن أجينور يتساءل قلقاً عما أحرّ رفاقه ، وراح يبحث عنهم مرتدياً جلد أسد حاملاً رمح وحرّبه المتألقة النصل متقدماً في شجاعة لا يعوزها سلاح . فلما دخل الغابة لمح جثث أتباعه والعدو الرهيب يشمخ مزهواً بانتصاره عليهم تنسكب من لسانه قطرات الدم وهو يلحق جراحهم ، فصاح كادموس : « لأنقمم لموتكم أيها الأصدقاء الأوفياء أو لألحقنّ بكم » . ومال على صخرة هائلة وطوّح بيمنه في قوة لو أنه ضرب بها سور حصن شامخ لزعزعت أركانه ، ولكنها لم تصب الثعبان القوى الجسد السميك الجلد بأذى ، إذ كانت حراشفه بمثابة الدرع الواقى ، وارتد الحجر بعيداً بعد أن دفع به جلده الأسود ، فسدّد إليه رمح فإذا هو يخترق الجلد وينفذ إلى الأحشاء عند منتصف الظهر ، واستدار الثعبان وهو يئنّ ألماً ، ثم إذا هو بعد جهد جهيد يقوى على

استخراج نصل الرمح غير أنه لم يقو على استخراج النصل المستقر في عظمه ، وانتفخت عروق الثعبان بالسم الذى طفق على فكّيه بزبد الأبيض ، وأخذ يحكّ الأرض بحراشيفه وينث في الجو أنفاسه التي تبدو وكأنها النهر في تدفقها ، ثم يخلق حلقات تبدل وتشكّل ، فيبدو كالشجرة المنتصبة حيناً أو كالنهر المتدفق في جريانه تمده الأمطار حيناً آخر ، ويطيح صدره بالأشجار التي تعترض طريقه . وتراجع كادموس قليلاً إلى الوراء متلافياً هجمات الثعبان محتماً بجلد الأسد الذى يرتديه شاهراً في وجه الثعبان حربته التي كان الثعبان يعضها عضات لا تنفذ فيها ، وما لبث الدم أن أخذ يسيل من فمه مختلطاً بالسم ملوّثاً الحشائش الخضراء . وأنخن الجرح الثعبان وتراجع حتى لا تنفذ الحربة إلى أعماق حلقه ، ولكن كادموس ظل يلاحقه يريد أن يلقمه حربته حتى اصطدم الثعبان بجذع شجرة بلوط عاقت فراره ، وأنفذ كادموس الحربة في حلقه فأثبت رأس الثعبان في جذع الشجرة التي انثنت تحت ثقله وصدر عنها صوت كالأنين تحت ضربات الثعبان لها بذيله التي كانت تشبه ضربات السيّاط^(٣) .

وبينما راح كادموس يرنو إلى خصمه الضخم المهزوم إذا هو يسمع صوتاً لا يعرف مصدره يقول له : مَالِكٌ تُحْمَلِقُ فِي الثَّعْبَانِ الَّذِي أَرَدَيْتَهُ ، لَسَوْفَ يَأْتِي يَوْمٌ يَتَطَلَّعُ إِلَيْكَ النَّاسُ فِيهِ أَيْضاً وَقَدْ اسْتَحَلَّتْ ثَعْبَانًا^(٤) . وعندها سرى الفزع في جسده وهرب الدم من وجهه وفقد وعيه وارتعدت أطرافه . وما لبثت بالاس راعية كادموس أن ظهرت ، وطلبت إليه أن يحرق الأرض ويدفن بها أنياب الثعبان لتغدو بذور شعبه الحديد . وأطاع كادموس أمرها وشقّ بمحراثه أخاديد عميقة بذر فيها أنياب الثعبان . وحدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ أخذ سطح الأرض يضطرب ، وبرزت البذور في شكل رءوس رماح تعلو وسط الأخاديد ، وظهرت خوذات يهتز من فوقها الريش المختلف الألوان ، وتبعثها الأكتاف والصدور والأذرع حاملة الحراب ، وامتلاً الحقل بنبت من الجنود المسلحين بتروسهم . وفزع كادموس حين رأى هذا العدد المهلول من الأعداء الجدد وشهر سلاحه مستعداً للنضال ، فصاح به أحد المحاررين الذين أنبتهم الأرض قائلاً : « لا تُشهر سلاحك ، ولا تقحم نفسك في هذا الصراع القَبَلِ » ، وسرعان ما أعمد هذا المتحدث سيفه في جسد واحد من أخواته النابتين معه وكان قريباً منه ، وما لبث أن سقط هو الآخر صريع رمح سُدّد إليه من بعيد ، ولم يعش قاتله طويلاً إذ أسلم بدوره الروح التي لم يكن قد مضى على نبضها في جسده لحظات ، وظل الجيش يصرع بعضه بعضاً حتى أفنى الصراع جميع الأخوة الذين لم يطل عمرهم أكثر من لحظات قصار ، ولم يبق منهم سوى خمسة أفراد ، بينما ظلت جثث الموتى تتلوّى فوق صدر الأرض أمهم التي أدفأتها دماؤهم الساخنة . وكانت بالاس قد طلبت إلى أحد الخمسة الباقين وهو « إخيون »^(٥) أن يضع سلاحه فاستجاب لها ووعداً ألا يقاتل وطلب إلى إخوته الأربعة أن يفعلوا فعله . وفي صحبة هؤلاء الرفاق الخمسة الباقين بدأ كادموس الوافد من فينيقيا يشيّد مدينته التي أوصاه الوحي بمعبد فوبيوس بينائها^(٦) .

وشيّدت مدينة « طيبة » ، وفيها بدا لكادموس أنه قد ظفر بالسعادة في منفاه ، فقد بنى بالنبيلة هارمونيا ابنة الإله مارس والإلهة فينوس ، ورزق منها بأبناء وبنات ، أنجبوا له أحفاداً أعزّاء أقاموا تقاليد الأسرة وأرسوا روابط التآخي بين أفرادها ، وعاش حتى رأى أحفاده وقد شبّوا عن الطوق وصاروا رجالاً .

ولكن على المرء أن يتلَبَّث حتى آخريوم من حياة الإنسان ولا يحكم عليه سعادة أو شقاء ، إلا بعد أن يموت ويوارى التراب .

أكتايون

١٤٠ كان أحد أحفادك يا كادموس هو مبعث أول حزن عانيت منه وسط السعادة التي رفلت في حُلُلها ، فقد نبت له قرنان في جبهته على غير مألوف الصورة البشرية ، وأنتم أيها الكلاب كنتم مصدر تعاسته حين ولغتم في دم سيدكم . ولو أنا أنعمنا النظر فيما حدث لوجدنا أنه قد ذهب ضحية القضاء والقدر ، وأنه لم يذهب جزاء جريمة اقترفها ، وهل ثمة خطأ اقترفه حين ضلَّ طريقه فتكون ثمة جريمة ؟

وقع ذلك الحادث فوق جبل تخضَّب سفحه بدماء الحيوانات المفترسة المتنوعة ، وفي ساعة كانت ظلال الأشياء فيها قد انحسرت وتوسَّطت الشمس مدارها بين مشرقها ومغربها ، حين صاح أكتايون ابن شعب هياس^(٧) برفاقه الهائمين على وجوههم في الأدغال في رفق ولين « أيها الأصدقاء ، لقد لَوِّثت دماء الوحوش التي اقتنصناها اليوم شبانكا ولَطَّخت سيوفنا ، وأصبنا من النجاح ما يكفينا ، ولسوف نواصل قنصنا غدا حين تعلى أورورا ربَّة الفجر مركبتها الذهبية العجلات وتطالعا بيوم جديد . فلنكفَّ عن الصيد الآن ولنجمع شبانكا الموثقة العُقد ، فقد توسَّطت الشمس كبد السماء وأخذت حرارتها تشقُّ أرض الحقول » ، ورَحَّب صحابه بقوله فلم يُتابعوا الصَّيد المُضنى .

١٦٠ وكان ثمة واد تتزاحم فيه أشجار الصنوبر والسرُّو المديَّبة ، وكانت ديانا إلهة الصيد ذات الرداء القصير تلجأ إلى هذا المأوى المسمى جارجافيه ، إذ كان بأعماقه غار لم تتناوله يدُ فنان بشري غير أن الطبيعة قد خلَّفت فيه ما يشبه الأعمال الفنية ، إذ نحتت قبة طبيعية من حجر الخفاف البركاني وحجر التوفة المسامي . وكان إلى يمين الداخل ينبوع مياه صافية تنتشر على صورة غدير فسيح تحتضنه شواطئ سندسية . وما أكثر ما كانت الإلهة تفد إليه كلما نالها الإرهاق بعد جولة صيد في الغابات فتستحم فيه أو تندِّي أطرافها العذرية في مائه النقي .

١٨٠ أوت الإلهة إلى الغار وأسلمت رمحها وقوسها وجعبة سهامها للحرورية المكلفة بحمل سلاحها . وحملت حرورية ثانية رداءها على ذراعها ، بينما خلعت اثنتان أخريان نعلها ، وتقدَّمت وصيفة أشدَّ مهارة هي كروكالي ابنة نهر إيزمينوس فضمت ضفيقرق الإلهة المتدلَّيتين على كتفيها وعقدتهما معاً خلف رأسها وتركت هي شعرها ينسدل مُرْسَلاً ، وانطلقت الحروريات نيفيل وهيالي ورانيس وپسيكاس وفيالي يجلبن الماء في جرار كبيرة ويضُيَّبْنه على سيدتهن^(٨) .

وبينما كانت ديانا تستحم على عادتها في الغدير كان حفيد كادموس قد ترك الصَّيد وأخذ يخطو متردداً خلال هذه الغابة التي لم تسبق له رؤيتها حتى بلغ الغار ، وقاده القدر إلى مدخله فنفذ منه ، ولم يكد يصيبه

رذاذ الماء المتطاير ويشهد الأجساد العارية حتى ضربت الحوريات على صدورهن وملأن الغار بصراخهن ، وتحلقن حول ديانا ليحمينها بأجسادهن غير أن طولها جعلها تبرز فوقهن جميعاً برأسها وعنقها . وحين تبيّنت ديانا أن عين رجل غريب وقعت عليها وهى عارية اكتست وجنتاها ببحمرة السُّحب التى تنعكس عليها أشعة الشمس الساقطة عليها أو ببحمرة الفجر ساعة يصطبغ بالأرجوان . ومع أن رفيقاتها المحيطات بها كن يسترنها إلا أنها انزوت جانباً وأشاحت بوجهها ، وتمنّت لحظتها لو كانت ممسكة بسهامها ، فأخذت قليلاً من الماء الذى تستحم به ونثرته فى وجه الشاب فعمّ شعره ، ومضت تتمتم منذرة إياه بمصير المشوم قائلة :

٢٠٠ « رُح الآن وارو إن استطعت أنك شاهدتني وأنا عارية بلا ثياب ؟ » ولم تضيف إلى قولها شيئاً آخر ، فنبت قرنا وعُل معمرٌ فى جبهته التى ابتلت بالماء ، وطالت رقبتة ودقّت أطراف أذنيه ، وتحولت يدها قدمين وذراعاها إلى ساقين طويلين ، واكتسى جسده بجلد أرقش وحلّ فى قلبه الرعب . وحين رأى الماء يعكس صورة وجهه بقرنيه همّ أن يأسى ، غير أن شفّيته لم تتحرّكاً بكلمة فجعل يثن ، وكانت هذه هى لغته الوحيدة التى بقيت له . وانهمرت الدموع من عينيه مبلّلة وجنتيه الممسوختين ، وأخذ يفكر بعقله وكان هو كل ما بقى له . ماذا تراه فاعلاً ؟ أيعود إلى القصر الملكى أم يختبئ فى الغابات ؟ وبينما هو متردّد فيما يفعل خجلاً من العودة إلى القصر وخوفاً من البقاء فى الغابات إذا كلباه ميلامپوس وإخنوباتيس المنفردان بقوة شمّهما يخطئانه بنباحهما ، وأولهما من سلالة اسبرطية وثانيهما من سلالة كريتية ، وجرت فى إثرهما فى سرعة الريح العاصفة سلالات مختلفة من الكلاب ، منها سلالة پامفاجوس ودوركيوس وأوريباسوس الأركادية ، ومنها نيروفونوس القوى وثيرون المتوحش ولايلاس الشرس وپترلاس السريع العدو ، وأجّرى القوى الشّم ، وهيلايوس الذى أصابه خنزير برّى بجرح ، ونابى الذئبى السلالة ، وبويمينيس حارسة القطعان وكذا الكلبة هارپيا وجرواها الصغيران ، ولادون الهزيل الوافد من سيكيون ودروماس وكاناسيه وستيكتي وتيجريس وألكى ، وليوكون الناصع البياض وأسبولوس الحالك السواد ، ولاكون الخارق القوة وأيلو الذى لا يملّ العدو ، وثويس وليكيسكى السريعة العدو وشقيقها القبرصى هارپالوس ذو الغرة البيضاء ،

٢٢٠ وميلانيوس ولاخنى الكثيفة الشعر ، ولبروس وأجريدوس وهما كلبان من سلالة مهجّنة من أم كريتية وأب اسبرطى ، وهيلاكثور العالى النباح وكلاب أخرى يطول ذكر أسمائها^(٩) ، وامتلاّت الكلاب حماسة لوقوعها على فريسة ، فخاضت الرّبى والصخور التى لم يصل إليها أحد من قبل والتى يشقّ بلوغها . وأسرع أكتايون هارباً من الكلاب التى تطارده مندفعاً فى الأماكن التى كان يتعقّب فيها صيده . ألا ما أتعسه . . . لقد أصبح يهزّب من كلابه هو ، وتمنّى لو ملك أن يصبح فيها : « أنا أكتايون ، ألا تعرفوننى ؟ » غير أن الكلام لم يُسعه . امتلاّ الجو نباحاً وأدركت ميلانخيتيس سيدها وكانت أول من أعملت أسنانها فى ظهره ، ثم تبعتها ثيريداماس ، وأنشب أوريزيتروفوس أسنانه فى كتف سيده . ومع أن الكلاب الثلاثة كانت قد خرجت متخلّفة عن رفاقها لكنها سبقتها لولوجها طريقاً قصيراً ، وطرحت سيدها أرضاً بينما تجمّعت بقية الكلاب حوله وهصرت بأسنانها جسده فلم يتركوه إلا ممزقاً . وأخذ أكتايون ينتحب بصوت لا هو صوت

٢٤٠ بشر ولا هو صوت وعِل وقد ملأ نحييه الجبال ، وجثا على ركبتيه كما لو كان يركع متوسّلاً ، ومضى يخبئ رأسه يمينه ويسرة فى صمت ضارِع عاجزاً عن بسط ذراعيه ، بينما أخذ رفاقه الذين كانوا معه يصيحون فى

الكلاب يستحثونها على الفتك بفريستهم جاهلين حقيقتها ، يصيحون باسمه باحثين عنه وهم لا يدرون أنه وسطهم ، وكل واحد منهم ينافس زملاءه في الصباح ، وغمرهم الحزن لأن قائدهم لم يشهد فريستهم التي أوقعها الحظ بين أيديهم ! وكان أكتايون يدير رأسه كلما سمع اسمه متمنياً لو أن ذلك لم يقع له ، وأنه لم يكن فريسة أنياب كلابه النهمة ، بل وكم تمنى لو كان كغيره من المستمتعين بذلك المشهد ، وقيل إن الكلاب ظلت محيطة به تنشه بأنيابها حتى خمدت حياته فسكن غضب الربّة ديانا حاملة جعبة السهام^(١٠) .

سيميليه

وحين بلغت القصة أسمع الناس اختلفوا بين ممتدح طهارة ديانا وحفاظها على عفتها وبين أخذ عليها قسوة عقابها ، وكان لكل فريق من المتحاجّين ما يسانده . وقد لزمت زوجة چوپيتر وحدها الصمت وأمسكت عن المدح أو القدح ، غير أنها كانت في أعماقها سعيدة بهذه الكارثة التي حلت بآل أجينور ، ذلك أنها كانت تطوى صدرها على حقد دفين لأسرة أوروبا منافستها الفينيقية من مدينة « صور » .

ثم ها هي چونو تلقى حدثاً جديداً يضيف مزيداً إلى غضبها القديم ، فقد ثارت ثائرتها حين علمت أن سيميليه ابنة كادموس قد حملت ببذرة چوپيتر العظيم ، فأخذت تحدّث نفسها قائلة بلسان يتشوّف للنيل من الغير : « أية فائدة جنيتها من تأنيب زوجي المرّة تلو المرّة ؟ إن على أن أنزل عقابي هذه المرة بالفتاة نفسها ، أو لست أنا چونو الشديدة البأس كما أعرف بحق ، أنا الجديرة بحمل الصولجان المرصّع بالجواهر ؟ أو لست ملكة السموات وأخت چوپيتر وزوجته ؟ بلى إنني في الحق أخته ، ولكن لعل البعض يلتمسون العذر لغريمي بأنها قد قنعت بلقاءات حب في الخفاء ، وأنها لم تعتد على حرمة فراشي إلا في نزوة عابرة . ولكن هل كان ينقصنا هذا العار الجديد ؟ إنها تحمل في أحشائها دليل جرمها ، إنها تطمع في أن تصبح أمّا بفعل چوپيتر نفسه ، وهو ما عجزت أنا عن الظفر به . ألا ما أشد ثقتها بجماها ! ولعمري لأثبتن لها ضلال ثقتها ، ولن أكون جديرة بأن أسمى ابنة ساتورن إن لم أجعلها تغوص في مياه نهر ستيكس مدفوعة بيد چوپيتر نفسه » . ثم نهضت عن عرشها وتلفّعت بسحابة ذهبية واقتربت من عتبة دار سيميليه ، ولم ترفع عنها السحابة حتى كانت قد تحفّت في صورة عجوز يظهر الشعر الأبيض في فوديا وتملأ التجاعيد بشرتها وقد احدودب ظهرها واهتزّت خطاها وارتعش صوتها من أثر الشيخوخة ، وبدت في صورة شديدة الشبه بصورة بيروى الإييداورية مزرعة سيميليه .

وانخرطت في حديث طويل مع سيميليه عرجت في نهايته على چوپيتر ، وزفرت زفرة عميقة وهي تقول : « لَكُم أتمنى أن يكون چوپيتر حقاً هو الذي منحك هذا الجنين فإن شكّا كبيراً يؤرّقني ، فكم من رجل تسلّل إلى فراش فتاة بريئة منتحلاً لنفسه شخصية الإله ، وأيا يكن فإن ادعائه بأنه چوپيتر لا يكفي

ولابد أن يقدم الدليل على حبه ، فاطلبى إليه أن يظهر لك في صورته مجللاً بهالة عظمته ومجده التى يظهر بها
لجئونو فى السماء ، ودعيه يضمك إلى صدره بعد أن يتلّف عباءة الألوهية .



پیکاسو :جوبیزر وسیمیلیه

ونجحت چونو بحديثها في أن تستثير ابنة كادموس التي لم تشك في صدقها . وسألت الفتاة چوپيتر أن يعدها بتحقيق طلب لم تكشف عنه ، فوعدها الإله قائلاً : « سلى فلن أرد لك طلباً حتى أثبت لك أن بوسعك الثقة بي ، وإنني أشهد على ذلك أرباب نهر ستيكس الجارف الذي تهابه الآلهة أنفسهم » . وامتلأ صدر سيميليه بالفرحة لظفرها بوعده لا تدرى أن تحقيقه سيحمل لها الهلاك وقالت : « فلتظهر لي كما تظهر لچونو ساعة تطارحها الغرام » ، وحاول الإله إمساك شفيتها عن الكلام ، غير أن عبارتها العجلة كانت قد طمرت من فمها وانتثرت في الهواء ، فأشفق عليها چوپيتر بعد فوات الأوان الذي كان يستطيع فيه ردّها عن طلبها فلا يحقق لها ما وعدّها ، وصعد في أجواء الفضاء مُثَقَّلاً بالحزن العميق ، وأوماً للضباب فتجمّعت عليه السحب والبروق والرياح والرعود والصاعقة التي لا يفلت منها أحد ، على أنه حرص على حمل أقل قدر ممكن من قواه وتخفّف من حمل النيران التي أهلكت تيفويوس ذا المائة يد^(١١) ، مستبدلاً بها صاعقة أقل ضراوة من تلك الصواعق التي لا تبقى ولا تذر ، فقد كانت في حوزته صاعقة استطاعت أيدي الكيكلوبيس أن تدخل في تكوينها قدرأ أدنى من غضب الآلهة وقسوتهم ، وجعلها الآلهة من صواعق المرتبة الثانية . ودخل چوپيتر بهذه الصاعقة إلى دار أسرة أجيور ، غير أن جسد سيميليه البشري لم يقو على تحمل الإشعاعات التي تنبعث من صاعقة الإله فاحتترقت وأصبحت رمداً بفعل هدية زفافها ، وأسرع الإله فانتزع الجنين الذي لم يكن قد اكتمل نموه وأخرجه من بطن أمه . وإذا كان لنا أن نصدّق ما يتناقله الرواة فإن أباه قد وضعه على فخذّه وهو ما يزال مُضْبَغاً ثم خاطه فيها حيث بقي شهور الحمل ، ثم حضنته خالته إينو^(١٢) حتى عهّدت به إلى حوريات نيسا^(١٣) اللاتي خبّأنه في غارهن وأخذن يغذيّنه باللبن .

٣٠٠

تيريزياس

وبينما كانت هذه الأحداث تدور على الأرض لوفّق نواميس القدر ، وبعد أن بات مهد باكخوس [ديونيسوس] بن سيميليه — المولود مرتين — في حراسة أمينة ، ثمل چوپيتر بعد رشقات نكتاره الإلهي فحاد عن الجلّد وبدأ يمزح مع چونو ساعة استرخائها ، وقال لها : « إنكن معشر النساء لتجدن في لحظة الوصال نشوة تفوق تلك التي يجدها الرجال » . غير أن چونو لم تشاطره رأيه فاتفقا معاً على أن يحتكما إلى تيريزياس الحكيم ويسلما برأيه ، ذلك أنه عرف لذات الحب تارة وهو ذكر وتارة وهو أنثى . فقد كان يجول يوماً في غابة خضراء ورأى ثعباناً هائلاً يواقع أفعى رهيبية ففرّق بينهما بضربة من عصاه . وفجأة ويا للعجب ، وجد نفسه قد تحوّل من رجل إلى امرأة ، وبقي سبعة أعوام وهو أنثى ، حتى كان العام الثامن وإذا هو يشهد نفس الثعبانين في نفس الوضعة التي كانا فيها قبل فحذّتها قائلاً : « لو أن هناك سحراً فعلاً قوياً يحيل من يضربكما من جنسه إلى الجنس الآخر فإنني مبادر بضربكما من جديد » ، وقام بضرب الثعبانين مرة أخرى ، وما لبث أن استردّ رجولته الأولى وعادت إليه طبيعته التي وُلد بها . وذلك ما

٣٢٠

جعل جونو وچويتر يحتكمان إلى تيريزياس بعد مجادلتها المازحة . وقد أَيْدَ تيريزياس رأى چويتر ، ففضبت ابنة ساتورن غضباً فوق كل خلاف وقضت على تيريزياس بأن ينسدل جفناه على ليل سرمدى . ولما لم يكن في استطاعة إله إبطال عمل إله آخر فقد عَوَّض چويتر تيريزياس عن فقدته نور عينيه بمنحه قدرة التكهن بالمستقبل ، مخففاً بمنته تلك عنه ما أصابه من جونو من نقمة .

نارسيوس وإكو

وكانت إجابات تيريزياس على تساؤلات الناس دقيقة مسلّمة من الأخطاء فأشاع ذلك شهرته في مدن بويوتيا جميعاً . وكانت ليريوبي حورية النهر اللازوردية الشعر النادرة الجمال أول اختبار لصدق وحيه ، وكانت هي الحورية التي احتضنها ربّ النهر كيبيسوس وسط مجراه الملتوى واغتصبها وهي سجيئة بين أمواجه فأنجبت طفلاً دعتة نارسيوس ما لبث أن نال إعجاب الحوريات وحبّهن . وحين قصدت تيريزياس تسأله هل تطول حياة ابنها إلى أن يهرم أجابها العراف العليم بالغيوب : « نعم إذا فطن إلى حقيقة أمره »^(١٤) .

وقد ظل هذا القول فترة طويلة وكأنه لا يحمل معنى حتى كشفت عن مغزاه الأحداث والوقائع التي تمثّلت في الهذيان الغريب الذي أُلْمُ بنارسيوس وفي طبيعة الميتة التي لقيها . ذلك أن ابن كيبيسوس لم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى جمع بين الطراوة والرجولة معاً ، وأخذ يحرك الرغبة في صدور الفتيان والفتيات معاً ، غير أن نعومة جسده اللدن كانت تخفى صلفاً عنيداً لم يتح لأحد من الفتيان أو الفتيات التودّد إليه . وذات يوم فيما كان يدفع بعض الغزلان المذعورة نحو شباكه شدّ انتباه الحورية الثائرة « إكو » التي لا تطيق الصمت حين يتحدث الآخرون فتردّد دائماً ما تسمع من حديث لكنها لا تبدأ الحديث أبداً ، وكانت وقتذاك ماتزال محتفظة بجسدها لم تتحوّل بعد إلى مجرد صوت . ومع ذلك فلم يكن ثغرها الثرثار قادراً على غير تكرار نهاية العبارات التي تقال أمامها . حدث هذا بلّادة جونو حين اكتشفت أن إكو كانت تعوق خطاها حين تذهب لمفاجأة زوجها چويتر وهو يضاجع الحوريات في الجبال ، إذ تنخرط معها في حديث لا ينتهي تتمكن خلاله الحوريات من الإفلات . وحين فطنت جونو إلى مسلكها ثارت قائلة : « لسوف أحرملك قدرة هذا اللسان الذي خدعني ، فلا تهئين باستخدام صوتك إلا في أضيق مجال » . ونفّذت جونو وعيدها ، ومن يومها وإكو لا تستطيع غير ترديد الكلمات الأخيرة من العبارات التي تسمعاها .

ولم تكد إكو تلمح نارسيوس جائلاً في الحقول النائية حتى اشتعلت في صدرها الرغبة وأخذت تتبع خطاه خفية ، تتزايد مع اقترابها منه النار التي تتأجج في أعماقها أسرع مما تشتعل النار في الكبريت الذي يغطى رعوس المشاعل . وكم تاقّت أن تتقرّب إليه بكلمات تطريه بها وتستعطفه غير أن طبيعتها لم تكن تتيح لها أن تبدأ حديثاً ، وإذ لم تكن قادرة إلا على تكرار ما تسمع فقد أخذت تترقّب أصواتاً تستطيع ترديدها .

وحدث أن صاح الفتى حين أبعدته خطاه عن رفاقه الأوفياء قائلاً : « أما من أحد هنا ؟ » ، وأجابت إكو مرّدة الصدى « هنا » ، فتوقّف نارسيوس مذهولاً وتلقّت حوله ثم صاح بصوت عال : « هلمّ إذن » فردّدت إكو قوله ، فتلقّت وراءه فلم يجد أحداً ، فصاح من جديد : « ماسرّ هذا التخفّي مني ؟ » ، ولكنه لم يسمع غير كلماته ترتد إليه ، فالتحّ في نداءه حتى ضاق بالصوت الذي خيل له أنه يتجاذب معه الحديث فقال : « لنلتق هنا » . ولم يكن هناك ما يُدخل السعادة على الحورية أكثر من ترديد هذه العبارة ، فردّدت على الفور قوله : « لنلتق هنا » ، ودلّت على فرحتها بالخروج من مخبئها بين الأشجار وتقدّمت نحوه تعانق أملها المنتظر ، غير أنه أفلت منها صائحاً : « رُدّي ذراعيك اللتين تمّدينها لعناقى ، فإننى أفضل الموت على أن أستسلم لك » . ولم تردّد إكو إلا عبارة « أستسلم لك » ، غير أنها أحسّت بالمهانة فغاصت في أعماق الغابة ، وأخفت وجهها العابس بين أوراق الأشجار . ومنذ ذلك الحين وهى تسكن الكهوف الموحشة ، وعاش حبها مع ذلك نابضاً في قلبها ، يتزايد ليهيه تزايد آلام الصّد ، وحرّمها قلقها النوم فأصابها الهزال وغطّت بشرتها التجاعيد وذبلت نضارة جلالها ، ولم يبق منها إلا صوتها وعظامها ، غير أن عظامها ما لبثت أن تحوّلت إلى حجر وظل صوتها وحده يتردّد . ومع بقائها مخبئة في الغابات فإن أحداً لم يعد يراها وإن بقى الجميع يسمعون صوتها في الجبال .

٣٨٠

٤٠٠

ولم تكن إكو الحورية الوحيدة التى سخر نارسيوس من عواطفها فقد أشاح بوجهه عن كثيرات من حوريات المياه والغابات كما فعل مع عشّاقه الذكور ، غير أن إحدى الحوريات اللاتي صدّهن رفعت ذراعيها متوسّلة إلى السماء أن يقع هو بدوره في شرك حب لا يخرج منه فائزاً . وسمعت نيميسيس^(١٥) ربّة مدينة رامنوس ذلك الدعاء العادل واستجابت له .

كان ثمة غدير صاف تتألق مياهه الفضية لم يعرف الرعاة طريقهم إليه ، ولم ترّد ماءه قطعان الماعز أو البقر التى ترعى العشب بالمراعى ، ولم يكن يقطع عليها هدوءها تغريد طير أو صياح وحش أو تساقط فروع الأشجار ، إذ أحاطت بها مروج كثيفة العشب تسقيها المياه المجاورة فمنحها إيناعاً دائماً متصلاً ، وتحميها من أشعة الشمس المحرقة غابات تلفّها بالأشجار الباسقة وتجعل أنسامها رطبة على الدوام .

سأقت نارسيوس خطاه إلى هذا النبع بعد ما أضناه الصّيد المنهك ووقدة الظهيرة ليسترخى في هذا الموقع الذى استهواه جماله وندى نسياته ، وقد مال على الينبوع ليطفئ ظمأه فإذا هو يحسّ ظمأ جديداً . ذلك أن صورته المنعكسة على الماء قد سحرت لبه فوقه في غرام طيف حسبه جسداً وهو لا يعدو أن يكون ظلاً . وقد فتنته صورته فبقى يحمق في الماء بلا حراك ، جامداً كتمثال من رخام جزيرة پاروس . واضطجع على الشاطئ يتأمل عينيه الشبيهتين بنجمين وشعره المسترسل الجدير بأن يكون شعر باكخوس أو أبوللو وجنتيه الملساوين وعنقه العاجى ووجهه الجميل الذى يتورّد بياضه الناصع . وامتلأت نفسه إعجاباً بتلك القسّات التى تحرّك إعجاب الآخرين به . ودون أن يدري بات يولّع بذاته ويمتدح نفسه ويؤجّج في صدره التّباهى بطلعته ، فكان هو نفسه وقود تلك النار التى يُضرمها . وكمن من مرّة حاول فيها

٤٢٠

تقيل ذلك الوجه المنعكس عن وجهه على صفحة الغدير ، وكم من مرة غاص بذراعيه إلى أعماق الماء محاولاً ضمّ خياله الذى تراءى له إلى صدره فإذا هو أعجز ما يكون عن أن يحقّق ما يحاول . أى شيء هذا الذى تقع عليه عيناه ؟ إنه لا يدري . غير أن هذا الذى يشهده هو مصدر الضنى فى نفسه ، وهذا الخيال الذى خدع عينيه هو الذى أثار الشوق فى نفسه إلى نفسه . أى نارسيوسوس ، أيها الصبى الساذج ، فيم محاولتك الإمساك بصورة خادعة ؟ إن ما تبحث عنه ليس له وجود حتى ، ولو أنك استدرت لغاب عنك هذا الذى تهيم به ، إن ما تراه ليس غير خيال نشأ عن انعكاس صورتك على الماء . إنه ليس له وجود مستقل . إنه يحىء معك ويبقى ببقائك ثم يرحل برحيلك لو رزقت الجرأة على الرحيل .

ولم تستطع شواغل الطعام ولا الحاجة للنوم أن تنتزع الفتى من مكانه فظل ممدداً على العشب الكثيف يخلق فى الصورة الكاذبة بعينين لا تشبعان من إطالة النظر ، وعراه الشرود من مداومته التأمل ، ثم وقف فى النهاية وبسط ذراعيه نحو الغابات المحيطة وصاح بها : « أيها الغابات ، هل أحسن أحد بحب أشد ٤٤٠ لوعة من حبنى هذا ؟ إنك تعرفين الخبر اليقين ، فالمحبون يجدون فيك المأوى الأمين للقاءاتهم الخفية ، وقد طالحت حياتك قروناً فهل تذكرين خلال سنوات عمرك الطويل أحداً ذاب مثلى أسى ؟ إننى عاشق أتطلع إلى من أعشقت ، غير أن هذا الكائن الذى أراه وأهواه يقعدنى العجز عن وصله وما أزال حتى هذه اللحظة مخدوعاً بحبه . وما يضاعف من ألى أن لا شيء يفصلنى عن حبيبى ، فليس بيننا محيط ولا طريق ولا جبال ولا أسوار مدينة ذات أبواب مغلقة ، ليس غير قليل من الماء هو الذى يحول بيننا . وما أشوق حبيبى إلى عناقى ، فحين انشئت على صفحة المياه الصافية لأقبله رفع هو الآخر وجهه إلى وجهى محاولاً الاقتراب منى ، وخیل إلى أن فى مقدورى أن ألمسه لولا تلك المياه الرقاقة التى تحول بينى وبينه . فلتقترب منى أيها الغلام الفريد فى جمالك كائناً من تكون ! لماذا تراوغنى ؟ وأين تذهب كلما حاولت الوصول إليك ؟ إنك لا تتجنبنى دون شك لمظهرى أو سنى فالخواريات يعشقننى ، ثم إن نظراتك التى تفيض حناناً تبعث فى الأمل . كما أنك تمدّ ذراعيك لى كلما مددت ذراعى لك ، وتبتسم لى حين أبتسم لك ، وكثيراً ما تدفقت دمعاتك مع دمعاتى ، وبادلتنى إشارة بإشارة ، ولقد تتبعت جاهداً حركات شفتيك الجميلتين وهى تنبس ٤٦٠ عن كلمات ما بلغت سمعى أبداً . ويلاه ، إن هذا الصبى الذى يترامى لى ليس غريباً ! وها أنذا قد فطنت للحقيقة . إن صورة وجهى لا تخدعنى ، إننى أحترق بنار حبنى لنفسى ، وإننى أشعل بنفسى النار التى أشقى بها ، ماذا تُرائى فاعلاً ؟ أتوسّل إلى نفسى أو أتلبّث حتى تتوسّل إلى نفسى ؟ وأى ضراعة تلك التى تُمكننى من أن أنال ما أحب ؟ فى حوزتى ما أتشوق إليه ، وثرائى هو سبب بلائى ، وكم وددت لو استطعت أن أنفصل عن جسدى ، وتلك أمنية ما أعسرهما على العشاق . كم وددت لو كان حبيبى غير قريب منى . إن الحزن يعتصر قواى وليس أمامى من العيش إلا أيام معدودات ، إننى أنطفئ وأنا فى زهرة الشباب ، ولن أصارع الموت لأنه سوف يريحنى من الآلام ، وكم أتمنى لحبيبى أن يحيا طويلاً من بعدى ، غير أن وحدة قلبينا ستجعلنا نهلك معاً وتنتهى حياتنا مع زفرة واحدة .

وحيث أنهى حديثه عاد يحملق مذهولاً في الوجه نفسه وقد تساقطت دموعه على الماء فاضطربت صفحته وتموج سطح الغدير ، وانطمست صورته ورأها تختفي فصاح بصوت عال : « إلى أين تهجرني أيها القاسي القلب ، ابق ولا تهرب مني يجبك ، دعني أطلع إليك مادمت لا أملك لمسك ، دعني أشبع حبي السيء الطالع بالنظر إليك » . ومزق من فرط حزنه طوق رداؤه وأخذ يضرب صدره العاري بيده الناصعة البيضاء فتورد صدره من أثر الصفعات تورد التفاح تحمر بعض أجزائه وتبقى الأخرى مشرقة البياض ، أو تورد العنب لم يكتمل نضج عناقيده بعد . ٤٨٠

وحيث هدأت مياه الغدير ثملت على صفحتها مآسى نارسيوس كلها فلم يطق مزيداً ، وكما تذوب الشمعة مع الحرارة الهائلة ، وكما تتبدد قطرات الندى مع دفء الشمس أخذ يذوب بحرارته الكامنة الخفية بعد ما أنهكه الحب وأضناه ، وفقدت بشرته بياضها المشرب حمرة الورد وزايلته قوة شبابه ، واختفى جمال قسماته الذي كان يأسر عينيه ، ولم يبق له شيء مما أحبه إكويوماً . وقد شاهدت إكوما وقع له ، ومع أن ذكرى صدوفه عنها كانت لاتزال ماثلة في أعماقها إلا أنها أحست بالحزن شفقة عليه ، وكلما زفر زفرة وقال « ويلاه » كانت تردد وراءه هذه الكلمة . وكانت آخر كلماته وهو يحملق في الماء ، « واحسرتاه على الغلام الحبيب الذي ذهب حبي له سدى » ، أخذت إكوتردد صداها . وحيث نادى « وداعاً » ، رددت إكوا أيضاً هذه الكلمة ، وتهالك بعدها فوق العشب ، ثم ما لبث أن أغمض عينيه اللتين طالما هامتا بجمال صاحبهما وسقط ميتاً . وحيث احتواه عالم الموت عاد يتطلع إلى صورته على صفحة مياه ستيكس ، وحزنت عليه شقيقاته حوريات النبع وقصصن شعورهن إجلالاً له ، وحزنت عليه حوريات الغابة أيضاً ، ورددت إكوا أصداً نواحين . ٥٠٠

وكان حطب المحرقة والمشاعل التي تُهزّ بالأيدي^(١٦) قد أعدت لحفل إحراق جثته التي اختفت ولم يعثر عليها أحد ، وإذا زهرة النرجس قد ظهرت مكانها تحمل قلباً زعفراني اللون تنبثق منه وريقات بيض^(١٧) .

پنشيوس واکوييتيس

كانت أحداث هذه القصة مما أذاع شهرة الحكيم تيريزياس في كافة مدن اليونان ، وكان بها جديراً ، فلقد ظل اسمه بعد ذلك موضع التقدير والإعجاب .

وكان پنشيوس بن إخيون يزدري الآلهة ، وكان الوحيد من البشر الذي امتنهن رسولهم وسخر من تحذيرات العراف العجوز تيريزياس . وحيث عيّر بفقدان بصره هزّ العراف رأسه الأشيب وقال له لائماً محذراً : « لو أنك حرمت نور عينيك كما حرمته أنا لكنت أسعد حالاً ، فعندها لم تكن لتشهد طقوس باخخوس السرية . ولسوف يأتي ذلك اليوم ، ولا إخاله بعيداً - الذي يُقبل فيه الإله الجديد لير بن سيميلييه^(١٨) ، فإذا أنت لم توفه حقّه من التبجيل في المعابد المقدسة ، تمزق جسدك إرباً إرباً ، وتناثرت ٥٢٠

أعضاؤك هنا وهناك ، ولطّخ دمك الغابات ولطّخ أمك وشقيقتيها . أجل ، سوف يأتى هذا اليوم الذى ستُحجِم فيه عن تكريم الإله ، ولسوف تُأسى على أننى وسط غياهب ظُلْمة البصر قد استطعت أن أرى هذا كله ببصيرة نافذة . » . وحين سمع ابن إخيون هذه العبارات على لسان العرّاف ثار فطرده شرّ طردة ، ولم تلبث نبؤات تيريزياس أن تحققت ، وأقبل ليبر ، تردّد الحقول صيحات عابديه المحمومة احتفاءً به ، وخرج الشعب عن بكرة أبيه ، رجالاً ونساء وأبكاراً ، فتية وأشرافاً ودهماء ، واندفعوا جميعاً ليقيموا الشعائر الجديدة . غير أن پثيوس أخذ يعترضهم قائلاً : « يا سلالة التّين ، يا أبناء مارس ، ما هذا الجنون الذى ذهب بعقولكم ؟ أو يمكن أن يكون لقرع النحاس بالنحاس ولنَفخ المزمار المحدودب ولحيل السحرة مثل هذا الأثر ؟ أو يمكن أن يطغى ضجيج النسوة ونشوة السُّكر وجلبة أجدان العريضة والمجون وقرع الدفوف الجوفاء على الرجال الذين لا يهابون صليل السيوف فى المعارك ونداء النفير الذى يدعو إلى القتال أو الكتائب التى تُشرع بين صفوفها الحراب ؟ مَنْ منكم يحق لى أن أدهش منه ؟ أنتم أيها الشيوخ الذين عبرتم فسيح البحار وجتتم هنا لتشيّدوا مدينة « صور » الجديدة^(١٩) ولتقيموا بها معابد آلهتكم ثم تتركون غيركم يظفر بها دون قتال ، أم أنتم أيها الشباب يا من تفيضون حياة وتُقلربوننى سنّا ، إنه لأجدر برءوسكم أن تحمل خوذات بدلاً من أكاليل الزهور ، وبأيديكم أن تحمل السيوف بدلاً من ثيرسوس باكخوس^(٢٠) . إني أسألكم أن تذكروا أسلافكم وأن تحاكوا ذلك الأفعوان الذى استطاع وحده أن يفتك بالعديد من المحاربين الشجعان مضحياً بحياته دفاعاً عن مياه ينبوعه ، وإنكم لتعرفون كيف تثارون لكرامتكم ، فاطردوا إذن هذا العدو الجبار لتكونوا أمناء على مجد آبائكم . ولو كان مقدراً لطيبة أن تسقط سريعاً لتمنيت أن يهدم أسوارها أعداء شجعان برّجات المجانيق ومقارعة السيوف وأزيز اللهب ، فسنسلم ساعتها من اللوم مهما كان حظنا شقيّاً ، ولن نكون بحاجة إلى إخفاء دموعنا التى لن تغسل عنا العار . اليوم يستولى على طيبة صبيّ خامل غير مفتون بالحرب وفرسانها وأسلحتها ، ولا تستهويه غير جدائل الشعر التى يفرح منها عطر المرّ ، وأكاليل الزهور والثياب الصارخة الألوان المطرّزة بالذهب . دعوه لى ولسوف أرغمه على الاعتراف بأنه هو نفسه الذى اختلق الخرافة القائلة بأنه إله مقدّس ، فإن طقوسه الدينية تدعو إلى السخرية ، فإذا كان أكريسيوس^(٢١) قد وجد الشجاعة الكافية لكى يُنكر عليه ألوهيته ويغلق فى وجهه أبواب مدينة أرجوس ، فهل يعقل أحد أن يُصيّبني هذا الأجنبي وسكان طيبة معى بالذعر ؟ » . ثم استدار يأمر رفاقة قائلاً : « أسرعوا ، أسرعوا وجيثونى بزعيم هذه العصابة مكبلاً بالأغلال ونفّذوا أوامرى دون تحاذل ولا تضيّعوا الوقت » .

على أن جدّه أثاماس وجميع أفراد أسرته قد لاموه وحاولوا عبثاً صدّه عن اندفاعه فزاده تحذيرهم إياه من ثورته ، ودفعته محاولاتهم إلى المبالغة فى تهوّه ، وزادت جهودهم فى كبح جماحه الأمر سوءاً ، مثله فى ذلك مثل السيل يهبط هادئاً لا تسمع له إلّا خريراً هامساً فإذا ما اعترضت العقبات مسيرته وكذا الصخور أو الأشجار اضطرب واصطخب وتغلّب على كل ما يعترضه .

وعاد مبعوثوه ملطخين بالدماء ، وحين سألهم سيدهم عن باخوس أجابوا بأنهم لم يروه ، وأضافوا قائلين : « ها هو ذا واحد من أتباعه أسرناه حين كان يؤدي الطقوس السرية » ، وأسلموه الأسير التيريني^(٢٢) المتحمس لعقيدة باخوس ويدا مقيّدتان خلف ظهره . ونظر إليه بنثيوس وعينه تقدحان شر الغضب ، وكان على وشك أن يبطش به ولكنه وجّه للأسير سؤالاً قائلاً : « إنك موشك على الموت ، ولسوف تكون بعد موتك عبرة وعظة لغيرك ، فتكلم إذن وافصح عن اسمك واسم أبويك ومكان مولدك وسرّ احتفالك بطقوس هذه العقيدة الجديدة ؟ » وأجاب الأسير دون تلثم : « اسمي أكويثيس ، وقد وُلدت في مايونيا من أبوين من أصل متواضع ، ولم أرث عن أبي حقولاً تحرثها الثيران القوية ، ولا قطعان معز تمدّن بالصوف ، ولا بقرة واحدة أرهاها ، إذ كان مثلي فقيراً ، وكانت مهنته طرح الشباك للأسماك واجتذابها بشصّه ثم رفعها من الأنهار منتفضة على طرف قصبة من غاب . وكانت مهنته هي كل ثروته التي أورثها لي قائلاً : « امسك بهذه الثروة من بعدى وكُن خلفي في هذه المهنة » . ثم مضى به الموت دون أن يترك لي غير المياه أبحث فيها عن صيد . ذلك كان كل ميراثي ، غير أني لم أشأ إفناء عمري قابعاً فوق الصخور ، فتعلّمت إدارة دفة السفينة وقياس المسافات بمواقع النجوم : نجمة عنزة أولينوس دليل المطر^(٢٣) والثريا وقلائص كوكبة الثور والدين الأكبر والأصغر ، وألفت عيناى اتجاهات مهابّ الرياح كما ألفت الموانئ الصالحة لرسو السفن . ويوماً ما وأنا مُبحر صوب جزيرة ديلوس اقتربت من شواطئ جزيرة خيوس وكان رجالي يجذفون في يسر قرب الشطّ فقفزت من القارب فوق الرمل المبتل وأمضيت مع رجالي الليل هناك . حتى إذا أخذ الفجر يصبغ السماء بَحُمرة كَحُمرة الورد استيقظت وطلبت من رفاقي أن يمشوا بحثاً عن مياه عذبة وأرشدتهم إلى طريق الينبوع ، ووقفت فوق ربوة لأستشف ما تأتى به الرياح ، فنادت رفاقي وعُدت إلى سفينتي وكان أوفلتيس أول من عاد من الرفاق مهللاً : « ها نحن أولاء » وكان قد اصطحب معه غلاماً تفوق وسامته جمال الفتيات ، وكان وحيداً في الحقل قد أثقلت جفناه الخمر والنعاس ، يتعثّر في مشيته ويتبع صاحبه متثاقلاً . وأنعمت النظر في قسّات وجهه ومظهره وثيابه فرأيتني بين يدي مخلوق يسمو على البشر ، حتى إذا امتلأت ثقة بحكمي قلت لرفاقي : « ترى أى إله يستكنّ في هذا الجسد ؟ ما أعجزني عن أن أتبيّنه ولكنه إله على أية حال » ، ثم التفتُ إليه قائلاً : « ها أنذا أضرع إليك كائناً من كنت أن ترفق بنا وتمدّ لنا يد العون ، وأن تصفح عن رجالي » . وهنا صاح ديكتيس « لا حاجة بي إلى صلاتك » ، وكان أسرع الملاحين في تسلّق السارى صعوداً وهبوطاً ، ووافقه كل من ليبيس وميلاثوس الأشقر مرشد السفينة ، وكذلك الكيميدون وإيبويوس الذي كان يرفّه عن المجذفين بصوته الرخيم ويوافق بين إيقاع المجاديف . ثم حذت البقية الباقية حذوهم وقد أعماهم عن الحقيقة شغفهم بالغنيمة التي ظفروا بها ، فصحت فيهم : « لن أذن لكم أن تنالوا من نزيلنا المقدّس فتزل اللعنة على سفينتي ، وأنا صاحب الكلمة الفاصلة في هذا الشأن » ، واعترضت طريقهم إلى السفينة ، فأثار هذا ليكاباس أشدهم جرأة وكان قد نفى من مدينة إتروسكية عقاباً لجرمة قتل بشعة ارتكبها . وحين أردت مقاومته قبض على عنقي بقبضته القوية ، وأوشك أن يلقيني في البحر لولا أني أسندت ظهري إلى أحد الجبال ، بينما كان الملاحون الحمقى يصفقون له على فعله . وأخيراً تدخل الصبي الذي لم يكن سوى الإله باخوس نفسه وكأنما بدّد الصباح

غفوته وتيقظ من سكرة النبيذ ، وتسأل : « ترى أى شيء يقع هنا ؟ وفيم كل هذا الصياح ، أخبروني أيها الملاحون ماذا أتى بى إلى هنا ؟ وإلى أين تنوون الذهاب بى ؟ » فهذا بروريوس^(٢٤) من روعه قائلاً : « لا تخف ، وقل لنا أى ميناء تريد أن تبلغه ولسوف نرسو بك عند المكان الذى تختاره » . وأجاب ليبر [باكخوس] « أريد أن أرسو عند ناكسوس ، فاتجهوا بسفينتكم صوب هذه الناحية فهناك موطئ ، ولسوف تجدون بها كل حفاوة » ، فأقسموا له يميناً كاذبة بإله البحر وجميع الآلهة أن يذهبوا به إلى حيث يريد ، وطلبوا إلى أن أنشر الشراع لتدفع به الريح فأدرت الشراع إلى اليمين حيث تقع ناكسوس^(٢٥) فإذا بأوفيلتيس يصيح فى قائلاً : « ماذا تفعل أيها الغبي ؟ أى جنون أصابك ؟ » ، وصاح بى بعض الرجال ٦٤٠ « انحر فإلى اليسار » . وبينما أوما إلى بعضهم برأسه همس فى أذى آخرون بما يضمرونه ، ففزعت وقلت لهم : « فليتول الدفة أحد غيرى » ، ورفضت مشاركتهم فى خطتهم الإجرامية فتعقبونى باللعنة متممين بالغضب ، وصاح إيثاليون : « أو تظن أمان السفينة موكولا إليك وحدك ؟ » ، وأخذ مكانى فى السفينة ومضى مخلّفاً ناكسوس إلى وجهة أخرى منطلقاً بعيداً . وحينئذ سخر الإله منهم وكأنه لم يكشف خيانتهم إلا ساعتها ، ووقف فى مؤخرة السفينة وتطلع إلى مياه البحر متظاهراً بالبكاء ، وقال : « ليس هذا هو الشاطئ الذى وعدتم بإرسائى عنده أيها الملاحون ، وليست هذه بالبلاد التى رجوتكم التوجه إليها ، ما الذى فعلته بكم لتجاوزنى هذا الجزء ؟ وأى مجد يصيبه نفر من الكبار من التفرير بصبي وحيد ؟ » . وعندها انخرطت فى البكاء غير أن الملاحين الأشرار سخروا من دموى وضاعفوا من حركة مجاديفهم ، وأقسم لكم الآن بذلك الإله نفسه [لأنه ليس هناك من هو أثبت منه وجوداً] بأن ما أقصه حق رغم استحالة تصوّره ، إذ ما لبثت السفينة أن توقفت وسط المياه جامدة وكأنها تقف على حوض جاف ، ٦٦٠ وتعجب الملاحون وجدّوا فى الضرب بمجاديفهم ونشر جميع الأشرعة ليسرّوا للسفينة أن تندفع ، غير أن أعشاباً من البحر أخذت تلتف حول المجاذيف بمحاليقها الحلزونية فعوّقت حركتها والتفت عناقيدها الكثيفة على الشراع فجمدت السفينة مكانها ، وظهر الإله نفسه مزدان الجبين بعناقيد كروم شاهراً حرباً مغطاة بأوراق عنب ، وتضطجع حوله أطياف وحوش من غمور وفهود مفترسة مرقشة الجلود ، فهُرع البحارة يلقون بأنفسهم إلى الماء جنوناً أو رعباً لست أدرى . وكان ميدون هو أولهم فقد اسودّت بشرته وانحنى ظهره كالقوس وأبصره ليكاباس فسأله قائلاً : « على صورة أى وحش تتحوّل ؟ » وبينما هو يتحدث إليه إذا فمه يتسع وخياشيمه تنفرج وجلده يتصلّب وتكسوه الحراشيف . وحين حاول لبيس جرّ مجدافه تقلّصت يداه وتحولتا إلى ما يشبه الزعانف . وحين حاول رجل آخر رفع ذراعيه ليتعلّق بالحبال المجدولة اكتشف أنه بلا أذرع ، فحنى جسده المبتور الأطراف وقفز إلى الوراء وسقط فى الماء وإذا هو قد نبت له ذيل على شكل المنجل المقوس الذى يحكى قرن الهلال . وأخذت هذه المخلوقات تقفز فى الماء هنا وهناك مثيرة الزبد وهى تغوص فى الماء وتعلو وكأنها جماعة من الراقصين تنفث المياه بخياشيمها الواسعة . ولم يبق من العشرين ملاحاً غيرى فوق السفينة وقد أمسك بى الذعر وعرتنى الرعدة ، فهذا الإله روعى قائلاً : « لا تخف » ووجه السفينة إلى جزيرة ديا^(٢٦) ، حتى إذا بلغتها بادرت بتأدية طقوس باكخوس السرية ، وصرت من يومها من المؤمنين به .

وعقب بنثيوس على هذه القصة قائلاً : « إذا كنت قد أصخت لحكايتك الطويلة الملتوية فذلك كى أفسح لغضبي أن يهدأ ، خذوا هذا الرجل أيها الأتباع وصبّوا على جسده جميع ألوان العذاب ، ثم ابعثوا به إلى عالم الموت في نهر ستيكس » . وما لبثوا أن اقتادوا أكويتيس التيريني بعيداً ، وحبسوه في سجن حصين ، غير أن الرواة يحكون أنه حين أعدّ الحديد والنار لتعذيبه ، انفتحت الأبواب على مصاريعها وتساقطت الأغلال عن يديه من تلقاء نفسها . وبقي ابن إخيون سادراً في غيّه ولم يشأ إنابة أحد عنه ، بل توجه بنفسه إلى كيثايرون ، وهو الجبل الذى اختير لإقامة الشعائر الدينية ، وعليه تردّدت الأغنيات وصيحات عابדות باكخوس التى غمرت أجواز الفضاء . وكالجواد الأبيّ في ساحة الحرب يصهل متهيباً للقتال ساعة يسمع صوت النفير يستنهض المحاربين للهجوم ، أخذت صيحات كاهنات باكخوس التى ردّد الهواء صداها تهيج بنثيوس وتزيد غضبه وتُشعل الضوضاء ثورته .

كان ثمة سهل منبسط في منتصف الطريق الصاعد إلى الجبل قفرٌ من الأشجار على الرغم من أن الغابات تكتنفه ويمكن للعين أن تحيط بجوانبه . ومن هذا المكان استطاع بنثيوس أن يشهد الطقوس السرية بعينيه اللتين حُرمتا ومض الإيمان . وكانت المرأة الأولى التى رآها تندفع صوبه كالمجنونة ، نعم . . . المرأة الأولى ، هى أمه أجافيه التى حقّرت شأن ابنها بنثيوس وهوت عليه بالثرسوس [صولجان باكخوس] صائحة : « إيو . إيو » (٢٧) أقبالاً لعوى يا أختاى فانا حريصة على أن يفتك سهمى بهذا الخنزير البرى البشع الذى يهيم على وجهه طليقاً في حقولنا » . فأصاب رفيقاتها مسّ من جنون وانقضضن على الرجل الواقف بينهن وحيداً ، وأخذن كقطع واحد يطاردن بنثيوس الذى أمسك به الذعر وأرعدت فرائضه وزايله صلفه ، فاعترف بذنبه وأنحى باللائمة على نفسه ، وصاح رغم جراحه قائلاً : غوثاه . . خالتى أتونوى (٢٨) . هلا أثار فيك طيف أكتايون الرحمة بى ! » . غير أن اسم أكتايون لم يحرك فيها ساكناً ، فبترت ذراعه اليمنى وانتزعت إينو ذراعه اليسرى فغدا بلا ذراعين يرفعهما ضارِعاً إلى أمه ، وكشف لها عن جسده المبتور الأطراف الشبيه بجذع شجرة وشاح متوسلاً : « أترين يا أمّاه ؟ » فأطلقت أجافيه صرخات جنونية ، وطوّحت رأسها يَمَنَةً وِيسرة وشعرها يتطاير في الهواء ، ثم انتزعت رأس ابنها من بين كتفيه وأمسكت به مخضبا بالدماء صائحة : « إيو ، انظرن أيتها الصاحبات ، ألا إن هذا النصر من صنع يدى » . وأسرع من تساقط أوراق الأشجار السامقة في الخريف حين تلعب بها الرياح - على الرغم من قطرات الندى التى تكاد تجعلها عالقة بالأغصان - فلا تلبث أن تعبت بها ، أخذت أطراف بنثيوس تتناثر في أيديهن الوحشية . واتخذ نساء طيبة من هذا الحدث عبرة ، وغدون يحتفلن بإقامة شعائر هذه العقيدة الجديدة فيحرقن البخور للإله ويكرّمن محاربيه المقدسة .

التعقبات

- (١) يرَدُّ أولفد كلمة بويوتيا إلى كلمة بوس اليونانية التي تعنى البقرة ، إلا أن الرأى الغالب أن هذه المنطقة قد سميت على اسم البطل بويوتوس بن بوزيدون .
- (٢) ينبوع فوق الجبل المقدس لأبوللو وريات الفنون ، أى جبل پارناسوس .
- (٣) وصف أوربيدس قصة صراع كادموس فى أحد أناشيد الكوروس بمأساة « الفينيقيات » ، وكثيراً ما صور الفنانون هذا الموضوع على الأوانى الخزفية .
- (٤) يروى أولفد قصة هذا التحول بالتفصيل فى الكتاب الرابع .
- (٥) اشتق اسم إخيون من كلمة إخيوس اليونانية التى تعنى الأفعى أو الثنين ، وقد حل أحد العالقة هذا الاسم كذلك .
- (٦) ثمة تشابه بين هذه القصة وقصة جاسون الذى أمره الملك أيبتيثس بأن ينثر أنياب تين على الأرض ، وبعد أن فعل نبت منها جند تصارعوا وقتل بعضهم بعضاً [انظر الكتاب السابع] .
- (٧) هياس هو اسم بطل أطلق على شعب بدائى بأسره فى بويوتيا . ويقال إن كادموس قد طردهم من وطنهم ، وصارت كلمة هياس فيها بعد مطابقة لكلمة بويوت .
- (٨) لا توجد هذه الأسماء فى غير نص أولفد .
- (٩) يدل هذا السرد الطويل على المكانة التى كان الرومان يفتخرون بها كلاب الصيد العريقة شأن العرب مع الخيل . ويلاحظ أن أسماء هذه الكلاب تحمل فى أصلها الإغريقى معنى يشير إلى سرعتها أو سلوكها أو لونها إلى غير ذلك .
- (١٠) ألهمت أسطورة أكتايون منذ البداية الفنانين الإغريق ، فسورها بوليغنتوتوس فى دلفى ، كما مثل أكتايون والكلاب فى أعقابها فوق حشوة منحوتات بمعبدها فى سيلينوس من القرن الخامس ق.م . وكثيراً ما صورت مأساة أكتايون فوق الأوانى الإغريقية ، وثمة لوحة جدارية مصورة لنفس الأسطورة بهومي . هذا إلى لوحة الفنان تسيانو الرائعة خلال عصر النهضة بالبندقية .
- (١١) تيفويوس هو أحد العالقة الذين تحدوا جوبيتر .
- (١٢) إينو هى بنت كادموس وزوجة أثاماس .
- (١٣) ثمة مدن كثيرة فى العالم القديم تحمل اسم نيسا ، وأغلب الظن أن أولفد لم يقصد موقعاً جغرافياً معيناً . فهناك أساطير تروى أن نيسا كان اسم تلك الحورية التى أرضعت ديونيسوس وربته ، وماتزال حقيقة هذه الأسطورة غامضة . أما مشهد مولد ديونيسوس فهو موضوع مألوف فى النقوش البارزة والأوانى الخزفية المصورة وخاصة فوق المزاج « كراتيرون » الكبير الموجودة بمتحف نابلى .
- (١٤) أى إذا أدرك حقيقة صورته المنعكسة فى الماء فلا يهيم بذاته حتى يهلك .
- (١٥) إحدى ريات القدر ، وهى تجسيد لنقمة الآلهة على غرور البشر عندما يبتسم لهم الحظ ، وكان من أعبائها توقيع العقاب على خطيئة الغطرسة من غير وجه حق .
- (١٦) كانت المشاعل تُهزّ لتأجيج لهيبها قبل إشعال المحرقة .

(١٧) هي زهرة النرجس ومنها اشتقت كلمة « النرجسية » التي تعنى الإعجاب المرضي بالذات .

(١٨) ليبر إله إيطالي قديم حل محل ديونيسوس ولقب من ألقاب هذا الإله ويعنى « الحر » أو « المحرّر » بوصفه إله النبيذ والنشوة .

(١٩) هم الفينيقيون الذين أقاموا مع كادموس مدينة طيبة التي سبق ذكرها .

(٢٠) ثيرسوس باكخوس أى صولجان ، وهو عصا تتوجها حلية على شكل ثمرة الصنوبر وتلتف حولها أغصان كروم دقيقة هي شعار باكخوس وأشياعه .

(٢١) أكريسوس ملك أرجوس هو والد داناي . وهنا يخالف أوفيد الأسطورة القائلة بأن طيبة كانت أول مدينة يونانية يزورها الإله ديونيسوس ، حسب ما ورد بمسرحية عابدات باكخوس لأوريبيديس .

(٢٢) تيريفي وإتروسكي كلمتان مترادفتان ، ويقال إن أصل الإيتروسكين من ليديا بآسيا الصغرى ، وكان الاسم الأصل لليديا مايونيا .

(٢٣) نجمة عنزة أولينوس هي أهم نجمة في مجموعة « الحوذى » بجوار « الدب الأصغر » ، ويرجع اسمها إلى العنزة التي أرضعت الإله چوبيتر وهو طفل . وكثيراً ما يختلط أمر هذه العنزة بالحدورية أمالثيا التي ظن البعض أنها ابنة أولينوس . وهناك رأى آخر بأن أولينوس مدينة قديمة في اليونان حيث أرضعت العنزة الإله چوبيتر .

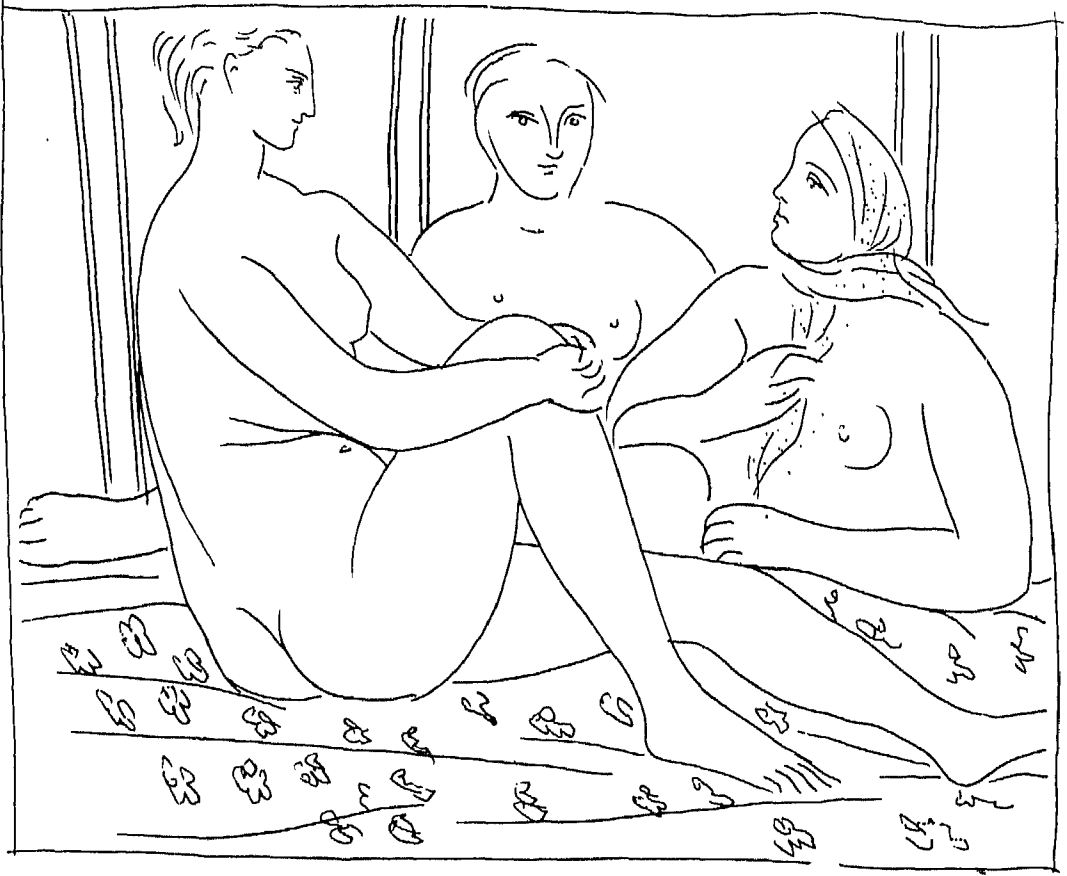
(٢٤) تعنى كلمة بروريوس في اليونانية « المرشد » في مقدمة السفينة . وقد ذكره هوميروس كاسم شخص من بين الفياكيين [انظر الكتاب الثامن من الأوديسيا : ١١٣] .

(٢٥) يؤخذ على أوفيد هنا نقص معارفه الجغرافية : إذ قال على لسان أكويتيس أن سفينته كانت تميل نحو الجنوب وهي تتجه نحو ديلوس ، وأنها قد رست على الشاطئ الغربي من جزيرة خيوس ، فإذا كان حقاً يقصد بلوغ ناكسوس بعد ذلك من غرب خيوس لتحتم عليه أن تتجه جنوباً لا شرقاً .

(٢٦) ديا اسم لجزيرة ناكسوس .

(٢٧) « إيو » هي صيحة النشوة المحمومة لعابدات باكخوس ينادين بها الآلهة ، وقد تكون أحياناً تعبيراً عن شدة الحزن .

(٢٨) أتونوى هي أم أكتايون الذي مزّته كلابه كما مرّ بنا .



بيكاسو: بنات مينياس

الكتاب الرابع

بنات مينياس

على أن ألكيثوى بنت مينياس لم تكن بين هؤلاء النسوة المؤمنات ، إذ لم تشأ أن تلمّ بشيء من أسرار الإله ، إيماناً منها بأن تلك الطقوس الطائشة مما لا يجوز لقومها أن يباشرها ، كما أنكرت في إصرار بنوة باكخوس لجوبيتر ، وشاطرتها هذا التمرد الآثم شقيقتها .

وكان الكاهن قد أعلن ألا بد من إقامة احتفالات باكخوس وإعفاء الفتيات العاملات من مهامهن ، كما فرض عليهن أن يغطين هنّ وسيدات المدينة صدورهن بجلود الحيوان ، وأن يُرخين عصابات شعورهن ، وأن يُتوجن هاماتهن بأكليل الزهور ، وأن يحملن الثيرسوس المزدان بأوراق الكروم ، ثم

حذّره من عاقبة غضب الإله إن مسّه ما يشين . واستجابت السيدات والفتيات إلى نصائح الكاهن ، فهجرن أنوالهن وسلاهن وأعمالهن ولم يكنّ قد فرغن منها ، وأحرقن البخور للإله ، ودعون باكخوس باسم بروميوس وابن النار^(١) ، كما نادينه يا مَنْ وُلد مرتين ويا مَنْ له أمان ، ونادينه بأسماء أخرى مثل طفل نيسا ، وثيونيس ذى الصفات المرسلة ، ولينايبوس الاسم الذى لُقّب به لأنه زارع الكروم مصدر نشوتنا ، نيكيتيلوس ، وأبينا إيليلوس ، وإياخوس ويوهان ، ثم دعونه فى آخر الأمر بالأسماء جميعها التى تتسمّى بها بين شعوب اليونان يا « لير »^(٢) : شبابك لا يذبل فانت الطفل الخالد وأجل كائن تتجه إليه الأنظار فى السموات العلا . لرأسك جمال العذارى حين يُشرف علينا بلا قرون^(٣) ، سُدت الشرق إلى أطراف الهند حيث يفيض نهر الجنج على أرض شعبه الأسمر . ما أكثر من يعبدك من الناس أيها الإله ، يا من قضيت على بنثيوس وليكورجوس المسلّح بالبلطة ذات الحدين عقاباً على مروقهما^(٤) ، وأغرقت اللبدتين فى البحار ، وأثقلت عنق النمرين اللذين يجرّان مركبتك بنيرين تزيّنها أعنة مشرقة الألوان . فى إثرك تمضى كاهنات باكخوس العابدات والساتير والشيخ الهرم الثمل الذى يعتمد على عصاه لاضطراب خطواته^(٥) ولا يكاد يستقر على ظهر جحشه المحدودب . حيثما تمضى تهدر أصوات الفتیان ترحيباً بك ، وتتردد أصوات النساء ، ويُسمع قرع الأكفّ للدفوف وصكّات الصنوج المكورة ، ويرتفع صوت الناي الطويل الأنابيب المتخذ من قصبات الغاب ، ويتهل إليك نساء طيبة أن تُقبل عليهن برقتك وعطفك ، ثم يؤدّين لك الطقوس الواجبة .

٢٠

ولم يتخلّف فى بيته غير بنات مينياس اللاتى عكّرن صفو الحفل بقيامهن بالغزل والنسج — وهما أحب الأعمال إلى الإلهة منيرفا — فى غير وقتها المخصّص لهما ، فظللن يجدلن خيوط الصوف ويُدِرْنَها بأصابعهن ويشددنها إلى أنوالهن وقد استهضن الخادّات للعمل ، وانبرت إحداهن تقول لشقيقتها وهى تجذب خيطها برفق : « ها قد انصرف غيرنا من الفتيات عن العمل وشغلن بأداء طقوس من العبادات الزائفة ، على حين قد خلّتنا نحن هنا الإلهة باللاس التى هى أجدر بالتكريم . فلنخفّف عن أنفسنا إذن من عناء هذا الجهد ولنأخذ فى شجون الحديث ونحن نعمل بأيدينا ، ولنتسامر فتقصّ كل واحدة منا قصة ممتعة لا نحسّ معها بطول الساعات » . وأمام إعجاب الشقيقات بهذه الفكرة اقترحن أن تكون هى البادئة بالحديث ، فأخذت تفكر أية قصة تختار من بين ما تعرفه من قصص كثير ، وتردّدت هل تقصّ حكاية ديكيتيس البابلية التى يعتقد شعب فلسطين أنها تحوّلت إلى سمكة تسبح فى إحدى البحيرات بعدما اكتست أطرافها بالخراف^(٦) ، أو تقصّ حكاية إبنة ديكيتيس التى غما لها جناحان فانتقلت إلى برج حمام أبيض تقضى فيه آخر سنوات عمرها^(٧) ، أو قصّة حورية الماء التى كانت تُحِيل الرجال أسماكاً صماء بتعويذاتها وبأعشاب قوية الفِعل حتى حاق بها المصير نفسه^(٨) ، أو قصّة الشجرة التى كانت تُنبئ توتاً أبيض فصار أرجوان اللون بعد أن اصطبغت بالدماء ؟ وكان هذا هو الموضوع الذى وقع عليه اختيارها ، إذ كانت قصته غير شائعة فراحت تروى أحداثها وهى تغزل بيدها خيوط الصوف :

٤٠

پيراموس وثيريزى

كان پيراموس وثيريزى يعيشان معاً فى دارين متجاورتين فى تلك المدينة الشاهقة ذات الأسوار العالية التى قيل إن سميراميس قد شيدتها من قوالب الحجر . وكما كان پيراموس أكثر الشباب وسامة كانت ثيزيزى أجمل نساء الشرق ، وقد نشأت بينهما صداقة لم تلبث مع الأيام حتى غدت حباً أوشك أن يفضي بهما إلى الزواج لولا أن حال أبواهما دون إتمامه . على أن ما لم يستطع أبواهما منعه هو تلك النار التى اتقدت فى قلوبهما وأخذت تحرقهما بلهب الشوق . ولم يكن لهما صديق يثنائه همومهما ، فكانا يتبادلان أحاديثهما بالإيماءات والإشارات ، وكلما أخفيا جبهما عن الناس تأججت نيرانه فى قلوبهما . وكانت بالجدار الفاصل بين داريهما ثغرة دقيقة خفيت على الأعين طوال السنوات العديدة التى تلت تشييد الدارين وكانا هما أول من تبيّناها ، وعينُ العاشق قلَّ أن يخفى عليها شيء . وما لبثا أن جعلتا منها وسيلتهما ليتناجيا من خلالها بأعذب أحاديث الهوى والغرام مطمئنين آمينين . وما أكثر ما كانا يتحسّسان أنفاسهما وقد وقف كل منهما فى ناحية ، وكم حدّثا الجدار قائلين : « كيف تضيق أيها الجدار الغيور بعاشقين أن يجتمعا فتقف بينهما سدّاً منيعاً . ما أهون عليك أن تحقّق لنا ما ننشد . هلا أفسحت لجسدينا أن يتعانقا ، وإن ضقت بهذه فهلا انفرجت قليلاً فأنتحت لشفّتين أن تلثم إحداها الأخرى وسوف نكون على هذه من الشاكرين ، على أننا سوف لا ننسى صنيعك بما مهّدت لكلماتنا أن تبلغ آذاننا الواهة » . على هذا النحو كان يجرى حديثهما اليائس عبر شقّ الجدار ، حتى إذا هبط الليل ودّع أحدهما الآخر ، وكانا لعجزهما عن تبادل القبلات يقبلان الجدار حيث يقفان .

٨٠

وذات صباح بعد أن طمست الشمس نجوم الليل بأشعتها وبعد أن جفّت الأعشاب بما عليها من ندى جاء إلى مكان لقائهما الأليف ، وأخذوا يندبان حظهما متهامسين بشكاة تخنقها الزفرات ، ثم اتفقا على أن يحاولا التسلل من داريهما تحت جنح الظلام فى مأمن من العيون ، وتواعدا حتى لا تضلّ خطواتهما فى الريف الفسيح على اللقاء عند ضريح نينوس ، والاختباء فى ظلال شجرة التوت المزدهرة ذات الأوراق الكثيفة والثمار البيضاء التى تجاور الينبوع العذب . ولقد ظلّا نهارهما بعد أن انتهيا إلى هذا القرار يستبطنان انتهائه ، حتى إذا ما غاب قرص الشمس فى خضم الظلمات خرجت ثيزيزى من دارها خلسة دون أن يراها أحد من الحراس بعد ما فتحت الباب وأسدلت على وجهها نقاباً وقصدت الضريح ، ثم جلست تحت الشجرة المتفق عليها وقد ملأها الحب جرأة ، وإذا لبؤة قد ظهرت لها فجأة تقصد إلى الينبوع لتشرب وفمها يقطر بدم الثيران التى افترستها . لمحّتها ثيزيزى فى ضوء القمر وهى ماتزال بعيدة فهربت إلى كهف مظلم ، وكان نقابها قد انزلق على كتفها ثم سقط على الأرض وهى تجرى فخلّفته وراءها . وبينما اللبؤة تعود أدراجها إلى الغابة بعد أن شربت وأتخمت ، وجدت النقاب الملقى على الأرض فمزّته وتركت على مزّقه بقعاً من الدماء التى كانت عالقاً بأنيابها .

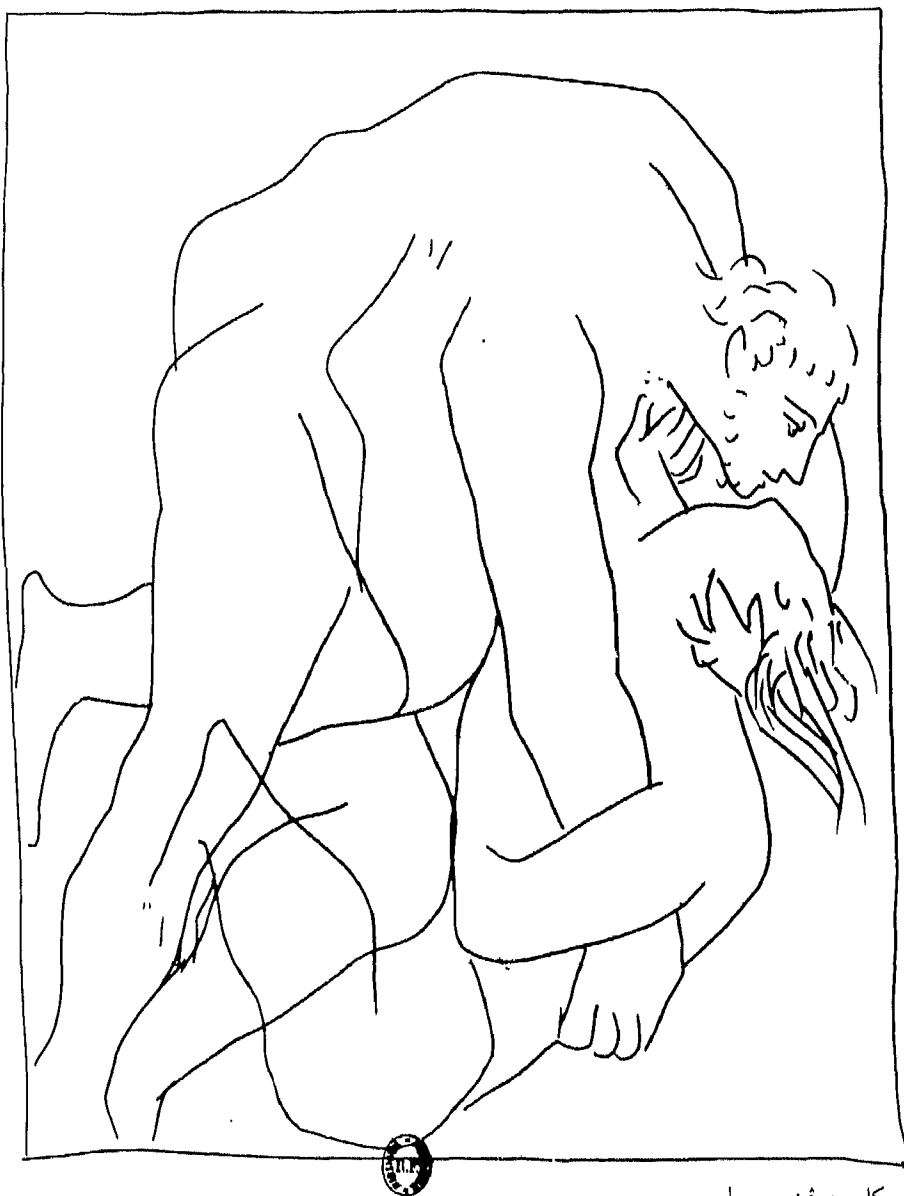
١٠٠

وأقبل پيراموس بعد قليل فرأى آثار أقدام اللبوة ظاهرة في التراب الكثيف فُبِيت ، ثم إذا هو يجد النقاب مخضباً بالدم فيصيح : « فلتشهد هذه الليلة مصرعى كما شهدت مصرعها ، فقد كانت ثيزى أجدر بالحياة منى ، أنا المسىء يا فتاتى البائسة ، أنا من أوديت بك وحملتك على أن تأتى بالليل إلى هذا المكان المحفوف بالأخطار دون أن أسبقك بالمجىء إليه . إلى أيتها الأسود التى تعيش فى هذا العرين من الصخور فمزقوني إرباً إرباً بأنيابكم القاطعة عقاباً لى على ما اقترفت من إثم ، ولكن كم أنا بالغ الجبن حين أقنع بتمنى الموت » . ١٢٠ والتقط نقاب ثيزى ومضى إلى ظل الشجرة التى كانا سيلتقيان تحتها ، وجعل يبكى ويقبل النقاب الأليف له ويناجيه قائلاً « فلتشرب أنت الآخر من دمي » . وما كاد يلفظ هذا القول حتى انتزع خنجره المشدود إلى خصره وأغمده فى جنبه ، ثم انتزعه من جرحه الدامى بعد لآى وهو ملقى على الأرض يحتضر ، فانفجر الدم من جرحه عالياً وكأنه أنبوبة مثقوبة انبثق منها الماء ، وتدفق الدم عبر ثقب ضيق مرسلأ صغيراً يجلجل فى الهواء^(٩) . وغطى دمه المنثور ثمار الشجرة بلون قان ، وشرب جذعها دمه فاصطبغت الثمار المتدلّية على الأغصان باللون الأرجوانى .

وكانت ثيزى رغم ما بها من الخوف الذى تملكها قد قفلت راجعة حتى لا يحرك تأخرها خيبة أمل حبيبها ، ومضت تبحث عنه بعيون ملهوفة وقلب مشوق لأن تروى له ما صادفها من أخطار وما فعلته للإفلات منها ، واهتدت إلى المكان كما اهتدت إلى الشجرة ، غير أن لون الثمار قد حرك الحيرة فى نفسها فتساءلت أكان هذا هو المكان نفسه أم لا ؟ وفيما هى حائرة وقع بصرها على جسد ينتفض مُسجى على الأرض المخضبة بالدماء ، فتراجعت إلى الخلف شاحبة مذعورة جامدة جمود خشب البقس ، مرتعشة كصفحة البحر حين تعبت بها لمسات النسيم العليل . ولم تلبث أن تعرّفت على حبيبها ، وشرعت تولول بصوت عال وتضرب صدرها وتمزّق شعرها وتحتضن حبيبها وتقبل وجنتيه الباردتين فى لهفة وعيناها على جرحه فيختلط سيل دمعه بدمه ، وتناجيه : « أى حدث وحشى هذا الذى اختطفك منى يا پيراموس ؟ أجبنى ، أنا حبيبتك ثيزى التى تناديك ! أنصت لى ، وارفع لى رأسك المتخاذل » . وسمع پيراموس صوت ثيزى ففتح عينيه اللتين أثقلهما الاحتضار ثم ما لبث أن عاد فأغلقهما إلى الأبد . ولمحت ثيزى نقابها ورأت الغمد العاجى خالياً من خنجره فصاحت قائلة : « لقد قتلت نفسك بيدك وأودت بك حبيبتك ، فلا فعلن أنا أيضاً فعلك ، إن حبى لك جارف كحبك لى ولسوف يمنحنى القوة على أن أغمد الخنجر فى جسدى مثل ما أغمدت ، ولأمضى فى إثرك إلى عالم الموت ، ولسوف يقول الناس إننى كنت سبب بلائك وشريكك فيه أيضاً . لقد كان الموت هو وحده الذى يستطيع أن ينتزعك منى ، أما اليوم فلن يستطيع أن يفصلنى عنك . وأنتما أيها الأبوان يا من كتب عليهما الشقاء ، كل ما أرجوه منكما من فضل هو أن تدفنا معا فى قبر واحد مادام الموت والحب الصادق قد جمعا بيننا . وأنت أيتها الشجرة التى تظللين جثة واحدة عما قريب ستظللين جثتين ، فلتحملى إلى الأبد ذكرى موتنا بثمارك التى تُثمرينها قانية اللون آسية ، كى يذكر الناس دوما دَمنا الذى نزفناه معا » . ١٦٠

ولم تكذ ثيزي تفرغ من كلماتها حتى ثبتت سنّ الخنجر في صدرها وارتمت فوقه وهو مازال دافئاً بدم
 پيراموس . وبلغت دعواتها سمع الآلهة فحملتها إلى ذبيها ، وغدت شجرة التوت ثمر ثماراً تستحيل عند
 نضجها أرجوانية قانية . وفي إناء واحد اجتمع ما بقى من رماد العاشقين بعد أن خمدت جذوة الحب
 المتقدة .

فينوس ومارس . ليوكوثوى . كليتييه



پيكاسو: فينوس ومارس

وساد الصمت برهة بعد ما أنهت الراوية قصتها ، ثم انبرت ليوكوثوى تتحدث إلى شقيقاتها اللاتي
 مضين يستمعن لها في صمت يزكيه الانتباه ، فقالت :

« إن ربّ الشمس نفسه الذى يُنسَق كوكبه الساطع حياة الكون قد وقع بدوره فى إسار الحب ، وسوف أروى لكّن كيف وقع فى الشراك . فلقد كان ربّ الشمس أول من شهد خيانة فينوس لزوجها مع مارس ، فهو الذى يرى كل شيء قبل غيره . وكان قد حنق على فينوس لسلوكها فأنهى إلى زوجها فولكانوس [هيفايستوس] بن جونوناً هذا الاعتداء على حُرمة فراشه كما أنهى إليه المكان الذى يلوذ به العاشقان . فطار صواب فولكانوس وسقط من يديه الحديد الذى كان يشكّله ، غير أنه بدأ لساعته فى صياغة سلاسل برونزية دقيقة وشباك لا تكاد تلمحها العين أدقّ من أدقّ الأسلاك ومن خيوط نسيج العنكبوت العالقة بعوارض السقف ، وصاغها رهيفة حسّاسة تهتز لأخفّ لمسة وأبسط حركة ثم نصبها بمهارة حول الفراش ، فلم تكذ زوجته وعشيقتها يدلّغان إلى الفراش حتى أطبق عليهما الفخ الذى ابتدعه الزوج ونصبه بحذق وبراعة وأوثقهما معاً وهما متعانقان . وسرعان ما فتح فولكانوس ابن جزيرة لمنوس الأبواب العاجية للغرفة ودعا الآلهة للدخول إلى حيث ترقد فينوس بين أحضان مارس ، ورآها الآلهة فى تلك الوضعة الشائنة فلم يأسوا لها ، غير أن أحدهم تمنى لو ظفر بهذه المتعة مهما كان الثمن . وتضاحكوا جميعاً عالياً ، وبقيت القصة ماثراً تندّر بين الآلهة زمناً طويلاً بعد ذلك .

١٨٠

ولم تغفر فينوس سيّدة كيثيراً هذه المكيدة لمن أفشى سرّ حبّها وهذّ غرامها المستور ، واعتزمت عقابه بليقاعه فى فضيحة غرامية ماثلة . فيم يفيدك الآن جمالك وروعتك وبهاؤك المتلألئ ياربّ الشمس يا ابن هيبيريون ؟ ها أنت ذا يا من تسطّع الأرض كلها بنور لهيك تلتاع اليوم بنار لهيب آخر . ها أنت ذا يا من ترى كل شيء فى الكون ترواً قد علقت أنظارك بليوكوثوى لا غيرها ، على حين إن نظراتك من حق العالم كله ؛ فانت تُشرق تارة مبكراً فى السماء وتتلبّث تارة أخرى عن الغوص فى خضمّ المغيب ، وتُطيل أحياناً ساعات النهار شتاء بسبب انغماسك فى التأمل العميق ، ويصيب الكسوف فى أحيان أخرى نورك حين يتسلّل القلق إلى نفسك فغشاك تلك الغشاوة التى تثير الفزع فى قلوب البشر ، وتشحب لا شيء إلاّ لمرور القمر أمامك وهو أقرب كوكب للأرض ، هل ترى أحبك هو وحده الذى أشحب لونه ، فلقد اقتصرت عواطفك كلها على واحدة فلم تحسّ وجود كليمينيه ولا رودوس ولا أم كيركى فاتنة بلاد آيا ولا كليتييه التى لم تياس من مقاسمتك الفراش رغم نفورك منها وشعورك وقتذاك بما خلّفته فى قلبها من جرح عميق^(١) . لقد أنستك هؤلاء جميعاً ليوكوثوى ، وقد ولدتها أمها يورونومى أجمل نساء الأرض التى تهبّنا العطور ، والتى ما لبثت حين اكتملت أنوثتها أن أزرى جمالها بجمال أمها والجميلات الأخريات ، وكان أبوها أورخاموس ملك المدن الأخمينية سابع ملك فى سلسلة أسرة بيلوس المؤسس الأول للمملكة^(٢) .

٢٠٠

تحت سماء الغرب تقع مراعى خيول مركبة الشمس التى لم تكن تغتذى بالحشائش وإنما بالأمبروزيا [طعام الآلهة] ، فيملؤها قوة وانتعاشاً بعد أن تنهكها واجباتها اليومية لكى تستطيع أن تستأنف نشاطها . وبينما كانت الخيول تلتهم غذاءها السماوى والليل يحل محلّ النهار فى السماء دخل ربّ الشمس دار حبيبته متخفياً فى صورة أمها يورونومى . وكانت ليوكوثوى جالسة إلى جوار مصباح وسط خادماتها الاثنى عشرة

٢٢٠ تلفَ خيوطها الناعمة على مغزلهما الدوّار ، فلما رآها قبلها كما لو كان أماً تُقبّل ابنتها الغالية ، ثم قال لها : « لدى سرٌّ أريد الافضاء به إليك ، فلتتركنا أيتها الخادِمات ولا تحرمن أماً من محادثة ابنتها على انفراد . وفعلت الخادِمات ما أمرن به ، ولما لم يبق في الحجرة سواهما كشف الربّ عن نفسه لليوكوثوى ، وقال لها : « أنا الإله الذى يقيس مسار السنة ، وأنا من يرى كل شيء ومن ترى الأرض بى كل شيء . أنا عين الكون ، صدّقني يا ليوكوثوى فإنّ أهيّمْ بحبك » ، فاضطربت الفتاة وسقط المغزل من يدها التي جهدت من فرط فزعها ، غير أن فزعها أضفى عليها مزيداً من الجمال . ولم يطل انتظار الإله فاستعاد شكله الحقيقي وبريقه المألوف . ومع أن هذا المشهد المفاجيء قد حرك الخوف في قلب ليوكوثوى غير أنها انبهرت بجلال الإله واستجابت لعناقه دون أن تنبس بأية شكاة .

وإذ كانت كليتيه ماتزال تحبّ ربّ الشمس حبّاً لا نهاية له ، دفعته الغيرة والحنق على منافستها إلى أن تُشيع على الوجود تلك العلاقة الأثمة . ثم إذا هي تشي بها عند أبيها أورخاموس فتنبى إليه سرّ تلك العلاقة ، وإذا هو تثور نائوته ويأبى أن يستمع إلى توسّلات ابنته وهي تقول مُؤلّولة : « صدّقني يا أبى أنه اغتصبني على الرغم مني » . وألقاها الأب الضّارى في حفرة عميقة وأهال عليها كوما من الرمال ، لكن ابن هيبيريون سارع بتشتيت الرمال بأشعته ، حتى فتح لك أيتها التسعة ثغرة تطلّين منها بوجهك على ضوء النهار ، غير أنك لم تستطعي أيتها الحورية رفع رأسك المختنق تحت ثقل الثرى ، ولم تعودى غير جسد خال ٢٤٠ من الدم مُلقى في الحد .

وكان حزن إله الشمس قائد الجياد المجنّحة على مصير حبيبته أشبه بحزنه على احتراق ابنه فايثون بالصاعقة ، وقد حاول أن يعيد الحياة إلى أطراف ليوكوثوى الباردة بأشعته غير أن القدرَ حال بينه وبين محاولته الخارقة ، فاكتفى بأن أراق النكتار [شراب الآلهة] على جسّتها وقبرها . وبعد أن رثاها طويلاً صاح : « لتصعدنّ إلى السماء على الرغم من كل شيء » . وسرعان ما ذاب جسدها المضمّخ « بالنكتار » السّاوى وغمر الأرض بأريجها ، وشيئاً فشيئاً أخذ جذر شجرة البخور الذى استطال في الثرى يخترق القبر ويمدّ فروعه في الفضاء .

٢٦٠ أما كليتيه التي قد يغتفر لها الحب مشاعرها وتغفر لها مشاعرها وشايتها ، فلم يقم بصرها ثانية على إله الضّياء ، إذ كَفَتْ عن مشاركتها مُتّع الحب فَذَوَتْ ، وأذبلها الغرام الذى سلب عقلها ، ولم تعد تطبيق رفقة الحوريات ، ومضت تقضى الليل والنهار جالسة على الأرض المترية تحت قبة السماء مُشعّثة الشعر . وعاشت تسعة أيام بلا طعام ولا شراب سوى قطرات الندى ، ولم تنهض من جلّستها قط بل بقيت على الأرض ووجهها مصوّب إلى ربّ الشمس تُديره أنى اتجه في مساره المألوف . ولم تلبث أعضاؤها أن التصقت — كما قيل — بالأرض وتحوّل بعضها إلى جذع لا حياة فيه تكسوه زرقاة شاحبة ، واصطبغ بعضها الآخر بلون أحمر هو رأسها الذى تحوّل إلى زهرة شديدة الشبه بالبنفسج ، تستدير في اتجاه ربّ الشمس العزيز عليها رغم ارتباطها بجذورها ، وظلّت على حبّه وفية حتى بعد أن تحوّلت إلى زهرة رقيب الشمس (١٢) .

سالمائيس وهيرمافروديتوس

وفرغت ليوكونوى من قصتها الغربية التى اجتذبت أسماع رفيقاتها ، ينكرها بعضهن على حين يصدّقها البعض الآخر باعتبار أن الآلهة الحقيقيين قادرين على كل شيء ، وإن كنّ جميعاً لم يعددن باكخوس من بين هؤلاء الآلهة . وحين ساد الصمت من جديد طلبت شقيقات ألكيثوى منها أن تروى لهن بدورها قصة جديدة ، فبدأت تتحدّث وهى تدفع «مومها» عبر الخيوط المشدودة على النول وتقول :

« لن أروى لكنّ أقاصيص غرام دافنيس راعى إيدا التى يعرفها الجميع ، والذى مسخته إحدى الحوريات حين غضبت عليه لميله عنها إلى منافسة أخرى وحولته إلى صخرة^(١٣) ، فما أعنف الأحاسيس التى تلهب فى نفوس العشاق . كما لن أروى لكنّ ما حدث من خروج على نواميس الطبيعة مع سيثون الذى كان تارة ذكراً وتارة أنثى ، ولن أقص حكايته يا كيليميس أيها الحارس الأمين لجوبيتر وهو طفل وقد مُسخت الآن كتلة من الفولاذ ، ولن أتحدّث عنكم أيها الكوريتيس يا أبناء الغيث الفيّاض ، ولن أذكر قصة كروكوس الذى تحوّل هو وسميلاكس إلى زهرتين دقيقتين . سأطرح هذه القصص جانباً لأنى عازمة على اجتذابكم بسحر قصة جديدة لا يعرفها الكثيرون^(١٤) . سوف أقصّ عليكم ماذا كان للسمعة السيئة التى لحقت بينبوع سالمائيس ، وسرّ إثارة مياهه المضارة بأعصاب من يردّونه فتثير الضعف والخدر فى أطرافهم ، فبرغم معرفتنا الحقّة بخصائص هذه المياه إلا أن سرّ ذلك التأثير مازال خفياً .

أنجب ميركوربوس [هيرميس] من فينوس إلهة كثيراً طفلاً ربته الحوريات فى كهوف جبل إيدا ، جمعت قسماته بين ملامح أمه وأبيه كما جمع اسمه هيرمافروديتوس بين اسميهما^(١٥) . وحين بلغ الخامسة من عمره ترك التلال التى وُلد فيها وغادر جبل إيدا الذى نشأ به ، وبدأت هوايته للأسفار فمضى يقصد البلاد البعيدة ويشهد الأنهار الغربية لا تثنى الصعاب حماسه ، فبلغ فى رحلاته مدن لىسيا وبلاد الكاريين القريبة منها ، واكتشف بهذه المنطقة بركة صفت مياهها فبان قاعها ، ولم تكن تحفّ بها أعواد الغاب ولا خلفاء الماء ولا النباتات الشائكة التى تنتشر حول المستنقعات ، بل تتغطى شواطئها بالأعشاب الرطبة الخضراء ، وتسكن بها حورية غير مدريّة على الصيد لا تحقّق إطلاق السهام ولا سرعة العدوّ ، وكانت الحورية الوحيدة التى لم تلقها ديانا السريعة الخطو . ويروى أن شقيقاتها كثيراً ما كنّ ينصحنها قائلات : « اتخذى لك يا سالما كيس ربحاً قصيراً أو جعبة سهام مزدانة بألوان فاقعة ثم انضمي إلى صفوف الصائدات ، وأضيفى إلى متع هواياتك جولات الصيد الشاقة » ، غير أنها لم تتخذ لنفسها ربحاً قصيراً ولا جعبة سهام ذات ألوان فاقعة ولا انضمت إلى صفوف الصائدات ، ولا أضافت إلى متع هواياتها جولات الصيد الشاقة . وبقيت لا عمل لها غير الاستحمام فى بركتها وتصفيف شعرها بمشط من كيتوروس^(١٦) ، محمّلة فى الماء الصافى تتأمل على صفحته مفاتن جمالها ، ملتفة بغلالة رقيقة ، مستلقية على فراش من أوراق غضة

وأعشاب لينة ، ومن حين إلى حين تنهض لتقطف الزهور . وذات يوم وقع بصرها على الصبي هيرمافروديتوس ، فإذا هي تُحسّ لفة إلى الاستئثار به . وعلى الرغم من شوقها وتعجلها الدّون منه فقد تباطأت في أخذ زيتنها وإصلاح هندامها لتتجلّى له في أبهى صورة ، ثم بادرت قائلة : « ما أجدرك أيها الفتى الجميل بأن تُعدّ إلها . وإذا كنت إلهاً فلعلّك كيويّد ؟ أما إذا كنت بشراً فلا شك أن أبوك مبارك وأن شقيقك سعيد وشقيقتك أكثر سعادة إن كانت لك شقيقة ، وسعيدة كذلك مرضعتك التي رعتك ، وأكثر من هؤلاء سعادة حبيبتيك التي ستتخذ منها زوجة إن كانت لك خطيبة . فإن كانت لك خطيبة دعني أنعم بحبك سراً ، وإن لم تكن لك خطيبة فلست أتمنى إلا أن أكون عروسك التي تشاطرك الحياة إلى الأبد » .

ولم تكد الحورية تفرغ من حديثها حتى تورّد وجه الفتى الذي لم يكن قد عرف الحب بعد ، وزاد هذا التورّد من جماله فأضحت وجنتاه في لون التفاح الناضج المتدلّي من شجرة نغمها أشعة الشمس أو في لون العاج المصبوغ بالأرجوان ، أو في لون القمر تكسو الحمرة سطحه الأبيض ساعة تُصكّ الصنوج البرونزية لتدفع عنه الحسوف^(١٧) . وألحت الحورية في تقبيله ولو قبلات أخوية ، وحاولت أن تضمّ عنقه العاجي بذراعيها فصاح بها : كُفّي عن عبثك وإلا مضيت بعيداً مُخلّياً هذه الأرض بعين مائها . فسرت في جسد الحورية رعدة وقالت له : « لأبتعدنّ عنك ولن أتطفّل عليك بعدُ أيها الغريب » ، وأدارت له ظهرها متظاهرة بعزمها على الرحيل بينما كانت تخطو وعيناها تتلفتان إليه حتى إذا ما وارتها أشجار أكمة كثيفة ركعت على الأرض كي ترقبه . واطمأن الفتى حين أحسّ أنه وحده واقرب من البركة ومدّ قدميه إلى الماء كاشفاً عن ساقيه ، وأغراه الماء فخلع ملابسه . وما إن فعل حتى ذهب جماله العارى بلُبّ سالماكيس ، فلمعت عينا الحورية لمعان قرص الشمس وهو ينعكس على المرأة ، وعجزت عن أن تتمالك نفسها وتحرّقت عشقاً ورغبة عارمة في أن تضمّه إلى صدرها ، وكادت لا تقوى على إمساك زمام شهوتها المشبوبة . وبصفحة كفّيه ضرب الغلام على خصره وقفز إلى الماء يسبح خابطاً الماء تارة بذراعه اليمنى وتارة بذراعه اليسرى ، يُبرق جسمه من تحت الماء الصافي وكأنه تمثال من العاج أو زنبقة تحت لوح من الزجاج الشفاف . وخلعت هي الأخرى ثيابها مطوّحة بها هنا وهناك وقفزت وراءه إلى البركة صائحة : هل أنذا قد ظفرت به . وأمسكت بالفتى الذي أخذ يقاومها غير أنها أفلحت في تقبيله عنوة ، وتسَلّت يداها من تحته فلمست صدره النافر ، وشرعت تحتضنه مرّة من جنبه الأيسر ومرّة من جنبه الأيمن كما تلتف الأفعى حول النسر ملك الطير حين يلتقطها بمنقاره ويعلو بها محلّقاً في السماء فلا يسعها إلا أن تلتف حول رأسه ثم حول ساقيه حتى تستطيع ضمّ جناحيه بذيلها كي يهوى ، أو كما يلتف اللبلاب على جذع شجرة ضخمة ، أو كما يشلّ الأخطبوط حركة فريسته في أعماق البحار بتطويقها بأذرعه من كل جانب . وقاوم سليل أطلس الحورية^(١٨) لا يريد أن يمنحها المتعة التي كانت تتوق إليها ، غير أنها أحكمت قبضتها وطوّقته بجسدها كله ملتصقة به صائحة : « قاوم ما شئت لكنك لن تُفلت مني أيها الوغد ، ولتمنحنى الآلهة أمنيقي فلا يأتي يوم يفصل فيه هذا الفتى عنى أو انفصل عنه » . واستجابات الآلهة وحقّقت لها أمنيّتها ، واتّحد جسداهما الملتصقان وأصبحا شخصاً واحداً بعد ما كانا شخصين . وكما تنمو الشجرتان صِنُون معا لا يفترقان ، كذلك

التحمت أطراف الفتى بأطراف الحورية في عناق متلاصق ، فصارا شخصاً واحداً وإن بقيا بطبيعة مزدوجة لا ندرى أيهما ذكر أم أنثى أو أيهما شيء واحد معاً أو أيهما ليسا من هذا ولا ذاك .

وحيث رأى هيرمافروديتوس أن الماء الصافي الذي نزل إليه ذكراً قد أحاله آخر الأمر إلى نصف ذكر وأن أطرافه قد تتأذلت ، رفع يديه إلى السماء متوسلاً بصوت لم يعد صوت ذكر : « أباه . أماه . ناشدتكما أن تحققاً أمنية ولدكما الذي يجتمع اسمكما في اسمه ، وهي أن يخرج كل من ينزل إلى هذه البركة من الرجال وقد غدا خُنثى ما بين رجل وأنثى » ، واستجاب الوالدان لضرعة ابنيهما الذي صار ذكراً وأنثى فلوثا مياه البركة بسحر مروع يصيب كل من ينزل بها .

٣٨٠

وحيث انتهت القصة كانت بنات مينياس لازلن منشغلات بأعمالهن ، مستخفات بالآله ، مزدريات بأعياده ، حتى إذا علت فجأة دقات طبول خفية تصاحب أنغام مزارم مقوس وصككات صنوج نحاسية وانتشر في الهواء أريج مرّ وزعفران ، أخذت الأنوال عندها تخضّر . والعجيب الذي يقرب من المستحيل أن النسيج نبت به أوراق كأوراق اللبلاب وتحول جزء منه إلى كروم ، كما تحولت الخيوط إلى محاليق ، وأطلت أوراق الكروم من سداة النسيج وعلت عنانيد العنب الناضج حمرة الأرجوان واقترب النهار من الزوال ، وأطلت عتمة لا تكاد نعرف أين الليل هي أم من النهار ، وذلك حين اختلطت خيوط النهار المودّع بخيوط الليل المقبل . وفجأة اهتزت جدران البيت وتوهج زيت المصابيح ، وانطلق عواء وحوش ضارية في أنحاء الدار ، وسارعت الشقيقات فاختفن في مواقع مختلفة من دارهن التي ملأها الدخان ، هاربات من ذلك العواء وهذا الضوء المتوهج الذي أخذ يزحف إلى الأركان المظلمة ، وأخذ غشاء رقيق ينمو فوق أجسادهن الضامرة ، وانطوت أذرعهن في غشاء خفيف غدا جناحين . ولكن كيف فقدن أشكالهن الأولى ؟ إن الظلام غيب عنا تعرف كنه ذلك . ومع أنه لم يكن هن ريش يطرن به فقد حلّقن في الهواء بأجنحة شفافة ، وحين حاولن الكلام لم تنطلق شفاههن إلا بالفاظ واهنة ضئيلة ضالة أجسادهن التي مسخت خفافيش ، ولم يستطعن أن يُفصحن عن شكواهن إلا بنعيق حاد ، وبدأن يتردّدن على الأطلال لا الغابات ولا يحلّقن إلا خلال الليل لكراهيتهن للضوء ، واشتق اسمهن « فسيپرتيليونيس » من اسم نجم أعماق الليل « فسيپير » (١٩) .

٤٠٠

أشاماس وإينو

انتشرت عبادة باكخوس في أنحاء طيبة ، وراحت حالته إينو^(٢٠) تتحدّث عما يُروى من جبروت الإله الجديد ، وكانت الوحيدة من أسرتها التي لم ينلها سوء ولم يُخزنها شيء إلا ما حاق بشقيقاتها . وراتها چونو مزهوة بولديها من أثاماس وبالإله الذي رعت في طفولته ، فضاق صدرها وناجت نفسها قائلة : « لقد مسخ ابن غريمي الملاحين الليديين أسماكا وألقى بهم في البحر ، وأثار أماً حتى مرّقت جسد ابنيها إرباً إرباً ، ثم

٤٢٠

غشى ثلاثة من بنات مينياس بأجنحة من نوع لم ير له من قبل مثيل ، على حين أجدنى أنا جونو جامدة لا أجد ما أفعله غير البكاء أمام إهانات وُجِّهت إلى دون أن أثار لها ؟ هل فى هذا ما يُشبع رغبتى ؟ وهل هذا هو مدى قوت وجبروتى ؟ ألا إن باكخوس نفسه قد لقننى درساً وما أهوب أن يتعلم المرء من خصمه ، فقد كشف لى عما يمكن أن يسفر عنه الغضب حين قضى باغتيال پنيوس ، لماذا إذن لا تُصاب إينو بلسعة الجنون الذى حاق بذويها من قبل ؟ » .

وكان ثمة طريق تواريه ظلال أشجار الصنوبر ينحدر من التلال مؤدياً إلى العالم السفلى عبر مناطق ساكنة خرساء تغطّيها مياة نهر ستيكس الراكدة التى يعلوها الضباب ، وكانت أرواح الموتى^(٢١) تسلك هذا الطريق بعد أن تفارق أجسادها تاركة إياها فى مقابرها ، وكانت الكآبة والبرودة يخيّبان فى هذه المنطقة المقفرة التى تصل إليها الأرواح حين تأتى للمرة الأولى إلى عالم الأموات ، أو تقصد قصر ديس [پلوتو] المدهم . وكانت هذه المدينة الفسيحة ذات الطرق الألف والأبواب المفتوحة فى جميع الجهات تستقبل أرواح الموتى كما يستقبل البحر أنهار الأرض جميعها ، لا تضيق بشعب من الشعوب ولا تغصّ بزحمة الوافدين . هنا وهناك تروح الأطياف وتحيىء بعدما تخلّصت من الدم واللحم والعظام ، يحول بعضها فى ساحات الأسواق ويهيم البعض الآخر حول قصر ملك العالم السفلى ، وتحاكى جماعة الحُرَف التى كانت تمارسها فى حياتها الماضية ، ويذوق آخرون العقاب على ما اقترفوه فى حياتهم من آثام .

غادرت جونو ابنة ساتورن مسكنها السواوى لتزور هذه البقعة مستسلمة لغضبها وحقدّها فأنت عتبة العالم السفلى تحت ثقل جسدها المقدس ساعة دخولها ، ورفع كيريروس رؤوسه الثلاثة وقد نبحت ثلاث نبحات . وعندها نادى جونو « بنات الليل » [ربّات الانتقام] تلكم الشقيقات الرهيبات الجالسات أمام أبواب سجن الجحيم الفولاذية يصفقن شورهن الثعبانية . وحين عرفن الإلهة برغم عتمة الضباب وقفن إجلالاً لها فى المكان المسمى « الديار الأثمة » [مقرّ الأشرار] حيث يرقد تيتيوس فوق أفدنة تسعة مُسلماً أحشاه للنسور تمزّقها ، وحيث يحسّ تانتالوس الظماً ولا يستطيع أن يبلغ الماء ، كما يهفو إلى الشجرة المطّلة عليه دون أن يستطيع قطف ثمارها ، وحيث يحاول سيزيفوس الإمساك بالصخرة أو دفعها وهى موشكة أبداً على السقوط ، وحيث يدور إيكسيون على عجلة حول نفسه ، وكان وهو تطويه العجلة فى دورانها كان بعضه يهّم بأن يلحق بعضه الآخر فلا يكاد يبلغه^(٢٢) ، وحيث تحاول حفيدات بيلوس الاعتراف من ماء لا يستطعن الاحتفاظ به عقاباً لهن على ما دُبرن من اغتيال أزواجهن أبناء عمومتهن .

وحدجت جونو الجميع بنظرة صارمة ولاسيما إيكسيون ، ثم التفتت إلى سيزيفوس قائلة : « لماذا يلقى هذا الرجل عذاباً متصلاً ها هنا بينما يعيش أخوة أثاماس المتغطرس وزوجته فى قصر مُئيف على الرغم مما يبدو عليها من ازدراء لى^(٢٣) ، ثم بدأت تُفصح عما تبتغيه وهو تخريب قصر كادموس وتخريض ربّات الانتقام على دفع أثاماس إلى ارتكاب الجريمة ، وتتابع من فمها الوعود تلتمس من الربّات العون ، حتى إذا أنهت حديثها هزّت تيسيفونى رأسها الشيباء وأزاحت عن وجهها الأفاعى التى كانت تغشاها ، وقالت : « لا حاجة بك إلى المزيد من الإيضاح ، ولتطمئنى إلى تحقيق كل ما أمرت به . فلتغادرى هذا المكان

الكثيب ولتعودى إلى السماء التى إليها تنتمين . وعادت چونو إلى مسكنها فرحة ، وحين أوشكت على ٤٨٠
النفاذ إلى السماء طهرتها إيريس ابنة ثاوماس بقطرات من رذاذ الماء نثرتها عليها .

وسرعان ما أمسكت تيسيفونى القاسية بمشعلها المغمور بالدم وأتشحت بمعطفها الذى صبغه سيل من
الدم بلونه الأحمر ، وتمنطقت بشعبان محوى حول خاصرتها ، وغادرت دارها فى صحبة ربّات الحزن والخوف
والرعب والجنون الراعى القسبات ، ووقفت على باب بيت أيولوس حيث يسكن ابنه أثاماس ، فاهتزت
أعمدة المدخل وشحب لون الأبواب المصنوعة من خشب الزان ، وهربت الشمس من مكانها المألوف فى
السماء . وأفزعته هذه الإشارات المشثومة زوجة أثاماس الذى لم يكن أقل منها فزعاً ، وحاولا الهرب من
الدار ، غير أن ربة الغضب الرهيبة اعترضت طريقهما عند المدخل ومدّت ذراعيها الملتف حولهما الثعابين ،
وهزّت برأسها فأرسلت الأفاعى فحيحها وانفلت بعضها على كتفيها وبعضها على صدرها تفىء نفائتها
وتصفر بينما اندلعت ألسنتها المرعدة خفاقة . ثم انتزعت من صفائرها ثعبانين طوّحت بهما فسقط أحدهما
على صدر إينو والآخر على صدر أثاماس ، ونفثا فيهما أنفاسهما السامة ، ومع أن جسديهما لم يُمسأ بأى جرح
فإن الضربة القاسية قد مسّت روحهما . وكانت تيسيفونى قد أحضرت معها ضمن ما أحضرت سائلاً ساماً ٥٠٠
فتأكّأ أعدته إحدى الساحرات من رغاء فكّى الكلب كيريروس ومن سمّ الأفعون إرخيدنا^(٢٤) ومن خليط
من الجنون المصحوب بالهذيان ، ومن فقد الذاكرة الذى يعمى العقل ، ومن الدموع والجريمة والسُعار
وشهوة القتل . وقد طحنت الساحرة ذلك كله معاً ونذّته بدماء حارة وطهته فى قدر برونزى بعد تقليبه
بعضاً خضراء من نبات الشوكران السام . وألقت تيسيفونى هذا السم الذى يسلب العقول على الملك
والملكة وهما واقفان يرتعدان ، ثم أشعلت مشعلها وأدارته حولهما مرات ومرات ، حتى إذا أدّت المهمة التى
عهدت بها إليها چونو واطمأنت إلى نجاحها عادت إلى مملكة أرواح الموتى التى يحكمها ديس ، ورفعت
الثعبان الذى كانت قد تمنطقت به .

وعندها أصيب أثاماس بن أيولوس بالجنون . ومع أنه كان لا يزال داخل أسوار قصره إلا أنه أخذ
يصيح قائلاً : « إلى يا أصدقائى ! أنشروا شبابكم فى هذى الغابات ! فقد لمحت الآن لبؤة فى صحبة
شبيها . » واندفع الأحمق فى إثر زوجته يطاردها وقد تحيلها وحشاً مفترساً ، ثم اختطف من بين ذراعيها
طفله ليأرخوس الذى كان يتسم له ويبسط نحوه ذراعيه ، واستدار به ثلاث مرات ثم أطلقه كالمقلع
فتهشمت رأس الطفل على الصخور . وجنّ جنون المرأة حزناً على ولدها أو تأثراً بفعل السم الذى أفقدها ٥٢٠
صوابها ، وانطلقت تعوى هاربة مشعثة الشعر وعلى ذراعيها طفلها الرضيع ميليكيرتيه وتصيح : « إيويه
يا باكخوس ! » . وسمعتها چونو تنطق باسم باكخوس فقهقهت ساخرة وهى تقول : « عسى أن ينفعك
ذلك الطفل الذى ربّيته ببركاته » .

وصعدت إينو قمة تل صخرى يُشرف على البحر الذى أكلت أمواجه سفحه الأدنى لتمرّ المياه تحته
بمناى عن هطول الأمطار ، وكانت لصخور قمته أسنان حادة تمتد فى فضاء البحر . وكان جنون إينو قد
أمّدها بالقوة على تسلّق القمة دون أن يشيها الخوف عن هدفها ، ومن القمة ألقت بنفسها هى والطفل الذى

تحملة في مياه البحر ، فأزبدت الأمواج في المكان الذي سقطا فيه . غير أن فينوس أخذتها الشفقة بحفيدتها البريئة فتوسّلت إلى عمها نبتون قائلة : « يا إله البحر العظيم الذي تلى منزلته مملكة السموات جلالاً ، سألتك أن تنعم عليّ بمئة كبرى فتترقّق بهذين العزيزين اللذين ترى الأمواج تلعب بهما في البحر الأيوني ولتضمّهما إلى حاشيتك من آلهة البحر . إن حقاً إني من زبد البحر خلقت ومن أعماقه المقدسة انبثقت فكم أنا إليه مدينة ، وما زال اسمي اليوناني « أفروديتي » يذكّرني بهذا الأصل »^(٢٥) . واستجاب نبتون لرجائها ٥٤٠ فجرد إينو وولدها من شخصيتيهما البشرية وأضفى عليهما جلال الربوبية وأعطاهما اسمين جديدين يناسبان شكلهما الجديدين ، وأسمى الإله الجديد بالايون وضّمّه إلى حاشيته هو وأمه التي أسماها ليوكوثوي^(٢٦) .

وكانت وصفات إينو الفينيقيات قد اقتفين آثار قدميها إلى أن غابت عنهن تلك الآثار عند حافة صخور تشرف على البحر ، ولم يساورهن شك في وفاتها فأسين لمصير أسرة كادموس ويكين عليها وضربن صدورهن ومزقن شعورهن وثيابهن ، ورمين چونو بالظلم لقسوتها البالغة على منافستها ، فامتألت الإلهة سخطاً عليهن لاتهامهن لها وتوعدّتهن قائلة ، « لسوف تلقين جميعاً ما يذكركن بجروق دوماً » ، وما أسرع ما نفذت وعيدها . وحين همت أوفى وصفات إينو بإلقاء نفسها من أعلى الصخور في البحر وهي تصيح : « لسوف أتبع مليكتي إلى أعماق البحر » ، إذا هي تجرد نفسها عاجزة عن الحركة وقد جمّدت في مكانها ملتصقة بالصخور . وأحسّت ثانية وهي تندب ضاربة صدرها تصلب ذراعيها حين حاولت رفعها . وجمّدت ثالثة كانت تشير بيدها نحو موج البحر وبقيت ذراعها ممدودة لمياهه ، كما جمّدت أصابع رابعة بين خصلات شعرها وهي تشدّه . وهكذا تجمّدت كل واحدة منهن على الوضعة التي كانت تتخذها ساعة فاجأتها اللعنة التي صبّتها عليهن الإلهة ، وتحولت الأخريات من نساء طيبه إلى طيور تحوم فوق البركة ٥٦٠ وتحفّ بأجنحتها على سطحها .

كادموس وهارمونيا

ولم يبلغ العلم بكادموس بن أجينور أن ابنته وحفيده قد تحولاً إلهين من آلهة البحر ، وكان الحزن قد أضناه بعد سلسلة الكوارث التي نزلت به وتملكه الفزع مما شهده من نذر الشؤم ، فاعترّم الرحيل عن المدينة التي أسسها متخيلاً أن الشؤم الذي يعصف به مرده إلى شؤم المكان لا إلى شؤمه هو .

وبعد أسفار طويلة مع زوجته التي صحبتته في هجرته وصلاً أخيراً إلى بلاد إليريا^(٢٧) وقد أحتت الشيخوخة والأحزان ظهرهما . ومضيا يستعيذان في الحين بعد الحين أجماد سلاتهما وإذا كادموس يتساءل ذات مرة وهو يستعرض مأساة أسرتهما : ألم يكن حقاً أن ذلك الثعبان الذي صرعه برعى مقدساً ، ذلك الذي نثرت أسنانه قبل حين رحلت عن « صيدا » أول مرة على أنها نوع جديد من البذور فوق تربة الأرض ؟ فإذا كان موته هو الذي حرّك الآلهة كي تنتقم مني ، فإني أتوسّل إليها أن تمسخني أفعواناً مثله فيمتدّ جسدي ويتحوّل كجسد الثعبان . وفيما هو يتحدث بدأ جسده يتمدّد ويأخذ شكلاً متحلّقاً طويلاً

كالشعابين ، وتصلب جلده واصطبغ بلون أسود ، وظهرت عليه بقع زرقاء مخضرة تُلقى شيئاً من الضياء على لونه الداكن ، ثم سقط على صدره فانضمت ساقاه وأصبحتا ساقاً واحدة أخذت تستطيل وتدق حتى انتهت إلى ذيل مدبب ، لكن ذراعيه بقيتا على صورتها البشرية . وكذلك بقي وجهه الذي غمرته دموع عينيه فانبرى يقول : « هلمى إلى يا أتعس الزوجات ، وتحسسى ما تبقى من صورتى البشرية ، خذى يدي وهى ماتزال يداً قبل أن أتحوّل أفعواناً كاملاً » . وما لبث أن عجز عن مواصلة الحديث فقد انشطر لسانه فجأة إلى شطرين ، وخانه لسانه رغم رغبته العارمة فى الحديث ، وأصدر فحيحاً غريباً كلما حاول أن يندب حظه . وكان ذلك هو الصوت الوحيد الذى أتاحته له طبيعته الجديدة .

وضربت زوجته صدرها العارى بكفّيه صائحة : « ناشدتك ألا تهجرنى أيها الزوج المنكوب ، ولتخرج من هذا الشكل البشع يا كادموس . ماذا حلّ بك ؟ أين قدماك ويداك وكنتفاك ولون بشرتك وملاحك ؟ لقد اختفت معالمك كلها وأنت تبادلنى أطراف الحديث . ألا فلتمسخني أيتها القوى السماوية بالمثل على صورة هذا الأفعوان » .

وجعل كادموس يلحق وجنتى زوجته منزلقاً بين أحضانها كما كان يفعل من قبل ، وانبرى يقبلها ويحاول التعلق بعنقها على غرار ما كان يفعل فى الماضى . وفزع جميع أصدقاء كادموس وكانوا مايزالون إلى جانبه ، بينما تربت زوجته على الرقبة الملساء للثعبان المتوجّ بريشة ، وما لبثت أن مُسخت هى الأخرى وصارا ثعبانين يزحفان معاً ، وطوّق أحدهما الآخر حتى اختفيا فى غيضة مجاورة ، وبقياً منذ ذلك الوقت حتى اليوم ثعبانين مُستأنسين يأنسان بالبشر ولا يغيب عنهما أنهما كانا من البشر .

پيرسيوس . أطلس . أندروميدا

ووجد كادموس وزوجته عزاء كبيراً عن فقدان شكلهما البشرى فى حفيدهما الذى غزا الهند وقَدّسه مواطنوها وأُلهوه كما أقبلت حشود الأخيين [اليونانيين] تصلى له فى المعابد التى شُيّدت لتكريمه . ولم يشدّ إلا أكريسيوس بن أباس المنحدر من نفس السلالة التى انحدر منها باكخوس إذ بقى يصدّ الإله عن أسوار مدينة أرجوس ، ويحمل السلاح ضده رافضاً التسليم بمولد باكخوس الإلهى مثلاً رفض التسليم ببنوة پيرسيوس لجوبيتر الذى حملت به داناي بعد أن أخصبها جوبيتر حين أتاها فى صورة شؤبوب من القطرات الذهبية (٢٨) .

غير أن أكريسيوس سرعان ما ندم على تفریطه فى حق الإله باكخوس وإنكاره بنوة حفيده پيرسيوس لكبير الآلهة ، فما أقدر الحقيقة على أن يكتب لها الفوز . وبينما السماء تستقبل الإله باكخوس كان پيرسيوس عائداً إلى وطنه يشقّ طريقه محلّقاً بجناحيه الرفافين فى أجواز الفضاء حاملاً معه رأس ميدوسا ، تلك الغنيمة الجديدة بالذكر التى ظفر بها فى صراعه مع تلك المخلوقة الغريبة ذات الرأس المكتسى بشعرٍ من

الأفاعى . وبينما هو يخلق فى سماء صحراء ليبيا سقطت بعض قطرات الدم من رأس الجورجونة الذى كان يحمله البطل الظافر فاحتضنتها رمال الأرض وأحالتها إلى أنواع مختلفة من الأفاعى ، وهذا سرّ امتلاء هذه البلاد بمختلف أنواع الثعابين الفتاكة . وأخذت الرياح الهوجاء بعد ذلك تدفع بيرسيوس فى أنحاء القبة السماوية الشاسعة وكأنه سحابة حُبلى بالمطر تتلاعب بها الرياح ، يطوف فوق الأرض ويتأملها من علّ ، فرأى كوكبى الدب الأكبر والدب الأصغر الشديدين البرودة ثلاث مرات ، كما شاهد مغالب كوكبة السرطان مرات ثلاث ، وكم من مرة دفعت به الريح إلى الغرب ثم أعادته إلى الشرق .

وعندما أوشك النهار على الغروب لم يأتى بيرسيوس ظلمة الليل فحطّ على قمم هيسبيريا فى مملكة أطلس^(٢٩) بالغرب ، وحاول الإخلاد للراحة حتى ينادى لوسيفر نجم الصباح^(٣٠) أضواء الفجر وتُسرج أورورا ربّة الفجر جياذ النهار . هناك كان يعيش أطلس بن يابيتوس الذى كان جسده يفوق أجساد البشر ضخامة ، وكان يحكم أقصى أطراف الأرض ، ويمتد ملكه إلى تلك المياه التى تستقبل جياذ إله الشمس المكدودة ساعة تأوى مركبته المرهقة إثر رحلتها خلال النهار ، وتزدحم مراعيه بالآلاف القطعان التى يملكها من الأغنام والماشية ، ويملك شجرة تتألق عليها أوراق ذهبية وتتدلّى من غصونها ثمار من ذهب .

وحينما أوى بيرسيوس إلى هذا المكان قال لأطلس : « إذا كنت أيها الصديق ممن يهتمون بعراقه الأصل فأنا سليل جوبيتر ، وإذا كنت ممن تستهويهم مآثر البطولة فإنك لا شك معجب بما فعلته ، ولقد جئت ملتسماً ضيافتك » . وسرعان ما تذكّر أطلس مشيئة الأقدار الغابرة التى كشفت له عنها يومائيميس من فوق جبل پارناسوس حين قالت له : ليسرقن ابن من أبناء جوبيتر الثمار الذهبية لشجرتك يا أطلس وينعم بها » . فأحاط أطلس حدائق فاكهته — خشية تحقيق هذه النبوءة — بأسوار منيعة ، ووضعها فى حماية أفغوان هائل وحزم أمره على منع الغرباء من دخول مملكته ، ولهذا ردّ بيرسيوس عنه قائلاً : أعزّب عنى وارحل من هنا ، وإذا حدّثتك نفسك باللجوء إلى قوتك فلن تجديك نفعاً وإن استعنت بجوبيتر نفسه » .

وحين تلبّكاً بيرسيوس فى الرحيل انتقل أطلس من التهديد إلى العنف ، وحاول الإلقاء به بعيداً فقاومه الآخر فى بسالة وهو يحاول كسب وده عبارات رقيقة ، حتى إذا أدرك ضعفه أمام أطلس [ومن ذا الذى يستطيع أن يدانى أطلس فى قوته ؟] صاح قائلاً : « إذن ، ماذمت لا تعبأ بالصدّاقة ، فأليك هذه الهدية » ، وأدار وجهه قبل أن يكشف بيده اليسرى عن رأس ميدوسا البشع فتحول أطلس عندها إلى جبل عملاق كما كان عملاقاً بين البشر ، وإذا شعر رأسه وشعر لحيته أشجار ، وإذا يداه وكتفاه سفوح جبال ، وإذا رأسه قمة جبل ، وإذا عظامه صخور . وما لبث هذا الجبل أن امتدّت أطرافه فى جميع النواحي ، كما علا حتى بلغ عنان السماء ، وإذا النجوم العديدة فى قبة السماء ترتكز عليه . وكان هذا كله لوفى مشيئة الآلهة .

وبينما هذا يحدث كان أيولوس^(٣١) بن هيبوتيس قد حبس الرياح فى سجنها الأبدى ، وأشرق لوسيفر نجم النهار يتلألأ فى السموات العلّى مستنهضاً البشر للقيام بواجباتهم اليومية . وعاد البطل إلى جناحيه

وثبتهما على قدميه وتسَلَّحَ بسيفه المقوَّس وشقَّ طريقه في الهواء الشفيف بحركة من نعليه المجنَّحين ، وطار عابراً فوق عدد لا يحصى من شعوب الأرض كانت بلادهم تنبسط تحته في جميع الاتجاهات إلى أن وقع بصره على القبائل الإثيوبية^(٣٢) وحقول كيفيوس حيث كان « جوبيتر آمون » قد أصدر أمره الجائر بأن تعاقب أندروميذا على تناول أمها بأحاديثها المتباهية .

وعندما شاهد بيرسيوس الأميرة مكبَّلة الذراعين بالسلاسل مشدودة إلى الصخر الصلب ، خُيِّلَ إليه أنها تمثال من الرخام لولا شعرها الذى كان يعبث به النسيم والدموع الحارة التى كانت تنهمر من عينيها ، وشدهه جمالها النادر فوقع في هواها على غير وعى منه ، وأنسى تحريك جناحيه في الهواء حتى إذا لامس الأرض بقدميه صاح فيها : « ليس لك أن تكبِّلَ بهذه السلاسل ، وأجدر بك القيود التى تُغلِّلُ قلوب العشاق ! ناشدتك أن تذكرى لى اسمك واسم بلدك والسبب الذى من أجله شُدت إلى هذه الأغلال » . ٦٨٠

ولزمت الأميرة الصمت في بادئ الأمر ، فما كانت لتجسر على مخاطبة رجل وهى فتاة عذراء ، ولو لم تكن يداها مقيدتين لأخفت وجهها بكفَّيها استحياء ، ولكنها لم تكن تملك غير أن تذرف الدموع . وحين ألحَّ عليها بيرسيوس بأسئلته المرة تلو المرة خشيت أن يفسَّر صمتها على أنه اعتراف بذنب ارتكبتها ، فكشفت له عن اسمها واسم بلادها ، وعن زهو أمها الفاتنة بجمالها . وقبل أن تُكْمَلَ قصتها ارتفع صخب مياه المحيط وبرز من بينها وحش يتهدَّدها وقد انبسط صدره على رقعة فسيحة من الأمواج فنذت عن الفتاة صرخة مدوِّية ، وكان والداها على مقربة منها وقد طواهما حزن عميق غير أن أمها كانت أشدهما حزناً . وكانا عاجزين عن تقديم أى عون لها لا يملكان سوى ذرف الدموع عليها والنحيب والتعلُّق بها وهى مكبَّلة بالسلاسل . وحين وقع عليهما بصر الوافد الجديد ، قال لهما : « قد يكون أمامكما فسحة طويلة من الوقت تسكبان فيها الدموع كما تشاءان ، غير أنكما لا تملكان غير وقت لا يطول إذا أردتما مساعدتها ، أنا بيرسيوس بن جوبيتر من داناي التى لَقَّحها بذهبه المُخَصَّب بينما كانت سجيناً أحد الأبراج ، أنا بيرسيوس الذى قهر الجورجونة ذات الجداول الثعبانية . أنا من حلَّق خلال طبقات الهواء بأجنحتى المرفرفة . ولو أننى تقدَّمتُ لخطبة فتاتكم لأثرتنى على غيرى ، غير أننى أثرت أن أكون موضع الاختبار مرة أخرى كى أضيف إلى ما ذكرته لكما من أعجاذٍ بطولَةٍ جديدة أحققها بعون الآلهة لى . فلتعداني بأن تكون هذه الفتاة من نصيبى إذا قُدِّرَ لى أن أنقذها بجرائى ، ولسوف أكون عند عهدى » . ورضى أبوها بهذا ، [ومن ذا الذى لا يرضى !] وتوسَّلاً إليه أن ينقذها ووعداه بأن يمنحاه مع ابنتهما مملكتها هدية عرس له . وكان الوحش مقبلاً آنذاك يشق الأمواج بصدره مسرعاً وكأنه سفينة تمخر عباب الموج بمقدِّمها الحاد تدفعها قوة سواعد ملاحيها المفتولة ، واقترب حتى لم يبق بينه وبين الصخرة سوى مسافة لا تتجاوز مرمى المقلاع البليارى . وحلَّق بيرسيوس عالياً في السحب ، وانعكس ظلُّه على سطح الماء فشرع الوحش يهاجم هذا الظل في شراسة ، بينما انقضَّ بيرسيوس على ظهره وأغمد سيفه في كتفه اليمنى إلى مقبضه المنحنى وكأنه نسر جوبيتر عندما يهاجم ثعباناً وقع عليه بصره وقد تحوَّى حول نفسه وسط حقل مقفر فيقبض عليه من الخلف ناشباً مخالبه الشرهة في عنقه ذى الحرافيش خشية أن يلتفت فيواجهه بأنيابه السامة . وأخذ الوحش يخور خوَّاراً بعد أن

٧٠٠

٧٢٠

أثار الجرح العميق فيه ألماً شديداً جعله ينتصب عالياً في الهواء ثم يغوص في المياه وكأنه خنزير برى مفترس حاصره رهط من الكلاب الضارية أثارت فزعه بنباحها . وانطلق البطل يخلّق حول الوحش بجناحيه السريعين متوقّياً أنيابه النهمة ، ويلاحقه بضربات سيفه المقوّس في أى جزء يلوح له منه ، فمرة يطعن ظهره المكسوي ببر مستنّة من المحارات الجوفاء ، ومرة يمزّق أضلاعه ، وأخرى يشطر ذيله الذى انكمش حتى صار كذيل السمكة ، ويطوّح المرة بعد المرة بسيفه المقوّس كالمنجل فيبصق الوحش من فمه سيلاً أحمر مصطبغاً بدمه الذى بلّل رذاذه جناحيه بيرسيوس وأثقلهما . وإذ خشي مواصلة الاعتداد على ريشه بعدما ابتل ، لمح صخرة تبرز فوق سطح الماء ساعة هداً لم يلمحها ساعة كان نائراً ، فتعلّق بها وأمسك بيده اليسرى تنوءاتها المدبّبة وطعن بسيفه جنبى الوحش ثلاث ورباع حتى أجهز عليه ، فردّدت شواطىء البحر ورياض السماء أصوات التهليل والتصفيق وغمر الفرح كلا من كاسيوى وكيفيوس واحتفيا بصهرهما بيرسيوس منقذ الأسرة وحاميها ، وهكذا كانت أندروميذا مبعث بطولته الأخيرة وجائزتها فى آن واحد . وهبطت الفتاة من الصخرة بعدما تحرّرت من قيودها ، وغسل البطل الفائز يديه في الماء الذى أتوه به من البحر ، وإذ خاف أن يجرّح الصخر رأس ميدوسا بشعرها الثعباني وضعها على حشبة ملساء من أوراق الشجر وغطّاها بأعشاب البحر . وعلى هذا النحو استقرت هناك رأس ميدوسا ابنة فوريكيس التى نفذ أثرها إلى النباتات النضرة فجمدت بلامستها ، واكتست أوراقها وفروعها صلابة عجبية . وانبرت حوريات البحر يتكشّفن هذه الظاهرة العجيبة على العديد من الغصون ، مبتهجات كلما رأين غصناً جمد أمام أعينهن من جديد ، فمضين ينثرن بذور هذه النباتات فوق الأمواج ليحصلن على المزيد من هذه المادة . وما يزال « المرجان » يتميز حتى اليوم بتصلّبه عند ملاسته الهواء ، وهو ليس إلا نباتاً رخواً إذا كان تحت سطح الماء ، فإذا ما طفا أصبح صلباً كالخجر (٣٣) .

وقام بيرسيوس ببناء مذابح ثلاثة يكسو العشب أرضها ، يقع أحدها إلى اليسار تمجيداً لمركوروس ، والثانى إلى اليمين تمجيداً لك أيتها العذراء المقاتلة ، والأخير يتوسّطهما تمجيداً لجوبيتر ، ثم قدّم القرايين فذبح بقرة لمنيرفا وعجلاً لمركوروس الإله المجنّح القدمين ، وثوراً لجوبيتر أعظم الآلهة وأجلّها . ولم يلبث بعد ذلك أن طلب يد أندروميذا جائزة بطولته الأخيرة ، وعقد عليها دون أن يدفع مهرأ ، ولوّح كل من كيوييد وإله الزفاف بمشاعل العرس أمامهما وغدّيا النار بفيض من البخور ، وتدلّت أكاليل الزهور من السقف ، وانطلقت الأناشيد ، وسُمع عزف الليرات وزمر المزامير في كل مكان تعبيراً عن السعادة التى تغمر القليين المتحايين ، وفُتحت الأبواب على مصاريعها ، وتبدّى القصر الذهبى بأكمله ، وجاء أشراف البلاط الإثيوبي إلى الوليمة الفاخرة التى مدّ سهاطها .

وحين فرغوا من تناول الطعام ، وطافت الخمر التى جاد بها باكخوس هدية للعروسين فأخذت تلعب بالرؤوس ، تساءل بيرسيوس حفيد لينكيوس عن البلاد وعاداتها وأساليب معيشتها وتقاليدها وأخلاق سكانها ، فأجابه أحد المدعوين عما سأل عنه ، ثم إذا هو يسأل هو الآخر قائلاً : « هلا ذكرت لنا يا بيرسيوس يا أشجع الشجعان كيف قطعت الرأس التى نبتت فيها الثعابين بدل الشعر ، فذلك وربى شيء

يتطلب إقداماً وحذقاً ؟ » . عندئذ حدثهم سليل أسرة أجينور عن مغامراته ، فقال إنه ثمة مكان تحت سفوح جبال أطلس بمعزل خلف كتل الصخور الصلبة ، تقيم عند مدخله إبتنا فوركيس الشقيقتان اللتان تشاركان في عين واحدة تريان بها . واستطاع بيرسيوس بمهارته ودهائه أن يسلب هذه العين بحركة من يده أثناء انتقال العين بين الشقيقتين ، ثم سلك طرقاً نائية لم يسلكها أحد من قبله خلال البلاد الصخرية والغابات الكثيفة حتى بلغ دار الجورجونات . وشهد عبر الحقول وعلى جوانب الطرق تماثيل الرجال والوحوش التي حوّلتها مشاهدتها للجورجونة بعد أن كانت كائنات حية إلى كتل حجرية ، وحملق في صورة ميدوسا المخيفة المنعكسة على الترس البرونزي الذي كان يحمله على ذراعه اليسرى ، وبينما كانت هي وأفاعيها تغط في نوم عميق جَزَّ عنقها منتزعاً رأسها من فوق كتفها . ومن دماء الجورجونة المتدفقة وُلد الجواد بينجاسوس ذو الجناحين السريعي الخفق ، كما وُلد شقيقه خريساوور^(٣٤) .

ومضى بيرسيوس يروي أحداث أسفاره الطويلة ومخاطرها رغم غرابتها ، وتحدث عن البحر والبر كما شاهدهما من عل ، وعن النجوم التي صعد إليها بأجنحته المرفرفة . ولما سكت عن الحديث ازدادت لهفة الحاضرين إلى المزيد ، وسأله أحد الأشراف ، « وكيف للشعابين قد التفت برأس ميدوسا دون شقيقتها ؟ » فأجابه بيرسيوس قائلاً : « مادمت ترى في ذلك قصة جديدة بأن أرويا فهاكها وأصيحُ بِسَمْعِكَ إليها : لقد اشتهرت ميدوسا في وقت من الأوقات بجهاها الذي أوقد نار الغيرة بين المتقدمين لخطبتها كل من يأمل أن يظفر بها ، وكان جمال شعرها أبرز معالم فتنتها ، ولقد لقيتُ شخصاً يزعم أنه شاهدها عندما كانت تتمتع بهذا الحسن . وقيل إن إله البحار قد سلبها عُدَّتَها داخل معبد مينرفا ، الأمر الذي أغضب ابنة جوبيتر فأدارت ظهرها وأخفت وجهها الخفير خلف تُرسها ، وعاقبت الجورجونة على خطيئتها بأن أحالت شعرها إلى حَيَات بشعة ، ومن يومها ومينرفا ترتدى فوق صدرها تُرساً يحمل صورة تلك الأفاعى التي خلّفتها بمشيئتها كي تثير الرعب بين أعدائها »^(٣٥) .

التعقيبات

- (١) يذكر أوفيد بعض الألقاب التي كانت تطلق على ديونيسوس . وكان اسم باكخوس شائعاً بين القبائل اللاتينية وأغلب الظن أنه من أصل شرقي ، وانتشر في بلاد اليونان ابتداء من القرن الخامس ق.م ، وكان الإغريق يعنون بها صفات الإله ديونيسوس العريضة الماجنة . أما بروميوس فهو لقب متعلق بهزيم الرعد ساعة مولده ، ويدل اسم لييوس على قدرة الإله على تخليص الناس من همومهم ، ويتعلق اسم ابن النار بظروف ميلاده [انظر الكتاب الثالث] .
- (٢) إشارة إلى ظروف ميلاد الإله [انظر الكتاب الثالث] وطفل نيسا [انظر الكتاب الثالث] وثيونوس نسبة إلى الكلمة اليونانية لينوس بمعنى معصرة العنب . ونكتليوس هو لقب الإله الذي يحتفل بطقوسه الماجنة ليلاً ، أما إيليليوس ويوهان فمشتقان من صرخات النشوة المحمومة ، وباخوس هو اللقب الذي أضفى على ديونيسوس في مدينة إليوسيس . أما لير فهو اسم أحد آلهة الخصوبة القدامى في العشائر اللاتينية ، واعتبره الرومان الإله ديونيسوس نفسه ، ومعناه « الحر » أو « المحرر » .
- (٣) لأنه كان يتمثل أحياناً على شكل ثور .
- (٤) انظر قصة پتيوس في الكتاب الثالث . أما ليكوجوس فكان ملكاً لطراقيا وعدوا لديونيسوس فأصابه الإله بالجنون ، الأمر الذي أدى به إلى قتل زوجته وابنه وإلى موته هو نفسه قتيلاً بعد أن سحلت خيوله .
- (٥) هو ميلينوس بن بان الذي تولى تربية ديونيسوس وكان رغم إدمانه الخمر معروفاً بالحكمة .
- (٦) ديركيتيس نسبة إلى الربة السورية ديركيتو التي تحمل أيضاً اسمى أترجاتيس وعشتاروت ، وكانت تمثل بجسم سمكة .
- (٧) أنجبت الربة ديركيتو - كما تقول الأسطورة - بنتاً هي سميراميس المشهورة التي تزوجت من نينوس ملك آشور الذي شيد لها حدائق بابل المعلقة . وقد أمرت سميراميس أن تسور المدينة بأسوار ضخمة وعليها مائتان وخمسون برجاً ، وفي نهاية حكمها علمت أن ابنها نينياس كان يتآمر ضدها فوهبت العرش بمحض إرادتها وتحولت إلى عمامة وطارت بعيداً .
- (٨) هي قصة الحورية بجزيرة نوسالا وكانت تحتذب بفتنتها الشباب ثم تحولهم إلى أسماك ، فعاقبها إله الشمس رب هذه الجزيرة بأن مسخها سمكة .
- (٩) كان الرومان يوزعون مائة القنوات الحجرية العالية بواسطة الأنابيب بين الأبنية العامة والخاصة . وهنا يلجأ أوفيد إلى تصوير الأسطورة مستعيناً بمشاهداته الخاصة في حياته الواقعية .
- (١٠) كليمنيه وروندوس حوريتان إحداهما هي أم فايثون والثانية على قول البعض أم الهيليايس . أما كيركي التي سيقص أوفيد قصتها مع جلاوكوس وسكيللا في الكتاب الرابع عشر فكانت أمها برسيا بنت أوقيانوس . وسميت جزيرة آيا التي كانت تسكنها فيما بعد بشبه جزيرة كيركيو في إيطاليا . وكليتييه أيضاً هي بنت أوقيانوس .
- (١١) سعى عدة ملوك بهذا الاسم في آشور ، ويقال إن أحدهم كان جد الملكة ديدو القرطاجية وملك صور .

- (١٢) أى أنها تحولت إلى زهرة اشتهرت فيما بعد باسم «عَبَاد الشمس» أو رقيب الشمس .
- (١٣) كان دافنس بن هرمس من إحدى الحوريات شقيقاً للرعاة ، ويقال إنه مبتكر الأناشيد الرعوية ، وكثيراً ما يذكر ثيوكراتوس اسمه . وقد أحبه حورية اسمها ليكا أو ناييس ثم خانها ففقد بصره ومسح صخرة وصارت أسطوره ملتصقة بريف صقلية [انظر الكتاب الثانى] .
- (١٤) كيلميس هو أحد كهنة كوبيلى فى جبل إيدا . والكوريتيس هم أبناء الأرض مثل المردة التيتان ، وكانوا قد رعوا زيوس فى طفولته . أما كروكوس فهو الذى أحب سميلاكس حبا يائساً فمسخته الآلهة نبات الزعفران ، كما مسخت سميلاكس زهرة من فصيلة الزنبق تسمى الفشاغ .
- (١٥) يتكون الاسم من اسمى هرمس [ميركورىوس] وأفروديتى [فينوس] مجتمعين .
- (١٦) كيتوروس اسم مدينة وجبل على الشاطئ الشالى لآسيا الصغرى ، وقد اشتهرت بصناعة الأمشاط من الخشب .
- (١٧) كان ثمة اعتقاد شائع بإمكان منع خسوف القمر بقرع الدفوف وضرب الصنوج البرونزية .
- (١٨) كانت جدته مايا أم هرمس بنتاً للهارد أطلس .
- (١٩) تحولت بنات مينياس إلى خفافيش ، وهى باللاتينية فيسر تيليونيس نسبة إلى « فيسر » نجم أوج الليل أى الزهرة فى ساعات الليل .
- (٢٠) إينو هى صغرى بنات كادموس وشقيقة سيميليه ، وقد قامت بتنشئة ديونيسوس عقب ولادته . أما زوجها أثاماس بن أيولوس فكان ملكاً لأورخومنى فى بويوتيا وقد أنجبت منه ولدين .
- (٢١) لم تكن تحظى بالسكينة غير أرواح الموتى التى أدبت لها الطقوس الجنائزية .
- (٢٢) أحب إيكسيون چونو وحاول إغرائها فأبلغت زوجها چوييت الذى شكّل امرأة على غرار چونو من السحاب ورفعها إلى المكان الذى كان سيلقى فيه چونو وضاجع إيكسيون السحابة وأنجب منها فصيلة القنطورى ، ثم عاقبه چوييت بأن أرسله إلى العالم السفلى حيث شلّه ميركورىوس على عجلة تدور إلى ما لا نهاية .
- (٢٣) سيزيفوس هو أحد الأبناء الستة لأيولوس ومنهم أثاماس .
- (٢٤) إرخيدنا وحش نصفه امرأة ونصفه ثعبان . وكانت أم الكلب أورئوس الذى صارعه هرقل ، والكلب كيريروس ذى الرموس الثلاث والهيذرا والخيميرا وأسد نيميا .
- (٢٥) «أفروديتى» مشتق من «أفروس» أى الزيد باليونانية .
- (٢٦) تروى الأسطورة أن الطفل الرضيع ميليكيرتیه قد حمله درفيل إلى شواطئ كورنث ، وهناك تلقاه عمه سيزيفوس ودفنه ثم أقام الألعاب التى سميت بالألعاب البرزخية تكريماً لذكراه . أما ليوكوثوى [إينو] وپلائون [ميليكيرتیه] فقد اتخذوا إلهين فى روما بدلاً من الآلهة الإيطالية القبلية ماتوتا وپورتونوس . وكان أيسخولوس وسوفوكليس قد عالجا هذه الأسطورة فى مأساتين بعنوان «أثاماس» لم يبق لنا منها شيء . كذلك قصص أورپيديس نفس الأسطورة فى مأساة مفقودة بعنوان «إينو» .
- (٢٧) ألبانيا الآن .
- (٢٨) كان آباس ملك أرجوس وأب أكريسىوس أحد أقرباء كادموس وداناووس وآيجيتوس (انظر الكتاب الثالث) . وكان أكريسىوس والد دانائى قد أفزع ما تكهن به العراف بأنه سيموت قتيلاً بيد حفيده فحبس ابنته فى حجرة محصنة بالنحاس . واذ رآها زيوس مستت شغاف قلبه فتسلل إلى معقلها من النافذة على شكل شربوب من الذهب فأنجبت منه پيرسيوس . وبعد أن سمع أكريسوس صيحات الطفل پيرسيوس لم يصدق أن أباه كان رب الأرباب . وإذ كانت نبوءة العراف ما تزال تؤرقه أغلق على الأم دانائى وطفلهما پيرسيوس صندوقاً وقذف به إلى البحر حيث رسا على شاطئ سيريفوس فالتقطه الملك پوليدكتس . وقد عالج سوفوكليس موضوع هذه الأسطورة فى مأساة مفقودة اسمها «أكريسوس» .
- (٢٩) كانت مملكة أطلس تشمل أقصى غرب أفريقيا الشالية وشبه جزيرة أيبيريا .
- (٣٠) لوسيفر هو نجم الصباح أو كوكبة الزهرة التى تبدو قبيل الشروق .
- (٣١) أيولوس هو رب الرياح .

- (٣٢) تعنى كلمة إثيوبيا بلاد ذوى البشرة المحروقة ، وكان الإغريق يطلقون هذا الاسم على كافة شعوب الجنوب حتى خط الاستواء . وقد ميز أيسخولوس بين نوعين من الإثيوبيين : ذوى الشعر المجعد وهم الزنوج ، وذوى الشعر السبط وهم الهنود .
- (٣٣) كان القدامى يجهلون الأصل الحيوانى للمرجان . واقتصرت هذه التسمية بعد ميرودوتوس (القرن الخامس ق.م .) على البلاد الواقعة جنوب مصر وهى النوبة والسودان وشمال الحبشة .
- (٣٤) خريساور هو شقيق الجواد پيجاسوس ، وقد تزوج ابنة أوقيانوس وأنجب منها جريون الوحش ذا الرؤوس الثلاث الذى صارعه هرقل .
- (٣٥) رأس الجورجونة هى الشعار المنقوش فى منتصف درع الربة أثينا [منبرقا] .





الكتاب الخامس

پيرسيوس [تمة]

وبينما البطل ابن داناي يروي مغامراته لحشد من الإثيوبيين من أسرة كيفيسوس كان ثمة جمع صاخب من الجماهير الثائرة قد احتشد داخل القصر ، أخذوا يصيحون صيحات لا تتفق وتهليل الأعراس ولطفها ، بل تشوبها ضراوة المحاررين . وسرعان ما ساد الحفل اضطراب يشبه فورة مياه البحر إذ تحركها العاصفة الهوجاء ، وكان فينيوس^(١) هو زعيم هذا الحشد الدخيل ومعرضهم على القتال . وقف شاهراً رمح البرونزي الحَدَّ المنحوت من خشب الدردار وانبرى يتوعد : « ما أنذا قد جئت لأنتقم ممن اختطف العروس التي وُعدت بها ، ولن ينقذك مني جناحك ولا جوبيتر الذي تمثل على صورة قطرات ذهب خادعة » . وتأهب ليسد رمح فزجره كيفيوس قائلاً : « ما هذا الذي تفعله يا أخاه ؟ أية حماقة تلك التي تدفعك إلى أن تُقدم على هذا الجرم ؟ أهكذا يكون جزاء من أسدى إلى معروفًا جليلًا ، أهبذا تكافئ من أنقذ حياة ابنتي ؟ إن پيرسيوس لم يخطفها منك إنما خطفتها بنات نيريوس [حوريات البحر النيريايس] الصارمات ،

٢٠

خطفها أمون ذو القرنين^(٢) والوحش الذى انطلق من البحر ليفترس أحشائها . لقد اختطفبت منذ تلك اللحظة التى كانت فيها مشرفة على الهلاك فوق الصخرة ، هذا إذا لم تكن أنت بقسوتك تريد لها الهلاك ، وتتخذ أنت من خوفنا عليها ما تتلهم به . فما كان يحق لك أن تقف جامداً وهى مكبلة بالأغلال على مرأى منك ولا تمد لها يد العون وأنت عمها وخطيئها معاً ، أو يليق بك بعد هذا أن تشكو وأن تحرم من أنقذها جائزته . وإذا كنت حقاً تقدرها حق قدرها أما كان الأولى بك أن تحملها بعيداً عن الصخور التى شددت عليها . وما دمت لم تفعل فلتدع من أنقذها يظفر بما وعد به ويحني ثمار ما قدم . لقد خلصنى من أن أروح تحت عبء شيخوخة أحرمت فيها حنان ابنتى ، ولتعلم بأننا لم نؤثره عليك بل أثرنه على الموت الذى كان يتهددها يقيناً .

٤٠

وارتج على فينيوس وراح ينقل نظراته بين الملك وپيرسيوس حائراً لا يدرى إلى أيهما يسد رحمة ، وبعد تردد لم يطل قذف پيرسيوس برمحه بكل ما أثاره فيه الغضب من قوة ، غير أن رميته ذهبت هباء إذ نفذ السهم فى أريكة پيرسيوس الذى قفز من بين الوسائد مسدداً رحمة إلى صدر خصمه ، ولكن ما أسرع أن احتفى فينيوس بالمحارب الذى منحه حماية لم يكن جديراً بها . ومع ذلك فإن الرمح لم يطش وإنما نفذ فى جبين رويتوس فسقط صريعاً يقرع الأرض بكعبيه ويخرج الرمح من جبينه فيتناثر دمه على الموائد . وعندها خرجت الجماهير الثائرة عن وعيها غاضبة وقذفوا الرماح هنا وهناك مُنادين بقتل كيبيوس وصهره . ولكن كيبيوس كان قد بادر فغادر قصره مُشهداً آلهة الضيافة على أنه لا يد له فيما حدث وأنه كان محقاً صادق النية .

وأقبلت باللاس المحاربة وقدمت ترسها لحماية أخيها پيرسيوس فأذكت فيه الشجاعة . وكان أول من تصدى له هندى اسمه أثيس وضعته أمه « ليمناى » وهى إحدى حوريات نهر الجنج تحت مياهه الصافية . وكان صبياً أكمل السادسة عشر من عمره بهى الطلعة تزيد ثيابه الأنيقة وسامة ويرتدى معطفاً من معاطف « صور » وشى بأهداب من قصب ، ويحيط بعنقه عقد من الحليات الذهبية ، ويضم شعره المعطر بالمر مشط مقوس ، لا يخطيء رمحه هدفاً مهماً بعد ويجيد استخدام القوس ، غير أنه ما كاد يبدأ فى شد قوسه المرن حتى ألقاه پيرسيوس بجمرة مشتعلة من جمرات المذبح فجندلته على الأرض وتهشمت عظام جمجمته ووجهه .

٦٠

وحينما رأى ليكاباس الأشورى أعز أصدقائه مجندلاً بكاه وهو يشهده يلفظ أنفاسه الأخيرة ، تغشى الجراح ذلك الوجه الذى كان مفتوناً به وتعمه بركة من الدماء ، فانتزع القوس الذى كان أثيس قد شد إليها السهم وصاح : « لأنازلنك الآن بنفسى ، ولن أتركك تفرح بموت صبى لن يكسبك موته غير العار » . وانطلق السهم قبل أن يتم عبارته ، غير أن پيرسيوس أفلت منه فلم يصيب غير طيات ثيابه ، ثم انطلق پيرسيوس شاهراً سيفه المقوس — الذى أطار به عنق ميدوسا — وأغمده فى صدر ليكاباس ، وحملى ليكاباس بعينيه الزائغتين فى أثيس ثم سقط بجواره مطمئن النفس لموتها معاً وذهابها سويًا إلى عالم الأشباح .

٨٠ وحاول كل من فورباس الأسواني وأنتيميدون الليبي الاشتراك في المعركة غير أنها انزلقا في بركة من الدماء الفاترة على الأرض فسقطا وصرعهما بيرسيوس حين أغمد سيفه في ضلوع أنتيميدون وفي حلق فورباس . وكان مصير إريتوس ابن أكتور مختلفاً ، لأن بيرسيوس لم يحاول الوصول إليه بسيفه ، إذ كان إريتوس مسلحاً بشاطور عريض الحد ، بل حمل بين يديه وعاء ضخماً ثقيلاً بارز النقوش ، وهوى به على رأس إريتوس فانبثق الدم غزيراً من فمه وسقط إلى الراء وارتطم رأسه بالأرض مهشماً فأخذ يعانى سكرات الموت .

وأودى بيرسيوس بحياة كل من پوليديجمون أحد أحفاد سميراميس ، وأباريس القوقازي وليسيوس الثيسالي ، وهيليكس المسترسل الشعر ، وفليجياس ، وكليتوس ، ثم انطلق يطأجث ضحاياه بقدميه . ولم يحسر فينيوس على منازلة خصمه عن قرب بل قذفه برمح عن بُعد فأخطاه الرمح وانحرف إلى جسد إيداس الذى كان قد نأى بنفسه عن القتال ولم يشأ الانضمام إلى أحد الفريقين فلم يُغنه ذلك شيئاً ، لذلك حنق على فينيوس وصاح فيه قائلاً : « مادمت قد حملتنى حملاً على أن أنحاز إلى أحد الفريقين وجعلت منى خصماً لك ، فلاصّبك بجرح لقاء ذلك الجرح الذى أصبتنى به » ، وجعل ينزع الرمح من جسده وهمّ بقذف عدوه به غير أنه سقط على الأرض والدماء تنزف منه .

١٠٠ ومات هوديتيس - أعظم أبطال إثيوبيا بعد الملك - بسيف كليمنوس ، وصرع هيسوس پروثونور ، فتكفل بيرسيوس بذبح هيسوس . وكان بين الحاضرين رجل مُسنّ عادل ورع هو إيماتيون لم يشترك في القتال بسيفه لشيخوخته ، ولكن شارك بلسانه فمضى يصب لعناته على هذه المعركة الأثمة ، بينما يمسك المحارب بيده المرتعشة حين هوى عليه خروميس بسيفه وأطاح برأسه فسقطت على المحارب وظل لسانه يتحرك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط ألسنة النار . ثم سقط الشقيقان التوأمان بروتياس وأمون ، وكانا لا يُقهران بفضل قفاز^(٣) المصارعة ، غير أنه لا حيلة للقفاز أمام صولة السيوف فقضى عليهما فينيوس بسيفه ، كما قضى على أيبكوس كاهن سيريس الذى كان يلفّ جبينه بعصابة بيضاء . كذلك خرّ لامپيتيديس صريعاً ولم يكن قد خلق للقتال ، وإنما كان مطرباً ، وكما كان غناؤه للسلام كذلك كانت قيثارته ، وكان قد دُعى ليعزف فواصل موسيقية وينشد بعض الأغاني خلال الحفل ، ورآه پتالوس وسط مجموعة رجال ممسكاً بريشة قيثارته العديمة الجدوى في القتال وصاح فيه « لتشد ما بقى من أغنيتك لأطياف العالم السفلى » وأغمد سيفه في وجنة لامپيتيديس اليسرى فسقط على الأرض وقد انطبقت أصابعه على أوتار قيثارته فأطلقت نغمًا حزيناً . وثار ليكورماس الشجاع لموت الشاعر واندفع يثار له فخلع قضيباً ضخماً من الباب ودق به عنق پتالوس فخرّ صريعاً كما يخرّ العجل المذبوح قرباناً ، وحاول پيلاتس وكان قادمًا من شواطئ نهر سينيس^(٤) أن يخلع قضيباً من الباب الآخر فعاجله رمح كوريشوس الليبي فأثبت يده بخشب الباب ، وأدركه آباس بطعنة في جنبه مات على أثرها وظل معلقاً بمصرع الباب ، كما قتل ميلانيوس أحد أتباع بيرسيوس ، وكذلك دوريلاس أغنى ملاك ناسامونيا^(٥) وأشهر أصحاب الضياع الفسيحة فيها وأكثرهم ملكاً لأهراء التوابل ، فلقد طعنه هاليكونيوس البختياري برمح نفذ مائلاً في فخذه فجرح

خصيته ، ورآه أحدهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة زائغ العينين فقال له : « حَسْبُكَ بعد تلك الأراضي الشاسعة التي تمتلكها ، هذه الرقعة الصغيرة التي ترقد عليها » . وسارع بيرسيوس بالانتقام لدوريلاس فانتزع الرمح وكانت لاتزال به حرارة دمه وقذف به هاليكونيوس فمزق أنفه ورقبته ونفذ من الخلف . وظل القدر يرمى يدي بيرسيوس حتى قتل الشقيقين كليتيوس وكلايس اللذين وُلدا من أم واحدة وماتا بـجرحين مختلفين ، فقد نفذ رمح بيرسيوس في فخذى كليتيوس بينما غاص في حلق كلايس وكأنه يعضه بأسنانه ، كما مات كيلادون من منديس^(٦) ، وأستريوس الفلسطيني الأم المجهول الأب ، ومات أيشيون الذي كان مع حذقه في التنبؤ جاهلاً بمصرعه ، وكذلك هلك تواكتيس حامل دروع الملك وأجثرتيس الموصوم بقتل أبيه .

١٤٠

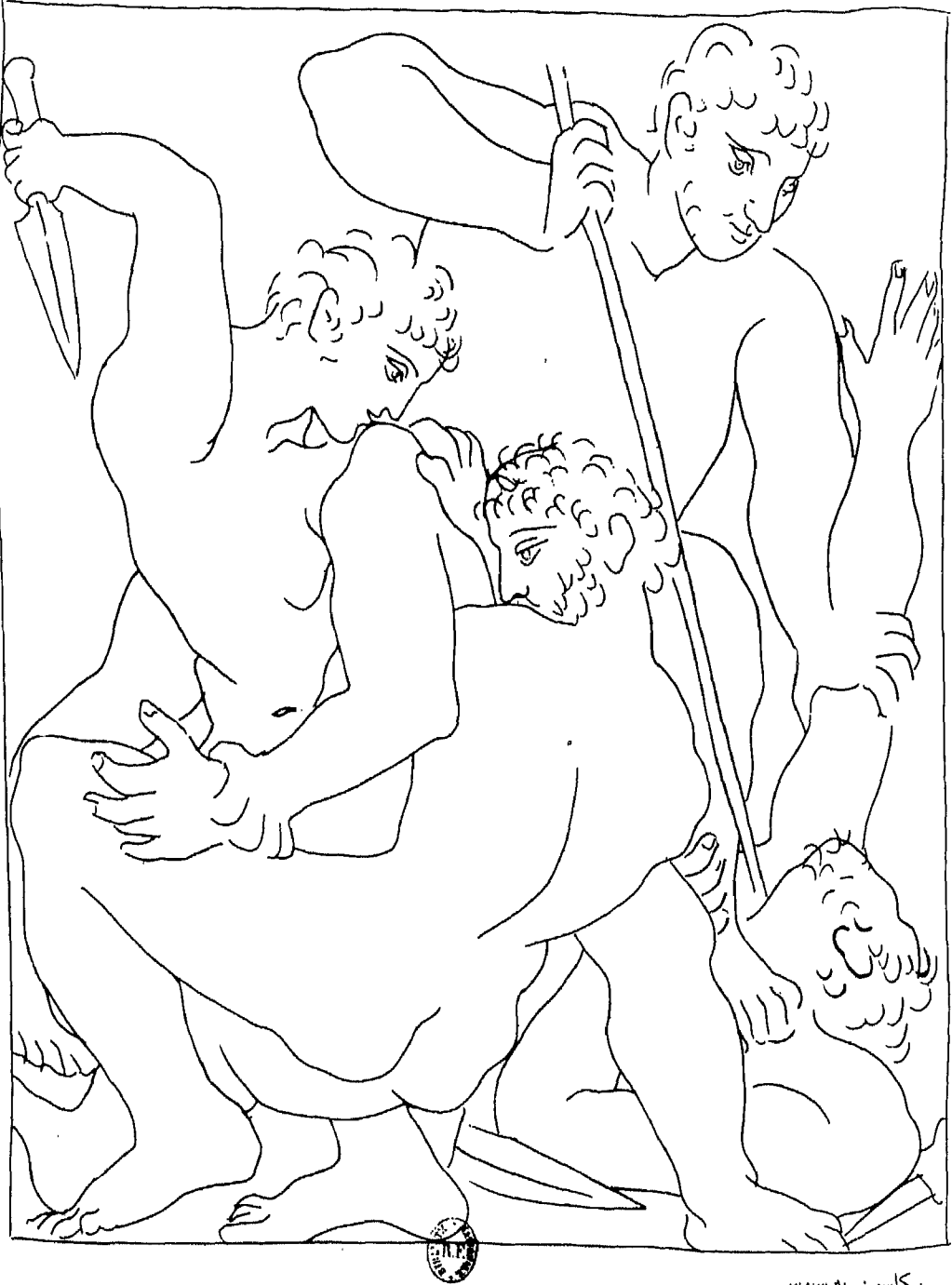
وكان على بيرسيوس بعد ما أبلى في هذا العراك أن يبذل جهداً فوق كل ما بذله ، فقد انفرد به المهاجمون للإتيان عليه ، وتكالت عليه من كل حذب وصوب عصابات تبغى ألا يمضي في نيل ما وعده به من حقوق . ولم يُغن شيئاً وقوف الملك وزوجته والعروس إلى جانبه ، فلقد ضاع صباح الملك وصراخه وسط صليل السيوف وأنين القتلى ، وكانت يبللونا ربة الحرب قد نثرت الدماء على آلهة الأسرة لتذكى نار القتال .

وحاصر فينيوس وأتباعه الألف بيرسيوس وحده ، وتهاوت رماحهم عليه تهاوى البرد في الشتاء أو أشد ، فأسند كتفيه إلى عمود حجري كبير يحمى به ظهره وواجه الخصوم صامداً لهجومهم . وكان يتربص له من جهة اليسار موليبوس الخاروني^(٧) ويهاجمه من اليمين إيثيمون النبطي^(٨) ، وبدا بين خصميه كنمر جائع قد سمع خوار قطيعين من الأبقار في واديين مختلفين في آن واحد فلم يدر أيهما يهاجم أولاً ، وودّ لو استطاع أن يقفز إلى الاتجاهين في اللحظة نفسها . وأخذ بيرسيوس يُراوِد نفسه فيمن يبدأ بقتله ، وإذا هو يُعاجِل موليبوس بطعنة مزّقت ساقه غير أنه لم يستطيع ملاحقته لأن إيثيمون لم يتركه بل أقبل عليه شارعاً سيفه على رقبته ، إلا أن السيف الطائش اصطدم بحافة العمود وانكسر وارتد نصله في حلق من أطلقه ، ولم يكن الجرح مميتاً لكن وقفته مرتجفاً أعزل أتاححت لبيرسيوس أن يُرديه بسيف ميركوريوس . وأخيراً تيقن البطل من أن شجاعته تقصر أمام هذا العدد الغفير من الخصوم فصاح : « مادمت تُكْرهوننى على الالتجاء إلى ما لم أكن أحب اللجوء إليه ، فلسوف أطلب العون ممن كانت لي خصماً ، ولْيُشج بوجهه إذن من كان صديقاً » ، ثم ما لبث أن أخرج رأس الجورجونة وكشفها أمامهم . وانبرى له ثيسكيلوس يسخر منه وهو يقول : « هل لك في غيرنا ممن تُخدعهم جيلك » ، وكان قد تأهب لقذف رمحه فإذا هو يجمد في وضعه ومكانه إلى الأبد إذ تحوّل تمثالاً من رخام ، وتقدّم في إثره أمبيكس محاولاً إغمد سيفه في صدر بيرسيوس الشجاع غير أن يده جمّدت ولم تعد تتحرك للأمام ولا للخلف وتحجّر على هذا الوضع . وحينئذ برز نيلبوس الذي كان يدعى زوراً انتسابه إلى النيل ذى المصبّات السبع ، ورفع تُرسه المنقوشة عليه فروع النهر السبعة بعضها بالذهب وبعضها بالفضة ، وصاح : « تطلّع يا بيرسيوس إلى أين يمتدّ نسبي ، ولسوف يُسرّى عنك أنك ذاهب إلى عالم الموت على يدي بطل مثل » ، وهنا اختنقت كلماته الأخيرة في حلقه وبقيت شفتاه منفرجتين إلى الأبد وكأنه يتكلم ولكن بلا صوت . وصاح إيريكس مؤنباً المحاربين بقوله : « إنه الجبن هو

١٦٠

١٨٠

الذى يجعلكم تجمدون وليس رأس الجورجونة ، هلموا معى للقضاء على هذا الفقى وسلاحه السحرى « ٢٠٠
ولكنه لم يكذب يندفع خطوة للأمام حتى تجمد كتمثال من حجر .



پيكاسو: پيرسيوس

وإذا كان هؤلاء جميعاً قد استحقوا العقاب الذى نزل بهم ، فثمة محارب من أنصار پيرسيوس هو
أكونتيسوس كان قد وقع بصره على رأس الجورجونة فجمد هو الآخر على الفور ، وظن أستياجيس من

خصوم بيرسيوس أنه مازال حيًا فضربه بسيفه الطويل فإذا هو يسمع رنين ارتطامه بالحجر فوقف لساعته متعجبًا ، وإذا هو الآخر يتحوّل تمامًا حجرياً تعلو وجهه قسّات التعجب .

ويطول سرد أسماء الجنود الدهماء الذين هلكوا في هذه المعركة ، فلم يبق حيًا منهم سوى مائتين ، تحوّل مائتان منهم إلى تماثيل حجرية بمجرد تطلّعهم إلى رأس الجورجونة . وفي النهاية امتلأ فينيوس أسى على ذلك القتال الذي بدأه ظلمًا ، لكن ما عساه يفعل الآن ؟ لقد رأى رجاله تماثيل في وضعات مختلفة ، وكان يتبنّهم ويناديهم بأسمائهم طالبًا منهم العون غير مصدّق عينيه ، وأخذ يلمس أقرب الأجسام إليه فوجدها رخامًا صلبًا فابتعد عنها يائسًا مُقرًّا بالفشل ، ورفع ذراعيه متوسلًا إلى بيرسيوس وهو يتجنب النظر إليه قائلاً : « أنت الفائز يا بيرسيوس فاحف سلاحك البشع عن الأنظار ، أخف رأس ميدوسا ، أخف ذلك الرأس الذي يحوّل الرجال إلى صخور ، ناشدتك أن تخفيه ، فلم تدفعني إلى القتال كراهيتي لك وحيي للسيطرة بل هي الرغبة في العروس التي وعدت بها . لقد قمتَ لها بالكثير الذي يجعلك لها أهلاً لكنني عرفتُها قبلك ، ولن أخجل الآن من تسليمها إليك ، هَبْ لي إذن شيئاً واحداً أيها البطل العظيم ، هَبْ لي حياتي وحدها وليكن لك بعد هذا ما تريد . » ٢٢٠

ولم يجرؤ فينيوس وهو يتكلم على التطلّع إلى الرجل الذي يتوسّل إليه ، فأجابه بيرسيوس قائلاً : « فينيوس يا أجبني الخليفة ، لسوف أعطيك ما أستطيعه وهو منحة عظيمة لو تعلم لرجل دنء الطوية مثلك . لا تخشى أن يصيبك سيفي بأذى ، فسوف أجعل منك تماثلاً منتصباً في قصر حمي يبقى على الأبد حيث لا يغيب عن نظر زوجتي التي كنت قد خطبتها يوماً » . ثم لَوّح برأس بنت فوركيس في الاتجاه الذي يتطلّع إليه فينيوس وقد ارتسمت على وجهه علامات الخوف . ولقد حاول الجبان أن يزيغ عينيه غير أن عنقه جمد ، وجمدت الدموع في عينيه واستحال صخوراً بقيت قسّات الرعب مطبوعة على وجهه كما بقيت يداه تعبران عن خضوعه وذلته .

وعاد « بيرسيوس » حفيد أكرسيوس بعد ذلك إلى موطنه منتصراً تصحبه عروسه ، ودخل من باب مدينته حيث وُلد . وبالرغم من أن جدّه لم يكن قد بذل ما يستحق عليه العون ، إلا أن بيرسيوس انبرى يأخذ بحق أكرسيوس وهو يعدّ الإهانة التي لحقت بجدّه إهانة له ، فهاجم « بروتوس » الذي كان قد أرغم أخاه « أكرسيوس » بقوة سلاحه على الفرار واستولى على قلعته ، فلم تفلح الأسلحة ولا مقاومة القلعة المغتصبة في حمايته أمام بشاعة نظرة المخلوقة الغريبة ذات الشعر الثعالبى . ٢٤٠

أما أنت يا بوليديكتيس^(٩) ، يا من تولّيت مُلك جزيرة سيريفوس الصغيرة فما حرّك عطفك هذا الإقدام الذي أوتيّه ذلك البطل الشاب ، ولا تلك البطولات التي شهدت بها مغامراته العديدة ، ولا الكوارث التي حلّت به ، ولكنك كنت تطارده عن كراهية لا تفرّ وغضب جائر لا حدود له ، فكنت تهوّن من بطولاته كافة وتدّعى أن قتل ميدوسا لم يكن غير حديث كذب . وعندها صاح به بيرسيوس : « لكى

أثبت لك صدق ما أدعى ، فلتُشبحوا بوجوهكم جميعاً ، وسرعان ما حوّل وجه الملك إلى حجر دون أن يسكب قطرة من دمائه حين أخرج له وجه الجورجونة « ميدوسا » .

هيبوكرييني . ربّات الضن . بنات بيبروس

لم تفارق تريتونيا « منيرفا » [تريتونيا نسبة إلى بحيرة تريتون بأفريقيا] طيلة الوقت أنحاها البطل الذي أنجبه جوبيتر من خلال القطرات الذهبية . وما لبثت أن التفت بسحابة ورحلت عن سيريفوس مخلقة وراءها كلاً من جزيرتي كينوس وجياروس ، وسلكت أقصر الطرق عبر البحر إلى طيبه وجبل هليكون موطن ربّات الفنون التسعة حتى إذا بلغت الجبل خاطبت الشقيقات النابغات قائلة : « نمت إلى سمعى شائعة تقول بأن ينبوعاً قد تفجّر من الأرض بضربة من حافر الحصان المجنّح « بيجاسوس » وليد « ميدوسا » ، ولذلك ٢٦٠ جئت لأشهد هذا ينبوع العجيب بعد أن شهدت الجواد وهو ينبثق من دماء أمه المسكوبة ، فأجابتها أورانيا : « مرحباً بك أيتها الإلهة ، وآياً كان الغرض من زيارتك لديارنا فهي كفيلة بإضفاء السكينة على قلوبنا . أما قصة الينبوع فصحيحة لأن الجواد بيجاسوس هو الذى فجّره » . ثم قادت باللاس إلى الينبوع المقدّس ، فوقفت الإلهة برهة طويلة تحملق دهبشة في هذا الينبوع الذى فجّره ضربة من حافر جواد ، ثم جالت ببصرها حول الينبوع مستعرضة الأجمات العريقة والكهوف والسفوح الخضراء المرصعة بالزهور العديدة . وهنأت بنات « منيموزيني » على موطنهن الذى يفيض عليهن سعادة ويتفق وما يضطلعن به من رسالة نبيلة . فردّت عليها إحدى الشقيقات قائلة : « آيا باللاس تريتونيا ، يا من كنت مستصحبين واحدة منا لولا شجاعتك التى قادتك إلى حمل رسالة أجلّ شأنًا . إن ما تقولينه هو الحق بعينه وإنك لعلّ حق في امتداحك دارنا ورسالتنا . إن حظنا لسعيد لو أتيج لنا أن ننعّم به في هدوء ، غير أن ما يلحق بنا من أذى الناس لا حدود له ، فالإناث بغير حراسة يعيشن في خوف مستديم ، وصورة « بيرينيوس » الشرّس ماثلة دائماً أمام عيني وبقي الذعر مستولياً علىّ منذ تلك الحادثة . لقد كان محارباً عنيفاً استولى بمعونة جنده الطراقيين على بلاد دوليس وحقول « فوكيس » ونصب نفسه ملكاً على الأراضى التى اغتصبها عنوة . وكنا نحن الربّات في طريقنا إلى معبدنا في جبل « البارناسوس » فرآنا ساعة مررنا به وتظاهر بإجلال أشخاصنا الإلهية ، ودعانا لدخول داره لنحتّمى من المطر قائلاً : « يا بنات منيموزيني ، أرجوكن أن تتلبّثن برهة وألا تتردّدن في الاحتماء بدارى من المطر والعاصفة ، فطالما دخلت الآلهة أكواخ أناس أشدّ فقرأ منى » ، فحضرنا ترحيبه وكذا رداءة الطقس إلى قبول دعوته ، وسرعان ما دفعت ريح الشمال ريح الجنوب وبددت غيومها فبدت السماء صافية من جديد ، وهممنا باستئناف مسيرنا فإذا بيرينيوس يُغلق علينا داره ويشرع في الاعتداء علينا . لكننا تمكّنا من الإفلات منه باستخدام أجنحتنا التى حلّقنا بها عالياً ، فانطلق يصعد أسوار القصر مسرعاً وراءنا صائحاً فينا « أينما تذهبن سامضى في إثركن ! » ولكنه سقط في غمرة جنونه من البرج فهوى على الأرض وقد تناثرت عظام مجتمته المهشمة وخضبت الأرض بدمه » .

ورفرفت أجنحة في الفضاء خلال حديث ربّة الفن ودوّت من أعلى الغصون عبارات التحية ، فتطلّعت إبنة چوپيتر إلى أعلى لترى مبعث هذا الصوت ، وكانت الكلمات واضحة حتى ظنّت المتحدث إنساناً ولم يكن غير طير من الطيور . كانت هناك تسعة من طيور العقق التي تستطيع محاكاة مختلف الأصوات وقد حطّت على غصون الشجر ناعية مصيرها . وعندما بدت الدهشة على منيرفا أخذت ربّة الفن تفسّر لها الأمر وتقول : « هؤلاء أيضاً قد تحوّلن حديثاً إلى طيور بعد فشلهن في إحدى المباريات . وكان أبوهن « پيروس » أحد كبار أثرياء پيللا وكانت أمهن أويي من « پايونيا »^(١٠) قد ناشدت لوكينا ربّة الوضع العون تسع مرات ، وأعانتها فوضعت تسع مرات . وكانت الشقيقات التسعة الحمقات قد تمكّهن الغرور لكثرة عددهن ومضين يتنقلن عبر بلاد « هايونيا » وآخايا . وحين وفدن على جبل هليكون استفززننا بقولهن ، « ألا توقفتن عن فرض أنفسكن على الجهلة بادعائكن أنكن منشدرات رخييات الصوت ، إن تكنّ واثقات بمواهكن فتعالين معنا يا بنات ثيسپاي »^(١١) المقدسات نتبار فلسنا دونكن في رخامة الصوت ولا في مهارة الإنشاد ، كما أننا نساويكن في عددكن ، فإذا خسرتن المباراة تركتن البنبوع الذي فجّره ابن ميدوسا ونبوع أجانيبي في بوبوتيا . وإذا خسرنا نحن انسحبنا خارج سهول مقدونيا إلى پايونيا التي تكسوها الثلوج ، ولتقم الحوريات مقام الحكم في المباراة » . ولقد كان عاراً علينا أن نباريهن ، كما كان من العار أن نتراجع ونسحب من المباراة . ثم كان اختيار الحوريات اللاتي أقسمن بأنهرهن أن يكنّ في جانب العدل ، واتخذن أماكنهن على كتل الصخر الصلد . ولم نحتج للاقتراع فيمن يبدأ المباراة ، إذ أنشدت من استهلّت المباراة نشيداً يقص حروب سكان السهلات ونسبت المجد إلى العمالقة زوراً واستهانت بأعجاد كبار الآلهة ، فروت كيف انطلق تيفويوس من أعماق الأرض ونشر الذعر بين سكان السماوات ، وكيف هرب منه جميع الآلهة وفرّوا حتى لاذوا بأرض مصر في وادي النيل ذى المصبّات السبع ، وطاردهم العملاق تيفويوس وليد الأرض في مأواهم فتنكر الآلهة في أشكال أخرى كي يخدعوه : تخفّى چوپيتر في صورة كبش يقود القطيع ، وهذا هو السرّ في تصوير آمون الليبي^(١٢) حتى اليوم بقرون لولبية ، وتخفّى أبوللو في صورة الغراب ، وتحول ابن سيميليه تيساً ، وشقيقه فوييوس قطّة ، وچونو عجلة بيضاء ، وفينوس سمكة ، بينما أخذ ميركوريس إله كيليني أجنحة الطائر أيس . أنشدت الكثير من هذا القبيل على القيثارة متحدّية بذلك ربّات الفنون . وقد لا يتسع وقتك للمزيد أيتها الإلهة ، أو قد لا تدع لك مشاغلك وقتاً تستمعين فيه إلى أنشودة الربّات ؟ » فأجابت پاللاس « لا تخشى ذلك واخبريني بما أنشدته بدقائقه على ترتيب وقوعه » . ثم جلست پاللاس في ظل الشجر الرّخى ، وواصلت ربّة الفنون قصتها قائلة : « لقد اخترنا من بيننا « كاليوبي »^(١٣) لتمثّلنا جميعاً ، فنهضت واقفة وقد شدّت خصللات شعرها المسترسلة بإكليل من اللبلاب ، وغمزت أوتار قيثارتها الحانية بسبّابتها ، وأنشدت :

٣٠٠

٣٢٠

سيريس وپروسيرپينا

« كانت سيريس أول من حرثت كتل الطين بمحراثها المقوس وأول من زرعت القمح وسائر الغلال ، وفرضت النواميس الأولى على العالم ، فنحن ندين بكل ما نملكه لسيريس ، وعلى أن أتغنى بها وليت نشيدى يكون جديراً بها ، فالإلهة يقينا جديرة بأغنيى . »

أرسيت جزيرة صقلية الفسيحة فوق جسد العملاق تيفويوس الذى جرؤ وتطلع إلى الإقامة في السماء ، وطالما صارع لينهض من تحت الجزيرة ، غير أن يده اليمنى لم تقو على الحراك تحت جبل بيلوروس القريب من أوزونيا^(١٤) ، كما جُهدت يده اليسرى تحت جبل پاخينوس ، بينما شد وثاق ساقه أسفل ليليايوم^(١٥) ، واستقر بركان إتنا بثقله فوق رأسه بينما كان مستلقياً على ظهره تحته وهو يلفظ الحميم واللهب من فكّيه المخوفتين . وطالما حاول إلقاء عبء الأرض من فوق ظهره وطى المدن والتلال الضخمة التى تقيده ، وعندها كانت الأرض تزلزل حتى خشي ملك الأشباح الصامته نفسه أن تنشق الأرض عن فجوات واسعة تسمح لضوء النهار أن يتسرّب إلى مملكته فيُخيف أطياف الموتى القلقة . ودفعه الخوف من ذلك إلى مغادرة مملكته المظلمة في مركبته التى تجرّها الجياد السود ، ودار بها حول الدعامات التى تقوم عليها صقلية ليطمئن إلى أنه ليس ثمة مواطن ضعيف بها ، فلمحت سيدة إريكس [فينوس]^(١٦) التى احتضنت ابنها المجنّح [كيبيد] وقالت له : « أى كيبيد يا من أنت ساعدى وسلاحى ويأسى ، خذ يا بُنى هذه السهام التى تخضع بها الجميع لسلطانك ، وارم بأسرعها قلب ذلك الإله الذى يسود آخر مملكة من بين ممالك الكون الثلاثة . لقد أخضعت آلهة الآفاق العلوية بما فيهم جوبيتر نفسه ، وكذلك فعلت بآلهة البحار دون أن تستثنى كبيرهم ، فلماذا تُهمل شأن تارتاروس ؟ لماذا لا يمتد سلطان أمك وهو أيضاً سلطانك إلى العالم السفلى وهو ثلث الكون ، ولا تنس أن السماء قد بدأت تزدرينا لتراخيها ، وأخذ سلطان الحب يضمّر ويضمّر معه سلطاني ، ألم تر إلى باللاس وديانا ربّة الصيد يديران وجهيهما عني ؟ كما أن ابنة سيريس ستظل عذراء إذا تركنا الأمر بيدها ، فتلك أمنيته . وإذا كنت تحرص حقاً على مملكتنا التى نتقاسمها فاربط بين هذه الإلهة وبين عمّها »^(١٧) . ولما فرغت فينوس من حديثها ، فتح كيبيد جعبته وتخيّر من بين سهامه الألف أمضاها وأطوعها لقوسه كما شاءت أمه ، وشدّ قوسه مستنداً إلى ركبته وأطلق السهم الذى أصاب قلب پلوتو وانغرس نصله فيه .

وكانت على مقربة من أسوار مدينة هِنّا^(١٨) بحيرة عميقة الغور أطلق عليها اسم « بيرجوس » ينافس هديل بجعاتها الغناء الذى يُطرب سمع نهر كايستر^(١٩) من بجعاته الشّاديات فوق مياهه الجارية . وكانت الأشجار تحيط بالبحيرة وتحميها بأوراق غصونها الكثيفة من أشعة فويوس وتكسوها بظلال رطبة ، وتنتشر المراعى الخصبة من حولها متأنقة بالأزهار حتى باتت كالربيع الدائم .

كانت پروسيرپينا هناك تلهو باقتطاف أزهار البنفسج والسوسن ثم تجمعها مرحةً مرح الطفولة البرىء في سلتها أو بين طيات ثوبها محاولة أن تَبْزَ رفيقاتها ، وقد وقع عليها بصر پلوتو حين أصابه السهم فإذا هو يقع في غرامها فاخطفها ، فما أشد لطف الحب ! وأخذت الإلهة المذعورة تبكى وتصيح مستغيثة بأُمها وبرفيقاتها وهى تمزق صدر رداها حتى سقطت الأزهار التى كانت قد جمعتها فى ثنایاها ، وتضاعفت حسرتها حين رأت خاطفها يستثير الخيول التى تجرّ مركبته منادياً كل جواد باسمه يستحثه على مضاعفة جهده ، ويهزّ أعنتها المصبوغة بألوان داكنة من فوق رقابها وأعرافها وهى تعدو فوق البحيرات العميقة الأغوار والبرك الكبريتية فى بلاد الپالیکى^(٢٠) التى تنبثق مياهها من باطن الأرض وهى ساخنة تفور ، ثم مرّت بالبقعة التى شيدت فيها سلالة باكخادای الوافدة من كورنثه وبرزخها^(٢١) أسوار مدينتها بين مينائين يكبر أحدهما الآخر .

كيانى

وكان ثمة خليج فى المنطقة التى تفصل بين بركة كيانى وجدول آريثوزا الوافد من پيزا ، تتجمع فيه مياه البحر محصورة بين شاطئى المجرى الذى يزداد ضيقاً فى عدّة مواقع . وكانت « كيانى » أشهر حوريات صقلية التى أطلق اسمها على البركة تحيا به ، وقد برزت حتى خصصها خارج المياه وتعرّفت على الإلهة المخطوفة فصاحت : « لن تذهب بابتة سيريس أبعد من هذا يا پلوتو ، ولن تتزوج بها إذا لم تكن هى راغبة فى ذلك ، وكان أولى بك أن تخطبها بدلاً من اختطافها . ولو أُنحت لى فرصة لحدّثتك عن حادث مثل ، فلقد وقع أناپيس^(٢٢) فى غرامى ، ثم أصبحت عروسه بعد أن نجح فى استمالتي بتوسلاته لا استسلاماً لمثل هذا الذعر الذى تحرّكه فى قلب الصبيّة » . وما لبثت أن بسطت ذراعيها خلال حديثها فسدّت الطريق أمام پلوتو بن ساتورن الذى لم يستطع كبح جماح غضبه فاستثار خيوله العابسة ، وقذف بصولجان مُلكه فى قاع البركة فانشقت الأرض ممهّدة طريقاً إلى تارتاروس ، وانطلقت مركبته وغاصت إلى مملكته من خلال هذا الشقّ . ومضت كيانى تندب اختطاف الإلهة حزينة على استهانة پلوتو بسلطانها على بركتها ، واستقر فى قلبها جرح لاشفاء منه ، فبدأت تذوى من فرط بكائها حتى تحلّلت تماماً فى الماء الذى كانت فى الماضى إلهته الجليلة وتخاذلت أعضاؤها فأخذت عظامه تشنى وأظافرها تفقد صلابتها . وكانت أجزاء جسدّها الدقيقة هى أول ما بدأ فى التحلّل : شعرها الداكن الزُرقة وأصابعها وساقاها وقدماهما . وما أسرع ما تحوّلت هذه الأعضاء إلى أمواج باردة ، ثم اختفى كتفاها وظهرها وردفاها ونهداها فى سيولة الماء حتى تحوّل الدم الذى يجرى فى عروقها إلى ماء سيال ، ولم يبق منها شىء تقبض عليه كفّ إنسان .

وتسلّلت الهموم إلى قلب سيريس أم پروسيرپينا وهى تجوب الأرض والبحار تحاول عبثاً العثور على ابنتها ، ولم تشاهدها « أورورا » ربّة الفجر ساعة يقظتها بصفائرها النديّة ، كما لم يشاهدها هيسپيروس نجم

الليل وهى تأوى ساعة إلى الراحة ، فقد أشعلت بيديها مشعلاً من خشب الصنوبر من بركان « إتنا » وطافت به باحثة بين الظلمات القارصة البرودة ، فلم تكن تحس فارقاً بين شروق الشمس وبين غروبها حتى أضناها جهد السير وأذتها آلام العطش . وقبل أن تعثر على ينبوع تُطفئ بهمياهه هيب ظمئها ، وقع بصرها عَرَضاً على كوخ مسقوف بالقش قرعت بابه المتطامن فخرجت منه امرأة عجوز ، وحين رأت الإلهة وعرفت أنها إنما جاءت طلباً للماء ، أعطتها شراباً عذباً مغشئاً بطبقة من دقيق الشعير المحمص . وحين أخذت سيريس تشرب تقدّم منها صبيّ معروق الوجه صفيق الملامح أخذ يعنفها ويصمها بالشرابة ، فقذفت الإلهة الغاضبة وجهه بما بقى من هذا الشراب وانتثر عليه الشعير المختلط بالسائل ، فامتلاً وجهه بالبقع وحلّت قدماه محل ذراعيه ونما له ذيل وتضائل حجمه وتدهورت قدرته على الإيذاء حتى أضحي أصغر من السحلية حجماً . ودهشت المرأة العجوز وبكت مائة يدها لتلمس هذا المخلوق الجديد الغريب ، فإذا هو يفرّ منها باحثاً عن مكان يختبئ فيه ، وكان يحمل اسم « ستليو »^(٢٣) الدال على لون جسده الذى انثرت به البقع هنا وهناك .

وما أكثر ما جابت الإلهة من بلاد وبحار مما يطول ذكره ، حتى إذا لم يعد هناك مكان لم تبحث به قفلت راجعة إلى صقلية . وقد مرّت خلال جولاتها بالجزيرة بشواطئ بركة كياني ، ولو لم تكن الحورية قد تحلّلت إلى مياه لا استطاعت أن تروى لسيريس تفاصيل ما حدث . وكانت كياني راغبة في الحديث إلا أنها لم تكن تملك فيما ولا لساناً ولا أداة أخرى تتكلم بها ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تُعطى لسيريس إشارة تكشف لها عن أمر ابنتها ، إذ عرضت على سطح مياهها حزام بروسيرينا [بيرسيفوني] الذى كانت تتمنق به والذى سقط منها في البركة المقدسة . وما إن رآته سيريس ، وكانت تعرفه حق المعرفة ، حتى جعلت تمزّق شعر رأسها وكأنها لم تعرف بفقد ابنتها إلا ساعتها فقط ، ومضت تضرب صدرها بيدها . ومع أنها لم تعرف مكان ابنتها على التحديد فقد أنحت باللائمة على بقاع الأرض كافة ووصمتها بنكران الجميل وأنها غير جديرة بنعمة الحصاد التى وهبتها إياها . واختصّت جزيرة صقلية التى وجدت بها آثار فقيدتها بمزيد من اللوم ، وأخذت تحطّم بيديها في قسوة المحاريث التى كانت تقلّب الأرض ، وقضت في غمرة غضبها على الفلاحين والثيران العاملة في الحقول بالهلاك بالطاعون ، وأمرت الحقول بإفساد ما غرس فيها من بذور ، وصارت التربة التى كانت تُباهى بخصوبتها في أنحاء العالم جذبة قاحلة فخيبت الآمال التى وضعها فيها الناس ، وهلكت المحصولات عند ظهور بشائرها فقد كانت تتلفها حرارة الشمس المشتعلة أو يجرفها سيل من الأمطار أو تُبيدها موجات الرياح العاصفة ، على حين كانت الطيور الشرّهة تتربص بالبذور ساعة بذورها ، والأعشاب الضارة والأشواك المستعصية تأتى على المحاصيل .

ومن أعماق البركة برز وجه الحورية « آريثوزا » من إيليس التى هام بها ألفيوس^(٢٤) ، فأزاحت خصلات شعرها المبتلة عن جبينها ، وقالت لسيريس : « يا أم المحاصيل العظيمة ، يا من بحثت عن ابتك العذراء في جميع أرجاء العالم ، هوّن عليك ما بذلت من جهد ، وخفّف من غضبك على الأرض الوفيّة لك ، فليست الأرض هى الملوّمة حين انشقت لتدع المعتدى ينفذ عبرها . لقد فعلت ذلك مكروهة ،

ولست بذلك أدافع عن بلادي ، لأنني وُلدت في « پيزا »^(٢٥) ونشأت في « إيليس » فأنا غريبة عن هذه البلاد . على أنني أحب صقلية أكثر من أي بلد آخر رغم أني لست من أهلها فهي الآن موطنى ، أقمت فيها تحت اسم آريثوزا^(٢٦) فكفكفى غضبك عليها وترفقى بها أيتها الربّة ، وسوف أقص عليك سبب تركى لبلادى وركوب هذا البحر حتى صقلية حين تسنح فرصة ، وبعد أن تكونى قد أخذت قسطاً من راحة البال ونعمت بشيء من البهجة . ويكفى أن أقول لك إن الأرض قد انشقت أمامى فنفذت عبر كهوفها السفلى إلى الأعماق ، ثم عدت ثانية إلى سطح الأرض هنا ورأيت النجوم التى طالما اشتقتها . وبينما كنت انساب فى مستنقعات ستيكس شاهدت ابنتك بروسيرينا بعينى وقد عصفت بها حزن بالغ وارتسمت على وجهها علامات الفزع ، ومع ذلك بدت ملكة حقّة ، لها الهيمنة على عالم الأطياف ومشاركة حاكم العالم السفلى المطلق .

٥٠٠

ووقفت الأم عند سماع هذا الحديث جامدة ، وبقيت على هذا الحال لحظات طويلة وكأنها قد غابت عن رشدها ، ثم سرعان ما أخذت مغالبة الغضب تحلّ محل قسوة الحزن ، وانطلقت بمركبتها عالياً فى عالم الأثير ، وأمام چوبيتر وقفت مقبّبة الجبين منقوشة الشعر وقالت شاكية : « جئتُك يا چوبيتر متوسّلة أن تُعيننى على حماية ابنتك وابنتى ، فإذا لم يكن للأمم سلطان عليك فلا أقلّ من أن تحرّك ابنتك عواطف الأبوة فى قلبك . لا تضنّ إذن بمحبّتك على ابنتك بدعوى أنها ابنتى . لقد عثرتُ أخيراً على ابنتك التى طالما بحثت عنها ، وما أظننى بذلك قد ظفرت بها إلا إذا كان فى معرفة مكانها ظفراً بها . لقد اختطففت وإننى لغافرة لمختطفها ذنبه إذا هو ردّها ، وليس لابنتك أن تتزوج من قاطع طريق ، حتى لو لم تكن ابنتى » . فأجابه چوبيتر « إن ابنتك موضع إعزازى كما هى موضع إعزازك لمنحها معاً حناننا ونهتم معاً بشئوننا . ولو أنك سمّيت الأشياء بأسمائها الحقيقية لما وجدت ثمة عار فى مصاهرته ، ويكفيه أنه شقيق چوبيتر حتى لو لم تكن له ألقاب أخرى ، فأنا لم أتقدم عليه مرتبة إلاّ بالخط وحده . أما إذا كنت ملهوفة على التفريق بينها فمن اليسير على بروسيرينا أن تصعد إلى السماء لو أنها لم تذق بشفتيها أى طعام مما ينطوى عليه ذلك العالم السفلى ، فذلك وحده شرط ربّات الأقدار » .

٥٢٠

أَسْكَالافوس والسيرينات

ولم تحوّل كلمات چوبيتر سيريس عن إصرارها على إنقاذ ابنتها ، غير أن الأقدار لم تسمح بذلك لأن الفتاة كانت قد قطعت صيامها عن حُسن نيّة وهى تتجوّل خلال حدائق العالم السفلى الجميلة التنسيق إذ قطفت رمانة من غصن شجرة دانٍ ، وأخذت منها — بعد نزع قشرتها — سبع حبّات امتصت عصارتها ، وكان الذى رآها تفعل ذلك هو أسكالافوس الذى يقال إن الحورية « أورفنيه » قد أنجبته من زوجها إله النهر أخيون منذ زمن بعيد فى غابات أفيرنوس الكثيفة الظلال ، فأذاع النبأ ساعة رأى بروسيرينا تتناول

٥٤٠

حَبَّاتِ الرِّمَانِ ، فَحَالَ بِفَعْلَتِهِ الْقَاسِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعُودَةِ إِلَى الْأَرْضِ . وَهَنَا أَطْلَقْتَ مَلَكَةَ إِرِيْبُوسَ [الْعَالَمِ السُّفْلَى] زَفْرَةً يَأْتِسُهُ وَمَسَخَتْ الْوَاشِيَّ طَائِراً مَشْتُوماً ، إِذْ نَثَرَتْ عَلَى رَأْسِهِ قَطْرَاتٍ مِنْ مَاءِ نَهْرِ فُلِيْجِيْثُونِ الَّذِي يَجْرِي فِي الْعَالَمِ السُّفْلَى وَأُنْبِتَتْ لَهُ مَنَقَاراً وَرِيشاً وَعَيْنَيْنِ وَاسْعَتَيْنِ ، فَفَقَدَ شَكْلَهُ الْآدَمِيَّ وَاكْتَسَى بِجَنَاحَيْنِ سَمْرَاوِينَ ، وَعَظْمٌ حَجْمَ رَأْسِهِ ، وَطَالَتْ أَظْفَارُهُ وَتَحَوَّلَتْ مَخَالِبُ مَعْقُوفَةٍ ، وَبَدَأَ يَجْهَدُ كَيْ يَحْرِكَ الرِّيشَ الَّذِي نَبَتَ عَلَى ذِرَاعَيْهِ الْمَتْرَاحِيَتَيْنِ . لَقَدْ صَارَ طَيْراً تُثِيرُ رُؤْيَتُهُ النُّفُورَ وَتَنْذِرُ بِوُقُوعِ الْكَوَارِثِ هُوَ طَيْرُ الْيَوْمِ الْكَسُولِ نَذِيرُ الشُّؤْمِ عِنْدَ الْبَشَرِ .

وَلَقَدْ بَدَأَ عِقَابُ أَسْكَالَافُوسَ جِزَاءً وَفَاقاً لَوْشَايَتِهِ ، وَلَكِنْ مَاذَا حَدَثَ حَتَّى اكْتَسَتْ أَجْسَادُ بَنَاتِ أَخِيلُوُوسَ بِالرِّيشِ وَبَرَزَتْ لَهْنُ مَخَالِبِ كَالطَّيُورِ بَيْنَمَا احْتَفَظْنَ بِوُجُوْهِنَ الْبَشَرِيَّةِ ؟ أَكَانَ ذَلِكَ لَغَنَائِكُنَّ الرِّخِيمِ فِي رَفَقَةِ پَرُوسِيْرِيْنَا حِينَمَا كَانَتْ تَقْطِفُ أَزْهَارَ الرَّبِيعِ أَيْتَهَا السَّيْرِيْنَاتُ الْحَكِيْمَاتُ ؟ فَلِمَا بَحَثْنِ عَنْهَا فِي رُبُوعِ الْأَرْضِ سُدَى تَوَسَّلْتُنَّ إِلَى الْإِلَهِ أَنْ تَزُوْدَكُنَّ بِأَجْنَحَةٍ تَخْفِقُ بِهَا فَوْقَ الْبَحَارِ حَتَّى تُشْهَدَنَهَا عَلَى لَهْفَتِكُنَّ ٥٦٠ عَلَيْهَا . وَاسْتَجَابَتْ الْإِلَهِ لَتَوَسَّلِكُنَّ ، وَفَجْأَةً وَجَدْتُنَّ أَطْرَافَكُنَّ تَكْتَسِي بِالرِّيشِ الذَّهَبِيِّ ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ أَغَانِيكُنَّ الْمُرْتَمَّةُ تُطْرِبُ الْأَذَانَ ، وَبَقِيَتْ فِي أَفْوَاحِكُنَّ الْأَلْسَنَةُ الْبَشَرِيَّةُ بِقُدْرَتِهَا عَلَى الْغَنَاءِ ، فَاحْتَفَظْتُنَّ بِوُجُوْهِ الْعِذَارَى وَبَصُوتِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

وَمَعَ ذَلِكَ تَدَخَّلَ چُوبِيْتَرُ لِيَحْكُمَ بَيْنَ أَخِيهِ وَشَقِيْقَتِهِ الْحَزِيْنَةِ ، وَقَسَمَ الْعَامَ إِلَى قَسْمَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ حَتَّى تَسْتَطِيعَ الْإِلَهِ الَّتِي بَسَطَتْ نَفُوذَهَا عَلَى عَالَمَيْنِ ، أَنْ تَمْضِيَ مَعَ أُمِّهَا مِنَ الْعَامِ ذَلِكَ الْعَدَدُ مِنَ الشُّهُورِ الَّذِي تَقْضِيهِ مَعَ زَوْجِهَا . وَمَا أَسْرَعَ مَا تَبَدَّلَ وَجْهَ سَيْرِيسَ وَمَزَاجِهَا ، وَأَشْرَقَ جِيْنُ الْإِلَهِ الَّذِي كَانَ مَعْتَمِماً فِي عَيْنِي پَلُوتُو نَفْسَهُ وَتَأَلَّقَتْ الْفَرَحَةُ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ الشَّمْسُ الَّتِي حَجَبَتْهَا السَّحَابُ الْحَبْلِيُّ بِمِاءِ الْأَمْطَارِ حِينَمَا تَخْرُجُ مُنْتَصِرَةً مِنْ بَيْنِ الْغَيُومِ .

آرِيْثُوْزَا وَتَرِيْطِيْثُولِيْمُوسَ

وَبَعْدَ أَنْ اسْتَعَادَتْ سَيْرِيسُ الْحَنُونَ مَرَحَهَا بِعُودَةِ ابْنَتِهَا عَادَتْ فَسَأَلَتْ عَنْ سَبَبِ هُرُوبِ آرِيْثُوْزَا وَتَحَوَّلَهَا إِلَى يَنْبُوعٍ مُقَدَّسٍ ، فَهَدَّاتُ مِاءَ الْيَنْبُوعِ عِنْدَمَا أَخْرَجَتْ الْحُورِيَّةُ رَأْسَهَا مِنْهُ ، ثُمَّ جَفَقَتْ شَعْرَهَا الْأَخْضَرَ بِيَدِهَا وَأَخَذَتْ تَرَوِيْ قِصَّةَ الشُّوْقِ الْقَدِيمِ لِنَهْرِ إِقْلِيمِ إِيْلِيْسَ قَائِلَةً :

كُنْتُ إِحْدَى الْحُورِيَّاتِ السَّاكِنَاتِ فِي « آخَايَا » ، وَلَمْ تَكُنْ بَيْنَهُنَّ مَنْ تَفُوقُنِيْ هِيَاماً بِالتَّجَوُّالِ فِي الْغَابَاتِ وَنَصَبَ شِبَاكِ الصَّيْدِ . وَمَعَ التَّفَاقِ لِلْعَمَلِ وَقَعُودِيْ عَنِ الْبَحْثِ وَرَاءَ الشَّهْرَةِ بِالْجَمَالِ إِلَّا أَنَّنِيْ كُنْتُ أُنَادِي فِي كُلِّ مَكَانٍ بِآرِيْثُوْزَا الْجَمِيْلَةِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَسْعِدُ بِالْمَدِيْحِ الَّذِي كَانَ يُكَالُ لِقَسَمَاتِ وَجْهِهِ عَنْ طَيْبِ خَاطِرٍ ، ٥٨٠

وكننت أخجل من ذكر مفاتن الجسد التى كانت الفتيات الأخريات يفخرن بها ، بل كنت أعتقد أن من الجرم محاولة تحريك إعجاب الرجال .

وكننت ذات يوم عائدة من غابة « ستيمفالوس »^(٢٧) مُرهقة وسط قيظ ضاعف من وطأة الإجهاد الذى نال منى ، فأويت إلى جدول هادىء كدتُ لصفاء مياهه أن أعدّ حبات الحصى التى بقاعه ، فمياهه تجرى بطيئة حتى يَخِيلُ إليك أنها ساكنة ، وتظلُّ صفافه المنحدرة أشجار الصفصاف الفضية وأشجار الحور التى ترتوى من مياهه . واقتربت من الجدول وغمست قدمى فى مجراه ثم ساقى حتى ركبتى ، ولم أقنع بذلك بل خلعت ثيابى وعلقتها على شجرة صفصاف متطامنة وألقيت بجسدى العارى فى الماء ، وبينما كنت أسبح فى دائرة محكمة أضرب الماء بساعدى حيناً وأدور حيناً آخر أحسستُ بزجاجة وسط البركة ألقت الرعب فى نفسى فقفزت إلى أقرب مكان على الشاطئ ، وعندئذ صاح ألفيوس : « إلى أين تُسرعين بالهرب يا أريثوزا ؟ » ثم كرّر القول بصوت أجش « إلى أين تهرين بسرعة هكذا ؟ » . وقد اضطرتت إلى الفرار عارية ، إذ كانت ثيابى معلقة على الضفة الأخرى ، فزاد لهيب شوقه إلى خلال مطاردته لى ، وقد ضاعف عُرى من إغرائه فأصرَّ على اغتصابى ، وكننت أعدو فيُسرع فى العُدو ورائى وكأنى حمامة تنطلق مرتجفة بين يدى صقر يقترب منها رويداً رويداً .

٦٠٠

وعدوتُ تحت أسوار « أورخومينوس »^(٢٨) وبجوار مدينة « بسوفيس »^(٢٩) حتى بلغت جبل « سيلينى » ثم مراعى جبل « مينالوس » وجبل « إريمانثوس » الندى ومدينة « إيليس »^(٣٠) ، واستمر بطاردنى دون أن تقلَّ سرعتى عن سرعته ، غير أننى بدأت بعد فترة أفقد قدرى على الاحتفاظ بسرعتى دون أن يفقد هو قدرته ، ومع ذلك ظللتُ أعدو على سفوح الجبال وفى بسيط الوادى وفوق الصخور والأحجار حيث لا طريق مُعَبَّد . وكانت الشمس ورائى فرأيت ظلاً طويلاً بتد أمام قدمى ، فحسبتُ الخوف هو الذى صوّر لى ذلك ، غير أنه كان من المؤكد أن وقع أقدامه كان يخيفنى . وقد كان يلهث بشدة جعلت أنفاسه تحرك خصلات شعرى ، حتى إذا حلَّ بى التعب من جهد العُدو ناديتُ صائحة « أدركنى بعونك يا « ديانا » فقد أحيط بى ، أنفذى حارسه أسلحتك التى عهدت إليها المرة تلو المرة بحمل قوسك وسهامك داخل جعبتك التى قد شدَّ وثاقها » . وبلغت كلمتى قلب الربة فسأقت غمامة كثيفة ألقت بها على ، وإذ غطتني الغمامة توقّف النهر حائراً لا يدرى أين اختفيت ، وصاح بى مناديا : « أريثوزا أين أنت يا أريثوزا » وكرّر نداءه لى ولكن هيهات ! يا للهزة التى اعترتني ساعتها . لقد كنت كالحمل يسمع عواء الذئاب المحيطة بحظيرته ، أو كالأرنب البرى المختبئ بين الأشواك يرقب أنياب خصومه من الكلاب دون أن يجسر على الحركة . ولم ينسحب ألفيوس من مكانه لأنه لم ير آثار أقدام تتجاوز هذا المكان ، وظل يرقب البقعة التى تغطيها الغمامة . وانبثق العرق البارد يغطى أطرافى ويكسو جسدى كله بقطرات لازوردية ، وحيثما كنت أحرك قدمى كانت تنفجر من تحتها مياه ينبوع ، وتقاطر الندى من شعرى ، وتحوّلت فى أقصر من هذا الوقت الذى أقص فيه قصتى إلى ينبوع . غير أن النهر تعرّف من هذه المياه على أسرة قلبه فنزع عنه صورته البشرية التى كان قد تخفّى فيها واستعاد صورته السائلة لكى يمزج مياهه بمياهى ، غير أن عذراء

٦٢٠

ديلوس [ديانا] شقت الأرض من تحتى فألقيت بنفسى بين كهوفها المظلمة حتى وصلت إلى ٦٤٠ «أورتيجيا»^(٣١)، تلك البلاد العزيزة على لأنها تحمل اسم الربّة التي استطاعت قبل غيرها أن ترفعنى من باطن الأرض إلى سطحها تحت قبة السماء.

وبعد أن انتهت «أريثوزا» من قصتها، شدّت ربة الخصوبة تينين إلى مركبتها وثبتت شكيمه العنان في خطميها، واندفعت إلى الفضاء بين السماء والأرض قاصدة مدينة «باللاس» حيث عهدت بمركبتها إلى تريبتوليموس، وأسلمته بذوراً أمرته أن ينثر بعضها في الأرض البكر التي لم تُفْلَح من قبل قط، وأن ينثر الباقي في الأراضي البور، فحلّق الصبى عالياً فوق أوروبا وبلاد آسيا، ثم اتجه صوب مملكة سكوثيا حيث كان يرتقى عرشها الملك «لينكوس». وحين دخل القصر الملكي سأله عن اسمه وبلده وعن مجيئه وسببه، فأجاب قائلاً: «اسمى تريبتوليموس وموطنى «أثينا» ولم أجيء بالبحر ولا بالبرّ فها سرت على قدمي ولا صعدتُ سطح سفينة، وإنما كانت السماء طريقي. لقد جئتُ حاملاً معي هدايا سيريس التي ما تكاد تنثر فوق الحقول الشاسعة حتى تُثمر حصاداً وثيراً وغذاء شهياً». وسرعان ما أكلت الغيرة قلب ذلك الملك. اللهمجي الذي كان يأمل أن يُنسب له منح البشرية هذه الهبة، واستضاف الصبى تريبتوليموس حتى إذا أخذ يغط في النوم هاجمه بسيفه، غير أنه لم يكد يُقدم على تمزيق صدر الصبى حتى مسخت سيريس هذا السفّاح فهدأ جاحظ العينين^(٣٢)، ثم أمرت الصبى الأثيني أن يعتل مركبته المقدسة ويمضى في رحلته عبر الأجواء.

٦٦٠

بهذه الكلمات ختمت «كاليوبي» أكبر ربّات الفنون من بيننا سنّا أنشودتها التي فرغت الآن من إلقائها عليكن، وأعلنت الحوريات مجتمعات فوز ربّات هليكون، فأخذت غريماتنا المنهزمت يقذفننا بالسّباب، فقالت هن كاليوبي: «إذ كنتن لم تقنعن بهزيمتكن التي كانت ثمرة تطاولكن، وأخذتن تُضيفن إلى خطئكن الاعتداء علينا بالسّباب، وإذا كان صبرنا ذا حدود، فسوف نُنزل بكن عقاباً نُطلق فيه العنان لغضبنا عليكن». فضحكت النساء المقدونيات ساخرات بهذا الوعيد والتهديد، غير أنهن ما لبسن أن شاهدن الريش يبرز من أظافرهن ويغطي أذرعتهم ومازلن يثرثن ويسخرن، ونظر بعضهن إلى بعض وبقين يرقبن وجوههن وهي تتقلّص إلى مناقير صلبة، وبمسخرهن نشأت فصيلة جديدة أضيفت إلى طيور الغابات. وعندما حاولن ضرب صدورهن إذا حركة أيديهن ترفعهن إلى السماء محلّقات في الهواء. لقد تحوّلن إلى طيور العقق ناشري المخازي وأحاديث الإفك في الغابات، ومازلن بعد تحوّلهن إلى طيور محتفظات بقدرتهن على الكلام، فما برحن يثرثن دون أن تشبع رغبتهن الصاخبة في الكلام.

التعقيبات

- (١) فينيوس هو شقيق كيفيوس وابن بيلوس [انظر الكتاب الثالث] . وهو غير فينيوس الذي حرره أهل أرجوس من طيور الهاريس (انظر الكتاب السابع) .
- (٢) كان آمون يعبد على شكل كبش ، وعندما وُحِد الإغريق بينه وبين « زيوس آمون » صوّره دائماً بقرن كبش .
- (٣) القفاز هو « الكايستوس » المكون من عدة سيور جلدية تنفذ منها مسامير برونزية يلفها المصارعون والمجادلون والملاكمون حول قبضاتهم . وكانت مباريات الكايستوس من أخطر الألعاب اليونانية وأهمها . ولا يعد أحد المصارعين فائزاً إلا إذا قضى على حياة خصمه . وثمة وصف لهذه المباراة في إلياذة هوميروس (٢٣ : ٦٥١ وما بعده) وفي إنياذة فرجيل بالكتاب الخامس (٤٢٦ وما بعده) .
- (٤) نهر سينيس هو نهر صغير في طرابلس ببرقة إلى جوار مدينة لبيتس ماجنا [لبدة الحالية] .
- (٥) فزان الحالية .
- (٦) أطلق اسم « منديس » على الجدى الذى يصور فى النقوش عادة على هيئة كبش يشبه آمون . وحين جاء هيرودوتوس إلى مصر ظنه الإله بان واكتشف عبادة هامة له بمدينة منديس بشمالى مصر . وأصبحت منديس خلال العصر البطلمى من أهم مدن القطر ، فقد لقب بطليموس الثانى نفسه بأنه ابن الجدى الحى العظيم الذى يسكن منديس ، سُمِّى وصفت الملكة أرسينوى الثانية بأنها عشيقه الجدى الحى العظيم ، الأمر الذى أدى إلى تأليهها . وقد عثر على نصب تذكارى تنص نقوشه على أن مقاطعة منديس كانت دون غيرها من المقاطعات معفاة من الضرائب ، بل لقد خصص كل دخلها لعبادة الإله الجدى .
- (٧) خاوونيا فى شمال اليونان [إبيروس الآن] .
- (٨) الأناط قوم من العرب قطنوا قديماً جنوب فلسطين فى إقليم كانت عاصمته البزاء . وما أكثر ما استخدم الشعراء اللاتين هذا الاسم كناية عن الشعوب الشرقية .
- (٩) انظر الكتاب الرابع : كان پوليديكتيس قد وقع فى غرام داناي وحاول أن يتخلص من ابنها پيرسيوس بأن فرض عليه إثبات أفعال مستعصية منها قطع رأس الجورجونة . وسيريفوس جزيرة من جزر السيكلاديس = الكيكلايس [جزر الأرخيل] غرب جزيرة پاروس .
- (١٠) بيللا مدينة فى مقدونية وأصبحت عاصمة لها فى عهد الملك فيليب الثانى ، وبايونيا منطقة جبلية شمالى مقدونيا .
- (١١) ثيسپاي مدينة جنوب غرب طيبة فى بويوتيا بها معبد مقدس لربات الفنون باقى إلى اليوم .
- (١٢) يخلط أوفيد عمداً بين الآلهة الإغريق والآلهة المصرية ، فالمعلاق تيفيوس [تيفون] هو الروح الشريرة عند قدماء المصريين [سيث خصم أوزيريس] ، وزيوس هو آمون الإله الكبش ، وديونيسوس الإله الذى كرس له التيس هو منديس الإله الجدى ، وأرميس هى باستت الإلهة القطرة ، وهيرا هى إيزيس ذات قرون البقر ، وهرمس هو تحوت الإله على شكل أبيس . وكان الغراب طير أبوللو ، وكانت أفروديتي تشبه عشتاروت الآشورية .

- (١٣) كاليوبى هى ربة الشعر الملحمى وفنون الخطابة .
- (١٤) اسم لإيطاليا عند الرومان مشتق من أوزون بن أوديسيوس .
- (١٥) بيلوروس وباخينوس وليليبايوم هى الرؤوس الثلاثة البارزة من جزيرة صقلية ، يقع أولها فى الشرق وثانيها فى الجنوب وثالثها فى الغرب .
- (١٦) قيل إن أينياس كان قد شيد لأمه فينوس معبداً بمنطقة إريكس غرب صقلية [وإريكس اسم مدينة وجبل فى آن واحد] .
- (١٧) بيرسيفونى هى ابنة زيوس شقيق ملك العالم السفلى .
- (١٨) مدينة « هينا » فى وسط صقلية وتدعى الآن « إنا » ، ويقال إن اختطاف هاديس لپروسيرينا قد وقع بها .
- (١٩) كان نهر الكايستر فى ليديا بأسيا الصغرى مشهوراً ببجعاته .
- (٢٠) الهاليكى هما ابنا توامان لجوبيتر من الحورية ثاليا كانا يعبدان كبطلين فى صقلية . أما برك الهاليكى الكبريتية فكانت بين قطانيا وسراقوسة شرقى صقلية .
- (٢١) سمى الباكخادى على اسم باكخيس ، وكان فى الزمن الغابر ملكاً على كورنث ، وقد هجرت هذه السلالة كورنثة إلى كل من صقلية حيث شيدوا سراقوسة ، وإليريا حيث أسسوا أسرتها المالكة .
- (٢٢) أنابيس اسم نهر صغير فى صقلية جنوبى سراقوسة .
- (٢٣) ستليو هو نوع من السحالي : والنص غير واضح إذ أن الصفة المستخدمة بدلاً من الاسم تدل على أن البقع قد انتشرت فوق جسده وهو وصف دقيق للسحلية المدعوة ستليو ، وإن لم يذكر أوفيد اسم السحلية صراحة فى النص .
- (٢٤) ألفيوس هو نهر مشهور فى المورة يسرى جزء منه فى قاع الأرض .
- (٢٥) پيزا بلدة فى إيليس قريبة من نهر ألفيوس ومدينة أوليمبيا حيث كانت تقام الألعاب الأولمبية .
- (٢٦) عندما وقع نهر ألفيوس فى غرام قناة أريثوزا فرت منه وسرت تحت الأرض فى المورة بل تحت قاع البحر حتى انبثقت من جديد فى صقلية .
- (٢٧) ستيمفالوس اسم مدينة ونهر وبحيرة فى أركاديا اشتهرت بالطيور الجارحة ذات الريش الحديدى التى قضى عليها هرقل ضمن أعماله الخارقة .
- (٢٨) أورخومينوس مدينة فى أركاديا غير مدينة فى بويوتيا شهيرة بنفس الاسم .
- (٢٩) مدينة تحت سفح جبل إيريمانثوس على حدود أركاديا .
- (٣٠) سيلينى ومينالوس وإريمانثوس جبال ثلاث فى شمال وجنوب وغرب أركاديا على التوالى ، وكانت إيليس أشهر مدن مقاطعة إيليس على ضفاف نهر پينيوس بالمورة بعد تدمير مدينة پيزا التى كانت أهم مدينة فى إيليس .
- (٣١) كلمة تعنى جزيرة السماء ، وهى أحد أسماء جزيرة ديلوس التى ولدت بها « ديانا » .
- (٣٢) نوع من فصيلة النمر أصغر حجماً وأجحف عينا يسمى أيضاً الوشق .



بيكاسو: بالاس وأراخنى

الكتاب السادس بالاس وأراخنى

استمعت منيرفا إلى هذه القصة مهللة لنشيد ربّات الفنون مُشيّدة بانتقامهن العادل ، ثم ناجت نفسها : « علينا ألا نقنع بإطرائنا للآخرين ، ولكن نحن كذلك جديرين بإطراء الآخرين ، وألا نترك أحداً ينال من ألوهيتنا دون أن نُوقع به ما يستحقّه من عقاب » ، وذكرت وهى تناجى نفسها مصير

أراخنى ، تلك الفتاة الليدية التى تدعى أنها لا تقل مهارة فى الغزل عنها . ولم تكن أراخنى عريقة الأصل غير أن مهارتها أكسبتها شهرة واسعة ، وكان أبوها إيدمون مواطناً من كولوفون يحترف صباغة الصوف التى كانت تعتمد على أرجوان الرُخويات البحرية من فوكيا^(١) . كما كانت أمها التى قضت نحبها من أصل لا يختلف كثيراً عن أصل زوجها ضعة . ومع ذلك فقد نالت ابنتها - التى وُلدت فى كوخ بسيط بقرية من قرى هيبايا الصغيرة - شهرة طافت بأنحاء ليديا بفضل مهارتها فى حرفتها ، حتى أن حوريات الغابات كن يتركن مكاثرن الأثير وسط كروم تيمولوس^(٢) ليشهدن أعمالها معجبات بها . كما كانت حوريات الماء يتركن نهر باكتولوس^(٣) ليستمتعن بمشاهدة نسجياتها ، كما كن يتابعنها وهى تنسج ، فقد كانت شديدة البراعة فى إعداد خيوط الغزل بفتلها بأصابعها وتخليصها من العهن المنفوش وتشكيلها خيوطاً تلتف على المغزل الرفيع وهى تديره بإبهامها فى حذق ، وكذا كانت فائقة المهارة فى تطريز النسجيات . ٢٠

وكان من المعروف أن الفتاة لقنت حرفتها على يدى الإلهة باللاس ، غير أنها كانت تنكر ذلك ، كما كان يغضبها أن يقال إنها لقنت حرفتها عن معلّمة ما مهما كانت مكانتها ، وتتحدى الناس قائلة : « فلتأت باللاس ولتبارينى ، فإن هى فازت علىّ كان لها أن تفعل بى ما تشاء » .

وتنكرت باللاس فى صورة عجوز وخط الشيب خصلاتها المستعارة المدلاة على صدغها ، وتوكت على عصا ومشت فى خطوات متناقلة ، ثم بادرت أراخنى قائلة : « ليست الشيخوخة هى تلك الأعباء التى تضيق بها ، بل هى خبرة طويلة أفدناها على مرّ السنين ، وإنى أهيب بك أن تستمعى إلى نصيحتى : احرصى ما شئت أن يقال لك إنك أكثر البشر مهارة فى غزل الصوف ، ولكن احذرى أن تعدّى طورك فتقرنى نفسك فى هذا الصدد بإلهة من الإلهات ، بل عليك أن تتوسلى إليها لتغفر لك تطاولك عليها ، ولسوف تصفح عنك حين تطلبين إليها ذلك » . وطرحت أراخنى النسجية التى كانت فى يدها ، وحدثت المرأة العجوز بنظرة غاضبة وهى مقطّبة الجبين وأجابت ناثرة دون أن تعرف أنها الإلهة : « أراك قد بلغت من العمر أرذله ، وهذا ما يعيبك . لقد أوهنتك الشيخوخة وأضعفت مداركك ، فإن كانت لك بنات أو زوجات أبناء فادخرى لهن نصائحك لأنى قادرة وحدى على رعاية مصالحى ، ولا تخالى أن تحذيراتك سوف يكون لها أثر فى نفسى فإننى مازلت عند رأى ، لماذا لا تأتينى باللاس نفسها فتطاولنى ، ولماذا تتهرّب من مباراق ؟ » وحينئذ صاحبت الإلهة بعد أن خلعت عن نفسها صورة المرأة العجوز وتبدّت فى صورتها الإلهية : « ها هى ذى الإلهة قد أتت » ، فركعت الحوريات ونساء ميجدونيا إجلالاً للإلهة وقد ملكهن الروع إلا أراخنى التى ظلت فى مكانها لم تركع ، وإن كانت قد احمرت وجنتها فجأة غير أنها ما لبثت أن انقشعت عنها تلك الحمرة ، كما يفعل الفجر عند بزوغه بالأجواء إذ يكسوها احمراراً لا يلبث أن يزائلها فتصبح مع نور الشروق ناصعة البياض . وقد صمدت أراخنى متطلّعة إلى الفوز الذى صوّرت لها رعونتها أنها ظافرة به ، ولم تضيف ابنة جويتر تحذيراً بل قبلت التحدى غير مُرجئة البدء فى المباراة ، وأخذت كل منهما ، هى وأراخنى ، مكانها فى أحد أركان الغرفة ، وبسطت كل منهما السدى فى النول بعد أن أسندت إطاره إلى عوارض السقف ، ثم فصلت الخيوط المشدودة إلى صفّين بالدرق الخاص بتحريك السدى ، ٤٠

وأخذتا تقذفان الوشيجة [المكوك المدبب] بأنامل سريعة سرعة الطير المحلق في الهواء وتنسجان به خيوط اللّحمة عبر خيوط السّدى ، وكلما امتد خيط عرضي اندفع المشط بأسنانه العديدة ليثبتته مكانه . وكانتا قد جمعتا ثيابهما بمنطقة فوق خصرهما ، بينما تُخفى حركة أيديهما العجلى الإرهاق الذى تشعران به من فرط جهدهما المبذول فى سبيل الفوز ، واستخدمتا خيوطاً مصبوغة فى دنان « صُور » البرونزية باللون الأرجواني وبألوان أكثر قتامة يَتميّز الواحد عن الآخر بظلال شاحبة ، كألوان قوس قزح التى تنعكس فى قبة السماء بعد هطول الأمطار والتى تتقارب ظلالها لتشكّل أخيراً ذلك التنوّع من الألوان الزاهية ، وتنتقل العين من أحدها إلى الآخر دون أن تميّز الفاصل بين كل لونين لتمام تشابهها عند هذه الفواصل ، ومع ذلك فهى مختلفة متمايزة عند أطرافها . وقد أضفنا إلى النسيج خيوط القصب وأخذتا فى رسم الأساطير على نسجتيهما .

ورسمت باللاس فى نسجيتها صخرة مارس تعلو قلعة كيكرويس بأثينا والمباراة التى جرت قديماً لإطلاق اسم أثينا أو نبتون على هذه المدينة^(٤) . وأجلست الآلهة الإثني عشر فى جلال وشموخ فوق عروشهم العالية يتوسطهم چوپيتر تحفّه مهابة الملوك ، بينما يتميز كل منهم بخصائصه ورموزه . وأظهرت باللاس ربّ البحار نبتون واقفاً وقد شقّ جلاميد الصخر بحرته الطويلة ذات الشّعَب الثلاثة ، فانبثق الجواد الوحشى من بين الصخر آية استحقاقه تسمية المدينة باسمه . كذلك صوّرت باللاس نفسها فى النسجية مُمسكة بترسها ، حاملة رمحها الحاد واضعة خوذتها على رأسها ، مغطية صدرها بزردتها ، مثبتة شجرة زيتون شاحبة الأوراق حيث ضربت الأرض برمحها أمام الآلهة المأخوذين بتلك المعجزة وهم يحملون معجبين ، كما صوّرت « ربة النصر » مكلّلة بها نسجيتها^(٥) .

وقد شاءت الإلهة إثارة الندم فى صدر منافستها على جسارتها الطائشة ، والإيحاء إليها بما ينتظرها من عقاب ، فأضافت إلى النسجية صور مبارات أربع أخرى ، جعلت كل واحدة منها فى ركن من أركان النسجية ، وجعلتها تميّز بألوان صارخة مع تصغير شخصوها : فصوّرت فى الركن الأول مباراة هايموس ورودوبى من طراقيا ، وكانا من البشر وتسمّيا باسمى كبيرى الآلهة فتحولا إلى جبلين^(٦) . وفى ركن ثان صوّرت المصير النعس الذى لاقته ملكة الأقزام^(٧) حين تحدّثت الآلهة چونو فأدبته وحولتها إلى طائر كركى وحكمت عليها أن تعلن الحرب على قومها^(٨) . وفى الركن الثالث صوّرت باللاس أنتيجونى^(٩) التى جرّوت على منافسة شريكة عرش چوپيتر العظيم فحولتها چونو إلى طائر دون أن يستطيع ردّ هذا القضاء عنها والدها لاووميدون ولا مدينتها طروادة ، وقد أنبت لها الإلهة جناحين فى ظهرها ناصعى البياض فأضحت طائر لقلق تققع بشقى منقارها زهواً . وفى الزاوية الأخيرة طرّزت باللاس صورة سنيراس^(١٠) بعد فقدته بناته محتضناً درجات سلّم المعبّد التى كانت فى الماضى أعضاء أجساد بناته ، وهويكى جائماً فوق الأحجار . وزيّنت باللاس حواف النسجية بأغصان الزيتون المجدولة رمز السلام ، وكانت خاتمة عملها تصوير شجرة الزيتون المرتبطة باسمها .

أما أراخنى فقد صوّرت فى نسجيتها أوروبا حين خدعها چوپيتر متخفياً فى هيئة ثور ، وجعلت الحياة تنبض فى الثور والأمواج حتى ليحسبها الرائي أمواجاً حقيقية ، بينما استدارت أوروبا إلى الوراء نحو

الشاطئ الذى خلّفته وهى تصيح برفيقاتها وترفع قدميها فى براءة خوفاً من أن يبللها الماء المتدفق . كذلك صوّرت فى النسجية أستيرييه^(١١) وقد قبض عليها النسر بمخالبه وأخذ مقاومتها ، كما صوّرت ليدا مضطجعة تحت جناحى طائر البجع ، وأضافت صورة أخرى لجوبيتر متخفياً فى هيئة ساتير ليُخصب أنتيوى الأميرة الجميلة ابنة نيكتيوس توأمين اثنين ، ثم متكرراً فى ملامح أمفيتريون ليحتضنك يا ملكة تيرينت ، ومتشكلاً فى شؤبوب قطرات الذهب ليغرى داناي ، وفى صورة السنة لب من أجل ابنة أسوبوس ، وفى شكل راع من أجل منيموزينييه ، وفى ثوب حية رقطاع من أجل بروسيريينا ابنة سيريس ، كما صوّرتك أنت كذلك يا نبتون وقد تحفّيت فى هيئة ثور مفترس تمتطى إبنة أيولوس العذراء ، ثم وأنت فى صورة إينيبيوس تضاجع زوجة أليوس وتولّدها توأمين ، وكذا وأنت تحدع إبنة بيزالتييس فى صورة كبش ، ثم وأنت فى صورة جواد تحنو على ربة الحصاد الخيرة ذات الشعر الذهبى ، وأخيراً وأنت على هيئة درفيل تضاجع ميلانثو ، ثم فى هيئة طائر ثلث معتلياً الأميرة ذات الشعر الثعبانى أم الجواد المجنح . وكما صوّرت الشخصيات بدقة كذلك صوّرت الأماكن تتفق والأحداث ، حيث نرى فويوس فى ثياب فلاح ثم فى ريش صقر تارة وفى جلد أسد تارة أخرى ، وفى هيئة راع يغازل إيسيه ابنة مكاريوس^(١٢) ، كما نرى باكخوس يغتصب إريجيونى خادعاً إياها فى صورة عنقود من العنب ، ثم ساتورنوس [كرونوس] بعد أن تحوّل إلى جواد لينجب خيرون ذا الطبيعة المزدوجة^(١٣) . وقد طرزت أراخنى حوافى النسجية بزهور متشابكة مع أغصان لبلاب رخو .

لم تستطع باللاس ولا ربة الحسد أن تكتشفا عيياً فى نسجية أراخنى فتملّك الإلهة العذراء الشقراء غضب عارم لتفوق منافستها ، فمزّقت النسجية التى تسجل نزوات الأرباب الآثمة ، ثم أمسكت بالوشيجة المصنوعة من خشب أشجار جبل كيتوروس^(١٤) وهوت بها مرات ثلاث على جبهة أراخنى إبنة إيدمون وأتبعها بضربة رابعة . وضاق صدر أراخنى بهذا الفعل المهين فلفّت فى عنف حول عنقها حبلاً شنت به نفسها ، ورأتها باللاس معلقة من عنقها فأشفقت عليها وقالت لها : فلتدومى حيّة ، ولكن معلقة فى الهواء إلى الأبد ، ولا تعقدى علّ أملأ بعدُ ، إذ سيكون هذا مصير أبنائك وأحفادك من بعدك . ثم أخذت فى الابتعاد بعد أن نثرت على أراخنى عصارة عشب مقدس لهيكاتى ، وما كادت عصارة هذا العشب السام تلمسها حتى تساقط شعرها وضمر أنفها وأذناها ورأسها وبقيّة أطرافها وبرزت فى جنبها أصابع دقيقة بدلاً من سيقانها ، ولم يبق منها إلّا بطنها ينساب منها الخيط . وها هى ذى تصل نسيجها كما كانت تفعل من قبل ، وإذا هى تصبح عنكبوتاً .

نسيوي

أثار أهل ليديا نبأ هذا الحادث وأفزعهم ، ولم تلبث هذه المأساة أن بلغت أسماع الناس فى أنحاء فريجيا ، وانتشرت حتى غدت حديث العالم كله .

وكانت نيوى تعرف أراخنى منذ زمن طويل وتعيش قبل زواجها فى ميونيا على جبل سيبيلوس^(١٥) ، غير أنها لم تتعظ بما حاق بأراخنى التى لم تكن تقدّس الإلهة حقّ التقديس . وقد جعلت هى الأخرى تتناول على الآلهة ، وكانت تملك الكثير من أسباب الغرور ، غير أنها لم تكن تفخر بمواهب زوجها ولا نبيل محتده ومحتدها ولا بقوة مملكتها وعظمتها بل كان تباهيها بكثرة أبنائها ، ولولا جهرها بأنها أسعد الأمهات ما شاع عنها ذلك . وذات يوم اندفعت إلى الطرقات ماننو ابنة تيريزياس التى كانت تتنبأ بالمستقبل يحدوها إلهام إلهى ، وأخذت تصيح : « يا نساء طيبة ، يا قاطنات شط نهر إيزمينوس ، توجن رءوسكن بالأكاليل ، ١٦٠ وتجمعن حول المحارب ، وقدمن القرايين وأحرقن البخور ، وتضرعن للربة لاتو وولديها الاثنين ، ذلك أمر إلهى أجرى على لسانى » . وخرجت نساء طيبة متوجات الرأس إلى المحارب المقدسة يقدمن القرايين ، ويحرقن البخور ، ويتضرعن للربة لاتو .

وأقبلت نيوى فى رهط من وصيفاتها ، مرتدية ثوبها الفريجى المنسوج من خيوط القصب الذى اجتذبت به كل الأنظار . وكانت وهى فى ثيابها الفاخرة رائعة الفتنة لولا مسحة من الغضب تشوب جمالها ، تلقى برأسها إلى وراء ، وتسندل خصلات شعرها طليقة على كتفيها ، ووقفت متصبية القامة تلقى بنظرة مترعة كبرياء وغضباً ، ثم صاحت : « ما هذا النزق ! ما لكنّ والآلهة من السماء — سمعتن عنها ولم تشهدنها — تقدمن لها كل هذا التكريم الذى يفوق ما تقدمنه لمن ترونها بعيونكن . كيف تضرعن للربة لاتو أمام المحارب التى أقمتها تكريماً لها ، وأنتن لم تحرقن حتى اليوم بخوراً لتكريم ألوهيتى ؟ إن أبى تانتالوس هو وحده من بين البشر الذى أذن له بالجلوس على مائدة الآلهة ، وأمى شقيقة الهلياديس ، وجدّى هو أطلس الجبار الذى يحمل قبة السماء على كتفيه ، وجدّى الآخر هو چوپيتر الذى هو أيضاً والد زوجى . ثم إن شعوب فريجيا تدين لى بالولاء ، وأنا أحكم مع زوجى أمفيون المدينة التى تجمعت أجزاء أسوارها بسحر أنغام قيثاره زوجى^(١٦) ، وأنا كذلك سيدة قصر كادموس الملكى ، وأينما خطوت فى دارى وقع طرفى على ثراء بغير حدود . ثم إننى بعد هذا جميلة جمال الإلهات ، ولى سبعة أبناء وسبع بنات ، وعما قريب سيكون لى عدد هم زوجات أبناء وأزواج بنات ، فهذا هو مجدى الذى أزهبه . أو تجران بعد ذلك على أن تفضلن على ابنة مارد يسمى كوريوس^(١٧) ، تلك الربة لاتو التى تعرفن أن الأرض الفسيحة رفضت أن تمنحها رقعة ضئيلة لتكون لها مأوى حين أوشكت أن تضع جنينها . لقد نبذت السموات والأرض والبحار تلك الإلهة التى تعبدونها حتى أشفقت عليها [جزيرة] ديلوس وقدمت لها مأواها قائلة : « إنك تضرين فى الأرض على غير هدى ، كما أضرب أنا فى البحار » ، ومنحتها الجزيرة مأوى تستقر فيه حيث وضعت لاتو توأمين . ولقد أنجبت أنا سبعة أضعاف ما أنجبت ، فأنا سعيدة الحظ ، لا يمكن لأحد أن ينكر سعادتى ، وسأبقى سعيدة لا يملك أحد أن يشكك فى ذلك . إن وفرة النعم التى أحظى بها تمنحنى أماناً وتحمينى من غوائل ربة الحظ « فورتونا » ، فسيبقى لى دوماً أكثر مما تسلبنى ، وإننى أملك الكثير الذى لا يترك لى مجالاً للخوف . ولنفترض أنه انتزع منى بعض أولادى ، فإن أنا فقدتهم فسيبقى لى أكثر من مجموع أسرة لاتو التى لا تتميز ٢٠٠ عن المرأة العقيم إلا قليلاً . ألا فلتكف عن تقديم هذه القرايين ، ولتخلعن عن رءوسكن هذه

الأكاليل . وأطاعت النساء فخلعن أكاليهن وانصرفن قبل إتمام الطقوس ، وإن لم تستطع نيوى أن تحول بينهن وبين أن يهمن بالشكوى والتضرع للربة لاتو .

استبد الحق بلاتو فوقفت على قمة جبل سينتوس تستعدى ولديها أبوللو وديانا قائلة : « ها أنذا أمكما المزهوة بكما والتالية ليجونو نفسها فى المرتبة ، فىأى اليوم من يثير الشك حول ألوهيتى . ها أنذا يا ولدى أجد من ينحىنى عن المحاريب التى عبدتنى فيها الأجيال إن لم تبادرا بتقديم العون لى . وليس ذلك وحده ما يثيرنى ، فقد أضافت ابنة تانتالوس إلى كفرها بالمقدسات إهانتى حين جرؤت وأدعت بأن أسرتها تعلقو شأنًا عن أسرق وإتهامى بأننى عقيم [ألا فلتصبح هى العقيم] . لقد كشفت عن كفرها بالمقدسات كأبيها » . وانطلقت لاتو تتابع شكواها وتواصل رجاءها لولا مقاطعة أبوللو لها بقوله : « كفى ! فكلما أرخيت لنفسك فى الشكوى عوّقنا هذا عن المضى فى توقيع العقاب عليها » وكانت أخته معه على هذا الرأى ، فأسرعا محلقيّن فى الفضاء واختفيا فى السحب حتى بلغا قلعة كادموس .

وكان هناك سهل فسيح خارج الأسوار تدبّ فيه الخيل فى حركة متصلة ، وقد أفسدت حوافر الجياد ومرور العربات العشب الأخضر النامى على سطح السهل ، وكان بعض أبناء أمفيون السبعة يمتطون ظهور جيادهم المظهمة المغطاة بأكسية من نسيج صور الأرجوانى ويقبضون على أعنة الخيل الذهبية . وكان الأمير إسمينوس أكبر أبناء نيوى يدور بجواده قابضاً عليه فى ثقة حين ندت عنه صرخة مدوية بينما انغرس سهم فى صدره ، فسقط مقود الفرس من بين يديه وهو يئن قائلاً « يا ويلتاه » ، وعاجله الموت فانزلق عن صهوة الجواد حتى سقط على الأرض . وكان سييلوس الابن التالى قد سمع خشخشة جعبة سهام فاطلق العنان لجواده كما يفعل ربّان السفينة حين يلمح سحب العاصفة فينشر أشرعته كلها حتى لا تقوته من الريح هبة .

غير أن انطلاق سييلوس لم يمنع السهم من أن يصيبه فى أعلى عنقه وينفذ من حلقه ، فيسقط من فوق جواده ويتقلب بين حوافره الحادة ويخضب الأرض بدمائه الدافئة . وكان فيديموس التعس وتانتالوس الذى

ورث اسم جدّه قد ذهبا إلى رياضتهما اليومية التى يتصارعان فيها وقد تعانقا داهنين جسديهما بالزيت حين أصابها سهم واحد اخترق صدرهما معاً وهما ملتصقان ، فأخذاً يثنان ألماً وسقطا على الأرض متعانقين ولفظا معاً نفسيهما الأخيرين . وحين رآهما أخوهما ألفينور أسرع إليهما ، وما كاد يرفع ذراعيهما ليتبين الأمر حتى أصابه هو الآخر سهم انتزع قطعة من رثته فتدفقت من جسده الدماء . ولم يهلك داماسيختون الذى لا عهد لشعره بالمقص من جرح واحد شأن أخواته بل أصيب أولاً فى عضلة ساقه ، وبينما كان يحاول إخراج السهم باذلاً كل قواه إذا بسهم آخر يصيبه فى حلقه ويغوص فيه فتفجّر الدم وكأنه نافورة . وأخيراً رفع إيليونيوس آخر الأشقاء ذراعيه إلى السماء محرّكاً شفّتيه بتوسلات ذهبت أدراج الريح قائلاً : « أيتها الآلهة ناشدتكم جميعاً الرحمة بى » [فقد كان يجهل عبث الابتهاال إليهم] . وتأثر أبوللو حامل القوس وأخذته الشفقة به بعد ما انفلت السهم الذى أصابه فجعل السهم رفيقاً قليل الإيلام لم ينفذ إلى أعماق قلبه .

وحملت الأحزان المرتسمة على الأوجه والدموع المنسابة من عيون الأقارب أنباء الكارثة المفاجئة إلى نيوى التى أذهلها أن يكون بين الآلهة من يملك مثل هذه القوة الجبارة ويجسر على استخدامها على هذا

النحو ، وانتهت الكارثة بأَمْفيون وقد شهر سيفه وأغمده في قلبه ليكون الموت خاتمة لحزنه على أبنائه .
وبلاه . كم تغيرت نيوي بعد النكبة ! أهذه نيوي المغرورة التي كانت تفضّ الناس من حول محارب
لاتو ، وتمضي مختالة وسط المدينة تشعل قلوب مواطنيها حقداً وضغينة . لقد غدت موضع الرثاء حتى من
خصومها بعدما انحنت فوق جثث أبنائها التي غشيها برد الموت وأخذت تقبلهم الواحد-بعد الآخر ، ثم
رفعت ذراعيها الشاحبتين إلى السماء وصاحت : « يحق لك أن تشمتي بي يا لاتو القاسية ، ولترو قلبك من
٢٨٠ دمعى ، افرحى ملء قلبك الوحشى ، فهذه الجنازات السبع ستوردنى إلى المحرقة مرات سبع . افرحى
بنشوة النصر على غريمك ، ولكن ما إخالك انتصرت فمازلت رغم كل شقائى أكثر ثراء منك ، وحتى مع
فقدى من فقدت من أبنائى فما زال عندى المزيد » .

ولم تكد تنتهى من كلماتها حتى سُمع هزيم وتر قوس فزع الجميع له عدا نيوي التي ضاعفت الكارثة
من جسارتها . وكانت شقيقات الفتيان الموتى واقفات أمام النعوش في ثياب الحداد بشعرهن المرسل على
أكتافهن ، وإذا سهم يخترق أحشاء إحداهن ، وحين حاولت انتزاعه انكفأت فاقدة الروح فوق جثة
شقيقتها ، وكانت ثانية تواسى أمها فإذا هى تُصاب بطعنة خفية تفقد معها القدرة على النطق وينحني عودها
وتموت مطبقة شفيتها . وحاولت ثالثة الفرار فأدركها سهم أهلكها . وبينما احتمت شقيقة بأختها أدركها
الموت معاً ، وأخذت أخرى تحتضر مرتعشة . ومزقت نيوي ثوبها بعد موت ستة من بناتها وحاولت حماية
ابنتها السابعة بجسدها وصاحت : « فلتبقى لى واحدة هى صغرى بناتى اللاتى فقدتني ، دعى لى هذه
الصغرى فهى واحدة فحسب » . غير أن ابنتها الباقية أخذها الردى قبل أن تفرغ نيوي من توسلاتها .
٣٠٠ وحين أصبحت نيوي وحيدة تحيطها جثث أبنائها وبناتها وزوجها أحالها الحزن إلى حجر ، ولم يعد النسيم
يحرك شعرها ، واختفى الدم من وجهها الذى فقد لونه ، ولم تعد ذراعها ولا ساقها تتحركان ، وجدت
عينها فى محجريها ، والتصق لسانها بحلقها ، وانغلق فمها صمتاً ، وتوقف النبض فى عودها ، وكذا
تجمدت أعضاؤها ، غير أن دموعها بقيت تجرى كما كانت . وهب إعصار عنيف فحملها إلى موطنها^(١٨)
حيث حطت فوق قمة جبل وأخذ الماء يتدفق منها . وماتزال هذه الكتلة من الرخام تسكب الدموع حتى
اليوم .

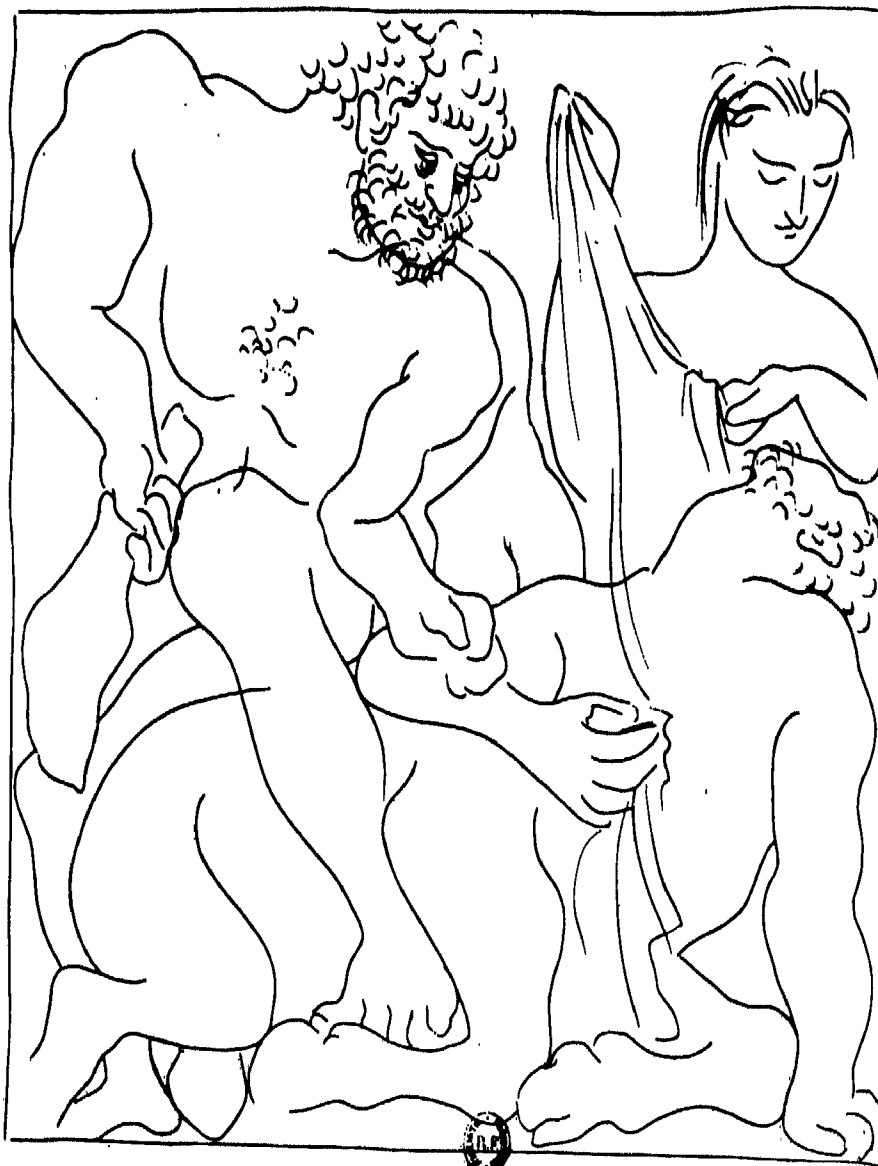
فلاحو ليكيا

وأصيب الرجال والنساء بالذعر خوفاً من غضب الإلهة وأقبلوا خاشعين على عبادة لاتو أم التوأمين ،
وأخذت هذه الحادثة تُحصى على ألسنتهم أقاصيص أحداث قديمة مشابهة كانوا قد أنسوها . وحكى
أحدهم : « كان يحيا فى قديم الزمان على أرض ليكيا الخصبة جماعة من الفلاحين الذين لم يقدموا للإلهة ما
هى جديرة به من تكريم ، مثلهم فى ذلك مثل نيوي فنالوا هم الآخرون جزاءهم . وقد بقيت قصتهم رغم

غرابتها مجهولة إلا من قليل من الناس ، ولعل سبب ذلك هو ضعة أصل أبطالها . غير أنى كنت قد ذهبت إلى المستنقع الذى حدثت عنده المعجزة يوم طعن أبى فى السن ووهنت قواه ولم يعد يتحمل الأسفار فعهده إلى باجتلاب بعض الأبقار المنتقاة من تلك البلاد ، واختار لى قبل الرحيل دليلاً من أهلها ، وقد وقع بصرى فى أثناء مسيرى خلال المراعى بصحبة هذا الرجل على محراب قديم قائم وسط بحيرة ، نبتت حوله أعواد الغاب التى علاها السواد المنبعث من دخان النيران التى كانت تشعل منذ القدم لطهى القرابين الذبيحة ، فتوقف الدليل وتمتم هامساً همس المؤمنين بالخرافات : « هلا رحمتى » فانبرت أردد همسه متعجباً ، ثم سأله عما إذا كان هذا المحراب قد أقيم تكريماً لحوريات الماء أم لفاونوس [بان] إله الغاب أم لغيره من آلهة المنطقة فروى لى دليل القصة التالية :

لم يُشيد هذا المحراب من أجل إله من آلهة الجبال أيها الفتى ، وإنما أقيم من أجل الإلهة التى منعتهما جونوزوجة كبير الآلهة من الاستقرار على الأرض اليابسة ، ثم أشفت عليها جزيرة ديلوس العائمة وقبلت إيواها . وحين بلغت لاتو استندت إلى جذع نخلة وأعانتها شجرة زيتون الربة بالاس على وضع طفلها التوأمين رغم كيد جونوزوجة أبيهما . ولم يكد الطفلان يخرجان للحياة حتى أكرهت جونو الغاضبة لاتو على ترك مأواها حاملة طفلها الإلهين على صدرها . وانتهى الأمر بلاتو أن وجدت نفسها تتجول فى بلاد ليسيا موطن الخيمايرا^(١٩) ، حيث الشمس تحرق الحقول بأشعتها اللافتحة وقد أنهكتها حرارتها وطول المرحلة وأحسّت بالظماً هى وطفلها اللذان كانا يمسكان ثدييها ويمتصانها فى لفة إلى آخر قطرة فيها . وما لبثت أن لمحت بركة غير فسيحة بعيداً فى بطن الوادى كان على مقربة منها جماعة من الفلاحين يجمعون أعواد الغاب والسّعادى الغزيرة النمو فى مياه المستنقع . وحين اقتربت من البركة وانحنى عليها لترى ظمأها من مائها الندى حاول الفلاحون منعها فلم ترض الإلهة منهم ذلك وقالت لهم محتجة : « كيف تمنعوننى أن أردّ هذا الماء وورود الماء حقّ للجميع ؟ وما شاءت الطبيعة أن تخص واحداً دون الآخر بالشمس والهواء والمياه الجارية . لقد جئت لأستمتع بخير هو للجميع ، ومع ذلك فهأنذا أركع متوسلة إليكم أن تمنحونى شيئاً من الماء ، فلست أطلع إلى الاستحمام أو غسل أطرافى المرهقة فى هذه البركة ، وكل ما أرجوه هو إطفاء ظمئى ، فقد جفّ حلقى حتى لم أعد قادرة على الكلام وما يكاد صوق ينطلق من حنجرتى ، وسوف تكون جرعة الماء عندى بمثابة « النكتار » الإلهى وسوف أدين لكم بإنقاذكم حياتى ، ولتأخذكم الشفقة بهذين الطفلين اللذين يمدّان أيديهما هما الآخرين متوسلين لكم ؟ [وكان الطفلان قد مدّا بالفعل ذراعيهما] . ومن ذا الذى لا تؤثر فيه توسلات الإلهة ؟ ومع ذلك بقى الفلاحون رغم توسلاتها متمسكين بمنعها عن الماء بل إنهم هدّدوها بما يروّعها ويرغمها على الخروج من المنطقة ، وكالوا لها الكثير من السباب ، ولم يبقوا عند هذا الحد بل أخذوا يعبثون فى ماء البحيرة بأيديهم وأقدامهم ويعكّرونه بإثارة الطين الراكد فى قاع البركة ، مدفوعين إلى ذلك بما فى طبعهم من حب للأذى . عندها غلب غضب لاتو عطشها ، ولم تعد راغبة مع سورة غضبها أن تبدّد وقتها سدى فى استعطاف قوم لا يرقّ عندهم أو فى استجدائهم شيئاً ما ، ورفعت يديها إلى السماء وصاحت بهم قائلة : « إذن فلتعيشوا إلى الأبد فى هذا

المستنقع . واستجابت السماء لدعائها ، وإذا الفلاحون يقعون أسرى رغبة الغوص إلى أعماق الماء ثم
الطفو على سطحه ، أو إخراج الرأس أو القفز حول الشط . ومع بقاء ألسنتهم سليطة اخشوشنت أصواتهم
وانتفخت حلوقهم واتسعت أفواههم التي أطلقت السباب واختفت أعناقهم واتصلت رؤوسهم بأكتافهم ،
وانخسر لون ظهورهم بينما ابيضت بطونهم التي صارت أكبر أجزاء أجسادهم ، وتحولوا إلى ضفادع تقفز
حول المستنقع المليء بالأوحال (٢٠) .



بيكاسو: أبولو يسليخ مارسيا

مارسياس وپيلوپس

وإذ انتهى الراوى - الذى أجهل اسمه - من سرد أحداث هذه الكارثة التى حاقت بأهل ليكيا ، بدأ راوٍ آخر يسرد قصة « الساتير » الذى أودى به مزمار منيرفا ذو القصببات^(٢١) وعاقبه ابن لاتو [بسلخه حياً] فصاح به مارسيا : « لماذا تنتزعنى من سِلْخى ؟ كم أنا نادم على ما كان ، وهل تساوى هذه المنافسة فى نفخ الزمار هذا كله ! » . وبينما كان يصرخ جعل القوم ينتزعون جلده حتى تعرّى لحمه وأخذ ينزف دماً ، وتبدّت عضلاته عارية للأعين كما ظهرت العروق نابضة بالدماء ، وانكشفت جميع أعضائه الداخلية وهى تخفق حتى بات من اليسير إحصاؤها ، وتخلل الضوء رثتيه ، وحزن عليه جان الغاب وأخوته الساتير والخوريات بل وأوليمپوس نفسه الذى ظل رغم كل شيء يحتفظ له بمكانته من قلبه ، وجميع رعاة الأغنام والأبقار . وارتوت الأرض الخصبية من الدموع التى سالت عليها فشرّبتها حتى تفجّر من باطنها نبع تنبثق مياهه عالية فى الهواء ، ثم يهوى فيحفر لنفسه مجرى نهر جديد يتدفق منحدرآ بين شاطئيه حتى يصب فى البحر المضطرب الموج . وقد عُرف هذا النهر الجديد باسم مارسياص أصفى أنهار فريچيا . ٤٠٠

ولم يلبث الناس بعد سماع هذه الأقاصيص أن عادت إلى الكارثة المستولية على شعورهم باكين أمفيون الذى مات ومعه أفراد أسرته جميعاً وليس فى نفوسهم غير الغضب على الأم رغم بقائها وحيدة وسط جثث أبنائها وزوجها . ويروى البعض أن واحداً فقط من الرجال قد ذرف دونه غيره الدمع من أجلها . وكان هذا الرجل هو پيلوپس الذى انتحب وشق ثوبه عن صدره حتى انكشف كتفه الذى صنّعه الآلهة من عاج ، يوم هشّم أبوه أعضاء جسده ومزّقها إرباً إرباً وطوّح بها فجمعتها الآلهة بعد أن عثرت عليها جميعاً ، عدا تلك العظمة الممتدة بين العنق وأعلى الذراع ، فوضعت محلها قطعة عاج اكتمل بها جسد پيلوپس ، وإن أسفر ذلك عن اختلاف لون أحد كتفيه عن بقية أجزاء جسده .

پروكنى وفيلوميل

وكان أن طالب سكان المدن القريبة حكامهم بالتوجه إلى طيبة لتقديم العزاء ، فتوافد عليها أمراء البلاد المجاورة من أرجوس واسپرطه وموكنائى موطن أسرة پيلوپس ، وكاليدون التى أثارَت فيها بعد حقد ديانا القاسية ، وأورخومينوس الخصبية وكورنث الغنية بالبرونز ، وميسينى الجبارة وپاتراس وكليونائى المقهورة وپيلوس مدينة نيلپوس ، وترويزن التى لم تكن قد خضعت بعد لپيثوس ، ثم المدن الأخرى المعزولة وراء البرزخ القائم بين بحرین ، والمدن التى عند البرزخ . وما كان أحد يخال أن أثينا هى وحدها التى تتخلف عن المجئ ، فقد حالت الحرب بينها وبين أداء هذا الواجب ، إذ كانت جحافل البرابرة القادمة عبر البحر

تحاصر أسوارها وتلقى الرعب في قلوب أهلها ، حتى خف لنجدتهم تيريوس من طراقيا وتعقب بجيوشه العدو محققاً شهرة واسعة بالانتصار عليه .

وما إن اطمأن پانديون ملك أثينا إلى ثراء تيريوس وقوته وانحداره من سلالة الإله مارس الجبار حتى زوجة من ابنته ، غير أن ربات الحسن وهيمين [إله الزواج] وچونو الموكول إليها مباركة الزيجات لم يحضرن حفلة الزفاف ، بينما أضاعت الصافحات [ربات الانتقام] طريق العروسين بمشاعل سرقتها من موكب جنازى ، ثم هيان مخدع العرس . وأقبلت البومة المشثومة فحومت حول الدار وحطت فوق سطح حجرة العرس ، وهكذا حلّ الشؤم عندما زُقت پروكنى إلى تيريوس وأصبحت أبوين .

وابتهجت طراقيا - التى لم تكن تدرى بعد ما يتهدها - ، ورفع مليكها الشكر للآلهة ، وغدا يوم بناء إبنة پانديون بملك طراقيا ويوم ميلاد إبنتها إيتيس عطلة رسمية . ألا ما أكثر ما يغفل الناس عما سيحيق بهم ! . وبعد انقضاء خمسة أعوام سألت پروكنى زوجها متلطفة : « إن كنت تحبني حقاً دعنى أمضى لأرى شقيقتي ، وإلا فجئ بها إلى هنا وعدّ أبى بأن بقاءها لن يطول بعيداً عن بلادها ، فلسوف تكون رؤيتي فيلوميلاً خير ما تهديه لى » .

وأصدر تيريوس أوامره بإنزال سفينة إلى البحر يحركها الشراع والمجداف ، ومضى بها حتى بلغ ميناء كيكروپس [أثينا] ونزل على شاطئ پيرايوس . وحينما دخل على حميه الملك وحياً أحدهما الآخر ذكر تيريوس ما جاء من أجله وأخبره حديث زوجته ووعداً بأن غيبة شقيقته زوجته لن تطول إن أذن لها بزيارتها . عندها ظهرت فيلوميلاً بجملها الأسر مرتدية ثوباً فاخراً أشبه ما تكون بحوريات الماء وحوريات الغابات ، وما إن وقع بصر تيريوس عليها حتى اشتعلت الرغبة في جسده واضطربت في فؤاده نار تحرق الغلال الذابلة أو أوراق الشجر الجافة أو مخازن التبن . والحق إن جمال فيلوميلاً كان أخاذاً ، وضاعف من نزوة تيريوس فرط هذا الجمال ، فهو من بلدة يتميز أهلها بالضعف أمام إغراء متع فينوس . وقد خطر بباله - خلال لفته - أن يرشو وصيفات الفتاة للحدّ من ولاء خادماتها الخاصة فيستعين بها كى تساعده في إغوائها هداياه الفاخرة ووضع كنوز مملكته تحت قدميها ، أو من يدرى فلعلها تيسر له اختطافها والنزوح بها بعيداً ، وعندها يستطيع أن يدافع عن غنيمته بكل ما يملك من أساليب ضارية ، وهو المتأهب دائماً لسحق أى شيء يعترض طريق رغباته الجامحة . وأحس أن قلبه أعجز ما يكون عن احتواء ما يتأجج فيه من لهيب ، وأحس من فرط لفته تباطؤ الزمن ، وراح يكرر خلال حديثه رسالة زوجته ملحقاً في الرجاء على أنه رجاء زوجته وقد أكسبه الحب طلاقة لسان . وكان كلما تخطى في حديثه الحدود اعتذر بأن تلك هى إرادة زوجته پروكنى ، وشفع حديثه بالدموع وكان امرأته قد أوحى إليه بذلك . أيتها الآلهة ، ما أشد ما يعنى البشر ، لقد خال القوم في إلحاحه الذى مكّنه من تحقيق خطته الشريرة لونا من الوفاء لزوجته فامتدحوا فيه سلوكاً لم يكن في الواقع إلا جُرمًا . على أن فيلوميلاً كانت هى الأخرى تشاركه اللهفة ، وحين رآها تعانق أباهاً مداعبة وتلف عنقه بذراعيها وتغمره بقبلاتها وتطلب منه أن يأذن لها بزيارة أختها ،

٤٨٠ أخذ يتخيلها وكأنها تحتضنه هو وتقبله فإذا نيران رغبته تزداد اشتعالاً حتى أنه تمنى لو كان هو الوالد في هذا الموقف . ولو أنه كان والدها ما كان إنثمه يُرى على ما اقترفه بعد ذلك^(٢٣) . وحين نزل الملك على إرادة ابنته غمر الفرح فيلوميلا فشكرت أباه ، وقد ظنت الفتاة البريئة أن قرار أبيها كان استجابة لرغبتها هي وأختها ، بينما كان مقدرًا لهذا القرار أن يودى بهما معاً .

ومالت الشمس نحو المغيب حيث كانت جيادها تجرّ مركبتها على منحدرات الشفق ، ونصبت الموائد الملكية ، وامتلاّت الكئوس الذهبية بالخمر وانصرف المدعوون في نهاية الحفل ليستسلموا لنوم هادئ ، عدا ملك طراقيا الذي بقى مؤرق الجفنين في فراشه مصاباً بحمى حبه للأميرة ، مستعرضاً في ذاكرته طلعتها ولفلتاتها وذراعيها ، ذاهباً بخياله إلى تصوّر ما خفى من مفاتن جسدها .

٥١٠ وحينما انبلج نور الفجر ، وتأهب تيريوس للرحيل شدّ پانديون على كفه داعم العينين موصياً إياه برعاية رفيقته في السفر بقوله : « بنى العزيز ، لقد كان لرجائك الحارّ لى ما لم يدع أمامى فرصة للخيار ، وهأنذا أعهد إليك بابتى استجابة لرغبتها ولرغبتك ، وإلى مستحلفك بشرفك وبحقّ الآلهة وبحُرمة ما بيننا من روابط أن ترعاها رعاية الوالد ، وأن تعيدها لى فى أسرع وقت ممكن ، فهذه الفتاة الغالية هي مبعث بهجتي أيام شيخوختي ، وسوف تطول ساعات غيابها على نفسى . وأنت يا فيلوميلا عجلّ بعودتك إلىّ إن كنت تحبيني ، وكفانى بُعد شقيقتك عني » . ثم ختم وصياه وقبّل ابنته قبله الوداع باكية فى صمت وضمّ يدها بيديه وكأنه يستوثق بوفائها بالعهد ، وحملها تحياته لابنته الغالية وحفيده الصغير ، وخنقت العبرات صوته فلم تعد كلمات وداعه تبين واختلطت أفكاره بنذير طالع مشئوم .

ولم تكد السفينة المزدانة بمختلف الألوان تبتعد عن الشاطئء حاملة فيلوميلا على سطحها حتى صاح الملك تيريوس : « يا للنصر الذى حققته ، ها أنا ذا أحمل معى تلك الفتاة التى طمعت فيها » ، وجعله إحساسه بالزهو يضيق بانتظار أفراحه ، ولم يستطع هذا الملك الهمجى أن يرفع عينيه عن غنيمته ، شأن النسر القابض بمخالبه على أرنب برّى يودعه وكره العالى ، ومضى القناص يحملك بعينيه فى فريسته التى سُدّت أمامها منافذ الفرار .

٥٢٠ وأنتهت السفينة رحلتها ، ونزل الملاحون إلى شاطئء وطنهم منهكين ، وأسرع الملك باقتياد ابنة پانديون إلى حظيرة تحيط بها أسوار عالية تخفيها عن الأنظار وسط غابة عتيقة حيث حبسها هناك . وأخذت الفتاة تسأله عن مكان أختها وقد غلبها الذعر وشحب وجهها وتولتها الرعدة وهى تتوقع أن تحل بها المأسى ، ولكن تيريوس لم يحدّثها عن شقيقتها وإذا هو يكشف لها عن نواياه الدنسة ، ولم تستطع الفتاة العزلاء أن تقاوم ضراوته فأخذت تستغيث ولا مغيث صارخة باسم أبيها وأختها وكبار الآلهة وترعد خوفاً رعدة حمل صغير انثزع من بين أنياب الذئب ذى الفروة الداكنة ودمه لايزال ينزف وهو غير مصدق أنه بات بمأمن ، أو كاليامة رأت على ريشها دماً فغشيها الخوف وتزايد هلعها من الشرك الذى كان محدقاً بها . وحينما عاد إليها رشدها بعد قليل جعلت تمزق شعرها المنفوش وتضرب يديها على صدرها كالمعولة على فقد

عزیز ، ثم مدت يديها صائحة فيه : « أيها الهجمي ، هل بعد هذا ذنب لم تقترفه أيها الوحش ، ألم تهز مشاعرك وصايا أبي التي بثك إياها دامعاً وهو يسلمني إليك لأرحل معك ، ألا تشغلك ذكرى شقيقتي ولا عُدُرتي ولا روابط الزوجية . لقد كفرت بكل شيء ، وما نحن أصبحنا : أنا ضرة لشقيقتي ، وأنت زوج لشقيقتين ، وإنني لجديرة بالعقاب بعد أن غدوت آثمة في حق أختي . لماذا لا تسلبني الحياة أيضاً لتتم بذلك جرميتك ؟ كم أتمنى لو أنك قضيت على قبل إقدامك على اغتصابي الذي جعلني حظية لك ، إذن ٥٤٠ لذهبت إلى عالم الأرواح بلا خطيئة . وإذا كانت آلهة السماء تشهد كل ما حدث وكانت قادرة حقاً ، فلن يضيع شيء عبثاً كما ضاعت عفتي ، فلسوف تدفع ثمن فعلتك يوماً طال الزمن أو قصر ، ولسوف أخلع عني إزار الحياء وأشهر بفعلتك أمام الملأ ، ولو أن الفرصة واثنتي يوماً لتقدمت إلى شعبك ورويت عليه قصتي معك . أما إذا أبقيتني سجينة في هذه الغابة فلسوف أملؤها صراخاً حتى أستدر عطف صخورها التي شهدت إذلالاً ، وحتى تسمع السموات صيحاتي وتستجيب الآلهة إن كانوا شهوداً ، أو إن كان قد شهد هذا واحد منهم » .

وأثارت كلماتها غضب الطاغية الفظ وملأته خوفاً لا يقل عن غضبه ، فأخرج سيفه من غمده المعلق في خاصرته وأمسك بشعر فريسته ولوى ذراعيها في عنف خلف ظهرها . ورأت فيلوميلا السيف فازدادت أملأ في الخلاص بالموت وكشفت له عن نحرها وهي لا تكف عن لعنه والاشمئزاز منه دون أن تسعفها الكلمات ، فإذا هو يمسك لسانها بمقبض ثم يهوى عليه بالسيف فيشطره ، وإذا الشطر الباقي يرتجف في حلقتها على حين كان شطره المبتور يتلوى فوق الأرض الداكنة كما يتلوى ذيل ثعبان بُتر من لحظات ثم انتفض انتفاضة قوية ، وكأنه شاء أن يلحق بقدمي صاحبه قبلما يعاجله الخمود إلى الأبد . ولقد قيل – وإن كنت لا أستطيع تصديق ما قيل – إن الملك ظلّ بعد هذا الحادث البشع يصل استمتاعه بجسد فيلوميلا المشوه فواقعه مرات ثلاثاً أو أربع . ثم إذا هو بعد هذا كله لا يبالي بما كان فيعود إلى زوجته بروكني يحكي لها حين سألته عن أختها قصة مُلْفَقَة يدعى فيها وفاتها متظاهراً بالحزن والأسى حتى أقنع بدموعه الحاضرين . فمزقت بروكني ثيابها النفيسة الذهبية الأطراف من فوق كتفيها وارتدت ثوباً أسود ، وشيدت لشقيقتها قبراً خاوياً أخذت تقدّم عنده القرايين لروح فقيد لم يمت بعد ، وتبكي مصير أختها التّجس وما قاسته من عذاب قبل موتها ، وإن يكن عذاباً مختلفاً عما قاسته حقاً .

ومرّ عام كان إله الشمس قد مضى فيه بمركبته عبر البروج الإثني عشر . تُرى ما الذي كان باستطاعة فيلوميلا أن تفعله ؟ لقد كانت تحت حراسة قوية تمنعها من الهرب ، وكانت الجدران المحيطة بالخطيرة عالية ضخمة مشيدة من أحجار صلدة ، وكانت شفتاها الخرساوان تحولان بينها وبين الإفصاح عما ألمّ بها ، غير أن الحزن والألم قد شحذا عبقريتها ، والحاجة تفتق الحيلة ، فجلست إلى نول بدائي نسقت عليه الخيوط بدهاء ، ونسجت عليه نسجية بيضاء صوّرت عليها مأساتها بخيوط حمراء ، ثم أسلمتها حين أنهتها إلى خادمة شرحت لها بالإشارة أن ترفعها إلى الملكة . ونفذت الخادمة ما أمرت به ، وسلّمت النسجية إلى بروكني دون أن تعلم شيئاً عن حقيقة ما فيها . وما إن بسطت زوجة الملك الطاغية النسجية حتى طالعت ٥٨٠

فيها قصة شقيقتها ومأساتها المشثومة ، فلم تنبس بينت شفة وبدت رابطة الجأش إلى حد يصعب على العقل تصديقه ، إلا أن حزنها العميق أعجزها عن الكلام ، وحين حاولت الحديث لم تجد من عبارات الأسى ما يكشف عن شقاها ، وتماست حتى لا يضيع الوقت في ذرف الدموع ، لكنها عادت تفكر في خطة تنتقم بها من زوجها لا تلتزم فيها بقوانين الخير والشر .

وخلال الأعياد الكبرى التي تحتفل فيها صبايا طراقيا كل ثلاثة أعوام تمجيداً للإله باكخوس يؤدين فيها طقوسه السرية تحت ستار ظلمة الليل فيضجّ جبل رودوبي بقرع الصنوج ، خلّفت الملكة قصرها متأهبة لأداء طقوس تكريم الإله ، حاملة معها الصولجان الذي كان يُلوح به أثناء شعائر العريضة ، متوجة رأسها بإكليل من أوراق الكروم ، مسدلة على جنبها الأيسر جلد وعل ، معلقة ربحاً دقيقاً على كتفها . ومضت عبر الغابة متقدمة وصيفاتها ، تضطرم جوانحها بما أصابتها به المأساة من جنون ، متظاهرة بأن شيئاً لم يبعث الاضطراب في أعماقها غيرك أنت يا باكخوس ، إلى أن بلغت الحظيرة فحطمت رفيقاتها بابها وسط ضجيج المحتفلات بباكخوس وصراخهن ، واصطجبت بروكني أختها والبستها ثياب إحدى المحتفلات بباكخوس ، وغطت وجهها بأوراق اللبلاب وعادت بالفتاة المذهولة إلى القصر .

٦٠٠ ولم تكذ فيلوميلاً تدرك باب الدار الملعونة حتى ارتعدت فزعاً وكسا وجهها شحوب الموت ، غير أن بروكني بعد أن دخلت دارها خلعت عن أختها المنكوبة ثياب حفل باكخوس وكشفت عن وجهها المصبوغ بحمرة الخجل وطوّقتها بذراعيها ، فلم تقو فيلوميلاً على رفع رأسها حتى لا تتلاقى عيناها بعيني أختها اللتين غارتا حزناً من أجلها ، ورنّت ببصرها نحو الأرض ، وعبرت إيماءاتها عما لم يستطع صوتها البوح به ، فقد كانت ملهوفة إلى القسم بالآلهة بأن العار الذي لحقها إنما كان نتيجة هتك عرضها قسراً . واحتدم غضب بروكني وأوقفت نحيب أختها بقولها : « ليس ثمة وقت للدموع ، بل للسيوف أو لما هو أمضى إن كان لديك مثل هذا السلاح ، فقد بت متهيئة للانتقام على أية صورة كان هذا الانتقام يا أختاه . فإما أن أشعل النار العاتية في القصر حتى يحاصر لهيها تيروس المخادع من كل جانب ، وإما أن أقطع لسانه أو أفقأ عينه أو أجبّ عضوه الذي سلبك شرفك ، أو أجعل روحه الأثمة تخرج من جسده عبر ألف جرح غائر . نعم ، يجب أن نعدّ العدة للانتقام رهيب ، بيد أني مازلت عاجزة عن الاهتداء إلى خطة محكمة التدبير » .

٦٢٠ وبينما كانت بروكني مسترسلة في التعبير عما يحتمل في وجدانها أقبل عليها ابنها إيتيس فأوحت لها رؤيته بالانتقام الذي يمكن أن تقدم عليه ، فتطلّعت إليه بعينين يفتقدان الحنان متممة « كم يشبه أباه ! » ولم تزد على ذلك . وغلا الغضب الصامت في صدرها وقد عقدت العزم على انتقامها الرهيب ، غير أن ابنها اقترب منها وطوّق عنقها بذراعيه الدقيقتين وقبلها وهو يثرثر في رقة هزت فيها مشاعر الأمومة ، فزايلها غضبها وترقرقت عيناها ، واكتشفت أن حبها لولدها يوهن من عزمها على الانتقام فتركتته والتفتت نحو أختها . وعلى حين كانت تنتقل ببصرها بين طفلها وأختها أخذت تعتف نفسها قائلة : « أنى لهذا الطفل أن يخاطبني بمثل هذه الكلمات الرقيقة التي تعجز عن مثلها هذه الأخت المبتورة اللسان ، وكيف له يدعوني يا أماء وهي

لا تستطيع أن تدعوني يا أختاه ! تأملّي يا ابنة پانديون أى صنف من الرجال تزوجت ، إنك لا شك تأثمين بحفاظك على عهود الزواج من مثل تيربوس ؟ » .

- ٦٤٠ ولم تتلبّث پروكني بل أخذت إيتيس من يده وذهبت به إلى مكان قصي من القصر الفسيح كما تجرّ النّجرة الطّبي الرضيع بشواطىء نهر الجنجج خلال الغابة الكثيفة ، وأدرك الطفل ما سوف يحلّ به فمدّ يديه صارخاً « أماه ! » وحاول أن يلف عنقها بذراعيه ، لكنها أغمدت السيف في جنبه غير بعيد من قلبه دون أن تحوّل بصرها عنه . ومع أن هذه الطعنة كانت كافية لإخاد أنفاسه غير أن فيلوميلا هوت بالسيف على حلقه ، ومضت الشقيقتان تقطعان الأطراف التي كانت ما تزال تنبض بالحياة حتى امتلأت الحجرة بالدماء ، فأخذتا بعد ذلك لحمه وسلقتا بعضه وشوتا البعض الآخر على السّياخ ، ثم دعت پروكني زوجها إلى هذه الوليمة وقالت له بعد أن صرفت الخدم إن طقوس بلادها تقضى بأن يجلس الزوج وحده إلى المائدة . فجلس تيربوس والتهم ما بين يديه ، وما خال إنه يأكل فلذة كبده . وبعد أن فرغ من طعامه التفت لزوجته قائلاً : « أين إيتيس ولدنا ؟ » . عندها لم تستطع پروكني أن تخفى فعلتها النكراء ولا أن تردّ لهفتها لأن تكون أول من يُقضى إليه نبأ هذه الضحية التي ذبحتها ، وإذا هي تقول له : « إن من تطلبه ليلقاك قد استقرّ في جوفك » . وإذا هو يحيل بصره فيما حوله ويسأل : « أين ابني ؟ » ، وبينما هو يصرخ باسم ولده المرّة بعد المرّة إذا فيلوميلا تهوّل إلى القاعة بهيئتها الرثّة وشعرها الأشعث الذي خضّبته دماء الطفل ، وكانت قد شاركت في قتله ، وإذا هي تلقى برأس إيتيس بين يدي أبيه . ولم تكن ثمة لحظة أمتع لها في التعبير عما تكنّ أمتع من تلك اللحظة . وبصرخة عارمة دفع الملك الطراقى مائدة الطعام واستغاث بالشقيقات الغافيات في أعماق نهر ستيكس ذوات الرؤوس الثعبانية ، وحاول بحركة لا إرادية أن يشقّ بطنه ليُفرغ ما فيها من طعام غير مُستمرأ ، وانطلق ينوح منهاراً ، تارة واصفاً نفسه بأنه بات مقبرة لابنه التعس ، وتارة أخرى يطارد ابنتي پانديون شاهراً سيفه العارى عن غمده ، غير أنهما كانا في سرعتيهما أشبه بطائرين مجنّحين بعد أن نبتت لهما أجنحة ، فحلّقت إحداهما هاربة صوب الغابات ، بينما تعلّقت الأخرى بطنف الحجرة وما تزال آثار الدبيحة عالقة بصدرها ، إذ كان ريشها أحمر مخضباً بالدماء المُرّاق (٢٤) . وتحوّل الملك هو الآخر من فرط حزنه وتعطّشه للانتقام إلى طائر يعلو رأسه عُرف ويمتد في فمه منقار حاد طويل بدلاً من السيف ، وهو الطائر الذي سُمّي بالهدهد والذي يبدو وكأنه قد ارتدى عُدّة القتال .

بورياس وزيتيس وكالاييس

وحينما بلغت القصة أسماع پانديون غاصت به أحزانه في ظلمات تارتاروس قبل أن يحين أجله الذي كان مُقدّراً له .

٦٨٠ وحمل إيرينخيوس صولجان بانديون من بعده وانتقل إليه حكم البلاد ، وكان بعدالته وبراعته في استخدام السلاح قوياً مرهوباً ، وكان له من البنين أربعة ومن البنات مثلهم عدا ، وقد تميّزت من بناته اثنتان بالجمال ، سعد كيفالوس حفيد أيولوس بإحداهما واسمها پروكريس ، ووقع بورياس في حب الثانية التي كانت تسمى أوريشيا ، غير أنه ظل طويلاً يخطب ودّها عبثاً وكان ينبغي أن ينجح في إقناعها باللين لا بالقوة ، غير أن ذكرى بنى وطنه الطراقيين وبخاصة ملكهم تيريوس بقيت عقبة في سبيل زواجه . وحينما لم يُجده تودّده إليها ولم يحقق له مأرباً تملكته عاصفة من الغضب الذي كان سريع الوقوع في أسره لسبب أو لآخر ، فناجى نفسه قائلاً « إن سلوكي جدير بهذا الصّد . كان الأولى بي أن أستخدم أسلحتي وأن أكشف عن الغضب والعنف والوعيد ، وما كان لي أن أتشفّع بالرجاء الذي ليس من طبيعتي . العنف شيمتي ، به أستطيع أن أبّد السحب الكثيفة وبه أشيع الاضطراب في البحر ، وأحطّم أضخم أشجار البلوط ، وأحفظ الثلوج جامدة ، وأجلد الأرض بسوط من البرد . وحينما أنازل إخوتك في الفضاء الكوني [الذي يمثل حلبتي] يمتلئ الجو بصخب عراكنا ويومض البرق من بين أعماق السحب . وحين أدخل الكهوف المقدّسة في أعماق الأرض وأدفع بظهرى أدنى قبابها يهتزّ الكون كله ويشيع الاضطراب حتى بين أرواح الموق وفي أرجاء عالم الأحياء ، لقد كان على أن أطلب يد الأميرة لا رجاء واستعطافاً بل بقسر إيرينخيوس على أن يصبح صهراً لي . »

٧٠٠ وبهذه الكلمات المتعالية ضرب بورياس بجناحيه ليشقّ بهما طريقه في الهواء ، وسرعان ما جعل خفقان جناحيه الرياح تعصف فوق الأرض كلها وتبعث الاضطراب في مياه البحر . ونشر فوق قمم الجبال عباءته محمّلة بالغبار ، ثم اندفع نحو الأرض مخفياً في غيمة ، وأطبق ظلام جناحيه على أوريشيا التي تملكها الفزع ، ولم يكد يطير بها حتى تفجّر لهيب شوقه وثار نيران لهفته ، فأسرع مطلقاً العنان لنفسه خلال الأجواء حتى بلغ بغنيمته أسوار المدينة التي يقطنها شعب الكيكونيس^(٢٥) . وفي هذه المدينة غدت فتاة بلاد أكتيا زوجة لهذا المستبد البارد المشاعر ، وحملت منه فأنجبت له توأمين من الذكور هما كالايس وزيتيس^(٢٦) وكانا يشبهان أمهما في كل شيء عدا أنه كان لهما جناحان مثل أبيهما . على أنهما لم يولدا بالجناحين ، بل لقد بقى كل منهما ولا أجنحة له قبل أن يشبّا عن الطوق عندما كانت وجنتاهما ملساوين لم تخضراً . وحينما بدأ الزغب الأشقر يغشى ذقنيهما بدأ الريش في الوقت نفسه ينبت فوق كتفيهما وكأنهما طائران ، حتى إذا كبرا وبلغا مبلغ الرجال انضما إلى أهل مينياس^(٢٧) في الطواف بالبحار المجهولة في أول سفينة شيّدت للبحث عن الفروة الذهبية .

التعقيبات

- (١) هي فوخيا الآن وكانت ميناء ذات بوغازين في آسيا بين أزمير وكوماى .
- (٢) تيمولوس اسم في ليديا يفصل بين حوضى نهر هرموس وكايستر .
- (٣) باكتولوس أحد روافد نهر هرموس اشتهر برماله التى تفيض بالذهب .
- (٤) صخرة مارس « أريس » هي الأريوياجوس ، ذلك التل القريب من أكروپول أثينا الذى كان قلعة كيكروبس ، وقد شهدت المناظرة الكبرى بين أثينا وبوزيدون من أجل إطلاق اسم على المدينة . وكانت هذه المناظرة مألوفة بين الفنانين الإغريق ، فنحتها فيدياس على الجيين المثلث الغربى للپارثينون .
- (٥) يعد معبد الإريخنيوم على جبل الأكروپول تسجيلاً لهذين الحداث الأسطوريين يتمثل في احتفاظ إحدى ردهاته بفرع من شجر الزيتون المعجز الذى روى الرواة أنه قد احترق عندما دمر خشيارشا [خشايارشا أو أكسر كسيس عند اليونان] الأكروپول ثم عاد فانبثق من جديد بعد يومين . وثمة حفرة في الصخر أسفل البوابة الشالية للمبنى قيل إنها من أثر رمح بوزيدون .
- (٦) هما أخ وأخت تسميا باسم چوپيتر وچونو فمسخا جبلين عقاباً لهما .
- (٧) هي چيرانا ملكة شعب من الأقزام يقطنون أعلى النيل ألهاها شعبها مما أثار غضب چونو وديانا فحولتها چونو إلى طائر كركى .
- (٨) تقول الأسطورة إن قبائل الأقزام كانت في حرب مستمرة مع الطيور الكبيرة الحجم وخاصة طائر الكركى .
- (٩) كانت أنتيجونى [وهى غير أنتيجونى ابنة أوديب] ابنة لاووميدون ملك طروادة ، وكانت - مثل رودوى وچيرانا - قد أثارت غضب چونو حين تباهت بأن شعرها يزرى بجبال شعر چونو .
- (١٠) كان سنيراس ملك پافوس في قبرص وكاهناً لأفروديتى في الوقت نفسه ، اشتهر بأنه أسس مدينة أزمير ، وقيل إنه أبو أدونيس . أما بناته فقد أعجبن بأنفسهن أكثر من إعجابهن بچونو فحولتهن الإلهة إلى درجات من الرخام لسلم معبدها [انظر الكتاب العاشر] .
- (١١) إنه كيوس أحد العمالقة وفويى ابنة إلهة الأرض ، وقد أحبها چوپيتر وتخفى في صورة نسر ليضاجعها ، فلما أغضبته حولها إلى طائر السمان .
- (١٢) أنجب مكارىوس ابن أبولوس بنتا هي أمفيسا أو إيسيه التى أحبها أبوللو ، ويقال إنها أطلقت اسمها على مدينة مفيسا القريبة من دلفى .

(١٣) يعود السرفى جمع القنطور بين جسد الحصان وصدر الإنسان ووجهه إلى أن كرونوس الذى يسميه الرومان ساتورنوس كان يخون زوجته ريا مع فيليرا ابنة أوقيانوس ، فلما فاجأت الزوجة العاشقين يوماً تخفى كرونوس فى شكل حصان ليفلت منها ، الأمر الذى أدى إلى ظهور هذه الطبيعة المزدوجة فى ابنة خيرون .

(١٤) اسمه الحديث كودروس وهو اسم مدينة وجبل فى جالاطيا بالأناضول .

(١٥) سيبيلوس جبل مشهور شمال أزمير فى آسيا الصغرى .

(١٦) كان تانتالوس ملك ليديا وابن زيوس هو والد نيوى . وكان قد استقبل الآلهة على مائدته ولكنه قدم لهم ابنه بيلوبس ليأكلوه فغضبوا عليه وعاقبوه وألقوا به إلى العالم السفلى . وكانت أم نيوى هى ديونى ابنة أطلس التى كانت قد تزوجت من أمفيون وهو ابن زيوس من أنتيوى وقد اشتهر بأنه شيد أسوار طيبة بالعزف على قيثارته كناية عن براعته فى العزف .

(١٧) كانت ليتو ابنة المارد كويوس الذى كان أقل شهرة من أخويه هيبيريون وبانيتوس .

(١٨) على سفح جبل سيبيلوس فى ليديا صخرة على هيئة امرأة باكية ينساب منها جدول ماء يقال إنه دموع نيوى . وأغلب الظن أن أوفيد استوحى الوصف الذى ذكره من أحد المجموعات المنحوتة التى تصور بنت نيوى المعزوة إلى پراكستيليس أو سكوباس . ويقال إن هذا التمثال كان قد نقل إلى روما منذ عهد قريب [بالنسبة لأوفيد] ووضع فى معبد أبوللو فوق تل بالاتينوس .

(١٩) الخيبرا وحش مشهور له رؤوس ثلاثة أحدها لأسد والثانى لجدى والثالث لثنين ، وتنفت ثلاثتها لهما ، وقد ولد هذا الوحش من إخذنا وتيفون .

(٢٠) تروى الأسطورة أنه بعد ذلك توجهت الإلهة يرافقتها بعض الذئاب « ليكوى باليونانية Lykoi » إلى نهر زانثوس حيث استطاعت أن تروى ظمأها وتغتسل هى وابناها . وتكريماً لمرافقتها سميت المنطقة ليكيا .

(٢١) تروى الأسطورة أن أثينا [منيرفا] هى التى اخترعت المزمар المزدوج الذى صنعه من غاب بحيرة تريتون . فسخرت منها كل من هيرا وأفروديتى ، على أنها لاحظت أنها كلما أمسكت بالمزمار وتأملت نفسها على سطح مياه أحد ينابيع إيدا أصاب وجهها التشويه فحنقت لذلك ، وألقت بالمزمار إلى الأرض مقسمة بأن من يلتقطه سيناله شر العذاب . وحدث أن التقطه سساتير اسمه مارسيس برع فى النفخ فيه إلى درجة تحدى معها أبوللو فأقيمت بينهما مباراة ظفر فيها أبوللو بجائزة ربات الفنون فى عزف القيثارة . فأمر الإله الفائز بسلخ جلد منافسه . وكان أوليمپوس أحد رفاق مارسيس الأوفياء هو الذى جمع ما تبقى من أشلائه ودفنها . أما نهر مارسيس فهو من روافد نهر مياندر .

(٢٢) انظر الكتاب الثامن .

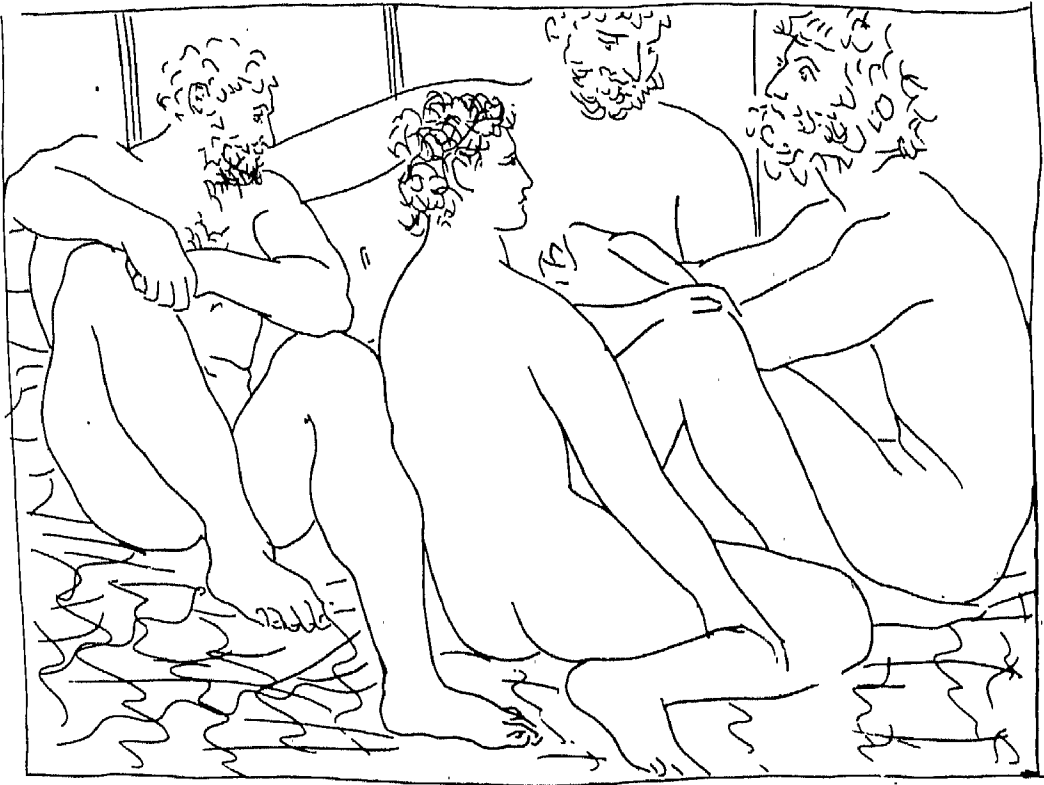
(٢٣) أى أن إثم عشق الأب لابنته ليس أبشع فى نظر الشاعر من إثم عشق شقيقة زوجته .

(٢٤) مُسخت فيلوميلا بلبلًا ، فى حين مُسخت پروكتى عصفور جنة يكسو صدره الاحمر .

(٢٥) الكيكونيس من سكان طراقيا وقد أغار عليهم أوديسوس أثناء عودته من طروادة لوقوفهم فى صف پريام ملك طروادة ضد الأخيين .

(٢٦) كان كالايس وزيتس من بين بحارة الأرجو ، ويرجع الفضل لهما فى تخليص فينيوس من طيور الهارپيس [انظر الكتاب السابع] .

(٢٧) سكان أروخومينوس فى بويوتيا نسبة إلى ملكهم مينياس .



بيكاسو: كيفالوس يروى قصته لأبناء أياكوس ملك جزيرة إيجينا

الكتاب السابع

جاسون وميديا

على حين كان المينيائيون [أبناء سلالة مينياس] تمخر بهم البحر سفينتهم التي بُنيت في
 باجاساي^(١)، لمح الملاحون فينيوس^(٢) وقد هدّه الكبر ونفد بنور بصره نور الحياة، ورأوا أبناء «ريخ
 الشمال» الصغار يذودون طيور الهارپيس بعيداً عن فمه حتى لا تؤذيه، ثم انصرفوا حتى بلغوا
 نهر فاسيس^(٣) الصاخب المزبد يقودهم جاسون النليثع الصيت وهم يغالبون الصعاب^(٤). حتى إذا مثلوا
 بين يدي الملك أبيتيس جعلوا يطالبونه بفروة الكبش الذي حمل فريكسوس، فانقلب يُملئ عليهم شروطاً
 قاسية تلزمهم القيام بمهام جسيمة. وشغفت ميديا ابنة الملك بحب جاسون، وكم حاولت أن تدفع ذلك
 عن قلبها فلم تفلح، فأذعنت لسلطان الهوى وهي تناجي نفسها: لماذا تراني فاعلة فيما قضاه على إله من

الآلهة ، فما من شك في أنني صرت صريعة ما يسمى الحب . ولعل حبي لچاسون هو الذى جعلنى أرى شطط أبى فيما اشترطه عليه ، وهو الذى جعلنى أخشى عليه التهلكة وما وقعت عليه عينى من قبل . ثم مالى أحسّ القلق يتسلّل إلى نفسى رويداً رويداً ؟ ترى هل تملكين أيتها الفتاة التعسة أن تنجى بقلبك الغض من تلك النيران المضطربة وتعودى إلى ما كنت عليه خالية القلب ؟ إنى لأراني عاجزة يتنازعنى عقلى وعاطفتى ، وأنا لعاطفتى أميل مع علمى بأن الخير لى فيما يمليه عقلى . وكيف بى قد استهوانى حب رجل غريب فأصبحت أحلم بالزواج منه مع علمى بأن فى موطنى من قد يستهوئنى . وسواء عاش چاسون أو مات فذلك مردّه إلى الآلهة ، ولكنى آمل أن يعيش ، وعلى أن أصلّى للآلهة لكى يعيش وإن لم أكن أحبه ، فأى ذنب جنى ، ومن ذا الذى يرى شبابه ونبل أصله وشجاعته دون أن يقدره إلا إذا كان وحشاً جامد الحس . وإذا لم تكن لچاسون كل هذه السجايا فمن هذا الذى لا تحركه كلماته ؟ لقد مسّ قلبى ولم يلبث أن عَشّس حبه فيه ، وإذا لم أهرع لمساعدته فسوف تحرقه أنفاس الثورين اللذين ينفثان اللهب ، أو يصصره أعداء البشر الذين سنتبتهم الأرض حين تُبدّر فيها الحبوب ، أو يذهب فريسة التنين النهم . وما كان يمكن أن أكون إلا غمرة قدّ قلبها من صخر أو حديد إن أنا لم أحل دون هذا . وما آثمى إن رأيته يموت ، وهل أقوى على أن أثير عليه الثورين أو أمكّن منه المحاربين الذين تنبتهم الأرض ، أو التنين الذى لا يغفو أبداً ؟ كم آثمى أن تمنحه السموات حظاً أسعد . فلاصليّن من أجله ولسوف أسعى لسلامته .

٢٠ ترى هل أخون أبى ، وأعين غريباً على النجاة وقد يبحر بعدها دونى ويتزوج من امرأة أخرى ، ويتركنى هنا أواجه العقاب جزاء خيانتى لوطنى . وإذا كان من الجائز بعد أن ينجو أن يؤثر على امرأة أخرى فهل أتركه يلقي حتفه جزاء نكرانه للجميل ؟ لا ، إنى أرى فى براءة وجهه ونبل طباعه ورقته ووسامته ما لا يدع لى مجالاً للخوف من أنه قد يخدعنى أو أن ينسى ما قدمت له من عون . على أن عليه أن يقطع لى عهداً قبل أن أساعده ولسوف أشهد عليه الآلهة ، فإذا لم يكن ثمّ ما أخشاه فلم هذا الخوف إذن ؟ فلا تأهب للعمل دون تراخ ، ولسوف أجعل چاسون مديناً لى بحياته فيتزوجنى فى احتفال مهيب ، وستأتينى نساء اليونان جماعات من كل المدن لتكرمنى على أنى منقذة أبنائهن . ثم هل تُراني أهجر أختى وأخى وأبى وأهلى بل ووطنى نفسه وأذهب بعيداً عبر البحار ؟ ولم لا أتركهم ووالدى قاس وأهل وطنى جفاة ، وأخى مازال طفلاً ، وأختى تباركنى دائماً بدعواتها ، وأعظم الآلهة تسكن صدرى ، وليس هناك مما أخلفه ورائى شىء ذو قيمة بينما أستهدف بفرارى شيئاً أعظم هو المجد . فإنقاد هؤلاء الأبطال اليونانيين ، والتعرف على بلاد أفضل من بلادى ، وزيارة مدن طبّقت شهرتها الآفاق حتى بلغت هذه الشواطىء ، والإيلام بفنون هذه المدن وثقافتها ، كل هذا أترقبه . ثم إننى سأظفر بچاسون الذى أرى فيه عوضاً عن كل كنوز الأرض ، وحين أصبح زوجته فسوف ينظر الناس إلى على أنى محظوظة بارتكتها السماء ، وسترتفع هامتى عالية حتى تلامس النجوم .

٦٠ ولست أعباً بحديث الناس عن تلك الجبال القائمة فى عرض البحار التى هى للملاحين بالمرصاد^(٥) ولا عن خاربيديس خصم السفن التى تارة تبتلع المياه المحيطة بها وتارة تقيئها ، ولا عن سكيللا الشرهة

المنطقة بالكلاب المفترسة النابحة في أعماق بحار صقلية . إنها جميعاً لا تخيفني ، فسوف أمضي في رحلتي الطويلة في البحار وأنا بين أحضان حبيبي ، ولن أحس وأنا ملتصقة بصدر زوجي جاسون إلاّ الخوف عليه وحده . ولكن أي زواج ذلك الذي تتحدثين عنه يا ميديا ؟ يحسن بك ألا تخوضي في شيء من غير اللائق أن تخوضي فيه لاسيما وأنت آخذة فيه ، ومن الخير أن تطرحي هواجسك الشريرة .

٨٠ وكفّت ميديا عن مناجاتها لنفسها بعد أن استبان لها أن العقل أولى أن يُتبع ، وأن عليها أن تغلب عواطف البنية والشرف على حبها لجاسون . وحين أدرك كيوييد أن الهزيمة لحقت به بدأ يحزم أمره للرحيل بينما اتجهت ميديا إلى المحراب العريق لهيكاتي ابنة بيرسيس المخفية في ظلال الأكمام بأعماق الغابة وهي عازمة على أن تطرح الهوى من قلبها . ولكن ما إن وقع بصرها في الطريق على جاسون بن أيسون حتى علت وجنتيها حمرة ما لبثت أن اختفت ثم أعقبها شحوب واصفرار ، وأحسّت بمشاعر الحب تعاودها وتستعر في أعماقها ، وكأنما كانت ثمة جهرات متقدة تحت كومة قش هبّت عليها ريح مفاجئة فإذا بها تتأجج . هكذا أضرمّت رؤية جاسون حب ميديا الذي كان قد أصابه الفتور ، واتّقدت في قلبها الجذوة التي كانت قد خمدت .

كان من الطبيعي أن يثير مشهد جاسون الوسيم حب ميديا ، فقد كان عندها أكثر وسامة من ذي قبل فأخذت تتأمله وكأنها تراه للمرة الأولى ، مأخوذة بطلعته غير مصدقة أنه واحد من بني البشر ، ولم تعد تستطيع أن تحوّل بصرها عنه . وما كاد يأخذ في الحديث إليها ممسكاً بيدها اليمنى بين يديه متوسلاً إليها أن تعينه ، أخذاً على نفسه العهد أن يتزوجها إذا نجحت مهمته حتى انهمرت من عينيها الدموع وهي تتمتم : « لقد بات الموقف أمامي بيّناً ، ولست أجهل حقائق الأشياء ، وإنني أعلم أن الحب لا الجهل بالحقيقة هو الذي يقودني ليوردني موارد الهلاك ، ولكني سوف أعينك على النجاة والفوز ، كي تحقق لي أنت ما وعدتني به بعد نجاتك » .

١٠٠ وأقسم جاسون على الوفاء لها بأسرار الآلهة المؤهّنة ثلاث مرات^(٦) ، وبالإله المائل في الكهف ، وإله حميه المستقبل^(٧) ، ويعين الشمس التي ترى كل شيء ، وبكل ما يملك ، وبالمخاطر الرهيبة التي سيتعرض لها . فقنعت ميديا بقسمه وصدّقته ، وزوّدتة بأعشاب سحرية قرأت عليها تعاويذها وعلمته كيف يستخدمها ، فامتلاً قلبه سروراً وعاد إلى سفينته فرحاً .

وعندما بزغ الفجر واختفت النجوم ، تجمّع الناس في حقل مارس المقدس واتخذوا أماكنهم في السفوح المرتفعة المحيطة به ، وتوسّطهم الملك متألّفاً في ثيابه الأرجوانية اللون مهيباً بصولجانه العاجي رمز سلطته . وفجأة ظهر الثوران ذوا الخوافر الذهبية والأنوف الصلبة ينفثان لهباً أشعل النيران في الحشائش الخضراء ، واختلط خوارهما بصخب النيران التي تندلع من حلقيهما ، وإذا هذا الخوار مع قوة النار أشبه بفورة الحُرّض [الجير الحى] في قبو غمره سيل من الماء ، غير أن جاسون بن أيسون تقدم نحوهما ، فهزّأ رأسيهما شارعين قرونها المدببة الحديدية الأطراف وأخذت أظلافهما تحفر الأرض ، وامتلاً الفضاء بخوارهما

المختلط بالسنة الدخان ، وجد ملاحو الأرجو في أماكنهم خوفاً ، عدا چاسون الذى تابع خطوه دون أن يحس حرارة أنفاس الثورين النارية بفضل السحر الذى اعتصم به ، وتقدم في شجاعة فربت على لُغديهما المتدليين ، ورفع النير ووضعه على عنقيهما فمضيا يجران المحراث الثقيل والنصل الفولاذى وراءهما ، وأخذت خطوط الحرث تمتد في الأرض البكر وسط ذهول الكولخسيين وتهليل رفاقه ملاحى الأرجو . ثم مدَّ يده إلى الخوذة النحاسية والتقط أنياب الأفعون التى كانت قد غُمست من قبل في السم الزعاف ونثرها في شقوق الأرض المحروثة ، فما لبثت أن أخذت تنمو في التربة وتشكَّلت فيها كما تشكَّلت الأجنة البشرية في أرحام الأمهات حتى يكتمل نموها فتخرج إلى النور ، وهكذا ظهر حصاد من أجساد بشرية لا يُعد ولا يحصى ثما في جوف الأرض الحُبلى . وأعجب من هذا أنه برز منها شاهراً أسلحة نمت هي الأخرى معه في باطن الأرض ، وأفزعت الپيلازجيين^(٨) عندما أخذت تسدد رماحها الحادة إلى رأس البطل الثيسالى . وتحرك الخوف في قلب ميديا على چاسون رغم السحر الذى حصَّنته به ، وشحب وجهها وغازت الدماء من أطرافها ، وسرت في جسدها رعشة مفاجئة وهى ترى هذه الأعداد الغفيرة من المحاربين تحيط بالفتى وحده ، وساورها القلق مخافة أن تكون الأعشاب التى أعطتها لچاسون أقل تأثيراً مما ينبغي أن تكون عليه ، وانبرت تتمم بتعاويد أخرى تستعين بها وتستخدم أفانينها لتزيد موقفه قوة ، وإذا چاسون يحمل حجراً ثقيلاً ويلقى به وسط أعدائه ، فإذا بهم يتحولون عنه لينشب بينهم قتال مرير ، وأخذ بعضهم يصيب البعض الآخر بجراح قاتلة فافنى بعضهم بعضاً . عندها تهلل وجه الأخيين [اليونانيين] بشراً واحتضنوا الفائز فرحين ، وتحركت في صدر الأميرة رغبة في عناق البطل لولا خشيتها من إثارة الأقاويل ، فكتمت فرحتها في نفسها وشكرت الآلهة على إنجاحها تعاويذها السحرية ذات الأثر في نجاة چاسون .

لم يبق أمام البطل إلا أن يبعث النوم في عيني التين الذى يحرس الشجرة التى علَّقت عليها الفروة الذهبية ، وقد كان منظر هذا المخلوق مثيراً بعُرفه الغريب ولسانه ذى الفروع الثلاثة وأنيايه المقوسة ، غير أن چاسون لم يكد ينثر عليه العشب الذى تجلب عصارته السبات العميق ، ويتمم بالتعويذة التى تهدىء البحر العاق والنهر الهائج حتى أسلم التين للنوم جفنيه اللذين لم يغمضا من قبل أبداً ، وانتزع چاسون الفروة الذهبية ، ومضى حاملاً معها غنيمة انتصاره وهى الأميرة ميديا التى أعانته على تحقيق رغباته ، وأبحر عائداً بها إلى بلاده متخطياً العقبات حتى ميناء إيولكوس^(٩) .

أيسون

وقدمت نساء ثيساليا القرابين شكراً للآلهة على عودة أبنائهن سالمين ، وكذا فعل آباء الأبطال فعلهن . فأشعلوا أكواماً ضخمة من البخور عند المحارب ، ونحروا الضحية المذَّبة القرون التى كانوا قد نذروها للآلهة . وكان أيسون قد قعد عن شهود هذا الحفل لشيخوخته التى قرَّبت من حتفه فتوجه چاسون إلى

زوجته قائلاً : « أى زوجتى التى أدين لها بحياتى والتى يعجز العقل عن إدراك ما أسدته إلىّ ، أترك قادرة وأنت التى لا يستحيل على سحرك شئ ، أن تأخذى بعض سنى عمرى وتضمّنيها إلى عمر أبى ؟ » ، وانسابت مع كلماته دموع عينيه فحرك حبه لأبيه قلب ميديا ، واتجهت بفكرها إلى أبيها أبيتس الذى كانت قد هجرته ، لكنها أخفت مشاعرها قائلة لزوجها : « ما أقساه من عرض هذا الذى تعرضه ، أو يدور بخلدك أن باستطاعتى الاقتطاع من عمرك لأصل به حياة غيرك . إن إلهة هيكاتى لا تميز ذلك ، فما من حقد أن تطلب إلىّ ما أعجز عن تحقيقه ، غير أنى سأحاول أن أقدم لك هدية تفوق ما تطلب يا چاسون ، وسأستعين على تجديد شباب أبيك لا بالسنوات التى تريد اقتطاعها من عمرك بل بحذقى أنا حين تتفضل الإلهة المؤهلة ثلاثاً فتعيننى فى محاولتى الجريئة » .

- وأمضى القمر ثلاث ليال حتى اكتملت استدارة قرنيه ، ومع تألق ضوئه تسلفت ميديا من دارها فى ثيابها الفضفاضة عارية الرأس حافية القدمين مرسله شعرها على كتفيها متعثرة الخطفى فى سكون السحر ، والطيور والوحوش فى غنادعها مستسلمة لنوم عميق ، وأوراق الأشجار ساكنة على الغصون لا يتحرك لها حفيف ، والهواء المحمّل بالضباب قد سكن وقد تراءت من خلله النجوم المتوهجة فى كبد السماء . مدّت ميديا ذراعيها نحو النجوم ودارت حول نفسها مرات ثلاث ، ونثرت مياه النهر على رأسها مرات ثلاث ، وصاحت صيحات ثلاث معها نحيب وعويل ، ثم خرّت على ركبتيها فوق الأرض الصلبة وأخذت تهمهم : « أيها الليل الحارس الأمين لأسرارى ، أيتها النجوم الذهبية التى ترسل ضياءها مع القمر بعد غياب نور النهار ، أيتها الإلهة هيكاتى يا صاحبة الرؤوس الثلاثة وبيا من هدتنى دوماً إلى ما أقوم به وأعانتنى على تحقيقه ، أيتها التعاويد السحرية ، أيتها الأرض التى تنبت الأعشاب السحرية ، أيتها الأنسام والرياح والجبال والأنهار والبحيرات وجان المغارات وجان الليل ، أقبلوا جميعاً . فبعونكم أستطيع حين أريد أن أصدّ جريان الأنهار فترتد مياهها إلى منابعها بين دهشة الشيطان ، وأن أهديّ عاصفة البحار أو أثير صخب مياهها بأناشيدى وأن أطرد السحب أو أجمعها ، وأن أرسل الرياح أو أخدها ، وأن أفتك بالشعابين بسحر تعاويدى وأن أحرك الصخور والأشجار ، وأمر البلوط أن يقتلع نفسه ، بل أمر غابات بأكملها أن تفعل ذلك أو أن أمر الجبال فتضطرب وتميد والأرض فتثّن وتزجر ، وأطياف الموق فتخرج من قبورها ، والقمر أيضاً أجذبه من السماء رغم صنوج تيميسا البرونزية^(١٠) التى تدق لتخفف من عنائه . إن جمالى يُزرى برونق مركبة جدّى^(١١) ويفقد الفجر أطيافه بفعل عقاقيرى ، أنتم الذين أعنتم على تهدئة وهج أنفاس الثورين ووضعتم عليهما النيرين ليمضيا بالمحراث المعوج ولم يكونا قد جرّا شيئاً قبل ، وأنتم الذين أترتم المحاربين الذين نبتوا من زرع أنياب الأفعى ليقتل بعضهم البعض الآخر ، وأرسلتم النوم إلى عينيّ التنين الذى لم ينم من قبل أبداً ، ثم أسلمتم الفروة الذهبية إلى اليونان . ما أحوجنى اليوم إلى عقاقير تعيد نُصرة الشباب إلى شيخ فان وتردّه إلى مقتبل العمر ، وسوف تهبونها إياى بعد أن لمعت النجوم استجابة لندائى ، وأقبلت مجموعة من التنانين المجنّحة بهذه المركبة التى أوقفتها بجوارى » .

٢٢٠ واعتلت ميديا المركبة التي كانت قد هبطت إليها من السماء وربتت على أعناق التنانين التي تجرّها ، وحركت أعتتها فانطلقت في الفضاء ، وأطلّت على وادي نهر تمّجى في ئيساليا ثم وجّهت تنانيتها جنوب المناطق التي ستحلّ بها . وعكفت ميديا على فحص أعشاب جبل أوسّا ثم اتجهت إلى هضاب جبل بيليون المرتفع وجبل أوثريس وجبل بيندوس وأوليمپوس^(١٢) أعلى الجبال قمما وجمعت منها الأعشاب التي اختارها ، بعد أن اقتلعت بعضها من جذوره واقتطعت البعض الآخر بالنصل المقوس لسكين من البرونز ، ثم جمعت حشائش أخرى من شواطئ نهر أييدانوس ، ومن أمفريسوس وإنبيوس ، وپنيوس ، ومستنقعات سپيرخيوس ، ومن شواطئ بويي^(١٣) التي ينمو بها الغاب ، كما اقتطعت من أنثيدون المقابلة ليوبويا ذلك النبات الذي نال شهرة كبرى لما له من أثر في إطالة العمر بعد ما فعل فعله في جسد جلاوكوس^(١٤) .

٢٤٠ وأمضت ميديا تسع ليال وتسعة أيام تطوف البلدان في المركبة التي تجرها التنانين المجنّحة ، حتى إذا ما عادت إلى دارها وقفت على عتبتها دون أن تنفذ إليها متجنبة نخالطة الذكور ، وشيّدت محرايين في العراء أحدهما على يمين الدار والآخر على يسارها وجعلت الأيمن لهيكاتى والأيسر لربة الشباب^(١٥) ، وغطتها بأكاليل من غصون الأشجار التي تنمو في الغابة ، وحفرت خندقين قرييين ملأتهما بدماء شاة سوداء اللون ذبحتها قربانا ثم ملأت كئوساً من النبيذ وأخرى من اللبن وسكبتها فوق الدماء في الخندقين ، ثم تمتمت بتعاويذها منادية جان الأرض ، متوسلة إلى ملك الظلال ومليكتة المخطوفة ألا يسلبا العجوز الحياة ، وأخذت تكرر الصلوات حتى أثارت عطفهم جميعاً . وعندها طلبت من چاسون أن يحمل أباه إلى خارج الدار حيث فرشت بساطاً من الأعشاب المثورة أضجعت عليه الشيخ الفاني وأخذت تتلو عليه تعاويذها حتى استسلم للنوم العميق ، ثم أمرت ابنه وأتباعه أن ينصرفوا عن المكان وحذرهم من أن تقع أعينهم غير المتهيئة للسحر على مشهد الطقوس السحرية التي سوف تؤديها فاطاعوا وتفرقوا ، بينما أخذت هي تدور وحدها حول المحرايين بشعرها المرسل كأنها إحدى عابدات باكخوس ، وغمست مشاعلها الخشبية المشقوقة أعواداً دقيقة في الحُفَر المليئة بالدم الأسود حتى تشرّبت ، ثم أشعلتها ووضعتها على المحرايين ، وطهرت الشيخ بالنار ثلاث مرات ، وبالماء ثلاث مرات ، ثم بالكبريت ثلاث مرات ، بينما كانت قد وضعت فوق النار قدراً تطهو فيه الجذور التي جمعتها من وديان هايمونيا والبذور والأزهار ذات العصارات الحريفة . وكانت هذه مقومات سائل قوى الأثر يغلى ويفور بزبد أبيض في القدر ، ثم أضافت إليها الأحجار التي جلبتها من أقصى الشرق ، والرمال التي غسلتها بمياه الأوقيانوس ونُدف الثلج التي جمعتها بالليل على ضوء القمر ، ولحم بومة مرعبة وجناحيها ، وأحشاء غول وهو ذلك المَسْخُ العجيب الذي يستبدل بقسماته الحيوانية أحياناً قسماً بشرية ، ولم يفتها أن تضيف الجلد ذا الحرافش لشعبان مائي يسكن مياه كينييس في ليبيا وكبد وعل معمر ورأس غراب عمّر ما يربو على أكثر من أجيال تسعة ومعه منقاره ، إلى جانب آلاف العناصر الأخرى الغريبة التي لا أسماء لها ، والتي كانت تستهدف من مزجها إنجاز مهمة تفوق طاقة البشر .

٢٨٠ وأمسكت ميديا بغصن شجرة زيتون جاف ، وأنعدت تحرك به هذا المزيج الذي تحول إلى سائل وهو يغلى على النار ، فما لبث الغصن الجاف أن اخضرّ وأورق ، وسرعان ما أصبح محملاً بالكثير من عناقيد الزيتون ، وكلما غلى السائل وانسكبت قطرات من القدر البرونزي على الأرض اخضرت البقعة التي تقع عليها ونمت بها الحشائش وتفتحت فيها الأزهار . وعندما اطمأنت ميديا إلى ذلك أمسكت بسيفها وشقت به حلق الشيخ الطاعن في السن وتركت دمائه الهرمة تسيل منه حتى جفت عروقه ، وأخذت تملؤها بالشراب الجديد الذي امتصه أيسون عبر الجرح الذي أحدثته ميديا في فمه أيضاً ، وسرعان ما زال الشيب من شعر لحيته ورأسه واصطبغ بالسواد من جديد ، وغابت مظاهر الشيخوخة والضعف واختفى شحوب وجهه ، واكتنز لحمه تحت التجاعيد فبسطها ، واكتسبت أطرافه قوة الشباب ، وتعجب الملك الشيخ من هذا التغيير الذي أعاده إلى حالته التي كان عليها منذ أربعين عاماً مضت .

وحين شاهد باكخوس المعجزة من علياء سمائه أدرك أن الشباب من السير رده ثانية بالمثل إلى مرضعاته ، وأن اليد الطولى في هذا تعود إلى ميديا أميرة كولخيس ، ومن ثم طالبها بتحقيق هذه الأمنية فرضخت لندائه .

پلیاس

٣٠٠ ولم تنته أعمال ميديا السحرية عند حد ، فلقد قصدت ذات يوم دار پلیاس شقيق أيسون والذي انتزع منه العرش ، وادعت أن خلافاً وقع بينها وبين زوجها وطلبت من الملك أن يأذن لها بالإقامة عنده ، فرحبت بها بناته بدلاً منه لأنه كان واهن القوى أحنت الشيخوخة ظهره . ولم تمض أيام قليلة حتى اكتسبت ميديا الماكرة محبتهم متظاهرة بصداقتهم ، وقصت عليهن ما بذلته من عون لچاسون ثم عرجت على قصة إعادة الشباب إلى أبيه أيسون ، فأسهبت فيها وأطالت حتى حرّكت أمل بنات پلیاس في إمكان استعادة أبيهن لشبابه بالطريقة نفسها ، فأخذن يتوسلن إليها أن تفعل لأبيهن ما فعلته لأب چاسون مقابل ما تشاء .

وصممت ميديا طويلاً متظاهرة بالتردد في قبول طلبهن ، مدّعية أنها سوف تفكر في الأمر ملياً . وطال قلق المتوسلات وهن ينتظرن ، ثم كان أن وعدتهن بتقديم عونها لهن قائلة : « لكى أبث الطمأنينة في قلوبكن فسوف أحول الكبش المسن الذي يتقدم قطعان غنمكم إلى محل صغير بدوائى السحرى » . عندها أخضرن لها كبشاً كثيف الفروة ملتوى القرون واهن الخطو قد بلغ أرذل العمر ، فأحدثت بسكينها جرحاً في حلقه خرجت منه بقعة دم علقت على نصل السكين ثم أمسكت بالكبش فغمست قوائمها في وعاء مليء بأعشاب قوية السحر ، فأخذت قوائم تنكمش وقرونها تحترق وتزول وتذهب عنه آثار السنين . وإذا الجمع يسمع فجأة نغاء خافتاً يتردد وسط الوعاء النحاسى الذى قفز منه حمل صغير يتلفت باحثاً عن أمه .

٣٢٠ فتحرّكت الدهشة في قلوب بنات پلياس ، وأقنعهن الدليل بصدق وعدها ، وعاودن إلحاحهن بأن يكون لأبيهن حظه من هذا السحر .

٣٤٠ حطّ فوبيوس إله الشمس عن جياده المجنّحة عدّتها بعد هبوطه إلى مياه أيريا ثلاث مرات . وفي الليلة الرابعة وبينما كانت النجوم تبرّق في السماء وضعت ابنة أيتيس المخادعة قدراً كبيراً على نار مشتعلة بعد أن ملأته ماء خالصاً أضافت إليه بعض أعشاب لا أثر لها من السحر ، وتمدّد الملك وأغفى كأنه أخذته سنة من نوم شبيه بالموت ، وتلت ميديا تعاويذها التي جعلت الملك يغطّ في نوم عميق ، وقالت ميديا لبنات الملك الواقفات حول فراش أبيهن : « كيف وقفتن جامدات لا تفعلن شيئاً ، ألا فلتمسكن بسيوفكنّ واطعنّ بها أباكنّ حتى ينسكب دمه كى أبدأ بعد ذلك بملء شرايينه بدم الشباب ، فحياة أبيكنّ وتجديد شبابه بين أيديكنّ ، فإن كنتن تحبينه فلتقمن بواجبكنّ نحوه . أطرذن شيخوخته بضربات سيوفكنّ لتخرج مع دم جسده الفاتر » . وأثارت هذه العبارات حماستهن فأقدمن على خطة لم يكنّ يعلمن شرّ عاقبتها ، وأمعنّ في طعن والدهن إظهاراً لعمق جبهن وإن تحاشين النظر إليه وهن يفعلن ذلك ، فنهض الملك مثقلاً بالجراح مشوّهاً تغطيه الدماء ، وحاول أن يرّد سيوف بناته التي أشرعت من حوله فلم يفلح وصاح بهن وهو يئن « ماذا دهاكن يا بناتي وما الذي جعلكن تشهرن السيوف لتقضين على أبيكنّ ؟ » . وسرعان ما خارت عزيمة بنات الملك بعد سماع كلماتهن وخانتتهن شجاعتتهن ، فعاجلته ميديا قبل أن يتفوه بكلمات أخرى بطعنة في حلقه ، ثم حملته وألقت بجسده في الماء المغلي ، وأسرعت تطير في الهواء تحملها دوابها المجنّحة قبل أن يبحق بها مكروه . وحلّقت طائرة فوق جبل پيليون المكسو بالغابات حيث دار فيليرا [أم القنطور خيرون] ، وفوق أوتريس والمناطق التي اكتسبت شهرتها منذ طوفان ديوكاليون الذي طغت فيه مياه البحر على الأرض فأغرقتها ، فتجمّعت حوريات البحر حول كيرامبوس^(١٦) [ومسخره جُعرانا] ثم حملنه وطرن به في الهواء فأنقذه من الغرق في الطوفان .

٣٦٠ وبينما كانت ميديا في طيرانها أشرفت على مدينة بيتاني الأيولية^(١٧) التي ينتصب فيها تمثال الأفعوان الحجري الضخم^(١٨) ، وفوق غابة إيدا^(١٩) حيث أخفى باكخوس العجل الذي سرقه ابنه بعد أن حوّل إلى وعل^(٢٠) ، وفوق المكان الذي دُفن فيها والد كوريشوس^(٢١) وقد طواه كثيب من رمال خفيفة ، واستمرت محلّقة فوق تلك الحقول حيث تنبج مايرا^(٢٢) فيملاً نباحها الغريب لقلوب الرجال رعباً ، وفوق مدينة يوريبيلوس حيث نبتت القرون في جباه سيدات جزيرة كوس^(٢٣) لحظة رحيل هرقل ورفاقه عن بلادهم ، كما حلّقت فوق رودس الجزيرة التي أحبها فوبيوس وفوق مدينة ياليسوس مقرّ التلخينيين^(٢٤) الذين كانت أعينهم تنال بالسحر كل ما تقع عليه فأغرقهم جوبيتر في مياه شقيقه نبتون ، ثم أطلّت على كارثيا إحدى مدن خيوس القديمة التي أصيب فيها السيداماس^(٢٥) يوماً بالذهول حين أنجبت ابنته يمامة ودبعة . كما شاهدت بحيرة هيرييه وتمهى^(٢٦) موطن سيجنوس التي اشتهرت بعد أن تحوّل الأخير إلى طائر البجع . وفي ذلك الموقع كان فيليوس نزولاً على إرادة الغلام سيجنوس قد قدم له طيوراً جارحة كان قد استأنسها وأسداً كان قد روّضه ، ثم طلب إليه سيجنوس أيضاً أن يروّض ثوراً وحشياً فأبى أن يفعل

ذلك ، إذ لم يكن الغلام يبادلُه عاطفة بعاطفة . وأخيراً أبى فيليوس أن يستجيب لإلحاح ذلك الصبي فيروّض له ثوراً إرضاءً له ، فصاح فيه سيجنوس غاضباً « عما قريب ستقول يا ليتنى روّضت لك الثور »^(٢٧) . ومضى سيجنوس فالتقى بنفسه من فوق صخرة عالية فظن الجميع أنه مات على حين أنه تحوّل إلى طائر البجع ، وأخذ يرفرف في الهواء بجناحين في بياض الجليد ، وباتت أمه تبكيه حتى ماتت فتحوّلت إلى بركة تحمل اسمها . وعلى مقربة منها بليورون^(٢٨) التي طارت إليها كومبى ابنه أوفيس^(٢٩) فراراً من أبنائها الذين كانوا يريدون إيقاع الضرب بها . وألقت ميديا بعد ذلك نظرة على حقول كالاوريا^(٣٠) المكرّسة لابن ليتو [لاتو]^(٣١) والتي تحوّل ملكها وملكيتها إلى طائرين ، ولمحت على يمينها كيلينيّه حيث قدّر القدر أن يأتى مينيفرون بها ما تأتية البهائم ، وذلك حين غشّى أمّه ، ورأت غير بعيد سيفيسوس ينعى مصير حفيده الذى حوّل أبوللو إلى فقمة ، كما رأت كذلك دار يوميلوس^(٣٢) الحزين على ولده الذى تحوّل إلى طائر . وأخيراً وصلت بدوابّها المجنّحة إلى كورثته حيث ينبثق الينبوع المقدس « بيرينى » ، وحيث كانت تتوالد من نبات عش الغراب كائنات حيوانية تنتعش مع المطر^(٣٣) .

ولم تكد عروس چاسون الجديدة تموت بعد أن هراً الثوب المسموم الذى بعثت به إليها الأميرة الكولخيسية ، ويشهد البهران على كلا جانبي البرزخ اضطرام النار في دار الملك ، حتى حملت ميديا سيفها المخضب بالدماء بعد أن انتقمت انتقامها المروّع بقتل أبنائها من چاسون وهربت فراراً من غضبه ، فحملتها دوابّها المجنّحة إلى مدينة أثينا قلعة باللاس حيث طارت فينى أشرف النساء في صحبة بيريفاس^(٣٤) المعجوز ، وكذلك حيث طارت ألكيونى^(٣٥) حفيده پوليسيمون محلّقة عالياً بجناحيها اللذين اكتسبتها . وفي أثينا رحّب الملك أيجيوس بميديا ، ولم يكتف بلباؤها بل اتخذ منها زوجة له^(٣٦) .

ثيسـيوس

وإلى أثينا وصل ثيسـيوس الذى وطّد السلام وأشاع النظام في أنحاء البرزخ المحاط بالبحرين ، ولم يكن الملك أيجيوس يعرف أنه ابنه ، فحرصت ميديا على أن تعدّ له شراباً من جذور البيش السامة « الأقونيطن » التى كانت قد جلبتها معها من شواطئ سكوثيا والتي يقال إنها نبتت أول ما نبتت من أنياب الكلب الإخيدنى كيريروس الذى عاش داخل كهف مظلم ينفذ منه طريق إلى العالم السفلى وهو الطريق الذى اجتازه هرقل بطل تيرينث ، بعد أن شدّ وثاق كيريروس بسلسلة من الفولاذ ، بينما كان الكلب يقاوم ويدبر رأسه بعيداً عن ضوء النهار . وحين تملك كيريروس ثورة الغضب ملأ الفضاء بنباحه القوى الصادر عن رءوس ثلاثة ، فأخذت قطرات اللعاب التى هى أشبه ما تكون بالزبد الأبيض تتناثر من خطمه^{٤٢٠} هنا وهناك في الحقول الخضراء ، وإذا هى تثبت وتضرب بجذور لها في التربة الخصبّة التى أينعتها ، وإذا هى تُنبت نباتاً ضاراً من جنسها ، وإذا انبثق هذا النبات وسط الصخر لذا سمّاه أهل الريف أزهار الصخر « الأقونيطن » . وأمسك أيجيوس الكأس المسمومة ليقدمها لهذا الطارىء وكأنه يقدمها لخصم من خصومه

وكانت ميديا قد أخفت عليه أن هذا الطاريء ابنه . وما إن رفع ثيسيوس الكأس إلى شفثيه وهو لا يدرى ما دُبِّرَ له حتى أبصر الأب نقش شعار أسرته على المقبض العاجى لسيف البطل ثيسيوس فإذا هو يعرف في التّوَّان هذا الطاريء ابنه ، فأطاح بالكأس القاتلة عن شفثيه . فخفّت ميديا وولّت وجهها هرباً خوفاً من الموت الذى كان يتعقبها ، وإذا هى تطويها السُّحب بين طيّاتها وكانت قد أهابت بها بتعاويذها لتنجو .

وأحس أيجيوس رغم سعادته بنجاة ابنه بشيء من الفزع لهذه الجريمة البشعة التى كادت أن تقع فأشعل المصابيح على المحاريب ، وأتى بالثيران المزدانة الرؤوس بالأكاليل وذبحها قرباناً للإلهة ، فكان يوماً مشهوداً فى حياة الأثينيين ، إذ اجتمع كبار القوم وعامة الشعب فى حفل ترفرف عليه البهجة ، أطلقت الخمر فيه الألسن فراحت تتصايح : « شكراً لك ولشجاعتك يا ثيسيوس العظيم ، يا فخر ماراثون ، لأنك قويت على ذبح الثور الكرىقي^(٣٧) ، ولأنك منحت فلاحى الحقول الممتدة حتى كروميون^(٣٨) الطمأنينة بعد قتلِكَ للخنزير الوحشى . لقد شهدت أرض إبيداوروس مصرع ابن فولكانوس المسلّح بالهرواة على يدك^(٣٩) ، كما شهدت شواطئ سيفيسوس نهاية پروكروستيس القاسى^(٤٠) ، ورأت إليوسيس المدينة العزيزة على الإلهة سيريس موت سيرسيون^(٤١) ، كما قضيت على سينيس الذى كان يتعدّى طوره بقوته الخارقة فيثنى جذوع الأشجار ويُمِيل قمم أشجار الصنوبر حتى تلمس الأرض ويربط بها ضحاياها لتتمزق أعضاؤهم وتتناثر ، وأصبح الطريق إلى ألكاثوى^(٤٢) مدينة ميجارا بفضلك آمناً ومُباحاً للجميع منذ قتلت اللص سكيرون الذى رفضت الأرض والبحار أن تضم رفاتهِ فظلت الرياح تتقاذف عظامه حتى صارت مع الأيام صخوراً ارتبط بها اسم سكيرون . ولو أنا شئنا أن نحصى أمجادك ووازناها بسِنى عمرك لأزبّت عليها عدداً ، وكم نتمنى لك يا أشجع الأبطال أعظم الأمنيات فنرفع الكئوس تكريماً لك » . ودوى تصفيق الشعب ودعواته فى جنبات القصر الملكى ولم يعد فى المدينة مكان لم يعمه الفرح .

آياكوس

إن السعادة الخالصة لا تدوم ، فسرعان ما تتسلل الهموم لتعكر صفو الأفراح ، وهكذا تغيرت فرحة أيجيوس بعودة ولده إلى قلتي بإعداد مينوس^(٤٣) ملك كريت العدة للحرب انتقاماً لمقتل ابنه أندروجيوس . وكان لمينوس جيش قوى وأسطول جبار ، كما كان يطوى صدره على حقد دفين ، فحرك سفنه السريعة التى تمثل قوته الضاربة ليكتسح بها البحار ، وأخذ يجمع جيوشاً من حلفائه كى يحاربوا إلى جانبه . فاستمال إليه جزيرة أنافى بوعود قطعها على نفسه ، وضم إليه جزيرة أستيباليا السيكلادية قسراً ، وانضمت إليه جزيرة ميكونوس الخالية من المرتفعات ، وجزيرة كيمولوس ذات التربة الطباشيرية ، وجزيرة سيروس التى ينمو بها الزعر البرى ، وجزيرة سيريفوس المنبسطة السهول ، وجزيرة پاروس المترعة بالرخام الجميل ، وجزيرة سيفنوس التى باعته الخائنة آرنيه الطرواقية^(٤٤) للأعداء لقاء ذهب دفعها جشعها إلى

طلبه منهم ، تلك الفتاة التي تحولت بعد حصولها عليه إلى طائر يسمى غراب الزُّرْع الأسود القدمين والجنّاحين ، والتي ظلت تهيم بحب الذهب إليها بعد تحولها طائراً . غير أن أوليافوس وديديمي وتونس وأندروس وجياروس وبيباريوس التي تتكاثر فيها حبّات الزيتون الناصعة أبت أن تدعم أسطول ملك كريت .

واتجه مينوس إلى أوينوبيا مملكة أياكوس التي أطلق عليها اسم أمه إيجينا فخرج لاستقبال مينوس حشد كبير من الناس مرّحين به في حماس ، وأسرع للقاءه تيلامون يصحبه شقيقاه بيليوس وفوكوس اللذان يصغرانه . كذلك خرج أياكوس يمشي واهناً تحت ثقل شيخوخته مرّحاً بمينوس وسأله عن السبب في قدومه إلى بلاده ، فقال له عاهل المدن المائة الحزين على ولده : « جئت أنشد عونك في الحرب التي أخوضها لأثار لابني ، وكم أود أن تمدّني ببعض رجالك ليكونوا جزءاً من جيشي في تلك الحرب العادلة . إني أناشدك أن تمدّني يد المعونة لأستطيع أن أهوّن عن نفسي ما أجده من وحشة لابني في قبره » . فأجابه أياكوس حفيد أزوبوس قائلاً : « أن أجيبك إلى ما تطلب من المحال بمكان ، فليست ثمة بلاد أوثق تحالفاً مع بلاد آل كيكرويس [الأثينيين] منا ، فبيننا معاهدات وثيقة » . ووجم مينوس وانصرف وهو يقول : « لتجنّون شرّ ٤٨٠ العواقب الوحشية من جراء تلك المعاهدات » . قال هذا إيثاراً منه بأن يلوّج بالحرب دون أن يتورط في إشعالها فيبدّد طاقاته سريعاً .

ولم يكن الأسطول الكريتي قد ابتعد كثيراً عن شواطئ أوينوبيا حين أقبلت على مينائها سفينة مسرعة من أثينا تحمل كيفالوس برسالة من بلاده . وتعرّف أبناء أياكوس على كيفالوس رغم مرور زمن طويل على رؤيتهم السابقة له ، وصافحوه في حرارة ومضوا به إلى قصر أبيهم . وكان كيفالوس يسترعى أنظار المارة بوسامته التي ظل محتفظاً بها ، وبغصن الزيتون الذي يحمله رمزاً لبلاده ، ويسير وسط سفيرين من أبناء أثينا أصغر منه سنّاً هما كليتوس وبوتيس ابناً باللاس . ٥٠٠

وبعد تبادل التحيات المتعارفة ألقى كيفالوس نص رسالة شعب أثينا الذي ينتظر العون من حلفائه وفقاً للمعاهدة التي وقّعها الأسلاف ، والوقوف في وجه مينوس الذي يعتزم بسط سيطرته على اليونان بأسرها . وحينما انتهى السفير من رسالته ذات المنطق الدالّ والعبارة البليغة ، أجابه أياكوس وهو قابض بيده اليسرى على صولجانه قائلاً : « يا أهل أثينا لكم ماشتم من عون من غير أن تسألوني إياه ، وليكن كل ما نملك من قوة عسكرية أو ثروة مادية دون تردد ملكاً لكم ، ولا تعوزني هنا الموارد ، كما أن لي من الجند فوق ما أحتاج للدفاع عن بلادى ضد الأعداء ، وشكراً للآلهة على ما أعطتني . وهكذا ترى أنه ليس لي ثمة عذر للتخلّف عن عونكم » . فرد عليه كيفالوس : « ليذمّ لكم رخاؤكم ولينبّم مع الزمن ، وكم اغتبطت الغبطة كلها منذ أن وطئت قدمي بلادكم بقاء هذا العدد الغفير من شبابكم المملوء فتوة ووسامة ، غير أني لا أجد هنا الكثير ممن سعدت بلقائهم في زيارتي الأولى لكم » . ٥٢٠

وتنهّد أياكوس وبدت في صوته رنة أسي وهو يجيب قائلاً : « لقد عشنا محنة قاسية قبل أن ننعم بهذا الرخاء الذي تشهده الآن ، وسوف أسرد عليك الأحداث المتلاحقة لهذه المحنة دون أن أضيع وقتك سدى

بالأحداث العارضة . فقد ذهبت المحنة بهؤلاء الشبان الذين تحاول عبثاً أن تلقاهم وهم على هذا لا يمثلون غير جزء ضئيل من فقدناهم .

الطاعون في إيجينا

عمّ البلاد طاعون مُهلك أرسلته علينا الإلهة چونو غضباً وحقداً على بلادنا التي تحمل اسم غريميتها^(٤٥) ، ولقد حسبناه بادی ذی بدء وباء عاماً لم ترسله علينا قوى إلهية ، فإذا نحن نقاومه بوسائلنا الطبية غير أن هذه الوسائل لم تلبث أن انهارت أمام تلك المحنة القاسية الضارية .

كانت السماء قد أعتمت في الأيام الأولى وأرسلت ضباباً كثيفاً جثم على الأرض حابساً فيها هواء ومبدأ ما لبث أن أتى على نشاط الناس وحيويتهم ، واكتمل البدر مرات أربع وعاد هلالاً مرات أربع ، وريح الجنوب تهب حارة محرقة ، ومياه الينابيع والبحيرات قد تلوثت بالجراثيم التي نشرتها آلاف الثعابين الزاحفة عبر الحقول الجرداء في الجداول والأنهار ، وأخذ الوباء بضراوته يعاجل الكلاب والطيور والأغنام والثيران والوحوش فبدأت تتساقط ميّنة ، وعمّ الأسى المزارعين التمساء وهم يشهدون ثيرانهم القوية تهوى صرعى وهي تحرث ، وكباشهم الكثيفة الصوف تنث تحت ثقل المرض ويتساقط صوفها وتضمّر أجسادها ثم تنفق ، ولم تعد الجياد تعرف حلقات السباق وقبعت في أماكنها تنث أين الموت . كذلك لم تعد للخنزير البرى ضراوته ، وفقد الغزال سرعته التي كانت تعينه على الفرار من الوحوش ، وجمدت الدببة عن التصدّى لقطعان الماشية إذ غدت أكثر منها ضعفاً ، وتعفنت الجثث في الغابات والحقول والطرق وملاّت رائحتها الكريهة الهواء . والغريب أن الكلاب والذئاب والطيور الجارحة قد عافت هذه الجثث فتركتها تتحلل وتفنى مدنسة الأجواء بنتنها ، ناشرة الوباء في الآفاق الفسيحة .

واستفحل خطر الوباء حين انتشر بين الفلاحين البؤساء وسقطت مدينتنا الكبرى فريسة له . وكان يبدأ دائماً بأمعاء ضحايه فيجعلها تضطرم حرارة تحمّر معها جلودهم وتلهث أنفاسهم ، ثم تنتفخ ألسنتهم وتخشوشن ، وتحف شفاههم وتظل منفجرة تحاول التقاط الأنفاس من الهواء الحار الملوث . ولم يكن المرضى يطبقون البقاء في الفراش أو يحتملون غطاء فكانوا ينبطحون على الأرض طلباً لسطح ندى ، غير أن الأرض كانت ترتد ساخنة عندما تلامسها أجسادهم . وعجز الأطباء عن الكشف على المرضى لتفشى المرض بينهم هم أنفسهم ، بل لقد أصبحت مهنة الطب أقصر الطرق إلى التقاط العدوى ، فكلما كان الطبيب أكثر مخالطة للمريض وتفانياً في رعايته عجل ذلك بإصابته ثم بموته . ودفع اليأس المرضى إلى الاستسلام لنزواتهم وإهمال ما كان يمكن أن يكون فيه خيرهم ، فتابعدوا عن العفة والوقار ، ورابطوا عند الينابيع والأنهار يحاولون إطفاء ما أصابهم من ظمأ لا يطفئه إلا الموت ، إذ كان بعضهم ينحنون على الماء الجاري ليشربوا منه ، ثم إذا هم أعجز ما يكونون عن أن ينهضوا فيموتون غرقاً في هذا الماء الذي جاءوا إليه ليطفىء حرارة أجسامهم ، وبالرغم من ذلك كان غيرهم يتوافدون بلا انقطاع على المياه . وكان كثير من

هؤلاء البؤساء يضيّقون برقدتهم على الفراش ويزحفون بعيداً عنه ، وكان بين من تحوّنهم قواهم من يتدحرجون إلى الأرض فراراً من دورهم التي كانوا يخالون أن الموت جائم فيها ، فلقد حسبوا جهلاً أن دورهم الخائفة هي علّة مرضهم . وكان ثمة مرضى تغشاهم حالة بين اليقظة والغيوبة يهيمون على وجوههم في الطرقات ما وجدوا القدرة على السير ، بينما كان الآخرون الذين لا يقوون على الحركة ينوحون راقدين محدقين بنظراتهم الزائغة في الأفق ، رافعين أيديهم إلى السماء إلى أن يفاجئهم الموت فيلفظون أنفاسهم وهم على هذه الحال .

٥٨٠

فإذا كنت سائلي عما كنت أشعر به حينذاك ، فلقد كنت أياس ما أكون من الحياة ، وكم تمّنت أن يكون مصيرى مصير شعبى ، إذ كنت حيثما أجلتُ البصر رأيت أجساداً هنا وهناك متناثرة فوق الأرض وكأنها تفاحات يانعة قد اكتمل نضجها فتساقطت من أشجارها ، أو كثمار البلوط المتناثرة تحت شجرتها التي عركتها العاصفة . أرايت هذا المعبّد المواجه لنا فوق التلّ والذي نرقى إليه بدرج ؟ إن الذى يسكنه هو جوبيتر . أو تظنّ أنه لم يجد من يُقدّم له القرابين ويُطلق البخور على مذابحه ؟ لقد وجد يقيناً الكثير منهم ، غير أن شيئاً من ذلك لم يُجد نفعاً في كشف الغمّة عنا . وكم من أزواج صلّوا من أجل زوجاتهم ، وكم من آباء صلّوا من أجل أبنائهم ، فسقطت زوجاتهم وأبنائهم موقى عند المحارب قبل أن تُسمع دعواتهم وقد أظبقوا أكفهم على أعواد البخور التي كانوا يبغون إحراقها . كما كانت الثيران التي ساقوها إلى المعابد تنفق قبل أن تُنحر ، بينما كان الكاهن يتلو عليها صلواته ويصبّ النبيذ بين قرونها . وقد حدث حين قدّمتُ أنا قرباناً لجوبيتر عنى وعن بلادى وعن أولادى الثلاثة أن صاح ثور القربان فرعاً وسقط على الأرض ، فلما أعملت السكين في حلقة لم تقطر منه سوى قطرات قليلة من الدم ، فلقد أسلم روحه قبل أن يُذبح .

٦٠٠

على أن أحشاء الحيوان التي ماتت بهذا الطاعون لم يوجد فيها ما يكشف عن كنه الوباء أو ما يحمل نذيراً من نذر الآلهة . فقد كان هذا المرض المروع يسرى في الجسم حتى يبلغ الأحشاء فيقضى على صاحبها عاجلاً . وكم رأيت من جثث على عتبات المعبد وأخرى بين يدى المحراب وكأنما أراد ذووها بميتتهم هذه في تلك الأماكن أن يسترحموا الآلهة ، وقد خلصوا من الحياة بخنقهم أنفسهم بالحبال هرباً من رعب الوباء ، فعجّلوا مُريدين إلى هذا المصير المحتوم . ولم تكن ثمة طقوس جنازية لأولئك الموقى الذين أوى عليهم الطاعون ، كما لم تُحمل جثثهم لتُدفن خارج المدينة كما هي العادة إذ لم تكن أبواب المدينة تتسع لمرور هذه الجنازات التي لا تُحصى فتركت كثرة من الجثث على وجه الأرض ولم تُوار في مقابر تسترها ، وكذا تراكت جثث أخرى فوق المحرقة دون أن تظفر بطقوس الإحراق ففقدت مناسك الإحراق قدسيّتها ، وإذا الناس يتدقّقون بجثث أخرى إلى المحارق ليزاحوا غيرهم عليها . ولم يترك هذا الوباء لباك أن يبكى فقيده ، وكم من أطفال وآباء وشباب وشيوخ ولّوا دون أن تُدفن عليهم دمة ، وضاعت الأرض بموتها فلم يعد ثمة مكان لقبرٍ ما ، كما لم يبق من الأشجار ما يكفى لإيقاد نيران المحارق .

الميرميدون

وأصابني هول الكارثة بالأسى العميق فأدريت وجهي للسماء أصبح منزعجاً : « أي جوبيتر ، إن حقاً ما يقال إنك ضاجعت أُمِّي إيجينا ابنة أزوبوس ، وإنك تُقرُّ أيها الإله القدير ببنوق من غير حياء ولا خجل ، فأعدُّ إلى رعاياي أو فلتَمِتْنِي معهم » . وإذا أنا أرى وميض برقٍ وأسمع قصف رعدٍ ، فأيقنت أن جوبيتر استجاب لدعائي ، فانطلق لسانى يقول : « إلهي ، لقد لقيت معنى إشارتك التي أرجو أن تكون بشارة خير لي ، ثم أهلا بهذا الوعد الذي وعدتني به » .

٦٢٠

ونظرتُ إلى شجرة البلوط القريبة المتفرعة الأغصان التي هي وقفٌ على جوبيتر والتي هي نبتةٌ من بذرةٍ من أجمة دودونا المقدسة^(٤٦) ، فإذا أنا أرى رتلًا طويلاً من النمل في أفواهه ذرات وهو يسير بها في شقٍّ من تجاعيد جذع الشجرة ، فتأملت مُعجَباً أعداده الغفيرة واتجهتُ إلى الإله داعياً : « يا أجل إله ، هب لي عدد هذا النمل أناساً يملأون بلادى الخاوية » ، فإذا شجرة البلوط تُرعد وإذا فروعها تتمايل ولا وجود لريح عابرة . ومع أنني كنت أرعدُ خوفاً وتأثراً انتصب معها شعر رأسي هُرَعْتُ لألثم الأرض والشجرة بقبلاقي وقد امتلأت نفسي آمالاً كتمتها في أعماقي دون أن أبوح بها لغيري .

وأرخى الليل سدوله واستسلمنا للنوم تحت وطأة الهموم ، ورأيتُ في منامي شجرة البلوط بفروعها وأعداد النمل الغفيرة عليها وهي تهتزُّ هزتها التي رأيتها في اليقظة ، وجموع النمل تتساقط منها حاملة الذرات منتشرة بها وسط الحقول . وعلى حين بغتة بدأت تبرز من الأرض مخلوقات صغيرة أخذت تكبرُ ثم تكبرُ حتى انتصبت وقد اختفت سيقانها الدقيقة وألوانها الداكنة ، فإذا هي على صورة البشر . وعندها زایل النوم جفوني حتى إذا عاودتني اليقظة إذا الحلم هباء لا حقيقة له ، فعزَّ على ما حرمتني إياه الآلهة . غير أن جلبة مُدوية في أنحاء قصري لفتت سمعي ، وخيل لي أنني أستمع إلى أصوات بشرية ما أطول حرمانى من الاستماع إليها ، وخیلتُ أن هذا لم يكن غير بقيةٍ من آثار النوم ، وإذا تيلامون يدفع على باب حجرى ويخطو نحوى قائلاً : « هلم يا أبى فسوف تشهد شيئاً فوق الآمال والخيال » . وخرجتُ فإذا أنا أرى الرجال أنفسهم الذين رأيتهم في منامي في صفوفهم نفسها التي كانوا فيها ، فأُنسْتُ بهم وإذا هم يُقبلون علىَّ ويحيونني تحية المليك . عندئذ وقيتُ نذرى لجوبيتر ، وفرقتُ دور المدينة وحقول الريف التي مات أصحابها بين أفراد هذا الشعب الجديد الذين سميتهم باسم الميرميدون^(٤٧) حتى يبقى ذكر الأصل الذى منه نبتوا مرتبطاً بالاسم الذى غَدُوا يحملونه ، ولقد رأيتهم أنت رؤية العين ؛ غير أنهم ظلُّوا يحتفظون بطبعهم فهم لا يزالون يُحسِنون الاقتصاد والتدبير ، ولا يُقعدهم الجهد ، ويحرصون على ما يقتنون ، ويحتزنون ما يجمعون ، ولسوف يكون لك منهم فى الحرب جنود يتماثلون سنّاً وشجاعة حالما تسكن ريح الشرق التي جاءت بك هنا لخيرنا [وكانت ريح الشرق هي التي جاءت به فعلاً] فينفسح المجال لريح الجنوب » .

٦٤٠

٦٦٠

كيفالوس وپروكريس

مضى النهار الطويل فى رواية القصص ، وشهدت ساعاته الأخيرة إقامة المآدب ، وأقى المساء فحملهم إلى النوم . وكانت الرياح الشرقية ما تزال تهبّ حينما أشرقت الشمس بأشعتها الذهبية ، وكانت السفن ما تزال راسية فى الميناء رغم الحنين العاصف إلى العودة ، فمضى ابناً باللاس فى رفقة كيفالوس للقاء الملك الذى كان نائماً بينما كان الأميران تيلامون وپيليوس منشغلين فى تعبئة الجند للحرب ، فقام فوكوس الابن الثالث للملك أياكوس باستقبال سفراء أثينا عند مدخل القصر ومضى بهم إلى أحد أبهائه الجميلة ، وقد لمح فى يد كيفالوس حفيد أيلولوس رجلاً من خشب مجهول نوعه صيغ له سنّ من الذهب فقال له متسائلاً : « إن اهتمامى بالغابات وبالصيد كبير ، ولذلك فقد أثار عجبى ذلك الخشب الذى نُحت منه رمحك ، لأنه ليس من خشب البلوط وإلاّ كان أصفر ، كما أنه ليس من خشب القرانيا وإلاّ كان ذا عَقْدٍ كثيرة ، إننى لا أدرى من أية شجرة هذا الرمح ، ومع هذا فإن عيني لم تقع على أجمل منه » ، فأجابه أحد السفراء قائلاً : « لسوف يثير إعجابك أدأؤه أكثر مما يثير إعجابك شكله ، فهو لا يخطئ هدفه ولا تحرف به المصادفات عن وجهته متى انطلق ، كما أنه يرتد من تلقاء نفسه إلى مُرسِله ملوّثاً بدم ضحيته دون أن يعيده أحد » . وتتابع أسئلة فوكوس سليل نيريوس عن الرمح ومصدره ومن أعطاه لكيفالوس . وأجاب كيفالوس على أسئلة الأمير ، غير أنه لم يفصح بشيء عن الثمن الباهظ الذى دفعه لحيازة هذا الرمح خجلاً وندماً . وبينما بدأت الكلمات تنساب من شفثيه اعتصرت قلبه ذكرى زوجته التى فقدها واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

« من يصدّق يا فوكوس يا ابن الإلهة أن هذا الرمح هو الذى يُدرّ اليوم عينيّ بالدمع كما سوف يُدرّهما بالدمع على مدى الأيام إن طال بى العمر ، وكم تمنّيت لو لم أملك هذا الرمح أبداً لأنه هو الذى قضى على زوجتى بالموت وقضى علىّ أن أعيش مهتدماً .

لعلك سمعت عن أورثيا الأميرة التى اختُطفَت من أثينا ، إنها أخت زوجتى پروكريس^(٤٨) ، ولو أنك قارنت إحداهما بالأخرى جمالاً وخُلُقاً لرأيت أن پروكريس كانت أولى بأن تُختطف من أختها ، وقد زوجنى منها أبوها إيرينثيوس ، وكانت عطاء الحب لى حتى نعتنى الناس بالسعيد . وقد كنت سعيداً حقاً ، ولولا إرادة الآلهة لبقيت سعيداً طول العمر^(٤٩) . ومع نهاية الشهر الثانى على حفل قراننا ، كنت أنصب شباكى صباحاً يوم لأصيد الوعول ذات القرون فلمحتنى أورورا ربّة الفجر التى كان نورها الزعفرانى قد قشع الظلمة فاستولت على لُبّى على الرغم منى . وكم أتمنى أن يؤذن لى فأقول الحقيقة دون أن أغضب هذه الإلهة . حقاً ، لقد كانت ربّة الحدّ الفاصل بين الليل والنهار وخلاّبة الحسن وردية الشفتين ، غذاؤها جرعات النكتار شراب الآلهة ، غير أنى كنت أعشق پروكريس التى كانت تحيا فى قلبى ولا ينطق فمى بغير اسمها ، فذكرتها بمواثيق الزوجية وبزفافنا الحديث وضمتّ عناقنا ولقاءاتنا فى عُش الزوجية الذى

غادرته منذ لحظات ، فإذا الإلهة تملأ حقدًا وتقول : « كُفَّ عن هذا التَّوَلَّه أيها الناكِر للجميل ، واحفظ عليك زوجتك . وإذا قُدِّر لي أن أرى المستقبل جلياً فإنك سوف تكون من النادمين إن أبقيت عليها » ، وصرفتني غاضبة لأرجع إلى زوجتي . وأخذت خلال عودتي أستعيد حديث الإلهة ، وبدأت الخشية تراود نفسي ألا تكون زوجتي آمنة على رباط الزوجية ، وكان جماها وشبابها يدفعاني إلى الشك في إخلاصها لي بينما كانت فضائلها تردني عن هذا الشك . ثم إنى كنت عائداً من عند إلهة زينت لي لوناً من ألوان الخيانة ، كما أننا نحن العشاق نرتاب في كل شيء عندما نعشق . وهكذا عزمْتُ على أن أختبر تلك التي كانت سبب هُمِّي ، وأن أحاول اختبار إخلاصها وعفتها بإغرائها بالهدايا . وضاعفت « أورورا » شكوكي ، فغيَّرت ملامح وجهي فشعرت أني تحولت من حال إلى حال .

دخلتُ أثينا مدينة باللاس في صورة لا يعرفني معها أحد ، ودلفت إلى بيتي فوجدت كل ما فيه ينطق بالطهارة والعفة وحُزن صاحبة الدار على غيبة زوجها . وبعد محاولات عدَّة نجحت في أن أحظى بمقابلة بروكريس فلما رأيتهما اهتزَّت نفسي وكدتُ أعرض عن اختبار إخلاصها ، ولم أستطع إلا بصعوبة منع نفسي من أن أعانقها كما كان ينبغي أن أفعل . كانت حزينة ، غير أنها رغم حزنها كانت أجمل من أى امرأة سواها فقد كان الأسى على بعد زوجها يُثقل على قلبها . ولك أن تتخيل يا فوكوس كيف كان سحرها والحزن يُضفي عليها فتنة طاغية . هل أقص عليك كم من المرات صمد طُهرها أمام محاولاتى ، وكم من المرات قالت لي : « إننى أصون نفسي لرجل واحد حيثما كان ، وإننى لا أُشركُ سواه في المتعة بى » ، فأى رجل عاقل لا يقع بهذا السلوك دليلاً على إخلاصها ؟ لكننى لم أفنع وجاهدت كى أطعن نفسي بنفسي . وانتهى الأمر بأن هَوَّنت من صمودها بعد أن ضاعفت عطايأى لها ووعدتها بثروة طائلة لقاء قضاء ليلة معها .

وعندها صرختُ في وجهها : « ما أسوأ حظك ، فليس هذا الذى يدعى العشق بين يديك غير زوجك . فمعى الآن البرهان على خيانتك » . وإذ طَوَّقها العار لم تنبس ببنت شفة وولَّت فارةً من زوجها المداهن وقد علاها الخجل ، تاركة الدار التي نصب زوجها لها فيها هذا الشرك . ومن أجل فعلتى نَبَذْتُ الرجال جميعاً ، وانبرت هائمة على وجهها في الجبال مكرسة نفسها لخدمة ديانا إلهة الصيد .

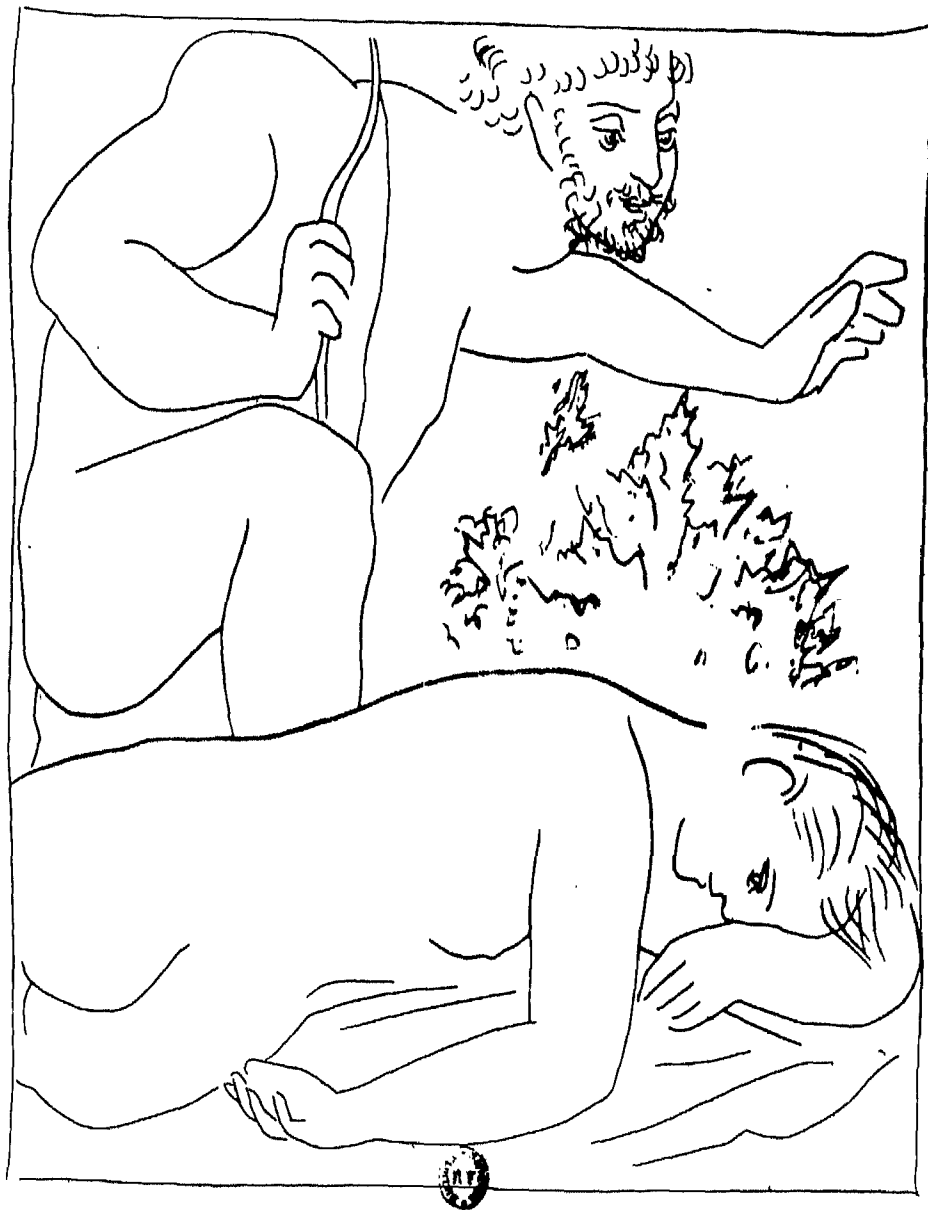
واشتعل حبى لها بعد أن تركتني بنار أشدَّ ضراوة مما كنت أحسها قبل ، ورُحْتُ أتوسل إليها أن تغفر لي ، واعترفت لها بخطئى وبأن تلك الهدايا لو قُدِّمت لي لتردَّيتُ في الخطأ نفسه ، وبعد هذا الاعتراف منى وبعد أن انتقمْتُ للإهانة التي طعنْتُ بها شرفها قبلت أن تعود إلى فأمضي معنا سنوات هائلة كنا فيها على خير وفاق . وكأنما لم تكتف بالهدية التي منحتنى إياها بعودتها إلى ، فقدَّمت لي كلباً كانت قد تلقته من الإلهة التي وضعت نفسها في خدمتها قائلة لها : « إنه يسبق جميع الكلاب الأخرى » ، كما أعطتني في الوقت نفسه هذا الرُمح الذى تراه الآن بين يدي . وإنك لا شك راغب في أن تعرف مآل هذه الهدية الثانية ، ولسوف يغلبك العجب حين تستمع إلى قصته الغريبة :

نجح أوديب بن لايوس في أن يفسر الأحاجي التي لم تبلغ كنهها العقول الأخرى ، وألقت سفنكس تلك العرافة الغامضة بنفسها من الجُرف فخدمت ميَّنة بالغازها وأحاجيها . ولا شك أن الإلهة المنصفة

ثيميس لم تكن لتقبل أن تترك هذه الخطايا دون جزاء^(٥٠) ، فأرسلت في التَّوْبلاء ثانياً إلى أيونيا جثم على مدينة طيبة في صورة وحش أثار الرعب بين سكان الريف خوفاً على أنفسهم وعلى قطعان ماشيتهم . فذهبتُ مع شباب البلاد المجاورة ونصبنا شباكنا حول السهل الفسيح ، غير أن الوحش تخطّأها بقفزة سريعة خفيفة وأفلت من حبال الشراك التي كنا قد شدّدناها . فأطلقنا خلفه مجموعات من الكلاب التي أفلت الوحش منها في سرعة الطير ، فصاح بي الجميع أن أطلق كلبى « لايلابس » وهو الكلب الذى أهدته إلى زوجتى بينما كان يجاهد محاولاً الإفلات من السلسلة المشدودة فوق عنقه ، ولم أكد أطلق سراحه حتى اختفى عن عيوننا فلم نعد نعلم مكانه . كان الغبار المثار يدلّ على آثار خطاه ولكنه اختفى عن عيوننا ، ولم يكن الرمح بأسرع منه ، ولا القذيفة المنطلقة من مقلع يتأرجح في الهواء ، ولا السهم النحيل المنبعث من قوس كرىتى .

وكان ثمة تلُّ يُشرف على الحقول المحيطة فتسلّقتُه وتطلّعتُ من فوقه إلى مشهد سباق فريد ، فكان يُخيّل لى أحياناً أن الوحش قد سقط بين فكى الكلب وأحياناً أنه أفلت من بين فكى . وكان الوحش بدهائه لا يمتضى عبر السهل على طريق مستقيم بل يميل مرّةً يميناً ومرّةً يسرة حتى يندفع خطّم الكلب الذى كان يتشمّم خطاه ، ثم ينثنى راجعاً ، يدور دورة ودورة ليُضِلّ من يطارده وتضطرب معه سرعة هذا المطارد . ومع هذا اقترب منه الكلب مجارياً إياه في سرعة العدو ويبدو وكأنه قد أمسك به ، غير أن فكى لا ينطبقان على غير الهواء . وبادرتُ إلى رنحى وحين أحكمتُ قبضتى عليه لأحسن تسديده حانت منى التفاتة ما كدت بعدها أعود بعينى إلى حيث تتعاقب الحيوانات حتى عرنتى الدهشة . ذلك أنى لم أعد أرى فى السهل غير تمثالين من الرخام يبدو أحدهما وكأنه يحاول الهرب من الآخر بينما يبدو ثانيهما وكأنه على وشك افتراس خصمه ، وبقيناً لو أن إلهاً كان يرقبهما ، ما ودّ أن يكتب لأحدهما الخروج من هذا الصراع مهزوماً .

وأمسك كيفالوس عن الكلام ، فسأله فوكوس قائلاً : « ولكن بم تعيب هذا الرُمح ؟ » فأجبل كيفالوس إثرم هذا الرُمح بقوله : « كانت سعادى يا فوكوس هى مصدر أساى ، ولأحدثنك عنها أولاً . وكم يطيب لى يا ابن أياكوس أن أذكر أيام سعادى ، ففى السنوات الأولى لزواجى كنت سعيداً بزواجى ، وكانت هى سعيدة بى ، كان كلانا يحب الآخر حتى ما كانت تؤثر على الزواج منى الزوج من چويتر ، وما كنت لأقع فى غرام امرأة أخرى ولو كانت فينوس نفسها . لقد كنا قلبيين يضطربان بنار واحدة ، وكنت أخرج كل صباح إلى الغابة للصيد فى حماسة الشباب مع الخيوط الأولى للشمس المتسلّلة إلى قم التلال ، ولم أكن أحب أن أصطحب معى خدماً ولا خيلاً ولا كلاباً قوية الشّم ولا شباكاً مُحكمة الوثاق . كان رُحى هو كل عدّتى ، حتى إذا كلّت كفى من سفك دم الحيوان الوحشى رُحت أتلّس الظلال الرّجيّة والأنسام النّديّة التى تتصاعد من أعماق الوادى القارص البرودة . كنت أسمى وراء هذه الأنسام الرّخية وسط حرّ النهار متلهفاً إلى أن تخلصنى من الإرهاق . وكان من عادى أن أسترسل فى الغناء ، وأذكر أنى كنت أردّد : « أقبل أيتها الأنسام وامنحني السعادة ، انفذى إلى صدرى أيتها الساحرة ، واطفئى كما عودتى تلك النار التى



بيكاسو: كيفالوس وپروكريس

٨٢٠ تلتهمنى . وربما كنت أردد كلمات حانية أخرى أملاها على قدرى فأتريتم قائلاً : « أنت نشوق الكبرى ، تملئينى حياة بلمساتك وتحركين فى حب العزلة والغابات ، إن فمى أظماً ما يكون للارتواء من أنفاسك » . ولقد وقعت هذه الكلمات الغامضة فى أذن من أساء فهمها فتصور أن كلمة « أنسام » التى أرددها هى اسم إحدى الحوريات وظن أنى أهيم بها غراماً . وقد تعجل هذا الواشى الأحق وذهب للمقاء پروكريس وأسر إليها بما سمعه وأفضى إليها بهذه الخيانة الموهومة . ولما كان المحب يُلبله أدنى شك ، فقد سقطت زوجتى مغشياً عليها صريعة هذا الخبر المفاجىء المزعوم حتى إذا أفاقت أخذت تندب حظها التعس وظلم القدر وخيانتى لها . وأثارها هذا الاتهام الكاذب وبدأت تخشى شيئاً لا وجود له ، وتخاف اسماً ليس ثمة أنثى تحمله ، وأخذت البائسة تتنحب كما لو كانت لها غريمة حقيقية ، ومع ذلك فقد كانت تشك فى صدق هذه

الوشاية ، وكانت تتمنى في مأساتها أن يبطل هذا الاتهام ، وترفض أن تصدق الواشي إلا إذا رأت خطيئة زوجها بعينها ، وإلا فلن تُدينه .

وفي صباح اليوم التالى حين بدد الفجر ظلمة الليل خرجت متوجهاً إلى الغابة ، حتى إذا انتهت من الصيد اضطجعت على العشب وأخذت أردد منشداً : « تعالى يا أنسام ، أقبل وخلصني من الإرهاق » ، وخيل إلى فجأة أنني أستمع إلى أنات تردد كالصدى في إثر كلماتي ، فواصلت غنائي : « تعالى يا مهجة قلبى » . وسمعت حفيف أوراق تسقط فظننت أن وحشاً يقبل ، وأطلقت رمحي السريع فإذا هي پروكريس وقد أصابها الرمح في صدرها تصيح « وامصيتاه ! » . وتبينت في عسر صوت زوجتي الوفيّة فهرولت إلى المكان الذى انطلق منه صوتها ، ووجدت پروكريس بين الحياة والموت وقد تلطخت ثيابها الممزقة بدمها ، وهى تنتزع من جرحها الرمح الذى كانت قد أهدهت إلى ، وحملت بين ذراعى في رفق ذلك الجسد الذى أعزّه أكثر مما أعزّ جسدى ، وضمت جرحها العميق بقطعة انتزعتها من ثوبى ، وجهدت في حبس الدم حتى لا يتدفق ، واستحلفتها ألا تموت وتركنى أعانى بعدها من جريمة قتلها ، غير أن قواها ما لبثت أن خانتها . وكانت في احتضارها تعاني لتفصح عما في صدرها من غير إكثار وهى تقول : « أستحلفك بحق رباط الزوجية الذى جمع بيننا ، بحق آلهة السماء وآلهة الأرض الذين أصبحت الآن بين أيديهم ، أستحلفك بحق ما أسبغت على من حنانك ، وبحق حبي لك الذى لم يضعف حتى في اللحظة التى أسلم فيها الروح ، والذى كان سبب موق الآ تسمع « للأنسام » أن تغدو لك زوجة بعدي ، فتأخذ مكانى في فراشنا » . حينئذ أدركت أن هذا الاسم هو الذى جرّها إلى ذلك الخطأ فكشفت لها عن الحقيقة غير أن ذلك لم يُجد نفعاً ، فغابت عن رشدها وأخذ ما بقى من قواها ينساب مع بقايا دمه ، وظلت محمقة فى ، ثم ضمت صدرى إلى صدرها وأسلمت على شفّى روحها البائسة ، إلا أن قسماتها كانت تتشع ٨٤٠ بسكينة تشى بانفلات روحها واثقة من إخلاصى لها .

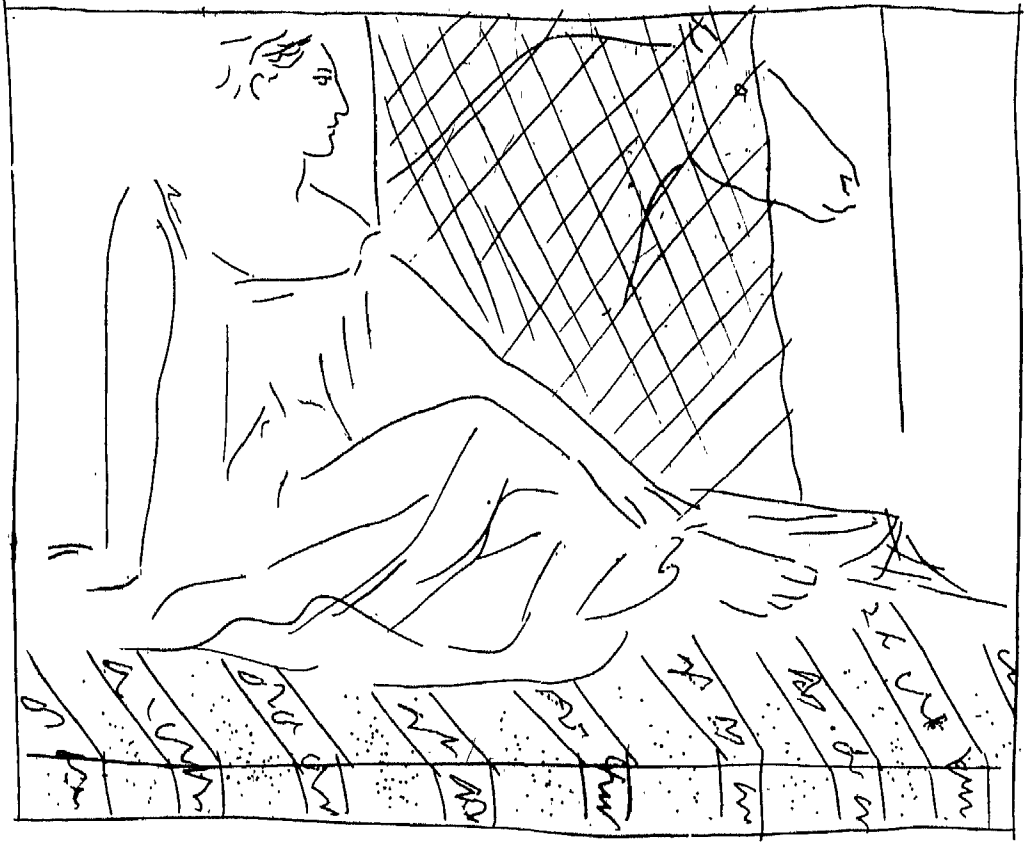
وانحدرت دموع الشبان جارية حين استمعوا إلى قصة هذا البطل الذى كان دمه يسيل هو الآخر ، وساعتها رأوا أياكوس مُقبلاً في صحبة ولديه الآخرين في مجموعة من الجند الجدد المدججين بأقوى الأسلحة والذين استقبلهم كيفالوس ليمضى بهم .

التعقبات

- (١) الميناسيون [أبناء سلالة مينياس] هم أهل أرجوس ، أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى مينياس جدّهم لأهمهم . وقد أطلق هذا الاسم على چاسون نفسه لأنه كان حفيد مينياس عن طريق أمه الكيميديه . وكانت پاجاساى بلداً في خليج پاجاساى جنوب ئيساليا على مقربة من مدينة بولكوس عاصمة مملكة آيسون والد چاسون .
- (٢) كان لينئوس ملك طراقيا قد فقا أعين ابنه عقاباً لها على تهمة كاذبة ألصقتها بها زوجته ، فقضى الألهة أن يصبح فينيوس كفيفاً ، كما حكموا عليه أن تعذبه الهارپيس — وهى طيور ذات روءس نساء بشرية — بعرض الطعام عليه ثم إبعاده عن فمه حينما يقبل على التهامه .
- (٣) ينحدر نهر فاسيس من القوقاز ويرى كولخيس وهى جورجيا الحالية ، ويصب النهر في شرق البحر الأسود .
- (٤) الفروة الذهبية هى فروة الكبش الذى حمل فريكسوس وشقيقته هيلى عبر البحر [انظر الكتاب السادس] ، وكانت هيلى قد سقطت في مضيق الدردنيل الذى أضفت عليه اسمها . وأدرك فريكسوس كولخيس وحده حيث قدم الكبش قرباناً للإله آريس [مارس] .
- (٥) كان على بحارة الأرجو أن يتجنبوا صخوراً تطفو على سطح الماء عند مدخل البحر الأسود تسمى السمپليجاديس ، كانت تلتصق بالسفن وتهوى بها إلى قاع البحر .
- (٦) أى هيكاتى إحدى ربوات القمر والعالم السفلى في آن واحد ، راعية الساحرات ومفترقات الطرق التى تبث الذعر في نفوس المسافرين ليلاً . وكانت تمثّل على شكل ثلاثة أشخاص واقفة ظهراً إلى ظهر تمثل الحالات الثلاث المتوالية للقمر ، أى الهلال ثم البدر ثم المحاق ، لهذا اشتهرت هيكاتى باليقظة لأنها تستطيع الرؤية في اتجاهات ثلاثة في الوقت نفسه .
- (٧) هو آيتيس والد ميديا وابن الشمس .
- (٨) الهيلازجيون اسم أول قبائل عاشت في اليونان القديمة ، وأصبحت هذه التسمية تطلق فيما بعد على اليونانيين عامة .
- (٩) ليست قصة الاستيلاء على الفروة الذهبية هنا إلاّ توطئة لسرد أعمال ميديا السحرية ، وهو ما جعل أوڤيد يطرح جانباً قصة ملاحى الأرجو .
- (١٠) سبق أن ذكرنا أنه شاع بين اليونانيين القدماء أن مصدر خسوف القمر هو محاولات الساحرات التحكم فيه ، وأن إبطال فعل السحريتم عن طريق قرع الصنوج البرونزية . أما نسبة الصنوج إلى مدينة تيميسا فليس مؤكداً ، وقد يكون المقصود هو مدينة تاموسوس في قبرص ، وهى مستعمرة فينيقية قديمة تجاورها نناجم النحل .
- (١١) أو إله الشمس أبو آيتيس .
- (١٢) هذه الجبال هى التى تكتف سهول ئيساليا .
- (١٣) ذكرت كافة هذه الأنهار في الكتاب الاول . أما بويى فهى بحيرة في ئيساليا عند سفح جبل پيليون .

- (١٤) سترد هذه القصة تفصيلاً في الكتاب الثالث عشر .
- (١٥) ربة الشباب وهي چوڤتتا عند الرومان ، وتقابل هيبي عند الإغريق .
- (١٦) مسخت حوريات البحر كيرامبوس جمراناً لمحاولته هتك عرضهن وخلفته فوق جبل پارناسوس .
- (١٧) في آسيا الصغرى .
- (١٨) يعنى أوفيد شواطئ جزيرة ليسبوس ، وهو يورد هذه القصة بالتفصيل في الكتاب الحادى عشر .
- (١٩) المقصود هنا جبل إيدا في فريجييا .
- (٢٠) كان رعاة البقر يطاردون ثيونينوس بن باكخوس لأنه كان قد سرق منهم عجلاً فحوّله أبوه إلى شكل صياد حتى لا يتعرفوا عليه .
- وفي الوقت نفسه حول العجل إلى وعل .
- (٢١) المقصود هنا مدن مملكة طروادة فقد كان والد كوريثوس هو باريس بن بريام .
- (٢٢) مايرا لقب مشتق من كلمة يونانية معناها الكلبة ، وهي إشارة إلى هيكلها التي تحولت إلى كلبة بعد مصرع أبنائها [انظر الكتاب الثالث عشر] .
- (٢٣) مسخت چونو سيدات كوس بقرات بعد أن قتل هرقل يوريبيلوس بن نبتون .
- (٢٤) كان أهل رودس يسمون التلخينيين نسبة إلى تلخينيا وهو لقب من ألقاب چونو . أما ياليسوس فكانت مدينة في شبال جزيرة رودس يقال إن أهلها كانوا مهرة في تشكيل المعادن وفي السحر أيضاً .
- (٢٥) السيداماس هو أحد مواطني كارثايا وهي مدينة بجنوب جزيرة كوس في بحر إيجه ، وكانت إبنته كتيبيلا قد تحولت إلى عيامة لأن أباهما خطبها إلى رجل آخر غير الذى وعده بخطبتها من قبل .
- (٢٦) ليس المقصود هنا وادى تمهى المشهور وإنما إقليم في بويوتيا . أما سيجنوس المذكور هنا فهو غير سيجنوس الوارد في الكتاب الثانى وغير ابن پوزيدون [نبتون] الواردة قصته في الكتاب الثانى عشر .
- (٢٧) فيليوس شاب بويوتى كان يعشق سيجنوس بن هرييه عشقاً محرماً ، وقد ازدري سيجنوس هذه العلاقة قائلاً لفيلبيوس أنه لو أراد الفوز بعطفه فعليه أن يفتك بأسد ضخم وأن يقتنص نسرين كبيرين على قيد الحياة وأن يقدم لجويتر قرباناً ثوراً برياً كان ينشر الرعب في الريف كله . واستطاع فيليوس تحقيق ذلك كله بالحيلة وبمصائح هرقل ، الأمر الذى جعله ينسب عشقه لسيجنوس .
- (٢٨) بليورون مدينة في جنوب إيتوليا .
- (٢٩) كومى ابنة أوفىوس هى أول من ابتكر الدرع النحاسى . وقد تأمر أبنائها على قتلها فمسختها الآلهة طيراً كى تنجو من هذا المصير .
- (٣٠) تواجه جزيرة كالاوريا شواطئ أرجوس ، وقد اشتهرت لانتحار ديموسثينيس فيها بالسّم ، ولا يرد تحول ملك كالاوريا وملكتها إلى طائرین إلا في نص أوفيد .
- (٣١) ليتو أم أبوللو وديانا .
- (٣٢) كان يوميلوس قد قتل ابنه بوتريس في ساعة غضب فحوّله أبوللو إلى طائر عقاباً له .
- (٣٣) أصل هذه الأسطورة مجهول تماماً .
- (٣٤) كان بيريفاس ملكاً في أتيكا قبل كيكروپس واشتهر بالعدالة ، وعنده القوم مثلها كانوا يعبدون زيوس [چويتر] الذى نقم عليه إثر ذلك فحوّله إلى نسر صار منذ ذلك ملحقاً بشخص أبوللو ، أما زوجته فيني فقد مسخها عقاباً بحرياً .
- (٣٥) الكيكون هى ابنة القرصان سكبيرون دفعها أبوها في الماء فحوّلها الآلهة إلى طير القاوند .
- (٣٦) يمر أوفيد بسرعة غير متوقعة على ختام أسطورة ميديا التى انتقمت من چاسون بعد أن تركها من أجل كريوسا بنت كريون ملك كورنثه بأن أرسلت إلى العروس الجديدة وشاحاً وتاجاً مغموسين في السم ، ثم أشعلت النار في القصر وذبحت أولادها من چاسون وهربت . وهذا هو موضوع مأساة ميديا عند أوربيديس وعند سنيكا ، بل وعند أوفيد نفسه !
- (٣٧) تروى الأسطورة أن هذا الثور هو نفسه الذى قبض عليه هرقل ثم ساقه إلى يوبسثيا حيث عتقه . ويقال إن الثور قد عبر برزخ كورنثه وبلغ أتيكا وأخذ يثير الرعب بين الناس . وجاء ثيسبيوس فروضه وقادة إلى أثينا ثم قدمه قرباناً إلى الإله أبوللو في دلفى .

- (٣٨) كانت أنثى الخنزير البرى تثير الرعب بين أهل كروميون الواقعة إلى جوار كورنث . وكانت هذه الخنزيرة حيواناً خرافياً ولدت من تيفون وإخيدنا واستطاع ثيسبيوس أن يقضى عليها .
- (٣٩) كان بيريفيتيس بن فولكانوس [هيفيستوس] يقرع كل من يمرّ به بهراوته النحاسية الضخمة ، واستطاع ثيسبيوس أن يتغلب عليه ويسلبه سلاحه الرهيب .
- (٤٠) كان اللص پروكروستيس يتصيد المسافرين المارين بمدينة إليوبسيس ويرغمهم على الاستلقاء فوق أريكته ويشد أطرافهم ثم يبيت من أجسامهم ما يجعلها تطابق حجم الأريكة . وقد تغلب عليه ثيسبيوس وأرغمه على معاناة نفس العذاب الذى كان يذيقه الآخرين .
- (٤١) كان سيرسيون بن نبتون يتحدى المارة بإليوبسيس إلى المصارعة فيقضى عليهم ، وقد صارعه ثيسبيوس وسحقه فى الأرض .
- (٤٢) الكاثنوى اسم قديم لميجارا مشتق من اسم أحد ملوكها الذى يدعى الكاثنوس ، وتروى الأساطير أن أحد ملوك الكاثنوى القدامى كان ليلكس الذى وفد عليها من مصر . ويسمى شعب هذه المنطقة بالليليجيين نسبة إلى ليلكس .
- (٤٣) « مينوس » لقب يطلق على الشخصية الملكية فى كريت لا على شخص بذاته ، مثل كلمة « فرعون » المصرية . فمنذ فجر التاريخ القديم كان ثمة تمايز بين شخصين يحملان اسم مينوس أحدهما هو ابن أوروبا الأسطورى والآخر حفيده زوج پاسيفاي وعاهل دولة البحار ، غير أن أغلب الشعراء يخلطون بينهما . أما الحضارة المعروفة بالمينوية فقد ازدهرت فى كريت إبان النصف الأول من الألف الثانى قبل المسيح . ومن آثارها المشهورة ما اكتشف فى كنوسوس وماليا على الشاطئ الشمالى وفيستوس فى جنوب الجزيرة . وامتد سلطان كريت حتى مدن أرجوس وفى كافة جزر الأرخيل .
- (٤٤) لم تذكر قصة آرئى إلا فى هذا النص .
- (٤٥) أطلق أياكوس بن إيجينا وزيوس اسم أمه إيجينا على جزيرة أوينوبيا .
- (٤٦) كانت دودونا فى إبيروس بشمال اليونان تزهبأهم معابد زيوس فى كافة أنحاء اليونان ، وكان التعبير عن الإرادة الإلهية فيها يتم عن طريق حفيف أوراق شجر البلوط المقدس .
- (٤٧) تعنى كلمة ميرميس المشتقة منها كلمة « ميرميدون » باليونانية « النملة » .
- (٤٨) انظر الكتاب السادس .
- (٤٩) كانت فكرة غيرة الآلهة من سعادة البشر المقرطة مألوفة عند القدامى ، وكانت نيميسيس ربة الانتقام الإلهى تعاقب كل من يزهو من البشر بسعادته ويختال . وقد أعطى أوفيد مثلاً لهذا الانتقام فى قصة نيوى بالكتاب السادس .
- (٥٠) لا يوجد هذا البيت فى الكثير من مخطوطات كتاب أوفيد ويعتبر دخيلاً على النص ولا تبدوله أية صلة سواء بما سبقه أو بما لحقه .



بيكاسو: باسيفاي والنور

الكتاب الثامن

مينوس وسكيللا

كانت نجمة الصُّبح قد أرسلت نور النهار وبددت ظلمات الليل حين خمدت ريح الشرق وتجمعت الغيوم في السماء ، ونشرت ريح الجنوب الحانية الشراع ليعود كيفالوس بصحبة أبناء أياكوس وأخذت تدفعهم إلى الشاطئ المأمول فبلغوه أسرع مما كانوا يأملون . عندها كان مينوس يغزو شواطئ ميجارا ويختبر قوة جيوشه المحاربة ضد مدينة الكاثوس التي كان يحكمها الملك نيسوس الوقور ذو الشعر الأشيب تتخلله على جانبي وفوق الرأس خصلة من شعرات أرجوانية اللون متألق يستمد منها قوته العاتية .

وتراءى الهلال الوليد بقرنيه ست مرات متتالية دون أن يحسم مصير الحرب ، وكان الطرفان يتنازعان النصر منذ أمد طال ، وكان الملك قد أضاف بُرجاً إلى أسوار المدينة الشّادية ، ويُقال إن أبوللو بن لاتوقد أودع قيثارته الذهبية به ، فأخذت أحجار هذه الأسوار عنها أنغامها وحذقتها . وما أكثر ما كانت ابنة الملك نيسوس تصعد في البرج خلال العصر الذي سادته السلام فتلهو برمي الأسوار بحصوات صغيرة فإذا الأسوار تنطلق شادية بالأنغام . وكذا في أوقات الحرب لم تتخلف عن أن تصعد في البرج لتُشرف على معارك مارس الرهيب . وقد أتاحت لها تلك الفترة الطويلة التي امتدت فيها الحرب التعرف على أسماء القادة ومالهم من شبكة وسلاح ، وما يمتطون من جياد ، وما يحملون من جعبات لسهامهم الكريمية الصُّنع ، كما تبينت قسما وجوه الجنود ، وكان أكثر ما تبينت قسما وجه مينوس بن أوربا قائدهم الأعلى ، بل لقد استشفت ما وراء تلك القسما . فكان مينوس في نظرها وسيما حين يعتمر بخوذته البرونزية المُزدانة بحزمة من الريش ، ومهيأ حين يرتدى ثُرسه الذهبي المتألق . وكان إذا رمى بذراعه المقتول العضلات رجمه اللُذُن أعجبت بمهارة البطل وقوته ، وحين كان يُثنى قوسه الممتدة وهو يهيم السهم على الوتر إذا هي تقسم أنه أشبه بأبوللو عندما يتهيا لرمي سهامه . وحين كان يخلع خوذته البرونزية ويكشف عن وجهه وهو في رداة الأرجواني ممتطيا جواده الأبيض المزدان بسرج زاهي الألوان وقد أحكم لجام مطيته ، إذا ابنة نيسوس تخرج عن رزانتها . وكما كانت تغبط الرُمح السعيد الذي يمسك به ، وكذا جدائل اللجام التي حظيت بإمساكها بها ، وكما هاجت رغبة في أن تنزل في حومة الوغى بين صفوف الأعداء على الرغم من أنها لاتزال فتاة غضة العود ، وكما تمنّت لو قدفت بنفسها من البرج إلى حيث معسكر مينوس ، كما تمنّت لو قدّر لها أن تفتح أبواب المدينة البرونزية لتُتيح لجيوش الأعداء الدخول ، أو لو كان في قدرتها أن تحقق رغبة ما لمينوس .

وكانت وهي في مكانها الذي تجلس فيه من البرج تستطيع أن ترى خيام الملك الكريمية الناصعة البياض ، وإذا هي تُناجي نفسها قائلة : « لست أدري أفرحة أنا أم حزينة لهذه الحرب المشتومة التي تدور رحاها . ثم كم أنا حزينة إذ جعلت هذه الحرب من مينوس عدواً لي ، ولكني مع هذا فرحة إذ لولا هذه الحرب ما قدّر لي أن أراه . وهل لمينوس أن يضع السلاح على أن يأخذني رهينة بين يديه فأحظى برفقته لقاء السلام ؟ فلا عجب أن تكون أمك يا أجهل الملوك التي أشعلت نار الحب في فؤاد أبليك الإله صورة منك . وقد أنعم مرّات ثلاثاً إذا قدّر لي أن أخلق في الأجواء بجناحين فأملك أن أهبط في معسكر مينوس لأكشف له عن حقيقتي وعن ولهي به ، وأنا عندها على أهبة بأن أُجزية ثمن حبه إيلى إلا أن يكون هذا الجزاء التفريط في قلعة وطني . فليحترق عُش الزوجية الذي أحلم به ، فلن يكون ثمن سعادتي خيانتني لقومي . وكما بمن كتب لهم النصر في ساحة القتال من رزقوا الخير فأحس المنهزمون لتسامحهم أنهم هم الغاغون . ولقد كان مينوس عادلاً في حربه ، فما تلك الحرب التي شنها إلا ليثأر لابنه الذي قُتل غيلة ، وقد زاده الهدف الذي يسعى إليه قوة إلى قوة عدته . وما أشدّ إيماني بأن الهزيمة بنا لاحقة ، وما أدري أي مصير سيكون لهذه المدينة . إذن فما لي أن أشجّع وأفتح له أبواب مدينتنا لتلبية لنداء حبي ، ولا أترك نفسي للانتظار الذي سيؤول إلى اقتحام الأسوار . فمن الخير أن يتم له نصر عاجل لا تراق فيه دماء ولا يعرض حياته للخطر .

وفى هذا ما يطمئني الطمأنينة كلها بأنه لن يناله أحدٌ بسوء قاصداً أو غير قاصد ، وأقول غير قاصد ، إذ ليس ثمة إنسان يقسو أو يجرؤ فيسدد رمحاً إلى صدرك وهو يعرف من تكون أى مينوس العزيز .

هكذا هَيَّمن على فكر ابنة نيسوس أن تُسلم نفسها إلى مينوس وأن تكون مملكة أبيها مهراً له ، ورأت في ذلك نهاية للحرب ، غير أن عزمها وحده لم يكن يُغنى ، وقالت تحدثت نفسها : « ثمة حامية تحرس مدخل المدينة ، ومفاتيح الأبواب مع أبى . ألا ما أشقانى أن يكون أبى هو الوحيد الذى أخشاه ، وأن يكون العقبة في طريق مسعى . ليت الآلهة خلقتنى بلا أب . على أن كل إنسان هو في النهاية إله نفسه ، ثم إن فورتونا « ربّة الحظ » تصمّ أذانها لنداء الجبناء . ولو أن فتاة أخرى مُنيت بمثل ما مُنيتُ به من هذا الغرام المُبرح لاقتحمت منذ أمدٍ بعيد آية عقبة تقف في سبيلها وهى قانعة راضية بما تفعل ، فما بالى أكون أقل شجاعة ؟ وما أنذا أحسّ الشجاعة تملأ جوانحي وتدفعنى لأن أشقّ طريقى بين المشاعل والسيوف ، وأرانى في غير حاجة فيما أنا مُقدمة عليه إلى أن أخوض آيّا منها ، فما أبغى غير خصلة من شعر رأس أبى ، تلك الخصلة الأرجوانية التى هى أنفـس عندى من الذهب ، فَبها وحدها سوف أحقق ما أطمح فيه من سعادة .

وفياها هى تقلّب وجوه الرأى غشّى الليل الذى تنزاح معه هموم الناس ، وإذا هى مع إنسدال الظلام أكثر جُرأة . ومع الساعات الأولى التى يغشى فيها النوم الأحياء وتخفّف عن قلوبهم قلق النهار وإرهاقه تسَلّت في هدوء إلى حجرة أبيها ، ونفّذت خطتها الشنعاء وانتزعت من رأس أبيها تلك الخصلة التى بها حياته ومصيره ، فما أفضعه من جرم !

قبضت ابنة نيسوس على غنيمتها الثمينة ونفّذت عبر أبواب المدينة وشقّت طريقها وسط جنود الأعداء مفعمة بالثقة في أنها تقدّم إليهم خدمة كبرى ، حتى إذا بلغت مليكهم الذى تملكته الدهشة من وقوفها بين يديه قالت له : أنا سكيللا ابنة نيسوس دفع الحب بى إلى طريق الجريمة ، وجئتُ أسلمك مفاتيح بلادى ودارى ولا أريد سواك مقابلها . خذ هذه الخصلة الأرجوانية دليلاً على حبى ، وبهذا إني لا أسلمك خصلة أبى وحدها بل رأسه أيضاً ، ويدها قدّمت له الهدية النكراء ، غير أن مينوس ازورّ عنها واهتزت مشاعره من هول فَعَلتها وصاح فيها : « ما أنت إلّا عارٌ دهرنا ، وإنى لأدعو الآلهة أن تطهر الأرض منك ، وأن يأبى البر والبحر أن يكونا مأوين لك ، فأنّا أرفض أن يلوّث مخلوق دنس مثلك عالمى أو أن يلوّث جزيرة كريت مهد جوبيتر » .

وحينما تم لمينوس النصر وأملى شروطه العادلة على أعدائه المقهورين ، أمر بفكّ حبال السفن وبأن يتخذ الملاحون أماكنهم من مجاديف السفن ذات الحيازيم البرونزية . وحين تيقنت سكيللا أن السفن تمخر عباب البحر مبتعدة عن الشاطئ دون أن يكافئها قائد الأعداء على خيانتها رغم توسلاتها استحوذ عليها غضب جنوى وانخرطت في الصراخ وقد تطاير شعرها ، وجعلت تلوّح إلى مينوس : « إلى أين تمضى يا من آثرتك على أبى وبلادى ؟ إلى أين تمضى خلفاً من هيات لك الفوز والانتصار ، وإلى أين تنأى يا عاتى القلب بعد أن ظفرت بنصر أنا التى أستحق عليه كل إجلال وكل لوم . ألا تثير مشاعرك ما قدّمت لك من هدية ،

١٢٠
 ألا يعينيك حبي لك وأنا التي وضعتُ فيك وحدك آمالي كلها ؟ وإلى أين أروح أنا لو تخلّيت عني ؟ لقد
 حاقت الهزيمة ببلادي ، ولو أنها عادت لها حياتها يوماً ما استطعتُ دخولها ، فقد أغلقت أبوابها في وجهي
 إلى الأبد لخيانتي لها . وهل أستطيع أن أرجع إلى أبي بعد أن أسلمته لك ؟ إن مواطني ليمقتونني وهم على
 حق في ذلك ، كما أن شعوب البلاد المجاورة يستنكرون المثل السيء الذي اقترفته . لقد أوصد العالم كله في
 وجهي ولم يبق لي ملاذ في غير كريت ، ولو أنك حرمتني الاحتماء بها وهجرتني غير معترف بالجميل الذي
 قدّمته لك لما كنت ابن أوروبا بل ابن سيرتيس^(١) غير المأمونة ، أو ابن ثمرات أرمينية أو ابن مياه
 خاريبيديس التي تهبها ريح الجنوب ، فلست إذن ابن جوبيتر ، ومن ثم ليست قصة ميلادك إلا أكذوبة ،
 وليس إذن إلهاً متقمّصاً ثوراً ذلك الذي ضاجع أمك ، بل هو ثور متوحش حقيقى لم يستشعر حباً قط
 لإحدى البقرات . أبتاه ! فلتنزل بي عقابك ، وأنت يا أسوار البلاد التي خُنتها ، فلتشمّني بي فأنا جديرة
 بحقدك على ولا أستحق سوى الموت ، وليقتلني واحد من بين الذين آذتهم خيانتى . لماذا يا مينوس تريد أن
 أعاقب على جريمة قادتك إلى النصر ، على حين أن هذا العمل الذي يعدّه أبى وقومى جريمة ليس غير منّة
 تطوّق عنقك ؟ حقاً إن زوجتك الخائنة التي تخفّت في تمثال بقرة من خشب واستدرجت ثوراً وحشياً وحملت
 منه مخلوقاً نصفه بشر ونصفه الآخر حيوان هي وحدها الخليفة بأن تتخذك زوجاً لها^(٢) . أجبني يا مينوس ،
 هل تبلغ كلماتي أذنانك أم أن الريح التي تدفع سفنك تبدّد شكواي أيها الناصر للجميل . لا يدهشني الآن
 أن پاسيفاي قد آثرت الثور عليك ، إنك لأشدّ وحشية من الثور . ما أشقاني ! ها هوذا يأمر ملاحيه
 بالإسراع والأمواج تعصف وضربات المجاديف تشقّ المياه بينما أغيب أنا وبلادي عن عينيه ، غير أنه لا
 جدوى ، فعبثاً تحاول نسيان جميلي ، وسوف أتبعك على الرغم منك وسأتعلّق بسفينتك سابحة في مياه
 البحر .

١٤٠
 ولم تكذ تفرغ من مناشدته حتى قفزت إلى المياه وأخذت تسبح بسرعة خلف السفن ، تُكسبها رغبتها
 الثائرة قوة وأى قوة ، فما لبثت أن تعلّقت بسفينة ملك كريت زائرة متطفلة ، ولحقها أبوها [بعد أن تحوّل
 إلى نسر بحرى وحشياً الجناحين أخذ يخلّق في الأجواء] فانقضّ عليها وهى متعلّقة بالسفينة وجعل ينهش
 لحمها بمنقاره الأقنى ، فألم بها فزع أرخى قبضتها عن السفينة ، وبدأت تهوى فتلقّفتها نسمة خفيفة حالت
 بينها وبين أن تلمس الأمواج ، وسرعان ما نبت لها ريش وتحوّلت إلى طائر أطلق عليه اسم كريس [أبو
 قردان] أى من يجزّ الشعر ، وهو الاسم الذى يذكر الناس بخصلة الشعر التي اقتلعتها من رأس أبيها^(٣) .

المتاهة وتاج أريادنى

١٦٠
 وحين عاد مينوس سالماً إلى كريت ونزل إلى الشاطئ ذبح مائة ثور قرباناً ووفاء بنذره لجوبيتر ،
 وعلّق غنائمه على جدران القصر ليزدان بها . وكانت الملكة قد وضعت طفلاً مهجناً خلال غيابه ليصم
 الأسرة الملكية بالعار . وما لبث هذا المولود المهجين الغريب أن شبّ ليفضح الملكة أمام الجميع ويكشف

قصة حبها المشينة مع الثور . فأصرّ مينوس على تحرير قصره من هذا المخلوق الغريب الكريه الصورة وقرّر حبسه في بناء مغلق معتم ملتبس المداخل ، يستحيل معه أن يصل أحد إليه أو يراه . ووفق دايدالوس أشهر صناع المعادن بفنه وبراعته إلى إقامة هذا البناء^(٤) بأن جعل العلامات في هذه المتاهة مضللة ليشقّ على العين بتلك التعرجات المتجهة إلى أنحاء مختلفة أن تهتدى إلى سبيلها . وكما تتلوى مياه نهر المياندر لاهية في حقول فريجيا ، وكما يشقّ مجراه الحائر سبيلاً خفياً ثم يعود إلى حيث بدأ فيكاد يداني مآتاه ، وكما يرتدّ النهر إلى منبعه حيناً ونحو البحر الخضم حيناً آخر فيفتّر تياره بعد أن يضلّ مقصده ، كذلك ضاعف دايدالوس من سبل التضليل بشقّه سبلاً ودروباً لا حصر لها^(٥) .

حبس مينوس ذلك المخلوق الغريب الذي نصفه ثور ونصفه آدمي ، وكان قد قدّم له ضحايًا من أهل أثينا^(٦) مرتين . وحين قدم له الضحايا في المرة الثالثة مجازاة للاقتراع الذي يتجدّد كل تسع سنوات قضى عليه واحد من هؤلاء الذين سيُقوا إليه كي يلتهمهم . ذلك أن ثيسوس الذي دُفع إلى المتاهة لكي يلتهمه الثور قد نجح بعون الأميرة أريادني في أن يهتدى إلى طريق العودة ، إذ أخذ يعيد لفّ الخيط الذي كان قد ترك أوّله عند الباب ويحمله كلما ولج إلى الداخل ، وبهذا استطاع أن يعود ثانية إلى الباب الذي كان قد دخل منه والذي لم يخرج منه أحد قبله . وأبحر بعدها إلى جزيرة ديا بعد أن اختطف ابنة مينوس ، غير أنه تخلّى عنها وهجرها على شاطئ تلك الجزيرة حيث بقيت وحدها حزينة إلى أن جاءها باكخوس فطوّقها بذراعيه وقدم لها العون ، وتناول التاج من فوق رأسها ليحوّله إلى كوكبة من نجوم السماء كي يسبغ عليها مجداً أبدياً ؛ فكانت جواهر التاج تتحوّل وهو طائر في الفضاء إلى نجوم متألّثة ما لبثت أن انتظمت في السماء محتفظة بشكل التاج مستقرة في منتصف المسافة بين نجوم الجاثي على ركبته وكوكبة حامل الثعبان^(٧) .

دايدالوس وإيكاروس

وبعد أن سئم دايدالوس الإقامة في كريت اشتاق العودة إلى بلاده [أثينا] التي طال غيابه عنها والتي كان يفصله عنها البحر ، فأخذ يناجي نفسه قائلاً : « قد يملك مينوس أن يحول دوني ودون العودة عبر الأرض أو البحر ، وأنسى أن السماء مفتوحة أمامي يمكنني العودة عن طريقها ، فلو استطاع مينوس أن يستحوذ على كل شيء ما استطاع أن يستحوذ على الفضاء » . وأخذ بعد ذلك يُعمل فكره في فن لم يعرفه من قبله أحد ، ويُخضع الطبيعة لقوانين جديدة ، وانبرى يثبّ صفاً من الريش في خيط مبتدئاً بأقصه متدرّجاً به نحو أطوله حتى يكون طرفه منحدرًا إلى أعلى ، على النحو الذي يصنع به الرعاة مزاميرهم من الغاب فيزيد في طول كل أنبوبة عن سابقتها ، ثم شدّ الريش عند منتصفه بخيط من الكتان ولصق أطرافه السفلى بالشمع وشكّلها على هيئة أجنحة الطائر الحقيقي بانحناءاتها الخفيفة ، وقد وقف ابنه إيكاروس إلى جانبه ضاحكاً دون أن يذهب خياله إلى أن أباه يشكّل الأداة التي سُورده حتفه ، وكان يقبض على الريش

٢٠٠ الذى ينتفش مع هبات الريح أو يطوِّع جود الشمع بإيهامه ، فيُعَوِّق بعثته ما أنفقه أباه في هذا العمل العجيب .

وعندما فرغ دايدالوس من اختراعه ارتفع في الهواء وحاول حفظ توازنه بهذين الجناحين وهو يخفق بهما إلى أعلى وأسفل ، ومضى يوصي ابنه قائلاً : « أنصحك يا إيكاروس أن تخلق بجناحيك على ارتفاع وَسَطَين البحر والشمس ، إذ لو دانيت سطح البحر نذت مياهه جناحيك فتقلت ، ولو حَلَقْتَ عاليًا لأهبط وهج الشمس جناحيك ، فتوسَّطَ في طيرانك بين بين . وإنى أحذرك أن تصوبَّ بصرك إلى النجوم وخاصة كوكبة راعى الشاء أو كوكبة الجوزاء في الدب الأكبر أو نجوم سيف الجبار^(٨) ، ولتخذنى لك مرشداً » . وبينما دايدالوس العجوز يدلى بإرشاداته جعل يثبت الأجنحة على كتفى ابنه إيكاروس وقد احمرت وجنتاه وبللتها الدموع وارتعدت يدها حناناً ، وقبَّل ولده في خدَّه قبلاته الأخيرة . فقد حلَّقَ بجناحيه في الهواء موزَّع النفس على رفيقه ، هذا القلق الذى يساور الطائر وهو يُخرج صغاره من العش في أعالي الأشجار ويطلقها في الهواء للمرة الأولى . وبدأ يستحث إيكاروس أن يتبعه على أن يبقى على مقربة منه ، ويعلمه من الفن ما كان سبباً في هلاكه ، ويحرك جناحيه متطلِّعاً إلى الخلف يرقب ولده . وقد رأهما صياد كان يلقي شبابه وراع كان متكئاً على عصاه وفلاح كان منكفئاً على محراثه ، وأخذ العجب منهم فظنوا هذين الرجلين القادرين على الطيران عبر الأجواء إلهين من بين الآلهة .

وكانت جزيرة ساموس التى وهبت لجنونو تقع عن يسارهما وباروس وديلوس من خلفهما ولبنشوس عن يمينها وكذلك جزيرة كاليمنى الغنية بعسلها^(٩) ، حين انتشى الصبى بالطيران السريع عبر أجواز الفضاء واستهواه الارتفاع فعلاً في السماء حتى اقترب من الشمس المُحرقة فذاب الشمع العطر الذى يلصق الريش بعضه ببعض ، وإذا هو يجرُّ ذراعيه بعد أن تعرَّتا فصرخ منادياً أباه ، ولكنه كان عندها يهوى . وسرعان ما سقط في مياه البحر الذى ابتلعه في أعماقه وحمل اسمه . وأخذ الأب التعس الثاقل ولده يصرخ « إيكاروس أين تُراك الآن يا ولدى ، وأتى أجواز الفضاء غيبتك ؟ » . وظل يصيح باسم إيكاروس حتى لمح نثار الريش على سطح الماء ، وعندها نقم على فنه ، ثم وارى ابنه التراب ، وما تزال الأرض التى دُفِن بها إيكاروس تحمل اسمه .

بيرديكس

وبينما كان دايدالوس يدفن ابنه الذى لقى حتفه لمحبه طائر الحجل المائى الثرثار فجعل يغرد طرباً ويرفرف بجناحيه وقد خرج من حفرة موحلة ، وكان طائراً فريداً لم ير مثله من قبل ، إذ كان إنساناً تحوَّل منذ قريب إلى طائر ليتمثل عقاباً أدياً لدايدالوس ، ذلك أن أخته - ولم تكن تعلم ما خبأه لها القدر - أرسلت ابنها وكان فتى ذكياً في الثانية عشرة من عمره ليُعلِّمه دايدالوس ويُنشئه . وقد أعجب الصبى بالعمود الفقري للسّمك واتخذهُ نموذجاً يصنع على غرارهِ أسناناً على حافة شريط من الحديد فإذا هو يخترع

المنشار ، كما كان أول من استطاع وصل ذراعين متساويتي الطول من الحديد بحيث إذا ركّز أحدهما وأدار الآخر حوله رسم دائرة كاملة ، ومن هنا اخترع الفرجار ، الأمر الذي أثار الغيرة في قلب دايدالوس فألقى بابن أخته من فوق قلعة منيرفا ، ثم افتعل جلبة توحى بأن الصبي قد سقط قضاء وقدرآ ، غير أن الإلهة باللاس حامية العباقرة سرعان ما أمسكت بالفتى وهو يهوى وحوّلتها إلى طائر وكسته ريشاً وهو ما يزال معلقاً في الفضاء ، ومنحته سرعة في الجناحين وأخرى في القدمين يستغنى بهما عن إعمال بديته ، وبقي اسمه عالماً به يُميّزه ، فهو لا يطير عالياً في الأجواء بل يجعل قريباً من الأرض ، كما أنه لا يتخذ عشه في قمم الأشجار أو المرتفعات بل يبيض بين حزم الأغصان التي تتخذ منها الأسوجة ، فقد كان يخشى المرتفعات لأنها تذكره بسقوطه منها فيما سلف .

الخزير الكاليدوني . ملياجر

٢٦٠ وعندما أحس دايدالوس بالإرهاق من طول السفر استقرّ ببلاد إتنا ، وكان كوكالوس ملك هذا الإقليم قد حمل السلاح دفاعاً عنه بعد هروبه وأظهر له من ضروب العطف الكثير^(١٠) ، وكانت مدينة أثينا قد تخلّصت بفضل انتصار ثيسوس من دفع الجزية الرهيبة التي كانت تُثقلها بالأحزان ، فزيّنت المعابد بأكاليل الزهور وأخذ الناس ينشدون للربة المحاربة منيرفا ولجوبيتر والآلهة الآخرين ويقدمون لهم القرابين التي نذروها . وذاعت شهرة ثيسوس كالبرق في مختلف مدن أرجوس حتى بات الأخيون يفرعون إليه في الأوقات التي يُحْدِق بهم فيها خطر ، وكذا لجأ إليه أهل كاليدون على الرغم من أن بطلهم ملياجر كان ما يزال بينهم ليحميهم من الوحش الكاسر خادم الربة ديانا القائم بتنفيذ عقوباتها^(١١) .

وتروى الأقاصيص أن الملك أوبنيوس قد نعم بحصاد وفير في عام رخاء فقدم القرابين للآلهة وجعل الحصاد الأول لسيريس^(١٢) والنبيلد لباكخوس وزيت الزيتون لمنيرفا الشقراء ، وجعل لآلهة الريف ثم لبقية الآلهة ما كانوا يترقبونه ، عدا ديانا ابنة لاتو فقد كانت الوحيدة التي أهملت محاربيها ولم تُقدم لها قرابين أو يطلق لها بخور ، فاحتدم الغضب في صدرها وصاحت قائلة : « لن أترك هذا الأمر يمر دون عقاب يُخَفِّف عن نفسي ، ولن أسمح بأن يرزّد الناس تراخي في الثأر لنفسى ، فما من أحدٍ يعيب على أن أنتقم لإهانة لحقت بي » ، ثم أطلقت خزيراً برّياً في ضخامة ثيران مراعى إبيروس الكثيفة الحشائش وأعظم جثة من ثيران صقلية . كان خواره مجلجلاً ، وعيناه الدمويتان ترسلان شرراً ، وعنقه الضخم الصلب يشمخ عالياً ، يغطى جلده شعر خشن نافر كالرماح ، ويلطّخ كتفيه العريضين زبد يغلى ، وأنيابه كانياب الفيل الهندي ، تبعث نار من بين فكّيه فتحرق أنفاسه أوراق الأشجار .

كان هذا الوحش الغريب يسحق القمح الذي ما يزال غصّاً في سنبله أحياناً ويقضمه إذا استوى على أعواده أحياناً أخرى ، فحطّم بذلك آمال الفلاحين وأبكاهم ، وعبثاً بات الناس ينتظرون أن تمتلىء الصوامع أو تكثر ساحات الدّرس عامرة بالحصاد ، وتناثرت عناقيد العنب وأوراق الكروم على الأرض مع

حَبَّات التوت وأغصان الزيتون الدائمة الخضرة . كذلك أخذ هذا الخنزير البرى يشنّ هجمات ضارية على قطعان الماشية فلم ينج منه لا الرعاة ولا كلابهم ، ولم تفلح الثيران الشديدة البأس في حماية القطعان التي تحرسها ، وكان الناس يهربون منه متفرقين هنا وهناك ، ولا يحسّون الطمأنينة إلّا حين يحتمون خلف أسوار المدينة . وظلّ الحال على ما هو عليه حتى اجتمع ملياجر مع جملة من الأبطال وحدث بينهم الرغبة في نيل المعجد والشهرة بالقضاء على هذا الوحش الرهيب .

٣٠٠

والتقى إينا تينداريوس^(١٣) التوأمان اللذان اشتهر أحدهما باللاكمة والآخر بالفروسية ، وچاسون مُشيد أول سفينة [سفينة الأرجو] وئيسوس وبيرثوس الرفيقان المتلازمان ، وابنا ئيستيس ثم لينسيوس وإيداس السريع العدو ولدا أفاريوس ، وكاينوس أيضاً الذي كان امرأة في سالف الزمان^(١٤) ، وليوكيوس الصائب الرُمح ، وأكاستوس قاذف الرمح الشهير ، وهيرثوس ودياس ، وفينيكس بن أميتور ، وولدا أكتور وكذا فيليوس من إيليس . وانضم إليهم تيلامون وپيلوس والد أخيل ، وكذلك ابن فيريس ويولاوس من بويوتيا ثم أريتيون المقدام وإخيون العداء الذي لا يبارى ، وليلكس اللوكريسي وپانويوس وهيلوس وهيباسوس الوحشى ونسطور الذي كان في مقتبل العمر ، وانضمت إليهم فصيلة من الرجال الذين بعث بهم هيوكون من أميكلاى القديمة ، وكذلك لايرتيس هو پينيلوى الذى اصطحب معه أنكايرس الأركادى والعرف الحكيم ابن أميكس وأمفياراوس الذى لم يكن يخشى حتى ذلك اليوم أذى يناله من زوجته^(١٥) . ثم الفتاة الصيادة بطلة تيجيا وفخر الغابات الليكاوية^(١٦) وقد شبكت طوق ثوبها بمشبك مصقول وجمعت شعرها من الخلف مضموماً في عقدة واحدة ، وعلقت كنانة سهامها العاجية على كتفها اليسرى بينما أمسكت القوس بيدها اليسرى ، وكلما سارت اهتزت الكنانة بسهامها محدثة صوتاً ، [ولو أن قسامتها على وجه فتى لقليل إنها قسامت فتاة ، وإذ كانت فتاة قليل إن قسامتها مثل قسامت الفتى الوسيم] ، ولم يكد البطل الكاليدونى يراها حتى هام بها رغم تحريم الآلهة ، واحتدمت رغباته الكامنة في الأعماق ، وزفر زفرات حارة وهو يتمتم : « طوبى لذلك الرجل الذى سوف يظفرُ بها زوجة » ، ولم يُنح له مع هذه الحال أن يضيف كلمات أخرى ، فقد كان هناك أمر أجّل خطراً يناديه وهو المعركة العاجلة الحاسمة مع الخنزير البرى .

٣٢٠

انطلق الصائدون حتى بلغوا تلك الغابة التى لم تنل الأزمان من أشجارها الضخمة فلم تمسسها فأس حطّاب ، والتى ترقى عند نهاية السهل مطلة على الحقول المنحدرة ، فنصب بعض شباك الصيد ، وأطلق بعض الكلاب ، بينما اقتفى الآخرون أقدام الخنزير البرى متعجلين اكتشاف موقع هذا الوحش الذى جاءوا لاصطياده مغامرين بحياتهم . وكان الخنزير البرى قد كمن في أسفل جزء من مجرى في أعماق واد تنمو فيه نباتات المستنقعات والعشب المائى والغاب وتجتمع فيه مياه الأمطار ثم برز مندفعاً بين مطارديه كما يندفع برق العاصفة من بين السحب المتراطمة ، وانطلق بين الأشجار التى أخذت تهتز وترسل أصواتاً مختلفة ، فتصايح الأبطال وقبضت أيديهم في قوة على أسلحتهم المشهورة الوضاعة النصل فاندفع الخنزير إلى حيث الكلاب التى تجمعت لتصدّه محاولاً تشتيتها بقفزات جانبية . وقذف إخيون أول سهم فطاش ولم

٣٤٠

يُحدث إلّا جرحاً طفيفاً في جذع شجرة اسفندان ، ثم بدت القذيفة الثانية التي أطلقها جاسون وكأنها ستصيب ظهر الخنزير البري غير أنها لشدتها تجاوزت الهدف ومضت إلى أبعد منه ، وعندها صاح موبسوس بن أمبيكس قائلاً « لكم أخلصت في عبادتك يا فويوس وسوف أظل مخلصاً ، فسدد رمحي ليصيب هدفه » واستجاب الإله لأمنيته ، غير أن الإله ديانا سلبت الرمح وهو في مسراه نصله الحديدى فلم تصب الخنزير البري غير يد الرمح الخشبية ، فامتلاً الوحش غضباً ، وأخذت سورة الغضب تعصف في عنف البرق ، وانطلق الشرر من عينيه واحتدم اللهب في صدره ، واندفع كصخرة تهوى من منجنيق فوق الأسوار أو على أبراج غصّت بالجند ، وارتمى الوحش المنهزم للدم بعد قفزة لا تقاوم فوق الأبطال الشبان ، فطرح إيوبالاموس وبيلاجون أرضاً وكانا يحميان الجناح الأيمن فأسرع أصدقاؤهما بحملهما بعيداً . ولم يكن إيناسيموس بن هيوكون سعيد الحظ إذ وقع بين أنياب الخنزير القاتلة ، وكاد نسطور يهلك قبل حرب طروادة لولا أنه غرس رمحه في الأرض وأتكأ عليه ليشب إلى قمة شجرة بلوط قريبة وأخذ يرقب خصمه وهو يدلك أنيابه في جذعها ، ثم انثنى الوحش فمزق أنيابه فخذ هيباسوس بن يوريتوس ، واعتلى الشقيقان التوأمان [كاستور وبوللوكس] قبل أن يصبحا نجمين في السماء صهوق جواديهما الأنصع بياضاً من الجليد وقذا الخنزير بحريهما ، وكادا يصبيان لولا إفلاته داخل الأدغال المعتمة التي لا ينفذ خلالها جواد أومح . ٣٦٠ وأسرع وراءه تيلامون ، لكن حماسته الرعناء جعلته يسقط على رأسه مصطدماً بجذع شجرة ، وبينما كان يليلوس يعاونه على النهوض من سقطته كانت بطلة تيجيا قد أطلقت من قوسها سهماً خاطفاً خدش ظهر الخنزير ونفذ أسفل أذنه وصبغ بعض شعراته بقطرات الدم . وأثار نجاح الفتاة فرحتها ملياًجر الذي كان أول من رأى دم الخنزير يسيل ، فلفت إليه نظر أصدقائه وقال لأتالانتا « ما أحقك بأن تتقلدى وسام الجدارة » .

غلب الرجال الخجل وأخذ بعضهم يستنفض همم البعض وبدأوا يُسدّدون رماحهم دون أن تكون ثمة خطة للهجوم فذهبت قذائفهم عبثاً رغم كثرتهم . ولم يصب أحدهم الهدف ، فاندفع أنكايوس الأركادى حاملاً بطلته ذات الحدّين ، واتجه نحو مصيره المحتوم يصيح في جنون : « انظروا كيف أن ذراع الرجل أقوى من ذراع المرأة ! أفسحوا لي الطريق ، ولسوف أقضى على هذا الخنزير البري بيدي مهما حمة ابنة لاتو ودافعت عنه بأسلحتها ، وكرها عنها » . ورفع بطلته بكلتا يديه لكي يضرب الخنزير مغروراً غرور كلماته ، غير أن الخنزير البري تنبّه لهذه الهجمة الجريئة وأعمل أنيابه في أعلى حقو أنكايوس سالكاً بذلك أقرب طريق يصل به إلى إهلاكه ، فنهاوى أنكايوس وقد برزت أحشاؤه وتدلّت وسط بركة من الدماء ، وغرقت الأرض بذلك الجدول الأحمر . وإذا پيرثوس بن إيكسيون ينطلق صوب الوحش شاهراً رمحه بيده القوية ، فناداه ثيسوس الإيحي قائلاً : « يا من هو أعزّ على من نفسى افرع إلى مكان أمين ، فنحن على البعد أقدر منا على القرب ، فقد ذهب أنكايوس ضحية اندفاعه » وأطلق مع كلماته رمحه المصنوع من خشب القرانيا ذا السنّ البرونزي الثقيل فلم يصب الهدف إذ اعترضه غصن شجرة بلوط . وسدّد جاسون في إثره رمحاً أصمى ضحية بريئة إذ أصاب كلباً في فخذه فخرّ على الأرض ، غير أن ملياجر

٤٢٠ بن أونيوس سدّد رحين اختلف مصيرهما ، إذ غاص أحدهما في الأرض بينما استقر ثانيهما في منتصف ظهر الخنزير . عندها لم يدع الوقت يذهب سدى ، فاقرب من الوحش الذى أخذ يتلوى ثائراً يسيل من شذقيه زبد مختلط بالدم المتدفق ، وها هو ذا من أدماء يقف بجواره وقد أثار غضب الوحش الجنونى ، ثم غرس رمح اللامع في كتفه ، فصاح رفاقه مهلّلين مشجّعين وأخذوا يشدّون بأيديهم على يد البطل الذى حقق



بيكاسو : ملياجر

النصر ، وتطلّعوا مذهولين إلى ضخامة الوحش الذي شغل مساحة كبيرة من الأرض وهو ملقى فوقها ، غير أنهم ظلوا ينجشون الاقتراب منه ظناً منهم أن يكون ما يزال قادراً على التصدّي لهم . ثم تقدم ملياجر ووضع قدمه فوق رأس الوحش والتفت إلى أثالانتا قائلاً : « تقبّلي هذه الغنيمة التي ظفرت بها يا عذراء نوناكريس^(١٧) ، ولتشاركيني مجدى » ، ثم أعطاها رأس الوحش بأنياه الضخمة وجلده الخشن الشعر . وقد أعجبت أثالانتا بالهدية ومهديها ، غير أن صنيعه أثار غيرة الآخرين فسرت بينهم مهمة هزّ بعدها ابنا ثيستوس قبضتيهما وصاحا بغضب : « اتركى هذه الغنيمة أيتها الفتاة ، ولا تنتزعى شرفاً هو حقنا نحن ، ولا تسترسل في الغرور بجمالك فقد يصبح هذا المفتون المتيم بجمالك عاجزاً عن أن يحمي فتنتك » . وانتزعا الغنيمة من أثالانتا وسلبا ملياجر حق إهدائها لها ، فأحنق سلوكهما ابن مارس وانفجر غاضباً وجزّ على أسنانه وهو يصيح : « أيها اللّصان إنكما بهذا تسلبان رجلاً آخر مجده ، ولسوف تعلمان أيّنا يتوعّد وأيّنا ينفذ » ، وأسرع فأغمد نصله الفاتك في قلب بليكسيوس الذي كان أبعد ما يكون عن أن يتخيّل ما كان . وقد تردد توكسيوس بين الرغبة في الانتقام لأخيه المضرّج بدمه وبين الخشية من أن يلاقى مصير أخيه ، ولكن ملياجر لم يدع له وقتاً لكى يتردد ، فقد عاجله برمح الذي كان ما يزال يحمل أثر سخونة الجريمة الأولى .

شَارَالثَا

وكانت ألثايا قد توجّهت إلى المعبد حاملة القرايين إلى الآلهة شكراً على انتصار ابنها ملياجر حين شاهدت جثماناً شقيقها محمولين إلى دارهما ، فملأت المدينة عويلًا وصراخاً وهى تضرب صدرها ، واستبدلت بشياها المطرزة بالذهب ثياباً سوداء ، غير أنها ما كادت تعلم اسم قاتل شقيقها حتى أنسيت أحزانها وجفّفت دموعها ولم تعد لها إلّا رغبة واحدة هى الانتقام . وكانت الشقيقات الثلاثة ربّات الأقدار^(١٨) قد وضعن كتلة من الخشب فى المدفأة بدار ألثايا ابنة ثيستوس ساعة كانت ترقد فى فراشها بعد أن وضعت مولودها ، وبينما كن يغزلن خيوط القدر بمسّ إبهامهن قلن : « لبيقين هذا الطفل ما بقيت هذه الكتلة الخشبية » ، وما كدن يهين كلمتهن ويغادرن الدار حتى أسرع الأم واختطفت كتلة الخشب من النار وأطفأتها بالماء وخبأتها فى حنايا الدار ، وعاش الطفل فى أمان بفضل حفظ هذه الكتلة الخشبية . وقد أسرع ألثايا بعد مصرع شقيقها فأخرجت كتلة الخشب من مخبئها وأحضرت قطعاً صغيرة أخرى من خشب الصنوبر وكوّمتها جميعاً ثم أشعلت فيها النار التى هى إيذان بموت ابنها . وحاولت مرات أربع أن تلقى بالكتلة الخشبية وسط النيران إلّا أن شجاعتها كانت تخونها فى كل مرة ، إذ كان حبها لابنها يعادل حبها لأخوها ، كما كان قلبها يتمزق بين الوفاء لابنها والوفاء لشقيقها . وكان التفكير فى الجريمة التى سوف تفرّفها يزيد وجهها شحوباً ، ثم تعاودها الرغبة فى الانتقام فيحتقن وجهها غضباً . وكانت تسيطر عليها مشاعر القسوة أحياناً ثم تتغلب عليها عواطف الحنان والشفقة ، أو ما تكاد حرارة غضبها الوحشى تجفف

دموعها حتى تعود الدموع فتنبثق من جديد . وصارت كالسفينة تتناوحها الأمواج وتتقاذفها الرياح في اتجاهات مختلفة فتضطرب في سيرها ، إذ كانت مترددة بين عواطفها المتنافرة ، فما يكاد غضبها يهدأ حتى يعود ثانية ويثور .

ومع ذلك فقد طغت عاطفة الأخوة على عاطفة الأمومة فيها ، وآثرت أن ترضى طيفى شقيقها اللذين يسرى دمهما في عروقها فاقترفت جريمة تلطّخت بإثمها . وحينما شاهدت الموقد المشوم يتوهج بالنيران صاحت : « ألا فلتحرق هذه المحرقة فلذة كبدى » وأمسكت بيديها الأثمتين الكتلة التى عليها يتوقف مصير ابنها ، ووقفت أمام المذبح الجنائزى وقالت تدعو : « يا ربّات العقاب الثلاث ، انظرن إلى هذه التضحية الخارقة التى قد تُطْفِئُ من غضبك^(١٩) ، فإننى فى آن واحد أثار وأقترف جريمة لا ترضى عنها

٤٨٠

الآلهة ، فلا مناص من أن يكفّر الموت عن الموت والجرم عن الجرم ، وأن تتبع الجنازة الجنازة حتى تهلك أسرتنا الملعونة تحت وطأة المصائب المتتالية ، فكيف يمضى أوينيوس سعيداً فرحاً برؤية ابنه المنتصر بينما يبكى ثيستىوس ولديه ؟ من الخير يا شقيقى ويا بنى أن تسكبوا جميعاً الدموع . ولكن هل فى مقدوركما يا طيفى شقيقى يا من فارقتما جسديكما أن تقدّرا هذا التكريم الذى أخصّكما به وأن تتقبّلا هذا القربان الكريه الذى يكلفنى النطفة التعسة التى نمت بين أحشائى . يالى من شقية ، تُرى إلى أين يمضى بى غضبى ؟ يا شقيقى ، اغفرا لأم تحجم يداها عن هذا الفعل الشائن . اننى أعترف أن ابنى يستحق الموت ولكن ما يعتصرنى هو أن أكون أنا التى دبّرتُ موته . ومع ذلك هل يمكن أن يظل بلا عقاب ، وأن يعيش وهو المنتصر فخوراً بتحقيق جريمته ويحكم كاليدون ملكاً ، بينما أنتما حفنة رماد وشبهان لا حراك بهما قد غيّبكما الثرى ؟ ولكن هل فى مقدورى أن أقدم على ذلك ؟ ألا تبأ للمذنب وليحمل معه إلى قبره آمال أبيه ، ولتسقط بموته مملكته ووطنه . . ولكن أين حبّ الأم لأولادها ، وأين حنان الآباء والأمهات على أبنائهم ، وأين ذلك الضنى الذى حملته أشهراً خمسة ثم أشهراً خمسة ؟ ولداه ! لكم أتمنى لو كانت النار قد التهمتكم بينما كنت طفلاً صغيراً . لقد عشت بفضلى والآن تموت بسبب خطيئتك أنت ، فلتتلل إذن جزاء جرميتك . لقد منحتك الحياة مرتين ، المرة الأولى يوم ولدتك ، والثانية يوم أخرجت من النار تلك الكتلة

٥٠٠

الخشبية المتقدة ، ألا فلتردّ إلى الحياة التى منحتها لك مرتين أو فلتجمعنى ثانية بشقيقى . كم وددت لو أنزلت بالجاني العقاب ولكنى غير قادرة . ماذا تُراني فاعلة ؟ أحياناً أرى جراح أخوى ماثلة أمام عيني ومشهد مصرعها الرهيب ، وأحياناً أخرى تنهار شجاعتي أمام مشاعر أمومتى وحقّ ابنى علىّ . ما أشقانى ، لسوف يكون نصركما فادح الثمن يا شقيقى ، ولكنى سوف أنصركما مادمت سأتبعكما أنتما وهذا الذى سأسلمه لكم لكى يسرى عن روحكما » . ومع هذه الكلمات ألقت بالكتلة الخشبية المميّنة وسط النيران بيد مرتعشة وقد أدرات وجهها بعيداً ، على حين أخذت كتلة الخشب والنار لتلثمها ترسل أنات مكبوتة .

ولم يكن مليا جر يعلم شيئاً مما يدور بل كان عندها غائباً حين أحس نيراناً تشتعل فى أحشائه ، فبذل جهداً كبيراً لكى يقوى على تحمّل آلامه القاتلة ، حتى إذا أدرك أن موتاً دون طعن ومجالد قد أصبح يتهدده

بلغ منه الأسى مبلغه ، وعدّ الضربة التي قتل بها أنكاياوس خاتمة طيبة ومئة من القدر ، وأخذ ينادى أباه . ٥٢٠
الشيخ الفاني بصوت مخنق بالأنين ، ونادى أشقائه وشقيقاته الحائيات وزوجته ، ومن يدرى لعله كذلك
نادى أمه ! وكان كلما استعرت النار استعرت آلامه ، وحين أخذت ألسنة اللهب تضعف تباعاً ثم تمخد في
النهاية أخذت أنفاس البطل تذهب هباء في الهواء وقد غطى جمرات الفحم رماداً أبيض .

وعمّ الحزن سكان هضبة كاليدون ومزق نفوس الشباب والشيوخ والقادة والعامه ، وأخذت النسوة
الجالسات قرب ينبوع إيفينوس يشددن شعورهن ويضربن صدورهن . وانبطح والد ملياجر على الأرض
فاختلط شعره الأبيض ووجهه المغضن بالغبار برماً بطول عمره . أما أمه التي كان ضميرها يعذبها على هول
جرميتها فقد اقتضت من نفسها فاستلّت خنجرأ أغمدته في صدرها .

ولو أن الآلهة منحني مئات الأفواه والألسنة وملكات ربّات الفنون في جبل هليكون لما استطعت
الإفصاح عن مدى حزن شقيقاته البائسات أو ما تُردّده شكائهن الحزينة ، فكُن يضربن صدورهن وقد
غاض دمهن وما اكترنن لجهاهن ، ويقين ما بقيت جثة أخيهن يُعدن إليها الحرارة ويدلكنها بأيديهن ويغطينها
بقبلاطين ويعانقن المحفة التي فوق المحرقة ، حتى إذا تحوّل جسده رماداً أخذن حفنات منه ذررها على
٥٤٠ صدورهن ، ثم ركنن جائحات على قبره يقبلن اسمه المنقوش على الحجر ويبللنه بدموعهن . وحين شفت
تلك النوايب التي حلّت بيت پارتاوون غلّة الإلهة ديانا مسخت الفتيات جميعاً عدأ جورجيه وزوجة ابن
النبيلة ألكمينا ، وأنبتت ريشا يغطي أجسادهن وحورت أذرعهن إلى أجنحة طويلة ورفعتهن في الهواء ،
وأحالت أفواههن مناقير محدّبة ، وأطلقتهن بعد تحوّلن على هذه الصورة إلى الفضاء .

أخيلووس

وبينما كان ثيسوس عائداً من المعركة التي اشترك فيها للقضاء على الخنزير البرى متجهاً إلى قلعة
إريخثيوس التي تحرسها أثينا التريتونية [نسبة إلى جزيرة تريتون بأفريقيا] صده نهر أخيلووس (٢٠) المترع بماء
الأمطار وعاقه عن العودة ، وقال له ربّ النهر : « هلمّ فادخل بيتي يا سليل كيكروپس العظيم ولا تعرّض
نفسك لقسوة أمطارى فما أكثر ما تقتلع الأشجار برُمّتها وتدفع أمالمها في صخب الصخور التي تعترض
طريقها ، فكم رأيت من حظائر مرتفعة فوق الشيطان تنجرف بمواشيها دون أن تُغنى عن الثيران قوتها ولا
عن الجياد سرعتها ، وكم يحتدم السيل حين تذوب الثلوج وتفيض من فوق الجبال ، وما أكثر ما حوى من
شباب في دواماته الطاغية ، إنه لأمن لك أن تنتظر حتى تنحسر المياه بين شطآن النهر فيهدأ انسيابه في
٥٦٠ مجراه » .

واستجاب ابن إيجيوس لنداء إله النهر وردّ قائلاً : « لسوف أعمل بنصيحتك يا أخيلووس وأنعم
بضيافتك » ، ودلف إلى داخل كهف قوامه أحجار النسفة المسامية السوداء والصخور البركانية ، اكتست
أرضه الندية بطحالب رخوة وازدان سقفه بأصداف ومحارات متعددة الألوان . وكانت الشمس قد قطعت

ثلثى مسارها في السماء حين اضطجع ثيسوس ورفاقه على الأرائك ، وإلى جانبه ابن إيكسيون^(٢١) وليليكس^(٢٢) بطل ترويزين الذي وخط الشيب فوديه ، وكذا رفاق ثيسوس الذين رأى إله النهر الأكارناني أنهم جديرون بالتكريم أيضاً ، فلقد كان أخيلوس فخوراً بضيفه الكبير ، وفي التو أقبلت حوريات حافيات الأقدام وقَدَّمنَ لهم الطعام على الموائد ، ثم قَدَّمنَ لهم بعد الطعام الخمر في كئوس مرصعة بالجواهر الكريمة . ونظر ثيسوس أشجع الأبطال إلى المياه الجارية أمامه وأشار بأصبعه متسائلاً : « ما هذا المكان وما اسم هذه الجزيرة ، وإن كانت تبدو لي أكثر من جزيرة واحدة ؟ » فأجابه إله النهر قائلاً : « حقاً ليس ما تراه جزيرة واحدة بل جزر خمس ، غير أن بُعد المسافة يجعلها تبدو لك متصلة . لشد ما أنا راغب في أن أخفف عنك عجبك مما فعلته ديانا بكاليدون انتقاماً من إهمالهم شأنها حين أقص عليك قصة هذه الجزر الخمس . فذات يوم قامت خمس حوريات مياه بنحر خمسة ثيران ثم خمسة ثيران ودعون جميع آلهة الريف إلى موائلهن ونسبني ، وأدين رقصاتهن المرحية دون دعوى ، فتولأن غضب عاصف جعل مياهي تتدفق فيضاناً جارفاً أتى على الغابات فجرفها غابةً غابةً ودمر الحقول واحداً إثر الآخر ، وغشى الأرض بالمياه واكتسح الحوريات اللاتي لم يعرفن قدرى إلا حينذاك ، ودفعت المياه بالأرض وبهن إلى البحر فاقتطعت المياه من الأرض لساناً ما لبث أن انشطر عن باقى الأرض وتناثر جزراً في المحيط هي هذه « الإخيناديس »^(٢٣) الخمسة التي تراها أمامك . غير أن هناك كما ترى جزيرة بعيدة معزولة عن غيرها يسميها الملاحون بيريملي ، وكانت في الماضي فتاة دفعني هيأى بها إلى أن أسلبها عُذرتها ، فثار أبوها هيوداماس وألقى بها من فوق صخرة عالية لتبتلعها الأمواج ، غير أنى تلقفتها بذراعى وعاونتها على السباحة ، وأخذت أصبح : « يا نبتون يا من تسود ثانی مملكة في الكون ، يا إله المياه السيارة ، أيها الإله المسلح بالحربة الثلاثية الشعب ، يا من نحمل إليه أنا والأنهار الأخرى أمواجنا المقدسة في نهاية مطافنا . فلتنصت إلى ولتستجب إلى دعائي ، فأنت تعلم أنى سبب مأساة هذه الفتاة التي أحملها ، ولو كان أبوها هيوداماس عادلاً أو رحيماً ، أولو أنه كان أقل وحشية مع ابنته لترقق بها وعفا عني . فلتدرك هذه الفتاة البائسة التي ألقت بها وحشية أبيها في الأمواج ، أضرعُ إليك يا نبتون أن تهىء لها ملجأً أو تجعل منها هي ملجأً فاستطيع أن أضمها إلى صدرى من جديد » ، فطأطأ ملك البحار رأسه . ومع لفظة رضاه هذه اضطربت رقعة المياه الفسيحة فارتعدت الحورية فرعاً لكنها واصلت سباحتها ، وأخذت تحسُّ صدرها الخفاق في خوف ، وبينما كنت أطوف بيدي على جسدها شعرت به يجمد ويغطي التراب نهديها . وفيما كنت أحدثها إذا أطرافها الطافية فوق الماء تستحيل هي الأخرى يَساً وتمتد شيئاً فشيئاً فإذا هي جزيرة راسية .

فيليمون وبوكيس

ولاذ إله النهر بالصمت بعد سرد قصته وساد الجميع تأثر عميق بالمغامرة التي رواها ، غير أن ابن إيكسيون الذي كان بطبعه مغروراً يحترق الآلهة ويسخر من سذاجتهم تحدى مضيفه قائلاً : « ليست قصتك

يا أخيلووس إلا محض اختلاق ، وما أنت إلا مبالغاً في إعطائك الآلهة أكثر مما لها من قدرة على سلب الكائنات أو منحهم أشكالا^(٢٤) . وقد أذهل تحدّيه الجميع وخالفوه رأيه وخاصة ليليكس الذى أكسبته السنون خبرة فأنبرى قائلاً : « إن للسما قدرات لا حدود لها . وإذا ما رغبت الآلهة فى شيء وقع ، وإليك قصة تذهب عنك كل شكوكك :

٦٢٠

كانت بتلال فريجيا شجرة بلوط يحوطها سياج خفيض قرب شجرة زيزفون ، وقد رأيت هذه البقعة حين بعث بى بيشيوس إلى حقول بيلوپس التى كان يحكمها أبوه فى الماضى^(٢٥) . وعلى القرب من هذه التلال بركة راكدة كانت قبلُ بلاداً عامرة بالسكان ثم أصبحت اليوم تجحماً لطيور المستنقعات . وكان چوپيتر قد زار هذه المنطقة مرة متخفياً فى هيئة إنسان ، يصحبه الإله ميركوريوس حامل الصولجان السحري بعد أن أطرح جناحيه ، وقد طرقا معاً أبواب ألوف المنازل طالبين مكاناً يأويان إليه لكنها أغلقت جميعاً فى وجهيهما ، إلى أن لقيا فى النهاية ترحيباً بهما فى كوخ مُغطى بالأغصان وأعواد الغاب تسكنه سيدة عجوز هى بؤكيس برفقة فيليمون الذى كان فى مثل عمرها ، وكان قد تزوّجها أيام شبابه وعاشا فى الكوخ معاً حتى أدركتهما الشيخوخة ، وقد هوّنا على نفسيهما ما كانا فيه من عوز بتسليمهما به وتحملهما له دون مرارة ، ولم يكن فى رفقتهما خدم بل كان يخدمان نفسيهما ، فكانا الأمرين والمأمورين معاً .

ولم يكد الضيفان السوايان يتخطيان عتبة الدار المتواضعة ويطأطان الرأس كى يتمكنا من النفاذ عبر الباب حتى قدّم العجوز لهما أريكة أسرع بؤكيس ببسط نسيج رخيص عليها ، ثم حرّكت الرماد الذى كان ما يزال ساخناً فى الموقد ، وأججت نار الليلة السابقة وغذّتها بالحية الأشجار الجافة وأوراقها وأخذت أنفاسها التى نهنت منها الشيخوخة تطلق ألسنة اللهب ، ثم أتت من السقيفة بحزمة من الأعواد الخشبية والغصون الجافة وأخذت تشطرها قطعاً صغيرة وتدفع بها إلى النار حتى وضعت فوقها قدراً من البرونز . وكان زوجها قد جمع من حديقة البيت بعض الخضر ونزع عنها أوراقها ، ثم تناول من أحد عروق السقف فخذ خنزير مقدّد أخذ منه شريحة أنضجها فى القدر البرونزى . وفى الوقت نفسه مضى المضيفان يشغلان ضيفيهما بحديث مسلّ حتى لا يضيّقا بانتظار الطعام ، وقد ملأ لهما إناء من خشب الزان كان معلّقاً بمسار فى الجدار بماء دافئ حتى يغتسل الضيفان ويتنعشا . وكانت هناك حشية منتفخة بحشائش النهر وأعشابها الجافة الرخوة موضوعة فوق أريكة خشبية تتوسط الغرفة ، فقاما وغطّياها ببساط لم يكن يستخدم إلا فى الأعياد ، وكان مع ذلك بالياً لا يصلح إلا لتلك الأريكة الخشبية المتواضعة . وتمدّد الإلهان على الفراش ، وقامت بؤكيس العجوز وقد شمّرت عن ساعديها ومشّت مضطربة ونصبت أمامهما منضدة ذات قوائم ثلاث إحداها دون الآخرین طولاً فوضعت بلاطة تحتها لتتزن وذلكت سطح المنضدة بورق النعناع ، ثم بسطت فوقها التوت المرقّش الذى تعشقه الربة مینرفا الحكيمة والكرز البرى المحفوظ منذ الخريف فى ثفل النبيذ وكذا الهندباء والفجل الأحمر والجبن والبيض المنضج بفعل الرماد الحارّ بعد أن وضعت كل ذلك فى أطباق من الفخار ، وأحضرت قنينة فضية وأقداحاً من خشب الزان المبطن بالشمع الذهبى اللون . وبعد قليل قدّمت اللحم الساخن ، ثم وضعت النبيذ غير المُعتق على المائدة ناحية لتُفسح لأطباق أخرى كانت تحمل

٦٢٠

البندق والتين والبلح المجفّفين والبرقوق والتفاح العَطر في سلاله المكشوفة ، والعنب الأسود الناضج بين أوراقه الأرجوانية ، وكان في وسط هذه الفاكهة كلها قرص من العسل الأبيض ، وأبهى من هذه الوجبة كان وجها المضيفين الكريمين وترحابها السخى .

وقد لاحظ المضيفان خلال تناول العشاء أن إناء النبيذ كان يمتلئ وحده كلما فرغ ، فإذا هما يذعران ويدهشان ، ورفعا أيديهما ضارعين إلى الآلهة وأخذوا يعتذران عما قدّما من وجبة هيئة ، وعرضا على الضيفين المقدسين أن يذبحا لهما ما عندهما من إوزة فريدة كانت تحرس عليهما بيتهما المتواضع . وشرعا يسكان بالاوزة ، فإذا هم يهرب أمامهما عما أجهدهما سعياً وراءها لشيخوختهما إلى أن لاذت بالإلهين فحميها من أن تذبح معلنين لإنهما إلهان وقالوا : « لسوف ينزل بجيرانكما العقاب الذى هم به جديرون لجحودهم . أما عنكما فستكونان بمأمن مما ينزل بهم ، ولكن عليكم أن تهجرا داركما وأن تصعدا معنا إلى قمة الجبل » ، واستجاب الزوجان العجوزان وتبعاً الإلهين وأخذوا يتسلّقان المرقى الطويل في عُسر وجهد متكتئين على عصويهما مثقلين بشيخوختيهما .

كان بين الزوجين وبين قمة الجبل مرمى سهم حين أدارا أعينهما فرأيا مستنقعا فسيحا قد ابتلع كل شئ عدا دارهما التى بقيت قائمة وحدها ، وفيما هما يدهشان لهذا الأمر ويندبان حظ جيرانهما ، لمحا كوخهما الذى كان يضيق بساكنيه يتحول إلى معبد ، فتقوم أعمدة رخامية مقام قوائمه الخشبية ويتحول الغماء [القش] المضفر إلى سقف ذهبي ، وازدان بابه بنقش زخرفي جميل وتغطت أرضه بالواح رخامية . وقال ابن ساتورن بصوت ملؤه الرحمة والركة : « حدّثني أيها الشيخ الصالح وأنت أيتها الزوجة الجديرة بزواج مولع بالعدل ، أى شئ تتمنيان ؟ » وبعد أن تشاور فيليمون مع بؤكيس برهة رفع للإلهين رغبتهما المشتركة قائلاً « أن نكون لكما كاهنين ولمعبدكما حارسين . هذا ما نبغى أن نظفر به ، وإذ كنا قد أمضينا حياتنا معاً في وفاق تام فهل لنا أن تحين ساعة موتنا معاً فلا أرى محرقة زوجتي ولا تُودعنى هي في قبرى ؟ » .

وقد تحققت أمنيتهما ، فظلا حارسى المعبد طوال الحياة التى قدّر لها أن يعيشاها . وجاء يوم ناء فيه بطول العمر وكان يقفان أمام الدّرج المقدس يرويان قصة هذا المكان ، ورأت بؤكيس فيليمون يتغطى بورق شجر ، كما رأى فيليمون أوراق شجر تغطى بؤكيس . وارتفعت قمة شجرة فوق وجه كل منهما ، فتبادلا الحديث ما رزقا القدرة على ذلك ، ثم صاحبا معاً « وداعاً يا زوجى . . . وداعاً يا زوجتى » وما لبث فمهما أن اختفيا في لحظة واحدة تحت لحاء ساق الشجرة التى تحوّل كل منهما إليها . وما يزال فلاحو فريچيا يشيرون إلى الشجرتين المتجاورتين اللتين نمتا من جسديهما .

ذلك ما قصّه على شيوخ جديرون بالتصديق لم يكونوا مدفوعين بدافع من الخداع أو التضليل . وقد رأيت أنا نفسى أكاليل معلقة بالأغصان ، كما قدمت أكاليل أخرى نضرة بديلاً عنها بينما كنت أتمتم : « ما أقرب الأتقياء لقلوب الآلهة ، ومن يُكرّم الآلهة يُكرّم » .

إيريزيخثون

وفرع ليليكس من قصته التي تركت أثراً عميقاً في نفوس مُستمعيه ولاسيما في نفس ثيسيوس الذي كان وجوده يعزّز صحة ما قيل . وإذ كان ليليكس بدوره يودّ أن يستزيد من معرفة المعجزات التي حقّقها الآلهة ، لهذا تحدث إليه إله النهر معتمداً على مرفقه قائلاً : « هنالك يا أشجع الأبطال أجساد تحوّلت إلى صورة واحدة وبقيت عليها أبداً ، وهنالك أجساد أخرى تحوّلت إلى صور شتى متباينة . أنت مثلاً يا پروتيوس الإله ساكن البحر الذي يحيط الأرض بذراعيه قد شوهدت أحياناً في صورة شاب ، وأحياناً أخرى في صورة أسد ، وقد كنت يوماً خنزيراً برياً هائجاً ، ومرة أخرى ثعباناً يهرب الجميع الاقتراب منه ، أو ثوراً مهيب القرون ، وما أكثر ما كنت حجراً أو شجرة ، وأحياناً ماء جارياً . كنت أحياناً نهراً وأحياناً لهباً على عداٍ مع الأمواج .

٧٤٠

وكانت زوجة أوتوليوكوس ابنة إيريزيخثون^(٢٦) تحظى بهذه القدرة نفسها ، غير أن أباهما كان يسخر من قدرات الآلهة ولا يطلق البخور في محاريبهم ، ويقال إنه انتهك حرمة غابة مقدسة لسيريس ودنّس أَدْغالها القديمة ببلطته ، فقد كانت بين أشجارها شجرة بلوط ضخمة تحيط بجذعها الشرائط واللوحات التذكارية وأكاليل الزهور شواهد على الوفاء بنذور تحقّقت . وكثيراً ما كانت الحوريات يؤدّين رقصاتهن المرحّة في ظلّها ، كما كن يعقدن أذرعتهن ويشكّلن دائرة حول جذع هذه الشجرة التي يبلغ محيطها خمسة عشر ذراعاً ، ويفوق ارتفاعها ارتفاع الأشجار الأخرى بقدر ما كان ارتفاع هذه الأشجار يفوق ارتفاع العشب المحيط بها ، ولم يثن هذا إيريزيخثون عن أن يأمر أتباعه بقطع هذه الشجرة . وإذ رأهم يترددون لم يتورّع هو عن أن ينتزع البلطة من يد أحدهم قائلاً : « لسوف تسقط وتلاصق قمتهما الخضراء الأرض سواء أكانت شجرة عزيزة على الإلهة أم كانت هي نفسها الإلهة » . وهوى بالبلطة خلال نطقه بهذه الكلمات على جذع الشجرة بضربة قاطعة فإذا شجرة سيريس تهز وتثن ، وإذا أوراقها وثمارها وأغصانها الطويلة تشحب . ولم يكذب يشقّ جذع الشجرة حتى تدفق دم غزير أشبه ما يكون بدم ثور نُحر قرباناً في المذبح .

٧٦٠

سكن الجميع وعرتهم الدهشة ، وحاول أحدهم أن يحول بين هذا الاعتداء الأثيم ويردّ البلطة القاسية ، فحجده إيريزيخثون بنظرة قائلاً : « خذ هذه كفاء نواياك الورعة » وضربه بالبلطة ضربة شجّت رأسه ثم استدار إلى شجرة البلوط يلاحقها بضرباته . عندها انبعث من جوف الشجرة صوت يردد : « أنا حورية من حوريات الإلهة سيريس أغيب في طيّات هذه الشجرة ، أنذرك وأنا أُلْفِظ أنفاسي الأخيرة بأن عقابك على جرمك آت عما قريب ، وفي ذلك ما يُخَفِّف عني فراقى للحياة » . وعندما أوهنت الضربات المتتالية الشجرة وأخذت تهتز ثم شدّت بالحبال سقطت مَحْطمة تحت ثقلها الرهيب عدداً كبيراً من الأشجار المجاورة .

حزنت الحوريات الأخريات حزناً بالغاً على تلك الخسارة الفادحة التي لحقت بهن وبالغابة ، وجعلن ييكن شقيقتهن وارثنين عليها ثياب الحداد السوداء ، ودنون من سيريس حزينات يسألنها أن تُنزل عقابها بإيريزيخون فهزّت الإلهة رأسها قبولاً منها لما سألن ، ثم أتت على الحقول بحصاها الوافر ، واشتطت في عقابها مما كان يثير في الناس أحياناً الشفقة على المذنب ، ولكن ما طُبع عليه من إجرام بشع نزع الشفقة عليه من قلوب الناس ، فتركت الجوع يَعُضُّ في جسده . ولم يكن من اليسير أن تذهب الإلهة سيريس للقاء « ربة الجوع » المهلكة [فالقدر لا يسمح بلقاء سيريس مع ربة الجوع]^(٢٧) فاستدعت سيريس إحدى حوريات الجبال قائلة : « في أقاصي أراضي سكوثيا مكان ثلجي منعزل لا ينمو فيه شجر ولا نبات ، يسكنه أرباب الصقيع والشحوب ورعشة المرض والجوع الذي لا يشبع قط ، مُرِ ربة الجوع هذه أن تنفذ إلى جوف ذلك المعتدى على المقدسات ، وألاً تهزم أمام وفرة الغذاء ، وأن تحارب في صفى حتى لو ذهبت بوفرى ، ولا يفزعك طول الرحلة . خُذى مركبتى ودوابى الوحشية المجنحة وقودها عبر الفضاء »^(٢٨) ، وأسلمتها سيريس المركبة فانطلقت بها الأوريدة^(٢٩) في أجواز الفضاء حتى بلغت سكوثيا ، ففكت قيود الدواب فوق قمة جبل ثلجي يسمى القوقاز ، وأخذت تبحث عن « ربة الجوع » فوقعت عليها في حقل صخرى تنتزع بأظافرها وأسنانها أعشاباً هزيلة ، ووجدتها شعناء الشعر غائرة العينين شاحبة الوجه يكسو شفتيها زبد أبيض كريحه ، وفي حلقها بحة صوت حزينة ، وجلدها مشقق يكشف عن أحشائها للرائى وقد نتأت عظام خاضرتها المقوسة المعروقة ، ومعدتها خاوية فبدا صدرها معلقاً لا يكاد يمسه غير عمودها الفقرى ، وبدت مفاصلها من فرط هزالها ، وظهرت غضاريف ركبتيها شبيهة بالورم ، كما برز عظم كاحلها . وحين لمحتها الحورية خاطبتها على البعد [لأنها لم تجرؤ على الاقتراب منها] وأبلغتها رسالة الإلهة ولم تنتظر إلا برهة صغيرة ، وكانت قد وقفت بعيداً إذ ما كادت تبلغ المكان حتى أحسّت لساعتها بالجوع يهددها ، فأدارت مركبتها وعادت إلى هايمونيا .

٨٠٠

ومع أن نشاط ربة الجوع لا يتفق ونشاط سيريس إلا أنها أمضت أوامر الإلهة بدقة ، وقد حملتها الريح عبر الأجواء حتى بلغت الدار المهيئة لها ، وتسَلَّلت مباشرة إلى غرفة نوم الكافر فوجدته في سبات عميق [إذ كان الوقت ليلاً] وأحاطته بذراعيها واحتضنته ونفذت إليه عبر أنفاسه ، وأخذت تملأ بنفثاتها فمه وحلقه وصدره ، وأشاعت في سرايين النائم الحاجة إلى الغذاء ، ولم تكد تُنهي مهمتها حتى غادرت تلك المناطق الخصبة وعادت إلى مأواها القفر وسط حقول الجذب التي اعتادت الإقامة بها .

٨٢٠

رأى إيريزيخون وهو ما يزال ينعم بلمسات أجنحة النوم الحانية تهدده أنه يبحث عن طعام ، ومضى يلوك شيئاً لا وجود له حتى أجهد أسنانه من كثرة ما اصطكت ، وأضنى حلقه المخدوع بابتلاع غذاء وهمى فكان يزدرد بدلاً من الطعام هواء لا نفع فيه ، حتى إذا استيقظ أحسَّ رغبة عارمة في الطعام تنهش حلقه النهم وأحشائه الخاوية . وأسرع يطلب كل ما تنتجه الأرض والبحر والفضاء ، وراح يشكو أنه يموت جوعاً وبين يديه المائدة المتخمة بأنواع الطعام فيطالب بالمزيد ، ولم يعد يكفيه وهو رجل واحد ما يكفي مدناً عديدة وشعباً كاملاً ، وأصبحت معدته أشد ما تكون لهماً إلى الطعام كلما امتلأت به ، كالبحر يتلقى بين

شطآنه مياه أنهار الأرض كلها دون أن يرتوى ظمؤه أو يكف عن ابتلاع مياه قنوات الأقطار البعيدة ، أو كالنار العاتية التي لا يفلت منها شيء وتلتهم كتل الأخشاب التي لا تُحصى ويزداد نهما كلما ازداد ما يُقدّم لها من مواد وتزداد حدة كلما توفّر لها ما تلتهم . كذلك كان فم إيريزيخثون يزدرد الأطعمة كلها مطالباً بالمزيد ، ٨٤٠ كل طعام يحرك فيه الرغبة إلى غيره ، فكانت كثرة الأكل تزيد أحشائه فراغاً وخواء .

وتضاءلت ثروة آبائه وأجداده لإشباع جوعته وملء بطنه ، ومع هذا لم يخمد جوعه الشرس وبقي نهمه العارم يذكو حدة . وبعد أن قذف كل ما يملك في أحشائه بقيت بين يديه وحيدته التي كانت ما أولاها باب غيره ، فإذا هو يبيعها لسه مسغبته . غير أنها كان لها كبرياؤها الذي لا تخضع معه لسيّد ، فمدّت يديها إلى البحر القريب ضارعة : « لك وحدك يا إله البحر أن تحرّرنى من عبوديتى ، يا من وهبت لك عُذرى . فاستجاب الإله نيتون لضراعتها إذ كان قد استمتع بها من قبل . وكان مالكها الذى آلت إليه يقفو أثرها ويتتبع خطاها حينما حوّلها الإله إلى صورة أخرى ، فإذا هى على قسما رجل يرتدى ثياب صياد سمك ، وإذا مالكها يرى بين يديه صياد سمك ، وإذا هو يقول له :

« أنت يا من تخفى تحت الطعم الخفيف شصك البرونزى ، أنت يا من تجيد تحريك قصبه الصيد ، كم أتمنى أن تهدأ مياه البحر لك دوماً وأن ينخدع لك السمك تحت المياه فلا يحسّ بشصّ إلا بعد أن يعلق به . منذ برهة وعلى هذا الشاطئ كانت تقف فتاة في ثياب بسيطة شعشاء الشعر ، وبعينى هاتين رأيتها منذ قليل . خبرنى أين هى فإن آثار أقدامها تشى بأنها لم تذهب بعيداً عن هذا المكان » ، وأدركت الفتاة أن الإله كان موقفاً فيما احتال به لخلاصها ، وما أشد ما اغتبطت حين سأل مالكها عن مكانها ، فأجابت : « معذرة يا سيدى كائنات من كنت ، فإننى لم أصرف نظرى عن المياه العميقة ، إذ كنت أشد ما أكون انتباهاً إلى صيدى . ولكى أحمو شكوكك فإننى أشهد إله البحر الذى يعيننى فى مهمتى على أن أجد أحداً غيرى رجلاً كان أو امرأة لم يظهر على هذا الشاطئ منذ وقت طويل » ، فصدّقها سيدها واستدار يدوس الرمل بقدميه وابتعد بعد أن انخدع بالحيلة . وبعدها عادت الفتاة إلى صورتها الأولى

وحين علم أبوها أن ابنته حفيده تريوباس تملك القدرة على التحوّل من صورة إلى أخرى ، باعها مرات عدة إلى سادة مختلفين ، فكانت تهرب منهم متخذة صورة ماهرة مرة وصورة طائر مرة ثانية وصورة ثور يوماً وصورة وعل يوماً آخر ، وكانت تحمل إلى أبيها النهم أطعمة مختلصة . ولما نفذ كل ما كان يمكن أن يطعمه دفعته حدة الجوع القارص إلى البحث عن غذاء جديد لسه مسغبته ، فأخذ إيريزيخثون الشقى يقطع أعضاء جسده بأسنانه ليغذى بها نفسه .

٨٨٠ ولكن كيف لى أن أضيع الوقت أيها الفتيتان فى سرد قصص الآخرين ، على حين أفى أستطيع أن أتحوّل وأظهر فى صور عدّة وإن كانت محدودة . فانا أظهر أحياناً كما تروننى الآن ، وحينما أتحوّل إلى ثعبان ، وحينما أبدو ثورا يتصدّر القطيع قوته كلها فى قرنيه . وأقول قرنين لأنه كان لى هذان القرنان ، وأنتم الآن تروننى ونصف جبتهى أعزل وأعقت كلماته هذه

التعقبات

- (١) السيرتيس هي تلك المياه الضحلة بالقرب من شواطئ تونس وطرابلس وبرقة والسيرتيس الكبرى [وتقابل خليج سدر اليوم بين بنغازي ومسراطة] هي الجزء الجنوبي الشرقي لهذه المنطقة الخطرة أمام الملاحة بسبب الشط الرمل المخفى تحت سطح البحر . والسيرتيس الصغرى [وتقابل خليج قابس] هي الجزء الجنوبي الغربى منها . وثمة من يقول إن خطورة هذه المياه ليست سوى شائعة أطلقها التجار الفينيقيون حتى يفرضوا احتكارهم للتجارة في هذه المنطقة حارمين منافسيهم منهم . فالمعروف أن هذه السمعة لم تمنع ازدهار التجارة في جزيرة ميننكس [جربه] التي اشتهرت بتجارة الصبغات الأرجوانية وميناء تاكابي [قابس الحديثة] وميناء تابارورا [سفاقس الحديثة] .
- (٢) هامت پاسيفاي زوجة مينوس ولعا بثور ظهر بغتة من المياه بمشيئة نپتون فأمرت دايدالوس بأن يصنع بقرة جوفاء من الخشب كانت تتخفى داخلها كي تضاجع الثور الذى أنجبت منه إبتاً هو المينوطور [الوحش ذورأس الثور وجسد الإنسان] . وإذ اشمئز الملك مينوس من رؤيته أمر بسجنه في المتاهة . ويبدو أن أسطورة البقرة الخشبية من أصل مصرى ، إذ يذكر هيرودوتوس في الكتاب الثانى من تاريخه قصة تخنيط إبنة منكاورع ودفنها في تمثال خشبى أجوف لبقرة مطلية بالذهب .
- (٣) يُرجع أوفيد كلمة كيريس — دون أدلة — إلى الفعل اليونانى « خيرين » الذى يعنى قطع أو جز .
- (٤) ثمة رأى يقول إن دايدالوس هو اسم أسطورى يعنى المهندس الصانع ، ويقال إنه من أهل أثينا وإنه ينتمى إلى أسرة آل إيرينخيوس . وكانت ثمة عشيرة في أثينا اسمها آل دايدالوس ، والراجح أن دايدالوس الحقيقى هو الذى قتل ابن أخته ، أما دايدالوس الأسطورى فهو مبدع الفنون بما فيها النحت والعمارة وحفر الخشب والعاج ، وقد نسبت إليه تماثيل عدة ترجع إلى العهد السحيق ، فسمى أوائل المثالين في أثينا بأبناء دايدالوس . وليس هناك دليل تاريخى على قصته التى حدثت في كريت إلا أنها تدل على الأهمية الكبرى التى كان يعطيها الإغريق للحضارة الكريتية في تاريخ ثقافتهم وفنونهم .
- (٥) يتيح لنا هذا الوصف للمتاهة أن ندرك الأسس التى بنيت عليها الأسطورة ، فقصر مينوس الذى تم الكشف عنه في كنوسوس عبارة عن مجموعة لا تحصى من القاعات ذات المنافع المختلفة ، فمنها قاعة العرش وقاعة العبادة وقاعة الحريم وقاعة الجلوس والمخازن وما إلى ذلك ، وكلها متصلة بعضها ببعض الأمر الذى لابد قد أصاب بالحيرة الإغريق الذين ألفوا بساطة تصميم مبانيهم . وقد تكون كلمة « لايرينثوس » أى المتاهة مشتقة من الكلمة اليونانية في لهجتها الكارية [لايريس] التى تطلق على البلطة المزدوجة . ومعروف أن لهذه البلطة دور كبير في الديانة الكريتية فهي منقوشة على أعمدة المعابد وعلى الحشوات المحفورة .

وقد تكون المتأهة هى « قصر البلطة » دون أن يُقصد بها متأهة ، غير أن هذا الاشتقاق مازال موضع جدل وبحث . ويُرجع البعض الثور إلى أصول أسطورية مصرية إلا أنه موجود فى الرسوم الجدارية لقصر كنوسوس فى مشاهد لمسابقات الثيران . وقد عثر فى حفائر كنوسوس على رموس ثيران من القضة ذات قرون من الذهب انبثقت منها البلطة المزدوجة المشار إليها ، وما يزال الأمر يكتنفه الغموض .

(٦) المعروف أن مينوس كان قد فرض على أهل أثينا جزية سنوية من سبعة شبان وسبع فتيات يُقدّمون غذاء للمينوطور . وكان ثيسبيوس قد تطوع بمحض إرادته ضمن أفراد هؤلاء الضحايا كى يقضى على الوحش . أما ديا فهو اسم قديم لجزيرة ناكسوس .
(٧) كوكبة الإكليل الشمالى (أو الفِكْه) الموجود بين نجم الجاثى على ركبته [أو نجم الراقص] وكوكبة حامل الثعبان [الحورية] .

(٨) يوصى دايدالوس هنا ابنه بنفس النصائح التى أوصى بها فوبيوس ابنه فايثون فى الكتاب الثانى .
(٩) يخطئ أوفيد هنا كما أخطأ فى وصفه لطيران ميديا فى الكتاب السابع ، إذ تقع ساموس إلى الشمال الشرقى من جزيرة إيكاريا التى سقط بجوارها إيكاروس ، فى حين تقع ديلوس شمال پاروس ، وجزيرتا لبتوس وكاليمنى شرقى ناكسوس .

(١٠) يروى أن دايدالوس قد التجأ إلى صقلية محتفياً بالملك كوكالوس ملك كاميكوس [أجريجتوم الآن] ، فجاهد مينوس بأسطول ضخّم يطالبه بالمأرب . وتظاهر كوكالوس ودعا مينوس إلى وليمة حيث قتله غرقاً فى حمام من الماء المغلى بمساعدة بناته . وكانت هذه الأسطورة موضوع مأساة مفقودة لسوفوكليس اسمها « كاميكوى » .

(١١) كاليدون مدينة فى إيتوليا على ضفة نهر إيفينوس وكان ملكها أوينيوس هو والد ملياجر .

(١٢) سيريس أو كيريس إحدى ربّات اللاتينيين تقوم بإغناء الزرع وحمايته .

(١٣) يبدأ أوفيد هنا سرد أسماء الأبطال الذين اشتركوا فى صيد الخنزير البرى مثلما فعل حين سرد أنواع الكلاب فى مصرع أكتايون [الكتاب الثالث] ، ويرى البعض أن هذا الميل إلى السرد لم يكن مجرد نزعة انفراد بها أوفيد بل إنه قد اقتبسه عن مصدر أدبى مجهول الاسم .

(١٤) انظر الكتاب الثانى عشر (١٨٩) .

(١٥) كان أمفيارائوس الأرجوسى عراًفاً مشهوراً تنبأ بالموت لكل من يشترك فى الحرب ضد طيبة . وكانت زوجته إيريفيليه قد فُتنت بالمعدن الذهبى الذى أهدها إليها پولينيكيه وكان فى الماضى عقد هارمونيا زوجة كادموس . وعندما قرر أدراستوس ملك أرجوس وشقيق إيريفيليه أن يشن الحرب ضد طيبة بناء على رغبة پولينيكيه طالب أدراستوس صهره أمفيارائوس أن يخرج معه إلى القتال فاحتبأ أمفيارائوس فى بيته لأنه يعلم سلفاً أنه ملاق حتفه فى المعركة حسب نبوءته هو نفسه ، فأجبرت إيريفيليه زوجها على الاشتراك فى هذه الحرب . وبعد أن لى طلبها صاغراً أرسل جوبيتر صاعقة شقّت الأرض أمام قدميه فابتلعت ، ويقال إنها حيلة لجأ بها جوبيتر كى يضمن له الخلود . وماتزال أطلال معبدته الذى كان يتنبأ فيه بالغيب قائمة بجوار قرية أوروبوس فى أتيكا .

(١٦) هى أتلانتا من تيجيا [فى أركاديا] بنت ياسوس ، تركها أبوها فى العراء لأنه كان يأمل أن ينجب ولداً مكانها ، فأرضعتها دبّة وعاشت على الصيد فى الغابات [انظر الكتاب العاشر] .

(١٧) اسم جبل فى أركاديا .

(١٨) هن ربّات الأقدار كلوثو ولاخييسس وأتروپوس .

(١٩) تقوم ربّات الأقدار برعاية قوانين الأسرة التى تحرّم قتل الأقارب ، وقد قتل ملياجر خاليه فاستحق عقابهن .
(٢٠) يفصل نهر أخيلوس بين نهر أركانانيا وإيتوليا فى غربى اليونان ، ويزداد فيضانه حين يصل غرب كاليدون ، ولم يكن هذا النهر فى الواقع على طريق عودة ثيسبيوس إلى أثينا . وبعد هذا النهر أطول أنهار اليونان وأغزرها ميهاً .

(٢١) هو بيريثوس نديم ثيسبيوس الذى رافقه حينما هبط إلى العالم السفلى . [انظر قصة زفافه إلى هيوداميا وما وقع فيه من عراك بين اللابيث والقنطور فى الكتاب الثانى عشر] .

(٢٢) لا علاقة بين ليلكس فى هذا الفصل وليلكس الوارد فى الكتاب السابع .

(٢٣) أرخبيل من الجزر الصغيرة الأهلة عند مصب نهر أخيلولوس على الشاطئ الغربى لأركانانيا ، ومن وقت لآخر كان الغرين يقوم مقام الجسر بين هذه الجزر .

(٢٤) لم يكن بيرثوس كافراً بالآلهة مثل أبيه إيكسيون الذى حاول ذات مرة أن يبتك عرض جونو . وكان بيرثوس قد هبط إلى العالم السفلى في رفقة نيسيوس لكي يمتطف بيرسيفونى ، غير أن هاديس اعترض طريقه وكبله بالأغلال . واستطاع هرقل فيما بعد أن يفك أسره وأن يعيده إلى الأرض مع صديقه نيسيوس .

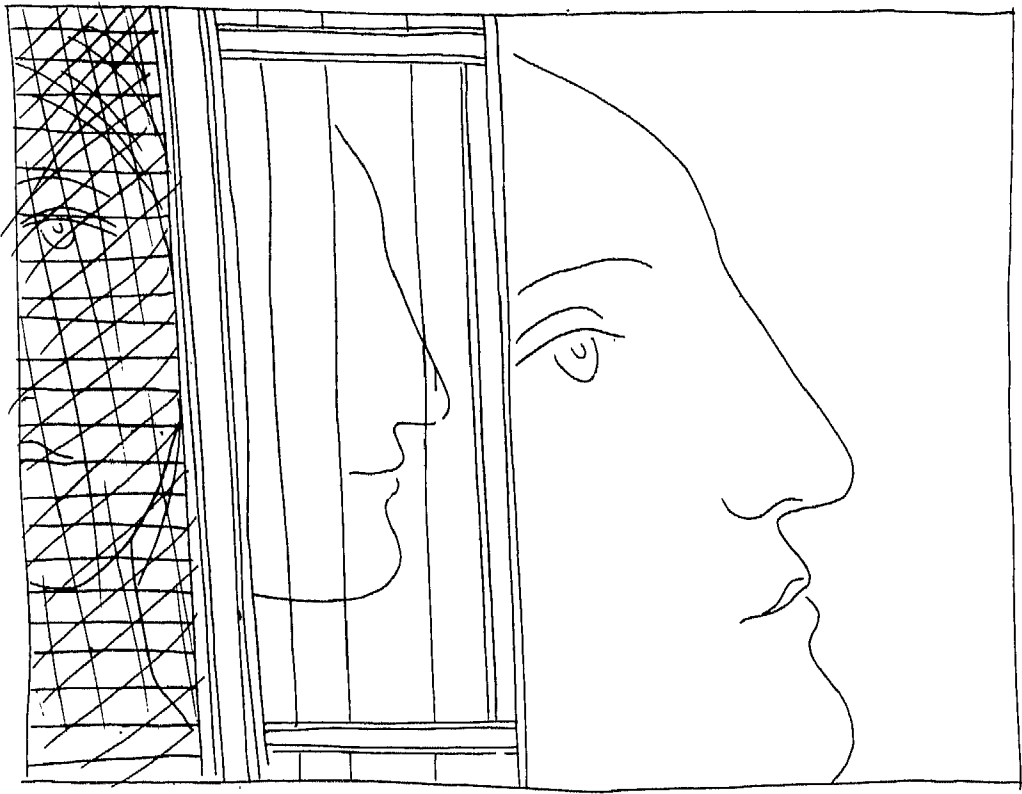
(٢٥) ليلكس هو ابن پيثوس بن پيلوس بن تانتالوس الذى ولى عرش فريجيا ، ثم التجأ إلى اليونان بعد أن بعثته الآلهة من الموت [انظر الكتاب السادس ٤٠٣ وما بعده] .

(٢٦) هى منسترا . وليست القصة التى سيرويتها أوفيد عن عذاب الجوع الذى فرضته الإلهة ديميتر على إيريزيخثون إلا توطئة تفسر كيف تلقت منسترا من نيتون هبة تحول شكلها من حال إلى حال . وكان زوجها أوتوليكسوس بن هرمس قد تلقى عن أبيه القدرة على سرقة ما يريد دون أن يُضبط متلبساً وذلك لقدرته أيضاً على التشكل كيفما يريد . وكان أبا لانتيكليا أم أوديسيوس . ويقال إن مكر أوديسيوس كان موروثاً عن جدّه هذا [انظر الكتاب الحادى عشر والكتاب الثالث عشر] .

(٢٧) لاغرو فسريس هى ربة الخصوبة والحصاد الوفير .

(٢٨) المركبة التى تجرّها الثنائين المجنحة ، وكانت ديميتر [سيريس] قد أعطتها من قبل لتريتوليموس ليمضى بها إلى البشر ، كاشفاً عن خيرات الأرض . وقد شاع تصوير ترپتوليموس فوق مركبته في الفنون الإغريقية .

(٢٩) حورية الجبال والمضارب .



بيكاسو

الكتاب التاسع

أخيلووس وهرقل

سأل البطل ابن نبتون الإله أخيلووس عن سر أنينه وعما أصاب جبينه من سوء ، فأجابه إله نهر كاليدون وكانت خصلات شعر رأسه تنسدل تحت تاج من قصب الغاب قائلاً : « إنك تطلب صنيعاً يكلفني إسدائه الكثير ، وهل لمهزوم أن يفخر بمعاركه ؟ ولكني سوف أكون أميناً فيما أقصّة عليك . إن الحجل من الهزيمة يهون أمام مجد خوض المعارك ، وعزائي أن خصمي كان بطلاً عظيماً ، ولعل أصوات الجهاير قد حملت إلى سمعك اسم ديانيرا ، فقد كانت في الماضي عذراء نادرة الجمال يتنافس عليها خطّاب عديدون ، فمضيتُ مثلهم إلى دار من كان يتمنى كل منا أن يصاهاهه ، وقلت له : « فلتقبلني زوجاً لابتتك يا ابن پارثاوون » . كذلك قصده هرقل هو الآخر فانسحب المتنافسون الآخرون حين تباهى منافسي الوحيد بأنه يقدّم أباه چوبيتر ليكون هو الآخر حماً للفتاة ، ثم مضى يستعرض جلائل أعماله بتغلبه على الأخطار التي عرّضته لها زوجة أبيه [چونو] . ولقد احتججت على ما ساقه من أسباب تركّيه بقولي : عارٌ

٢٠ على إله أن يتدنّى فيُبيح لواحد من البشر أن يُصهّرَ إليه ، [فلم يكن هرقل قد أصبح إلهاً بعد] . إنك ترى أننى سيد النهر الذى تتعرج مياهه فى مملكته ، وأننى لن أكون ذلك الصهر الغريب الوافد إليك من بلد نازح ، بل صهراً مختاراً من بلادك وواحداً من بين رعاياك . وحسبى أن جُؤنوا ملكة السموات لم تطاردنى عن كراهية ، وأن أحداً لم يفرض علىّ عملاً عقاباً لى . أو تفخر يا ابن ألكمينا بأنك ولد جوبيتر مع أنه ليس أباك ؟ وإن صحّ هذا فلم يكن إلاّ عن خطيئة . إنك حين تدعو جوبيتر أباً ترمى أمك بالزنا ، فاختر أحد أمرين : ألاّ يكون جوبيتر لك أباً أو أن تكون أمك قد أهدرت شرفها .

٤٠ ولم ين هرقل عن أن يتوعّدنى بنظراته خلال حديثى ، وعجز عن أن يكتم غضبه المشتعل فى نفسه ، فصاح بى : « إن ذراعى يفوق لسانى ، ولسوف أترك لك ميدان الكلام ، وحسبى أنا ساحة الوغى » ، وتقدّم نحوى بخطى جريئة ، وخجلت أن أراجع بعد كل ما صدر على لسانى من زهو وتباه ، فخلعت عنى عباءة الخضراء ومددت ذراعى وتأهبت وثيت قبضتى إلى صدرى وشمرت للعراك ، فقبض هو تراباً فى كفّه نثره علىّ ، فغطيته بدورى بالرمال حتى بدا أصفر اللون ، وكان يحاول أن يقبض تارة على عنقى وتارة على ساقى وكنت دائب الحركة بهما كى أفلت منه ، إذ كان يلاحقنى ويسدّ علىّ كل منفذ ، وكان ثقل وزنى يجمعينى من ضرباته ، وكنت ككتلة من صخر تقف صامدة فى وجه الأمواج التى تحيط بها صاخبة ، غير أن هرقل لم يأبه وكان من ضخامة جسمه ما يكفل حمايته . وتباعد كل منا عن خصمه لحظات ثم ما لبثنا أن تقاربنا لنستأنف العراك ، وتشبّث كلّ منا بمكانه فى حزم لا نقبل معه استسلاماً ، ولأمت قدمائى قدميه ، وانحنيت بصدرى إلى الأمام ، وأخذت أعصر أصابعه بأصابعى ، وأدفع جبهته بجبهتى ، وكنت قد شهدت قبل ذلك ثيراناً تتصارع على هذا النحو وهى تتنافس على أجمل بقرات القطيع ، وكان القطيع يرقب المتصارعين دون أن يعرف لمن تكون الغلبة فيظفر بالزعامة . وحاول هرقل مرات ثلاث أن يدفع صدرى بعيداً عنه ولكنه لم ينجح إلاّ فى الجولة الرابعة ، فقد استطاع فك قبضتى وإرخاء ذراعىّ المشدودين ثم سدّد إلىّ ضربة أدارتنى حول نفسى [فيجب أن أعترف بالحقيقة كاملة] ثم ألقي بكل ثقله على ظهرى . ولتصدّقنى فلست أحاول الزهو بادعاء الأكاذيب ولست أبالغ حين أقول إننى أحسست كأن جبلاً يدكّنى . وقد نجحت فى أن أدسّ بين جسدنا ذراعىّ اللتين كانتا تنصبيان عرقاً ، وأن أخلّص جسدى من ذراعيه اللتين كانتا تطوّقان عنقى ، بينا كنت ألث وهو يضيق علىّ الخناق ولا يدعنى أسترده أنفاسى ، إلى أن أمسك بعنقى فتهاوت ركبتيّ على الأرض وأخذت أعضّ الثرى .

وحيث أدركت أننى أضعف منه احتلت كى أفلت من قبضة البطل فتحوّلت ثعباناً طويلاً ، ورُحْتُ أُنحوّى مرسلّاً لسانى المشقوق بفحيح كريحه ، فانطلق هرقل التيرثنى مستهزئاً بحيلى ، وقال : « لقد كانت هوايتى فى طفولتى الفتك بالثعابين ، وإذا كنت تفوقنى قدرة فلست غير ثعبان وحيد لا يصل العديد من أمثالك إلى قوة الهيدرا الليرناوية التى كانت جراحها تمدها بالمزيد من القوة والبأس ، فكانت كلما قُطع لها رأس من رءوسها نبت مكانه رأسان ويزداد عنقها صلابة وقوة ، وعلى الرغم من رؤوس الأفاعى العديدة التى كانت تتشعب منها ، وعلى الرغم من تزايد قواها مع كل محاولة للنيل منها فقد سيطرت عليها وقهرتها

وأحرقت جسدها . تحيّل إذن ما سوف يحيق بك بعد أن تحوّلت إلى ثعبان زائف تقاتل بأسلحة غريبة عليك وتتخفّى في شكل مستعار ! » . وحين انتهى من كلماته أطبق بأصابعه على حلقي حتى كدت أختنق وحاولت جهدى الإفلات من قبضته . وحين قهرنى ثعباناً استحلت ثوراً مفترساً ، وهى الصورة الثالثة التى بقيت لى ، ونشب القتال بينى وبينه ، فانقضّ علىّ من الناحية اليسرى ولفّ ذراعيه حول عنقى ، ومع تراجعى أخذ يلتصق بى ويضغط بكل ثقله على رأسى حتى غرس قرنى فى الأرض ومرغنى فى التراب ، ثم أمسك أحد قرنىّ بقبضته العاتية وحركه حتى انتزعه من جبهتى التى تشوّهت وطوّح به ، وأسّرت الحوريات إلى القرن فملأه بالفاكهة والزهور العطرة وقدمه قرباناً مقدساً للآلهة ، فازدادت إلهة الرخاء الخيرة ثراء بقرنى .

وحين فرغ أخيلووس من حديثه تقدمت إحدى قيان الحوريات مرتدية ثوباً على غرار ثياب ديانا ، ومرسلة شعرها يتموّج على كتفيها ، وحاملة قرناً مليئاً بمختلف ثمار الخريف الشّبية . ولم يكد النهار يطلّ على قمم الجبال مع أشعة الشمس الأولى حتى بادر الأبطال بالرحيل دون ترقّب لعودة النهر إلى سكونه الطبيعى فى مجراه قبل أن ترتدّ مياهه عن الضفتين ، وعندها أخفى أخيلووس بين الأمواج وجهه الريفى القسما وجبهته التى فقد أحد قرنيها .

نيسّوس وموت هرقل

لم يفقد إله النهر فى معركته غير هذه الحلية التى سلبه إياها خصمه المنتصر بينما بقى جسده كله سليماً لم يمسه سوء ، وقد اعتاد أن يخفى هذه السوءة تحت تاج من أوراق الصفصاف أو من الغاب . أما أنت يانيسوس المتغطرس فقد لحق بك الهلاك الذى صبه عليك حبك وهيامك بالعدراء ديانيرا بعد أن اخترق ظهرك سهم خاطف .

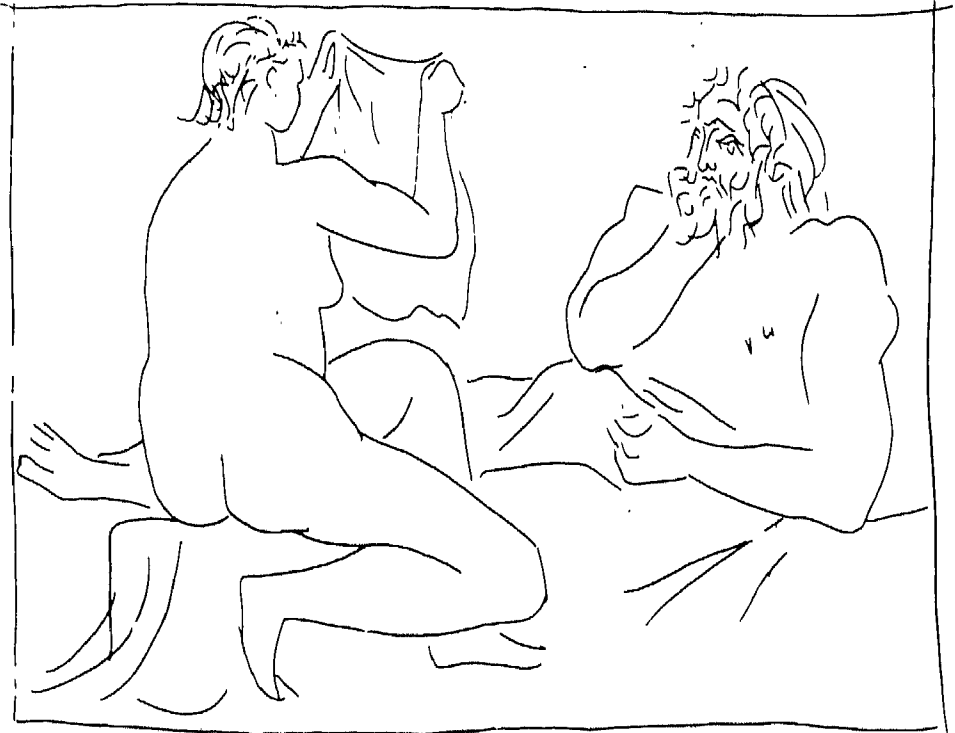
ففيما كان هرقل بن چوبيتر عائداً إلى وطنه مصطحباً عروسه الجديدة بلغ شاطئ نهر إيفينوس المصطخب الأمواج فوجده فائضاً على غير العادة بمياه الأمطار المثلثوية التى كانت تثير فيه دوّامات عديدة يصعب معها عبوره . ولم يكن هرقل يخشى على نفسه بل كان قلقاً على زوجته ، وعندما اقترب منه القنطور نيسوس الجبار الذى كان خبيراً بأماكن العبور الضحلة وقال : « دعنى أحمل عنك هذه السيدة إلى الشاطئ الآخر ، فأوفّر عليك جهدك لتقوى أنت على أن تعبر النهر سابحاً » ، عهد البطل البويوق إلى القنطور نيسوس بعداء كاليدون التى عراها الشحوب وحلّت بها الرعدة هلعاً وخوفاً من النهر ومن نيسوس ، وطوّح هرقل بقوسه وهراوته إلى الضفة الأخرى ، وأخذ يحدث نفسه وهو مثقل بكنائنه وبجلد الأسد الذى يرتديه قائلاً : « أما وقد شرعت فى خوض النهر فلأمض إلى أن أبلغ الغاية » . وألقى بنفسه فى الماء دون تردّد ودون أن يعبأ بالمناطق التى تهدأ فيها حدة المياه أو بالمناطق الأخرى التى تتدفق فيها المياه . وحين انتهى

إلى الضفة الأخرى التقط القوس الذى كان قد طُوح به ، وإذا هو يسمع صراخ زوجته ، فتبين أن نيسوس كان يحاول أن يخونه فى زوجته التى حملها . فصاح به : « إلى أين تندفع أيها الوغد مستخدماً سرعة ساقيك خادعاً إياى بأباطيلك ، إننى أخاطبك يا نيسوس ياذا الخلفتين ، اصغ إلى وحذار أن تسلبنى زوجتى ، وإذا لم تُرعِ حقوقى فلتتعض بالعجلة التى رُبط بها أبوك من قبل بسبب عشق محرم^(١) فلن تفلت منى ، ولن يجديك ما رزقته من صفات الخليل فستلاحقك سهامى قبل أن ألحق بك عدواً » . وسرعان ما نفذ ما قال أخيراً ورمى بيده سهماً نفذ فى ظهر القنطور الهارب وأطلَّ سنَّه المعقوف من صدره . ولم يكد نيسوس ينزع السهم من صدره حتى تدفق الدم من جرحه يمازجه سم^(٢) الهيدرا الرهيب ، فكتم الدم الدافئ المتدفق بقميصه ليجعل منه وسيلته للثأر ، مناجياً نفسه : « لا . لن أقضى نجى دون قصاص » ، وقدم قميصه المُسبغ دماً للعدراء التى اختطفها راعماً أنه عوذة تحرك دفين الحب .

ومرّ وقت طويل ، وكانت أمجاد هرقل العظيم قد عمّت الكون وزادت من حقد چونو زوجة أبيه ، وحين عاد منتصراً من أوغاليا^(٣) أخذ يتأهب لتقديم القرابين تمجيداً لجوبيتر ووفاء بنذره فى كينايوم^(٤) . وانتهى إلى سمع ديانيرا ثرثرة ربّة الشائعات التى يمتزج الزيف فيها بالحقيقة وتزكّيها بأباطيلها ، والتى تبدأ تافهة ثم تنمو شيئاً فشيئاً فإذا هى أخيراً قصة عشق تربط بين زوجها ابن أمفيريون وبين يسولى . وصدقت الزوجة النبأ ، ولم تكد تسمع قصة هذا الغرام الجديد حتى أرسلت البائسة الدُمع يفيض من عينيها لتروّج عن همّها . ولكنها عادت تناجى نفسها وتقول : « فيم هذا البكاء ، فما أسعد غريمى بأن ترائى باكية ، وإذا كانت لا بد قادمة علينا فعلى أن أبادر قبل فوات الفرصة فأهتدى إلى وسيلة أحول بها بينها وبين أن تسلبنى فراشى . أيقنّ لى أن أجار شاكية أم ألزم الصمت ، أعود إلى كاليدون أم أبقي هنا ؟ أهجر دارى أم أبقي فيها لأعكر عليهما صفوهما ، إذ لا حيلة لى أن أفعل غير هذا . واذكر أننى أختك يا ملياجر^(٥) ، ولسوف أكيل لها ضربة قاصمة تقضى عليها لتدرك كيف يفعل الحزن بامرأة أمتهنت واعتدى على كرامتها » . غير أن فكرها ضلّ بين اتجاهاات عدّة ، وقرّ رأيها على أن تبعث بقميص نيسوس المملّط بدمه إلى زوجها لكى يشعل فيه الحب الذى خبا دون أن يساورها شك فى خطر قد يحلق به ، فلم تكن ديانيرا تحال أن هذا القميص سيُلبسها ثوب الحداد ، فعهدت به إلى ليخاس الذى لم يخالج ذهنه هو الآخر شك فى أمره وأسرت إليه بكلمات رقيقة طالبة إليه أن يقدمه هدية لزوجها البطل الذى تقبله دون أن يدري ما يجنبه له القدر ، فالتقى على كتفيه ذلك القميص المملّط بسم الهيدرا الليرناوية .

وفىما هو يحرق البخور بين السنة النيران المنبثقة متمتماً بصلواته للآلهة ساكباً الخمر على المذابح الرخامية من دورق فى يده ، كان السم يسخن ويذوب من حرارة النار ويسرى أثره المدمر حتى بلغ أطراف جسده . وقاوم البطل آلامه ما استطاع بشجاعته المعهودة دون أن يثن أنه واحدة ، حتى إذا نفذ صبره حطّم المذابح وملاً غابات أويتا بصرخاته وانطلق مهولاً وهو يمزّق القميص المشوم ، غير أنه مع كل مُزقة منه كان ينزع قطعة من جلده . ألا ما أبشعها من ذكرى ! لقد كان القميص أشد ما يكون التصاقاً بجسده فكان عسيراً عليه أن ينتزعه من فوق جسده إلا وقد انتزع معه ما يترك عظامه وعضلاته عارية . وكما كانت

دماؤه تثرّ أزيز الحديد المَحْمَى عليه في النار حين يُغمس فجأة في ماء بارد كذلك كان فعل السّم في جسده وهو يهتصره . ولم يكن هذا ما يعانیه فحسب ، بل كانت ثمة نارٌ نهمة تلتهم أحشاءه وعرقٌ أسود يتصبّب من جسده كله ، على حين تتداعى عضلاته المحترقة ويذيب الألم الدفين نخاع عظامه . وعندها رفع يديه إلى النجوم وصاح : « انعمي بمأساتي يا ابنة ساتورن . نعم ، اشمطي بي في علياء سمائك أيتها الإلهة القاسية القلب ، وأشبعي نظراتك بعذابي ، وليسعد قلبك الغليظ ، أما إذا كانت حالي تثير الشفقة في قلب خصم



بيكاسو: القنطور نيسوس يقدم قميصه إلى العنراء ديانيرا

١٨٠ مثلك ، فخلّصيني من الحياة التي أنا فيها فريسة آلام رهيبة ، خلّصيني من الحياة التعسة التي لا أذوق فيها إلاّ المكابدة فلسوف يكون الموت خيراً لي . سيكون هدية جديدة بزوجة أب ، أو لست أنا الذي هزمت بوزيريس^(٦) الذي كان يلوّث المعابد بدماء الغرباء ؟ أو لست أنا الذي سلبت أنتايوس الرهيب قدرته التي كانت تدعّمها أمه الأرض ؟ أنا الذي لم يفزعني راعي هيريا ذو الأجساد الثلاثة ولا الكلب كيريروس ذو الرؤوس الثلاثة ! أو لستما أنتما يا يدتي اللتان مرّغتاه قرن الثور المخيف في التراب ؟ أو لم يشهد بقدرتكما إيليس ومياه ستيμφالوس وغابات پارثينيوس ؟ أو لم تعدّ بفضل بسالتكما حائل سيف ملكة الأمازونات الذهبي ، وكذا الثمار التي كانت في حراسة تين لا يغمض له جفن ، أو ليس حقاً أنني أتيت على عيث القنطور والخنزير الوحشي الذي كان يخرب أكاديا ، وأن الهيدرا لم يُغن عنها شيئاً تزيد قوتها مع فقد بعض أعضائها واستبدالها بأعضائها المفقودة أعضاء أخرى ؟ هل أذكرك أنني حين رأيت جياذ ملك طراقيا تعيش على الدماء البشرية وتمتلىء حظائرها بمزق الجثث الآدمية هدمت الحظائر وقتلت الجياذ وصاحبها ؟ ها هما

٢٠٠ تان اليدان اللتان خنقت بهما أسد نيميا الوحشى ، وها هو ذا الكتف الذى حملت عليه السماء . كم أحست زوجة چوپيتر القاسية بالإرهاق من كثرة أوامرها لى دون أن أحس أنا الإرهاق فى تنفيذها ، وها هى ذى كارثة جديدة تكلل أمامها الشجاعة وُعْدَةُ الهجوم والدفاع معاً ، ففى أعماق رثتى تضطرم نار تلتهم كل ما تجده فى جسدى من أعضاء بينما يعيش الملك يوريسثيوس^(٧) قوياً معافى ، فهل ثمة من يؤمن بعد ذلك بوجود الآلهة ! .

وما إن فاه بهذه الكلمات حتى حطمه الألم فهام على وجهه فوق سفوح جبل أويتا بخطوات ثور قد أنخنه رمح صياد رماه وانفلت هارباً ، فكان أحياناً يئن وأحياناً أخرى يرعد غضباً محاولاً أن ينزع عنه ثيابه أو يقتلع جذور الأشجار أو يصب غضبه على الجبال أو يرفع ذراعيه إلى السماء مقرّ أبيه چوپيتر . وها هو ذا هرقل يلمح ليخاس الذى اختفى مرتعداً فى جوف صخر فصاح به وقد ضاعف الألم من غضبه قائلاً : « أنت يالليخاس من يهدينى هذه الهدية القاتلة ؟ أنت إذن من دبر موقى ؟ » ، فأخذ ليخاس البائس يرتجف وقد علا وجهه شحوب الذعر ونبس بكلمات يعتذر بها يخففها الخوف وهو يحاول أن يقبل ركبتى هرقل الذى أمسكه ودار به ثلاث دورات فى الهواء ثم قذف به فى مياه بحر يوبويا باندفاعه تربي على اندفاعه المنجنيق ، فإذا جسد ليخاس يجمد فى الهواء . وكما يقال إن أنفاس الرياح الثلجية تكثف مياه الأمطار فتغدو ثلجاً ، ثم لا تلبث كتلة الثلج الهشة أن تتجمد وهى تدور حول نفسها ثم تستدير متخذة شكل حبات برد سميكة ، كذلك لم يكد ليخاس يُقذف به وسط الفضاء ويجمد الفزع دمه حتى تحول جسده كله إلى صخرة صلبة كما تقول أسطورة قديمة . وما تزال إلى اليوم صخرة مرجانية خطيرة منبطحة فوق وهدة منخفضة على صورة آدمية وكأنها جثة ، وما يزال الملاحون لا يجرون على أن يطشوها ، ويطلقون عليها اسم ليخاس .

أما أنت أيها الإبن العظيم لچوپيتر ، فإنك بعد أن اقتلعت الأشجار من فوق قمة أويتا وسوّيت منها محرقة . أخذت قوسك وجعبتك الضخمة وسهامها التى ستفتح بها مملكة طروادة ، وقدمت ثلاثتها هدية لفيلوكيتيس بن پرياس^(٨) الذى عهدت إليه بأن يُشعل النار فى محرقتك ، وفيما كانت السنة اللهب النهمة تعم كومة الخشب الحافلة غطيتها بجلد أسد نيميا ثم تمددت فوقها متكئاً برأسك على هراوتك ، وقد بدا على وجهك الهدوء كما لو كنت مضطجعاً فى وليمة مزدان الجبهة بأكاليل الزهور وسط أقداح مليئة بالنبيذ .

٢٤٠ وتأجج اللهب وانتشر فى جوانب المحرقة كلها ثم بلغ أطراف البطل الذى كان يرقبه هادئاً فى استخفاف ، وخشيت الآلهة ما سيصيب بطل الأرض ، فتطلع إليهم چوپيتر بن ساتورن وهو يقول مازحاً : « إن ما يبدو عليكم من خشية هو متعة لى يا سكان السماء ، إننى أغبط نفسى من كل قلبى على أننى رب شعب يدين بالجميل لمن أحسن إليه ، كما أنى سعيد أن أراكم تبسطون حمايتكم على ابنى فهو جدير بها لما حقق من مآثر عظيمة خارقة ، إلا أن هذا لا يهون من تقديرى لموقفكم النبيل . فلتحرروا قلوبكم الوفية من هذا الفزع الذى لا معنى له ولا تقلقوا لهذه النيران المشتعلة فى أويتا ، فإن هذا الذى قهر الكثير

٢٦٠

في قدرته أن يقهر هذه النيران . إنه لن يحسّ سطوة فولكانوس إلّا في هذا الجزء من جسده الذي أخذه عن أمه ، أما ما أخذه عنى فهو خالد في مأمن من الموت ومن عصف النيران . والآن وقد أصبح هذا الجزء لا بقاء له على الأرض فسأرفعه إلى في السماء ، وكم أكون سعيداً أن يرضى الآلهة جميعاً عما سوف أنفض به ، وإن كان بينكم من يضيق بأن يصبح هرقل إلها فهذا لأنه يضنّ على ابني بهذه الجائزة الثمينة ، ولكنه مع ذلك سيقرّ بأنه بها جدير وسوف يؤمن بما فعلت رغم ضيقه به » . وصقّ الآلهة لحديثه ، بل إن ملكة السموات وزوجة جوبيتر سمعت الشطر الأكبر من الحديث دون برّم به ، ولم يرتسم الضيق على وجهها إلّا مع الكلمات الأخيرة ، فقد رُئيت غير مرتاحة للّمز الذي لمزها به زوجها . على أن إله النار فولكانوس [هيفايستوس] قد ذهب بجميع ما يمكن أن تأكله النار ، فلم يعد من اليسير التعرّف على هرقل بما تبقى منه لأن شيئاً مما يذكرّ بأمه لم يبق ولم يحتفظ إلّا بما يحمل من بصمات جوبيتر . وكما يحدث للشعبان حين يتجدّد شبابه بانسلاخه من جلده فيتحرّر من شيخوخته ويتفجّر قوة وتتألق برّاقة حراشفه الجديدة ، كذا حدث للبطل التيرينثي إذ تحرّر من غلافه الأرضي الفاني وعادت الحياة إلى أفضل جزء من ذاته وبدأ أعظم مما كان وعُلّته هبة جليلة تدعو إلى التوقير ، وعندئذ رفعه أبوه القدير في سحابة معتلياً عربة تجرها جياد أربعة ، وجعله ينفذ بين النجوم المتلألئة^(٩) .

ألكمينا وجالانتيس

٢٨٠

عندها أحسّ أطلس أن وزن السماء قد ثقلّ عما هو معهود ، ومع هذا لم يخمد غضب يوريشيوس بن سثينيليوس فواصل مطاردة هيلوس ابن البطل بنفس الحقد الرهيب الذي كان في الماضي يطارد به أباه^(١٠) . وأحسّت ألكمينا الأرجوسية في غمرة همومها بأنه لم يبق لها إلّا يولي صديقتها التي اختارتها نجية لها في شيخومتها ، ومضت تروى لها مآثر ابنها التي كان العالم كله يعرفها والمآسى التي تجرّعتها . وكان هيلوس نزولاً على ما مره به أبوه هرقل قد أعطى لهذه المرأة اليافعة مكاناً في فراشه وقلبه وأودع رحمها ثمرة سلالة كريمة ، ولهذا حدّثتها ألكمينا قائلة : « أننى أدعوك أن تكون الآلهة بك رحيمة وأن تخفّف آلامك يوم تبلغ مدة الحمل نهايتها ، يوم تدعين الربة لوكينا حامية الحوامل حين الوضع وقد ساورك الخوف . أذكر كم كانت قاسية علىّ تودّد آمنها لچونو حين دنت لحظة ميلاد هرقل الذي كانت ثمة أعمال كبرى سوف يضطلع بها . كانت الشمس تتحرك في برجها العاشر ، وكان حمليّ ثقل جنبى ، فلقد كان من الضخامة بحيث يستطيع المرء أن يتعرّف ما كان لچوبيتر من أثر في هذا الحمل المكتون ، ولم يعد في مقدورى أن أحتمل آلامى ، وحين أتحدث اليوم عن ذلك أحسّ الفزع يهتصر جسدى . لقد أصبحت ذكرى الولادة وحدها حتى اليوم موجعة . وبعد أن طال عذابى سبع ليال وسبعة أيام رفعت يدي إلى السماء خائفة القوى من الألم ، وصرخت عالياً منادية لوكينا ومعاوناتها ، وأقبلت لوكينا ، غير أن غريمى چونو كانت قد رشتها وطلبت إليها أن تتقرّب إليها بحياتي ، فلم تكذّ تسمع أنأتى حتى جلست على هذا المذبح القاتم على بابى

واضعة ساقاً على ساق ، وشبكت أصابعها المتباعدة كأسنان المشط وهي عاقدة العزم على العبث بمصيرى ، وصاتت بصوت خفيض كلمات سحرية عوّقت حركة الجنين الذى كان قد بدأ يهّل . وبذلتُ جهداً خارقاً ، وكنت خلال شرودى أرمى جوبيتر بالبحرود ، وكم تمنيت الموت بينا أرسل شكاة تلين قساوة الصخر ، وأخذت الأمهات فى مدينة كادموس يتوسّلن إلى الآلهة ويشجّعننى وسط آلامى المضنية . وكانت إلى جانبى جالانثيس الشقراء إحدى وصيفاتى التى غدت عزيزة علىّ لسرعة تلبيةها رغباتى ولما كانت تقدمه إلىّ من عون . وقد أدركت أن فى الأمر لمحات من شرور جونو ، ولمحت فى دخولها وخروجها من الباب غير واثية أن الإلهة جالسة على المذبح ضامّة ذراعيها عاقدة أصابعها على ركبتها ، فقالت لها جالانثيس : « أنت كائنة من كنت ، قومى فهنئى سيدق الكمين الأرجوسية فلقد خلّصت من آلامها وصارت أما وتحققت أمانها » . ونهضت الإلهة التى عليها يتوقف وضع كل جنين فرقة وأرسلت خلال اضطرابها يديها المعقودتين فانتثرت مع حركة يديها قيود رحى وانحدر الطفل فخلّصت من آلامى . ويقال إن جالانثيس استغرقت فى الضحك حين اكتشفت أنها خدعت الإلهة وظلت تضحك حتى أمسكت بها الإلهة القاسية واجتذبتا من شعرها الجميل . وإذ حاولت أن تنهض من الأرض أسدت الإلهة محاولتها بتحويل ذراعيها إلى قدمين أماميتين ، غير أن الفتاة احتفظت بخفة حركتها وتغيّر شكلها دون أن يتغيّر لون ظهرها وغدت تلد من فمها ، إذ كان هذا الفم هو الذى انطلق بالكذب على الإلهة مضللاً لتعين سيّدها على الوضع ، وهى ما تزال تتردّد على دورنا كما كانت تفعل فى الماضى [بعد أن تحوّلت إلى عرّسة] .

دريوي . يولاووس

وبعد أن فرغت الكمين من حديثها وأثارت أشجانها ذكرى وصيفتها القديمة ندّت عنها زفرة ، فقالت لها زوجة ابنها التى أدركت عمق حزنها : « لقد كانت تلك المرأة التى تبكينها يا أمى غريبة عنا لا تجرى فى عروقها دماء أسرتنا ، فكيف بك لو قصصت عليك المصير الغريب لأختى ؟ وإن كنت أعجز ما أكون عن أن أتحدث إليك وأنا فى غمرة الدمع ووخز الألم . كانت تريوي وحيدة أمها فقد أنجبني أبى من زوجة أخرى ، وكانت أشهر نساء أويخاليا جمالاً ، وكان الإله الذى يسود دلفى وديلوس قد اغتصبها وافتضّ بكارتها عنوة قبل أن يتزوج بها أندريمون الذى كان يخال أنه سيسعد السعادة كلها بهذا الزواج . وكانت ثمة بحيرة ينحدر ساحلها فى لطف انحدار شطآن البحر ، وعلى آكام ذلك الساحل تتألق زهور الريحان . وقصدت تريوي هذه البحيرة دون أن يخالها شك فيما سيكون من أمرها . على أن ما سوف تستمعين إليه سيكون أكثر إثارة ، فقد راحت تهدي الأكايل للمحوريات وبين يديها حمل رقيق ، طفل لم يكمل عامه الأول ، كانت ترضعه من لبنها الدافق المشبع . وعلى مقربة من البحيرة كانت شجرة لوتس^(١١) صنّوة المياه تحمل زهوراً ألوانها أشبه بأرجوان مدينة صور وقد آذنت بالثمر . جمعت تريوي حزمة من الزهور لطفلها كى يلهو بها ، وأخذتُ أبادل معها أطراف الحديث ، وكنت على وشك قطف بعض الزهور كما فعلت فإذا بى أرى قطرات من دم تتساقط من الزهور ، وأشهد أغصانها تهتز كأنها تسرى بها رعدة . وقد علمنا من

الفلاحين بعد ذلك بوقت طويل أن الحورية لوتيس قد تحولت شجرة لوتس هرباً من نزوات بريابوس الفاحشة ، ولكنها مع ذلك لم تغير اسمها .

ولم تكن أختي تعرف شيئاً عن ذلك الخطر الذي يهدد السابلة بتلك الأماكن . وقد رأت أمام ما اعترأها من قلق أن تعود ولا تعرج على الحوريات اللاتي جاءت للابتهاال إليهن ، غير أن قدميها كانتا قد انغرسا كالجذور في الثرى وعلقتا به ، وحاولت اقتلاعهما فلم يطاوعها غير جذعها ، وأخذ لحاء خشبي يكسو في بطن جسدتها من أسفل قدميها إلى الركبتين ، وما إن رأت ذلك حتى رفعت يديها إلى شعرها تريد انتزاعه ، فإذا يداها قد امتلأتا بأوراق شجر كان قد عمّ رأسها كله . وأحسّ أمفيسوس الصغير [وهو الاسم الذي خلعه عليه جدّه يوريتوس] أن اللبن لم يعد يدرك فاه ، كما تصلّب ثدي أمه . شاهدت هذا المصير المروع ينزل بأختي تحت بصرى وما كان يبدي أن أدفع عنها . أختاه ، لقد حاولت ما استطعت أن ٣٦٠ أؤخر بقبلاقي زحف الجذع والفروع وكم تمنيت أن يكسوني هذا اللحاء . وعندها جاء أندريمون زوج دريوي وأبوها التعس ييحثان عنها فلوّحت لهما كي يلتفتا إلى الشجرة التي حلّت محل من جاءا ييحثان عنها ، فغمرنا بقبلاتهما الخشب الذي كان لا يزال ينبض بالحياة ، وركعا أمام جذع الشجرة العالية وضماها بأذرعها . أختاه الحبيبة ! لم يبق فيك شيء لم يتحول إلى شجرة ، عدا وجهك وتلك الدموع التي تروى الأوراق المنبتقة من جسدك ، ولم يبق منها غير فم ينطلق منه صوتها في أجواز الفضاء شاكية : « إذا كان ثمة من يصدّق البؤساء فأقسم بالآلهة أني لم آت ما أستحق عليه هذا المصير الرهيب ، فقد حاق بي هذا العقاب دون جرم اقترفته . فكم كنت نقية طاهرة في حياتي ، وإن كنت كاذبة فليذبلنّ عودي ولتسقطنّ عني تلك الأوراق التي تظلّني ولأهوينّ تحت وقع ضربات البلطة وليأتينّ اللهب على حياتي . هل لكم أن تأخذوا هذا الطفل المعلق في أغصان الأمومة على أن تعهدوا به إلى إحدى المرضعات ، ولتتيحوا لي أن أراه دوماً مضطجعاً في ظلّي ، وليختلف إلى كثيراً ليلهو في ظلالتي . وإذا ما بلغ أن ينطق فعلموه أن يجيئني على أني أمه وليردّد في أسي أن أمه يطويها جذع هذه الشجرة ، ولكن فليحذر المستنقعات وليتجنّب قطف زهور الأشجار وليحترس من لمس سيقان أزهار قد تكون أجساد إلهات . وداعاً أيها الزوج العزيز ، وأنتما أختي وأبي ، وإذا كنتم تحبونني حقاً فاحموني من جراح النصل القاطع وأنياب قطعان الماشية ، وإذ كان من المتعذر عليّ أن أنحنى إليكم ، فلتشبّوا أنتم إلى كي ألثم شفاهكم مادام في قدرتكم أن تبلغوا شفتيّ ، ولعلكم ترفعون إلى طفلي كي ألثمه . وما أنا مستطيعه بعد ذلك أن أضيف شيئاً ، فها هو ذا لحاء رقيق قد بدأ يمتد إلى عنقي الأبيض ، وأخذت قمة الشجرة تطوى رأسي . أبعدوا أيديكم عن عيني فمن العبث أن تمّدوا إلى يد العون ، وخلّوا اللحاء الصاعد يغشيّ عينيّ المحتضرتين » . وعجز فمها بعد ذلك عن الحديث واختفى من الوجود ، وبقيت غصونها الجديدة تنبض بالحياة طويلاً بعد أن مُسخت شجرة » .

وبينما كانت يولي تحكي هذه القصة الغريبة كانت ألكمينا وهي تبكي تحفّف دموع إبنة يوريتوس بأناملها ، وإذا بأعجوبة جديدة تقع فتقطع اتصال أفكارهما الحزينة ، إذ رأتا يولاووس واقفاً بالبوابة الشاهقة وقد عاد صبيّاً نمت على وجنتيه شعرات كالزغب ، فلقد استجابت هيبي [ابنة جونو]^(١٢) ٤٠٠

لتوسلات زوجها هرقل وخلعت على يولاووس قسما شبابيه الباكر . وكانت هيبي على وشك أن تقسم بالآ
تفعل أبداً مثل هذه المكرمة لأحد بعد ، فعارضتها ثيميس قائلة : « إن طيبة على وشك أن تسقط بين براثن
الحرب الأهلية ، ولن يستطيع سوى چوپیتر قهر كاپانيوس . وسيموت أخوان يقتل كل منهما الآخر ،
وسيشهد الكاهن أمفياراووس وهو ما يزال على قيد الحياة طيفه بعد الموت عندما تنشق الأرض لتلقاه ،
وسيثار ابنه لقتل أبيه بسفك دم أمه فيصبح في آن واحد ابناً باراً وأثماً ، ثم يهوله جرمه فيفقد عقله ويُنفى
خارج وطنه ويفرّ تطارده ربّات الانتقام ، ويلاحقه شبح أمه ، وإذا يوم من الأيام تطالبه زوجته كاليرهوى
إبنة إله النهر أخيلووس بالقلادة الذهبية المشثومة التي سيكون معها حتفه ، وكذا سينفذ سيف فيجيوس
والد زوجته الأولى في جنبه إلى أن ينفذ الدم من جسده . وبعد ذلك كله ستجتو كاليرهوى ضارعة إلى
چوپیتر العظيم أن يهب الشباب لولديها وهما مازالا في المهد صغيران ، وتسأله ألا يطول بهما الزمن حتى
يأخذا بئار زوجها الظافر . وها هي ذى دعواتها تهزّ قلب چوپیتر ، فيمنّ على زوجة ابنه ويجعل من ولديها
شايين قبل بلوغهما الحُلُم ، ويهبهما تلك الهبات التي تهبها عادة هيبي [إلهة الشباب] زوجة ابنه هرقل
الساوية وابنته من چونو في آن معاً » (١٣) .

بيليس

ولم يكد يجرى لسان ثيميس بتلك النبوءة كاشفة النقاب عن المستقبل حتى أخذ الآلهة يتناولون
الموضوع بمختلف الأقاويل في صخب ، وإذا هم يهمس بعضهم إلى بعض قائلين : « لماذا لا يكون
للآخرين مثل هذه المنة ؟ فشكت إبنة المارد پالاس^(١٤) الشيخوخة التي كانت لزوجها بالمرصاد ، وشكت
سيريس إلهة الخصب والحصاد من الشعر الأبيض في رأس يازيون^(١٥) ، وطالب مولكيبير [فولكانوس]
لإريخثونوس أن يكون له الحق في أن يبدأ حياته من جديد . وحاولت فينوس أيضاً أن يعود إلى أنخيسيس
شبابه بعد أن ساورها القلق على أيامه المقبلة ، وامتلأ كل إله حماسة من أجل أتباعه ، وتزايد صخبهم
وخلافهم ، ولكن ذلك كله ما لبث أن سكن حين تحدث چوپیتر قائلاً : « أيها الآلهة ، إذا كنتم تكتنون لي
شيئاً من التوفير فأفصحو لي عن رغباتكم ، وهل من بينكم من يظن نفسه قادراً على قهر القدر ؟ إن القدر
هو الذي أعاد يولاووس إلى السنّ الذي كان قد تخطّاه ، والقدر هو الذي سوف يهب الشباب لطفلي
كاليرهوى لا بالقوة ولا بالخداع . ولكي ترضوا بهذا الناموس بنفوس راضية فاعلموا أننا جميعاً — أنتم
وأنا — رهن القدر ، ولو ملكت تغيير الأقدار لما انحني ظهر ابني أياكوس تحت وطأة الأعوام ، ولبقى
رادامانثوس يرفل في ريعان الشباب أبداً ، ولعاش قبله كذلك مينوس العزيز^(١٦) الذي تهوّن من أمره
شيخوخته العاتية والذي لم يعد يحكم مملكته بالحكمة التي أثرت عنه في الماضي » . فسكّنت كلمات چوپیتر
من شكاة الآلهة ، ولم يعودوا يجارون بالشكوى بعد أن رأوا الشيخوخة تدبّ في رادامانثوس وأياكوس
ومينوس . وكان اسم مينوس وحده حين كان في ريعان الشباب يلقي الرعب في الأمم الكبرى ، أما الآن

٤٢٠

٤٤٠

فقد غدا عاجزاً يخاف شرّ ميليتوس بن ديونى المزهو بشبابه وبأبوة فويبوس له ، فلقد كان جدّ مقتنع بأن ميليتوس يهدّد عرشه ، ومع ذلك لم يكن يجرؤ على نفيه بعيداً عن وطن آبائه .

على أنك قد هاجرت من تلقاء نفسك يا ميليتوس ، وحملتك سفينة سريعة عبر أمواج بحر إيجه لتقيم على أرض آسيا أسوار مدينة تحمل اسم مؤسسها^(١٧) ، وهناك عرفت سيانى إبنة مياندر الفريدة فى جهاها حين كانت تسير فى إثر منحنيات ضفاف أبيها الذى كان يتعرج مرّة ومرّة . وفى هذا الموقع وضعت لميليتوس توأمين هما ببيليس وكاونوس . وفى قصة ببيليس عبدة للفتيات حتى لا يبعدن عن الحب المشروع ، وكان قلبها قد شغف حباً بأخيها حفيد أبوللو الذى يماثله جمالاً فأحبّته لا كحبّ الأخت لأخيها بل فوق هذا ، ولم تكن تدرك أولاً كنه عاطفتها ، ولا تعدّد نفسها آثمة حين تغمر أخاها بقبلات متلاحقة أو لأنها تطوّق عنقه بذراعيها ، فلقد عاشت طويلاً فى أسر خداع كاذب لعاطفة أخوية ، وشيثاً فشيثاً أخذ حبّها يجانب الطريق السرى ، فكانت تأتى — حين تغد لزيارة أخيها — فى أحسن زيتها حريصةً على أن تبدو فائتة فى عينيه ، ٤٦٠ وتحسّ الغيرة حين تجد إلى جانبه امرأة أكثر منها فتنة . ومع هذا لم تتبين حقيقة مشاعرها ، كما أنها لم تحسّ نحوه برغبة جسدية على الرغم مما كان يتأجج فى فؤادها من لوعة . كان الوله يغلى فى أعماق قلبها فانبرت تنادى كاونوس بـ « سيّدها » ، وتنفر من الأوصاف الدالة على الأخوة والقربة ، فتفضل أن يناديها ببيليس لا أن يناديها بأخته ، ومع ذلك لم تكن تفسح فى نفسها مكاناً لرغبات دنسة ما كانت يقضى ، أما حين كانت تستسلم لاسترخاءة حانية فما أكثر ما كانت ترى محبوبها فى منامها ، بل لقد خيل لها أنها ترقد فى أحضان أخيها ، فتعلوها حمرة الخجل مع أنها ما كانت غير غافية فى فراشها ، فإذا هرب من عينها النعاس التزمت الصمت طويلاً تحاول أن تجمع من جديد شتات حلمها ، ثم تناجى نفسها مضطربة الفكر قائلة : « يا لشقائى ! ما معنى هذه الخيالات التى تتراءى لى فى هدأة الليل ؟ لكم خشيت أن تتحقق . ولماذا تراودنى هذه الأحلام ؟ ما أجمل كاونوس حتى فى أعين حاقديه وكم أنا به معجبة ، ولو لم يكن أخى لكان بوسعى أن أعشقه ولكان لى خير الأزواج فنكّد طالعى هو أننى أخته . ولكن مادمت لا أحاول أن ارتكب فى يقظتى ما يخالجنى فى سباتى فكم أتمنى أن تتراءى لى تلك الرؤى لأراك كثيراً فليس ثمة على الأحلام من رقيب ، ثم إن متعتها لا تعود بضرر . أى فينوس ، وأنت يا كيوييد المرافق المجنح للألم الحانية يا لها من ٤٨٠ متعة تلك التى تذوّقتها . ما أروع هذا الشعور وأنا مستلقية على فراشى ، شعور الاستسلام الذى غمرنى حتى نخاع عظامى ، ما أروع ذكرى هذا الحلم حتى وإن كانت متعنى فيه قصيرة عابرة ، إذ سرعان ما أتى عليها الليل الحسود حين ألت به الغيرة من عطيتى . كم أتمنى لو أتيح لى أن أغير اسمى واقترن بك . كم كنت سأصبح كئنة مثلى لأبيك ، وكم كنت ستصبح صهراً كفتاً لأبى ! وكم تمنيت لو أن الآلهة جمعت بيننا فى كل شيء غير أن نكون من صُلب واحد ! ساعتها كنت أتمنى أن لو كنت سليل أسرة أنبل من أسرق . ولست أعرف إذن أية امرأة ستجعل منها أما لأبنائك يا أجمل الرجال ، يا من اختارت الأقدار التعيسة لنا نفس الأبوين . فلتكن لى أخاً شقيقاً فحسب ، فإن ما يربط بيننا هو ما يفصم هذا الرّباط ، فما بالى أحلم هذه الأحلام ، وهل لحلمٍ مهما بلغ قيمته ؟ ألا فلتغفر لى الآلهة قولى ؛ فقد يما بنى الآلهة بشقيقاتهم ؛ فلقد

٥٠٠ بنى ساتورن بأوپس مع أنها من أصله الذى ينحدر منه ، كما بنى أوقيانوس بثيتيس ، وبنى سيد الأوليمپ بيجونو . حقاً لقد فاتنى أن للآلهة سُنَنهم ، وهل لى أن أسوى بين البشر والآلهة فى نواميسهم التى تخالف نواميسنا فتبيح للأخ أن يبنى بأخته ؟ لسوف أقتلع من قلبى هذا الحب المحرّم ، وإن لم أقدر فما أولانى أن ألقى حتفى قبل أن أقع فى الخطيئة ، ثم ما أولانى أن أتمدّد على فراش الموت وأتلقّى وأنا جثة هامدة قبلات شقيقى .

وعلى أية حال فإن ما أتوق إليه يتطلّب رضانا نحن الاثنين ، وإذا افترضنا أننى حزمت أمرى فقد يعدّه هو جريمة ، على حين لم يخش أبناء أيولوس أن يتزوجوا من شقيقاتهم^(١٨) ، ولكن كيف انتهيت إلى هذا ؟ ولماذا تتراءى أمامى هذه الأمثلة ؟ وأى منزلق أنحدر إليه ؟ فلتغرّب عني أيتها الرغبات المدنّسة ، فكم أنا حريصة على ألا يكون بينى وبين أخى إلا كل ما هو مشروع . ولو أنه هو الذى شُغف بى أولاً فلعلّ كنت أستطيع أن أستسلم لطيشه ، وما كنت أقدر أن أرفض توسّلاته لو كان قد فعل . هيّا أفصحى يا ببيليس ، هل تستطيعين الاعتراف بالحقيقة ؟ بلى ، فسيدفعنى الحب إلى ذلك . وإذا لم أستطع وأغلقت الخجل فمى فسأبعث إليه برسالة فى الخفاء تكشف له مستور حبنى .

٥٢٠ وتولّاهما الصمت عند هذا ، وإذا فكرتها تلك تخرج بها عن تردّدها . ونهضت على جنبها قليلاً واتكأت على مرفقها الأيسر وقالت : « لأكشفنّ له عن هذا الحب الطائش ، وعليه هو أن يتخذ قراره ، وأسفاه ، إلى أين يمضى بى هذا البلاء ، وأية نار هذه التى تحرق قلبى ؟ » وبعد أن استقرت على ما ستكتب أخذت تخطّه بيدها المرتجفة . وأمسكت القلم الحديدى بيّمنها ولوح الشمع فى يّسرها ، وإذا هى تتردّد بعد أن بدأت ، ثم إذا هى تكتب ولكنها لم ترض ما كتبت ، فطمست وغيّرت وتراجعت ثم أقبلت . وكانت تتناول ألواحها ثم تضعها ، وتضعها ثم تتناولها من جديد دون أن تعرف ماذا تريد ، وساءها كل ما كانت مُقدّمة عليه ، وامتزجت على وجهها الجراءة المرتسمة بالحياء . وبعد أن خطّت كلمة « أحتك » قررت أن تطمسها وسوّت لوح الشمع ثم كتبت : « إليك تبعث السلام امرأة تحبك وهى لا ترقب منك إلاّ السلام^(١٩) . وإن الخجل ، نعم الخجل ، يحول بينها وبين ذكر اسمها . وإذا سألتنى عما أطلب فهو رغبتى فى عرض حالى من غير أن يُذكر اسمى حتى لا تتعرّف أنت على ببيليس فى شخصى قبل أن أطمئن إلى أن دعواتى باتت مستجابة . ومن الممكن أن تقع على دليل قلبى الجريح فى شحوب وجنتى ونحول جسدى وتعبيرات وجهى وعينى الدامعتين ، وفى الزفرات التى أطلقها دون سبب ظاهر ، وفى ضمّات المتكررة لك ، ثم فى قبلاقتى التى لا بد أنك أحسست أنها لا تشبه قبلات الأخت لأخيها . ومع ما أحمله فى قلبى من جرح عميق ، وبرغم الجنون المشبوب المحتلم فى صدرى فعلت كل ما بوسعى [وأشهد الآلهة على ذلك] لكى أبرأ . وقد جاهدت طويلاً وأنا فى مأساى من أجل أن أفلت من سهام كيوييد التى لا ترحم ، واحتملت قسوة المعاناة بشجاعة لا يتوقعها أحد من فتاة ، واليوم أجدنى مرغمة على أن أعترف بهزيمتى وأطلب عونك على استحياء . أنت وحدك تستطيع إنقاذى أو القضاء على الفتاة التى تحبك فاختر هذا أو ذاك . إن التى تضرع إليك اليوم ليست خصماً لك ، بل هى أقرب ما تكون إليك ، تتلهّف شوقاً لتزيد اقتراباً منك

ولتتحد معك برباط أوثق . فلنترك للعجائز علم القانون ، فعليهم أن يبحثوا عما هو مباح وعما هو جرمية وعما هو ليس بجرمية ، ولنُخل الجريبينهم وبين القانون يفعلوا به ما يعنّ لهم ، فإذا قانون فينوس الشجاعة هو الجدير بسنوات عمرنا . ما هو الحلال ؟ إننا مازلنا نجهله ، ولكننا نؤمن أن كل شيء حلال ولنا في كبار الآلهة أسوة ، ولن يقف في طريقنا شيء ، فلا قوة تعترضنا ، ولا الخوف من الفضيحة ولا الرهبة تعوقنا ، ولنفرض جدلاً أن هناك ما يدعو للخوف فأى شيء نخشاه ؟ إذ بقدرتنا أن نخفى متعتنا المختلصة باسم محبة الأخ لأخته ، وإذا كنت حرة في أن أثبتك سرى خفية ، فما أولانى أن أعانقك وأقبلك علنا . فهل يضجّ العالم إذا حققنا اليوم ما أصبو إليه ؟ فلنأخذك الشفقة بهذه التي تقرّ لك بحبها والتي لم تكن لتجرؤ على التصريح به لو لم تغلبها على أمرها تلك العاطفة المشبوبة . ناشدتك ألا يُذكر اسمك على شاهد قبرى على أنك المستول عن موق . تلك كانت العبارات المرسله هباء وبلا جدوى ، والتي حفرتها يدها على لوح الشمع الذى ضاق بكلماتها ، فكتبت آخر سطر في هامشه ثم ختمت هذه الرسالة التي مهرتها أثمة بخاتمها المرصع بالجواهر والذى بلّته بدمعها [لأن لسانها كان جافاً] ، ونادت خادماً لها والخجل يغمرها ، وقالت له بصوت يشيع فيه القلق والتلطف : احمل هذه الرسالة إلى . . . ثم أضافت بعد لحظة صمت طويلة « أخى » . وفى اللحظة التي قدّمت له الألواح أفلتت من بين يديها وسقطت على الأرض ، فاضطربت لهذا النذير ، وعلى الرغم من هذا أرسلتها ، حتى إذا ما وجد الخادم فرصة مناسبة اقترب من كاونوس وسلّمه الرسالة السرية .

ولم يكد كاونوس حفيد مياندر يقرأ بعض الرسالة حتى غضب غضباً مفاجئاً وقذف بالألواح التي تسلّمها بعيداً ، وأمسك بيديه التي كانتا موشكتين على خنق الرسول المرتعد صائحاً فيه : « أغرب عن وجهى بأسرع ما تملك أيها الشرير يا رسول العلاقة المحرّمة ، فلو لم يذع موتك عارنا لكان موتك ثمناً لجريمتك » . ولأذ حامل الرسالة بالفرار مذعوراً وأبلغ سيده ما كان من كاونوس من رد رهيب ، وعلا الشحوب وجه بييليس حين علمت أنها كانت موضع الازدراء ، وسرى في جسدها كله صقيع وغشيه الاضطراب ، حتى إذا استردّت وعيها عاد هذيان العشق المبرّح إليها معه ، وبصوت خافت كأنه الهمس قالت : « لقد نلت جزائى ، فما كان أشد حمقى حين اندفعت فكشفت له عن قلبى الجريح ؟ لماذا عَجَلْتُ هكذا وسجّلت على الألواح اعترافاً كان حريّاً بى أن أخفيه ؟ لقد كان جديراً بى أن أبدأ باختبار عواطفه بكلمات مبهمه لا تورطنى . كان ينبغي علىّ كى تدفع الريح سفينتى ألاّ أسلمها إلاّ طرفاً من الشراع ، وأراقب شدّتها فأبحر فوق مياه لا تتهدّدها الأخطار . أما الآن فقد تركت الرياح التي لم أختبر شدّتها تدفع بكل أشرعتى ، فالقت بى فوق الصخور أنا وقاربى المحطوم وابتلعنا أمواج المحيط بعد أن استحالت عودتنا للشاطئ » . بل لقد حدّرنى فال لا يخيب من أن أستسلم لهواى ، حين أمرت الخادم أن يحمل ألواح الشمع فأفلتت من بين يديّ وهوت بأمنياتى إلى الأرض . أو لم يكن أجدى أن أستبدل باليوم يوماً آخر ، أو أن أنصرف عن هذا الأمر كله ؟ بل لقد كان علىّ أن أستبدل باليوم غيره ، فلقد حدّرنى الإله حين وجّه إلى علامة تحمل ما سوف يقع لو لم أكن سقيمة العقل . وقد كان علىّ أن أحاطبه بنفسى بدلاً من أن أهمس للألواح بسرّى . كان علىّ أن أواجهه فأطلق العنان لعاطفتى المحمومة حتى يلمح دمعائى ويشهد ملامح

وجهي الذي يحبه . وإذن كنت أستطيع أن أبوح له بأكثر مما بحثُ به في رسالتي ، ولاستطعت بالرغم منه أن أحيط عنقه بذراعي حتى لو صدّني . وعندها كنت أستطيع بينا أنظاها بالإشراف على الموت أن أقبل قدميه وأجثو على الأرض متوسلة إليه أن يمنحني الحياة . كان في مقدوري أن أستخدم وسائل شتى ، ولو كانت كل وسيلة وحدها لا تكفي لكانت كلها مجتمعة قادرة على أن تلين قسوة قلبه . من يدري لعل الخادم الذي أرسلته إليه قد أتى خطأ ما ، أو لعله لم يحدثه الحديث اللائق ، وإنني واثقة أنه لم يختر اللحظة المناسبة ولم ينتظر الساعة التي لا تساور فكره فيها الهموم . تلك هي الأسباب التي عاقت تحقيق رغبتى ، فيقينا إن أخى ليس ابن غيرة ، كما أن قلبه لم يُقدَّ من صخر ولا من فولاذ ، ثم هو لم يرضع في طفولته لبن لبوة . ولسوف أفوز به ، فلأتصدَّ له من جديد دون أن يدفعني نفوره إلى التخلّي عن مقصدي طالما بقيت تتردّد في صدري أنفاس من الحياة . وإذا كانت بغيتي في البداية - لو أتيت لي أن أعود إلى ما أقدمت عليه - هي أن أخوض هذه المغامرة ، فقد أصبحت بغيتي الآن - وقد آن الأوان مادمت قد أقدمت - أن أنتزع النجاح الكامل قسراً . ولو صحَّ أنني نبذت رغباتي جانباً فما أظنه ينسى أبداً جُرأتى ، وإذا أنا وقفت عند هذا الحال حبى له ليس إلا نزوة طائشة فحسب أو محاولة منى لتعرّف ما يحمله لي من أحاسيس لأوقعه في شراكي ، أو على الأقل سيتصوّر أنني لم أكن مستسلمة لسطوة إله يعتصر قلبي ويشعل فيه نيرانه بل أسيرة شهوات . على أنني غير مستطاعة آخر الأمر أن أبدو مبراةً لم أقترف جرماً كبيراً . لقد تدنّست نياي وما أستطيع أن أدعى البراءة . وما بقى علىّ أن أقوم به لتحقيق آمالي قد يكون أفدح مما أردت تحقيقه ولكنه لا يزيد جرميت شيئاً . وكانت كلماتها تعبر عن اضطراب فكرها واضطراب الصراع فيه ، ومع ندمها على محاولتها غواية أخيها فلقد كانت سعيدة بتجديد سعيها إليه متخطية كل ما هو خلقى في محتها ، معرضة نفسها لامتهان لا ينقطع .

٦٢٠

وحين يش كاونوس من رجوع أخته عن محاولاتها معه قرر الفرار من الوطن هروباً من زنا المحارم ، وراح يشيد لنفسه مدينة جديدة فوق أرض غريبة^(٢٠) . وقيل وقتها إن إبنة ميليتوس فقدت صوابها فمزقت ثيابها عند نحرها وكشفت عن صدرها وأخذت تلطم خديها غائبة عن وعيها ، ثم كشفت علناً عن هوسها وصارحت الناس برغبتها الجنونية وحبها الأثيم ، وهجرت هي الأخرى وطنها ومرتع نزواتها الفاجرة ، وتتبعت آثار أخيها في المنفى ، متشبهة بعابدات باكخوس على جبل إيسماروس حين يهيجهن ثيرسوسك^(٢١) يا ابن سيميليه ، فيُخين أعيادك التي يُحتفل بها مع كل أعوام ثلاثة . وعبرت ببيليس الحقول الفسيحة وهي تصرخ على مشهد من نساء مدينة بوباسوس^(٢٢) ، ومن هناك ساقتها خطاها التائهة إلى بلاد الكاريين وإلى الشعب الليليجي^(٢٣) المدجج بالسلاح ، ومَرّت بليكيا تاركة وراءها كراجوس وليميريه ونهر زانثوس والهضاب التي يسكنها الخيميرا ، ذلك الكائن الوحشي الذي ينفث جسده السنة اللهب والذي كان له جذع أسد وذيل ثعبان^(٢٤) .

٦٤٠

وأخذت الغابات الفسيحة التي اخترقتها ببيليس تتضاءل في عينيها كلما بُعدت عنها حتى أضناها السير سعياً وراء أخيها ، فسقطت محطمة فوق الأرض وعاجلها النعاس وقد انتفش شعرها فوق الأرض

الصلبة والتصق وجهها بأوراق الشجر المتساقطة . وأقبلت الحوريات الليليجيات فحاولن إيقاظها والتخفيف من آلامها وصرفها عن غيها ، لكنها صمّت أذنيها وأطبقت شفثتها وظلّت راقدة تمزّق بأظافرها العشب الأخضر وتروى المراعى بأنهار الدمع ، ويقال إن حوريات الماء قد احتفرن مجرى لدموعها لم ينضب أبداً . وأى هبة خير من هذه كان يمكن أن يقدّمها إليها ! وكما ينبثق الصمغ من لحاء شجر الصنوبر والقار اللّزج من التربة الجبلى به ، وكما يتجمّد الماء حين تهبّ رياح الشتاء الثلجية ثم يذوب ثانية مع أنفاس الشمس ، تحوّلت حفيدة فوبيوس التى أنهبها البكاء إلى ينبوع مازال يتفجّر حتى الآن فى الوديان تحت ظلال أغصان شجرة البلوط الخضراء الداكنة وقد احتفظ مع الزمن باسم صاحبه ببليس .

إيفيس

وكان من الممكن أن يشغل حديث هذه المعجزة سكان المدن المائة التى تنتظمها كريت لولا معاصرتها لمعجزة أخرى وقعت على حدود كنوسوس بأرض فيستوس حيث كان يعيش رجل اسمه ليجدوس من أسرة متواضعة غير مرموق المكانة ، ولكنه وُلد حرّاً تكافأ ثروته ومكانته ، وعاش حياته بعيداً عن الشبهات .

وكانت زوجته تليثوزا قد حملت منه فلما اقتربت أيام الوضع نصحبها قائلاً : « إننى أصلى رجاء امرين : أن تخفّ عنك آلام وضعك ، وأن تُرزق بمولود ذكر ، فإنجاب البنات جمل يثقل على من ضاقت موارده مثلى ، على أنى إذا فشلت ضراعاتنا ورزقنا بنت فسوف أقضى بقتلها [على الرغم مما أكنّه من مشاعر الأبوة .. ولتغفرى لى ذلك] . وبينما هو يُخطرها بما عقد عليه عزمه كانت دموعه تسيل سيل دموعها غزارة ، وقد حاولت زوجته بتوسلاتها المتتالية ألا يضيق الخناق على أحلامها ولكنه كان صلباً فى تمسّكه بنواياه .

وحين بدأت تليثوزا تنوء بحملها ، زارتها إيو ابنة إيناخوس ليلاً فى منامها ، ووقفت أمام فراشها وسط حاشيتها المقدسة وقد توجّ جبينها بالنّاج الهلالى المرصّع بالسّنايل الذهبية تحيط بالصّل الملكى ، فبدت جليلة مهيبه^(٢٥) ، وقد صحبها كلبها أنوبس العاوى ، والقطّة المقدسة بوباستيس ، وآپس ذو الرداء المتعدد الألوان ، والإله الذى يحبس صوته ويضع أصبعه على شفثته داعياً إلى الصمت^(٢٦) ، وكذلك مصلصلاتها ، وأوزيريس الذى لم تنقطع إيزيس عن البحث عنه ، والشعبان الغريب المنتفخ بالسّم النّمّ . وتحدثت الإلهة إلى تليثوزا التى خيلَ إليها أنها استيقظت من نومها وأنها تسمع وترى فى اليقظة لا فى المنام ، وقالت الإلهة : « أنت واحدة من أفراد حاشيتى يا تليثوزا فخفّى عنك قلقك ، ولا تطيعى زوجك فيما أشار به عليك ، ولا تبخلى بالرعاية على طفلك ذكراً كان أم أنثى حين تفرغ لوكتينا من مساعدتك فى وضعه . أنا إلهة الغوث أقدمّ العون لمن يتوجّه إلىّ بالرجاء ، ولن يجار لسانك بالشكوى من أنك لجأت إلى إلهة لا تقرّ بالجميل » . ثم غادرت الإلهة الغرفة بعد أن أسدت نصيحتها ، ونهضت تليثوزا الكريتية من

فراشها مشرقة الروح ورفعت يديها الطاهرتين إلى النجوم وتوسّلت إلى الآلهة أن تحقق لها ما رأت في منامها .

حتى إذا جاءها المخاض وخرج الجنين إلى النور ورأت أنه أنثى أخفت الأمر عن زوجها وأدعت أنه ذكر . ولم تتجه إليها الشكوك ولم تهمس بسرّها إلا لمرضعة الطفل ، وأنفذ الأب قسمه وأعطى ابنه اسم جدّه إيفيس . وسعدت الأم بذلك الاسم الذى يُطلق على الذكور والإناث دون تمييز فلم تخدع أحداً بهذا الاسم ، وبقي سرّها خفياً بسبب هذا الاسم . وألبست طفلتها ثياب الذكور ، وأحفت سرّها بمختلف الحيل وإن لم تخفه على الآلهة التى باركت خطواتها . وكانت للطفلة قسمات تتميز بالجمال الذى يشارك فيه الذكور الإناث . وحين بلغت إيفيس الثالثة عشرة من عمرها أخذ والدها يعدّ لزوجها من إيانثى ابنة تيلستيس الكريتى أجمل بنات فيستوس وأكثرهن فتنة وكانت فى سن إيفيس ، تلقياً معاً تعليمهما على أيدي الأساتذة أنفسهن فمسّ الحب قلبيهما البريثين ، غير أنهما كانتا تنظران إلى المستقبل نظرتين مختلفتين . فبينما كانت إيانثى شديدة الالهفة للزواج من إيفيس التى تحسبها رجلاً وتنتظر فى شوق يوم زفافها إليه ، كانت إيفيس تعلم أنها مغرمة بفتاة مثلها لن تستطيع أن تجد إلى جانبها السعادة ، وكان إحساسها بالضيق يزيدها التصاقاً بالفتاة ، وكانت دموعها تنهمر دون انقطاع ، وتردّد فيما بينها وبين نفسها : « أى مصير ينتظرني ، لقد وقعت فى حبال حب غريب شاذ لم يعرفه أحد من قبل ، ولو شاءت الآلهة الإبقاء على حياتى لحررتني من قبضة هذا الحب ، أما إن شاءت هلاكى فلم لم تُصبنى ببلاء مما اعتاد البشر التعرّض له . إن البقرة لا تهيم بحب بقرة ، والفرس لا تعشق فرساً ، والنعاج تتجه دوماً للكباش ، وأنثى الوعل تطارد ذكورّه ، وعلى هذا النحو تتزاج الطيور . ولا ينطوى عالم الحيوان على هيام أنثى بمثلها . ليتنى لم أُولد ، غير أنه مقضى أن تنبثق على أرض كريت هذه الأحداث النكراء . لقد أحبّت ابنة الشمس^(٢٧) ثوراً حقاً ، لكنها كانت أنثى تعشق ذكراً . أما حبيبى أنا فهو — لو كشفت عنه — أكثر شذوذاً من حبها ، فقد كانت لذة الجسد التى ترقبها هى التى أغوتها ، وقد استطاعت بالحيلة حين تخفّت فى تمثال على صورة بقرة أن تسعد بالثور الذى تخيلته عاشقاً حقاً . غير أنه على الرغم من ومضة العبقرية التى تمثلت فى تمثال صنعة دايدالوس الذى حلّق فى السماء بجناحين ثبتهما بالشمع ، فإنه لو عاد ما استطاع أن يفعل لى شيئاً ، ولما استطاعت فنونه السحرية أن تحيلنى من فتاة إلى شاب ، ولما استطاع أن يحيلك أنت يا إيانثى إلى صبى . إذن فلتحزمنى أمرك يا إيفيس ولتنفضى عنك هذه العاطفة المخبولة الخرقاء ، وواجهى حقيقة الأمر إلا إذا كنت تخدعين نفسك فضلاً عن غيرك ، واستمتعى بما هو متاح للمرأة أن تستمتع به . إن الأمل هو الذى يولّد الحب ويغذّيه . وقد حرمتك الطبيعة كل أمل ، إنك تستطعين معانقة تلك التى تعشقينها دون أن يقف فى طريقك زوج أو أب قاس ودون أن تتمنّع محببتك . ومع ذلك فلن تكون محببتك ملكاً لك ولن تجدى معها ما يمنحك السعادة مهما عاونك فى ذلك الآلهة والبشر . إن شيئاً واحداً فقط لم تحققه لى الآلهة الرحيمة التى استجابت لكل ما رجوت . وهذا الذى أريده ويريده أبى وخطيبتى نفسها ووالدها تقف الطبيعة حائلاً دون تحقيقه وهى أقوى منهم جميعاً . إن الطبيعة هى سبب بلائى . لقد جاء اليوم الذى كانت دعواتى كلها من

أجله واقترب موعد زفافي ، وستصبح إيانثى لى دون أن أقوى على تملكها ، وسأحس الظلم وأنا وسط المياه ، مالى أراكما هنا يا چونو يا راعية الزواج وأنت يا هيمينايوس^(٢٨) ؟ وماذا تفعلان فى حفل ليس به زوج ، بل نحن فيه زوجتان ؟ . وما لبثت إيفيس أن لاذت بالصمت .

وكانت الفتاة الأخرى تشتعل حباً لا يقل ضراوة عن حب إيفيس لها ، وراحت تتضرع قائلة : « مدّ إلى يد العون على عجل يا هيمينايوس » . غير أن تيليثوزا كانت تخشى ما تدعو إليه إيانثى وتؤجل الموعد متصنعة المرض أو متعللة برؤى مقلقة أو بفأل سىء حتى استنفدت جميع حيلها واقترب يوم إشعال شموع الزفاف الذى تأجل مرات عدة ولم يبق إلا يوم واحد . وعندها فكّت تيليثوزا العصابات الملتفة حول رأسها وحول رأس ابنتها فتناثر شعرها ، وطوّقت بذراعيها محراب إيزيس وصاحت : « يا إيزيس ، أنت يا من تقطنين الباريتونيوم^(٩) وحقول مريوط وفاروس^(٣٠) والنيل المتشعب إلى سبعة فروع ، أسرعى إلى نجدتنا . أتوسل إليك أن تمنحينا دواء لآلامنا ، أنت أيتها الإلهة التى رأيتك ورأيت مظاهر قدراتك وتعرّفت على حاشيتك ومشاعلك وأصوات مصلصلاتك ، وحفرت بإخلاص وصاياك فى ذاكرتى . إذا كانت ابنتى مازال على قيد الحياة ، وإذا كنت أنا نفسى أحياء فى مأمن من العقاب ، فذلك بفضل نصائحك وحمايتك التى أدين لك بها اليوم ، فلترفقى بنا نحن الاثنين ، وامنحينا عونك الكريم » . وانساب الدموع من عينيها مع انتهاء دعائها ، وخيل لها أن المحراب يهتز . وفى الحق إن المحراب اهتز كما اهتزت أبواب المعبد ، وأشرق هلال الإلهة الشبيه بالقمر ، ودوّت جلبة عاصفة ، ولم تعرف الأم ما حدث على وجه الدقة ، لكنها عدّت ذلك فالأ حسنا وامتلاً قلبها بهجة ، وخرجت من المعبد ومضت مع إيفيس التى اتسعت خطواتها عما كانت عليه من قبل ، وقد فقدت بشرتها نعومتها ، وغدا شعر رأسها قصيراً مصففاً فى بساطة ، وأصبحت قسماً وجهها أكثر صرامة ، وبدت أقوى مما كانت وامتلات نشاطاً قل أن يمتلى به جسد أنثى ، واستحالت هذه الأنثى الرائعة الجمال فتى فى غمضة عين ! هيا إذن أيها الزوجان السعيدان ، احملا هداياكما إلى المعبد وانعما بالفرحة فى طمأنينة .

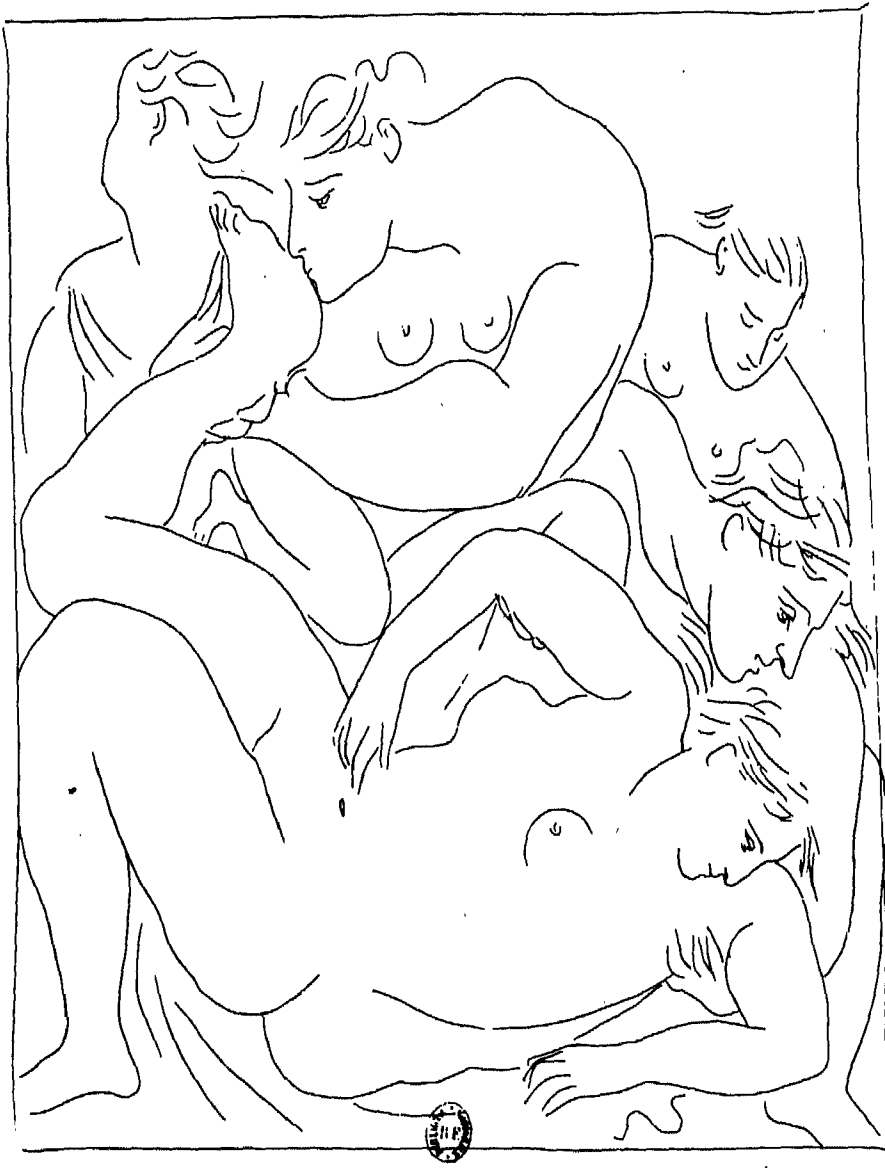
ومضى العروسان بهداياهما إلى المعبد ، ونقشا فوق جداره بيتاً قصيراً من الشعر يقول : « ها هو ذا إيفيس يقدم قرباناً نذر بأن يحمله لإلهته يوم أن كان فتاة ، رمزاً للوفاء بالعهد بعدما أصبح - كما اشتاق - صبيّاً » .

ومع صباح اليوم التالى أشرقت الشمس وغمرت أشعتها أركان العالم الفسيح ، واجتمع كل من فينوس وچونو وهيمينايوس مع حاشيتهم فى حفل زفاف الفتى إيفيس يوم اقترانه بعروسه الحبيبة إيانثى^(٣١) .

التعقيبات

- (١) نيسوس أحد القنطورى وهو ابن إيكسيون أنجبه من الغمامة التى أرسلتها جونو بينها وبين إيكسيون عندما حاول الاعتداء عليها . وقد نال إيكسيون عقابه فى العالم السفلى بأن شدته الآلهة على عجلة تدور بلا انقطاع .
- (٢) كان هرقل قد غمس سهامه فى الدم السام للهدرا الليرناوية . عن تفاصيل أسطورة هرقل وأعماله الاثنى عشر راجع المقدمة التى صُدِّر بها د. أحمد عثمان ترجمته لمسرحية سينىكا « هرقل فوق جبل أويتا » (من المسرح العالمى . الكويت عدد ١٣٨ مارس ١٩٨١ ص ١٠ - ١٠٧) .
- (٣) أوغاليا اسم حملته ثلاث مدن يونانية أحدها فى ثيساليا والثانية فى ميسينيا والثالثة فى يوبويا . وقد ارتبطت أسطورة الملك يوريتوس بن أبولو بهذه الأخيرة ، وكان رامى سهام لا يبارى وعد بأن يزوّج ابنته ممن يقهره فى مباراة الرماية ففاز هرقل ، غير أن يوريتوس وأبنائه أبوا تسليم يولى بنت يوريتوس إليه وفاء بالوعد ، فغضب هرقل وأباد المدينة وقتل الملك وأبنائه وأخذ يولى أسيرة .
- (٤) كان للآلهة جوبيتر معبد على رأس كيناىون أو كينايوم إلى الشمال الغربى من يوبويا .
- (٥) تتذكر ديانيرا مصرع خالى ملياجر على يديه انتقاماً لإهانتها لأتالانتا [انظر الكتاب الثامن] .
- (٦) يبدأ أوفيد هنا استعراض مآثر هرقل . وكان بوزيريس ملك مصر يذبح كل غريب يفد إلى بلاده قرباناً للآلهة ، وعند وصول هرقل إلى مصر كاد يلقى نفس المصير غير أنه حطم قيوده وقتل بوزيريس وابنه وحاشيته .
- (٧) يوريشيوس هو ملك أرجوس الذى فرض على هرقل القيام بالمغامرات الاثنى عشر التى وردت على لسان هرقل خلال الفقرات السابقة .
- (٨) كان فيلوكتيتيس بن بوياس أعز صديق لهرقل . وبعد أن عاون هرقل فى إعداد المحرقة وهبه هرقل قوسه وسهامه . واشترك فيلوكتيتيس فى حملة الأخيين ضد الطرواديين ، غير أن ثعباناً أرسلته جونو لدخه فى قدمه فتركه رفاقه الإغريق فى جزيرة لمنوس لاشتمزازهم من رائحة العفن الصادرة عن جرحه . وعندما قال العراف إن طروادة لن تستسلم بغير سهام هرقل التى كان يحتفظ بها فيلوكتيتيس أوفد الإغريق أوديسيوس ونيبوتوليموس وديميديس لإحضاره . ولسوفوكليس مسرحية تتناول هذا الموضوع .
- (٩) كانت للتحفظات الأخيرة من حياة هرقل موضوع مأساة التراخينيات « نساء تراخيس » لسوفوكليس .
- (١٠) المقصود به هيلوس أكبر أبناء هرقل وديانيرا . إذ حاول يوريشيوس بعد موت هرقل أن يخطف أبنائه الذين كانوا قد التجأوا إلى كيكس ملك تراخيس الذى أرسلهم إلى أثينا حماية لهم فهاجم يوريشيوس أثينا مطالباً ئيسوس بهم إلا أن الأخير هزم يوريشيوس . وهذه القصة موضوع مأساة « أبناء هرقل » لأوربيدس .
- (١١) ليس المقصود هونبات اللوتس العطرى بل المقصود هوشجرة العنّاب واسمها باليونانية اللوتيس نسبة إلى الحورية لوتيس . ومن هنا جاء اللبس من تسمية هذا النبات باللوتس صنو الماء فى نص لاوفيد .

- (١٢) تزوج هرقل هيبى ابنة چونو بعد أن تحول إلهاً في السماء .
- (١٣) كان أمفياراروس قد أوصى ابنه الكهايون بأن يثار له قتل أمه . وقد فقد الكهايون صوابه نتيجة لذلك وطاردته ربات الانتقام كما ورد في « مأساة السبعة ضد طيبة » ، ففر من أرجوس ملتجئاً إلى أركاديا حيث تزوج من ألفيسيبويا ابنة الملك وأمهرها قلادة أمه الذهبية . وازداد جنونه بمرور الأيام فقصد الهاتف الإلهي البيشي الذي أمره بأن يقصد مصب نهر أخيلوس حيث تزوج كالبرهوى بنت إله النهر التي طلبت منه أن يهديها القلادة الذهبية ، فعاد إلى أركاديا ليسترد القلادة من زوجته الأولى ، ولكن أصهاره قتلوه ووضعوا القلادة في معبد أبوللو بدلفى . فتضرعت كالبرهوى إلى چوپيتر كى يتيح لابنائها الثار لأبيهم قبل إدراكهم سن الرشد ، الأمر الذى وافق عليه رب الأرباب .
- (١٤) هى أورورا التى مُنح زوجها تيتونوس الخلود دون أن يظفر بالشباب الأبدى . ويبدو أن الصواب قد جانب أوفيد حين نسب أورورا إلى المارد بالاس بينما هى فى واقع الأمر وفق رواية هزيودوس ابنة المارد هيبيريون .
- (١٥) ابن چوپيتر من إلكترا بنت أطلس ، وكان يحظى بعطف سيريس التى عشقته وأنجبت منه پلوتوس فغضب عليه چوپيتر وأرسل عليه صاعقة قتلتها .
- (١٦) مينوس ورادامانثوس وأياكوس أبناء چوپيتر من أوروبا .
- (١٧) مدينة ميليتوس فى آسيا الصغرى التى كوَّنها طمى نهر المياندر .
- (١٨) زَوْجُ إله الريح أبولوس أبناءه من بناته الست .
- (١٩) هنانوع من البلاغة اللفظية ، فكلمة SALUS تحمل معنى السلام كما تحمل معنى السلامة فى الوقت نفسه ، وهى تورية قصدها الشاعر .
- (٢٠) أسس كاونوس مدينة باسمه فى كاريا بآسيا الصغرى على ضفاف نهر كالييس بالقرب من البحر .
- (٢١) الثرسوس عصا تنتهى بحلية على شكل ثمرة صنوبر هى صولجان باكخوس .
- (٢٢) بوباسوس مدينة فى كاريا شرقى كنيديوس .
- (٢٣) الاسم القديم للشعوب القاطنة فى كاريا بآسيا الصغرى .
- (٢٤) ذكر هزيودوس أن الخيميرا هى ابنة تيفون وإخيدنا ، ومن ثم كانت أختاً للكلب كيربيروس وللأفعوان الليرناوى . وأغلب الظن أن وصف هذا الكائن الخرافى يرجع إلى أصول شرقية بعيدة .
- (٢٥) روى أوفيد أسطورة ابنة إيناخوس التى رحلت إلى مصر وتحولت إلى الإلهة إيزيس [انظر الكتاب الأول] . وتدل الإشارة الواردة فى النص على إقبال الرومان على العقائد المصرية ، والمعروف أن إيزيس كانت تمثّل بقرص القمر فوق رأسها بين قرنين مثلها كانت تمثل إيو . وفى وصفه لايو نسب أوفيد سنابل القمح والصل لها كما كانت الحال بالنسبة للإلهة والفراغة عند المصريين القدماء .
- (٢٦) هو حور [حورس] بن إيزيس وقد سمّاه الإغريق هارپوقراطيس وصوّروه دائماً طفلاً يضع أصبعه فى فمه .
- (٢٧) پاسيفاي زوجة مينوس ملك كريت .
- (٢٨) هيمينايوس هو الإله الجميل راعى الزواج وأحفال الزفاف . وقال البعض إنه ابن أبوللو من إحدى ربات الفنون ، وادعى البعض الآخر أنه ابن باكخوس وثينوس ، ويصوّر حاملاً شعلة الزواج وإكليل العرس وطرحه الزفاف .
- (٢٩) مدينة غرب الإسكندرية [ربما هى مرسى مطروح الآن] وكثيراً ما كانت كلمة « پارتون » تعنى المصرى أو السكندرى لدى الرومان .
- (٣٠) جزيرة أمام الإسكندرية أوصلها بطلميوس « المنقذ » بالمدينة وشيّد فوقها منارة الإسكندرية الشهيرة .
- (٣١) يقول نيكاندر إن هناك قصة مشابهة لهذه القصة تدور أحداثها أيضاً فى فيستوس ، واسم بطل هذه القصة ليوكيپوس لا إيفيس ، وإن الفضل فى تحولها إلى فتى مرته إلى لاتولا إلى إيزيس . ويذكر نيكاندر بهذه المناسبة اثنين تمتعا بنفس القدرة على التحول من أنثى إلى ذكر والعكس وهما تيريزياس وكاينيس اللايشى ، وقد ذكر أوفيد أولهما فى الكتاب الثالث وثانيهما فى الكتاب الثانى عشر .



پيكاسو: الأنهى تلدغ كاحل يوريدىكى

الكتاب العاشر

أورفيوس

استجاب هيمينيوس ربّ الزواج لدعوة أورفيوس لكى يشهد حفل زفافه ، فشقّ أجواز الفضاء متلفعاً بردائه الزعفراني^(١) إلى أن بلغ شواطئ الكيكونيين^(٢) ، إلا أن دعوة أورفيوس للإله كانت لا جدوى فيها لأنه على الرغم من حضوره ساد الحفل سوء الطالع . وقد بدا أورفيوس مقطب الجبين لا يعلو

وجهه سيما البشر وانصرف عن شِدُو نشيده المألوف ، وكذ فهقت الشُّعلة التي يحملها وانبعث منها دخان كثيف يهبج دموع الحاضرين وذهبت كل محاولة لإشعالها سدى . ووقع ما هو أكبر شرّاً مما أنبأ به القال ، فقد اعترضت أفعى طريق العروس وهى تتجوّل في المروج بين صاحباتها ولدغت كاحلها فهوت على الأرض جثة هامدة ، فهال ذلك حبيبها الشاعر مُنشد جبال رودوبى وهوى هابطاً إلى عالم الموتى في جُرأة لا حدود لها شاقاً طريقه إلى شاطئ نهر ستيكس عبر بَوَابَة تيناريوس^(٣) كى يحرك أرواح الموتى شفقة ، وأخذ يجوس بين أشباح الأرواح الداوية إلى أن انتهى إلى حيث بيرسيفون وزوجها اللذان ييمنان على هذه الأنحاء المعتمة ، وجعل ينشدهما على أنغام القيثارة :

« أى إلهى العالم السفلى الذى سنمضى إليه نحن البشر الفانين ، هل لى أن أصارحكما بالحقيقة من غير زيف ولا مداراة ؟ ما أتيتُ إلى هنا لأتجوّل في دروب تارتاروس المعتمة ولا لأكبّل بالأصفاد كلب ميدوسا المفترس ذا الرؤوس الثلاثة والشعر الكثيف المتلبّد الذى تنساب بين تلافيفه الشعاب^(٤) ، وإنما أتيت سعيّاً وراء عروسى التى خبئت جذوة حياتها وهى في ربيع العمر صريعة لدغة أفعى أفرغت في عروقها سمّها الزّعاف . وكم وددت لو استطعت أن أحتمل مرارة أحزاني باذلاً جهدى لأتدرّع بالصبر ، غير أن الحنين إلى عروسى غلبنى ، والحب كما تريان إله له شهرته بين البشر ، وما أدرى هل تكون له شهرته هذه بينكم ، وما إخالكما يغيب عنكما أمره . وعلى أية صورة كانت الصلة بينكما قبل أن تتزوجا ، فما من شك في أن الحب هو الذى جمع بين قلوبكما ، فبحق هذه الدروب الرهيبة والمتاهات ، وبحق هذا الصمت المخيم على مملكتكما الشاسعة أضرع إليكما أن تُعيدا إلى يوريديكى الحياة التى فقدتها يانعة ، وإنى لأعلم أن مصيرنا نحن البشر إن عاجلاً أو آجلاً إلى هذا المكان وكلنا ماضون إليه ، وأن سلطانكما على البشر أبدى لا انقطاع له ، وأن زوجتى سوف تُردّ روحها إليكما شأنها في ذلك شأن غيرها ، وذلك بعد أن تقضى حياتها المقدورة على الأرض . وما أرجوه منكما هو أن تهبّان الفرحة بصحبتهما ، وإذا أبت مشيئة ربّات الأقدار أن تعيدها ثانية إلى الأرض فما في نيتي أن أعود إلى عالم الأحياء ، ولكما عندها أن تتشفيّا بموتى كما تشفيّتما بموتها . »

وفيا كان أورفيوس يتغنّى بكلماته على أنغام قيثارته أجهشت الأشباح الشاحبة بالبكاء ، وغفل تانتالوس عن متابعة المياه وهى تفلت منه^(٥) ، وتوقفت عجلة إيكسيون عن الدوران ، وأمسكت الصقور عن نهش كبّد تيتيوس ، وأغفلت بنات داناوس ملء جراحهن ، واستولى الذهول على سيزيفوس وهو يستريح على صخرته^(٦) ، وغلب الأسى ربّات الانتقام عند سماعهن هذا الشّدو الحزين فابتلت وجناتهن بالدموع ، ولم يملك حاكم العالم السفلى وزوجته إلا الاستجابة لتوسّلاته . ودعيا يوريديكى ، فأقبلت من بين الأشباح تنهادى مُثقلة بجرحها ، ومضى أورفيوس الطراقى مُنشد جبال رودوبى بزوجته على شريطة ألا يمدّ عينيه إليها إلا بعد أن يغادرا وديان أفيرنوس^(٧) حتى لا يفقدها ويعود إلى الدنيا وحده .

وانطلقا معاً بين السكون والظلمة يرقبان السفوح وقد خيّم عليها ظلام لا تُشقّ غياهبه ، وحين اقتربا من سطح الأرض أخذ القلق يساور أورفيوس مخافة أن يكون الإعياء قد بلغ من زوجته مبلغه وأحسّ

بلهفة إلى رؤيتها ، فمال ببصره إلى الوراء فإذا يورديكي التعسة تعود لساعتها إلى الأعماق ، وهي تمذ ذراعها إليه ، وعبثا حاولت أن تحمله على الإمساك بها أو أن تتعلّق به ، وإذا ملء كفيها هواء . وعاجل الموت يورديكي ثانية دون أن تلفظ بشكاة ، وممّ تشكو وكل ما حدث كان مبعثه هيام زوجها بها ! ولما همت بوداعه تبدّت كلماتها قبل أن تبلغ سمعه ، وإذا هي تجد نفسها ثانية في المكان الذي كانت قد خلّفته منذ لحظات .

ومزّق الحزن فؤاد أورفيوس لانتقال زوجته مرة أخرى إلى عالم الموت ، وصار أشبه بذلك الرجل الذي هلع حين رأى كيريروس ذا الرؤوس الثلاثة ممدداً على الأرض مغلول الرأس الأوسط ، ولم يخلص من هلمه إلا حين فقد صورته الأولى وتحول حجراً^(٨) ، أو بأولينوس وليثيا العاشقين التعسين اللذين تحولاً في مراعى إيدا^(٩) حجرين لشدة غرور ليثيا بجماها ، مما حمل أولينوس على أن يحمل جريرة إثمها على عاتقه ، فإذا هو قد حمل وزرها وغدا من المذنبين . وقد حاول أورفيوس أن يعبر نهر ستيكس ثانية غير أن محاولته ذهبت هباء ، ولم تُغنّ توسلاته لحارس المعبر كي يأذن له بالعبور ، فبقى مطروحاً على شاطئ النهر سبعة أيام لا يذوق طعاماً أو شرباً ، يقتات من الحزن والقلق والدموع ، وعاد بعدها إلى جبل رودوبي السامق وجبل هايوس الذي يقع في مهب الرياح الشمالية يشكو ظلم آلهة عالم الموت .

وغمرت أشعة الشمس كوكبة الحوت النديّة التي تتم دورات ثلاثاً في العام ، وكان أورفيوس قد هجر حب النساء خلال تلك الفترة كلها ، إما لتلك المأساة أو لعهد قطعه على نفسه . وكم من فتيات كن يتشوّفن للزواج منه استشطن غضباً لتجاهله إياهن ، غير أن أورفيوس أثر أن يقصّر علاقاته على صحبة الفتيان ذوى الشباب الغضّ ، وأن يستمتع بربيع اليافعين وبشبابهم القصير المدى ، فكان أول من جنح بشعب طراقيا إلى هذا السبيل^(١٠) .

كِيَارِيسُّوس

وجلس الشاعر سليل الألهة فوق ربوة منبطحه يغطّيها العُشب وليس ما يُستنظّل به من أشعة الشمس ، ولكن ما إن أخذ يحرك أوتار قيثارته الشاجية وتنبعث منها أنغامها الأولى حتى أقبلت إليه الأشجار بظلالها ، فجاءته أشجار بلوط خاؤوليا^(١١) وأشجار الحور شقيقات فايشون ملتفة حوله ، وسنديانة زيوس العملاقة السامقة الأفنان ، وشجر الزيزفون والزان وشجرة الغار العذراء وشجر البندق القصيف وشجرة الدردار التي نصنع منها عيدان الرماح وشجر التنوب الأملس وشجر السنديان المثقل بجوزاته وشجر الجميز مكمّن الفرع ، وشجرة الاسفندان ذات الأوراق المتبينة الألوان ، والصفصاف الذي ينمو بجوار الأنهار ، واللوتس عاشق الماء ، وشجيرة البقس الدائمة الخضرة ، وشجرة الطرفاء النحيلة ، والريحان الثنائي اللون ، وشجرة اللّورة التي تحمل التوت الداكن الزرقة ، واللبلاب أيضاً جاء يجرّ ذبوله ، والكروم المورقة ، والدردار بين ثناياها ، وشجرة الغبراء وشجرة الصنوبر الراتنجي ، والفرصاد البرّي المثقل بالثمار

الحمراء ، والنخيل اللدن الذى يُمنح سعه جائزة الفوز فى المباريات ، وشجرة الصنوبر أعزّ الأشجار إلى سيبيل [كويلي] أم الآلهة ذات الأوراق المنتصبة وكأنها معرفة شعناء لجواد ، وذلك أن كاهنها آتيس كان قد استحال من هيئته البشرية إلى هذه الشجرة^(١٢) . وإلى الجمع الحاشد انضمت شجرة السرو بهيئتها المخروطية التى تذكرنا بحدود زوايا المنعطفات فى حلبة السباق ، وهى إن كانت اليوم شجرة ، فلقد كانت من قبل فتى عشقه ذلك الإله الذى يجيد غمز أوتار القيثارة إجادة شدّ وتر القوس .

واليكم القصة : فى سالف الأيام كان ثمة وعلاً بديع التكوين تشمله حوريات حقول كارثيا^(١٣) برعايتهن ، وكانت قرونه متشعبة تمتد هنا وهناك متألفة بوميض ذهبي ، وتطوّق عنقه الأملس قلادة من الأحجار الكريمة تنسدل على صدره ، وتبرق على جبينه تعويذة فضية مثبتة بأشرطة جلدية رفيعة ، وتندلّ من أذنيه لآلى وضاعة على صدغيه الغائرين . وكان لا يخالط قلبه خوف ، يدخل على الناس بيوتهم ويداعب الغرباء بمدّ عنقه نحوهم ، وكان كيپاريسوس أكثر شباب كُوس وسامة هو أقرب الناس إليه وأشدّهم التصاقاً به ، وكان يقتاده إلى المراعى الخضراء والينابيع الثرة ويكّل قرونه بأجمل الزهور ، ويمتطي ظهره فى بعض الأحيان وكأنه فارس على ظهر جواد ، ويوجّه خطم هذا الحيوان الرقيق يمينه ويسرة بأعنة أرجوانية .

١٢٠

وفى ظهر يوم من أيام الصيف وكانت أشعة الشمس الحارقة تلهب أذرع برج السرطان ضيف شواطئ البحر أحسن الوعل بالإرهاق ، فاستلقى على العشب ينشد الراحة خلال الأنسام النّدية فى ظلال الأشجار ، وترأى لكيپاريسوس مداعبته فوخزه بحرته المسنونة دون قصد إيذائه ، فإذا الوعل قد جرح وانكفاً يحتضر وهمّ كيپاريسوس بقتل نفسه ليلحق بصديقه فى رحلة الموت ، فأسرع أبوللو إليه يواسيه بأجمل القول ويحاول إقناعه بالقصد فى حزنه ، غير أن الصّبي مضى يئن ويتنحب واتجه إلى الآلهة يسألها أن تحقق له رجاءه الأخير . وهو أن يظل باكياً نائحاً إلى الأبد . ولم ينقطع الصّبي عن البكاء حتى جفّت من عروقه الدماء ومال لون أطرافه إلى الخضرة ، وجمّد شعره وتشعث بعد ما كان مُرسلاً يتموّج على جبينه الناصع البياض . وغمر الحزن العميق الإله أبوللو فناجى نفسه فائلاً فى أسى : « لسوف أظل أبكيك أبداً ، ولسوف تظل أنت تذرف الدمع من أجل الآخرين ، ولسوف تبقى دائماً رفيقاً لزمرة المحزونين^(١٤) .

١٤٠

جَانِيمِيدِيشْ

وشرع أورفيوس يختبر أوتار قيثارته محرّكاً إبهامه عليها متوسطاً جمعاً من قطعان الوحوش وأسراب الطيور ، حتى إذا اطمأنت أذنه إلى اتساق النغمات المختلفة التى يعزفها بدأ يشدو قائلاً : « أمّاه ، يا ملهمة الشعراء ، فليكن چوپيتر الذى تنحنى لجبروته جميع الكائنات أول من أستهل به أغنيتى ، وما أكثر ما رويت من قبل عن جبروت چوپيتر ، وما أكثر ما تغنيت بالعالمقة وبالصواعق المدمّرة التى هوت على سهول

فليجرا^(١٥) بنغمات أكثر جلالاً . أما اليوم فما أحوجنى إلى نغمات هادئة توائم قصص الغلمان الذين عشقهم الآلهة والفتيات اللاتي استبدت بأفئدتهم عواطف غير مشروعة ذهبت بعقولهن فدفعن ثمنها غالياً .
فقدماً اشتعل قلب چوپيتر بحب جانيميديس الفريجي . ولكي يبلغ كبير الآلهة ما يريد أثر أن يتخذ صورة كائن آخر بدلاً من صورته ، فاختار صورة ذلك الطائر الذي يطيق حمل صواغقه على جناحيه [النسر] ، وحين استحال إلى صورة ذلك الطائر بدأ يضرب الهواء بجناحيه إلى أن خطف ابن إيلوس^(١٦) ، الذي ما يزال إلى اليوم يعدّ كثوس النكتار ليحتسيها چوپيتر على الرغم من ضيق زوجته چونو بذلك .

١٦٠

هياكينثوس

وكان فوبيوس على وشك أن يمنح هياكينثوس بن أميكلاس منزلة سامية في السماء لو أن الأقدار القاسية قد أرخت له الزمن ليحقق هذه الأمنية ، ولكنه مع ذلك خلد على النحو الذي كان مُقدَّراً له وقتها ؛ فإذا ما جاء الربيع في أعقاب الشتاء ، وإذا ما خلفَ برج الحمل برج الحوت الندى يعود هياكينثوس إلى الحياة من جديد وينمو زهرة في المروج الخضراء .

لقد منح فوبيوس الصّبي حُباً لم يمنحه غيره من البشر ، فهجر مدينة دلفي صرّة العالم ، وأخذ يختلف إلى يوروتاس ومدينة أسبرطة التي لا أسوار لها مُغفلاً قيثارته وسهامه متناسياً عاداته القديمة ، ولم يتردد في حمل شباك الصيد واصطحاب كلابه مرافقاً هياكينثوس إلى حواف الجبال الوعرة ، فزادت هذه الصّحبة المستديرة نيران حبه تأججاً .

وفي يوم من الأيام ، وفي اللحظة التي تتوسّط فيها الشمس الطريق بين ليل زائل وليل آت خلع إله الشمس والصّبي عنهما ثيابهما ، ودلّكا جسديهما بزيّ الزيتون الدّسم فبدوا يُبرقان ، وأخذا يتباريان في قذف القرص العريض . وبدأ فوبيوس فأمسك بالقرص ثم قذف به في الهواء ، فمزّق القرص بثقله خلال مسيرته السحب الكثيفة ثم هوى على الأرض شاهداً على ما للإله من قوة وبراعة . وشغف هياكينثوس الفتي الأسبرطي باللعبة دون أن يُعمل فكره والتقط القرص ثم قذف به ، غير أن القرص ما كاد يرتطم بالأرض الصّلبة حتى ارتد إلى الوراء طائراً في الفضاء مرتطماً بوجهه في عنف . فعلا الشحوب وجه ملك الشمس ووجه الصّبي ، وأمسك الإله بجسد هياكينثوس المتداعى وحاول وقف نزيف جرح الصّبي الدّامي ، كما أخذ يدلك أطرافه لكي يبعث فيها دفء الحياة ، وحاول إمساك روحه الموشكة على فراق جسده بعقاقير الأعشاب ، غير أن محاولات أبوللو راحت كلها سُدى فقد كان الجرح مميتاً لا يجدي معه دواء ، وتدلّى رأس هياكينثوس المحتضر تدلّى زهرة البنفسج في البستان أوزهرة الخشخاش الجامدة أوزهرة السوسن المصفرة البتلات حين ينكسر ساقها فلا يقف شاخاً بل تشق قمته متهذلة محمقة في الأرض في انكسار . وخارت قوى الصّبي فاندكّ عنقه بين كتفيه خائراً عاجزاً عن أن ينهض ، فقال له فوبيوس :

٢٠٠ « ها أنت يا هياكينثوس تقضى نحبك بين يديّ وتفقد عمرك على مرأى منى ، وإن الجرح الذى قضى عليك يؤنبني معاتباً ، ولكن أية خطيئة ارتكبتها سوى أننى أشركتك فى لُعبة ما ، وهل ألام على كَلْفى بك ؟ ما أجدرنى أن أقضى نحبى معك ، ولكنى لا أملك أن أفلت من قوانين القدر ، ولسوف تظل عالقاً بذاكرك ، وسيبقى اسمك على فمى إلى الأبد ولن يغيب عن فكرى أبداً ، وسترد اسمك أغنياق كلها شدوت محرّكا أوتار قيثارتى ، وستتحول أنت إلى نوع جديد من الزهور تعيد إلى الأذهان نحبى عليك بما تحمله من اسم . وليأتينّ يوم يرتبط فيه أشجع الأبطال بهذه الزهرة ويُقرأ اسمه على أوراقها » .

وفىما كانت الكلمات تنساب من فم أبوللو الذى هدّه الإرهاق ، كان الدم الذى انساب على الأرض ملطّخاً الأعشاب قد تحول إلى زهرة ، وهو وإن كان قد أخذ شكل زهرة السوسن البيضاء غير أنه لم يأخذ لونها بل أشرق بلون أحمر أشدّ بريقاً من الأرجوان ، وهكذا كرم فويبوس هياكينثوس إذ حوّلته إلى زهرة . وحين لم يقنع بهذا سجّل أساءه على بتلاتها ، فحملت زهرة الهياكينثوس حروفاً تنمّ عن الحزن كأنها الأهات . ولم تخلج اسرطة من ميلاد هياكينثوس على أرضها ومازالت تكرّمه إلى اليوم ، وما تزال تجرى الألعاب الرياضية لتكرمه كل عام ، وتقدم عروضها لوفى العادات القديمة فى احتفالات مهيبه^(١٧) .

الكيراستيس والپروپيتيديس

٢٢٠ وإذا عنّ لنا أن نسأل مقاطعة أماثونتي الشهيرة بمناجها^(١٨) عما إذا كانت قد أنجبت مختارة بنات الپروپيتيديس^(١٩) الفاجرات لبرئت من هذا الوزر البراءة كلها ، ولبرئت كذلك من أن تكون قد تطلّعت إلى أن تنجب أولئك الرجال المسمّين بالكيراستيس^(٢٠) [نسبة إلى القرون التى تعلو جباههم] والذين كان يتصدّر بوابتهم مذبح للإله چوپيتير المضيايف . ولو شاهد أحد الغرباء هذا المذبح الدامى لظن أنه قد ذبحت عليه عجول رضيعة أو خراف صغيرة ، وما خطر بباله أن رقاب ضيوفهم كانت تُجرّ فوقه لتكون قرباناً بشرياً . وفزعت فينوس لنحرهم البشر على هذه الصورة البشعة ، وأخذت الإلهة الرقيقة أهبتها لهجر مدنها ومغادرة سهول أوفوسا^(٢١) غير أنها ترددت وحدثت نفسها قائلة : « أى جرم اقترفته مُدنى والمناطق التى أحبتها ؟ وأية جريرة تلك التى أخذها عليها ؟ من الخير أن ينزل العقاب بهؤلاء الأشرار أنفسهم ، فإما أن يعذبوا نفياً أو موتاً أو بعداب بين بين ، ولم لا يكون جزاؤهم أن يتحولوا إلى صور تختلف عما هم عليها ؟ » . وفىما كانت آخذة فى التفكير فى تلك الصور التى تختارها لهم وقعت عينها على قرونهم ، فحوّلتهم إلى فحول قوية كى يحتفظوا بهذه القرون . وعندما تجاسرت بنات الپروپيتيديس الفاجرات على إنكار ألوهية فينوس غضبت عليهن ، وأصبحن لهذا أولى النساء اللاتى تدنّست سيرتهن باحتراف الدعارة ، وإذا فقدن كل إحساس بالحياء بدأت الدماء تجمد فى وجناتهن حتى أصبح من اليسير تحوّلن بعد ذلك إلى قطع صُلبة من حجر الصّوان^(٢٢) .

بيجماليون

وحين رأى بيجماليون حياة هؤلاء النساء الفاجرات كره ما أودعته الطبيعة في المرأة من نقائص مردؤلة وارتضى لنفسه حياة العزوبية بعيداً عن النساء ، غير أنه في الوقت نفسه سخر منه الرائع في نحت تمثال عاجى له بياض الثلج وصاغه أكثر حملاً من نساء الأرض ، وإذا هو يقع في غرام ما صنعت يده . وكان التمثال يفيض حيوية حتى ليخيل للمرء أنه يوشك أن يتحرك لولا أن الحياء يقف به . ما أروع أن تضفى البراعة على الفن لونا من الأسرار ! لقد انبهر بيجماليون بما صنعت يده وأخذ قلبه يولع شيئاً فشيئاً بهذه المحاكاة لجسد المرأة ، فهام بالتمثال ومضى يتحسس لا يفتر ، ليستوثق مما إذا كان من العاج أم أنه حقاً من لحم ودم ، وبات بعد لا يصدق أن التمثال قطعة من عاج فحسب ، فكان حين يقبله يخال أن التمثال هو الآخر يقبله ، ويخال حين يعانقه أن أصابعه تغوص في لحم يخشى عليه من قسوة أصابعه . وكان يخاطبه مستعظفاً ويحمل إليه الهدايا التي تنهأ بها الفتيات كالأصداف وحصى الشطآن المصقول وصغار الطير ، ٢٦٠ والزهور المختلفة والكرات الملونة ، وقطرات العنبر المتساقطة من الأشجار التي كانت في الماضي أخوات فايثون [أى الكهرمان] ، ثم كسى تمثاله ثياب النساء ووضع في أصابعه الخواتم ولف حول عنقه العقود الطويلة وجعل اللآلىء تتدلّى من أذنيه والقلائد على صدره . وكان التمثال جميلاً في حاله عارياً أو كاسياً ، فأضجعه فوق فراش مغطى بنسيج له لون أرجوان صور ، ووضع تحت رأسه وسائد من زغب البجع وكأنه يوشك أن يتوسّدها ، وسماه ضجيعة الفراش .

وبدأت أعياد فينوس تقام في أنحاء قبرص محاطة بالأبهة والجلال ، وأخذت العجول الملتفة القرون الموشاة بالذهب تنحدر على المذابح وتعمل المني في رقابها البيضاء ، وبدأ البخور يتصاعد في كل مكان ، وجاء بيجماليون يقدم قربانه ويصلى خاشعاً بجوار المذبح وهو يتمتم : « إذا كان في قدرتك أيتها الإلهة أن تهبى كل شيء ، فهبى لى القدرة على الضراعة إليك [ولم يشجع على أن يصرح برغبته في الزواج من الفتاة التي من العاج بل اجتزأ قائلاً] : « امنحني أيتها الإلهة زوجة على مثال العذراء العاجية » . وما أسرع ما فطنت فينوس المثقلة بالحلى الذهبى والتي كانت في هذا الحفل الخاص بها إلى ما يرمى إليه من ضراعة ، فكدت في الهواء بالسنة من لهب اشتعلت مرات ثلاثاً علامة رضاها وعطفها عليه . وما كاد بيجماليون يعود ٢٨٠ إلى داره ويخطو نحو الفتاة المنحوتة تمثالاً ويميل عليها يقبلها حتى أحس بدفء الحياة يدب فيها ، ومدّ يده يتحسس صدرها فإذا العاج يلين وإذا بشرتها تلين للمس أصابعه كما يلين شمع هيميتوس^(٢٣) من حرارة الشمس وينصاع للأصابع تصوغه في أشكال مختلفة لأغراض شتى . وذهل العاشق وكان بين فرحة المصدق وشك المرتاب ، وأخذ يتحسس ما كان تمثالاً والذي طالما ضرع من أجله مرّات ويتلمس نبضات عروقه . وما إن استوثق بيجماليون فنان پافوس^(٢٤) أن التمثال عاد جسماً حياً حتى لهج بالشكر لفينوس . وانكفاً يهصر بشفتيه تلكما الشفتين اللتين أخذتا تنبضان بالحياة ، وأحسّت الفتاة بحرارة قبلاته فاحمرت وجنتاها

خجلاً واختلست النظر إلى حبيبها ، فإذا هي ترى أول ما ترى صفحة وجهه مع بياض النهار في آن واحد . وأعدت لهما فينوس عرساً شهدته ، وبعد أن اكتمل القمر مرات تسع وضعت عروس بينجاليون طفلاً أسمته پافوس ، وبهذا الاسم سُميت الجزيرة بعدُ .

مُورْها

٣٠٠ أنجب پافوس ولده سينيراس الذى ترك من ورائه أسرة وليته لم يفعل ، ولو أنه لم يفعل لكان من السعداء المخلدين . وهاكم هذا النشيد المروع : لتعزفن عنى أيتها الفتيات ولتتناوا عنى أيها الآباء حتى لا تبلغ كلماتى مسامعكم ، وإن بلغتها فلا تصدقوا ما تحمل من إثم وافترضوا أن هذا الإثم لم يقع ، وإذا تراءى لكم أن تصدقوا فلتصدقوا أيضاً ما أعقبه من جزاء .

وإذا كان قد كُتب على بيثة أن تَشْقَى وَيَشْقَى فيها شعبها ، فما أسعد إسباروس وأسعد بلادنا يُبعدها بعداً شاسعاً عن تلك البيثة التى ولد بها كائن يستطيع أن يكفر بالمقدسات . وقد تكون أرض پانشايا^(٢٥) غنية بالبلسم والقرفة وعشب الجدوار وبأنواع كثيرة من الزهور ، ويفوح من أشجارها عبق الصمغ العربى والبخور ، ولكن ما جدوى هذا كله إذا كانت تنتج المرّ كذلك ، تلك الشجرة الجديدة التى لم تكن تستحق ما بُذِل فيها من ثمن باهظ . ثم إن كيوييد يؤكد أن سهامه لم تُصَب « مُورْها » بئرح ، ويقول إن التى أصابتها بهذا الداء المعيب هى إحدى الشقيقات الثلاث^(٢٦) ، تلك المسلحة بجمرات من نهر ستيكس وبالشعابين المتفخخة الأوداج ، وإذا عددنا كراهية الفتاة لأبيها جريمة ، فإن عشقها له هذا العشق هو جريمة تُرى على جريمة الكراهية .

٣٢٠ ولقد تتابع الخاطبون فى طلب يدك من مختلف الأنحاء ، وتنافس من أجل الظفر بيدك كل شباب الشرق . ولك يا مُورْها أن تختارى من شئت من بين كل الرجال الذين تقدّموا لخطبتك غير رجل واحد . وأحسّت الفتاة بما يخالجه وجاهدت أن تخلص من تلك النزوة التى كانت تتملكها ، وناجت نفسها قائلة : ما هذا الذى يُبلبلُ فكرى . . إننى أضرع إلى آلهة السماء التى تربط بين الأبناء والآباء بروابط الحب والواجب أن تطرد عن خاطرى ما يخالجه ، وأن تحول بينى وبين أن أقترف ما هو جرمٌ حقاً . ولكن أهو حقاً جرم ؟ وهل ثمة فرق بين هذا اللون من الحب وبين ما نكته من حب للآباء ؟ إن الحيوان كله ينزو بعضه على بعض ولا تفرقة عنده فى ذلك ، وليس ثمة من عار على البقرة حين يعلوها أبوها ، ولا من عار على الجواد حين يجعل من ابنته أنثاه ، ولا على الجدوى حين يصطفى من سلالة عزته ، وإن ذكور الطير لتسافد فرخاتها . ألا ما أسعد الحيوان بما يهنا به ، ثم ما أقسى ذلك الضمير الإنسانى بما يفرض من قيود جائرة حرّمت ما أحلته الطبيعة . ولكن لازالت ثمة شعوب يقتن فيها الأبناء بأمهاتهم والآباء ببناتهم توثيقاً لروابط الحب بينهم^(٢٧) ، ولعل حظى العائر أننى لم أولد فى بلد من هذه البلاد ، وعلى الآن أن أدفع ثمن

مولدى هنا . ولكن مالى أسترسل فى هذه الخواطر دون إعمال فكرى ؟ فلا طرح جاهدة تلك الشهوات المحرمة . إن سينيراس جدير بحبى حب البنت لأبيها ولو لم أكن ابنته لتزوجته ، لكنى لا أملك أن أتزوج له لأنه أبى ، وهكذا تصبح صلة القرى بيننا هى مبعث نكبتى . ولو أننى كنت غريبة عليه لتحقق أحلامى فى يسر . ولقد كان من الممكن أن أجد الراحة فى رحيلى من بلدى كى أخلص من الشعور بالذنب ، ولكن ٣٤٠ حبى لسينيراس ورغبتى فيه يقضيان على أن أبقى بجانبه لأملأ عينى منه ولا أحدث إليه ولأسعد بتقبيله إن لم أستطع ما هو أكثر . أيتها الفتاة المارقة أنتطلعين إلى إتيان ما هو أبعد من ذلك ؟ أتحاولين أن تخلطى الأنساب وتخرقى القوانين ، أو تريدين أن تنافسى أمك وتضاجعى أبك فتصبحى أختا لابنك وأما لأخيك ؟ أو لا ترهين ربأت الانتقام الشقيقات الثلاث اللاتى تنبت مكان شعورهن ثعابين سوداء تتلوى ، واللاتى يخشى المذنبون ألسنة اللهب التى يطلقنها من شعلاتهن وهن يلوحن بها فى عيونهم ووجوههم ؟ فلنأخذى حذرنا ، ولا تدعى الأفكار الأثمة تعشش فى وجدانك مادمت لم تسقطى بعد فى وهدة الخطيئة ، ولا تحاولى انتهاك قوانين الطبيعة الصارمة بتلك المواطاة المروعة . وهبى أنك عزمت على أن تقدمى فستجبهين بالحقيقة لأن أباك يرعى روابط الأسرة حق رعايتها ولا يفرط فيما يقضى به العرف . وكنت أتمنى لو أن ما أصابنى كان من مس .

وحين رأى سينيراس ذلك الجمع الحاشد من الخاطبين لابنته حار ولم يدر ما يفعل ، فأخذ يذكر أساءهم لها ويسألها عمن تختاره من بينهم فلزمت الأميرة الصمت فى بادئ الأمر ، ثم حملت فى وجه أبيها حائرة اللب وفاضت عينها بدمع غزير . وخال أبوها أن ما اعترأها من حياء العذارى فأخذ يحفف دموعها ويربت على كتفها لتكف عن البكاء ، وانحنى عليها يقبلها فإذا الفتاة تحس متعة أية متعة ، وسألها أبوها : ٣٦٠ « أى زوج تختارين ؟ » فرفزت الفتاة وهى تجيب : « زوجاً على مثالك » . وحسب الرجل ذلك منها لونا من ألوان البر ولم يفطن إلى ما تخفى ، وقال لها : « كم أتمنى أن تظلى بى بارة » ، وأحسّت الفتاة خجل الأثمة عند سماعها كلمات أبيها فأطرقت برأسها .

وأوى الناس إلى فراشهم مع منتصف الليل نافضين عنهم همومهم ومتاعبهم ولكن ابنة سينيراس لم يغمض لها جفن ، واثارت فى قلبها لواعج لا تحمد ، وتملكتها نزواتها الطائشة ثانية . وكانت تستسلم حيناً لليأس فتستكين خجلة ، وتتنازعها الجراءة حيناً فتتحرق شهوة . ولم تكن تملك أن تختار ولم تعرف ماذا هى فاعلة ، فلقد أصبحت أعجز من أن تبث فى أمر طالما عناها وعاشت تحت ثقله تترنح ، مثلها فى ذلك مثل شجرة ضخمة توالى عليها ضربات البلطة وهى تهتز يميناً ويسرة لا تدرى على أى جنب ستسقط مع الضربة القاصمة ، والخطابون حولها يرقبون وقوعها . ولم تر « مورها » خلاصاً لها من حبها إلا فى الموت فهو الطريق الوحيد للراحة التى تشدها ، فلقت حول عنقها الذى انقطع الدم عن بلوغه أنشودة وأثبتت طرفها فى عتبة الباب وقالت وقد أوشكت على التدلى : « وداعاً سينيراس يا من هو أعز الناس عندى ، وما أظنك سيغيب عنك سر موتى » . ٣٨٠

وبلغت كلماتها سمع مريبتها وكانت ترقد على باب حجرة نومها فنهضت وفتحت الباب ورأت ما أعدته مورها للانتحار فأطلقت صرخة مدوية ولطمت صدرها ممزقة ثيابها ، وبادرت فحلت الأنشطة الملتفة على عنق الفتاة وهي تبكي ، ثم طوّقتها بذراعيها وأخذت تسألها عن سر ما همّت به ، لكن مورها ظلت صامته تحملق في الأرض حزينة لما فاتها من التخلص من الحياة ولاكتشاف محاولتها الانتحار .

وألحّت المربية العجوز على الفتاة لتكشف لها عن سرّ رغبتها في الانحار ، وأزاحت وشاحها عن رأسها الأشيب وكشفت أنداءها الضامرة الذابلة وهي تتوسّل إليها وتستحلفها بأيام رعايتها لها في مهدها وباللبن الذي غدّتها به في طفولتها أن تسرّ لها بهومها ، لكن مورها لم تفصح عن سرّها وأشاحت عنها بوجهها وهي تئن وتزفر زفرات حارة ، وازدادت المربية إصراراً على تعرّف الحقيقة ووعدت الفتاة بأنها ستكون إلى جانبها كما سوف تصون سرّها . وقالت لها : « أسرّي لي بدخيلتك أقدم لك عوني ، فلازلت غير متبلّدة رغم شيخوختي ، وإذا كانت ثمة لوثة قد ألّمت بك فإنّي أعرف من يشفيك بالتعاون والأعشاب ، وإذا كان هناك من مسك سحره بشرّ ففى الطقوس السحرية ما يخلصك من هذا الشرّ ، وإن كان ما بك من همّ مرجعه إلى غضب الآلهة عليك ففى القرايين ضمان لرضى الآلهة عنك . وليس ثمة شيء بعد هذا ، فإنك تعيشين عيشاً رغداً ناعمة بجوار أمك وأبيك » .

٤٠٠

وزفرت مورها زفرة عميقة حين سمعت كلمة « أبيك » وما خالت المربية أن في هذه الزفرة ما يّشين ، ولكنها أحسّت أنه ثمة غرامٌ عارمٌ هو سرّ شقاها ، وازدادت عزمًا على أن تعرف خبيثة نفسها مهما كلفها ذلك ، فأخذت تتوسل إلى سيدتها أن تطالعهها بأمرها ، وضمت الفتاة الباكية إلى صدرها الذابل بيدين ترعدان وهي تقول لها : ما أعرفنى بسرّك ، إنه الحب يخفق به قلبك ، ولكن لا عليك فستجدينى إلى جانبك دوماً عندما يعوزك العون ولن أمكّن أباك من أن يعلم شيئاً عنك .

فانتزعت مورها نفسها من بين أحضان مريبتها شاردة الفكر ، واستلقت على فراشها وقد غمّت وجهها بالوسائد وهي تصرخ : « اغزّبي عني وإنّي أضرع إليك أن تخلّينى وحدي ، رفقاً بي ولا تحاولي أن تكشفى خبيثة عارى » . وعندما عادت المربية تلحّ ، ثارت مورها قائلة : « إن ما تحاولين أن تعرفينه جرّم فاضح فكفّى عما تحاولين » . وهلعت العجوز لما سمعت فارتمت على قدمي مورها ضارعة حيناً بما لها من دالة ومنذرة حيناً بأنها ستتهي إلى أبيها ما اعتزمت عليه ، وكانت وهي في حديثها لها تلوّح بيدين مضطربتين بفعل سنّها وفزعها إلى أن استكانت إليها الفتاة ورفعت رأسها وإذا دموعها تساقط من عينيها على صدر مريبتها . وكم جهدت في أن تفصح غير أن شفيتها لم تنفرج إلاّ عن كلمات قالتها وهي تستر وجهها بشوها : « ما أسعد أُمى حين ظفرت بأبى زوجاً » ثم تنهّدت ، فإذا المربية يبرد الدم في عروقها ، وإذا شعر رأسها الأبيض ينتصب هوّلاً . لقد أدركت العجوز ما تخفيه الفتاة فأخذت تحذرها عاقبة فعلتها الشنعاء .

٤٢٠

وما كان عند الفتاة ما تنقض به رأى مريبتها ، لكن حبها كان عارماً لا يستجيب لنصح ، لذا ظلت عاقدة العزم على أن تنتحر إن لم تظفر بأبيها زوجاً . ورثت المربية للفتاة وأخذت تهوّن عليها ما هي فيه ،

ووعدها بأنها ستحقق لها الظفر بما تبغى كى تحلّصها من الموت ، ولكنها لم تعرض لذكر الأب ولم تعدها بالظفر به ، غير أن هذا كان وعداً منها للفتاة أشهدت عليه الآلهة .

وحلّ عيد الإلهة سيريس الذى تشارك فيه المتزوجات جميعاً ويرتدين لذلك ثياباً بيضاء ويحملن حزاماً من بواكير سنابل القمح يقدمنها للإلهة ويقضين ليالى تسعاً يُجائِبن فيها الرجال ولا يضاجعن أزواجهن . .
 وحين خرجت سنخرييس زوجة سينيراس تشارك الزوجات فى هذا العيد وخلا الملك إلى نفسه لا زوجة إلى جواره ، انتهزتها المربية فرصة واقتحمت عليه وحدته بعد أن أثقلت الخمر رأسه وحادثته عن فتاة هائمة به فى عُمر مورها فطلب الملك من المربية أن تأتى بها . وما أسرع ما خفت المربية إلى مورها تحمل إليها تلك البُشرى ، ولكن الفتاة ما كادت تستمع إليها حتى تولّاهما شعور مزيج بين فرحة الظفر ومرارة الخطيئة ، وظلت مضطربة بينها لا تدرى بأيهما تأخذ غير أن شعورها بالفرح كان غالباً . وحين خيم السكون على الكون وأخذت كوكبة العواء طريقها بين كوكبتى الدب الأكبر والدب الأصغر خبطت مورها إلى الإثم ، فإذا القمر اللألاء ينحدر إلى مغيبه ، وإذا النجوم تغشّوها سحب كثيفة سوداء ، وإذا الليل تخمد جذوة فحماته ، وكان أول نجم ولّى هو نجم إيكاروس ، وولّت فى إثره ابنته النجمة إريجونيه التى لم تبلغ منزلتها فى السماء إلّا لحبها الطاهر لأبيها . ولقد تعثرت مورها المسكينة فى طريقها مرات ثلاث ، وكانت البومة فى كل عثرة تعثرها تحذرها بنعيقها الكئيب ، غير أن مورها لم تلق لذلك بالاً ولم تستمع لوخز ضميرها ومضت تمسك بيسراها يد مربيتها وتلمس بيمنها طريقها وسط الظلام الدامس إلى أن بلغت مخدع سينيراس وجازت الباب إلى حيث يرقد بخطى ثقيلة وهى شاحبة الوجه قلقلة هلعة ، وإذا شعور بالندم يكاد يردّها عما أقدمت عليه ، ولقد همّت أن تفعل وهى لم تستبين أمرها بعد .

وأحسّت العجوز منها ذلك فاجتذبتها من يدها ، واقتادتها إلى مخدع الملك المهيّب وأسلمته الفتاة قائلة : « ها هى ذى لك يا سينيراس » ثم تركت الاثنين وحدهما . وضم الرجل إليه فلذة أحشائه على فراشه الدنس ، وأخذ يهدئ من روعها ويطمئنها واثراً أن يناديها « يا ابنتى » لعلّوسّه ، وإذا هى الأخرى تناديه « أبتاه » ، وهكذا اجتمع الاسمان على أمر محرّم .

وغادرت مورها مخدع أبيها وفى أحشائها نطفته ، واستقر فى رحمها الدنس حملٌ دنس هو الجنين الذى كان ثمرة الخطيئة . وفى الليلة التالية عاود الاثنان إثمهما ، وتشوّف سينيراس إلى أن يعرف عشيقته التى ضاجعها مرات عدة ، فأشعل مصباحاً وإذا هو يتبين فى ضوءه وجه ابنته ، وإذا هو تراءى له بشاعة جريمته ، وتولاه جنون فنهض إلى سيفه ينتزعه من غمده المعلق ، فتهوّل مورها هاربة فى جنح الظلام لتنجو من موت محقق ، تضرب فى أنحاء مملكة أبيها الفسيحة حتى خلّفت وراءها نخيل بلاد العرب وحقول بانشايّا .

ولقد شهدت مورها القمر يكتمل مرات تسعاً خلال رحلة ضربت فيها على غير هدى ، وأدركت بلاد سبّا بعد أن أصابها الإرهاق ولم تعد تقوى على احتمال ثقل حملها ، وأجست نفسها موزعة بين رهبة

الموت والنفور من الحياة . ولم تعرف ماذا تسأل الآلهة أن تحققه لها فأخذت تدعو : « أيتها الآلهة إذا كنتم تصغون لضراعة المذنبين فإنى أعترف أننى جديرة بهذا المصير ، وما أرضانى بما يلحقنى من عقاب صارم ، لكنى غير راغبة فى أن أدنس الأحياء ببقائى بينهم ولا الموتى بذهابى إليهم ، وإننى أتوسل إليكم أن تذهبوا بى بعيداً عن مملكتى الموتى والأحياء ، وأن تمشخونى كائناً آخر تمنع عليه الحياة والموت معاً » . ولم تذهب ضراعاتها عبثاً إذ كان ثمة إله يتولى المذنبين ، وإذا الأرض تتجمع حول ساقها وتنشق أطراف أصابع قدميها عن جذور رفيعة تنغرس فى الأرض ، وإذا هى ساق شجرة شاحخة ، وإذا عظامها تحشوشب وإن احتفظت بنخاعها ، وتحول دمه إلى عصارة نباتية ، وأصبحت ذراعها غصوناً ممتدة وأصابع يديها فروعاً صغيرة ، وجفت جلدها وغدا لحاء طوى رحم الفتاة بما فيه كما لف صدرها ، وحين أوشك أن يبلغ عنقها سارعت مورها فغمست وجهها فى طيات اللحاء ، ولم يبق لها من آدميتها غير دمعات مرّة ظلت تذرفها وظلت حديث الناس بعد ، وحملت اسم المر .

٥٠٠ وبلغ الجنين مبلغه وهو مكنون فى جوف الشجرة ، وكم حاول أن ينفذ إلى الحياة ، وكم عانت مورها من آلام حين ضاق بها جذع الشجرة ولكنها لم تملك أن تفصح عما تحس ، كما لم تملك أن تفرع إلى الإلهة لوكينا لتأخذ بيدها فى وضعها . وأحست الإلهة لوكينا بشجرة تتلوى وتنبعث عنها زفرات متصلة وتندى بفيض تلك الدموع المنهمة ، فخفت تعين الشجرة فى محنتها ومسحت بيدها عليها وهى تتمتم بتعويدة الوضع ، فانشق الجذع وخرجت من خلل اللحاء ثمرة تنبض بالحياة وتصرخ صراخ وليد قد أهلك ، وأسرعت الحوريات يتلقين الطفل ووضعه فوق العشب الغض بعد أن غسلنه بدموع أمه . ولقد كان الوليد فى جمال كيوييد الذى يبدو عارياً فى لوحات المصورين ، ليس ثمة من فارق بينهما غير جعبة السهام التى يحملها كيوييد حتى أن ربة الحسد نفسها انصاعت لإطرائه .

أدونيس وقينوس . أنالانثا وهيو مينيس

٥٢٠ ومرت الأيام فى تعاقبها وما بالى بها احد فما أسرع ما تمضى السنين ، وما لبث أن كبر الطفل الجميل الذى يقال إن أخته أنجبته من جدّه ، والذى كان خبيثاً فى جذع الشجرة إلى عهد قريب . وما هو ذا يصبح شاباً ، ثم ها هو ذا قد صار رجلاً يفتن بجماله فينوس وينتقم منها لما أشعلته فى أمه من شبق . فلقد تصادف أن اقترب كيوييد وهو يحمل جعبة سهام الحب من أمه فينوس ليقبلها فإذا هو يخدش عن غير قصد أعلى صدرها بطرف سهم كان يطل من جعبته ، فدفعت فينوس بابنها بعيداً حين أحست ألم الجرح الذى لم تدرك لأول وهلة مدى عمقه . غير أن افتتانها بجمال الشاب [أدونيس] أنساها رعاية شيطان جزيرة كيثرا^(٢٨) ، كما لم تعد تتردد كثيراً على جزيرة پافوس ، تلك الجزيرة التى كانت قد أحاطتها بنطاق من المياه العميقة ، ولا شبه جزيرة كينيدوس^(٢٩) الغنية بالأسماك ولا على أماثوس الجبل بالمعادن ، كما لم تعد تظهر فى السماء إذ فضلت صُحبة أدونيس على السماء .

وأصبحت فينوس رفيقة أدونيس تصحبه أنى ذهب ، وهجرت ما تعودته من الاسترخاء في ظلال الأشجار والعناية بجملها وزينتها ، وانطلقت تجول في الغابات والجبال مشمرة ثيابها إلى ركبتها على غرار ديانا إلهة الصيد . وأخذت فينوس تستحث كلاب الصيد وتطارد الحيوانات السهلة القنص كالأرانب البرية السريعة العدو والغزلان والوعول الشاخة القرون ، لكنها تجنبت الخنازير البرية الوحشية ، ولم تخاطر بالتعرض للذئب المتلصص والدببة الحادة المخالب والأسود التي تحيا على دماء البهائم ، وحرصت على نصيح أدونيس باتباع نهجها محذرة إياه من الوحوش ، مؤملة في أن يصغى إلى نصيحها ، وقالت له : « كن جسوراً حين تلقى الفريسة التي تفر منك ، ولا تأمن الحيوانات التي تتصدى لك . ولا تكن طائشاً حتى لا أغدو تعسة بعدك يا فتى الحبيب . لا تعرض للكواسر التي زودتها الطبيعة بأسلحة تتجاوز قدرتك حتى لا أدفع أنا غالياً ثمن ما تتشوف إليه من مجد ، فليس لشبابك وجمالك وسحرك الذى يفتن فينوس أثر على الأسود والخنازير البرية المشعثة الشعر ، فهذه لا تُذعر الوحوش ولا ترهبها ، ثم إن الخنزير البري كالبرق في انقضاضه بمخالبه ، كما أن الأسد إذا أثير يتوثب دوماً للهجوم . لشد ما أمقت كل هذه الفصائل من الحيوانات . »

وتساءل الفتى عن سر كراهيتها لهذه الحيوانات فأجابته قائلة : سأقص عليك ما يثير دهشتك إذا ما استمعت إلى قصة تلك الجريمة التي حدثت منذ أمد بعيد . ها هي نى شجرة حور يدعونا ظلها الوارف أن نتفاه فلاضطجع تحتها إلى جانبك ، فإن ما أبدله من جهد لم أعتد القيام به قد أصابني بالإرهاق . وتمددا على العشب ووضعت هي رأسها على صدر أدونيس وأخذت تقص قصتها وهي تبادل القبلات :

« لعلك سمعت بنأ الفتاة التي كانت تنافس الرجال في العدو وتبز أكثرهم مهارة . وليست هذه بقصة خرافية فقد كانت أتانانتا^(٣٠) تسبق الرجال جميعاً ، ولم يكن من السهل معرفة سر الإعجاب بها ، أكان لحفة قدميها في العدو أم لسحر جمالها الفريد . وقد استشارت يوماً أبوللو في أمر زواجها ، فقال لها : « لست يا أتانانتا بحاجة إلى زوج ومع ذلك فلن تفلتي من الزواج ، ولسوف تتحولين إلى كائن آخر دون أن يدركك الموت » . وتولاها خوف من هذه النبوءة فلجأت إلى الغابات تحيا في ظلالها بعيدة عن إلحاح الخاطبين الذين فرضت عليهم شروطاً قاسية قائلة لهم : « لن أتزوج إلا بمن يسبقني في العدو ، فلتبارو وسوف يظفر يدي وبفراش عُرسي من يتقدمني ، على أن يدفع المهزومون حياتهم ثمناً للمغامرة . تلك هي شرعة السباق » .

ولم يحجم الخاطبون على الرغم من قسوة شروطها عن هذا السباق ، فقد كان سلطان جمال أتانانتا طاعياً يجتذب الكثيرين ، وجلس هيوميونيس وسط المشاهدين يرقب هذا السباق غير المتكافئ وينحى باللائمة على هؤلاء الشبان الذين استسلموا لعواطفهم متسائلاً في سخرية : « كيف يرضى رجل أن يعرض حياته لمثل هذا الخطر من أجل الظفر بزوجة » ! غير أنه ما كادت تقع عيناه على وجه أتانانتا وجسدها بعد أن أزاحت عنه غلائله [ورأى قوامها مثل قوامي أنا فينوس أو مثل قوامك أنت يا أدونيس لو غدوت امرأة] حتى ذهل وصاح رافعاً ذراعيه : « فليغفر لي أولئك الذين أنحيت عليهم باللائمة منذ حين ، إذ لم أكن

أعرف قدر الجائزة التي من أجلها يتبارون . واتصل اطراؤه للفتنة حتى تحوّل إلى افتتان بها ، وتمنى ألا يسبق أتا لاتنا أحد من الشبان فقد أثارت فيه الغيرة خوفاً من أن يفوز بها غيره ، وقال لنفسه « لم لا أجرب أنا الآخر حظي في السباق ؟ فإن الآلهة تناصر الجسور غير الهياك . وانطلقت الفتاة بخطوات مجنحة تطوى المسافات أمام الشاب البويوق كأقصى سهم من سهام سكوثيا فزاد إعجابه بها . ولقد زادها السباق فتنة إذ تطايرت في الريح أربطة حذاءها خلف قدميها ، وتموّج شعرها فوق كتفيها العاجيين ، وخفقت الشرائط المطرزة التي تزيّن ساقها ، واكتسى بياض بشرتها العذرى بحمرة قانية كبياض جدران الممرر المغطاة بغلالات قرمزية في فناء دار رومانية . وانتهى الشوط الأخير وظفرت أتا لاتنا بقصب السبق ، وأرسل المهزومون الزفرات والعقاب ينزل بهم . وعلى الرغم من أن هيوميونيس شهد مصرع المتسابقين القاسي فإنه تقدّم إلى الأمام وتوسط الجمع وحلق في الفتاة قائلاً : « لماذا تسعين وراء الفوز وأنت تستطيعين بلوغه في يسر ، ولماذا تحاولين التغلب على منافسين ثقيلي الخطى وهم على غير دُرّة كاملة ؟ فلتتبار معاً فإن كتب لي الحظ النصر فلن تحسّى بالخجل من هزيمتك أمام رجل في مثل منزلتي ، فأنا ابن أونخيسيوس من ميجارا سليل نبتون وآخر أحفاد ملك البحار ، وليس إقدامي أقلّ شأنًا من تحدي ، أما إذا كان الظفر من نصيبك أنت على هيوميونيس فسوف تكسين مجدداً وتعمّ شهرتك الآفاق . . » والتفتت إليه ابنة إسخوينيوس في حنان ، ولم تعد تدري أتمنى فوزها أم هزيمتها أمامه ، وحدثت نفسها قائلة : « وهل من إله يشكر لصاحب هذا الوجه الجميل فيغريه بطلب يدي حتى ولو كان في ذلك حتفه ؟ ما إخالني أهلاً لهذا ، وإنني لأحس برعشة تخالج قلبي من أجله ليس مبعثها جماله رغم ما له من سحر يهز القلب بل لأنه ما يزال فتياً فشبابه الغض لا جماله هو الذي يثير شفقتي ، ثم إنه شجاع لا يهرب الموت ، كما أنه من أفراد الجيل الرابع من سلالة حاكم البحار ، وإلى هذا كله فهو يحبني ولا يبخل عليّ بشمن ليظفر بالزواج متى ولو كان ذلك الثمن عمره إذا لم يسعفه القدر بالفوز . ألا فلتبتعد أيها الغريب قبل فوات الأوان ، ولتأ عن سرير زفاني الملطّخ بالدم فما أقساها من شروط تلك التي فرضتها لزواجي . ولسوف تجد غيري من الفتيات راغبات فيك وأنت جدير بإعجابهن . ولكن مالي أقلق عليك دون غيرك ممن سبقوك إلى الموت والخطب عينيك ولا يعنيني ، ولتلق جزاءك إذا لم يكن لك فيمن سبقوك عظة ، وقد يكون موتك من أجل رغبتك في الحياة معي ، ولكن هل يكون هذا جزاء حبك لي ؟ ولسوف يثير موتك بغض الآخرين لي ، ولكن ما جريرو ؟ هلاً عدلت عن السباق للظفر بي ، فما أشدّ نزقك ، فكم هي جميلة قسمااتك النظرة التي تشبه قسماات الغيد الحسان ، ليتك لم ترفي يا هيوميونيس المسكين فما أحقّك بأن تحيا ، ولو أني كنت من المحظوظات ولم يقف القدر حجر عثرة في سبيل زواجي لكنت أنت الرجل الوحيد الذي أسعد به شريكاً لحياقي . ولم تدر أتا لاتنا الغيرة التي لا تجربة لها ما حدث لها بعد أن مسّتها سهام إله الحب للمرة الأولى ، فلقد وقعت دون أن تدري في شرك الغرام .

واحتشد الشعب والقادة مطالبين ببدء السباق المعتاد ، فقصدني هيوميونيس سليل نبتون يطلب العون وهو يقول : « إنني أضرع إليك يا ربّة كيثيرا أن تعينيني في مغامرتي الجسورة ، وأن تؤجّجني في قلبي نيران

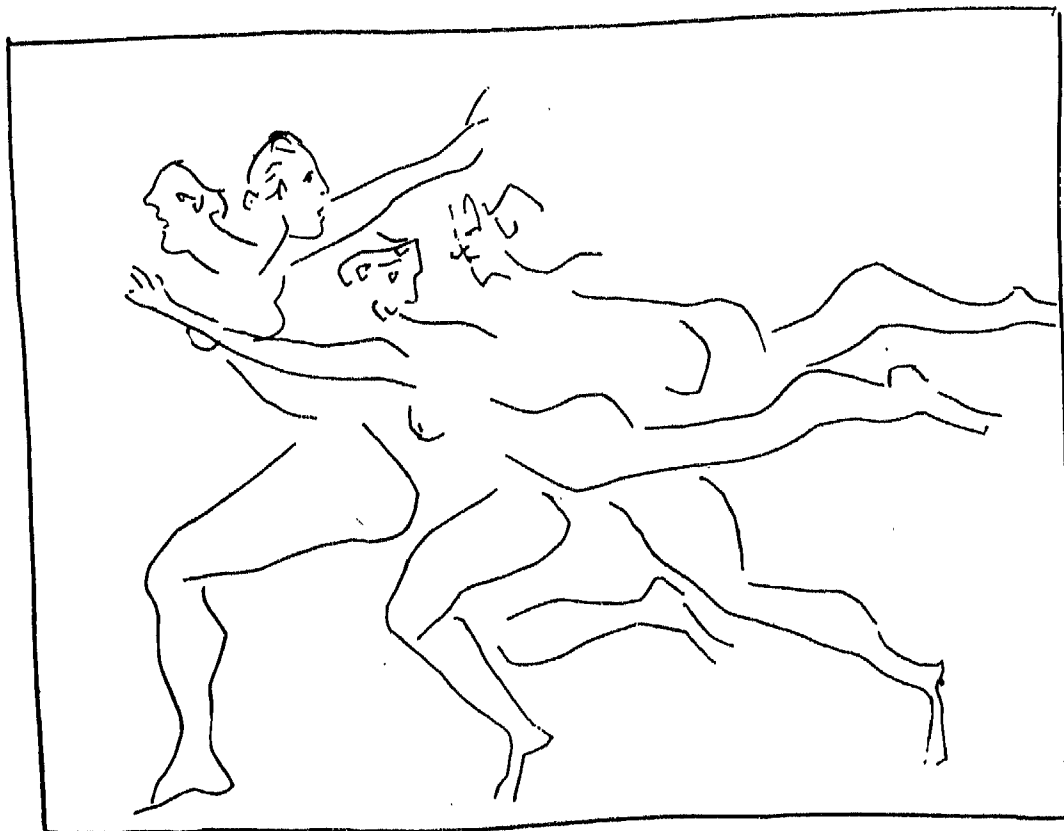
الحب التي أشعلتها أنت فيه . وحملت الأنسام الرقيقة ابتهاالاته إلى ومست قلبى فلم أتردد فى مدّ يد العون إليه ، وكنت ساعتها آتية من أجل بقاع جزيرة قبرص ، من حقل تاماسوس الذى أهداه لى شيوخ الجزيرة لينضم لمعبدى ، وإن فى وسطه لشجرة ذهبية لفروعها رنين المعادن . وكنت أحمل فى يدى ثلاث تفاحات ذهبية من تفاح هذه الشجرة ، فأسرعت إلى هيوميونيس مختفية عن الجميع إلاّ عنه وحده وأعطيته التفاحات الثلاث ، وهمست إليه بأمر طلبت منه تنفيذه .

وأذن البوق ببدء السباق ، وانطلق المتسابقان من نقطة البداية وطارا مسرعين لا تكاد تمس أقدامهما سطح الرمال ، فبدّوا وكأنهما يستطيعان الجرى فوق سطح الماء دون أن تبتل أقدامهما ، أو فوق أعواد القمح المنتصبة دون أن تنثى ، وامتلا الفتى جرأة وسط صرخات النظارة الذين كانت قلوبهم معه فانبروا يشدون من أزره ويصيحون به : « فلتسرع يا هيوميونيس ولتبذل أقصى جهدك ولأنت الفائز » . ولعل ابنة ٦٦٠ إسخوينوس كانت أكثر سعادة بهذه الصيحات من ابن ميجارا البطل . وكمن مرة تباطأت أنا لانتا عنه وهى قادرة على سبقه ، تطيل النظر إليه قبل أن تخلفه وراءها على مضض .

وأخذت شفتا هيوميونيس تجفان من الإرهاق وأنفاسه تتلاحق والهدف لا يزال بعيداً ، فدفع بإحدى التفاحات الذهبية الثلاث فأخذت الفتاة ببريقها وتوقفت ذهلة ، ثم انحرقت عن مسار السباق لتلتقط تلك التفاحة الذهبية اللامعة مشغوفة بها . فانفسح المجال أمام هيوميونيس لكى يتقدّم الفتاة فدرت أكفّ النظارة بالتصفيق ، واضطربت أنا لانتا لمضاعفة جهدها لتعوض ما ضاع ، وقد نجحت فى أن تسبق الفتى وتخلفه وراءها . ومرة ثانية نجح هيوميونيس بصرفها عن الطريق بإلقاء التفاحة الثانية ، غير أنها نجحت هى الأخرى فى اللحاق به ثم سبقته بعد الظفر بالتفاحة الثانية . وبقي الشوط الأخير ، وأخذ الشاب يتضرع صائحاً : « أيتها الإلهة ، يا من وهبتي هذه الهدية ، كوني الآن فى عونى » ، ثم استجمع قواه وألقى بالتفاحة الذهبية الثالثة إلى طرف حلبة السباق لتبذل الفتاة وقتاً طويلاً فى الظفر بها قبل أن تعود إلى مسار السباق ، واضطربت الفتاة وحاتت فى أمر هذه التفاحة ، أتجرى وراءها أو تركها ؟ غير أن فينوس دفعته وراءها . وحين التقت الفتاة التفاحة زادت الإلهة من ثقلها كى تعوق خطواتها ، وهكذا حاقت الهزيمة بأنا لانتا فتزوجها هيوميونيس بعد أن كُتب له النصر عليها . ٦٨٠

غير أن الشاب النزق أنسى ما فعلته له الإلهة فينوس ولم يتجه إليها شاكراً ولم يحرق لها البخور ، فإذا هى عليه غاضبة لتفريطه وأقسمت لتجعلن منه عظة للآخرين حتى لا يسلكوا مسلكه ، ولتنزلن بهما العقاب معاً .

وبينما هيوميونيس وأنا لانتا يمران إلى جوار المعبد المتوارى فى أعماق الغابة والذى كان إخيون^(٣١) الشهير قد نذر إقامته لأم الإلهة ، كان الجهد قد بلغ منها بعد أن قطعاً مسافة طويلة على الأقدام ، فأحسا رغبة فى أن يأويا إليه فيستريحاً قليلاً فإذا فينوس تحركت فى هيوميونيس الرغبة لمضاجعة زوجته ، وإذا هو ينزوى بها فى محراب معتم مسقوف من الأحجار الطبيعية وحجر الحفاف له قدسيته منذ عهد بعيد ويجمع



بيكاسو: سباق أثالانتا وهيومينيس

كثيراً من تماثيل الآلهة الخشبية . واستسلم هيومينيس لرغبته ، وإذا هو قد دنس المحراب ، وإذا التباثيل تزور عنه بوجهها . وكادت أم الآلهة كوبيلى ذات التاج المتعدّد الطوايق أن تغرق الأثمين في مياه ستيكس ولكنها رآته جزاء دون ما يستحقان ، ورأت أن تغشى رقبتيهما بشعر أسود وأن تبدلها عن أصابعها مخالب ، وأن تحيلهما حيوانين يعتمدان على صدريهما ، ومدّت لهما ذيلين ينسحبان على وجه الرمال ، ورسمت وجهيهما بالعبوس والقطوب ، وجعلت حديثهما عواء ، وأسكتتهما الغابات التي أصبحت مأواهما الوحيد إذ قد أصبحا أسدين يثيران الرعب في قلوب الناس . غير أن كوبيلى ما لبثت أن روضتهما فشددتهما إلى مركبتها فباتا يقضمان شكيمتيهما . فحذار يا حبيبي العزيز أدونيس أن تقرب منها ، بل عليك أن تفرّ منها كما تفرّ من جميع فصائل الحيوانات المتوحشة التي لا تولى هاربة بل تهاجم من يعترض طريقها ، وحذار أن تكون شجاعتك سبباً في هلاكنا نحن الاثنين .

وحلّقت فينوس في الأجواء منطلقة بمركبتها التي يقودها البجع بعد أن حذرت أدونيس ، غير أن الشجاعة لا تجدى معها التحذيرات ، فلقد لمح خنزيراً برياً كانت كلاب الصيد قد اقتفت أثره وأثارته من جُحره وكاد أن يخرج من الغابة ، فأنفذ في جنبه رمحه بطعنة قاتلة ، وأسرع الحيوان فنزع الرمح الدامي بخطمه المتدلّي ، فدبّ الذعر في قلب أدونيس وأخذ يبحث عن مأوى ، غير أن الخنزير الوحشي تعقبه وعض فخذة قريباً من خصيته بنابه فتلوى فوق الأرض محتضراً على الرمال وحيداً .

وبلغت أنات أدونيس أسباع فينوس التي لم تكن مركبتها الخفيفة بيجعاتها المجنحة قد بلغت بها قبرص فأدارت طيورها البيضاء وانجهمت إليه ، ولمحته عن بعد يتمرغ في دمائه فاقد الوعي . وقفزت من مركبتها إليه وشقت ثوبها عند صدرها وشدت شعر رأسها ، وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تخلقا لمثل هذا الفعل العنيف وانبرت تلوم الأقدار وصاحت فيها قائلة : « لا ، لن يخضع لكن كل شيء . وسوف يبقى أدونيس ذكرى حزن خالد إلى الأبد . وسوف يمثل كل عام مشهد موتك يذكر بما كان فيه من نواحي^(٣٢) عليك . ولتنبثق زهرة من دمالك . لقد استطعت يا بيرسيفوني أن تحوّل امرأة إلى شجرة نعناع عطرة ، فهل ألام إن أنا أسبغت على حفيد سينيراس البطل العظيم صورة جديدة ؟ » .

وصبت فينوس على دم أدونيس بعد هذه المناجاة نكتارا عطراً لم يكد يمسه حتى غلى الدم وتضاعدت منه فقاعات صافية كالفقاعات الشفافة فوق المياه المصفرة في الأماكن الموحلة . ولم تكد تمضي ساعة من زمان حتى انبثقت من بين الدماء زهرة في لون الدم شبيهة بزهرة الرمان التي تخفى بذورها تحت لحائها ، غير أن المتعة التي تهبها هذه الزهرة قصيرة العمر لأنها زهرة رقيقة واهنة الساق تعصف بها الريح التي خلعت عليها اسمها ، وهي زهرة شقائق النعمان^(٣٣) .

التعقيبات

- (١) كان الزعفران هو لون الطرحة التي تتلفح بها العروس عند الرومان والمسماة «فلاميوم» ..
- (٢) اسم شعب طراقي يقطن شواطئ نهر الهيبروس .
- (٣) بوابه تيناريوس هي إحدى بوابات العالم السفلى ومكانها برزخ تيناريوس المسمى الآن برزخ ماتابان بالمورة .
- (٤) هو الكلب كيريروس .
- (٥) تانتالوس بن چوبيتر من إحدى الحوريات هو أحد ملوك ليديا ، صوّره الشعراء من قديم الزمن بأنه قد عوقب على سرقة كلبا كان يحبه چوبيتر حباً شديداً ، وقيل إنه عوقب على سرقة للنكتار والأمبروزيا من على مائدة الآلهة ، وقال البعض الآخر إنه عوقب لقتله ابنه پيلوس وطهى جثته طعاماً للآلهة . وثمة رواية أخرى بأنه عوقب لأنه كان يعاشر جانيميديس غلام چوبيتر المحبب معاشرة شاذة . وكان عقابه بالعالم السفلى أن يظماً ظمأً شديداً وهو واقف في بركة ماء يرتفع ماؤها حتى ذقنه فإذا ما قرب من فمه انحسر الماء ، كما علقت فوقه غصون مثقلة بالثمار التي تبعتها الريح كلما حاول قطفها .
- (٦) كان سيزيفوس شقيقاً لأثاماس وسالمونيوس وابناً لأيلولوس والحورية إيناريتا واشتهر بأنه أنحبث أمراء عصره . تزوج من ميريى بنت أطلس وأسس مدينة إيفيرى التي سميت كورنثوس فيما بعد . وقد عاقبه الآلهة بعد موته بسبب اعتداءاته المتلاحقة على حقول البلاد المجاورة وكثرة أسلابه وغنائمه . وقال البعض إن چوبيتر هو الذى عاقبه ، لأنه عندما مرض مرض الموت توصل إلى زوجته ألا تدفن جثته بعد موته فلما ذهب إلى العالم السفلى سمح له الإله پلوتو أن يعود إلى الأرض لكي يعاقب زوجته على تهاونها في تأدية الطقوس الجنائزية مع الوعد بأن يعود على الفور ، وكان سيزيفوس يظن أنه بهذه الحيلة سيعود إلى الحياة من جديد . فأرسل پلوتو الإله مارس بعد اكتشاف حيلته لإعادته إلى العالم السفلى رغم أنفه ، وكان عقابه أن يدفع صخرة كبيرة إلى أعلى الجبل ما تلبث أن تتدحرج إلى الوادى فيعود إلى دفعها من جديد بلا توقف . وقد اتخذ ألبير كامو الكاتب الفرنسى الوجودى أسطورة سيزيفوس عنواناً لكتاب فلسفى عن عبث الحياة ولا معقوليتها .
- (٧) دخل أورفيوس العالم السفلى عن طريق بوابة تيناريوس وهى كهوف في جنوب المورة ، إلا أنه صعد إلى الأرض من جديد عند بحيرة أفيرنوس بجوار كومای في إقليم كامپانيا بإيطاليا .
- (٨) إشارة إلى أسطورة مجهولة الأصل ، وقيل إنها قصة إنسان اعترض طريق هرقل خلال عودته من العالم السفلى حاملاً الكلب كيريروس .
- (٩) لا يعرف شيء عن أولينوس إلا أنه مؤسس إحدى مدن آخايا التي تحمل اسمه ، أما أولينوس المشار إليه هنا مع زوجته التلسة فغير معروف . وأغلب الظن أنها إحدى الأساطير المعروفة في عهد أوغيد عن تحول الناس إلى أحجار وصخور .

(١٠) يتغنى أورفيوس بعد ذلك مباشرة بحب الآلهة للغلمان جانيميديس وهياكينثوس وكيبايريسوس .
(١١) خاؤونيا لإقليم في إبيروس على شواطئ بحر أيونيا .

(١٢) سجل أوفيد هذه الأسطورة في الكتاب الرابع من « التقويم » ، وهى أن كويل قد أحبت الشاب الفريجي آتيس فخرجت بذلك عن تعاليم الربة العذراء التى ترعاها والتي انتقمتم من الشاب بأن أصابته بالجنون ودفعته إلى أن يخصى ذاته ، ثم عفت عنه الإلهة وأصبح المرافق الرسمى لكويل . وقد اقترنت عبادته في روما بعبادتها منذ عام ٢٠٤ ق.م . وكانت شجرة الصنوبر هى شجرته المقدسة وتلعب دوراً هاماً في طقوس عبادته ، ويذكر أوفيد هنا تحوله إلى شجرة صنوبر وإن لم تكن هذه القصة ذات أساس معروف .

(١٣) كارثيا مدينة في جنوب جزيرة كوس .

(١٤) كان شجر السرو ومايزال متصلاً بالطقوس الجنائزية ، وكان هذا الشجر يزرع حول محارق الجثث .

(١٥) كانت سهول فليجرا هى الميدان الذى كتب النصر فيه لجوبيتر على العالقة . ويقول البعض إنها في خلقدونييه بآسيا الصغرى في حين يعتقد البعض الآخر أنها قرية من مدينة كوماى في جنوب إيطاليا ، وتسمى المنطقة غربى نابلى حتى اليوم بالسهول الفليجيرية .

(١٦) تنسب بنوة جانيميديس عادة إلى تروس ، ومن ثم فهو شقيق إيلوس لا ابنه كما جاء في نص أوفيد .

(١٧) كان يحتفل بأعياد هياكينثوس في شهر مايو بمدينة أميكلاى في لاكونيا على مقربة من أسبرطة .

(١٨) المقصود هنا أماثوس ، وهى مدينة في جنوب شرقى قبرص اشتهرت بمعبد الإلهة فينوس ربة الجزيرة .

(١٩) الهرويتيديس هن بعض نساء قبرص عن تمرّدن على الإلهة فينوس ففضت الإلهة بأن توفد بناتهن إلى الشواطئ لاحتراق الدعارة مع الغرباء . وقيل لإنهن قد مسخن أحجاراً لاستهانهن بكل شعور بالفضيلة .

(٢٠) الكيراستيس كلمة ترجع إلى الأسطورة القائلة بأن أول شعب سكن قبرص كان ذكوره ذوى قرون . ومرّد ذلك إلى أن كلمة كيراستيس معناها ذو القرون . وقد لقت الجزيرة بهذا اللقب بسبب كثرة تنوّاتها وألسنتها في البحر .

(٢١) أوفوسا وتعنى جزيرة الأفامى ، وهو لقب أطلق على جزر عدة في البحر المتوسط مثل رودس وتينوس . وأوفيد هو الشاعر الوحيد الذى أطلق هذا اللقب على جزيرة قبرص إذ هو ليس من أسائها الأصلية .

(٢٢) انفرد أوفيد بين الشعراء بقص هذه الأسطورة التى تتجاهل تماماً وجود كاهنات عاهرات في معابد فينوس .

(٢٣) هيميتوس جبل باليونان مشهور بعسله حتى اليوم .

(٢٤) پافوس اسم لمدينة تقع في الجنوب الغربى لجزيرة قبرص ، وقد عرفت به الجزيرة بأسرها أحياناً .

(٢٥) اسم لجزيرة خرافية بالبحر الأحمر ، تصور أوفيد أنها اليمن أو طرف شبه الجزيرة العربية التى اشتهرت بالتوابل والأعشاب العطرية .

(٢٦) هن ربات الانتقام « فورىاي » ، ألكتو وميجيرا وتيسيفون .

(٢٧) عُرف عن الفرس إباحة زواج الأبناء بأمهاتهم ، وعن مصر القديمة إباحة زواج الأخ بأخته وخاصة بين الفراغة ، وعن أثينا القديمة إباحة زواج الأخ والأخت غير الشقيقين .

(٢٨) جزيرة على شواطئ المورة مكرّسة للإلهة فينوس .

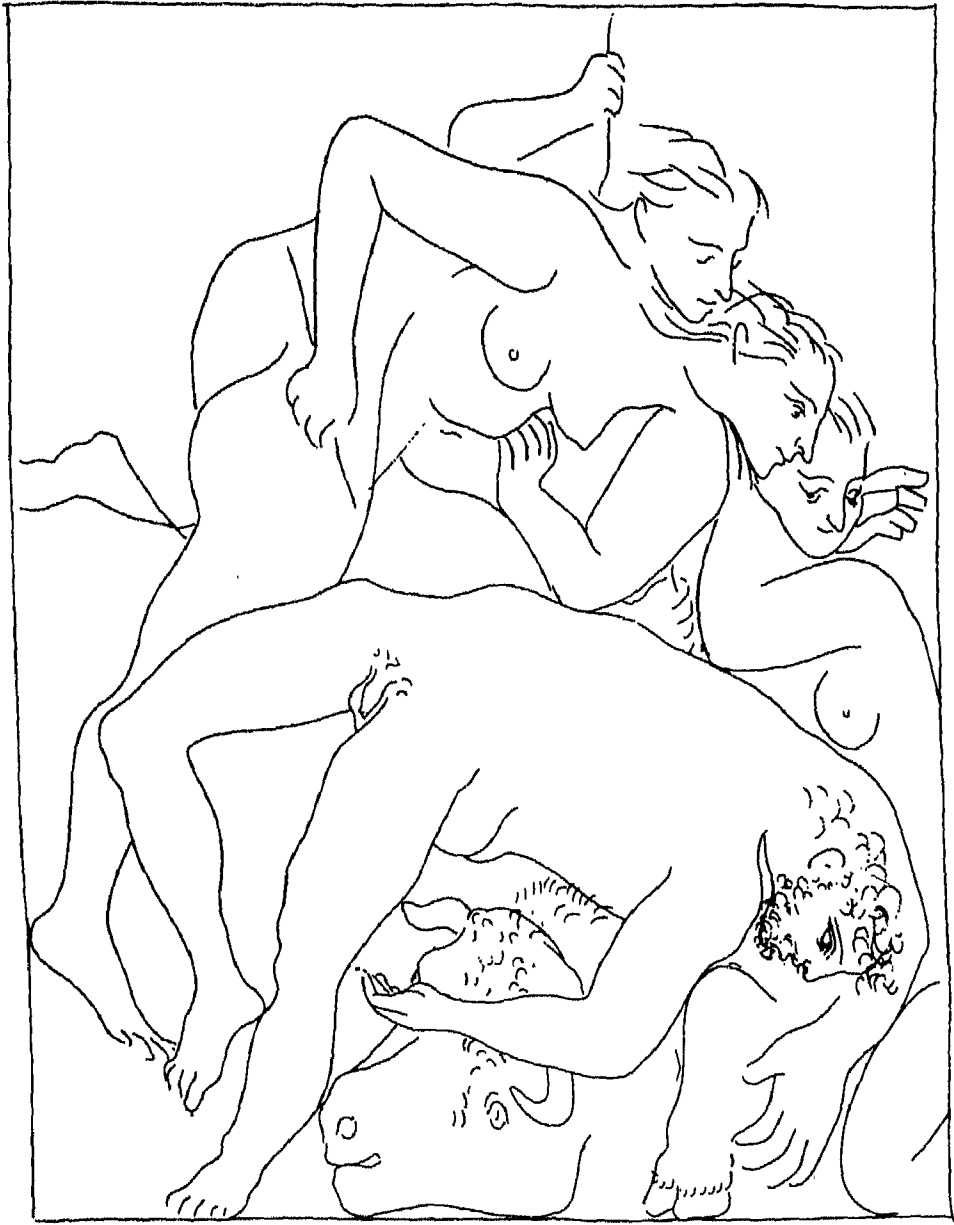
(٢٩) اسم مدينة في جنوب مقاطعة كاريا على طرف شبه الجزيرة التى تحمل اسم كنيديوس في آسيا الصغرى ، وكانت فينوس ربتها .

(٣٠) يشير إلى أثالانتا بنت إسخوينيوس ، وكان بعض كتاب الأساطير يخلطون بينها وبين بنت ياسوس التى تحمل الاسم نفسه وبطلة اقتناص الخنزير البرى في كاليدون [انظر الكتاب الثامن] . أما إسخوينيوس فكان من أصل بويوى وهاجر إلى أركاديا . والقصتان تدور أحداثهما في أركاديا ، وقد يكون هذا مصدر اللبس .

(٣١) كان إخيون أحد العمالقة الذين ولدوا من أسنان التنين التى نثرها كادموس على الأرض [انظر الكتاب الثالث] ، وقد ساعد إخيون كادموس في تشييد طيبة باليونان وتزوج بابته أجليه فانجبا پنيثوس .

(٣٢) كان يحتفل صيف كل عام بذكرى موت أدونيس ، وشاعت هذه الشعائر في بيلوس بفينيقيا إلى أن انتشرت في أنحاء العالم الإغريقي . فكانت النساء يلتفتن حول تمثال ممدّد لأدونيس على محفة الموت ينحن ويكيّن معبرات عن حزنهن ، وقد وصف ثيوكرطوس واحدة من هذه الحفلات بالإسكندرية في إحدى قصائده الرعوية . وكان البحث إلى موت أدونيس ، هذا البحث الذى أمر به جوبيتر بناء على التماس فينوس . وكان يحتفل بذكرى بعثه مثلما كان يحتفل بذكرى موته . ويقال إن أدونيس كان يقضى بعض شهور كل عام في العالم السفلى بجوار بروسيرينا [پرسيفون] التى عشقته ، ثم يخرج إلى فينوس ليقضى معها بقية العام . وتعتبر هذه الحرافة عن أطوار الخصوبة في الكون وتعاقب الفصول والمواسم .

(٣٣) تسمى هذه الزهرة باليونانية « الأنيمونى » وهى مشتقة من كلمة أنيموس التى تعنى الريح .



پیکاسو : موت أورفيوس

الكتاب الحادي عشر موت أورفيوس

وتغنى الشاعر الطراقي بأغان تَسَحَّرُ الصخور والغابات وترويض الحيوانات الأبدية ، وأطلت عليه نساء كيكونيا^(١) المجدوبات من فوق قمة تلّ وهو ينشد على أنغام قيثارته ، وصاحت إحداهن وشعرها

يتطاير في الهواء : « ها هوذا من يستخفّ بنا » وسدّدت حربتها^(٢) إلى فم الشاعر الذى يهيم به أبوللو ، غير أن الحربة لم تصبه بأذى لما علق بطرفها من أوراق الأشجار . وألقت أخرى عليه حجراً كبيراً فسقط عند قدميه مأخوذاً بجبال غنائه وشدو قيثارته دون أن ينال منه وكان لسان حاله يعتذر عن حق من قذف به ، وتوالت قذائف النسوة وقد تولّتهن ثورة الغضب المحموم . ولقد كان من الممكن أن يطيش ما قذف به بسحر أغنيات أورفيوس ، ولكن صياحهن الصاخب وأنغام الناي الفريجي والبوق المقوّس والرّق ولطم الصدور قد غطّى ذلك كله على صوت أورفيوس وقيثارته ، وسرعان ما نزع دم الشاعر الأعزل وأخذ يصبغ الحجارة بلونه القرمزى . ٢٠

وأصاب قذائف النساء الطيور العديدة والأفاعى التى كانت تدور بالشاعر مبهورة بصوته ، كما أصابت الحيوانات الأخرى التى خفّت لتستمتع لغنائه . وتدافعت النساء نحو الشاعر وكأنهن طيور النهار حينما يلمحن طير الليل يملّح بينهن ، أو كمجموعة من الكلاب تطارد غزالاً ، يلقي بعضهن بالحجارة وبعضهن بأغصان الأشجار التى انتزعنها . وأثار تجمعهن الخوف فى نفوس الفلاحين الذين كانوا يسوقون ثيرانهم ليحرثوا أرضهم ويفلحونها بفؤوسهم ومعاولهم ومدّاتهم^(٣) . وأسرع النسوة نحو الفتوس فمزقن بها الثيران التى تهددهم بقرونها ، ثم اتّجهن نحو الشاعر فتوسل أورفيوس إليهن أن يتركه لكنه فشل فى استدرا عطفهن ، وسدّدن إليه ضربة قاضية فخرجت روحه من بين شفّتيه اللتين اجتذبتا بغنائهما الحيوان والشجر والحجر ومضت روحه تحملها الرياح . ٤٠

انسابت دموع الحزن من مآقى الطيور والوحوش والصخور والغابات الكثيفة التى كانت تتبعه حيث يغنى ، وتساقطت أوراق الأشجار التى أخذت تبكى الشاعر وغدت الفروع عارية ، بل لقد قيل إن الأنهار بدورها ذرفت الدموع وفاضت بها ، كما مزّقت الحوريات شعورهن وارتردين ثياب الحداد السوداء .

وتناثرت أعضاء الشاعر فى أماكن مختلفة ، غير أن نهر هبروس احتضن رأسه وقيثارته اللذين طفيا على الماء . عَجَبًا ! لقد بقيت القيثارة تُصدر أحياناً شجية ، ولسان الشاعر ما يزال يتمتم بالخناء والنهر يردّد صدى أنغامهما . وما لبث الرأس والقيثارة أن اندفعا إلى البحر الفسيح حتى بلغا شاطئ جزيرة ليسبوس قرب ميثيما . فاقتربت أفعى رهيبة من الرأس الغربى المطروح على الشاطئ والمغطى بشعر خالطه زبد الموج الأبيض ، وأوشكت الأفعى أن تلتهمه لولا أن ظهر أبوللو وحوّله إلى صخرة جامدة ما تزال تحتفظ بفم الأفعى المفتوح . ومضى طيف أورفيوس إلى العالم السفلى ، فتعرّف على الأماكن التى سبق له رؤيتها ، وظل يبحث عن زوجته يورديكى حتى وجدها فعانقها فى شوق الملهوف . وأخذا يتجولا معاً ، يسبقها مرة ويتبعها أخرى ، ويطلق إليها النظر بين الفينة والفينة دون أن يخشى شيئاً . ٦٠

وحزن باكخوس أعمق الحزن على الشاعر العذب الألحان ، ولم يشأ أن تمرّ جريمة قتله دون عقاب ، فثبّت نساء طراقيا فى الأرض إذ غرس سيقانهم فى أعماق الثرى بعد أن أحالها جذوراً صلبة ، فأصبحن كالطير شدّت قوائمه فى الشراك فأخذ يضرب بأجنحته للخلاص من القيد فإذا هو يزيد لإحكامه كلما زادت



پیکاسو: موت اورفیوس [رسم اضافی]

٨٠ حركته . وقد انتاب النساء الذعر وأصابهن الجنون وهن يحاولن الخلاص دون جدوى ، وكان ثبات أقدامهن في الترى يَجْمُدُ بهنَّ عن أن يتحرَّكن ، وأخذت كل منهن تمَدُّ يدها لتتَحَسَّس قداميها وأصابها وأظافرها فإذا هي لا تجد غير لحاء الشجر يلتف حول ساقها الجميلتين ، وجعلن يضربن أفعادهن فإذا هي الأخرى قد صارت خشب بلوط ، فتولَّاهن أسى عميق . ولم تلبث أنداؤهن وأكتافهن أن تحوَّلت إلى جذوع أشجار وأصبحت أذرعتهن أغصاناً طويلة ، ولم يكن ذلك وهماً طاف بخيالهن ، بل كان حقيقة مفزعة .

ميداس

لم يكتف باكخوس بذلك ولم تهدأ نفسه فهجر طراقيا مصطحباً معه ثلة من أتباعه المعريدين ، ليزور كروم [جبل] تمولوس التى يؤثرها ونهر باكتولوس الذى لم يكن قد سال ذهباً بعد ولم تكن رمال قاعه النفيسة قد أصبحت مثار حسد الحاسدين . وسهر على خدمته حشد من كاهناته والساتير غاب عنه سيلينوس ، ذلك أن فلأحى فريجيا كانوا قد ألقوا القبض عليه حين شاهدوه يسير بينهم مترنحاً لشيخوخته وفعل الخمر به ، فقيدوه بسلاسل من زهور واقتادوه إلى ملكهم ميداس الذى كان أورفيوس الطراقى وإيومولپوس الأثينى من بعده قد لقناه أسرار عقيدة باكخوس ، حتى إذا عرف ميداس أن سيلينوس صفى للإله وشريك له فى الأسرار احتفى به عشرة أيام وعشر ليال على التوالى . وفى اليوم الحادى عشر عندما كان « لوسيفر » نجم الصباح يهدى قطيع النجوم إلى ما وراء السماء مضى الملك إلى ليديا مُشرق النفس ، وردَّ سيلينوس إلى راعيه وحاميه الفقى .

١٠٠ وغمرت الإله باكخوس الفرحة لعودة مرشده سيلينوس ورأى أن يكافئ ميداس ، غير أنه أعطاه حرية اختيار ما يشاء ، ولكن اختيار ميداس لسوء حظه كان ينطوى على ما يكمن فيه شقاؤه ، إذ قد ولَّى وجهته إلى الإله قائلاً : « هَبْنِي قدرة على أن أحوِّل ما أُلْسِه إلى ذهب أصفر » . وإذا الإله يأسى لسوء اختيار ميداس لكنه استجاب لدعائه محققاً له مشيئته ، فانصرف الملك الفريجى سعيد النفس مشرق الروح وأخذ يطمئن نفسه بما وعده به باكخوس من تحويل ما يلمسه إلى ذهب . وما لبث ميداس أن دُهل حين انتزع غصن شجرة سنديان غض فإذا هو يتحول إلى قضيب من الذهب ، ثم حمل حجراً من الأرض فإذا هو يتوهج بلون ذهب مُنطفىء ، ثم لس حفنة تراب فاستحالت كتلة ذهب ، كما تحولت سنابل القمح الجافة فى يده إلى حَصَادٍ من ذهب ، كذلك استحالت التفاحة التى اقتطفها من غصنها تفاحة من ذهب تحسبها هدية من الهيسبريديس . ولم يكد يلمس أعمدة قصره حتى تحولت هى الأخرى ذهباً براقاً . وحين همَّ بغسل يديه تحولت قطرات الماء التى فسى كفَّه شؤبوا من ذهب كفيلاً بإثارة شهوة دانائى ، وتجاوز الخيال ما كان يحلم به من تحويل كل ما يلمسه ذهباً . وامتلأت نفسه فرحاً بقدراته الجديدة وجلس إلى المائدة التى حلها الخدم بأطيب ما تشتهيه النفس من طعام ، لكنه لم يكد يلمس كسرة خبز حتى وجدها قد تحولت إلى

١٢٠

معدن صلب ، ولم يكند يطبق أسنانه على قطعة لحم حتى وجدها تنطبق على قضيب ذهبي ، ومع رشقات النبيذ كان السائل يتحول إلى ذهب سائل بين شفثيه .

فإذا الشقاء يهصره في هذا الثراء الطارئ وأحسّ بثقل وطأة المأساة ؛ ولم تعد له أمنية غير أن يُحرّم تلك القدرة ، ولم يعد يكره شيئاً أكثر من كراهيته لما تنماه ، إذ غدا عاجزاً عن إشباع جوعه من الطعام وإرواء ظمئه من الشراب . وطحنه العذاب وكره الذهب أكثر مما كره الموت ، فتضرّع إلى الإله رافعاً ذراعيه قائلاً : « أسألك المغفرة يا أبانا باكخوس يا إله المعصرة ، لقد أخطأت ، وها أنذا أضرع إليك أن ترحمني وأن تحرّرنى من هذا البلاء الذى كان بدءاً بشير خير » . وتحرك الخير الكامن فى أعماق الإله - كما هى طبيعة الآلهة القادرين - حين اعترف ميداس بخطئه وردّ إليه طبيعته الأولى ، وقال له : « امض الآن فحرّر نفسك من آثار الذهب الذى تمنّيته بحماقتك ، وسر على شاطئ النهر المتدفّق [باكتولوس] بجانب مدينة سارديس العظمى^(٤) واصعد فى اتجاه مضيقه عبر مرتفعات الشيطان حتى تصل إلى المكان الذى ينبثق فيه ماؤه فى دفقات كبرى يغطيها الزبد ، فاغمس رأسك واغسل مع جسدك خطيئتك » . ومضى الملك ١٤٠ فاغتنسل عند منبع النهر ، وانتقلت القدرة على تحويل الأشياء إلى ذهب من يد ميداس إلى مياه النهر فاكست بلون جديد ، وما تزال أرض الحقول المجاورة ذات لون ذهبي صلبة الثرى لتشرّبها مياه النهر . وزهد ميداس فى الثراء ، وراح إلى الغابات يتخذ منها سكناً متعبداً للإله بأن المقيم بكهوف الجبال ، غير أن حماقته ظلت تلازمه فورطته فى بلاء جديد . ذلك أن بان قد وقف عند جبل تمولوس الشاهق الذى تشرف قمته على البحر الفسيح وينحدر سفحه من ناحية إلى سارديس العظمى وإلى هيبياي^(٥) الرثة الحال من ناحية أخرى ، ووقف يُزهى بين الحوريات اليافعات بمواهبه الموسيقية ويفاخر بقدراته التى تفوق قدرات أبوللو فى عزف المصفر المصنوع من قصبات الغاب المتلاصقة بالشمع ، ورأى أن يبارى أبوللو فى مباراة غير متكافئة ، محتكماً إلى جبل تمولوس^(٦) ، فجلس العجوز على سفح جبله جلسة القاضى ليقضى بين المتباريين ، وأزاح الأشجار بعيداً عن أذنيه غير أوراق لشجر البلوط تكلّل شعره الأسود ، وعناقيد جوز البلوط تتدلّى فوق صدغيه الغائرين ، والتفت إلى إله القطعان قائلاً : « إن قاضيك ١٦٠ على أهبة الاستماع » . وعزف بان على مزماره الرعوى لحناً أثار إعجاب ميداس الذى كان قريباً من المكان . بعدها التفت تمولوس إلى فوبيوس إله الشمس فتلفّت الغابة كلها معه ، وكان أبوللو قد كلّل شعره الذهبى بإكليل أشجار غار جبل پارناسوس ، وصبغ عباءته بأرجوان مدينة صور ، وحمل فى يده قيثارته المطعّمة بالعاج الهندى وبالأحجار الكريمة ، وأمسك بيمنه ريشة العزف وانطلق يحرك أوتار قيثارته بأنامل حَذَقَة ، فانتشى تمولوس ودعا بان إلى الإقرار بهزيمة مزماره أمام قيثارة أبوللو^(٧) .

وقد سلّم الجميع بحكم إله الجبل عدا ميداس الذى لم يسلم به لمجانته للعدالة ، مما أغضب أبوللو فأصرّ على ألا تبقى أذن ميداس الحمقاوين على حالتها البشرية ، فأطالها وكساهما بشعر رمادى خشن ، ومنحهما القدرة على الحركة حيث هما من رأس الملك . وبقي جسد ميداس كله بشرياً عدا أذنيه اللتين تحولتا إلى أذن جحش ثقيل الخطو .

ونحجل ميداس لهيئة تلك الزرية فحرص على إخفاء أذنيه بعمامة أرجوانية تلتف حول رأسه ، غير أن الحلاق وهو يقصّ شعره الطويل كشف عن هذا السر المخجل ولم يجسر على إفشائه رغم تحرّقه شوقاً لذلك . وحين ضاق بكتمان الأمر حفر حفرة في الأرض وهمس فيها بسرّ الأذنين اللتين رأهما في رأس سيده ثم أهال التراب على الحفرة وسوّاها من جديد بعد أن دفن فيها سرّه ، وخلاها ومضى هادئ البال ، وسرعان ما نبتت أكمة من أشجار الغاب مكان الحفرة . ولم ينقض عام حتى كان الغاب قد نما واستطال ، وأخذ يذيع السرّ الذي خبّاه الحلاق ، وينبئ بتحوّل أذن ميداس كلما هزّته ريح الجنوب الوداعة ، مكرراً الكلمات نفسها التي أسرها إليه الحلاق .

لاووميدون . هيزيونيه

انطلق أبوللو بعد إنزاله العقاب بميداس مغادراً جبل الإله تمولوس مرتحلاً عبر الأجواء ، وبعد أن تلبّث عند مضائق هيليه « هيليسپونت »^(٨) بنت نيفيل هبط على سهول طروادة حيث شاهد معبداً عتيقاً لجوبيتر ربّ الرعود في پانومفايوس^(٩) إلى اليمين من شبه جزيرة سيجيا وإلى اليسار من شبه جزيرة روتيا المحاطة بالمياه العميقة ، وأبصر بالملك لاووميدون إلى جوار المعبد يحاول بناء أسوار مدينته الجديدة طروادة ، وهو ما كان يتطلب ثمناً باهظاً ويحمّل الملك مشاق عصية ومصاعب جمّة . فتنكر أبوللو في زي آدمي وأخذ في مساعدة طاغية فريچيا مستعيناً بإله البحر المتدقق حامل الصولجان ذي الشعب الثلاث ورب الهوّات التي تثير العواصف ، ووعده الملك الفريچي بقدر من الذهب لقاء معونته . ولما اكتمل بناء الأسوار حنث الملك بوعدّه ، فقال له ربّ البحار : « لن تمضي جريمتك بغير عقاب » ، ودفع البحار كلها تجاه شواطئ طروادة المتعطّشة التي أصبحت كالبحار فغطت المياه الأرض وما فيها مكتسحة بأمواجها العاتية حقول الفلاحين وبيوتهم . ولم يقنع الإله بهذه العقوبة وإنما أصرّ على انتزاع هزيونيه ابنة الملك لتقدمها قرباناً إلى وحش من وحوش البحر ، غير أن هرقل هرع إلى الأميرة هزيونيه حين شدّت بالأغلال إلى الصخور وأنقذها ، وطالب بالجياد التي وعده بها لاووميدون مكافأة على صنيعه^(١٠) ، ولما لم يظفر بها اعتزم قهر طروادة واختراق حصون المدينة التي انهارت متداعية للمرة الثانية . وقد رفض تيلامون الذي اشترك مع هرقل في إنقاذ هزيونيه أن يرحل دون أن يظفر بما هو أهل له من تكريم ، فنزل له هرقل عن هزيونيه ليتزوج بها ، أما پيليوس^(١١) الذي كان قد مدّ يد العون إلى هرقل هو الآخر فقد كرم بأن تزوج إلهة فأصبح جوبيتر بذلك حمّاً وجداً في آن واحد ، وبذلك لم يغد الإنسان الأوحّد الذي ظفر بأن يكون حفيد جوبيتر فحسب بل كان أيضاً الإنسان الأوحّد الذي اتخذ من إحدى الإلهات زوجة ، وإليك ما حدث :

پيليوس وثيتيس

كان پروتيوس العجوز قد أفضى إلى ثيتيس بهذه النبؤة : « قضى القدر عليك أن تكوني أمّاً يا إلهة البحار ، وسوف تلدين بطلاً عظيماً ما إن يبلغ مبلغ الرجال حتى ينافس أباه بطولةً وبيزّه ، ويصبح في أعين

البشر أعظم منه قدراً . ولذلك حرص جوبيتر على ألا يتزوج من إلهة البحار خشية أن يأتي من صلبه من يصبح أعظم منه رغم ما كان يثور في أعماقه من لهفة جامحة ، آذناً لحفيده بيليوس بن إياكوس أن يتزوجها ويسعد بضمّ عذراء البحار .

وكان في هايمونيا خليج تمتد ذراعه المنحنيان مثل ذراعى منجل ، ولولا ضحالة مياهه — إذ الماء ليس غير طبقة رقيقة فوق سطح الرمال — لأصبح مرفأً مختاراً ، وكانت سواحله جامدة لا تتعثر الأقدام عليها ولا تترك بها آثاراً ولا تنبت بها طحالب . وكانت ثمة غيضة من شجيرات الأس ذات ثمار مختلفة الألوان يتوسطها كهف لا يُعرف إن كان من صنع الطبيعة أم من صنع الإنسان ، وإن كان الراجح أنه من صنع الإنسان . وكانت ثيتيس دائمة التردد على هذا الشاطئ فتتجرد من ثيابها وتمتطي ظهر درفيل ، وذات مرة رآها بيليوس وهي مستغرقة في سبات عميق ، فدنا منها محاولاً في رفق اكتساب ودّها ، لكنها صدّته فأحاطها بذراعيه محاولاً أن ينال منها قهراً ، وكان على وشك أن يحقق ما جرؤ عليه لولا ما احتالت به الإلهة إذ غيرت صورتها إلى طائر ثم إلى شجرة ضخمة ، فأمسك بجذع الشجرة دون أن يخفّف من قبضته ٢٤٠ عليها ، حتى إذا أحالت نفسها ثمرة مخططة أمسك به الفزع ورفع يديه عنها ، وراح يصبّ قربان النبيذ فوق مياه البحر تكريماً لآلهة البحار مُتقرباً إليهم بأحشاء الخراف وإطلاق البخور كى تتيح له الزواج من ثيتيس ، فصعد إليه عراف كارباثوس^(١٢) من أعماق البحر قائلاً : « لسوف تظفرياً ابن إياكوس بالعروس التى تتمناها إذا أمكنك أن تغافلها وهي في الكهف الصخرى وتشد وثاقها وهي غارقة في النوم خالية البال مما يدبر لها ، وعليك ألاّ تنخدع بعشرات الصور التى تتمثل فيها الإلهة واشدّد قبضتك عليها حتى تعود إلى صورتها الأولى » . وغاص پروتيوس في الماء وغطت الأمواج آخر كلماته . وكانت الشمس تمضى بمركبها في منحدر الأفق مقترية من بحر هسپريا [بحر الغرب] ساعة اتجهت الحورية كعادتها إلى الكهف الصخرى تضطجع على حشيتها المألوفة ، وانقض بيليوس على الحورية وأمسك بجسدها العذرى بقبضتيه القويتين ، وسرعان ما بدأت في تحويل شكلها ، غير أنها تبّينت أن أطرافها غدت أسيرة وأن ذراعيها بقيتا مبسوطتين ٢٦٠ على جانبي جسمها ، وعندما أدركت أنه قهرها قالت له « ما من شك أنك قهرتني بمعونة السماء » ، ثم أطلقت زفرة عميقة وعادت إلى شكلها الحقيقى ، فاحتضنها بيليوس وظفر بما تمنّاه وأنجب منها ولده أخيل العظيم .

بيليوس لدى كيّكس

وعاش بيليوس سعيداً بزوجته وولده ينعم معها بحياة ملؤها الرفاهية والرخاء ، ولم يذق الشقاء إلاّ حين قتل أخاه فوكوس وطُرد على أثر ذلك من دار أبيه^(١٣) ، فالتجأ إلى بلاد تراخيس^(١٤) التى كانت تحيا في سلام تحت حكم كيّكس بن لوسيفر نجم النهار الذى ورث عن أبيه تألق وجهه ، والذى كان وقتذاك يجتاز فترة الحداد على أخيه . وقد وصل ابن إياكوس إلى تراخيس منهك القوى بعد طول السفر ، ودلف إلى

المدينة في صحبة بعض الرفاق بعد أن ترك قطعانه في واد ظليل عند أسوار المدينة . وحين أذن له الملك بلفائه قدم له غصن زيتون وكشف له عن نفسه غير أنه لم يكشف له عما ارتكبه من جرم وعما كان سبباً لنفيه ، وطلب إلى الملك أن يقبله لاجئاً في عاصمته أو في مملكته ، وأجابه الملك قائلاً في رقة : ٢٨٠

« إن بلادى تفتح ذراعيها لجميع الوافدين عليها يا بيليوس ، وتتيح لهم العيش في هناء ولا تضمير عداة للغرباء فتلك شيمتنا ، وما عليك إلا أن تذكر لنا سبب لجوئك إلينا حتى نرحب بك بما يليق بجلال الاسم الذى تحمله لاسيما وأنت حفيد جوبيتر ، فلا تجهد نفسك توسلاً ورجاءً ، فلسوف تحظى بما تطلب ، ولتعدّ كل ما تراه هنا ملك يدك ، وإننى لأتمنى أن تنعم هنا بأفضل مما نعمت به في حياتك السابقة » ، ثم أجهش الملك بالبكاء فسأله بيليوس ورفاقه عن سرّ حزنه العميق فأجابهم قائلاً :

قد تظنون أن الصقر الذى يحيا على افتراس ضحاياه ويشير الرعب في قلوب الطير كان يخفق بجناحيه المريشين منذ وُجد ، وليس هذا بصحيح ، فلقد كان أولاً رجلاً غليظ القلب يدعى دايداليون تواقاً إلى الحرب مندفعاً إلى العنف ، وكنت وإياه ابنين للنجم الذى يوقظ الفجر ويغادر السماء بعد آخر نجم فيها . وبينما كنت أنا أحبّ السلام وأراعاه حبّى لزوجتى ، كان أخى يجد متعته في إثارة الحروب وقهر الدول والملوك بشجاعته التى أصبحت تبعث الرعب في أسراب الحمام بمدينة ثيزي^(١٥) . وقد وُلدت لدايداليون ابنة أسماها خيوى ، وكانت فريدة في جمالها مما جعل العشاق يتزاحون حولها منذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها . وذات يوم رآها مصادفة كل من أبوللو وميركوريوس ، وكان أولهما عائداً من دلفى وثانيهما راجعاً من قمة جبل سيلين فوقها في غرامها معاً لحظة رأياها . وبينما أرجأ أبوللو الظفر بها حتى يجنّ الليل أسرع ميركوريوس ولمس وجه الفتاة بعصاه التى تصيب من تمسّه بالنعاس فراحت الفتاة في سبات عميق واستسلمت بين ذراعى الإله القويّتين ، ثم أقبل أبوللو متخفياً في زى امرأة عجوز أثناء الليل الذى انتثرت في سمائه النجوم ، واستمتع بالفتاة التى سبقه ميركوريوس إلى الاستمتاع بها . ولما انقضت مدة الحمل وضعت خيوى توأمين أحدهما من الإله المجنّح القدمين وهو أوتوليوكوس ، ذلك الطفل الماكر المطبوع على ضروب الخداع والمدرب على إحالة الأسود الأبيض والأسود مما جعله شبيهاً بأبيه في سعة الحيلة ، وثانيهما من أبوللو وهو فيلامون ، ذلك الطفل الذى ذاعت شهرته لإجادته الغناء وبراعته في العزف على القيثارة .

٣٢٠ ترى ماذا أفاد خيوى أن تضع توأمين أو تكون موضع إعجاب إلهين ، أو تكون ابنة أب شجاع وحفيدة لكبير الآلهة ربّ الرعود ، أولاً يجرّ المجذّ الكوراث أحياناً ؟ فكم جرّ المجد من ويلات على كثير من البشر وكانت تلك التعسة من بينهم ، فقد دفعها الغرور يوماً إلى الزهو بجمالها وإزدراء جمال ديانا ، فغضبت الربّة أشد الغضب وصاحت فيها : « ليايتين اليوم الذى تُقرّينى فيه على أعمالى » . وأمست بقوسها وسدّدت سهماً إلى هذا اللسان المتطاوّل عليها فشقّته فأصابه العي ، ولم يعد يستجيب للفتاة صوتها ولا كلماتها ، وانطلقت تحاول الحديث غير أن روحها فاضت مع دماها ، وأحسست أنا بالشقاء بينا أضّمّا بين ذراعى ، وأخذت أواسيها بقلب محزون ، وأبّت أخى الحبيب الذى كان يغمر ابنته بحنانه كلمات

عزائي ، غير أن الوالد المكلم الذي انسابت دموعه لفقد ابنته لم يكن يسمع كلماتي إلا بقدر ما تسمع صخور الشاطئ هدير الأمواج ، وقد حاول مرات أربع أن يلقي بنفسه وسط لهيب المحرقة حين رأى النار تشتعل في جسد ابنته لولا إمساكنا به ، غير أنه ما لبث أن انفلت من أيدينا انفلاتة الثور الهائج وأخذ يعدو عدواً لا يقوى عليه البشر وكأنما رزقت قدماء جناحين ، واندفع بعيداً عن جميع الطرقات المألوفة لا يدركه أحد حتى استقرت به رغبته في الموت على قمة جبل پارناسوس وألقى بنفسه من فوق الصخر الشاهق ، فأسرع إليه فوبيوس وقلبه يفيض شفقة عليه وأحاله إلى طائر يحلق في الأفق بجناحيه اللذين نبأ له في لحظات ، ومنحه فوبيوس منقاراً معقوقاً ومخالب مقوَّسة وأسبغ عليه قوة هائلة تاركاً له شجاعته التي حققت له الشهرة في الماضي . وهكذا أصبح صقراً لا ينطوي اليوم صدره على قطرة من الشفقة يسوم صنوف الطير جميعاً سوء العذاب ويملاً نفوس الآخرين شقاءً .

٣٤٠

وبينما كان ابن لوسيفر يقص هذه القصة الغريبة ، كان آنتور ابن بلدة فوكيس راعي قطعان بيليوس يحث الخطأ لاهثاً حتى إذا أقبل صاح : « أيا بيليوس ، إنني أحمل إليك أنباء كارثة فادحة » ، فطلب منه بيليوس أن يقص عليه خبرها وقد امتلأت نفس ملك تراخيس ترقباً وارتسمت على وجهه سياء الخوف بينما أخذ الراعي يسرد القصة قائلاً :

« عندما توسَّطت الشمس كبد السماء في منتصف طريقها المرسوم وقد بقي لها قدرٌ ما قطعت ، سُقَّت قطيعك المنهك صوب الشاطئ المنحدر حيث خرَّت بعض الثيران مستلقية على جنوبها تعباً وإعياء فوق الرمال الصفراء وعيونها متعلقة بصفحة مياه المحيط ، وأخذ البعض الآخر يتجول هنا وهناك أو يسبح في الماء طافياً فوقه أحياناً وغائصاً فيه لا يظهر منه غير العنق أحياناً أخرى . وقريب من الشاطئ يطلّ معبدٌ من الخشب الغُفْل ، ليس مزوّقاً بزخارف ذهبية ولا مطعماً بالواح رخامية منقوشة ، وتطلُّه أغصان أشجار عتيقة ، ويسكنه نيريوس وبناته ، وقد أخبرني ملّاح كان يجفّف شبابه عند الشاطئ أنهم أرباب هذا البحر . وعلى مقربة من المعبد مستنقع راكد تخلفت مياهه من مياه البحر ، وكانت هذه الأرض الرخوة تغص بأشجار الصفصاف وينبعث منها أصداء لصخب عنيف يثير الهلع في أرجاء المنطقة . وإذا وحش هائل يبرز فجأة من المستنقع في صورة ذئب ملوّث الجسد بالوحل القذر ، قواطع فكّيه مغطاه بالدم والرغاء ، مشتعل العينين بوهج أحمر ، وكان جوعه ومع ما في الجوع من شراسة قد أثارا فيه غضبة شديدة ، وكما لم تهدأ شراسته كذا لم يهدأ جوعه ، ولما كان ما يفترسه من ثيران لا يشبع نهمه فقد انطلق يعقر القطيع كله مجندلاً الرؤوس جميعها قاتلاً بعض الرعاة ومصيباً البعض الآخر بجراح حين حاولوا إبعاده ، واصطبغ الشاطئ والماء القريب منه بلون الدم القاني ، ثم لم تلبث مياه المستنقع كلها أن احمّرت ، كما أخذت أصداء خوار الوحش تتردد بين جنبات المستنقع ، وكان إحجامنا عن الدفاع عن أنفسنا يكلفنا الكثير ، وأصبحت المحنة ليس معها تردّد يعوق كل ما في طوقنا أن نفعله ، وأحسست بواجبنا في أن نمتشق سيوفنا وأن نغضى إلى الوحش نحاصره ونضربه ضربة رجل واحد . »

٣٦٠

وتوقف الراعى عن الكلام ، ولم يعبأ بيليوس بخسائره من القطعان ، وقد تذكر الجريمة التى اقترفها حين قتل أخاه ابن الحورية ، وأدرك ساعتها أن أمه الحورية هى التى تُنزل به هذه الكوارث لتجعل من ضحاياه قرباناً جنائزياً لابنها القتل فوكوس^(١٦) .

وما لبث كيكس ملك أويتا أن أمر رجاله بحمل السلاح والتأهب للانقضاض على الوحش كما تهباً هو نفسه ليمضى معهم ، غير أن زوجته ألكيونيه أسرع بالدخول عليه وقد أثارها الأحداث فأخذت تشدّ شعرها المشوش وألقت بنفسها على صدر زوجها متوسّلة إليه أن يقنع بإرسال الرجال دون أن يصحبهم ، وذرفت الدمع علّه ينقذ حياتها وحياته ولا يمضى لما عزم عليه ، فانبرى بيليوس ابن إياكوس يطمئنها قائلاً : « ليست مخاوفك إلّا دليلاً على ما تكنّين من عطف رقيق وحبّ لزوجك أيتها الملكة . ألا فلتطرحى هذه المخاوف جانباً ، ومع عرفانى لك بجميل مساندتك لى فى هذه المحنة ، فما أريد أن يخرج أحد نيابة عنى لمنزلة وحش لم يشهد البشر مثيلاً له من قبل ، وليس لى من مفزع أفزع إليه غير آلهة البحار التمس عونهم » .

وكان يعلو قمة القلعة برج شامخ تستهدى به السفن الضالّة ، فصعدوا فى هذا البرج وصوبوا نظراتهم المفعمة بالآثات إلى قطعان الثيران المجدلة على الشاطئ ، وأبصروا الوحش الذى افترسها والدماء تقطر من فمه وتلوث فراءه . وعندئذ بسط بيليوس يديه تجاه شيطان البحر الفسيح متوسلاً إلى پساماثيه ذات الشعر اللا زوردي أن تضع حداً لغضبها وأن تمّده بعونها ، ولم تلق ضراعاته صدى فى نفس الربة ، إلّا أن ثيتسس استطاعت بصلواتها المتصلة أن تحصل لزوجها على العفو الذى كان ينشده ، ولم يكن من السير الحيلولة بين الذئب وبين شهوته فى الافتراس بعد أن جُنّ ببلق الدماء ، وظل كذلك حتى حوّلته الربة إلى تمثال من الرخام وهو يغرس أنيابه فى عنق بقرة ، وبقي محتفظاً بشكله الأول عدا لونه إذ أصبح فى بياض الحجر الذى بات شاهداً على أنه لم يعد ذئباً كما كان ولم يعد يثير الرعب الذى كان يثيره من قبل . على أن ربّات القدر لم يأذن لبيليوس الهارب بأن يستقر فى هذه البلاد إلى ما لا نهاية فبقى منفياً يصل تجواله كما كان حتى بلغ بلاد المايجيتيين^(١٧) حيث تطهر من جريمة القتل على يدى أكاستوس من ثيساليا^(١٨) .

كِيكْس وألكيونيه

وكان الملك وقتذاك نبهاً للقلق الذى يؤرّقه على مصير شقيقه وتقضّ عليه مضجعه نُذّر الشرّ التى بدت له ، فتأهب للذهاب إلى كلاروس كى يستشير الهاتفة الإلهية التى تضى الطمأنينة على النفوس ، غير أنه عرف أن ذهابه إلى معبد دلفى مستحيل بعد أن سدّ طريقه إليها فورباس الشرير وأتباعه الفليجيون . وما كاد كيكس يكشف لزوجته عن عزمه على الرحيل حتى داخلها خوف بعث الرعدة فى أوصاله ، وشحب وجهها فصارت فى بياض خشب البقس ، وترقرق فى مآقيها الدمع ، وحاولت أن تتحدث مرات ثلاثاً فكانت

الدموع المناسبة على خديها والزفرات التي تطلقها تخنق صوتها ، وأخذت تعتب عليه في وله وتتوسل إليه قائلة : « أى خطأ اقترفته أنا فجعلك تتنكر لى يا أعزّ أعزائي ؟ أين هى رعايتك التي كنت تُضيفها علىّ وحدى دون أى انسان آخر ؟ كيف تستطيع الآن أن تتخلّى عني وترحل لأعيش وحيدة ؟ أهكذا حزمت ٤٢٠ أمرك على الذهاب بعيداً عني ؟ وهل يمكن أن أبقى عزيزة عليك أثيرة لديك مع غيبتى عنك ؟ أراك ستخبرنى أنك راحلُ برّاً حتى لا تثير فكري المضطرب فيشغلني الحزن على فراقك عن الخوف عليك . حقاً إنه ليس ثمة شيء يخيفنى مثل البحر ، ذلك المحيط الموحش المخيف ، فلقد تطيّرت منذ أمدٍ قريب حين رأيت ألواحاً خشبية محطمة على الشاطئ ، وكم من موتى قرأت أسماءهم على شواهد قبور خاوية (١٩) ، فلا تغرّنك تلك الثقة الزائفة تبعث الطمأنينة في قلبك اعتماداً منك على أن حماك هو الإله أيولوس بن هيبوتيس الذي يُمسك الرياح العاصفة ويهدئ نائرة البحر بإرادته ، فلو أنه أطلق العنان للريح فأتيج لها السيطرة على المحيط لما استعصى عليها شيء ولأصبحت الأرض والمياه تحت رحمتها ، ولتصارعت السحب أمامها على صفحة السماء مُرسلة في تصادمها برقاً من الشرر الملهب ، وكلما تزايدت معرفتى بالرياح [فمعرفتى بها معرفة قوية فطالما رأيتها في بيت أبى وأنا صبيّة] ازدادت يقيناً بوجوب تحاشيها . على أنه إذا لم تنجح توسلاتى في إثباتك عن عزمك على الرحيل يا زوجى الحبيب ، وإذا كنت ما تزال مُصرّاً عليه فخذنى إذن معك حتى نكون سوياً من ضحايا العاصفة ، ولن أخشى حينئذ من الأخطار إلا ما قد يكون من ٤٤٠ نصيبى أنا ، ولسوف نحتمل معاً كل ما يقع ونُبهر معاً على صفحة البحار الواسعة . »



بيكاسو: كيكس والكيونيه

وأَسَىَ زوجها ابن النجم المتألق بما ناشدته به زوجته إبنة أيولوس وبما ذرفته من دموع ، فقد كان لهيب الحب يُشعل قلبه بمقدار ما يشعل قلبها ، غير أنه لم يتراجع عن عزمه على الرحيل كما أنه لم يشأ أن يقحم ألكيوني في مغامرة محفوفة بالأخطار ، فحاول في النهاية تهدئة مخاوفها لكنه لم ينجح في كسب رضاها ، فأضاف يقول معزياً : « قد يكون الفراق بيننا طويل الأجل ، لكنني أقسم لك بالضوء المشع من أبى بآنى عائد إليك — بمشيئة ربّات القدر — قبل أن يُكْمَل القمر دورتين » .

ومع هذا العهد — الذى قطعه على نفسه والذى بعث في نفس زوجته الأمل في عودته سريعة — أمر بإعداد سفينته التى لم تكد تراها زوجته حتى ارتجفت أطرافها من جديد واغرورقت عينها بالدموع كأنها تعرف سلفاً ما سوف تأتى به الأيام ، وعانقت زوجها مودعة إياه قانطة حزينة ثم انهارت مقاومتها وتهاوت ، فأخذ كيّكس يتلمّس الأعذار لتأخر إقلاعه غير أن ملاحيه الشبان كانوا قد جلسوا في صفين وقد أمسكوا بمجاديفهم العريضة وأخذوا يشقّون الموج بضربات رتيبة الإيقاع . ونظرت ألكيوني بعينيها المبلّلتين بالدمع إلى زوجها الواقف على مؤخرة السفينة يردّ على نحيبتها ملوحاً بيده مودعاً ، وما زالت تحقد بعينيها حتى مغيب السفينة واختفائها بزوجها عن ناظريها ، وظلت تتابع الأشرعة وهى ترفرف فوق الصارى الكبير حتى اختفت الأشرعة هى الأخرى ، فعادت واستلقت على فراشها الوثير مثقلة القلب بالهموم . وحينما خلت إلى نفسها أحسّت بغياب أعزّ شطر من ذاتها فانخرطت في البكاء من جديد .

٤٦٠

غادرت السفينة الميناء بركبها وهزّت الريح حبال الأشرعة التى نُشرت على الصّورى تملؤها الرياح ، ونظّم الرّبّان إيقاع ضربات المجاذيف . ولم تكد السفينة تقطع نصف رحلتها وتناهى عن جميع الشيطان حتى بدأ البحر يشتعل بياضاً في ظلمة الليل الساجى بقفزات أمواجه العالية الزابدة ، وتزايدت قوة رياح الشرق ، فصاح الرّبّان بملاحيه : « فلتُسرعوا بخفض الأشرعة من قمة الصّارى وضّمّها جميعاً » ، غير أن رياح العاصفة التى كانت تهبّ تجاهه حالت دون وصول صوته إلى البحارة كما غطّى هدير الماء على كل صوت ، ومع ذلك سارع بعض الملاحين من تلقاء أنفسهم باجتذاب المجاذيف داخل السفينة ، وأخذ بعض يدرءون عن السفينة ثورة العاصفة ، وقام آخرون بضمّ الأشرعة ، وأخذ أحدهم ينزح الماء المتسرّب إلى السفينة بقذفه في البحر . وبينما كان هذا يجرى على غير نظام أو تدبير تزايدت عنف العاصفة وتصارعت الرياح المقبلة من جميع الاتجاهات فبعثت الاضطراب في البحر الغاضب ، وامتلأت نفس الرّبّان هلعاً واختلطت عليه الأمور وصار عاجزاً عن البتّ في أمر لا يُبدى ولا يعيد فقد كانت الأخطار فوق حذقه ومهارته ، وكان الرجال يصيحون ، وحبال الأشرعة تتقطع ، والبحر كتلة ثائرة من الأمواج المتلاطمة ، والرعود تهدر في الآفاق ، والأمواج تعلو كالجبال مشرّبة كأنما تريد بلوغ السماء وتثررذاها على الغيم المتكاثف ، أحياناً يضطرب الموج حاملاً الرمال التى يثيرها من قاع المحيط ، وأحياناً يصبح أكثر سواداً من مياه نهر ستيكس ، وأحياناً أخرى ينشر في الأجواء طبقات من الزّبَد الأصفر ترسل صفيراً عالياً . وكانت السفينة التراخيسية تميل بمئة ويسرة ، تعلو تارة وكأنها تطل من قمة جبل على أودية نهر أخرون بالجحيم ،

٤٨٠

٥٠٠

وتغوص تارة أخرى في جوف الأمواج متطلّعة إلى أعلى وكأنما ترقد في إحدى بحيرات العالم السفلى . وكلما ارتطم أحد جنبها بموجة عاتية ارتفعت قعقة شديدة وانطلقت أنات موجعة وكأنها قلعة تتحطم وتميد تحت ضربات المنجنيق و«مِدْك» أبواب القلاع المحاصرة . وكانت الأمواج المندفعة أمام غضبة الرياح الثائرة تتدق على دروع السفينة وتعلوها كما تفعل السباع الباسلة حين تستجمع شجاعته لتندفع نحو الأسلحة المصوّبة إليها من كل جانب . وبدأت قوائم السفينة تترجح عن أماكنها والعوارض الخشبية تتفكك والقطران^(٢٠) الذي يغطيها يذوب وينمحي ، فانفتحت ثغرات ينفذ من خلالها ماء البحر الرهيب ، وانفجرت كوات السحب فجأة مطلقة الأمطار ، وبدت السموات وكأنها تنقضّ جميعاً على البحر ، بينما بدا المحيط النائر وكأنه يشرّب إلى السماء وابتلّت الأشعة بالفيض المنهمر ، واختلطت مياه البحر بمياه السماء ، وغابت النجوم من القبة الزرقاء ، وضاعفت العاصفة من ظلمة الليل ، وإن كانت ومضات البرق تطرد الظلمة لحظات تضيء فيها المشهد كله فتتوهج المياه باحمرار لهيبها .

تدقّ الماء إلى قاع السفينة المجوّف شأنه شأن جندي يبرز وحده من بين صفوف الجند محاولاً المرّة بعد المرّة أن يتسلّق استحكامات مدينة محاصرة حتى يحقق أخيراً هدفه ، ويتمكن وحده من بين ألف رجل من الجدار الحصين مدفوعاً برغبته المضطربة في النصر . فقد استطاع الموج بعد أن ألقى بثقله مرات تسع على جوانب السفينة أن يرقى في المرّة العاشرة إلى ارتفاع شاهق ، وأن يندفع في هجمة عاتية لم يرتد عنها إلا بعد أن استقر الماء على سطح السفينة كأنه ينقض على أسوار حصن متداعية ، وهكذا استقر جزء من البحر داخل السفينة بينما ما تزال بقيته تحاول غزوها . وكان الملاحون أسرى رعب ممزّق شبيه بذلك الذعر الذي يستشري في مدينة يحاول العدو تقويض جدرانها من الخارج بينما يجهد أهلها في دعمها خشية تداعيها . ونسى الملاحون خبرتهم بأمور البحر وتهاوت شجاعتهم ، وبدأ الموت مقبلاً عليهم مع مقدم كل موجة تفتح ثغرة في استحكاماتهم ، وعجز البعض عن حبس دموعه ، واستبد الذهول بأحدهم ، وأخذ ثان يحسد أولئك الذين تنتظرهم قبور مهياة ، والتمس ثالث عون السماء التي أخذ يمدّ يديه إليها دون أن تشهدها عيناه ، وشرّد بعضٌ بفكرهم إلى آبائهم وذويهم ، وآخرون إلى بيوتهم وأولادهم وكل ما خلفوه وراءهم ، ووقع كيكس أسير الأسى وقد أصبح فكره كله مشغولاً بالكيونيه لا تتحرك شفّته بغير ذكر اسمها ولا تتجه رغباته إلا إليها ، ولكنه كان راضياً لأنها لم تصحبه ، وودّ لو قدر له أن يتطلع ثانية إلى شطآن بلاده وأن ينطلق إلى بيته عائداً ، ولم يكن يدرى مكانه وسط الخضم المضطرب وعبر ستار السحب الداكنة التي أخفت صفحة السماء فضاعفت من ظلمة الليل المدهم . وكسرت الرياح العاصفة الصّاري وتحطّمت معه الدقّة ، وعلت موجة على سائر الأمواج كقائد مظفر يتوسّط أسلابه ، ثم هوت هذه الموجة في عنف وكأنها تقتلع به جبلى آثوس وپندوس من جذورهما وتلقى بهما في البحر الفسيح ، فغاصت السفينة إلى أعماق المحيط تحت جبروت الموج ، وغاص مع السفينة كثير من الملاحين الذين ابتلعهم البحر فلقوا حتفهم قبل أن يطفوا على السطح من جديد ، وتعلّقت قلّة بأخشاب السفينة المحطّمة . وأمسك كيكس بيده - التي طالما قبضت على صولجان الحكم - قطعة من الحطام الطافي ، وأخذ يردّد عبثاً أسماء أبيه وحميه ، وكان اسم

الكيونيه قد تردّد على شفثيه أكثر من أى اسم آخر إذ كان حديثه كله عنها وفكره مشغولاً بها . وأخذ يصلّى من أجل أن تحمل الأمواج جسده إلى حيث تستطيع زوجته رؤيته ، وأن يدفن في نهاية الأمر بيديها الرفيقتين . وانطلق يردّد اسم الكيونيه بصوت عال وهو يطفو على سطح الماء كلما أتاحت له الأمواج القدرة على فتح فمه ، فإذا أطبق البحر عليه من كل جانب قنع بأن يتمم باسمها ، وفجأة تدافعت على صفحة الخضم المزبد موجة سوداء عاتية غطت كيّكس فغرق . وفي تلك الليلة غشت الظلمة وجه لوسيفر نجم النهار فلم يظهر للعيون ، ودفن وجهه في الغيم الكثيف لأنه لم يكن قد أذن له بترك السماء .

لم تعرف الكيونيه بالكارثة ، وظلت كما كانت تَحْصِي الليالي وهى تؤمّل عبثاً عودة زوجها إليها ، وتُعْجَل في نسج بعض الأردية له كما كانت تُعْجَل في نسج أردية أخرى لها لتزدان بها عند عودته ، وأخذت تحرق البخور قرباناً لجميع الأرباب وخاصة في معبد جونو ، وأكثر من الاختلاف إلى هياكلها من أجل عودة رجل طواه الغيب ، وردّدت دعواتها كي يعود زوجها إليها سالماً وألا يميل عنها إلى امرأة أخرى يؤثرها عليها ، وكانت هذه الضراعة الأخيرة هى الوحيدة التى استجابت لها الآلهة من بين ضراعاتها العديدة .

٥٨٠

على أن الربّة جونو عزّ عليها ألا تستطيع أن تسعفها بالاستجابة إلى ضراعاتها إذ كان زوجها قد فارق الحياة حقاً ، وودّت أن تُبعد عن هياكلها المقدسة تلكما اليدين اللتين لم تؤديا شعائر الدفن الواجبة^(٢١) فالتفتت إلى إيريس قائلة : « يا أخلص من حمل رسائل إلى البشر ، أسرعى إلى دار ربّ النوم^(٢٢) الغافى ، وسليه أن يدع الكيونيه تحلم حلمًا يتبدّى لها معه زوجها الراحل كيّكس لتدرك حقيقة الأمر » . وصدعت إيريس لأمر الربّة وارتدت رداءها ذا الألوان الألف ، وانطلقت في مسار قوس قزح المقوّس عبر السموات الفسيحة حتى بلغت قصر الربّ الملتف بالغيم الذى أمرتها الربّة بزيارته .

وعلى مقربة من بلاد السيميرين^(٢٣) كان ثمة كهف عميق منعزت في جانب الجبل يسكنه ربّ النوم الغافى ، ولم تكن أشعة الشمس تبلغ ذلك المكان لا ساعة شروقها ولا عند توسّطها كبد السماء ولا ساعة غروبها . وكان الضباب الداكن يتصاعد من جوف الأرض مشيعاً في الجو ظلالاً خافتة من عتمة الغسق . ولم يكن بهذا المكان ديك يَحْتال بعُرفه ويؤذّن للفجر بصياحه ، ولا كلاب لَهْفَة تقطع الصمت ، ولا إوزّ يعلو صياحه على نباح الكلاب ، كما لم تكن هناك وحوش مفترسة ولا قطعان سوائم ، ولم يكن يُسمع به حفيف أغصان شجر ولا صوت شجار بين بشر . كان الصمت الأبكم يَحْيَم على المكان ، وكان نهر « ليقى » الذى يُغْرِى بالنعاس خلال انسيابه يهمس بخبره الخافت فوق الحصى الراقد في أعماق الكهف الصخرى ، وكانت أزهار الخشخاش تنمو بوفرة على عتبات الكهف ، كما يتكاثر العديد من الأعشاب التى يستقطر الليل اللّدى من عصاراتها عطر النعاس الرّخى وينثره رذاذاً على الأرض الغبراء . ولم يكن للدّار باب واحد خشبية أن يترّ فيه مِفْصَل دَوّار ، كما لم يكن هناك حارس يقف على عتبه ، وكان يتوسط الكهف فراش كبير من خشب الأبنوس داكن اللون تغطيه أستار سوداء في نعومة الريش ، وكان الإله نفسه يرقد في هذا الفراش وقد استرخت أعضاؤه في كلل ، ترقد حوله ربّات الأحلام الخيالية وقد تقمّصن أشكالاً متباينة ،

٦٠٠

فصورة لسنابل القمح وقت الحصاد أو للأوراق على أشجار الغابة وثالثة لرمال الشاطئ المتراصة الأطراف .

٦٣٠ ودخلت الرسالة إيريس العذراء وجعلت تزيج بيديها أطيف الأحلام التي اعترضت طريقها ، فإذا أرديتها المتألقة تُشيع وميض ألقي في مسكن الإله ، وبذل ربّ النوم جهداً فائقاً كي يفتح عينيه الكليلتين المثقلتين بالنعاس ، وحاول النهوض فمال رأسه حتى لامست ذقنه صدره ثم استلقى على ظهره المرة تلو المرة ، إلى أن نهض متكئاً على مرفقه وتعرّف على إيريس فسألها عن السرّ وراء زيارتها ، فأجابته قائلة : « ياربّ النوم ، يا من يجد فيك كل كائن راحته بعد العناء ، يا أكثر الآلهة نشدانا للسلام ، يا من إليك تهدئة الخواطر وإزاحة الهموم وشفاء أعضاء الجسد المرهقة بالأعمال الثقيلة فتنتعش بعد طول الجهد والكلل ، مُرّ أحلامك القديرة على محاكاة مظاهر الأشياء الحقيقية وبعثها ثانية كما جرت في الواقع ، مُرّها أن تتقمّص مظهر الملك كيّكس وأن تشدّ الرحال إلى ألكيونيه بمدينة تراخيس التي أذاع شهرتها هرقل ، وأن تُريها صورة الملك غريقاً . ذلك ما أمرت به چونو » . ورحلت إيريس بعد هذا كي تفلت من تأثير ربّ النوم القهّار ، فلقد أحست بالنعاس يتسلّل إلى عينيها ، وعادت أدراجها سالكة نفس المسار المقوّس الذي عبرته منذ لحظات .

٦٤٠ وأيقظ ربّ النوم ولده مورفيوس أكثر أبنائه الألف الأقوياء قدرة على محاكاة الأدميين ، ولم يكن أحد يفوقه مهارة في تقليد طريقة المشي وتعبير الصوت ورنّاته ، وكان إلى هذا يستخدم الكلمات نفسها ويرتدى الثياب نفسها التي تميز كل شخص عن غيره . وعلى حين تخصّص مورفيوس في محاكاة البشر ، درج ابن ثان تدعوه الآلهة إيكيلوس ويسميه البشر فويتور على تقمّص صورة حيوان أو طير أو أفعى طويلة ، كما تميز ابن ثالث هو فانتازوس بلون آخر من المهارة يبدو فيه في مظهر مخادع فيمثل الأرض أو الصخر أو الماء أو الشجر أو أى شيء من الأشياء الجامدة التي لا روح لها . وكان ثلاثتهم يقومون بتمثيل الأحلام التي تظهر ليلاً للملوك والقادة ، في حين كان يهيم غيرهم على وجوههم يمثلون الأحلام للعامة من الناس . وقد برّز الإله العجوز أبناء كلهم في مواهبهم في تمثيل الأحلام غير مورفيوس الذي اصطفاه من بين أشقائه جميعاً رسولاً لينفذ ما طلبته إيريس إبنة ثاوماس . ولم يكد يعهد إليه بهذه المهمة حتى غاص رأسه المائل على صدره في ثنايا فراشه واستغرق ثانية في نومه العميق .

٦٦٠ وطار مورفيوس مخترقاً الظلمة الحالكة دون أن يُسمع لجناحيه حفيف ، وسرعان ما بلغ مدينة هايمونيا حيث ألقي جناحيه جانباً ، وغير من هيئته ليبدو في صورة كيّكس . وعندما اتخذ صورة الملك وأصبح شبيهاً بجثة زرقاء عارية من الثياب اقترب من فراش زوجته البائسة ألكيونيه بلحية مندّاة وشعر رأس مبتل تتساقط منه قطرات ماء ثقيلة ، ومال على الفراش دافع العينين قائلاً : « أى زوجتى التعسة المسكينه ، أتستطيعين التعرف على زوجك كيّكس أم أن الموت قد غير هيئتي ؟ تطلّعى إلىّ ولسوف تعرفينى حقاً ، وإن رأيت شبحاً لزوجك لا صورته الحقيقية . أى ألكيونيه ، لقد ذهبت صلواتك أدراج الرياح لأننى فارقت

الحياة ، فلا تدعى الأحلام الزائفة تداعب فكرك بعودتي . لقد هبّت ريح جنوبية مثقلة بالغيوم لحقت بسفيتتنا في بحر إيجيه ، وأنزلت بها ضربات قاصمة حتى هشمتها ، وجمّد الموت بشفتيّ اللتين كانتا تردّدان اسمك . وما يحمل لك هذا النبا رسول لا يوثق به ولا شائعات مُبهمّة ولا ألسُن تتناقلها ، وإنما أنا الذي جثت بنفسى أحمله لك بعد أن ذقت الموت غرقاً كي أخبرك بقَدَرى ومصيرى ، فلتنهضى الآن من فراشك ولتذرفى الدمع من أجلى ، واتّسحي بثياب الحداد ، ولا تدعيني أذهب إلى غياهب تارتاروس غير مأسوف علىّ ولا مشيع بالبكاء .

وبدا مورفيوس خلال حديثه مع الكيونيّه وكأنما يبكي حقاً ، وقد تعرّفت على صوت زوجها فى صوته ورأت إيماءاته فى إيماءاته ، وغالبها الأنين والبكاء فى نومها ، ورفعت ذراعها محاولة تحسّس جسده فلم تقبض يداها على غير خواء ، فصاحت به قائلة : « انتظر ! لم تتعجّل الرحيل ورحلتنا واحدة ؟ » .

ونفضت الملكة من سباتها وقد أيقظتها رؤيا زوجها وصوت صرخاتها ، وتلقّنت حوالها بادية ذى بدء لتستوثق مما إذا كان الرجل الذى ظهر لها منذ لحظات مازال ماثلاً أمامها ، فقد جاء خدمها الذين استيقظوا على صراخها بمصباح ، فلما لم تقع عينها على رجلها أخذت تلطم خديها بيديها وتشتقّ ثوبها وتضرب صدرها ، وصاحت تقول لوصيفتها التى هرولت إليها تستطلع سبب حزنها : « لقد قُضى على الكيونيّه ولم تعد شيئاً مذكوراً فقد أسلمت الروح مع زوجها كيّكس . فلا تحاولى التسرية عني بكلمات عزاء ، لقد مات زوجى إثر تحطّم سفينته ، وقد رأيته وعرفته ومددت إليه يدي حين أوشك على فراقى وحاولت استبقائه . ولم يكن من وقع عليه بصرى غير شبح ، ومع هذا فقد كان هو زوجى ، ولئن شئت أن تعرفى كل شيء فإن قسبات وجهه لم تكن هى التى عهدتها فيما مضى ، إذ لم تكن تشعّ بتألقها السابق . لقد رأيته واقفاً فى هذا المكان عرياناً شاحب الوجه مبتل الشعر بالماء . يا للباس المسكين ! وياه من مشهد مثير للرثاء » ، ثم عادت فتطلعت حوها لترى إن كان قد خلف وراءه أثراً ، واستطردت تناجى زوجها قائلة : « كان هذا هو سبب فزعى وخوفى حين رجوتك ألا تتركنى وألا تمضى إلى حيث تعصف بك الرياح ، فلئن كنت ماضياً إلى حتفك فما كان أجدرك بأن تصطحبنى ، وكم كان أولى بى أن أمضى معك ، ولو مضيت معك ما قضيت شطراً من حياتى بعيدة عنك ، وما كنا لنموت مفترقين ، فما أنذا الآن أموت رغم أنى لم أصحبك ، وعلى الرغم من أنك خلّفتنى هنا وحيدة ، وعلى الرغم من أنى لم أشاركك العاصفة التى عصفت بك ، فما أنذا تأتى علىّ العاصفة ، ومع أن البحر لم يطوئ فى جوفه فقد غدوت وكأن البحر طوانى فى أعماقه ، ولو أننى حاولت أن أعيش بعد اليوم أو جهدت فى التغلب على أحزاني لأصبح قلبى أشد ضراوة من البحر . لا ، لن أحاول مقاومة أحزاني ، كما لن أحاول هجرى المسكين ، ولسوف ألحق بك . ومع أن رماد جسدنا لن يجتمع فى وعاء واحد فإن نقشاً واحداً سوف يضم اسمينا على شاهد قبر مشترك . وهكذا إذا كان قد قُدّر لعظامنا ألا تتلامس فلسوف يتعانق اسمانا إلى الأبد » . ثم حال الحزن بينها وبين أن تزيد ، فقد أصبحت الزفرات تحبس كلماتها كما احتجزت الأنات عبارتها الصادرة من أعماق فؤادها المكسوم .

٦٨٠

٧٠٠

وأقبل الصباح فغادرت ألكيونيه دارها وقصدت قصد شاطئ البحر حيث ودّعت كيكس وهو يُقْلَع بسفينته ، وأخذت تغدو وتروح عنده وهي تهمهم قائلة : « هنا كان يشدّ الحبال ، وعلى حافة هذا الشاطئ قبلنى قبله الوداع » . وبينما كانت تستعيد أقواله وأفعاله وتذكرها حيث وقعت صوّبت طرفها صوب البحر فرأت شيئاً بعيداً وسط الماء أشبه بالجنة لم تستطع أن تتبين كنهه أولاً ، غير أن الأمواج كانت تحمله نحوها شيئاً فشيئاً حتى استبان لها على الرغم من بُعدِه أنه جثة إنسان . وتحركت مشاعر ألكيونيه لمراى هذا الرجل الغريق ، ومع أنها لم تكن تعرف من يكون إلا أنها أخذت تخاطبه وتندب إنساناً تجهل حقيقته قائلة : « واسفاه على مصيرك أيها البائس كائناً من تكون ، وعلى زوجتك إن كنت قد اتخذت لك زوجة » . ولم تلبث الأمواج أن دنت بالجد من الشاطئ وأخذت ألكيونيه تحقّق فيه ونفسها تنهاوى شيئاً فشيئاً فإذا هي في النهاية تتبيّن وتعرف أنه زوجها ! فصاحت صارخة : « إنه هو » ، وسرعان ما شقّت ثيابها ولطمت خديها وشدّت شعرها ومضت تعول وهي تقول باسطة ذراعيها المرتجفتين ناحية جسد كيكس : « أى زوجى العزيز ، أعلى هذه الصورة تعود إلى أيها المسكين ! » .

وكان على الشاطئ حاجز صنعته يد الإنسان عند حافة الماء ليقاوم ضربات الأمواج الثائرة فيكسر حدّتها ويهوّن من قسوة لطماتها قفزت إليه ألكيونيه ، ثم ما لبثت أن طارت إليه فقد نبت لها جناحان في ظهرها أخذت تضرب بهما الهواء في رقة وكادت تلمس الماء وهي محلّقة على شكل يدعول للرثاء ، وأخذ فمها الذى اتخذ شكل منقار ضامر يطلق في أثناء طيرانها صرخات يغلب عليها الشجن وأنات شكاة وتوجّع .

وحينما بلغت ألكيونيه الجنة الساكنة الخرساء التى لم تعد تحمل قطرة دم ضمّت بجناحيها الوليدين أطرافها العزيزة ، وحاولت عبثاً لثم الشفتين الباردتين بمنقارها الصلب . وقد تساءل الناس عمّا إذا كان كيكس قد أحسّ بها أم أن اضطراب البحر هو الذى رفع رأسه ، ولكن الذى لا شك فيه أنه أحس بوجودها ، فقد رحمتها الآلهة فأحالتها طائر^(٢٤)ين ظل الحب يربطهما معاً حتى بعد أن آل بهما الحال إلى هذا المآل . وهكذا بقيا وفيّين على عهد زواجهما حتى بعد أن نبتت لها أجنحة الطيور ، وظلا يتطارحان الغرام وينجبان الأبناء . ومنذ ذلك الوقت لا تزال ألكيونيه في عشّها تحضن بيضها ناشرة عليه جناحيها طوال سبعة أيام في فصل الشتاء . وفي هذه الفترة تسكن الأمواج وتهدا ، ويحكم أيولوس سيطرته على الرياح فيمنعها من الانطلاق ، متيحاً لأحفاده الاستمتاع ببحر هادئ .

أيساكوس

وفيا كان هذان الطائران منطلقين جنباً إلى جنب فوق صفحة المحيط الفسيح إذا شيخ كان يرقبها يُشيد بالحب الباقي الخالد الذى يجمع بينهما وإذا آخر كان يقف على مقربة منه يشير إلى طائر غطاس ذى عنق طويل ويقول : « أترى إلى هذا الطائر الذى يرفّ على سطح الماء بساقيْن دقيقتين قد امتدّتا خلفه ، إنه

هو أيضاً من نسل الملوك ، فإذا استطعت تتبّع نسبه خطوة فخطوة فستجد أنه ينتهى إلى أيلوس الذى أنجب أساراكوس ، ثم جانيميديس الذى اختطفه جوبيتر إلى السماء ، ثم لاووميدون وپريام الشيخ الذى قُدّر له أن يشهد الأيام الأخيرة لطروادة . لقد كان ذلك الطائر شقيقاً لهكتور ، ولولم يكن قد لقي مصيراً غريباً فى شبابه الباكر لذاغت لاسمه شهرة لا تقل عن شهرة اسم هكتور نفسه . غير أن هكتور هو ابن هيكوبا ابنة ديماس ، وإن كان يقال إن أيساكوس — وهو اسم هذا الطائر — كان ابناً لألكسيروى ابنة جرانيكوس ذى القرنين ، وضعت أمه سرّاً فى غابات إيدا . وكان يكره حياة المدن ويقنع بحياة الريف البسيطة معتكفاً فى حمى التلال بعيداً عن أهبة البلاط ، ولم يكن يتردد على مجتمعات إلّيوم [طروادة] إلّا لماماً ، ومع ذلك لم يكن فؤاده فظاً عصياً على الهوى ، بل إنه كثيراً ما طارد الحورية هيسيرييه ابنة كبرينييه^(٢٥) خلال الغابات محاولاً الإمساك بها ، حتى رآها يوماً جالسة على ضفاف نهر أبيها كبرينييه تحفّف شعرها المنسدل على كتفيها تحت أشعة الشمس . وما إن لمحت الحورية حتى فرّت كما تفرّ ظبية مذعورة أمام ذئب أغبر ، أو كما تطير بطة أمام صقر طاردها بعيداً عن برّكتها . وقد أسرع الأمير الطروادى عدّواً بقدمين زادهما الهوى المشبوب خفة محاولاً اللحاق بفتاة ضاعف الخوف من سرعة عقبيها ، وإذا حيّة كانت مستكنّة فى العشب تبرز فجأة فتلدغ قدم الحورية وهى تعدو ، ونضحت أنيابها سمّاً سرى فى جسدها فانقطعت عن العدوّ لتوثّها وانقطعت معه حياتها أيضاً ، وضم العاشق جسدها الداوى فى جنون وأخذ يصيح : « ما أشدّ تعاستى ، إننى أنا الذى طاردتك وما كنت أتوقع هذا الذى سيحدث يا فتاتى المسكينه . لقد شاركت مع الحيّة فى القضاء على حياتك ، وإن كانت الحيّة قد لدغتك فإنى أنا الذى أقمّت لها هذه الفرصة ، على أنى أكثر منها جُرمًا . فليكن موتى عزاء لك عن فراقك الحياة » ، وما لبث أن ألقي بنفسه من فوق صخرة قوّضت الأمواج المزججة قاعدتها ، غير أن ثيتيس أخذتها به الشفقة فهوّنت عليه الصدمة وتلقته على صدرها فى رفق وغطته وهو يسبح فى مياه البحر بدثار من الريش فحرمته نعمة الموت الذى تمنّاه لنفسه . وتملّك العاشق غضباً لما رآه من إرغامه على حياة يأبأها ، ولحرمان روحه من التحرر من محبسها التعس كما تآقت أن تفعل ، وما إن اكتسب جناحيه الجديدين حتى حلّق بهما فى الأجواء على ارتفاع خفيف ، ثم ألقي بنفسه ثانية على صفحة البحر غير أن ريشه خفّف من حدّة سقطته ، فاندفع إلى أعماق اليم وقد تملّكه غضب جامح محاولاً دون كلل أن يجد وسيلة يقضى بها نجه . ولقد أصاب العشق جسده بالنحول فظل محتفظاً بساقيه الطويلتين وعنقه الممتد الذى يباعد ما بين رأسه وجسده ، وولع بمياه البحر حتى عُرف باسم « الغطّاس » إشارة إلى إيغاله فى أعماقها^(٢٦) .

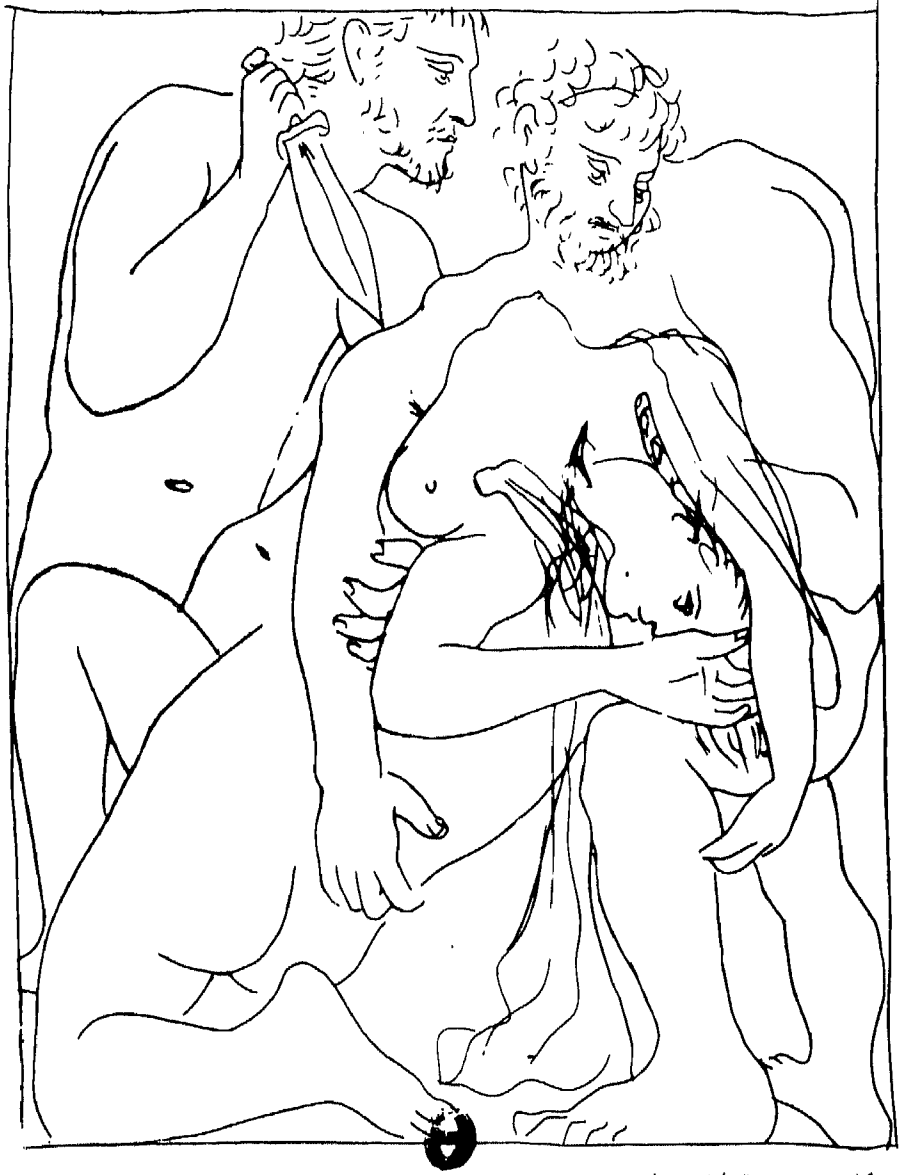
٧٦٠

٧٨٠

التعقيبات

- (١) انظر الكتاب العاشر .
- (٢) اشتهرت هؤلاء النسوة بحمل ثيرسوس من نوع مختلف عن ذلك الذى ينتهى ساقه بشمرة صنوبر ، وهو المسمى ثيرسو لوخوس ، أى الثيرسوس على شكل الحربة وينتهى ساقه بحد سهم ، وهو الثيرسوس المقصود هنا .
- (٣) المدمة أداة ذات أسنان لجمع العشب أو لتقليب التربة وتسويتها .
- (٤) عاصمة مملكة ليديا بآسيا الصغرى اشتهرت بمقاومتها لحصار أعدائها من كل الأجناس .
- (٥) اسم مدينة أقل أهمية من سارديس فى ليديا على الطريق بين سارديس وإفسوس .
- (٦) قد يكون هذا هو المثال الوحيد فى الشعر اللاتينى لتجسيد الجبال ، فى حين كانت الأنهار كلها تخاطب كأنها أشخاص إلهية .
- (٧) قد يكون هذا الوصف لأبوللو ترجمة حرفية لتمثال أبوللو حامل القيثارة للحفوظ بمتحف الفاتيكان .
- (٨) الهيلسبون وسط الدردنيل حيث سقطت هيليه إبنه أثاماس ونيفيل وهى تحاول الهروب برفقة شقيقها فريكسوس على ظهر كبش ذى فروة ذهبية خوفاً من إينو زوجة أبيها .
- (٩) المعنى الحرفى لكلمة پانومفايوس هو المكان الذى تنبثق منه رسالة الهاتف الإلهى .
- (١٠) هذه إشارة إلى إريغثونيوس بن داردانوس وكان يملك حسب قول هوميروس فى الكتاب العشرين من الإلياذة ثلاثة آلاف فرس خارقة للعادة ، وجاء بورياس إله ريح الشمال على شكل فحل الجياد فأنجب منهن اثني عشر مهرة خالدة كانت تستطيع العدو فوق سنابل القمح دون أن تنثنى أعوادها ، كما كانت تستطيع الركض فوق زبد الأمواج ، وقد طالب هرقل بها ثمناً لتحريره هيزيونيه من الوحش البحرى ، ولكن لاووميديون حاول خداعه بإعطائه جياداً عادية فعاد هرقل إلى طروادة وقتل لاووميديون وكل أبنائه واختطف هيزيونيه أسيرة له .
- (١١) كان بيليوس بن أياكوس وشقيق تيلامون قد تزوج من ثيتيس وأنجب منها أخيل .
- (١٢) اسم جزيرة بين رودس وكريت اسمها الآن اسكارپانتو ، وقد أطلق اسمها على المياه المجاورة لها ، إذ يدعى البحر بين الجزيرتين بالبحر الكارپاتى .
- (١٣) انظر الكتاب السابع .

- (١٤) تراخييس مدينة على حدود دوريس ولوكريس عند سفح جبل أويتا . وترجع شهرة هذه المدينة إلى الدور الذى لعبته فى أسطورة هرقل ، وقد سميت مأساة « نساء تراخييس » لسوفوكليس التى تقص موت هرقل بهذا الاسم لأن الكوروس فيها مكون من نساء تراخييس ، كما تدور أحداث المأساة فى قصر كيكس ملك تراخييس .
- (١٥) اسم مدينة فى بويوتيا سميت باسم الحورية نيزي ، غير أنه لا يعرف شئ عن اقتران المدينة بالحمام ، إلا أن هوميروس لقبها فى الكتاب الثانى من الإلياذة بأنها بوليثيريون أى العامرة بالحمام .
- (١٦) الحورية پساماثيه ابنة نيربوس هى أم فوكوس .
- (١٧) هم أهل ماجنيزيا ، وهو اسم أطلق على ثلاثة أقاليم أولها — وهو المقصود هنا فى ثيساليا — هو المنطقة الساحلية جنوب مصب نهر بينيوس ، وثانيها مدينة فى كاريا على ضفاف نهر المياندر ، وثالثها فى ليديا على سفح جبل سيبيلوم حيث تحولت نيبوى إلى صخرة .
- (١٨) ذكر أوفيد أكاستوس بن بيلياس ملك يولكوس بين الفرسان الذين اشتركوا فى حملة الصيد بكاليدون [انظر الكتاب الثامن] .
- (١٩) اكتشفت بالفعل بعض النصب الجنائزية فى جبانات قديمة بأثينا مخصصة لضحايا البحر ، وأغلبها فى جبانة كيراميكوس ، أى حى الفخارين .
- (٢٠) الشمع فى الأصل .
- (٢١) المقصود هنا أن يدى الكيونيه مدنستان من حيث لا تدرى ، لأنها لم تؤد شعائر الدفن الواجبة على الأرملة الوفية المستولة عن إقامة الطقوس الجنائزية لزوجها المتوفى .
- (٢٢) هو الإله سومنوس عند الرومان وهينوس عند الإغريق .
- (٢٣) بلاد السيميرين هى بلاد خرافية على حدود العالم المعروف وقتذاك ، وقد ذكر بعض القدماء أنها فى أقصى الغرب ، وذكر البعض الآخر أنها فى شبال البحر الأسود .
- (٢٤) هو الطائر المعروف باسم القاوند أو الألسهون ، من الطيور البحرية الأسطورية ويشبه طائر النورس .
- (٢٥) كبرنيه اسم مشترك لمدينة ولنهر مجاورين لطروادة .
- (٢٦) اسم الطير باللاتينية هو « ميرجوس » ويعنى الغطاس كما هو معروف الآن فى اللغات الأوروبية ، ويميل العرب إلى تسميته بالغطاس .



بيكاسو: تضحية إيفيجينيا

الكتاب الثاني عشر

الإغريق في أوليس . ربّة الشجرة

لم ينته إلى علم پريام أن ابنه إيساكوس قد تحوّل إلى طائر يخلق بجناحين في الأجواء ، فراح ييكي فراقه ، وأقام هكتور وأخوته لشقيقهم ضريحاً خاوياً عليه اسمه وليس فيه رفاته وقدموا عنه القرابين ، ولم

يشهد الحفل الجنائزى أخوهم باريس الذى عاد إلى الوطن بعد غيبة مصطحباً زوجته وكان قد اختطفها وأثار اختطافها حرباً طويلة الأمد ، إذ أبحرت ألف سفينة فى إثرهما حاملة أشجع أبطال اليونان يتعجلون الانتقام لولا أن العواصف العاتية سادت البحار فحالت بين السفن وبين الإبحار فى بويوتيا عند أوليس حيث تعجّ المياه بالأسماك .

وأخذ اليونانيون يعدّون قرباناً لكبير الآلهة وفقاً للعرف المتبع ، وحين توهّجت النيران فى المذبح العتيق زحفت أفعى ذات حرافش داكنة على شجرة دُلب قريبة من المكان الذى يُعدّ فيه القربان ودنت من عُشّ يضم ثمانية من فراخ الطير فى قمة الشجرة^(١) التهمت جميعاً مع أمها التى جهدت أن تُدوّد عن صغارها المنكوبة . وبُهِتَ الجميع حين وقف العراف كالخاس ابن ثيستور ليطالعهم بهذه النبؤة قائلاً : « أبشر يا شعب اليونان فسيحالفنا النصر ، وسوف تسقط طروادة لكن بعد عناء طويل » ، فهذه الطيور التسعة تعنى تسع سنين من الحرب المتصلة ، وما لبثت الأفعى أن تحوّلت وهى تلتفّ حول أغصان الشجرة الخضراء إلى تمثال حجرى على صورة الأفعى المتسلّقة .

٢٠

ولم يقصر الإله نيربوس عن إثارة الزوابع فى بحار أيونيا ليعوق مسيرة الحملة ، وذهب البعض فى تفسير ذلك إلى حرص نبتون على سلامة طروادة بعد أن شارك فى تشييد أسوارها . غير أن كالخاس بن ثيستور لم ير هذه الرأى وطالع الجميع بما يرى ، وأنه لا معدى عن إباحة دم عذراء لِيَسْكُنَ غضبُ الإلهة العذراء ، فما لبث الناس أن رأوا أن مصلحة الجماعة فوق المصلحة الخاصة . وغاب الحنان الأبوى لأجائمنون حين واجه واجبه ملكاً ، فخلّى بين ابنته إيفيجينيا وبين الكهنة يريقون دمها أمام المذبح وهم سيكون لسفك دمها الزكىّ تضحية وقرباناً للإلهة الغضبية التى سعدت بما كان ، فإذا هى ترسل سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد هبطت منها ظبية حلت مكان الفتاة الموكينية فى موقعها . وسكن غضب ديانا بهذا القربان الذى ارتضته ، كما سكن غضب البحار فدفعت الريح السفن الألف حتى بلغت سواحل فريچيا بعد مخاطر جمة^(٢) .

واتخذت ربّة « الشائعات » مكاناً فى قلب الكون بين الأرض والسماء والبحر . فمن هذا المكان الذى تلتقى فيه ممالك العالم الثلاث تستطيع أن ترقب كل ما يجرى مهما نأى وتسمع كل صوت يخفق فيه ، وأقامت بيتها فوق ربوة عالية خلّته مفتوحاً ليل نهار بعد أن زوّدته بألف منفذ ، وبمداخل لا حصر لها دون أبواب تعترض عتباتها . وكانت جدران البيت من النحاس الرنّان يعكس الأصوات فيردّد صداها ثانية معيداً الكلمات نفسها على الأسماع . ولم ينعم البيت بالهدوء لحظة ، ولم يسد الصمت ركناً من أركانه ، ومع ذلك لم تعل فيه صرخات بل همسات كوسوسة الأمواج التى تُسمع من بعيد ، أو بقايا أصداء رعود أطلقها جوبيتر تدفعها السحب الداكنة . وملأت أركان البيت الشائعات التى اختلط فيها الصدق بالزيف ، تجول بين الأروقة والردهات وكأنها جماعات من أطياف يصبّ بعضها الأقاصيص فى الأذان اللاهية ، ويحمل بعضها الآخر قصصه بعيداً ، وكذا الشائعات تنمو بما يضيفه كل قاص .

٤٠

- ٦٠ وفي هذا البيت كانت تعيش ربّة « السذاجة » التي تصدّق كل شيء ، وربّة « الخطأ الجامح » وربّة « الفرح الطائش » وربّة « المخاوف الجزعة » ، وربّة « الفتنة التي تنفجر بغتة » وربّات « الوسواس » التي لا يعرف أحد مصدرها ، وكانت ربّة « الشُّهرة » نفسها ترقب كل ما يحدث في أرجاء السماء والأرض والبحار ، وترقب ما يحدث في كل أنحاء العالم .

سـيـجـنـوس

- وأذاعت ربّة « الشائعات » اقتراب أسطول السفن اليونانية المتأهبة للحرب من طروادة التي لم تكن تتوقّع هذه المفاجأة ، وسرعان ما تهيأ الطرواديون للدفاع عن شواطئهم محاولين منع اليونانيين من الهبوط فوقها ، وقضت الأقدار أن يكون پروتيسيلاوس أول من يسقط في المعركة بسهم هكتور^(٣) ، وتدافع اليونانيون إلى المعركة التي جشمتهم الكثير ، وقد تبيّنوا مدى شجاعة هكتور من فداحة خسائريهم ، كما تحقق الطرواديون من بطولة اليونانيين أمام بحار الدم التي انسكبت من أجساد ضحاياهم .
- وغطى لون الدم المراق شاطئ سيجيون بعد مصرع آلاف الرجال على يد سيجنوس بن نبتون^(٤) ، وتمزيق سهام أخيل المنحوتة من أشجار سفع جبل پيليون أجساد كتائب كاملة من الجنود . وكان أخيل قد أخذ يشقّ الصفوف بحثاً عن سيجنوس وهكتور غير أنه لم يلق هكتور إلّا في السنة العاشرة من الحرب ، بينما أسرع في لقاء سيجنوس الذي انطلق نحوه في مركبته الحربية التي تقودها جياد بأعناق بيض وكأنها الجليد وهي تعلّق أعتتها ، ولوّح بذراعيه صائحاً فيه : « ليكن عزائك في موتك أيها الشاب كائناً من كنت أن حتفك سيكون على يديّ أخيل الوافد من ثيساليا » ، وأطلق حربته التي أصابت هدفها ، غير أنها تركت أثراً هيناً بصدر خصمه وكأنها كانت حربة مثلومة السنّان . وبينما أمسكت الدهشة بأخيل ، صرخ فيه خصمه قائلاً : « يا ابن الإلهة ، لقد سبقتني إليك شهرق لتعرف من أكون ، فكيف تعجب إذ لم تصبني حربتك بجراح ؟ » [ولقد كان أخيل عندها يعجب حقاً] ، فاستطرد قائلاً : « إنني لا أحمي رأسي بهذه الخوذة ولا أستر جسدي بهذه الدرع المقوسة ، وإنما أضعها كما يفعل الإله مارس . ولو شئت لنزعت عن جسدي هذه العدة الواقية دون أن أصاب في حلبة القتال بأذى ، فليس من العبث أن يكون المرء إبناً لنبتون الذي يحكم البحار كلها لا إبناً لإحدى النيريايس » .

- وفيا هو يتحدث أطلق حربة اصطدمت بسنام درع أخيل البرونزي ونفذت من طبقات تسع من جلد الثور المدبوغ إلى أن استقرت عند الطبقة العاشرة^(٥) ، فأمسك بها أخيل وألقاها جانباً ، ثم قبض على حربته وسدّها بذراعه المفتولة لكنها مع ذلك لم تمس سيجنوس بأذى ؛ وكشف سيجنوس عن صدره ومع هذا لم تصبه الحربة الثالثة . واشتعل غضب أخيل مثلما يشتعل غضب الثور الهائج في الحلبة عندما يقتحم طريقه بقرنيه المخيفين نحو الملاء الحمراء التي تثير جنونه إلى أن يدرك أن طعناته باتت غير مجدية ، وأمسك أخيل بحربته وبعد أن اطمأن إلى بقاء منها مُثبِتاً في ساقها الخشبي صاح قائلاً : « تُرى هل فقدت ذراعي

قوتها التي ذاعت شهرتها منذ قديم الزمان وأصبحت خائفة ؟ أو لم تكن قوية يوم تقدّمت الجميع وهدمت جدران ليرنيسوس ، وحين أغرقت مدينتي تينيدوس وطيبة موطن إيتيون في دماء سكانها ، وحين صبغت نهر كايكوس بلون دماء الشعوب التي تحيا على ضفتيه^(٦) ، وحين ذاق تيليفوس مرتين طعم حريق . أو لم أقتل هنا كثيراً من الرجال تكذّست أجسادهم على شاطئ البحر ؟ ألا إنهم في مصارعهم تلك دليل اكتمال قوة ذراعى التي مازلت أنعم بها حتى الآن .

وسدّد أخيل حربته إلى صدر مينوتيس ، وهو أحد الليكيين البسطاء فانغرت في صدره بعد أن اخترقت الدرع المصنّف ، وسقط مينوتيس ممدّداً فوق الأرض الصلبة ، فنزع أخيل حربته من جسده وقال : « ها هي ذى إذن يميني ، وها هي ذى حربتي التي حققت بها الآن نصراً . فلا سدّدها إلى هذا الخصم آملاً أن أحقق النصر نفسه » .

١٢٠

وهاجم أخيل ثانية سيجنوس الذي لم يحاول تفادي الضربة التي لم تحد عن مرماها فاصطدمت به الحربة التي من خشب الدردار وخلفت صوتاً مسموعاً ، ثم ما لبثت أن ارتدت كما ترتد عن جدار أو عن صخرة ، غير أن أخيل لمح دماً يطفح من مكان ارتطام الحربة فتملكته النشوة التي لم يكن لها ما يبررها ، إذ لم يكن الدم الذي رآه سوى دم مينوتيس . ودفع الغضب أخيل إلى الوثوب من مركبته الحربية الشاهقة لمبارزة خصمه بالسيف الذي استطاع أن يشق به درع سيجنوس وخوذته ، غير أن سيفه انثلم على جسد سيجنوس الذي لا يقهر ، ولم يستطع أخيل احتمال هذا الهوان ، فلطم وجه خصمه بسيفه مرات ثلاثاً أو أربع ، وبمقبض سيفه هوى على صدغيه ، فتراجع سيجنوس إلى الوراء وأخيل يتعقبه دون أن يترك له فرصة يستردّ فيها أنفاسه ، حتى استولى الخوف على سيجنوس وانتشرت سحابة سوداء أمام عينيه وتابع خطوه إلى الخلف حتى ارتطم بصخرة كانت تعوق تفهقره ، فأمسك به أخيل ثم رفعه وضرب به الصخرة ضربة قاتلة . ووقف فوق جسده فهشم ضلوعه بترسه وبضغطه ركبتيه على صدره ، وكتب أنفاسه بوضع خوذته على وجهه بعد ما جذب شرائطها إلى أسفل بشدة فبات سيجنوس مخنوقاً . وحين أخذ يخلع عن خصمه عدّته الحربية وجد أن العدة خالية لا شيء فيها إذ أن إله البحر كان قد حوّل سيجنوس إلى ذلك الطائر الأبيض الذي سُمّي منذ يومها بطائر البجع [سيجنوس] .

١٤٠

كايينوس

وبعد هذه المعركة نعم الجيشان بهدنة لبضعة أيام ، وأقبل يوم العيد ولا يزال ديدبانان طروادة على أسوارها بعيون متطلّعة وديدبانان الإغريق في خنادقهم على أهبة الاستعداد ، ومضى أخيل الذي انتصر على سيجنوس ينحر بقرة ليقرّبها قرباناً للإلهة أثينا وألقى بأحشائها فوق نار المذبح فتصاعدت في الأجواء رائحة الشواء التي تراح لها الآلهة . واقتطع أخيل قدرأ من اللحم خصّصه للطقوس المقدسة ، ثم ورّع الأجزاء الأخرى من اللحم المشوى على الموائد يملأ بها رؤساء الجند بطونهم وهم يرشفون النبيذ مضطجعين

١٦٠

لينسوا همومهم ، لا تستميلهم أنغام القيثارة ولا نشيد المنشدين ولا تستهويهم ألحان المزمار من الغاب المتعدد الثقوب ، بقدر ما شَدَّهم الحديث الممتع طوال الليل عن البسالة والمعارك والأخطار وعن النصر الذى حققوه ، فهل بعد هذا حديث يؤثر أخيل أن يخوض فيه ؟ وهل ثمة موضوع آخر يمكن أن يناقشه الآخرون فى حضرة أخيل ؟ لذا كان أهم ما دار بينهم من حديث هو عن الضربة القاضية التى أنزلوها بسيجنوس وكانت معجزة المعجزات ، فالمعروف أن الجراح لا تنفذ إلى جسده الحصين كما أن نصل السيف يتثلَّم إذا مسَّه . وبينما كان حفيد إياكوس وغيره من أبطال الإغريق يبدون دهشتهم وعجبهم إذا بنسطور يذهلهم بقوله : « لقد كان لكم فى سيجنوس خير مثال لمن تلقى الحراب بصدره ساخرًا دون أن تنفذ فيه نصالها ، ولقد رأيت أنا قبلُ رجلًا سُدَّتْ إلى جسده آلاف الطعنات فلم تُلْ منه ، وهو كايينوس ساكن جبال أوثريس وصاحب المغامرات الذائعة الصيت . أما ما يذهل له المرء حقًا فهو أن يعرف أن هذا الجسد الصَّلب الذى صمد للرماح وُلد جسدًا امرأة » .

١٨٠

فأثار قوله دهشة الجميع والتمسوا من نسطور أن يروى لهم قصة هذه المعجزة العجيبة ، وقال له أخيل : « تحدث يا وريث حكمة العصور الماضية وصاحب الشخصية الفذة ومالك ناصية البلاغة الرصينة ، واسرد علينا قصتك التى نتحرق شوقًا لساعها . فلتكشف لنا عن شخصية كايينوس وسرَّ تغيرِهِ من امرأة إلى رجل ، وما هى تلك المعركة التى تعرَّفت فيها إليه ؟ وهل حاقت به هزيمة يومًا ، وعلى يد مَنْ ؟ » . وتحدث نسطور العجوز قائلًا :

« حقًا كم أوهنت السنون العديدة من ذاكرتى ومحت من ذهنى كثرة من أحداث شبابى ، ومع ذلك فمازلت أذكر الكثير . على أن من بين جميع المخاطر التى وقعت لى سلْمًا أم حربًا تلك القصة التى سأرويها لكم لأنها ألصق الأشياء بفكرى . وإذا كانت السنون الطوال تتيح للمرء أن يقع على الكثير فلا يغيب عنكم أى عشت قرنين من الزمان ، وها أنذا داخلُ فى الثالث^(٧) .

وُهبت كايينيس إبنة إلاتوس جمالًا طاغيًا فاقت به جميع بنات ئيساليا ، مما حركَ قلوب كثير من شباب المدن المجاورة بالأمل فى الظفر بها ، فلقد كانت كايينيس من مواطنيك يا أخيل . وقد حاول بيليوس هو الآخر الزواج منها ، وقد يكون قد حاول الظفر بأمك يا أخيل أو لعلها وعدته بالزواج منها ، غير أن كايينيس كانت تأبى الزواج من كل من تقدَّم وإذا شائعة تذيع تقول إن إله البحار انتهز فرصة انفرادها على الشاطئ يومًا واحتواها بين ذراعيه ، وما إن ذاق المتعة بين أحضانها حتى قال لها : « لك أن تتمنى على ، ولسوف أحقق لك ما تطلين » . فأجابته قائلة : « ما أكرهنى أن أذوق يومًا ما دُقته الآن من مهانة ، وكم وددت لو صيرتني رجلًا ، فإن فعلتها حققت لى أعظم رغباتى » ، وإذا جَرَسُ كلماتها الأخيرة أشدَّ عمقًا حتى ليُخال أنه جرس رجل ، وكان فى الحق جرس رجل ، فلقد حقق إله البحر للتورغبتها ، فإذا الفتاة كايينيس تصبح رجلًا سُمى من يومها كايينوس ، ومُنح جسدًا حصينًا لا تخدشه الرماح أو تجرحه .

٢٠٠

ومنذ ذلك اليوم وكاينوس يحياً سعيداً بهذا العطاء الإلهي مستمتعاً بما يستمتع به الرجال ، ويهيم على وجهه على ضفاف نهر بينوس .

القنطورى

ولقد ذهبت أشهد زفاف هيبوداميا إلى پيرثوس بن إيكسيون الشجاع بين من دعاهم پيرثوس من جماعات القنطورى المتوحشين أبناء السحاب ومن أمراء ئيساليا إلى قصره الذى أخذ يضج بالمرح . وحين أقبلت العروس تتهادى وسط وصيفاتها من السيدات الوقورات الفاتئات واللاق تبزهن جمالاً انطلقت أغاني الزفاف ، وانتشى پيرثوس بحظه السعيد إذ ظفر بتلك الزوجة . غير أنه قد حيل بينه وبين تلك السعادة التى كنا نرتقبها ، فقد أشعل وجه هيبوداميا الندى نار الغرام فى فؤاد يوريتوس زعيم جماعة القنطورى الذى لعبت الخمر برأسه فاستسلم لشهواته المحتدمة ، وقام فقلب الموائد وأثار الفوضى فى الحفل وقبض فى شراسة على هيبوداميا . وأمسك كل قنطور بمن تروق له من الفتيات فتعالى صراخ النسوة ، وصاح ئيسيوس قائلاً : « أمسك الجنون يا يوريتوس فإذا أنت تعتدى على پيرثوس وأنا حى بعد ، فاثرت غضب اثنين باعتدائك على أحدهما » ، وتقدم فأنقذ العروس من بين يدي يوريتوس الذى سلبته المفاجأة القدرة على الحديث ولكنه تصدى للبطل وسدد له ضربات بقبضتيه القويتين أخذت تنهال على وجهه وصدره . فاستدار البطل إلى كأس عريق كان قائماً فوق المنضدة نثأت زخارفه البارزة فأخذه وطوح به فى وجه القنطور فشج رأسه الذى طفع بالدماء وأسال دمه من جرحه ومن فمه معاً ، فسقط على ظهره وقوائمه تترنج فى الهواء وتلايف نحه تختلط بالنبيذ المتدفق على الأرض . عندها احتدم غضب جماعة القنطورى وقد منحتهم الخمر جراءة وهرعوا صائحين « إلى السلاح . إلى السلاح » ، واحتدم القتال فإذا الكئوس تتحول إلى أدوات تراشق تنطير عبر البهو بعدما كانت وسيلة متعة .

٢٢٠

٢٤٠

وتقدم أميكوس بن أوفيون إلى المذبح المقدس فاقتحمه وحمل شمعداناً متعدد الأذرع مليئاً بالشمعات المتقدة ، وشهره كما يشهر الكاهن السكين التى ينحربها القرابين ثم هوى به على رأس اللاييث كيلادون فحطم عظامه وشوه وجهه ، فقد برزت عيناه خارج محجريها وغار أنفه داخل حلقة . غير أن پيلاتيس تصدى لأميكوس وبيده رجل من أرجل منضدة فقهره بضربة دفعت بذقنه داخل صدره ، وانبتق الدم من جسده وفمه ، ثم بعث به إلى عالم الموت بضربة أخرى .

٢٦٠

ثم رفع جرينيوس مائدة المذبح بما عليها من نيران متقدة وهو يقول : « ولم لا ألتخذ من هذا عدة أستعين بها ؟ » ثم ألقى بها وسط جماعة اللاييث فأودت بحياة اثنين هما بروتياس وأوريون الذى أجمع الناس على أن أمه ميكالى كثيراً ما جعلت بعوداتها ورقاها الهلال يهوى من السماء على الرغم من استعصائه ، وعندئذ صاح به إيكزادايوس : « لو أن سلاحى فى يدي لما أفلت من العقاب » وانتزع قرن وعمل كان معلقاً بشجرة صنوبر وجعل منه رمحاً دفع به فى عيني جرينيوس فاقتلعهما ، والتصق شئ من لحمهما بالقرن بينما

سال سائره على لحيته وتدلّ منها ممتزجاً بالدم المتخثر فوقها . والتفت رويتوس إلى شعلة من شعلات الهيكل المتقدة فأمسكها وهشم بها رأس خاراكسوس المغطاه بشعره الأشقر ، وأشعل النار في رأس جاجنيس التي احترقت وكأنها العشب الجاف ، وأخذ الدم في جراحه يفهق كما يفهق الحديد المحمى حين يُسقى بالماء . ٢٨٠ لكن خاراكسوس الجريح هز رأسه المشتعل وانتزع عتبة الباب الحجرية وحاول أن يقذف بها خصمه إلا أنها هوت من بين يديه على صديقه كوميتيس الواقف إلى جواره فحطمته . وتملكت الفرحة رويتوس فصاح : « ليت الباقون ينتفعون بقواهم كما انتفعت بها أنت » ، وأمسك بالغصن المحترق واستأنف هجمته محطماً جمجمة خصمه بضربات عنيفة مثني وثلاث ورباع حتى امتزجت عظام رأسه بمخه اللزج .

واستدار نحو إيفاجروس ودرائاس وكوريتوس ذلك الشاب الغض الذي بزغت شعيرات عذاره في وجنتيه فآلقاه صريعاً ، فصاح إيفاجروس في القنطور : « أى مجد تحقّقه بالانتصار على هذا الصبي ؟ » فأسكتته رويتوس بدسّ قضيب محمى في فمه الفاجر تأهباً لاستكمال الحديث وأنفذه من فمه إلى صدره . ثم أخذ بهذا القضيب المحمى يُضيق على درائاس وما استطاع قهره على الرغم مما كانت له من انتصارات على من سبقوه ، فقد استطاع درائاس أن يغرس غصن شجرة محترق في مكان التقاء عنقه بكتفه فأطلق رويتوس أنيناً عالياً وبذل غاية الجهد حتى انتزع الغصن من عنقه ، وأسرع بالفرار والدم يتدفق غزيراً من جرحه . ولحق به أورنيوس وليكاباس وميدون المجروح الكتف اليمنى ، ونحا نحوهم ثاوماس وبيسينور وميرميروس تُثقل الجراح خطاه مع أنه بزّ منافسيه عدوّاً من قبل ، ثم انفلت في إثرهم فولوس وميلانيوس وآباس صياد الخنازير البرية وأستيولوس العراف الذى حاول أن يُثنى رفاقه عن القتال غير أنه لم يفلح . وصاح لينيسوس في نيسوس مُهيباً به بعد أن رآه يحجم خوف أن يُصاب « ليس بُمنجيك أن تولّى الأدبار ، فسيُمدُّ القدرُ في عمرك إلى أن يودى بك سهم هرقل » . غير أن يورينوموس وليسيداس وأريوس وإميريوس لم يفتلوا من الموت إذ أودت بحياتهم ضربات درائاس فوق وجوههم ، كما تلقى كرينايوس طعنة حربة بين عينيه رغم محاولته الهرب .

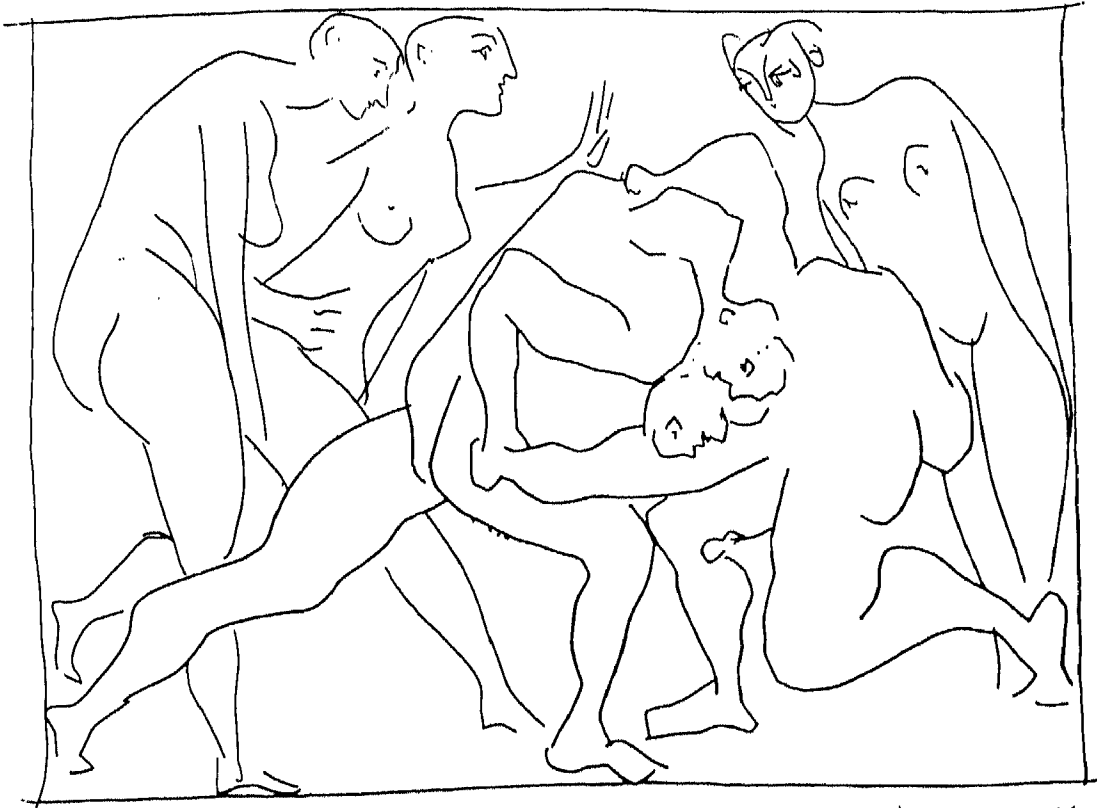
ووسط هذا الصخب كان النعاس قد غلب أفيداس وهو مضطجع على جلد دب اقتنصه فوق جبل أوساً ممسكاً كأس نبيد في يده المتخاذلة . فما كاد يلمحه فورباس من بُعد حتى انقضّ عليه برمحه الذى أنفذه في رقبته صائحاً به « تجرّع هذا النبذ ولسوف تجرعه ممزوجاً بمياه نهر ستيكس » ، ولم يمهله فرماه بسلاح سنانه من حديد وساقه من خشب الزان وأنفذه في عنقه . وكان الفتى مضطجعاً حين بغته فورباس بسلاحه فأشرف على الموت وما درى أنه مُشرف عليه ، وتدفّق دمه أسود فملاً كأسه وغمر فراشه .

ورأيتُ بعيني بيترايوس يحاول أن ينتزع من التربة شجرة بلوط ضخمة وقد أحاط جذعها بذراعيه وأخذ يميل بها يمنة ويسرة ليقتلعها من جذورها ، فانقضّ عليه بيريتوس من الخلف وأنفذ في ظهره حرّبه فمزّقت ضلوعه وألصقت صدره بجذع الشجرة ، وصرع بيريتوس كلاً من ليكوس وكروميس ، ثم حقق بعد ذلك انتصاراً مجيداً حين أنفذ غصناً في رأس هيلويس مخترقاً صدغيه من الأذن اليمنى إلى اليسرى ،

ومضى يطارد ديكتيس الذى فرّ مذعوراً حتى سقط فى هوة سحيقة تحطمت ضلوعه على أسنان صخورها المدبية .

وقد حاول أفاريوس - وكان على قرب - الانتقام لديكتيس فانتزع من سفح الجبل صخرة ضخمة رفعها ليهوى بها على خصمه ، غير أن ثيسوس عاجله بضربة من غصن شجرة بلوط حطمت ذراعيه ، ولم يشغل نفسه بعدُ بالقضاء على خصمه ، فلقد غدا عاجزاً ، وأسرع يقفز على القنطور بينور ثم غرس ركبته فى ضلوعه وجذب شعر معرفته الغزيرة إلى الخلف بيده اليسرى ، بينما هشم باليمين عظام وجهه بهراوته ذات الأبن [العُقد] . ثم استدار يضرب بالهراوة نفسها نيديموس وليكوتاس الماهر فى تسديد الرماح ، وهيباسوس ذا اللحية المرسلة على صدره ، وريفوس الذى يفوق الأشجار طولاً ، وثيريوس صائد الدبة على سفوح جبال ثيساليا الذى كان يعود إلى بيته مصطحباً فرائسه أحياء وهى هائجة لافتراسه إياها .

٣٤٠



هيكاسو: اعتداء القنطورى على اللايث

وضاق ديموليون بانتصار ثيسوس فحاول انتزاع شجرة صنوبر ضخمة لم تستسلم له فجزّ أحد فروعها ورمى به ثيسوس الذى ألهمته الربة باللاس أن يتفاداه - أو لعل هذا ما يريدنا ثيسوس أن نصدّقه - فانطلق الفرع إلى كراتور الفاره الطول ففصل عنقه عن صدره وكتفه اليسرى ، وكان كراتور هو حامل عُدّة أبيك الحربية يا أخيل يوم قدّمها أمتور كبير شعب الدولويس ضماناً للسلم بعد هزيمته على يد أبيك . وإذ شاهد أبوك بيليوس مشهد كراتور بجرحه الرهيب الذى شطره إلى نصفين صاح « لسوف أنتقم لك

٣٦٠

يا كراتنور ، يا أعزّ جنودى إلى » ، وسدّد بيده التى زادها الغضب قوة حربة ذات ساق من خشب الدردار إلى القنطور ديموليون اخترقت جسده وغاصت بين ضلوعه واستقرت فى عظامه وهو يضطرب من قوة اندفاعها . ونجح القنطور فى انتزاع مقبض الحربة الخشبي دون أن يخرج نصلها الحديدى المستقر فى رثتيه ، ومع ذلك تحرك القنطور وقد عاودته قوة جديدة وأخذ يبطأ بيليوس بحوافره ، وبيليوس يتلقى الطعنات بخوذته وترسه يحمى بهما جسده ، إلى أن استطاع أن يُنفذَ خنجره فى صدر القنطور . وكان بيليوس قد صوّب قذيفتين أودتا بحياة فلجرايوس وهيليس وإيفينووس وكلانيس ، ثم ألحق بهما دوريلاس الذى كان يعتمر بقلنسوة من فراء الذئب فوق رأسه ، ويمسك بقرنى ثور مقوسين جعل منها حربته الفاتلة التى كم تلطخت قبلُ بالدماء ، وقلّت له ساعتها وقد ملأنى الغضب قوة : « انظر يا دوريلاس كيف لا يثبت قرناك لحربتي » . ولم ألبث أن سدّدت ضربة إلى جبهته لم يستطع تفاديها فرفع يده يحمى بها جبينه ، فنفذت الحربة مخترقة يده إلى جبهته فصرخ صرخة مدوية ، وخلفه جرحه القاسى عاجزاً عن الحركة . وكان بيليوس قد اقترب منه فطعنه بسيفه طعنة مزّقت بطنه ، فقفز القنطور وقد تدلّت أحشاؤه على الأرض فوطئها بحوافره وأخذ يدوسها حتى تمزّقت فتهاوى خامد الجسد .

ووسط المذبحة الدائرة لم يشفع للقنطور كيلاروس جماله بلحيته الذهبية التى كادت أن تبرز وشعره الذهبى المنسدل على الكتفين حتى منتصف خصره . ولم يكن نصفه الأسفل الذى على شكل الفرس والسليم من العيوب أقلّ جمالاً من نصفه العلوى ، ولو كان فرساً كاملاً التكوين لكان جديراً بأن يمتطيه كاستور وفخر الفرسان ، إذ كان ظهره خليقاً بأن يعلوه أقدر الفرسان كما كان صدره مفتول العضلات . وكان عنفوان الحياة المثير للإعجاب يبدو فى قسّات وجهه وفى عنقه وكتفيه ويديه وصدره إذ كان نصفه الإنسانى جميل التكوين كالتماثيل المنحوتة التى يُبهر بها الناس ويعجبون . وكان جُله أشد سواداً من حلقة الليل ، بينما كانت قوائمه وذيله فى بياض الثلج . ومع تراحم الكثيرات من بنات جنسه عليه فإنه لم يمل إلاّ لأجلهن وهى هيلونوميه التى ملكت أن تسلبه لبّه بحنانها ورقتها وبحبّها والعناية بمظهرها بقدر ما تسعفها أطرافها ، فكانت تصفّف شعرها بالمشط ، وتزيّنه بالورود وزهور البنفسج تارة وحصى البان تارة أخرى ، وأحياناً بتيجان تهيئها من الزنبق الأبيض . وكانت تغسل وجهها مرتين كل يوم بمياه النبع المتدفقة من غابات پاجاساى ومرتين تغطس بجسدها فى مياهه ، وتغطى كتفها بأفخر فراء الحيوانات البرية التى تنتقيها . وقد هام بها كيلاروس كما هامت به ، وكانا يتجولان معاً فى الجبال ، ومعاً يأويان إلى كهف كان ملجأهما . وكانا قد ذهبا معاً إلى قصر ملك اللابيث ، وإذا هما يشاركان فى تلك المعركة الوحشية من حيث لا يدريان ، وفجأة انطلقت حربة من يد مجهولة آتية من الجهة اليسرى نفذت فى ملتقى صدر كيلاروس بعنقه ، ومع أن الجرح الذى أصاب القلب كان هيئاً إلاّ أن جسد القنطور كان قد فقد الاحساس وغشيته برودة الموت بعدما انتزع السهم منه . وأسرعت هيلونوميه باحتضان حبيبها المحتضر ، ووضعت يدها على الجرح محاولة كبته ، ثم أدنت فمها من فم كيلاروس ل تمنع روحه من أن تفارق جسده ، ولكنها ما إن رآته يُسلم الروح حتى صرخت صرخة مدوية ونذّت عنها كلمات حالت صرخات المحاربين بينها وبين سماعيها ، ثم ألقت بنفسها فوق النصل الذى به مات زوجها فلقيت حتفها وهى تضمّه بذراعيها .

وما تزال تتمثل أمام عيني حتى اليوم صورة فايوكوميس الذى كان قد دثر جسده الحصانى وأعضاءه البشرية بستة من جلود السباع عقد بعضها إلى بعض ، وقد رفع كتلة خشب ضخمة يشق على زوجين من الثيران المشدودة معاً جرّها ، وألقى بها على تيكثافوس بن أولينوس فشجّت رأسه من أعلاه إلى أسفله ، وتهشمت جمجمته العريضة وانسابت عصارة مخه خيوطاً من فمه ومنخريه وعينييه وأذنيه كما تنساب قطرات اللبن الخثير من سلّة من فروع السنديان المضفورة ، أو كما يقطر العصير من ثقب معصرة ثقيل ضاغطها ، غير أنى تقدمت لحظة حاول القنطور نزع الأسلحة من ضحيته المتهالكة وغرست سيفى فى فخذ ذلك العدو الظافر - وأبوك شاهد على صحة ما أقول - وكذلك هوى خثونيوس وتيلييواس تحت ضربات سيفى ، رغم أن أولهما كان مسلّحاً بغصن شجرة مزدوج الطرفين المسنّين ، وثانيهما بحربة استطاع أن يصيبني بها ، وما أنت ذا ترى موضع الإصابة هنا متمثلاً فى هذه الندبة القديمة التى ما تزال واضحة للعيان . ولقد كان الأجدد فى تلك الأيام الخوالى أن يوفدونى فى حملة لغزو پرجامون^(٨) [طروادة] ، ولو كانوا قد فعلوا لربما أفلحت بأسلحتى فى وقف تقدم البطل هكتور العظيم إن لم أكن قد قضيت عليه ، غير أن هكتور لم يكن وقتذاك قد وُلد بعد ، أو لعله كان ما يزال طفلاً . أما الآن فقد أوهنت الشيخوخة قواى .

بماذا أحدثك ؟ أأقص عليك كيف تغلب پيريفاس على القنطور پيرايثوس ؟ أو كيف دفع أمبيكس حربته المنحوتة من خشب القرانيا رغم فقدتها لطرفها المسنون فى وجه إيكيتلوس المنتصب على أربعة قوائم ؟ وكيف قضى مكاريوس على إريجدويوس من پيليثرون بغرس وتد فى صدره ؟ وما زلت أذكر كيف رمى نيسوس حربة صيد استقرت فى ملتقى فخذى سيميلوس ، ولا تحسب أن مويوس بن أمبيكس لم يكن سوى عرّاف فقط ، فإن حربته هى التى أردت القنطور هوديتيس الذى حاول عبثاً النطق وهو ملقى على ظهره ، غير أن لسانه كان لاصقاً بلهاته الغائرة فى فمه .

وخلال ذلك كان كاينوس قد أقى على خمسة من الأعداء هم : ستيفيلوس وبروموس وأنتيماخوس وإليموس وپيراكتيس المسلح بالبلطة ، ولست أذكر كيف أصيبوا غير أنى أذكر أسماءهم وعددهم . ثم انطلق لاتريوس الفارع الجسد القوى الأطراف مسلّحاً بما غنمه من هاليسوس المقدونى إثر قتله ، وكان يعيش فى زهرة العمر بين الشباب والشيخوخة ، يتدفّق فيه ريعان شاب وإن وخط الشيب فوديه ، وكان يجتذب الأنظار بترسه وسيفه وحربته المقدونية ، ويستدير بوجهه ناحية الفريقين راكضاً مرات عدّة فى دائرة محددة ، ثم تحدّث قائلاً فى خيلاء : « حتى أنت يا كاينيس ، كيف لى أن أصبر على وقاحتك ؟ أنت كما عهدتك لا تزال امرأة وستظل كذلك فى نظرى ، فهل أنسيت الهيئة التى وُلدت عليها ، أم أنسيت الفعلة التى أنيتها والثلث الذى دفعته كى تستحيل رجلاً زائفاً ؟ اذكر الهيئة التى وُلدت عليها ثم ابحث عن سلّة من خيوط الصوف واجدها بإبهامك ، واترك شئون الحرب للرجال » . وحين استمع كاينوس إلى هذا الحديث المهيّن شهر حربته وهوى بها على القنطور حيث مَوَّجِل نصفه البشرى مع نصفه الحصانى ، فسقّ جذعه وهو يشرب عالياً متأهباً للانقضاض عليه . وجنّ لاتريوس تحت وطأة الألم وضرب بحربته هذا

الوجه العارى لذلك المحارب الشاب الوافد من فيلوس ، غير أن الحربة ارتدت ثانية كما ترتد حبات البرد من على السطح الذى تسقط عليه ، أو كما ترتد الحصاة عن سطح طبل أجوف . ثم دنا من كايينوس محاولاً ٤٨٠ غرس سيفه فى جنبه فوجد جسده أصلب من أن ينفذ سيفه فى أى موضع منه . ولكن لاتريوس صاح : « على الرغم من هذا فلن تُفَلت منى وسأقتلك بنصل سيفى وإن ثُلِمَ سنه » ، وشرع سيفه ليهوى به على فخدى كايينوس قابضاً عليه بذراعه اليمنى الطويلة ، وإذا السيف يرسل رنيناً وكأنه ارتطم بقطعة من رخام ويتحطم وتتناثر أجزاؤه على الجلد الصلد . وبعد أن تعرّض كايينوس لضربات خصمه مرات عدة دون أن يُصاب بأذى صاح فيه قائلاً : « والآن لنرَ ماذا سيكون أثر سيفى فى جسدك ؟ » وما لبث أن غرس سيفه الفتك فى فخدى القنطورى حتى مقبضه وأخذ يديره ويحركه فى أحشائه وهو يُحدث فيه جرحاً بعد جرح ، فاستشاطت جماعة القنطورى غضباً وصرخوا صرخة عالية واندفعوا ناحية كايينوس يطعنونه بأسلحتهم غير أنها كانت تسقط من أيديهم مثلومة الأطراف . وبقي كايينوس بن إيلاتوس سليماً لم يصب بخدش ، فبُهِتَ مهاجموه لهذا الأمر الغريب ، وصاح مونيكوس قائلاً : « يا للعار ، أينهم شعب بأسره أمام رجل وحده ، بل هو أقرب أن يكون رجلاً ، غير أنه على الرغم من هذا فهو رجلٌ حقاً . ولقد غدونا نحن بجُبننا دواب على نحو ما كان هو قبل أن يصبح رجلاً . فما نفع أطرافنا القوية وقوتنا المزدوجة ؟ ولم إذن ٥٠٠ جمعت الطبيعة فينا بين كائنين من أقوى الكائنات ؟ ليس صحيحاً إذن أننا من نسل آلهة أو أننا أبناء إيكسيون الذى ملأته بطولته أملاً بأن يظفر برضى جونو المتعالية مادما نسقط هكذا ضحايا عدولا يعدون أن يكون نصف رجل . دَخِرْجُوا فوق جسده الصخور والأشجار والجبال ، وغطّوه بالغابات حتى تخمد روحه المتشبّثة بالحياة ، ولتدقّ الأشجار عنقه ، ثم ليقض عليه ثقلها كما تقضى عليه الجروح » . وأمسك وهو يتحدث بشجرة كانت قد اقتلعتها ريحٌ جنوبية عاتية وقذف بها خصمه الباسل ، وتبعه آخرون فى اقتلاع الأشجار ، وما هى إلا لحظات حتى كان جبل أوثريس قد تعرّى من أشجاره وغابت عن جبل پيليون ظلال غاباته ، ودُفِن كايينوس تحت ثقل كومة هائلة من الأشجار حاول أن ينفذ من بينها بكتفيه القويتين ، غير أن تراكم الأشجار حين بلغ فمه وغطى رأسه أخذ أنفاسه فإذا قواه تنحور ، وعبثاً حاول النهوض وإزاحة ٥٢٠ الأشجار عن جسده بدفعها هنا وهناك ، وكأنما نزل زلزال رهيب أخذ يمزّج جبل إيدا العظيم . ولا نعرف حقاً ماذا حدث بعد ذلك ، وإن ذهب البعض إلى أن جسده قد غاص تحت ثقل الأشجار إلى عالم تارتاروس . غير أن موبسوس بن أمبيكس نفى هذه القصة ، وقال إنه رأى طائراً بجناحين أسمرين يُفَلت من بين كومة الأشجار ويحلّق فى الفضاء ، وقد رأيت أنا أيضاً ذلك الطائر الفريد الذى لم أر له مثيلاً من قبل ولا من بعد ، وحين رآه موبسوس يحلّق تحليقاً لا عُسَر فيه فوق معسكره ويصرخ صرخات عالية جعل يلاحقه بعينيه وفكره فى طيرانه ، وصاح فيه قائلاً : « سلاماً لك يا كايينوس يا فخر جنس اللايث ، يا من كنت يوماً بطلاً صنديداً ، وصرت الآن طائراً فريداً » . ولما نعرفه من هيبة موبسوس صدّقنا ما قال ، وضاعف الحزن غضبنا المحتدم لأن عدداً كبيراً من الأعداء قد احتشدوا على رجل واحد وظفروا به ولوّحنا بسيوفنا إفصاحاً عن غضبنا ، ولم تلبّث عن القتال حتى أتينا على نصف أعدائنا ، وأفلت الباقون فراراً مخترفين فى ظلمة الليل .

پيريكليمينوس

واستشاط تليپوليموس غضباً لأن ملك پيلوس قد روى معارك اللايث مع القنطورى أنصاف البشر
 ٥٤٠ دون أن يتحدث عن هرقل فصاح قائلاً : « عجباً سيدى ، أفضت وأنسيت ما أبداه هرقل من ضروب
 البسالة ، مع ثقتى فى أن أبى قد قال أكثر من مرة أنه هو الذى هزم تلك المخلوقات وليدة السحب
 السماوية . فأجابه نسطور بنبرة حزينة قائلاً : « لم تضطرنى إلى أن أستعيد أحداثاً تثير الأسى ؟ ولم تدفعنى
 لأنكأ جراحاً التأت مع الزمن ، وأتحدث عن أبىك مع كراهيتى إياه بعدما لحق بى الكثير من الأضرار
 بسببه . حقاً إنه أتى من الأمور — كما تعرف الآلهة — ما يفوق التصور ، وملاً الدنيا بمغامراته [وليس من
 شأنى أن أنكر هذا] ولكننا لا نمتدح ديفوبوس ولا پوليداماس بل ولا هكتور نفسه^(٩) ، فمن هذا الذى
 يمتدح أعداءه ؟ نعم لقد هدم أبوك مرة جدران ميسينيه ومرة أخرى دمر مدينتى إليس وپيلوس اللتين لم تجنيا
 جناية ما ، كذلك أحرق بيتى بالنار وتركه خاوياً بعد أن قضى على من فيه بحد سيفه ، ولن أذكر شيئاً عن
 قتله العديدين ، وحسبى أبناء نيلیوس الاثنى عشر ، وقد كنا آنذاك فى أوج الشباب نحن أبناء نيلیوس ،
 لكنه بطش بهم جميعاً سوى ، ولو أننا سلمنا هزيمة الجميع فقد كان مصرع پيريكليمينوس شيئاً عجباً ،
 ذلك أن نپتون مؤسس سبط نيلیوس قد رزق ذلك الصبى بقدرة يقوى بها على أن يبدو فى أية هيئة يشاؤها
 وأن يخرج عنها حين يريد . ولقد تبدل فى الهيئات كلها حذراً من هرقل ، غير أن ذلك كله لم يجده نفعاً .
 ٥٦٠ فقد جعل نفسه الطائر الأثير عند كبير الآلهة والذى يحمل بمخالبه المحذبة صواعقه ، وأخذ ينهش وجه هرقل
 بمنقاره المعقوف ويخبطه بجناحيه ومخالبه ، فتصدى البطل التيرنثى له بأن شد قوسه إلى صدره وأطلق سهمه
 الذى لا يخطئ أبداً ، فنفذ فيه وهوى بين السحب عند منبت جناحه . ومع أن الجرح لم يكن عميقاً إلا أن
 العضلات الممزقة عجزت عن أداء وظائفها وأفقدت النسر قدرته على الحركة والطيران ، ولم يقو جناحاه
 المتهاويان على التحكم فى الهواء فسقط على الأرض وهوى جسده فوق السهم الذى كان عالقاً بجناحه ،
 فاندفع خلال صدره حتى نفذ من جنبه الآخر . أو تظن أن من واجبى بعد ذلك أن أثنى على هرقل أيها
 الرّبان الوسيم لأسطول رودس ؟ ومع ذلك فكل ما أثار به لأخوتى أن أتجاهل ما كان لهرقل من بسالة ، لأن
 الصداقة التى تربط بينك وبينى وثيقة » .
 وبهذه الكلمات التى جرت على لسان الشيخ بليغة رقيقة اختتم قصته ، ودارت كئوس النبذ ثانياً ،
 ونهض الجالسون عن المائدة ليأووا إلى مضاجعهم ما بقى الليل .

موت أخيل

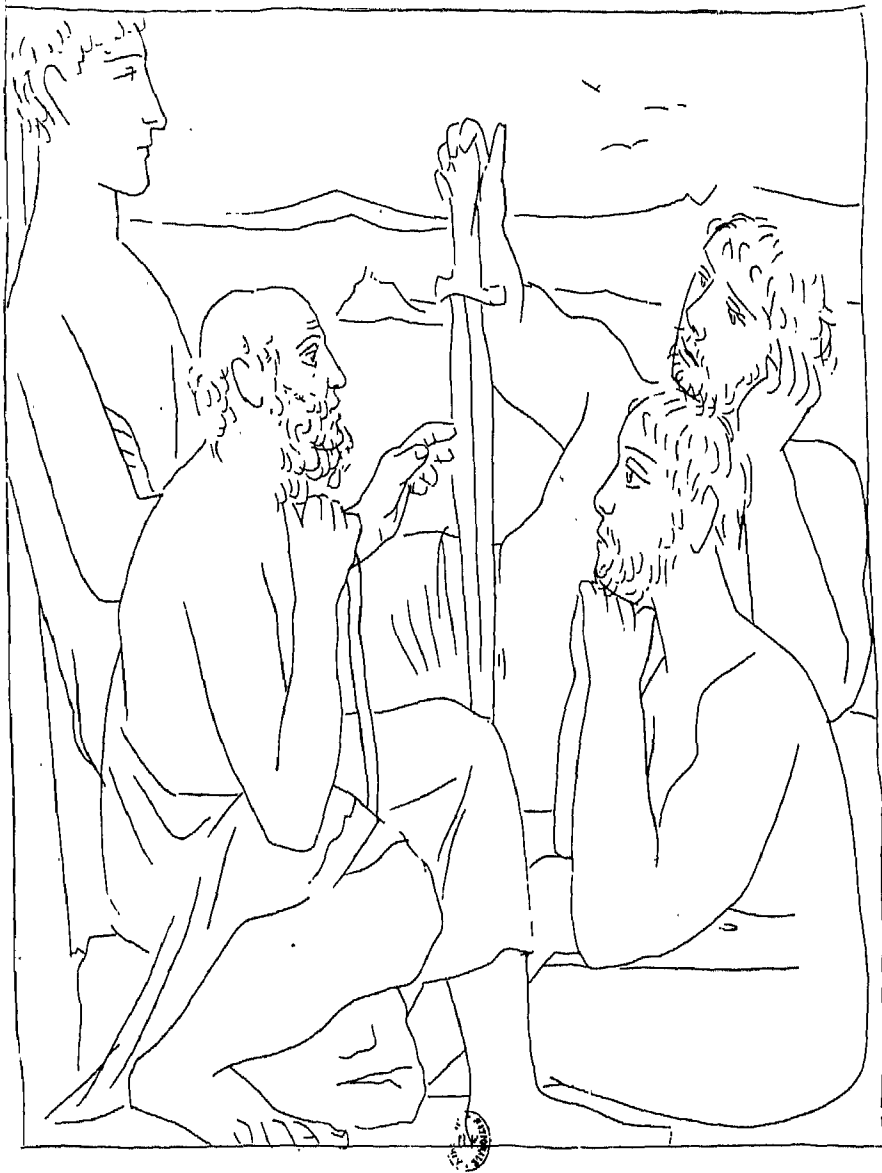
استبدّ الحزن بالإله نپتون الذى يسيط سلطانة على أمواج المحيط بصولجانه الثلاثى الشعب لمصرع
 ابنه سيجنوس الذى مُسخ بجعة من بجعات فايثون ، فأخذ يستنزل اللعنات على أخيل القاسى القلب

ويغلي غضباً على خصمه . وأخيراً ، وعندما طالت الحرب حتى أوشكت أن تبلغ سنوات عشرين أخذ في الحديث مع أبوللو المسترسل الشعر قائلاً « يا أعزّ أبناء أخى عندى ، يا من شاركتنى فى بناء أسوار طروادة دون أن تنجى من ورائها نفعا ؟ ألم يؤسفك أن ترى هذه القلعة المشيدة تُشرف على الزوال ؟ ألم يحزنك مصرع الآلاف العديدة من الطرواديين دفاعاً عن أسوارها ؟ ألم يترامى لعينيك طيف هكتور - من بين القتلى - وجشته تُجرّ على الثرى مرةً بعد مرةً حول پرغامون مدينته الحبيبة ، ومع ذلك لا يزال أخيل يستمتع بالحياة ، هذا البطل الممجى الوحشى الذى هدم ما شيدناه ويسفك من الدماء أكثر مما تسفكه أية حرب ، فليات إلى ولسوف يرى ما ستترله به حربى ذات الشعب الثلاثة ! ولكن طالما أنى لا أجد فرصة لملاقاته وجهاً لوجه فلتبشش أنت به بسهم خفى من سهامك لا يُدرى من أين أتى . »

ووافق أبوللو إله جزيرة ديلوس مستملياً من كراهته لأخيل التى لم تكن تقل عن كراهية عمّه له ، فطوته سحابة ثم هبط منها فى صفوف الطرواديين . ولمح وسط المعمة باريس وهو يصوب سهمه إلى محاربين يونانيين لا شأن لهما فكشف عن نفسه لباريس وقال له : « لم تبدد سهامك فى سفك دماء العامة ؟ إذا كنت تُعزّز أقاربك فلتدبر وجهك نحو حفيد إياكوس ولتنتقم منه لأشقائك الصرعى ! » وأشار أبوللو إلى أخيل وهو يُحدث باريس وكان أخيل ساعتها يحصد بسيفه أعناق محاربى طروادة ، ثم أدار أبوللو قوس باريس ناحية البطل اليونانى ، ووجه بيده الباطشة سهماً أصاب فى التّهدفه ، فكانت هذه أول فرحة أحسّ بها بريام منذ مصرع ولده هكتور . وهكذا لقي أخيل قاهر الأبطال ذائع الصيت هزيمته على يدى جبان كان قد اختطف زوجة يونانية خانت زوجها . لعمري لو كنت عرفت يا أخيل يوماً أنك ستسقط صريعاً فى حومة الوغى على يد أنثى^(١٠) لآثرت الموت بضربة بلطة من يد إحدى ساكنات ضفاف نهر الثيرمودون^(١١) . ها هو ذا البطل الذى كان يثير الفزع بين الطرواديين يغدو طُعماً للنيران وهو من كان فخر اليونانيين وزعيمهم المظفر فى ساحات القتال . وأشرف على حرق جثته فى المحرقة الإله الذى كان قد صنع له سلاحه ليخوض به الحرب^(١٢) واستحال أخيل العظيم رماداً ، ولم يبق منه غير تلك الحفنة التى لا تكاد تملأ وعاء صغيراً ، غير أن أمجاده عاشت من بعده حيّة فى أسماع العالم ، فكانت شهرة ابن بيليوس ليست دون عظمتهم وكان بهما جديراً ، كما أنه بعد أن ترك الحياة لم يعبأ بوحشة تارتاروس . وكم أثار تُرسه الممارك بعد موته واحتدم الصراع من أجل الظفر به ، كما أثار سلاحه العراك للظفر به . على أنه لم يجرؤ على المطالبة بتُرسه ابن تيديوس ولا أچاكس بن أويليوس ، ولا أصغر أبناء أتريوس ، [أجائمنون] ، ولا أخوه المحارب الأكبر سنّاً والأشدّ بطشاً [منيلاوس] . ولم يثق أحدٌ بجدارته لطلب هذا المجد سوى أچاكس بن تيلامون وأوديسيوس بن لايرتيس . وعرف أجائمنون سليل تانتالوس كيف يتخلّص من مهمة قد تجرّ عليه الأحقاد ، فدعا قادة أرجوس إلى الاجتماع وسط المعسكر وجعلهم قضاة ليفصلوا بين المتنافسين .

التعقبات

- (١) شجر الدلب .
- (٢) يلاحظ أن هذا هو موضوع مأساة أوريبيدس : « إيفيجينيا في أوليس » .
- (٣) تنبأ عرّاف يوناني بهلاك أول يوناني يهبط على شاطئ طروادة فقدم بروتيسيلاوس نفسه قرباناً لتلك النبوءة وسقط بسهام هكتور . وكان الإغريق قد أقاموا له قبراً بالقرب من الهيليسبونت ، ومن الغريب أن شاهد هذا القبر الذي يسجل اسمه قد اكتشف مؤخراً في حفائر طروادة .
- (٤) انظر الكتاب الحادى عشر .
- (٥) ليس المقصود هنا الدرع الذى أعدّه هيفايستوس نزولاً على إرادة ثيتيس لابنها أخيل والذى وصفه هوميروس في الكتاب الثامن عشر من الإلياذة ، وإنما المقصود درع مصنوع من طبقات من جلد الثيران وصفه هوميروس منسوباً إلى كل من أوديسيوس وأجاكس [انظر مستهل الكتاب الثالث عشر] .
- (٦) يسرد أخيل أشهر مآثره منذ أن بدأ الإغريق في حصار طروادة ، وكانت ليريسوس مدينة في مملكة ميزيا بأسيا الصغرى ، وتينيدوس جزيرة صغيرة تقابل الشاطئ الطروادى ، وأطلق أوفيد على نبيه اسم طيبه ، وهى مدينة قائمة على سفح جبل پلاكوس في ميزيا ، وكانت عاصمة مملكة إيتيون والد أندروماخى الذى قتله أخيل مع أبنائه ، أما الكاياكوس فهو اسم نهر في ميزيا .
- (٧) كان لنسطور أحد عشر أخاً قتلهم هرقل مع أبيهم ، ولم يبق من الأسرة سوى نسطور فمنحه الإله أبوللو الحق في أن يحيا مجموع عدد السنين التى كان مقدراً أن يحياها إخوته لو استكملوا عمرهم . لذلك يقال إنه عاش ثلاثمائة سنة .
- (٨) هذه بطبيعة الحال أمنية بعيدة عن التحقيق ، يقصد بها نسطور الإشادة بقوته وبأسه أيام شبابه ، فيزهو بأنه لو كانت حرب طرواده قد وقعت قبل موعدها في تلك الآونة لكان قد أبلى فيها أحسن البلاء .
- (٩) ديفوبوس هو شقيق هكتور ، وبوليداماس هو ابن پانثوس وكلاهما مذكوران في الإلياذة . وقد اتخذت الإلهة أثينا شكل ديفوبوس لتطمئن هكتور الذى كان يطارده أخيل ولتعيده إلى المعركة حيث كان مقدراً له أن يموت . أما بوليداماس فهو الذى نصح هكتور بالحرص ولم يستمع الأخير إلى نصحه .
- (١٠) يشبه أوفيد هنا باريس بامرأة احتقاراً لشأنه .
- (١١) الثيرمودون نهر صغير يصب في البحر الأسود ويسرى خلال بلاد الأمازونات في پونتوس على شاطئ البحر الأسود ، وكانت مليكتهن پنثيسيليا قد جاءت لنجدة الطرواديين فالتقت في المعركة بأخيل الذى قضى عليها .
- (١٢) فولكانوس أو هيفايستوس هو إله النار والحدادة ، وهو الذى صقل أسلحة أخيل وبذلك يكون قد أعدّه للقتال كما أحرقه فيما بعد بلهبه فوق محرقة الموق .



پیکاسو: اچاکس یطالب بأسلحة أخیل

الكتاب الثالث عشر

أچاکس یطالب بأسلحة أخیل

جلس القادة وسط جماهير الجند الذين اصطفوا وقوفاً ، ونهض أچاکس صاحب الترس المصنوع من جلود ثيران سبعة وأخذ يخطب فيهم مُرغياً مُزبداً وعيناه عالقتان بشواطىء سيجيا وبالسفن الراسية

عندها ، ولوح بقبضة يده وهو يصيح : ها أنذا أمام سفن الأسطول يا چوبيتر أدافع عن قضيتي أمام من جرعوا على أن يسووا بيني وبين أوديسيوس ! هذا الذي فرّ هارباً من نيران هكتور^(١) بينما اقتحمتها أنا لأدفعها بعيداً عن سفننا ، والذي يؤثر المقارعة بالحجة على المجاهدة بالسيف ، ففصاحته في الخطابة تعدل بأسي في القتال وإنى لراغب عن منازلته بالكلام على قدر ما هوراعب في تحجب منازلتي بالذراع . على أن ما أنجزته من أعمال ليس في حاجة إلى أن تفصح عنه كلمات فقد شهدتموها أيها اليونانيون ، وما أعوز أوديسيوس إلى الحديث عن مآثره ومنجزاته التي لم تشهدها سوى ظلمة الليل . وإن الجائزة التي أطمع فيها لعظيمة ، غير أن مطالبة أوديسيوس بها يُفقدّها كل قيمة ، ولن يباهى أچاكس بجائزة مهما عظم شأنها إذا ما تطلّع إليها أوديسيوس . وها هو ذا الآن يظفر بمجد كبير ، لأنه بعد هزيمته أمامي سيغدو من المشهورين ، إذ قد جعل نفسه نذّاً لى .

وإذا كان ثمة شك في شجاعتي فإن لى إلى جانب ذلك سنداً قوياً هو نبُل تحتدى ، فأنا ابن تيلامون الذى اقتحم أسوار طروادة في رفقة هرقل الشجاع ، كما ألقع في سفينة الأرجو التي بُنيت في پاجاساى حتى بلغ شواطئ كوخيس ، ثم إن جدّى هو إياكوس الذى يفصل بعدالته بين الموتى الهامدين في المملكة التي يتعذب فيها سيزيفوس بن أيولوس مشدوداً إلى صخرة . وكذا يعترف چوبيتر كبير الآلهة بأبوته لإياكوس وهو ما يجعلنى من الرعيل الثالث لأحفاد چوبيتر . وما كان لى أن أزعج بهذا النسب في قضيتي هذه لولا أنه نسب أخيل العظيم ، فلقد كان أخى وابن عمى ، ولهذا فإننى أطلب بميراثه . وأما أنت يا أوديسيوس يا من تشبه جدّك سيزيفوس في الغش والخداع فكيف تستبجح لإحكام اسمك في أسرة إياكوس وأنت غريب عنها ؟ . أو ترفضون أنتم منحنى هذه الأسلحة وقد سبقته إلى ميدان الوغى دون أن يستحشنى أحد ؟ أو تفضّلون آخر من حمل السلاح بعد تقاعسه عن الحرب مدّعياً الجنون حتى كشف عن خدعته التي فضحت جُبْنه إنساناً أشدّ دهاءً منه . لقد كان پالاميديس بن ناوپيليوس هو الذى حمل أوديسيوس على الانضمام إلى صفوف المقاتلين بعد أن كان يروغ من الحرب . أيمحقّ له أن يحمل تلك الأسلحة العظيمة بعد أن كان يعزف عن حمل السلاح ؟^(٢) وهل أحرّم أنا من إرث قريبي لإقدامى على المخاطرة منذ البداية ؟ ليته كان مجنوناً حقاً أو ليته بقى كذلك بين الناس ! وليتنا لم ننسّق إلى نصائح هذا الوغد الإجرامية ولم نندفع صوب القلاع الفريجية ! فلولا ذلك ما لحق بنا عار ترك فيلوكتيتيس بن پوياس في ليمنوس حيث يقال إنه يأوى إلى أحد كهوف الغابات محرّكاً أشجان الصخور ببكائه وضراعه للآلهة أن تُنزل بابن لايرتيس [أوديسيوس] ما يستحق من جزاء^(٣) ، وإن كانت الآلهة موجودة حقاً فلا بد أن يُستجاب لهذا الدعاء .

إن هذا المسكين المنكود الحظ الذى خرج معنا مقسماً بين الولاء لقضيتنا وهو من قادة اليونان وورث سهام هرقل قد هدّه المرض والجوع ، وليس له من ثياب غير ريش الطير ، وليس له من غذاء غير لحومها بعد أن يرميها بسهامه ، تلك السهام التي كان عليه أن يقضى بها على طروادة . ومع ذلك فهو ما يزال حياً لأنه لم يصاحب أوديسيوس في سفينته . كذلك كان پالاميديس التعس يتمنى لو خلفناه هو الآخر في ليمنوس ، ولو حدث ذلك لبقى حياً أو مات دون أن يُرمى بتهمه ظالمة ، ذلك أن خصمى يذكر جيداً أن پالاميديس

قد مرَّغ اسمه في الوحل حين كشف عن ادعائه الجنون ، ولم يغفرها له أوديسيوس فأتهمه زوراً بخيانة الإغريق ودلّل على هذه التهمة بتقديم سبائك ذهب كان قد خبأها في مكان أمين من قبل . وهكذا استطاع أوديسيوس أن يوهن من قوة الأخيين بنفى البعض وقتل البعض الآخر ، وكان هذا أسلوب أوديسيوس في الحرب ، وبهذا الأسلوب نفسه كان يروّع من حوله .

ومع أنه يملك من البلاغة ما يبيّز به نسطور الوفيّ فإنه لن يستطيع إقناعي بأنه لم يرتكب خطأ حين هجر نسطور العجوز الذي أرقه الإعياء وكان جواده جريحاً فتوسل إليه أن يساعده فلم يستجب لرجاء من كان له رفيقاً . وإن ديوميديس بن تيديوس ليشهد أنني لا أختلق هذه الاتهامات ، فقد نادى على أوديسيوس باسمه مرات عدّة ونعى عليه ذعره وهربه ، غير أن الآلهة ترعى أمور البشر من عليائها بالعدل ، فما هو ذا من رفض مساعدة نسطور تُعزّزه هو نفسه المساعدة ، وكما تخلّى عن غيره كان طبيعياً أن يتخلّى عنه الآخرون ، فحين أخذ يصيح منادياً زملاءه بأعلى صوته أسرعُ إليه فرأيته شاحب الوجه يُرعد فرعاً وذعرأ من الموت الذي يتهدّده ، فحميته بترسى وهو جاث على الأرض وأنقذت حياة هذا الجبان ، وإن كان هذا في نظري أمراً تافهاً لا أحفل أن أثاب عليه ! ولئن كنت مُصرّاً على منافستي في الاستحواذ على هذه الأسلحة فلتعد معي إلى حيث أنقذتك من يد الأعداء ، لتعد بجرحك وصراخك المدوّى وهاك ترسي لتختبئ خلفه وحاول وأنت في حمايته أن تبارزني . إنني لم أكّد أيها السادة أنترع هذا المحارب مما يحقّق به من خطر — وكان جرحه قد أوهن قواه فلم يعد يقوى على الوقوف — حتى أخذ يجري هارباً بعوني كما لو لم يكن به جرح يعوقه عن العدو . وتقدم هكتور إلى المعركة في صحبة آلهته ، وكان يبثّ الرعب حيث مضى لا في قلبك وحدك يا أوديسيوس بل في قلوب جميع الشجعان ، فما كان أشدّ الهول الذي يصاحبه في خطوه ، وقد استطعت أنا في اللحظة التي كان يسعد فيها بطعناته الدامية أن ألقيه على ظهره حين قذفته من بُعد بكتلة ثقيلة من الصخر ، حتى إذا تقدم يطلب النزال انبريت له وكنت الوحيد الذي جرؤ على ذلك . وقد تضرّعتم للآلهة أيها الأخيون أن يقضى الاقتراع باختيارى لمنازلته واستجابت الآلهة لضراعتكم ، أتريدون أن تعرفوا ما انتهت إليه المباراة ؟ إن هكتور دون ريب لم يتغلب على . وأين كان أوديسيوس حين تقاطر الطرواديون على سفن الإغريق بالسيوف والنيران في حماية چوبيتر ؟ لقد وقفت أحمى بصدرى سفنكم الألف التي كانت محط آمالكم في العودة إلى الوطن . من أجل هذه السفن العديدة ، أعطوني إذن هذه الأسلحة .

١٠٠ وإذا سمحتم لي أن أقول الحق كله فإن أسلحة أخيل تترقب النصر على يديّ أكثر مما أترقبه أنا منها فمجدها متصل بمجدي اتصالاً وثيقاً ، وإن السلاح هو الذي يُهيب بأچاكس ، وليس أچاكس هو الذي يُهيب بالسلاح ، ولْيُقْبَلْ أمير إيثاكا الذي لا يزن شيئاً [أوديسيوس] وليقارن بين ما أنجزت وما أنجز ، وليحدّثنا عن سفكه دماء ريسوس ودولون الخانع وعن أسره هيلينوس بن پريام ، وسرقته « للبالاديوم » ذلك التمثال المقدس في معبد پاللاس . إنه لم ينجز شيئاً قط في وَضْع النهار ، ولم يقدم على عمل دون عون ديوميديس ، فإذا ارتأتيم أن تكون هذه الأسلحة ثمناً لمثل هذه التفاهات فاجعلوها بينها وليكن لزميله

ديوميديس أكبر النصبيين . ولكن ما جدوى منح هذه الأسلحة لابن إيثاكا الذي لا يتحرك إلا في الظلام ولا يصل إلا بالخدعة إلى عدو قليل الحيلة . وإن برىخ خوذته الذهبية هو الذي سيكشف حركته وهو مخبئ في الظلام ، ولو أنه ارتدى خوذة أخيل لما استطاع تحمّل ثقلها ، كما لن تستطيع ساعده المنهكتان حمل رمح أخيل المقدود من دردار غابات جبل پيليون ، وستثقل الترس المنقوشة عليها صورة الكون بأسره على يده اليسرى المتخاذلة التي لا تحذق إلا السرقة والخطف . كيف تطمع في عطاء لن يزيدك إلا ضعفاً ؟ وما أشد فرحة العدو إن أخطأ الإغريق ومنحوك هذه الجائزة ، فما أيسر عليه أن يسلبك إياها لا أن يهاها وهي في حوزتك ! قد يكون الفرار هو ميزتك الوحيدة يا أجبن الجبناء ، لكن سرعتك سوف تهبط إذا حملت مثل هذه الأسلحة الثقيلة . ولتنظر إلى ترسك الذي لم يُختبر في القتال إلا لماما ويبدو وكأنه لم يُمس ، بينما يحمل ترسي ألف أثر من ضربات السيوف التي تعرّض لها وما أحوجه إلى أن يستبدل به غيره . ثم ما أجدرنا أن ندع الكلام جانباً ونحتكم إلى القتال ، فلتلقوا بأسلحة البطل أخيل بين صفوف الأعداء ، ثم لتأمرونا بأن يهبّ كلانا لاستردادها لتكون من حق من يعود بها .

١٢٠

وأخلد ابن تيلامون إلى الصمت وسرت ثمنات التقريظ بين الجميع حتى نهض ابن لايرتيس [أوديسيوس] واقفاً ، فأرعى بصره قليلاً ثم رفع رأسه وجال ببصره بين قادة الجيوش ، وانفرجت شفاته استعداداً لأن يخطب ثم بدأ يتحدث بأسلوب بليغ مثير وقال : « أيها الإغريق . لو كانت الأقدار قد رعت آمالنا جميعاً لكنا الآن في غنى عن الخوض في أمر هذا الإرث ، ولبقيت يا أخيل بيننا حياً حاملاً أسلحتك ولكنا أكثر سعادة بوجودك بيننا . ولكن الأقدار القاسية قد أبت أيها الأصدقاء أن يبقى بطلنا بيننا [وهنا تظاهر بمسح دُمعة جرت من عينيه] فمن أحق بخلافة أخيل سوى من نصّبه قائداً لجيوش الإغريق ؟ إن كل ما أطلبه منكم هو ألا يستميلكم خصمي إليه ، وهو كما يبدو فظ القلب غليظه [وهذه حقيقة لا مرأى فيها] ، كما أرجو ألا يستثيركم أحد علىّ لذكائي الذي لم أستخلمه قط إلا لنفعمكم أنتم . فلا تدعوا بلاغتي - إذا صحّ وصف حديثي بالبلاغة - تنقلب سبباً لبغضكم ليأي ، فلساني الفصيح يدافع الآن عن صاحبه الذي طالما دافع عنكم ، أو ليس من حق كل امرئ أن يستغل الملكة التي وهبها ؟

١٤٠

إن نبل أنسابنا ومآثر أجدادنا وهي ليست من صنع أيدينا لا تنهض مسوغاً لتمييزنا عن غيرنا ، ولكن مادام أچاكس قد أثار اتصال نسبه بجويتر فإنني أستطيع أيضاً الزهو بأن جويتر كان مؤسس أسرق ، فأنسب إليه في الدرجة التي ينتسب بها أچاكس إليه . وإن أبي لايرتيس هو ابن أركسيوس بن جويتر ، هذا إلى أنه ليس بين أسرق من أدين ونفى خارج وطنه^(٤) ، كما أن نبل نسبي يتجلّى أيضاً في قرابتي لمركوريوس عن طريق أمي . وهكذا ينتمي كلّ من والدتي بجدة من أجدادهما إلى إله . ومع ذلك فلست أطالب بهذه الأسلحة التي أمامكم لأنني من سلالة أكثر نبلاً من سلالة أچاكس لو قدرنا في الحسبان نسب أسرة والدتي ، هذا إذا أضفنا أن أبي لم يسبق له أن سفك دم أخ له^(٥) . وإنني أطالب بأن تزونا هذه القضية بميزان العدل والإنصاف على ألاّ تضيفوا على أچاكس ميزة ما لا شيء سوى أن تيلامون هو شقيق پيليوس . ولا تقضوا بإعطاء هذه الأسلحة إلا لمن كان ذا شجاعة وجرأة دون التفات إلى مجد الأسلاف . ولئن كنتم تبحثون عن

أقرب أقارب أخيل وأقرب ورثته فأمامكم بيليوس والد أخيل أو ابنه بيروس . وإذن فما هو حق أچاكس في الإرث ؟ بل لتحملوا هذه الأسلحة إلى حيث وُلد أخيل في فُثيا أو إلى حيث لجأ قبل حرب طروادة في سكيروس ! ثم إن تيوكروس ليس أقل قرابة لأخيل من أچاكس^(٦) ، ومع ذلك فهل رأيتموه يطلب نصيبه ؟ ولو طالب به لنفسه فهل كان له أن يُعطاه ؟

١٦٠ وإذا كان الأمر منافسة بالمآثر وحدها ، ففي استطاعتي أن أقول إنني أنجزت أكثر مما أستطيع عده . ولو سردتها عليكم على تتبعها التاريخي لرأيتم أن كلاً منها كانت نتيجة لما قبلها وسبباً لما بعدها .

كانت أم أخيل — وهي إحدى حوريات النيريايس — قد تنبأت بالميتة التي تنتظر ابنها فألبسته ثياب النساء تخدع بهذا الجميع ومن بينهم أچاكس المائل أمامكم ، ورحت أنا أعرض على أخيل سلعاً من تلك التي تستهوى النساء بعد أن دسست بينها بعض الأسلحة التي تثير فضول الرجال الشجعان . وما كاد يراها البطل حتى أطرح عن نفسه ملابس النساء وتناول الرمح في يد والترس في يد ، فقلت له « إن طروادة المشثومة ترقب دخولك يا ابن الإلهة فلم تتردد في أن تقهر هذه المدينة المنيعه ؟ » ، وأخذت بيده لأدفع به نحو مستقبل زاخر بالمغامرات ، وأنا لهذا أعدّ مأثره مآثرى أنا . ومن ثم فانا الذي انتصرت على تيليفوس الصُلب ، وأنا الذي عاجلت جروحه استجابة لضراعه بعد أن أنفذت فيه رمحي ، وإن فتح طيبه ليعود إلى وحدي . ولا يفوتكم أن تذكروا لي فتح ليسبوس وتينيدوس وخريسيوس وسيللا مدن أهوللو ، وسكيروس أيضاً ، واذكروا أن يئناى هي التي هذمت أسوار ليرنيسوس ، ولا داعي أن أذكركم بأسماء كل من قهرهم أخيل . وفي الحق إنى أنا الذي قدّمت لكم مقاتلاً استطاع أن يقهر هكتور الجبار ، فلي أنا الفضل في أن جنة هكتور الشهير ملقاة أمام عيونكم ، ولست أريد ثمناً لهذا إلاّ الأسلحة التي كانت بها بطولته . إننى أنا الذى أعطيته إياها يوم أن كان حيّاً ، وقد آن لى أن أستردها بعد أن قضى نحبه .

١٨٠ ويوم أصبحت فجيرة منيلاوس هي فجيرة الداناوين^(٧) [الأخين أو الإغريق] جميعاً خرجت إلى المرفأ ألف سفينة تقصد قصد أوليس المواجهة لجزيرة يوبويا وبقيت طويلاً تنتظر الرياح التي تدفعها إلى الأمام بعد أن ظلّت تتعرض للرياح التي تردّها للمرفأ ، وهتف العراف بأمر أقسى ما يكون حين أنبا بأن الآلهة قضت بأن يضخّى أجائمون بابنته البريئة قرباناً للإلهة العطشى ، فأبى الأب الاستجابة لما قضت به الآلهة جميعاً بعد أن تمكّنت مشاعر الأبوة من قلبه ، وكنت أنا الذى أقنعت ذلك الأب الحانى بإيثار مصلحة الأمة على عواطفه^(٨) ، ولقد كانت محنة شاقة . وليغفر لى ابن أترپوس أننى نجحت في إقناعه وهو الوالد المفجوع ، فغلّبت مصلحة الشعب وشرف أخيه والمسئولية الخطيرة التي يحملها على مشاعره قبل أن يدفع دم ابنته ثمناً لمجد وطنه . وقد بعثوا بى كذلك إلى أم الضحية كى أقنعها ، وكان إقناعها أمراً عصياً فلجأت إلى الحيلة حتى أدفعها إلى تسليم ابنتها لى ، ولو أنهم كانوا قد عهدوا بهذه المهمة إلى أچاكس لكانت شراعنا ما تزال مُستكنّة في المرفأ تنتظر هبوب الرياح المواتية .

وقد أوفدوني كذلك سفيراً إلى قائد القلعة الطروادية فذهبت ومثلتُ بين يدي مجلس شيوخ طروادة المهيب ، وكان جميع أعضائه شهوداً وما اعترانى خوفٌ بل دافعت عن القضية التي عهد بها الإغريق إلى ،

وألقيت التبعة على باريس وطالبت بإعادة هيلينا والغنائم ، وأثرت عطف پريام واستملت لجانبى أنتنور ، وقد أفلت من أن أقع فى قبضة باريس وإخوته والجماعة التى شاركت فى خطف هيلينا بقيادته . وإنك لتعلم ذلك كله يا منيلاوس ، فقد كنا فى ذلك اليوم نجابه خطراً واحداً لأول مرة فى حياتنا . ٢٠٠

كم يطول حديثى لو شئت أن أقص عليكم كل ما اضطلعت به من مهام نافعة سواء بحنكتى أو بذراعى خلال هذه الحرب الطويلة ، فقد تحصّن العدو على إثر المعارك الأولى وراء أسوار المدينة ولم تكن ثمة فرصة يواجه فيها بعضنا بعضاً فى العراء ، ولم نلتحم فى قتال صريح إلا بعد أعوام عشرة ، فماذا فعلت أنت يا أچاكس خلال هذه المدة التى لا معارك فيها وأنت الذى لا تجيد إلا الحرب ؟ وماذا قدّمت أيامها ؟ لو سألتنى ماذا فعلت أنا لقلت لك أننى كنت أعدّ الكمائن للعدو ، وأقيم التحصينات حول خنادقنا ، وأسرى عن رفاقنا ، وأستحثهم على احتمال صعاب الحرب بصدور رغبة ، وأدربهم على التسلّح والتزوّد بالمؤن . غير أن مليكنا أجامنون ، بعد أن أفرعته رؤيا فى منامه عن نصيحة من نصائح چوپيتر ، أمرنا بفرض أيدينا من هذه الحرب . وقد كان من حق الملك أن يتعلّل بما قرره ناسباً قراره إلى كبير الآلهة ، ولقد كان من حق أچاكس أن يرفض تنفيذ هذا الأمر وأن يطالب باستمرار القتال حتى تبيد طروادة مادام يملك ذلك . فلماذا لم يعترض طريق الجنود الذين حزموا أمرهم على الرجوع ؟ ولماذا لم يقف دون هؤلاء المترددين يمنهم بسلاحه ؟ أو كان هذا كثيراً على محارب لا ينطق إلا عن زهو وتفاخر ؟ إننى أسألكم كيف تفسرون قعوده هذا ؟ لقد احمرّ وجهى خجلاً يا أچاكس عندما شاهدتك تدير ظهرك للعدو وتستعد للإبحار بسفنك ! وساعتها أطلق الأسى عقدة لسانى فصحت قائلاً : « ما هذا الذى أراكم تفعلونه يا رفاقى ؟ وأى جنون هذا الذى يردكم عن طروادة بعدما باتت فى متناول أيديكم ؟ وماذا تراكم حاملين إلى دوركم بعد قتال دام عشر سنين سوى العار ؟ » ، وأفضت فى الحديث حتى نجحت بقوة حجتي ويانى فى إنهاض المحاربين إلى صفوف القتال . وحينئذ عاد أجامنون وأمر جنوده الذين هيمن عليهم الفرع بأن يحشدوا ، ولم يجرؤ ابن تيلامون أن يفتح فمه فى تلك اللحظة ، بينما أطلق ثيرسييتيس^(٩) لسانه فى سبّ الملوك فلم أدعه يُفكّ بلا عقاب ، ورحت أشد من عزيمة رفاقى المدعورين وأستنفهم للقاء العدو إلى أن ردّ حديثى إليهم إقدامهم الذى كادوا يفقدونه . ولهذا أقول إن كل عمل باسل حقّقه أحد رفاقى منذ تلك اللحظة هولى ، لأننى أنا الذى رددتهم عن النكوص إلى مواجهة العدو . ٢٢٠

ثم إننا لو فتنشنا بين الإغريق عمّن يمتدحك أو يتوق لرفقتك ما وجدنا بينهم أحداً . وإن ديوميديس لشريك لى فيما أفعل وهو دائب التقدير لى والثناء على ، وهو أول من يقول بأن أوديسيوس رفيقه الجدير بثقته . وليس اختيار ديوميديس لرفقتى أنا من بين آلاف الإغريق شيئاً لا يقوم على سبب ، وما خرجت للقاء العدو بحكم الاقتراع بل أنا الذى أقدمت بحض إرادتى مستهيناً بأخطار القتال غير عابء بالظلام ، وقتلت دولون الفريجى ذلك البطل الذى كان مثلى لا يهاب المخاطر . وما قتلت إلا بعد أن أرغمته على الكشف عما أعدّه العدو فى طروادة الجاحدة . وكان بوسعى أن أقنع بهذا المجد وأعود إلى خيامى ، لكننى قصدت خيام ريزوس فى معسكره وقتلته ورفاقه ، حتى إذا ظفرت بكل ما تُقْتُ إليه من نصر اعتليت مركبة ٢٤٠

خصمى التى استوليت عليها ودخلت بها معسكرى يخفق قلبى بفرحة الانتصار . لكم أن ترفضوا إذا شئتم منحى أسلحة أخيل الذى طلب دولون عدونا الطروادى جواده ثمناً لتجسسه علينا ليلاً^(١٠) ولكن فى هذه الحالة يكون أجاكس أكثر كرمًا معى منكم^(١١) . هل أذكركم بمعاركى مع كتائب سارييدون الليسى وكيف أبدتها بسيفى حين أجريت نهراً من الدماء غرق فيها كويرانوس بن إيفيتوس والأسطور وخروميوس وألكندر وهاليوس ونويومون وپريتانيس ، وحين قضيت على ثوون وخرسيداماس وخارويس وإينوموس وآخرين أقل من هؤلاء شأنًا^(١٢) . وكم نالنى من جراح لو كشفت لكم عن مواضعها لعرفتم كم تكون هى مصدر زهو وفخار لى ، وإن كنتم غير مُصدقى فيما أقول فما هى ذى جراحى فلتنظروا إليها ٢٦٠ [وعندها أزاح ثوبه بيده وقال] : هاكم صدرًا لم يتعرض لخطر إلا من أجل قضاياكم ، على حين أن ابن تيلامون لم ينزف قطرة واحدة من دمه خلال هذه السنين الطوال ويخلو جسده من الندوب ومن آثار الجراح . ومع ذلك لماذا تلقون بالا لما يقول بأنه حارب الطرواديين دفاعاً عن أسطول الإغريق خارجاً بذلك عن أوامر چوپيتر ؟ قد أسلم له بما يقول ، فلقد رفع بالفعل السلاح ضد العدو ولست ممن يقللون من شأن أحد حقداً عليه ، ولكنى لا أملك أن أنسب إليه وحده مجداً شاركه فيه غيره . ألايته يعترف لكم بنصبيكم أنتم فى المجد ، فباتروكلوس هو وحده الذى ردّ هجوم الطرواديين ولاحق بطلهم حين حاول حرق الأسطول ، وقد فعل ذلك فى عُدّة خلعت عليه مظهر أخيل ، وما هو ذا أجاكس يدعى أنه هو وحده الذى تجاسر على مواجهة هكتور متناسياً أنه لقيته بعد أن لقيته مليكنا وقادتنا وبعد أن لقيته أنا ، والحق إنه كان تاسع من تصدوا لهذا الواجب المقدس . ثم إن الاقتراع هو الذى هيأ لى هذه المهمة ، ولتخبرنى أيها البطل الشجاع عما انتهت إليه مبارزتكما ، فمبلغ علمى أن هكتور قد خلّف ميدان القتال دون أن يناله جرح واحد .

٢٨٠ ألا ما أشقانى وأقسى ما أحسّه من ألم وأنا أستعيد الآن ذكرى اليوم الذى سقط فيه أخيل بطل الإغريق وحاميهم والذى لم تقعدنى الهموم ولا الدموع عن رفع جسده الممدد فوق التراب وحمله إليكم على كتفى هذين بأسلحته وعُدته التى أنطلّع اليوم لارتدائها ، وأرجو أن تعيننى قوى على تحمّل ثقلها جزاءً للشرف الذى تمنحونى إياه . وهل يُرضى أم أخيل حورية البحر أن تؤول أسلحة ابنها التى هبطت إليه من السماء والتى تمثل عملاً فنياً رائعاً إلى جندى فظ يفتقر إلى الإدراك السليم ؟ إن أجاكس هذا يقصر عن فهم معنى النقوش التى تغطى الترس والتى تصور البحر واليابسة بمدنها العديدة وآفاق السماوات المرصعة بالنجوم وكوكبات الثريا والقلائص والدب الأكبر وسيف الجوزاء المتألق ، إن أجاكس هذا ليجهل قيمة الأسلحة التى يطالب بها .

وإنه يتهمنى بالفرار من واجبات الحرب الشاقة وبالتباطؤ عن المشاركة فى المباراة ، دون أن يدرك أن فى هذا خطأ من شأن أخيل الكبير القلب . فإذا كنتم تعدون تظاهر المرء بغير ما يطن جُرمًا أكون أنا وأخيل مُدانين ، وإن كنتم تعدون التأخر فى المشاركة فى الحرب خطيئة فاذكروا أنى سبقت أخيل لى المعركة ، وما عوقبى إلا حب زوجة ودود ، وما أخره هو غير عطف أم حانية . لقد أعطيناهما الأيام الأولى من الحرب بينما

وقفنا عليكم بقية أيامها ، ولست أخشى تهمة يشاركني فيها بطلٌ عظيم ، ومع ذلك فإن التعرّف على أخيل يعود إلى ذكاء أوديسيوس ، بينما لا يعود هذا إلى أچاكس .

لا تدهشوا حين يطفح لسانه الأحق سباباً لى فهو يقول عنكم أنتم أيضاً ما ينبغي له أن ينجل منه ، فإذا كان يَشِيننى أننى وجهت إلى پالاميديس تهمة كاذبة فهل كان بما يشرفكم أنكم أنتم من أدنتموه بهذه التهمة ؟ لا . . لقد عجز ابن ناوپليوس عن تبرئه نفسه من جرم بينُ بشع . ثم إنكم لم تستمعوا إلى التهمة التى وُجِّهت إليه فحسب بل شاهدتم كذلك دليل جرمته بأعينكم وهى الرشوة . وليس عدلاً أن أحاكم الآن من أجل بقاء فيلوكتيتيس بن پوياس حيّاً حتى اليوم فى جزيرة ليمنوس الأثيرة عند فولكانوس ، فأنا لم أنفرد بعمل كنتم معى فى الإجماع عليه ، ولست أنكر أننى نصحته باعتزال الحرب والأسفار رفقاً بنفسه التى قَسَتْ عليها الآلام فاستجاب إلى نصحتى ومن ثم بقى حيّاً حتى الآن ، وهذا ما يؤكد أننى لم أصدر رأى عن نية حسنة فحسب — وقد كان هذا وحده كافياً — بل لقد كان لنصحتى نتيجة طيبة أيضاً . وإذا كان الكهنة يريدون دعوته اليوم ليُسهم فى إنهاء تدمير پرجامون فأناشدكم أن تعفونى من تبليغه هذه الرسالة ، ولعل ابن تيلامون بما يملك من بلاغة يكون خير سفير لهذه المهمة لقدرته على تهدئة غضب رجل مريض نائر ، ولعله يجد حيلة يخرج به من عزلته . ولسوف يجرى نهر سيمويس على الضد من اتجاهه المعتاد ، ولسوف يُعرى جبل إيدا من الشجر ، ولسوف تنقلب الأوضاع بأن تسرع اليونان إلى معونة طروادة قبل أن يستطيع أچاكس الغبى أن يفيد الإغريق بفكره البليد وقبل أن يفتر حماسى لما فيه نفعمكم أو قبل أن يفتر إخلاصى لكم . وتستطيع أنت يا فيلوكتيتيس القاسى القلب أن تحقد علينا جميعاً ، على مليكك وعلى حلفائك وعلى ، وتستطيع أن تغمرنى بالسباب وتطالب برأسى قرباناً للآلهة وتودّ أن لويْلقينى الحظ بين يديك حتى تستطيع سفك دمي وأخضع لإرادتك كما خضعت أنت لإرادتى ، ومع ذلك كله فإننى مُقبل عليك محاولاً العودة بك ، ولو أعانى الحظ فسوف أظفر بسهامك كما ظفرت بسهام هيلينوس الكاهن الدردانى ، وإننى لقادر على ذلك فقد فسّرت نبؤة الهاتف الإلهى وكشفت مصير طروادة (١٣) ، واختلست تمثال منيرقا الطروادية من محرابها متسلّلاً وسط الأعداء الذين كانوا يحرسونه ولم يكن من الممكن أن تأذن الأقدار بفتح طروادة دون الظفر به ، أو يمكن بعد ذلك مقارنة أچاكس بى ؟ وأين كان أچاكس بكل ما يفاخر به ؟ لماذا أمسك به الخوف فى ذلك اليوم ، ولماذا كان من حظ أوديسيوس أن يجسر على اختراق خطوط العدو الحصينة والتّستر بالظلام والعبور وسط سيوفه المشهورة ، وتخطى أسوار طروادة والنفوذ حتى قمع قلاعها لسلب تمثال الإلهة من محرابها والعودة به إليكم من بين صفوف العدو ؟ ولو لم أنجح فى ذلك لما كان جلود الثيران السبعة نفع على ذراع ابن تيلامون الأسير ! لقد كان الاستيلاء على طروادة ليلتها ثمرة جهدى ، فقد مهّدت الطريق لفتح حصون طروادة ، ولتكتفّ يا صديقى ابن تيديوس عن التمتعة وإرسال النظرات صوب ديوميديس ، فإننى مقرّ أن له بعض الفضل فيما تم إنجازه ، لكنك أنت نفسك لم تكن وحيداً حين أخذت تدافع عن أسطول الحلفاء بترسك فقد كان وراءك جيش كبير بينما لم يكن معى غير رفيق واحد ، ولو لم يعرف أن الحكمة تسبق الشجاعة وأن القوة لا تستأثر وحدها بحق الظفر بهذه الأسلحة

٣٢٠

٣٤١

لطالب بها هو كذلك ، ولطالب بها أچاكس الآخر^(١٤) الذى يفوقك تواضعاً ، وكذلك يوريبيولوس الريب
ثم ابن أندرايمون الذائع الصيت ، وإيدومينيوس ومواطنه ميريونيس ، ومنيلالوس أصغر أبناء أترىوس ،
على أنهم جميعاً رغم قدرتهم البدنية وإقدامهم على الحرب قد سلّموا بتفوق حكمتى على حكمتهم . وإذا
٣٦٠ سلّمنا بأن يمينك باطشة فى المعارك فما أحوجك إلى تلمس مشورتي حين تحتاج إلى التفكير لحسم أمر من
الأمور ، فإذا كنت تملك القوة فما أعوزك إلى ذكائى الذى ينفذ إلى المستقبل . حقاً إنك تحسن القتال ، غير
أن منيلالوس بن أترىوس لا يختار لحظة الهجوم إلّا عن مشورتي ، فأنت تخدم الإغريق بجسدك بينما
أخدمهم أنا بعقلى ، وربّان السفينة أكثر شأنًا من ملاحها الضارب بالمجداف . كما أن القائد أعظم شأنًا
من الجندى ، فأنا أفوقك كما يفوق القلب اليد فى جسد الإنسان ، لأن القلب هو مصدر القوة كلها .

عليكم الآن يا قادة الإغريق أن تقلّدوا الأسلحة أقدر جُنْدِكُمْ ، فامنحوني هذه الجائزة لقاء سنوات
طويلة بذلت فيها الكثير من الجهد وحملت فيها الكثير من القلق ، امنحوني هذا الشرف جائزة لخدماتى .
لقد قاربت مهمتنا من الانتهاء ، وكم من عراقيل وضعها القدر فى طريقنا وأزحمتها عنكم ، كما نجحت فى
أن أفتح لكم طريق قلعة پرجامون بل لقد استوليت عليها بنفسى . إننى أناشدكم بالآمال التى تنطلع إليها
وبأسوار طروادة الموشكة على السقوط فى أيدينا ، وبالألهة التى انتزعتها من أيدي الأعداء وبكل ما تملّيه
الحكمة وبكل ما تفرضه الشجاعة والإقدام أن تذكرونى إذا ظننتم أن طروادة ما تزال أمامها بقية من حياة .
٣٨٠ أما إذا ما رأيتم ألا تمنحونى هذه الأسلحة فلتعطوها إلى هذه [وأشار إلى تمثال منيرفا] التى تصنع المصائر
والأقدار .

وبهذا نجح أوديسيوس فى استمالة زملائه القادة بكلماته ، وتجلّى سحر البلاغة وسطوتها فى أنه فاز بعد
خطبته الرصينة بأسلحة البطل أخيل ، بينما وقف أچاكس الذى كثيراً ما تصدّى لهكتور وواجه أخطار النار
والسيف وصواعق جوبيتر عاجزاً عن مغالبة الغضب المحتدم فى أعماقه . وقهر الأسى والحنق أچاكس
العصى على القهر ، فلوّح بسيفه صائحاً : « وهذا السيف سيفى ، أولاً يريد أوديسيوس أن يتنازعنى إياه
أيضاً ؟ لسوف أحفظ به حتى أزهرق به روحى ، وسوف يشرب اليوم هذا النصل من دم صاحبه وهو الذى
طالما شرب من دماء الفريجيّين ، وهكذا لا يقهر أچاكس أحد سوى أچاكس نفسه » .

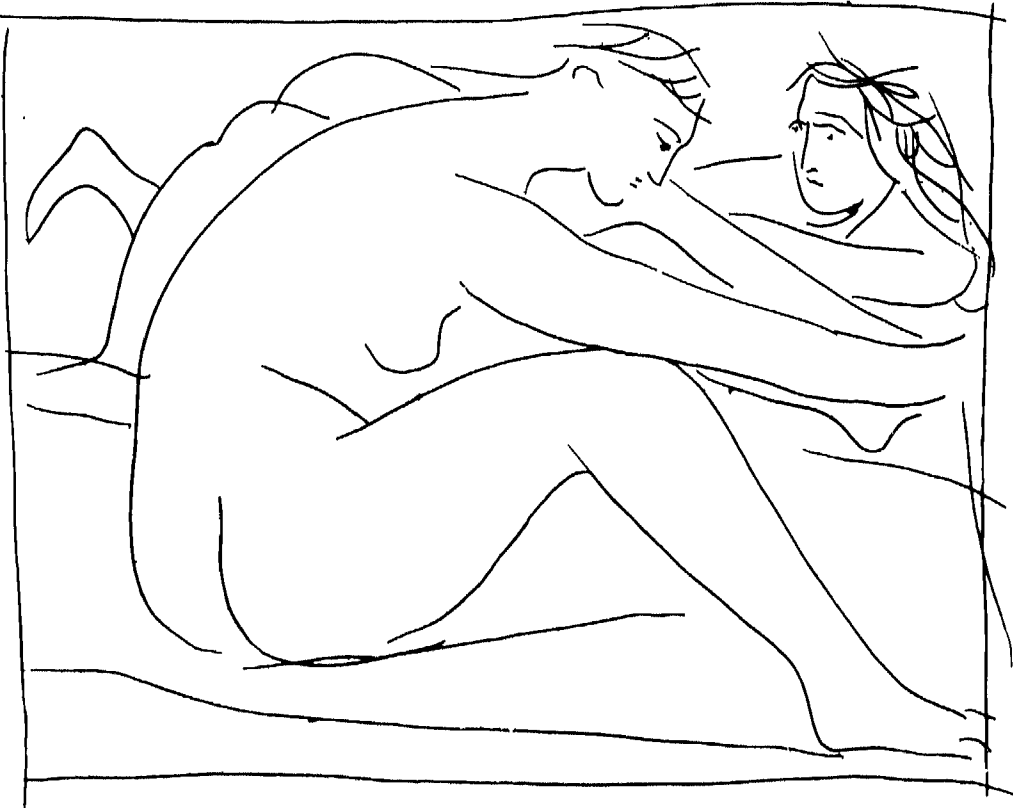
ولم يكد ينتهى أچاكس من كلماته هذه حتى أغمد سيفه المميت فى موضع قاتل من صدره الذى لم
يمسّه جرح من قبل ، ولم تستطيع كفّه أن تقتلع النصل من مكانه فبقى حتى دفعه الدم الجارف المنبثق خارج
جسده^(١٥) ، وانتشر الدم وتخلّص على الأرض التى تحوّل لونها قرمزيّاً . ولم تلبث أن انبثقت من بين العشب
الأخضر تلك الزهرة القرمزية التى نبتت يوم جرح الصبى هياكيشوس بن إيبالوس ، وقد خطّ على أجواف
بتلات الزهرة حروف تنطبق على الغلام وعلى البطل ، فهى تسجّل اسم البطل وصيحة أسى الصبى فى آن
واحد^(١٦)

هيكوبا

٤٠٠

وما كاد أوديسيوس يُظَفَّرُ بالجائزة حتى أبحر صوب وطن هيسبييلي وأبيها الملك ثواس الشهير ،
وهى البلاد التى تدنسُت بجرمة قتل النساء لأزواجهن^(١٧) بغية الحصول على سهام هرقل التى كانت فى
ذلك الموطن ، وحين بلغه أخذ السهام ومضى بها إلى الإغريق مصطحباً معه مليكها أسيراً . وبذلك أنهى
حرباً طالت ، إذ ما لبثت مدينة طروادة أن سقطت وسقط بسقوطها پريام . وبعد أن فقدت زوجة پريام
التعسة كل ما كانت تملكه فى حياتها إذا هى تفقد كذلك هيئتها الإنسية ، وانطلقت تملأ أجواء منفاه على
شواطئ نهر هيلسپونت المختنق بضفتى المضيق بعواثها .

كانت ألسنة اللهب تُلْهَبُ طروادة بنارها ، ومحراب چويتير يرشف القطرات القليلة المتبقية من دم
پريام الكهل ، والمنتصرون يشدُّون كاهنة فويوس من شعرها وهى تستصرخ الآلهة رافعة ذراعيها ضارعة
دون جدوى ، وأمّهات الأسر الطروادية يحتضنّ تماثيل آلهتهنّ ويقبلنّها قبل أن يأتى على معابدها الحريق ،
والإغريق الطافرون يسوقونهنّ أمامهم وكأنهن فرائس يتسابقون على الفوز بها ، ويلقون بأستيئاناكس بن



پيكاسو : هيكوبا

هكتور^(١٨) من فوق الأبراج التي كانت أمه تدفعه إلى أن يتطلع منها إلى أبيه وهو يقاتل دفاعاً عن وطنهم وعن مملكة آبائهم .

وحثّ ربح الشمال الإغريق على الإبحار ، وكانت هباتها المواتية تهزّ الأشعة التي أخذت تخفق ، وأشار الملاحون على الجند بالإسراع للإفادة من هبوب الريح ، وصاحت نساء طروادة الأسيرات بعد أن قبلن ثرى بلادهن وخلفن وراءهن ديارهن التي تنفث دخان الحريق « وداعاً يا طروادة إننا نتركك سيّات رغم أنوفنا » . وكانت هيوكوبا [هيكابي باليونانية] التي يثير منظرها الرثاء آخر من غادر أرض الوطن ، ٤٢٠ وقد عثر الجنود عليها بمقبرة أبنائها وهي تحاول تقبيل عظامهم ، فجرّها أوديسيوس غنوةً بعد أن أفلحت في أن تقبض بيديها على حفنة من تراب أحد القبور ممزجاً برماد جثة ابنها هكتور وضمتّه إلى صدرها بعد أن تركت على قبر هكتور خصلة من شعرها الأشهب ممزجاً بدموعها قرباناً لمن فقدتهم .

وكانت طراقيا التي يحكمها پوليمسطور ومن حوله حاشيته المفحشة الثراء تواجه عبر البحر فريچيا التي تلاألأ فيها نجم طروادة ذات يوم ، وكان پريام قد بعث بابنه پوليدوروس خفية إلى الملك الطراقى لينشأ بعيداً عن أخطار الحرب الطروادية ، وكان هذا منه تدبيراً حكيماً لولا أنه زوّد ابنه بثروة ضخمة كانت كفيلة بإثارة الطامعين للظفر بها . فلم تكد الدائرة تدور على أهل طروادة حتى شهر الملك الطراقى الجاحد سيفه وأغمده في حلق الصبى الذى كان عليه وصياً ، ثم ألقى بجثته الهامدة في البحر الصاخب من فوق صخرة عالية وهو يظن أن جريمته ستختفى باختفاء جثة ضحيته^(١٩) .

وكان أجامنون بن أتريوس قد أرسى سفينته إلى الشاطئ الطراقى انتظاراً لسكون البحر وهبوب ربح مواتية ، وإذا الأرض تنشق فجأة في ذلك الموقع ويظهر شبح أخيل يهول ويهّد وكأنما عاد إلى الحياة وقد ارتسمت على وجهه سيما الغضب والوعيد كما حدث يوم أن هاجم أجامنون بسيفه في غضبة عاتية^(٢٠) : « أهكذا أيها الإغريق ، تبحرون وتسنّونى ؟ هل دُفنت مع جثتى ذكريات بطولاتى ؟ لن يكون هذا ! إن عليكم أن تقدموا پوليكسينا قرباناً تتقربون به لقبرى حتى تهدأ روحي » .

ومع أن پوليكسينا كانت العزاء الباقي لأمها هيوكوبا فقد انتزعها رفاق أخيل القدامى من بين ذراعى أمها استجابة لنداء الشبح المهيّب ، واقتادوا العذراء التعسة التي أبدت شجاعة تفوق شجاعة بنات جنسها كى يذبحوها قرباناً على القبر الموحش . ولم تنس پوليكسينا نبل محتدها حين وقفت أمام المذبح الذى لا يرحم وافداً وأدركت أنها لن تلبث أن تغدو ضحية هذه الطقوس الوحشية التي تُعدّ . وما إن رأت نيوبتوليموس أمامها شاهراً سيفه حدّقاً في وجهها حتى قالت : « أسرع بسفك دمي العريق فلن يحول بينك وبين سفكه شيء ، أعْمد سيفك في حلقى أو في صدرى » ، وكشفت له مع كلماتها هذه عن صدرها وعنقها معاً ، ثم استطردت قائلة : فلن تقبل پوليكسينا أن تكون أمةً لإنسان ما ، أترأى تظن مثل هذه التضحية ٤٦٠ ستنالون بها رضاء الآلهة عليكم ؟ كل ما أرجوه أن يبقى خبر مقتل خافياً على أمى ، فإن انشغال بالى بها هو الذى يهزّنى ويهون من فرحة لقائى للموت ، ولن يكون موتى وحده مصدر عذاب لها ، بل أن أحيأ وأكون

أمة لأحدكم . ولست أبغى غير أن أهوى إلى ظلال العالم السفلى حرّة طليقة . تنحّوا عني قليلاً إذا اقتنعتم بعدالة مطلبي ، ولا تدعوا يد رجل تمسّ جسدَ عذراء ، وإن من تبغون إرضاءه بذبحي أرزى له دمُ حرّة لا دمُ أمة . ولو كانت كلماتي ستستدرّ عطف أحدكم فليذكر أن من ترجوكم ليست من أرقائكم بل هي ابنة الملك بريام . ولست أرجو غير أن تظفّر أُمّي بجثتي بعد موتى دون أن تدفع عنها فدية ، فلا تكلفوها أن تدفع لكم مكان الدموع ذهباً جزاء حظّها المنكود في إقامة قبري ، وما كان هذا أيسر عليها حين كان ذلك في مقدورها . ولم تلبث الدموع التي احتبستها في عينيها أن انهمرت غزيرة من عيون الحشد المجتمع ، حتى الكاهن نفسه لم يستطع هو الآخر أن يحبس عبراته وهو يغرس الخنجر مُثَقَّلاً بالندم في صدرها الناهد . وعلى الرغم من ارتجاف ساقها وسقوطها على الأرض فقد بقيت قسماً وجهها تنبئ عن شجاعتها ، كما كانت أحرص ما تكون على أن تستر جسدها عن عيون الناظرين في خفير وحياء .

٤٨٠

وهرعت نساء طروادة إلى جسدها يحملنه مَعُولَات مردّدات أسماء أبناء بريام وبناته الذين كم بكت لمأساتهم العيون بعد أن سال دمهم واحداً إثر الآخر ، وسرن يندبن مصير الفتاة وما أصبحت عليه أمها التي كانت إلى عهد قريب ملكة وقرينة ملكٍ عاشت رمزاً لآسيا المزدهرة ، ثم غدت بين الأسيرات أمة تعسة لأوديسيوس ، وما كان ليأسرها لولا أنها أنجبت هكتور الذي كانت بطولته الخارقة سبباً في أسر أمه واسترقاقها .

وضمت هيكيوا جثة ابنتها إلى صدرها تتأملها وقد همدت بعد أن فارقتها روحها الباسلة وانخرطت في البكاء من جديد ، وانهمرت دموعها ثانية بعد أن انهمرت مرات حزناً على زوجها وأبنائها ووطنها فانسكبت على جرح ابنتها ، وغطّت قبلاتها فمها وضربت صدرها وما أكثر ما ضربته حسرة على موتها السالفين ، ولطّخت شعرها الأشيب بدم ابنتها المتخثر ، وخمشت جسدها بأظافرهما وأخذت تصيح : « ابنتاه يا ذروة شقاء أمك ، ماذا بقى لي بعدك يا ابنتي ، ها هو ذا جسدك مُسجّى أمامي هامداً . وإنّي أتأمل جرحك الذي هو جرحي . يا ويحي هل كان قدراً محتوماً على أن أفقد أعزائي جميعاً قتلى ؟ لقد كنت أحسب أدنى ما أحسب أنك لن تموت بنصل خنجر إذ كنتِ أنثى ، غير أنك وقعت فريسة له ضحية ذلك الوغد الذي قضى على إخوتك جميعاً : أخيل مدّمر طروادة الذي تركني تكلّي . لقد ظننت ساعة مزقته سهام باريس وفوبيوس ألاّ خوف منه بعد ، ومع ذلك فقد كان على أن أخشاه ، فرماده — رغم انتشاره في قبره — يشور في وجهي ووجه أسرق ممزوجاً بالعداء لنا . أترأى قد أنجبت أولادى كي أقدمهم فريسة لحفيد إياكوس [أخيل] ؟ وها هي ذى طروادة العظيمة قد صارت دِمناً وأطلالاً ، وحلّت بدولتنا كارثة مروعة وانتهت إلى أبشع نهاية ، ثم إن الكوارث ما لبثت تلاحقني ، وكأنما يرى في الأعداء ما تخلف من طروادة ، أنا التي كنت منذ عهد قريب عظمى نساء وطني بزوجي وأبنائي وبناتي وأزواج بناتي وزوجات أبنائي . ها أنا ذا اليوم أساق إلى المنفى تعسة مُنْتَزَعَةً من بين قبور أسرق ، هدية إلى پنيلوبي التي ستناولني الصوف لأغزله وهي تشير إلىّ أمام نساء طروادة قائلة : ها هي ذى أم هكتور الشهيرة زوجة الملك بريام . ابنتاه يا من فقدتها بعد أن فقدت الكثيرين قبلها ، ويا من كنت سلوى أمك الوحيدة ، لقد ذبحوك على قبر

٥٠٠

عدونا . أترانى قد حملت بك كى أقدمك قرباناً لعدونا ؟ ما أتعس قلبى ، كيف أستبجح لنفسى البقاء من بعدك والتوانى عن اللحاق بك ، ولم أعيش وقد أثقلتى السّنون على امتدادها . آيتها الآلهة القساة القلوب لماذا تبطلون بموت امرأة عجوز عاشت طويلاً إلا إذا كان مقدراً لى أن أحيا لأشهد مزيداً من الموت والشقاء ؟ من كان يظن أن بريام سوف يكون محظوظاً بعد دمار طروادة ؟ إنه لا شك محظوظ لأنه مات ولن يشهدك قتيلة يا ابنتى ، فلقد فارق الملوك والحياة معاً ، ألا ليتهم بمنحونك مراسم جنازية تليق بابنة ملك عظيم ! ويا ليتهم يوارون جثمانك ضريح أجدادك الشامخ ! لا ، لن تسعدى بهذا يا ابنتى فليس لبيتنا أن يظفر بهذا الشرف ، ولن يكون لك قربان سوى دموى أمك وحفنة من ثرى غير ثرى منشك . لقد فقدت كل شىء ، ولم يبق لى ما يجعلنى أقبل الحياة أمدأ آخر سوى طفل قريب إلى قلبى هو بوليديوروس الذى كان أصغر أبنائى وأصبح الآن وحيدى ، وكنا قد بعثنا به إلى شواطئ بعيدة ليكون فى جمى ملك طراقيا^(٢١) ولكن لم أضيع الوقت سدى ؟ إنه لأجدر بى أن أغسل جرحك الذى فتك بك ووجهك الملطخ بدم أهدرته يد لا تعرف الرحمة .

وقامت المسكينة بعد كلماتها هذه تمشى بخطى أثقلتها الشيخوخة تقصد الشاطئ وهى تشدّ شعرها الأبيض ، وتردد : « أعطونى إناء يا نساء طروادة » . ومالت لى تغترف من مياه صافية فإذا هى تبصر جثة بوليديوروس وقد ألقت بها الأمواج على الشاطئ ، وشاهدت جراح جسده بفعل خناجر طراقيا . وبينما انطلقت نساء طروادة فى العويل أصيبت هيكونا بالخرس من فرط كربها ، فقد اختنق صوتها وجفت الدموع فى مآقيها وجددت فى وقفها وكأنما تحولت إلى كتلة من حجر الصوان ، وثبتت نظراتها وهى تحملق فى الأرض وأخذت تقلّب وجهها المتغصن القسائم بين السماء تارة وبين وجه ابنها تارة أخرى ، ثم تطلّعت إلى جراحه وأخذت رغبة الثأر تحتدم فى أعماقها والغضب يغلى فى صدرها حتى إذا بلغ غضبها عنفوانه صمّت على الانتقام وكأنها ما تزال ملكة ، وانشغلت بالألّ بالوسيلة التى سوف تثار بها ، وبدت كاللبوة التى انتزع منها شبلها الرضيع تهيم على وجهها فى كل مكان تتبع آثار أقدام من انتزعوه وتطاردهم عدوا لا تعرفه . وهكذا كانت هيكونا أسيرة مزيج من الحزن والحنق ، أنسيّت شيخوختها ولم تنس شجاعتها ، فقصدت بوليمسطور الشقى الذى ارتكب تلك الجريمة البشعة ، وطلبت لقاء الملك بدعوى أنها تريد مكاشفته بأمر كنز من الذهب أخفى من أجل ابنها فصّدّقها الملك الطراقى الذى أعماه جشعه الفطرى ، فجاءها وحده وتلطف معها فى الحديث كى يمكر بها وهو يقول : لا تضيعى الوقت يا هيكونا وأعطينى كنز ابنك وأقسم بالآلهة أنى سأحفظ به له ، إلى كل ما أعطيتنى إياه فى الماضى من أجله .

ومضت تحدجه بنظرة عابسة وهو يتكلم ويقسم حائثاً إلى أن فار غضبها المكبوت ، فاستغاثت بحاشيتها من الأمهات الأسيرات اللاتي أمسكن بالملك فغرست هى أصابعها فى عينيه الغادرتين واقتلعتها من محجريها ، وقد ضاعف حزنها من قوتها فدفست أصابعها الملوثة بدمه الأثم مرة أخرى فى محجرى عينيه اللذين لم يبق منها شىء وانطلقت تعبت بها .

وحين سمع أهل طراقيا بما حلّ بملكهم تدافعوا يرجون هيكوبا الطروادية بالأحجار ويرشقونها بالسهم ، وكانت كلما أصابها حجر أو سهم فتحت فمها ودمدمت به دون أن يصدر عنها غير صوت أشبه بنباح الكلاب فظل المكان الذى شهد هذه الأحداث معروفاً باسم مقبرة الكلبة^(٢٢) . وأخذت هيكوبا تهيم على وجهها فى حقول طراقيا وتعوى عواء حزناً كلما ألحت عليها ذكريات شقاتها ، إلى أن أثار مصير هذه الملكة التعسة عطف شعبها الطروادى وأعداءها الإغريق والآلهة أنفسهم ، فإذا چونوزوجة چوپيتر وأخته تعترف بأن هيكوبا لم تكن تستحق هذا الشقاء كله .

ممنون

لم تجد أورورا ربّة الفجر فُسحة من الوقت تُشغّل فيه بمآسى طروادة وهيكوبا على الرغم مما كانت تضمّره من ميل إلى انتصار جيش طروادة^(٢٣) ، فقد استحوذ عليها شجن دفين لمصرع ابنها فى سهول فريچيا ، وقد رآته وهى تتلّفع بردائها الزعفرانى مصاباً برمح أخيل ، وعندها شحب اللون الوردى الذى يكسو ساعات الصباح واختفى نور النهار وراء ستار من السحب . وحين وُسّد على المحرقة لم تقو على أن تُلقَى نظرة عليه ، وما منعها كبرياؤها من أن ترقمى بين يدى چوپيتر مشوّشة الشعر تبكى وتُعول متوسّلة قائلة : « أدرك أنى أقل الآلهة شأنًا فى سماواتك الذهبية اللون ، وما شيد لى فى العالم غير معابد قليلة ، ولكنى مع هذا لازلت إلهة ، وما جثت طمعاً فى محراب يُقام لى أو هيكل تتوهج فيه النار ، ولا رغبة فى الظفر بيوم تُقدّم لى فيه القرابين . لم أجيء لهذا وإن كنت أهلاً له على الرغم من ضعفى وأنوثتى ، فأنا مع كل فجر جديد أودى لك عملاً جليلاً بفصلى النهار عن الليل . وما جثت لك أطلب حقاً فى تبجلى وتكريمى فإن ما أنا فيه لا يتيح لى هذا ، وإنما جثت لأننى فقدت ابنى ممنون ذلك الفتى الذى امتشق الحسام من أجل عمه [پريام] فى شجاعة لم تُجده شيئاً ، فلقد قُتل بسهم أخيل وهو ما يزال فى زهرة العمر . إننى أضرع إليك يا ملك الآلهة أن تمنحه قدراً من التكريم كى تخفّف من كارثة موته على وكى تسكّن لوعة لأم قلبها جريج » ، فأوما چوپيتر برأسه استجابة لمطلبها ، وسرعان ما تداعت محرقة ممنون العالية وأتت عليها ألسنة اللهب المندلعة وهى تقذف بحمّم من الدخان الأسود إلى أعلى حتى أظلمت السماء ، فكان مثلاً هذا الحّمّم المتصاعد مثلاً الضباب المتصاعد من الأنهار فيحجب أشعة الشمس من النفاذ ، وما لبث أن تحول رماداً أسود فى الأفق واستحال جسداً له من النار الدفء والحياة ، وخلعت عليه خفّته أجنحة يطير بها ، وأصبح بادىء ذى بدء شبيهاً بالطير ، ثم ما لبث أن صار طيراً حقيقياً يبرز ريشه فيثير صخباً مدوياً . وسرعان ما انضم إليه عدد لا حصر له من طيور مثيلة وُلدت مثله بما وُلد منه وملأت أجواز الفضاء بخفق أجنحتها ، وقد حلّقت حول المحرقة مرات ثلاث وهى تولول نائحة فى كل مرة . وحين حلّقت للمرة الرابعة انقسمت إلى سريين انطلقا فى اتجاهين متضادين ، ثم أقبلا يهاجم أحدهما الآخر فى غضب وشراسة تجلّت فى تمزيق أجنحة بعضها البعض وصدورها بمناقيرها ومخالبها المعقوفة ، ثم تساقطت أجساد هذه الطيور التى تنتمى لأسرة واحدة وكأنها قرابين تُقدّم إلى الرماد المتبقى من جثة البطل الذى إليه خلقها ،

٥٨٠

٦٠٠

والتي أطلق عليها اسمه ، إذ سميت باليمنونيديس [أى آل ممنون] . وما زالت كلها أكملت الشمس دورة في أبراجها الاثني عشر تنهض فتستأنف قتالها ثم تموت من جديد تكرمياً لمتجّيها . وعلى حين كانت مأساة هيكوبا بنت ديماس التي لها عواء كعواء الكلب تثير شفقة بعض الآلهة ، بقيت مأساة أورورا حبيسة في صدرها . وما تزال أورورا تذرف دموع الأم الآسية فتتناثر على الأرض قطرات ندى .

أينياس عند أنيوس

لم تثنأ الأقدار أن تنهار كل آمال طروادة مع انهيار أسوارها ، فقد حمل البطل أينياس بن فينوس إلهة كثيراً تماثيل آلهة المدينة المقدسة ، كما حمل معها أباه الذي يشاركها قدسيّتها ، ولم يحمل أينياس شيئاً آخر مما يملك وسار بجانبه ابنه الحبيب أسكانيوس ، ثم أبحر من ميناء أنتندروس فأرّا بسفنه عبر البحار مخلفاً وراءه ديار طراقيا الأثمة المملوطة بدماء پوليدوروس ، وظلّت الرياح المواتية تدفع به حتى بلغ مع رفاقه جزيرة ديلوس حيث وُلد أبوللو . وكان أنيوس ملكها وكاهنها معاً يخدم شعبه وإلهه أبوللو بهمة وورع ، ففتح داره ومعبد له لأينياس وطاف معه المدينة يدله على معالمها ومعبدها المشهور وجذعى الشجرتين اللتين احتضنتهما لاتو في وضعها جنينها^(٢٤) . وبعد أن نثر الطرواديون البخور على النار وسكب النبيذ على البخور حسب العرف المتبع وحرّقوا أحشاء البقرات الصغيرة الذبيحة عادوا إلى القصر الملكي حيث أعدت لهم الفرش الثمينة الطنافس ، فأكلوا من خيرات سيريس وشربوا من نبيذ باكخوس . وعندها أخذ أنخيسيس الورع يقول : « سيدى كاهن فويوس وخليله . أترأى مخطئاً إذا قلت إنه كان لك ولد وبنات أربع حين زرت مدينتك للمرة الأولى ؟ » ، فhez أنيوس رأسه المعصوبة بشريط أبيض يحفّ بصدغيه وأجاب في حزن واكتئاب : « لا لست مخطئاً أيها البطل النبيل ، فقد كنت يوم رأيته أبا لخمسة أولاد وأكاد اليوم أعيش محروماً منهم ، فهكذا تتلاعب الأقدار بحياة البشر . وما يجديني أن يعيش ابني بعيداً عني في بلاد أندروس التي سُميت باسمه ويحكمها نائباً عني . وإذا كان أبوللو إله ديلوس قد وهب ابني ملكة التنبؤ فقد منح الإله باكخوس بناتي ملكات أعلى شأنًا مما توقّعن ، فما تلمس أيديهن شيئاً إلاّ تحوّل غلالاً أو جداول نبيذ أو زيت زيتون ، فكُنْ بذلك مورد رزقي وأى رزق ! غير أن أجاممنون الذي نهب مدينتكم انتهت إليه عجائب بناتي فبادر ينتزعهن من حضنى . وهكذا ترون أن الأعاصير التي أتت عليكم قد أصابتنا ببعض شرورها . وقد أمر أجاممنون بناتي بأن يمددن أسطول الإغريق بالطعام والشراب ، غير أنهن جميعاً أبين في إصرار ولُذُن بالفرار ، واستطاعت اثنتان منهن بلوغ جزيرة يوبويا ، ولحقت اثنتان بشقيقتيها في أندروس فاندفع وراءهما جيش العدو متوعداً بالحرب شقيقتهما إن لم يُسلمهما إليه . وغلبت رهبة العدو في نفس الملك حبه لشقيقته فأسلمهما لمصيريها . ألا فلتغفر له خَوْره فلم يكن إلى جانبه هكتور أو أينياس يدافعان عن أندروس كما دافعا عن طروادة التي قاومت عشر سنين . وأخذ الإغريق يُعدّون الأغلال لكي يقيّدوا بها أيدي الأسيرتين فإذا هما ترفعان ذراعيهما صوب السماء صائحتين في ضراعة : « امدد لنا يد العون » يا أبانا باكخوس . »

واستجاب باخسوس الذى منحهما موهبتهما فأمدّهما بعونه ، هذا إذا أسمى التحول من هيئة إلى أخرى عوناً ، وما أدرى كيف فقدتا شكليهما ، ولست إلى اليوم قادراً على أن أصف ما وقع لهما ، وما أعى غير تلك الكارثة التى حلت بى منذ أن نبتت لهما أجنحة ورأى الناس مكانيهما يامتتين بيضاوين بياض الثلج ، هذا الطير الأثير لدى زوجتك فينوس» (٢٥) .

وأضى الرفاق الوقت خلال الوليمة يسرون عن أنفسهم بهذه القصة وبقصص أخرى مماثلة إلى أن انتهوا من طعامهم وأووا إلى النوم ، واستيقظوا مع الفجر يستشيرون عراف فويبوس الذى أمرهم بالبحث عن أمهم العريقة وعن الشواطىء التى عليها نشأت أسرهم .

٦٨٠ وودّعهم الملك مقدّمًا لهم ما غلا وعزّ من الهدايا ووهب أنخيسيس صولجانا ومنح حفيده عباءة وجعبة سهام ، وأسلم أيناس كأساً ثمينة كانت قد آلت إليه من ضيفه ثريسس الذى كان يسكن طيبة ، وكان صائغها ألكون من هيلاي قد نقش عليها نقوشاً فصلّ فيها قصة طويلة تصوّر مدينة ذات أبواب سبعة تدل أوصافها على أنها مدينة طيبة (٢٦) ، وصوّر أمام سور المدينة مشهداً جنائزياً بمواكب ومقابر ومحارقه المشتعلة وكذا الأمهات العاريات الصدور والهواء يعبث بشعرهنّ ، وحوريات البرّ والبحر باكيات شاقيات جفاف ينابيعهنّ ، وشجرة جرداء عارية ، ومجموعة من الماعز تتشمّم التربة الصلبة التى جمّدتها حرارة الشمس . وصوّر الفنان وسط مدينة طيبة ابنتى أوريون (٢٧) وقد أمسكت إحداهما بسكين تقطع بها عنقها العارى فى شجاعة ليست للنساء ، بينما أغمدت الثانية طرف مغزها فى قلبها فماتت شهيدة وطنها بسلاح ليس فى الحقيقة سلاحاً . ثم صوّر جسديهما محمولين خلال المدينة فى موكب جنائزى مهيب يمضى إلى المحرقة التى ستلتهمهما نيرانها أمام جماهير المشيعين ، وفجأة ينهض من رماد العذراوين شابان اشتهرا فيما بعد باسم «التاجين» (٢٨) وتقدّما يقودان الموكب الجنائزى لرماد جثتى أميهما ، وكان سرّ ميلادهما الحرص على ألا تنقطع سلالة ابنتى أوريون (٢٩) بوفاتهما . وتنتهى نقوش هذه الوجوه البرّاقة فوق البرونز العتيق لنشهد على حافة الكأس شريطاً من زخارف أوراق الأكائا البارزة المذهبة . وقد تقبّل الطرواديون هذه الهدايا وقدموا لقاءها هدايا لا تقل عنها قيمة ، منها صندوق بخور للكاهن ، وصحن للقربان وتاج مرصّع بالذهب والجواهر .

٧٠٠

وحين ذكر الطرواديون أنهم ينحدرون من سلالة تيوكر لجأوا بسفنهم إلى جزيرة كريت ، إلا أنهم لم يقووا على تحمل قسوة مناخها أمدّاً طويلاً فأبحروا من هذه الجزيرة ذات المدن المائة أملاً فى بلوغ شواطىء أوزونيا (٣٠) [إيطاليا] ، غير أن أعاصير قوية عرضت لسفن الأبطال فالتجأوا إلى موانئ جزر الستروفاديس (٣١) التى لم يجدوا فيها المأوى الآمن ، إذا اعترضهم ذلك الوحش المجنّح أيلو الذى أفرعهم فولّوا يعبرون موانئ دوليخيون وإيثاكا وساميه وديار نيريتوس حيث مملكة أوديسيوس المخاتل ، وشاهدوا عن بُعد أمبراكيا التى تنازع الآلهة وهرقل السيادة عليها (٣٢) . كما رأوا على شاطئ أكتيوم تلك الصخرة التى مُسخ إليها مَنْ حَكَمَ لصالح هرقل ، وهذه الصخرة قائمة اليوم بمعبد أبوللو (٣٣) ، كما مرّوا بدودونا

ذات أشجار البلوط الناطقة^(٣٤) ، وخلجان خاوونيا التي استطاع أن يُقِلّت من حريقها الذي أشعله الأثمنون أبناء ملك مولوس بأجنتهم التي ظلّوا بها محلّقين طويلاً في السماء^(٣٥) .

- ٧٢٠ ثم أبحروا إلى أرض الفاياكين^(٣٦) ذات بساتين الفاكهة الغنية بالثمار ، وأرسوا بمدينة بوثروتوم بمقاطعة إبيروس التي بنيت على غرار طروادة ، وكان يحكمها كاهن فريچيا هيلينوس بن پريام الذي كان عراًفاً لا تخيب له نبوءة ، وحين عرفوا منه مصيرهم ومستقبلهم أبحروا إلى صقلية ، وهي جزيرة تمتد منها ثلاثة ألسنة داخل البحر ، أولها يواجه الجنوب ويسمى پاخينوس ، ويهبّ نسيم الغرب العليل على ثانيها المسمى ليليايوم^(٣٧) ، ويتطلع ثالثها وهو پيلوروس إلى الشمال وإلى كوكبتى الدّين الأصغر والأكبر اللتين لن تهبّتا أبداً من سائهما فتطويهما صفحات الماء . واقترب الطرواديون من هذا اللسان واستطاعوا بما لمجاديفهم من قوة وبما أمدهم البحر من عون أن يبلغوا عند حلول المساء شاطئاً زانكليه الذي كانت تهدّده من الجانب الأيمن صخرة سكيللا ومن الجانب الأيسر صخرة خاربيديس التّهمة التي لا تنفك تلتهم السفن ثم تقيتها . أما سكيللا التي تلتف حول خصرها كلاب مفترسة فلها وجه فتاة ، وكانت قبلُ فتاة حقاً ، كما تروى قصص الشعراء وما نظنها مخطئة فيما تروى^(٣٨) ، وكم من خطّاب - كما قيل - طلبوا يدها لكنها رفضتهم جميعاً ، وكم كانت تختلف إلى حوريات البحر الهائيات بها وتقصّ عليهن عزوفها عن حبّ الفتیان . وفيما كانت يوماً جالسة مع الحورية جالاطيا تمسّط لها شعرها إذ تنهدت جالاطيا قائلة : « حسبك أنك فتاة يتودّد إليك شبان لم تحلّ قلوبهم من الرحمة وتستطيعين صلّتهم دون أن يُنال منك بجزاء . أما أنا ابنة نيريوس فعلى الرغم من حماية إخوتي لم أستطع الإفلات من مطاردة الكيكلوپيس إلّا بعد أن دفعت من الألم والحزن ثمناً غالياً » . وخنقت الدموع كلمات جالاطيا ، فأخذت سكيللا تمسحها بأناملها البيضاء بياض البرد وتسرى عن الحورية قائلة : « يا أحب الناس إلىّ خفّى عن نفسك وإرولى قصتك ولا تخفى عني سرّ حزنك فما أولانى بثقتك » ، فبدأت الحورية تقصّ قصتها على ابنة كراتاييس قائلة :

أكيس وجالاطيا وپوليفيموس

- « على الرغم من أن أكيس بن فاونوس من حورية البحر سيمائوس كان محبوباً من أبويه ، فإن حبي له كان يُربى على حبهما له . فلقد كان وحده محطّ عواطفى ، وكان وسيماً بلحيته النابتة التي كانت أشبه بالزغب على وجنتيه ولم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره . وبينما كنت أتلمّسه أنا أنى ذهب كان الكيكلوپيس [السيكلوپيس] پوليفيموس يتبعنى أنا ، ولو سألتنى أيهما كان أشدّ ، حبى لأكيس أم كراهيتى لهوليفيموس ما ملكت أن أجيب ، فلقد كانت العاطفتان متناظرتين حدّة . ما أقوى سلطانك يا فينوس الحانية إذ جعلت من پوليفيموس كائناً يتذوّق الحب ، وهو ذلك الوحش الذى يثير الرعب حتى فى الغابات الموحشة ، ويودى بحياة أى طائر يقع نظره عليه ، ويزدرى جبل أوليمپوس ومن عليه من ٧٦٠ الآلهة ، فأصبح أسير شهوة عارمة واشتعل حبه فأنساه قطيعه والكهوف التي يأوى إليها . وكم حاولت

يا پوليفيموس أن تهذب من هيتك لتنال إعجابي ، وكم مشطت شعرك المنفوش بالمذراة وحلقت بالمنجل
لحيثك غير المشدبة ، وكنت تتخذ من صفحة الماء مرآة تتأمل فيها وجهك القبيح تحاول تغيير ملامحه ،
وأنسيت وحشيتك وظمأك إلى الفتك بالناس وسفك دمائهم ، فكنت تترك السفن تروح وتغدو لا تمسها
بضرر . وكان تيليموس بن يورموس الذي لم تخطيء نذره قط قد بلغ وقتذاك صقلية خلال إحدى جولاته
وصعد سفح جبل إتنا لزيارة پوليفيموس المروّع ونصحه قائلاً : « كن على حذر فسوف يقتلع أوديسيوس
عينك الوحيدة وسط جبينك » . وعندها ضحك العملاق وهو يقول : « إنك لمخطيء يا أكثر العرافين
حقاً ، فثمة فتاة سبقته إلى استلابها » . وهكذا ذهبت نصيحة تيليموس سدى ، فلقد امتهنا پوليفيموس
ولم يلتق بالآ إليها ، وانطلق بخطى واسعة فوق كثبان الشاطئ حتى أدركه التعب فعاد إلى ظلمات كهفه .

٧٨٠ وصعد الكيكلوپيس في تلّ يمتد مسافة طويلة على ساحل البحر في شكل لسان ترتطم به الأمواج من
كل جانب ، وجلس على القمة وبين يديه قطيع أغنامه ، ووضع إلى جانبه جذع الصنوبر الطويل طول
صارى السفينة ، والذي كان له عصا يعتمد عليها ، وأمسك بالمصفار الرعوى المكوّن من مائة قصبة ضُصم
بعضها إلى بعض وراح ينفخ فيها نغماته الرُعديّة فردّدت الجبال والبحار صداها . وكنت أنا مسترخية في
أحضان أكيس وراء صخرة وتسمّعت إلى كلمات الكيكلوپيس التي يتغنّى بي فيها ويشبّب بقوله : « لأنّ
يا جالاطيا أنصع بياضاً من الورود البيض ، وأجمل من سائر زهور المروج ، وأرقّ رشاقة من شجر الحور ،
وأشدّ إشراقاً من البلّور ، وأخفّ من الحَمَل اليافع ، وأنعم ملمساً من الأصداف التي يغسلها البحر
دوماً . يا من أنت أكثر دفئاً من الشمس في الشتاء وأكثر حناناً من الظلال في الصيف ، وأحلى مذاقاً من
الفواكه ، وأكثر بهاء من شجر الدّلب الشامخ ، وأشدّ تألقاً من الثلج ، وأشهى من الكَرَم الناضج ،
وأملس من زغب البجعة وأطرى من اللّبن الخائر . لو لم تهرب منى لكنت أروع جمالاً من الحديقة الغناء
بجداولها ، لكنك يا جالاطيا أعصى نفوراً من الثيران الجامحة ، وأشدّ إباءً من البلّوط العجوز ، وأكثر
خداعاً من البحر ، وأشدّ مراوغة لليد من غصينات الصفصاف ومحاليق الكروم البيضاء ، وأشدّ صرامة
٨٠٠ من هذه الصخور ، وأعتى ثورة من ذلك النهر ، وأكثر صلفاً من الطاووس يتيه زهواً ، وأقسى من النار
وأخشن من نبات الشوك ، وأكثر توحّشاً من أم الدبّ ، وأصمّ من الخِضَم ، وأخطر من الأفعى حين
تطوّها قدّم عن غير قصد ، وأخيراً فإن عيبك الأكبر الذي أود أن أبرئك منه هو أنك أسرع في العدو من الوعل
الذي تطارده كلاب الصيد بنباحها ، بل أسرع من الريح العاصف . آه لو كنت تعرفيني حق المعرفة ، إذن
لأسفت على هربك منى ولندمت على تمنّعتك عني ، ولحاولت الإستمسك بي ، فأنا أملك في سفح الجبل
غاراً تتصدّره صخرة نابضة بالحياة على شكل قبولا تنفذ عبره حرارة الشمس ولا برودة الشتاء ، وعندى من
الأشجار ما تميل غصونها من ثقل ثمارها ، ومن الكروم ما يزحف حاملاً عناقيد العنب الشبيه بالذهب
والأرجوان . لقد أدّخرت ذلك كله لك ، ويبيديك تستطيعين قطف ثمار الفراولة الطيبة المذاق في ظلال
الغابات ، وثمار الكرز والبرقوق في الخريف ، ولست أقصد البرقوق الداكن وحده ، فهناك أيضاً نوع
أخضر ضارب إلى الصّفرة يشبه الشمع الغض . ولو اتخذتني زوجاً لذقت الكستناء كما تشاءين ، ولنعمت

بشار البطيخ . وهنا ستصبح كل شجرة لك ، وتحوزين كل هذه الأغنام التي ترين ، ولى كثير غيرها ترعى في الوديان أو تقيم في الغابات أو تُشَدُّ في حظائري . ولو سألتني ما استطعت إحصاء قطعاني ، فالفقير وحده ٨٢٠ هو من يحصى أغنامه ، وإذا شئت معرفة جمالها فلا تَرَكْنِي الحديشي عنها بل تعالى هنا لتشهدي بنفسك كيف تعجز قوائمها عن حملها لامتلاء أئدائها . وقد جمعت التناج الحديد في حظائر دافئة ، وجعلت لكل من الماعز والحملان حظائره المستقلة ، وما أغزر اللبن الأبيض بياض الثلج عندي ، أحفظ بعضه للشرب وأخر الباقي ليخثر . ولتسأل إن شئت عن أليف الحيوان فالجميع رهن إشارتك ، ولن أقدم لك ما يسهل الإمساك به من الحيوانات الأليفة كالوعل والأرنب أو الماعز واليham ، أو صغار الطير فوق غصون الشجر ، بل سأقدم لك توأمين من صغار الدب الوحشي متشابهين يستحيل عليك تمييز أحدهما عن الآخر اقتنصتهما فوق الجبل وسأقدمهما لك كي تأنسى بهما ، وقد قلت لنفسى حين عثرت عليهما فلأحفظهما من أجل حبيتي . ناشدتك يا جالاطيا أن تطلّ بوجهك المشرق فوق البحر الأزرق ، هلمى ولا تزدري هداياي . وليس يخفى على شكلى ومع هذا فلقد رأيت صورتى منعكسة على صفحة المياه الصافية وأعجبتنى . انظري ٨٤٠ إلى طول قامتى ، وما أظن جوبيتر يفوقنى طولاً ، [هذا الذى لم أسمع إلّا منكم أنه حاكم العالم] ، وخصلات الشعر الغزير تحتضن قسما وجهى الصارمة وتلقى على كتفى ظلالها وكأنها دغل كثيف . ولا تعدّينى دميماً لغزارة الشعر الخشن الذى يكسو جسدى ، فكم تبدو الشجرة قبيحة حين تكون جرداء ، والحواد لا يحظى بالإعجاب ما لم يُغشّى عنقه عُرفٌ غزير ، ولا تجمل الطيور إلّا بريشها ولا الأغنام إلّا بفرائها ، وليس أنسب للرجل من لحية تملأ وجهه وشعر غزير يغشّى جسده . حقاً ليست لى إلّا عين واحدة وسط جبينى لكنها عين تشبه درعاً عظيماً ، وماذا فى ذلك ؟ أوّلاً تعانق الشمس بنظرتها الكون كله من عليها سائها الفسيحة وما لها غير عين واحدة ، هذا إلى أن أبى هو ملك البحار التى تحيّن فيها (٣٩) ، ولسوف يصبح حملاً لك إذا تزوّجتنى . فليس فى العالم كله من أسجد أمامه سواك ، أنا من ازدري جوبيتر والسماوات والصواعق النافذة ، أخشاك يا أجهل بنات نيريوس ، فغضبك أشد هولاً من البرق . وقد ٨٦٠ أحتمل ازدراءك لى لو كنت تزدرين الجميع ، ولكن لماذا تصدّين الكيكلويس وتمنحين حبك لأكيس ، ولماذا تؤثرين عناقه على عناقى ؟ فليزّه أكيس ما شاء له الزهو وما شئت أنت يا جالاطيا . ليكن ، غير أنه لأول وهلة سيعلم أن قوى كفاء ضخامتى . ولسوف أنتزع أحشائه حياً وأمزقه ثم أنثر أطرافه فى الحقول . تُراه هل يستطيع بعد ذلك أن يقترن بك ، إننى أحترق عشقاً ولهيب الهوى يلذعنى ويضحى أشدّ لذعاً حين أكون موضع ازدرائك وكأنى أحمل فى أحشائى بركان إتنا . ومع هذا فانت لا تبالين بى يا جالاطيا .

وبعد أن فرغ بوليفيموس من هذه المناجاة التى ذهبت أدرج الرياح وقف كالثور الذى جُنّ بفقد بقرته ، وأخذت عينيّ تتبعه وهو لا يطيق الوقوف ساكناً بل يهيم على وجهه فى الغابات والمراعى التى يالفها . وإذا بصُرّ العملاق يقع علينا فجأة ونحن لا ندري ما سيعرض لنا من خطر ، وإذا هو يصيح فى وحشية : « ها أنذا قد رأيتهما ولسوف أجعل عناقكما هذا آخر عناق لكما » . وكان صوته راعداً اهتز له بركان إتنا نفسه ، وأسرعت بالغوص فى المياه فزعة بينما استدار أكيس بن سييايثوس هارباً وصاح بى

٨٨٠ مستنجداً : « عونك يا جالاطيا ، عونكما يا والدي ، ائذنا لي في أن أدخل مملكتكما ، فإن لم تفعلنا لحق بي الموت » . وانطلق الكيكلوبيس يطارد أكيس بعد أن انتزع كتلة ضخمة من سفح جبل وقذفه بها ، ومع أن طرفاً منها هو الذي مسّ أكيس إلا أنه كان كافياً لسحقه ، وما غمك غير ما تتيحه الأقدار فلقد منحته الأقدار طبيعة جدّه^(٤٠) . كان الدم يسيل أرجوانياً أسفل كتلة الصخر الضخمة التي سقطت تحتها ، وما هي إلا لحظات حتى بدأ الدم يشحب ، وشيئاً فشيئاً ظهر نبع صافٍ من المياه ، وتفتّت الصخرة وانشقت وانبثقت من شقوقها سيقان غاب طويلة مياسة . وتفجّرت المياه صاحبة من جوف الصخرة . وفجأة ، ويا لها من معجزة ، برز شابٌ من النبع إلى خصره وفي جبهته تاج من سيقان نبات السّيار المجداول حول قرنين حديثي النبتة ، ولولم يكن ما بدا من قامته طويلاً ولولم يكن لازوردي الوجه لكان هو أكيس نفسه ، ومع ذلك ومع هذا الشكل الجديد فقد بقي أكيس هو هو رغم تحوّلِهِ إلى نهر ، وصار هذا النهر يحمل اسم أكيس .

جالاوكوس

٩٠٠ وفرغت جالاطيا من حديثها وتفرّقت حوريات البحر سابحات في المياه الساكنة إلا سكيللا ، فقد عادت مسرعة إلى الساحل لا تجرؤ على البقاء في عُرض مياه البحر ، وكانت تخطر عارية على الشاطئ تارة ، وكلما وجدت ظلمة بمعزل استرخت في ظلها تارة أخرى ، وإذا هي تستمع فجأة إلى صرخة مدوية تنطلق من أعماق البحر ، ثم أبصرت جلاوكوس الذي لم يسكن البحر إلا منذ قليل — لأنه قد مُسَخ في أنثيدون القريبة من بحر يوبويا — يشقّ الموج قادماً تجاهها^(٤١) ، حتى إذا ما رآها جُمَد في مكانه وقد اضطربت في نفسه لفة عارمة وتحرك شبقه ، فناداها بما عنّ له من كلمات ليصدها عن المضى هاربة منه لكنها أصمّت سمعها ، وكأنها أمدها الخوف بأجنحة طارت بها حتى أدركت قمة الجبل الشامخ المكدسة بالغابات بجوار الشاطئ حيث امتدت أمامها رقعة فسيحة من المياه وجدت فيها مأوى آمناً استقرت فيه ، ولم تدر إن كانت ترى أمامها وحشاً أو إلهاً ، وأخذت تتأمل في دهشة لون بشرته وشعره الذي يغطي منكيه وينسدل على ظهره وذيل السمك الذي يشبه تحت خصره . ولمحها جلاوكوس متأملة ، فاعتمد على صخرة قريبة وقال لها : « لست غولاً يا صبيّة ولا وحشاً مفترساً ، وإنما أنا أحد آلهة البحر ، وليس سلطاني على البحر بأقل من سلطان تريتون أو پروتيوس أو بالايون بن آثاماس ، غير أنني كنت في الماضي إنساناً أعشق البحر عشقاً شديداً وكان عملي موصولاً به ، وكنت أجتذب الشباك مليئة بالأسماك تارة أو أجلس على صخر الشط أتصيد السمك بالشّص . وكان على مقربة من المكان الذي أصيد فيه مرج أخضر يكتنفه البحر من جانب وتنفسح عند جانبه الآخر مراعي بكر لم تطف بها قطعان الأبقار الطويلة القرون ولا الأغنام المسالة ولا الماعز الشعثاء الوبر ، ولم يخلّق بها نحل يمتص زهورها ليحيلها شهداً ، ولم تُجَدَل من أغصانها الأكاليل لتُجَلَّل بها هامات الضيوف خلال الولائم ، ولم تتناولها يدٌ بقفْصٍ عُشْبها بالمنجل الطويل ، وكنت أوّل من افترش هذا العُشب وقد جلست يوماً أجفّ الشباك المبتلة وأصفّ فوق العُشب السمك الذي جمعته

٩٢٠

لأحصى منه ما قذفت به الصدفة في شباكي أو ما أوقعته السداجة في شصّي المعقوف . ولك أن تظني أني
أختلق ، ولكن فيم يفيدني الاختلاق ؟ فما كادت الأسماك تفترش العشب حتى أخذت تتلوى وتضطرب
وتسبح فوق اليابسة وكأنها وسط البحر ، وبينما كنت ذهلاً وأنا أشهد ما يقع إذا الأسماك تنزل نحو البحر
وتغوص ثانية بين الأمواج التي كانت تحيا بها من قبل تاركة الشاطئ والصائد . وقد جمدت في مكان
مذهولاً التمس تفسيراً لما حدث وأتساءل عن سرّ هذه الظاهرة ، أهي إرادة إله أم فعل عُصاة العُشب ،
وقلت لنفسي « ترى أى عُشب هذا الذي يملك تلك القدرة ؟ » . واقتلعت بعض أعواده وعضضتها
بأسناني ، ولم تكد عصارتها الغريبة تنساب في حلقي حتى أحسست بقلبي ينتفض داخل صدري وإذا
طبيعي تأخذ في التغير ، ولم أقاوم طويلاً فصحت قائلاً : « وداعاً أيتها الأرض ، فلن أعود إليك مرة
أخرى » . واندفعت إلى المياه حيث رَحَبَ بي آلهة البحر وتلطفوا بي فأجلسوني بينهم فوق منصة السلطة ،
ثم طلبوا إلى أوقيانوس وتيثيس أن يزبلا عني ما بي من عناصر فانية ، فأخذوا يطهراني مرددين مرات تسعاً
تعويذة مقدسة خلصتني من أدران ، وطلبوا إليّ أن أغمس جسدي في ماء نهر ، وسرعان ما أخذت أنهار
جميع بلاد العالم تتصوّب مياهها نحوي من كل صوب وتصبّها فوق رأسي . هذا كل ما أقوى على أن أسرده
عليك من عجائب مغامرتي ، فقد جمدت عند ذلك ذاكرتي وفقدت القدرة على استخدام حواسي ، وحين
عدت إلى وعيي وجدت جسدي مختلفاً تماماً عما كان قبلاً ، كما أصبح عقلي غير ما كان . ورأيتني لأول مرة
بهذه اللحية التي يدكّرني لونها المخضرّ بصدأ النحاس ، وبهذا الشعر الذي ينتثر على الموج الفسيح ، وبهذين
المنكبين العريضين ، وبهاتين الذراعين اللازورديتين ، وبهاتين الفخذين اللتين تنتهيان بذيل ملتوكذيول
الأسماك ذات الحراشف ، ولكن فيم يفيدني هذا الشكل الجديد ؟ وفيم يفيدني تلك المكرومة التي اختصني
بها آلهة البحار ؟ بل فيم يفيدني أن أكون أنا نفسي إلهاً إذا لم تعيرني أنت انتباهاً ؟

على هذا النحو استرسل الإله في الحديث ، وكان على وشك مواصلته حين أمعنت سكيللا في
هروبها ، فعاد إلى الماء مغضباً حانقاً من نفورها ، واتجه إلى القصر المسحور الذي تُمارس فيه كيركي^(٤٢)
ابنة التيتان معجزاتها العديدة .

التعقيات

(١) انظر النشيدين الثالث عشر والرابع عشر من الإلياذة .

(٢) كان أوديسيوس يخشى ما تنبأ به العراف من أنه لو اشترك في حرب طروادة لما عاد إلى داره إلا بعد عشرين سنة وحيداً فقيراً ، وقد دفعته شدة خوفه إلى أن يتظاهر بالجنون حتى لا يضطر إلى الإبحار للمعركة ، غير أن بالاميديس شك في تظاهره بالجنون فخطف تيليخوس بن أوديسيوس من مهده وجعله يمسك بمحراث يجره ثور وجواد ، فذعر أبوه ولم يستطع المضي في التظاهر بالجنون واعترف بخدعته ولكنه لم يفتقر لبالاميديس ما صنعه .

(٣) انظر الكتاب التاسع .

(٤) هذه إشارة إلى نفي تيلامون والد أجاكس بسبب قتله أخيه غير الشقيق فوكوس [انظر الكتاب السابع] .

(٥) مثلما فعل تيلامون بقتله أخيه .

(٦) كان تيوكروس بن تيلامون أختاً لأجاكس من والده بينما كانت أم أجاكس هي ابنة لاووميديون وشقيقة بريام [انظر الكتاب الحادى عشر] .

(٧) عرف الإغريق باسم الأخيين كما كانوا ينسبون أحياناً إلى داناوس شقيق أيجيوتوس ومؤسس مدينة أرجوس الذى أصبح أجاممنون ملكاً عليها فيما بعد .

(٨) يتبع أوفيد هنا مأساة « إفيجينيا فى أوليس » لأوريبيديس متابعة تكاد تكون حرفية .

(٩) أثارت وقاحة ثيرسيتيس البطل أوديسيوس فضربه بصولجانه ضربة أقعدته مرتعداً من الخوف والألم . وجاء وصف هذا الحادث على لسان هوميروس فى الكتاب الثانى من الإلياذة .

(١٠) كان دولون قد عرض خدماته على مواطنيه الطرواديين بأن يتجسس على مداولات أجاممنون والقادة الإغريق فى مقابل وعده بأن يهبوه جياد أخيل ومركبته بعد قتله .

(١١) إشارة إلى ما اقترحه أجاكس سائراً من قسمة الأسلحة بين أوديسيوس وديوميديس مناصفة ، الأمر الذى يعد أكرم من امتناع الإغريق عن مكافأة أوديسيوس بأى شيء على الإطلاق .

(١٢) هذه قائمة القادة الليكيين التى ينسج فيها أوفيد على منوال هوميروس سرد أسماء الأعداء القتل .

(١٣) هو العراف هيلينوس الذى كشف للإغريق بعد أن أسروه كيف يتسللون إلى طروادة .

(١٤) المقصود أجاكس بن أوليوس ملك اللوكويين .

(١٥) كان أجاكس يلتف بفراء الأسد الذى أعطاه إياه هرقل ، الأمر الذى جعله منيعاً على ضربات السيوف إلا فى مكان واحد اختلف الشعراء على تحديده ، ويقول أوفيد أنه الصدر بينما يقول البعض الآخر أنه العنق أو الجنب .
(١٦) أى تمثل بداية اسم أجاكس كما ينطق باللاتينية « أياكس » ، ويذكرنا مقطعه الأول بصرخة الألم والاستنجد التى صدرت عن هياكينثوس .

(١٧) تهاوت نساء ليمنوس فى تكريم الإلهة فينوس فترة طويلة ، أى أنهن لم يمارسن متع الهوى وزهدن فى مضاجعة أزواجهن مما دفع بالآخرين إلى هجرهن نحو نساء من طراقيا . فغضبت الزوجات الزاهدات وقتلن كافة الرجال فيها عدا هيسبييله بنت الملك ثواس التى هربت أباهما من المذبحة الكبرى ثم أصبحت ملكة لبلادها ، وهى التى رحبت ببشارة الأرجو عند مرورهم بوطنها وهامت بچاسون فحملت منه بولدين .

(١٨) انتزع الإغريق أستياناكس بن هكتور من أحضان أمه قسراً وألقوا به من فوق أسوار طروادة . وقد سجل أوريبيديس هذا المشهد الفاجع فى مأساة الطرواديات [البيت ٧٠٩ وما بعده] .

(١٩) ذكر هذا الاغتيال فى مقدمة مأساة هيوكوبا لأوريبيديس على لسان شيخ پوليدوروس ، ويذكره فرجيل أيضاً فى الكتاب الثالث من الإلياذة [البيت ١٩ وما بعده] .

(٢٠) يشير إلى يوم طمع فى الظفر بالأسيرة بريزيس فى مستهل ملحمة الإلياذة .
(٢١) يعرض الجزء الثانى من مسرحية « هيوكوبا » لأوريبيديس قصة عشور هيوكوبا على جثة ابنها پوليدوروس ثم انتقامها من قاتله پوليمستور ملك طراقيا ، وهو ما يتناقض مع ما ذكره هوميروس فى الإلياذة (٢٠ : ٤٠٧) من أن پوليدوروس هو ابن پريام من زوجة غير هيوكوبا هى لاووثويه وأن أخيل هو الذى قتله أمام هيكتور .

(٢٢) توجد « كينوس سيبا » أى مقبرة الكلبة على مقربة من الهيلسبونوت وفقاً لما جاء على لسان العالم الجغرافى استرابو .

(٢٣) أورورا [إيوس اليونانية] هى أم ممنون من تيثونوس شقيق پريام ، وفى تلك القرابة يكمن سر مناصرتها للجانب الطروادى .

(٢٤) انظر الكتاب السادس .

(٢٥) كانت فينوس قد وقعت فى غرام أنخيسيس . أما تسميتها بزوجه فهو من قبيل الأدب فى الحديث .

(٢٦) كانت لأسوار طيبة [بويوتيا] أبواب سبع .

(٢٧) كوكبة الجوزاء .

(٢٨) هما كوكبتا الإكليل الجنوبى والإكليل الشمالى عند الفلكيين العرب .

(٢٩) كان أوريون بن هيريوس من أهل طيبة ، وكانت له ابنتان هما متيوخى ومينيى تقدمتا بمحض إرادتها قرباناً لإنقاذ أهل المدينة حين حل بها الطاعون ، وهو ما كان قد طالب به الهاتف الإلهى فى معبد أبوللو بجورتيئا . وقد انتحرتا على النحو المذكور بالنص فنالتا رضاء الآلهة التى حولتهما إلى كوكبتين ، فى حين تحول أوريون بعد موته إلى كوكبة الجوزاء . والملاحظ أن النص هنا يفترق إلى الواضح ، وأن الإكليلين تأويل لنص فيه لبس بالمخطوطة الباقية .

(٣٠) جاء وصف هذه الرحلة بالإلياذة لفرجيل [الكاتب الثالث - الأبيات من ١٢١ إلى ١٩١] .

(٣١) مجموعة جزر أمام الشاطئ الغربى من المورة .

(٣٢) دوليخيون ونيريتوس اسمان جزيرتين مجاورتين لجزيرة إيثاكا . أما ساميه فهى جزيرة صغيرة فى بحر أيونيا قريبة من جزيرة إيثاكا تحمل أيضاً اسم كيفالينيا . وأمباراكيا مدينة فى إبيروس غير الأمبراطور أوغسطس اسمها بعد انتصاره فى معركة أكتيوم وسماها نيكوبوليس أى مدينة النصر .

(٣٣) تنازع كل من أبوللو وأرتميس وهرقل السيادة على هذه المدينة فاحتكموا إلى كراجاليوس بن دريوس الذى كان يرعى قطعانه بجوار المدينة ف قضى بحكمه لصالح هرقل ، فغضب أبوللو ومسحه صخرة . وكان لأبوللو فى مدينة أكتيوم معبد مشهور ، والملاحظ أن أوكتافيوس قيصر الذى أصبح الأمبراطور أوغسطس فيها بعد قد انتصر على ماركوس أنطونيوس والملكة كليونباترة فى معركة بحرية شهيرة سنة ٣١ ق.م. على مرأى من مدينة أكتيوم .

(٣٤) انظر الكتاب السابع .

(٣٥) كان مونيخوس ملك المولوسيين حاكماً عادلاً وعرفاً مشهوراً يحيا حياة الورع بين أسرته . وقد هاجمه بعض اللصوص ذات يوم وأشعلوا النار في دياره فمسخ جويتر أسرته النقية سرباً من الطيور لإنقاذها من الحريق .

(٣٦) فاياكيا اسم جزيرة في بحر أيونيا قريبة من شواطئ إيبيروس تغير اسمها إلى كوركيرا [كورفو الحالية] اشتهر أهلها بالمجون والولع بالتurf .

(٣٧) نتوء في جنوب صقلية .

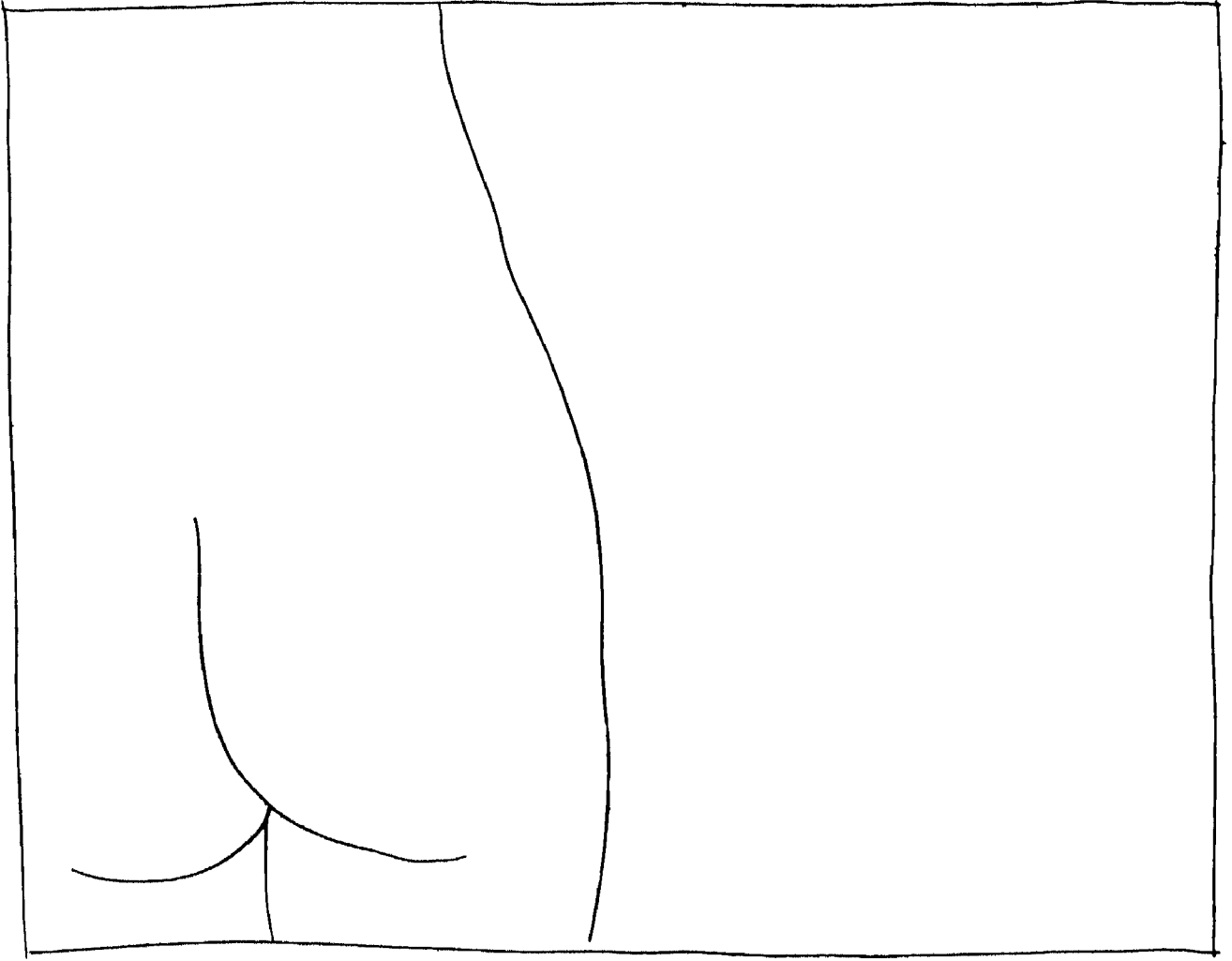
(٣٨) استوحى وصف سيكللا هنا من الأوديسيا لهوميروس [النشيد الثاني عشر . البيت ٨٥ وما بعده في خطبة كيركي أمام أوديسيوس] .

(٣٩) كان پوليفيموس إبناً لنبتون إله البحار .

(٤٠) تحول أكيس حفيد نهر ثيبايتوس بدوره إلى نهر ، وهو ذلك الجدول المنحدر من جبل إتنا والذي يحمل اسمه .

(٤١) جلاوكوس إله من آلهة البحار اختلف الرواة حول قصته ، فهو يمثل أحياناً في شكل شاب أمرد ، وأحياناً أخرى في شكل عراف عجوز يخشاه الملاحون ، وكثيراً ما يخلط بينه وبين پروتيوس ، ويروى أوفيد بعد ذلك قصة مسخه على لسانه .

(٤٢) كيركي هي بنت هليوس إله الشمس الذي كان — على ما رواه هزودوس — ابن هيبيريوس وثيا ، ويصفه أوفيد بأنه أحد المردة . وكان هليوس إله الشمس غير أبوللو إلى أن أصبح الاثنان شخصاً واحداً ، وكان أبوه المارد هيبيريون بدوره بن جارية الأرض وأخاً لكرونوس [ساتورن] .



بيكاسو

الكتاب الرابع عشر

سكيللا وكيركي

خلف الإله الذى اتخذ أمواج بحر يوبويا الصاخبة سكناً له جبل إتنا وراءه ، ذلك الجبل الشامخ الذى قذف به الآلهة فى قديم الزمان ليدقّ عنق أحد العمالقة^(١) ، كما خلف حقول الكيكلوبيس الذين كانوا يجهلون استخدام النورج والمحراث ولا يدينون بفضل للثيران المشدودة إلى النير . كذلك خلف وراءه مدينة زانكلييه^(٢) وأسوار مدينة ريجيوم المقابلة لها ، وكذا المضيق الذى أتى على سفن كثيرة بين ساحل أوزونيا [إيطاليا] وجزيرة صقلية المتقابلين [ميسينا] . وبذراعه المفتولة استطاع عبور البحر الإيتروسكى [التيرانى] حتى أدرك التلال السندسية حيث يشمخ قصر كيركى بنت إله الشمس ، ذلك القصر العامر

بمن مسختهم حيوانات مفترسة مختلفة الأشكال . وما كاد يلقي كيركى ويبادلها السلام حتى قال لها : ناشدتك أيتها الإلهة أن تترفقي بالإله الذى يمثّل أمامك ، فأنت وحدك من تستطيعين أن تخفّفى عني آلام حبى إذا كنت تَرَيْنَ أنى جدير بهذه المنة ، فما أعظم قدرة النباتات يا ابنة التيتان ، ولا أحد يعرف هذا معرفتى به بعد أن عانيت المسخ بفعل سحر هذه النباتات . ولكى تعرفى سبب الاضطراب الذى يلمّ بى فإليك ما حدث : لقد وقعت عيني على سكيللا على شاطئ إيطاليا المواجه لأسوار ميسينا ، وبمعنى حياى من أن أقصّ عليك كم من الوعود وَعَدْتُ وكم من ضراعات ضرعتُ وكم من عبارات غرام بعثتُ بها إليها فسخرت من هذا كله . وما أطلب إلا أن تنفّرج شفتاك المقدستان عن عُوْدة ، ففى عُوداتك تكمن قدرة تعلق كل قدرة . وإذا كان ثمة عُشْب فى ملكوتك له ما ليس لِعُوداتك من تطويع العَصَى فلتُسعفينى به فَلَأَنْتِ به خبيرة . وما أطلب منك ترياقاً ولا بلسماً لجرحى ، فما أنا فى حاجة إلى أن أهرّب من الحب بل إلى أن تُكْوَى سكيللا بنصيبيها من النار التى تضطرم فى نفسى .

٢٠

وإذ كانت كيركى أكثر النساء إحساساً بلوعة الحب ، سواء لما طُبِعَتْ عليه أو لما مُنِحَتْه من الإلهة فينوس الناقمة على إله الشمس^(٣) [لوشايتيه بصلتها بالإله مارس] فقد أجابت جلاوكوس قائلة : « كان أولى بك اختيار حبيبة تبادل ذلك إرادة بإرادة ورغبة برغبة ونُحْسَ بلوعة الحب كما نُحْسَ ، فما أجدرك بأن تكون النساء هُنَّ الساعات إليك ، ولتطمئن بالأى إلى أن سعى النساء إليك حقّ عليهن لوسامتك ، بل صدّقنى أنك لو تذرّعت ببعض الأمل لأصبحت أنت من تسعى هى إليك بدلاً من أن تسعى أنت إليها . فلا يخالجتك الشك فى نفسك ولا تفقدن الثقة بوسامتك . انظر لى ، فمع أنى إلهة ومع أنى ابنة إله الشمس المتألق ، ومع أنى أملك العُودات والأعشاب السحرية ذات القدرات الرهيبة ، إلا أننى أتمنّاك وأتوق إلى عشقك . فلتزدر من يزدريك ولتقبل على من تسعى إليك ، وبذلك يكون انتقامك من واحدة فيه إرضاء لآخرى » .

وقال جلاوكوس لكيركى يردّ على محاولتها اغراءه : « ما أنا بمتحوّل عن حبى لسكيللا مادمت حياً ، حتى لو انقلب الوجود رأساً على عقب فانشقت أعماق البحار عن نباتات الجبال وأعشبت قمم الجبال بأعشاب البحار » .

وامتلاً صدر الإلهة غضباً ، وإذ كان حبّها لجلاوكوس يحُول بينها وبين التنكيل به فقد صبّت نيران حنقها على غريميتها . وهرعت — تلك التى جُرِحَ كبرياؤها ولم تجد صدًى لحنانها — دون أن تضیی وقتها تهرس أعشاباً سامة ذات عصارات فتاكة ، وقرنت المزيج بعُودات لَقَّتْها إياها الرّبة هيكاى ، ثم التفت بغلالتها اللازوردية وسارت وسط قطعان الحيوانات المفترسة التى كانت تحتشد حولها مشرّبة الأعناق طلباً للمداعبة وخلّفت قصرها . ووصلت كيركى إلى مدينة ريبيوم المواجهة لصخور مدينة زانكلييه ، ثم اندفعت فوق الأمواج الصاخبة تسير فوقها وكأنها تخطو فوق اليابسة ، تدوس بقدميها سطح الماء فلا تبتلّان به .

٤٠

وكان ثمة مغارة صغيرة محدّبة القباب متعرّجة المسارب تنسرب مياه البحر إلى جوفها هى الماوى الأثير لسكيللا تختلف إليه هرباً من عنف الأمواج المضطربة ومن حرارة الشمس المحرقة ساعة تتوسط قبة السناء

فتنكمش ظلال الأشياء . وإذا كيركى تلوث مياه المأوى. وتنشر سمومها البشعة به ، وتنثر سائلاً من عصارات جذور سامة ثم تمتصت مرات تسعاً ثلاث مرات بتعاويد سحرية كلها لعنات غامضة وكلما غريبة ملغزة . ولم تكد سكيللا تغوص في الماء إلى خصرها حتى وجدت حولها وحوشاً مفترسة تعوى محيطاً بفخذيها . ولم يجل بخاطرها في بادىء الأمر أن هذه الوحوش قد باتت جزءاً لا يتجزأ من جسمها فحاولت الفرار وطرده هذه الوحوش وقلبها يمتلىء فرعاً من أنيابها الجارحة ، ولكنها كلما حاولت التخلص من هذه الوحوش شذبتها معها ، وكلما تحسست فخذيها وساقها وقدميها وجدت مكانها مجموعة من الكلاب الشبيهة بـكلاب كيربيروس ذات الرؤوس المتعددة الفاغرة الأفواه ، وكلما حاولت النهوض وجدت نفسها تقوم على هذا الرهط من الكلاب المسعورة ورأت أن نصفها الأسفل ليس إلا كلاباً تلتصق بالجزع الذى يعلوها . أما عاشقها جلاوكوس فولّى فراراً والدموع تنساب مدراراً فوق وجنتيه ، رافضاً أن يتخذ من كيركى زوجة له بعد أن استغلت قدرات أعشابها على هذه الصورة الوحشية . وبقيت سكيللا جامدة في مكانها ، ولم تكد تحين أمامها الفرصة حتى اختطف رفاق أوديسيوس نقمة على كيركى ، وكادت أن تغرق سفن الطرواديين أيضاً لولا أنها مُسخت قبل ذلك صخرة تنتصب حتى اليوم فوق الأمواج منذرة بخطر يتحاشاه الملاحون .

الكيركوبيس

ما كادت السفن الطروادية تُفلح بقوة مجاذيفها في الإفلات من سكيللا وخاريبيديس النهمة حتى شارفت سواحل أوزونيا وكادت ترسو بها ، وإذا ريحٌ قوية تدفعها إلى شواطئ ليبيا . وهناك استقبلت أينياس الملكة الفينيقية التى تنتمى إلى أسرة صيدا الملكية وفتحت له قصرها وقلبها معاً . وقضت الأقدار ألا تحتل ديدو فراق زوجها الفريجي [بعد أن هجرها بغتة] فألقت بنفسها على ذبابة السيف من فوق محرقة كانت قد أعدتها متظاهرة بأنها لتقديم القربان . وكما هجرها أينياس على حين غرة هجرت هى الأخرى شعبها وهى تغافله .

وللمرة الثانية^(٤) لاذ أينياس بأذيال الفرار ، فخلف أسوار المدينة الجديدة المشيدة فوق الساحل الرملى مبتعداً ، وما لبث أن وجد نفسه يعود إلى أرض إريكس^(٥) وإلى الملك أكستيس^(٦) الوفى حيث قدّم القرايين ونحر الضحايا أمام مدفن أبيه . ثم أبحر من جديد بسفنه التى كادت إيريس مبعوثة جونو أن تشعل فيها النار . وخلف مملكة ابن هيبوتيس^(٧) ، تلك الأراضى التى تنبثق منها أبخرة الكبريت المشتعل . وبعد مروره بصخور « السيرينات » بنات نهر أخيلوس فقَدَ ربّانه [بالينورس] ، ثم اجتاز شواطئ جزيرة إيناريميه^(٨) وجزيرة پروخيتيه^(٩) ومدينة بيشيكوزا^(١٠) المشيدة فوق تل أجرد والى اشتق اسمها من اسم سكانها [بيشيخوى أى القردة] ، إذ يروى أن كبير الآلهة في قديم الزمان قد ضاق ذرعاً بالسنة الكيركوبيس وبرذائل هذا الجنس المخادع ، وقضى بإنزال العقاب بهم فحوّهم من أناسٍ إلى حيوانات دميمة تختلف شكلاً عن البشر وإن احتفظت ببعض الشبه به ، وجعل جوبيتر أطرافهم دقيقة وأنوفهم

فطساء وخدّد أصداغهم بتجاعيد الكهولة ، ثم كسا أجسادهم بشعر داكن وألزمهم هذا المأوى . غير أنه قبل أن يفعل حرمهم القدرة على الكلام وجردهم من ألسنتهم التي تحلف كذباً وتحث باليمين ، ولم يترك لهم القدرة على الشكوى إلا بصراخ أجش وبأصوات ناشزة . ١٠٠

سبيل

وبعد أن مرّ أينياس بهذه الجزر وخلف عن يمينه أسوار پارثينوى^(١١) وعن يساره ضريح ميسينوس^(١٢) نافخ البوق الرنان - الذى كان ابناً لأبولوس - رسا على شاطئ كوماى بمستنقعاته ذات المياه الراكدة . وهناك سعى إلى المغارة التي تأوى إليها سيبيل المثقلة بالسنين ، وسألها أن تأذن له باختراق مملكة أفيرنوس [العالم السفلى] حتى يلقي روح أبيه . فثبتت سيبيل نظرها في الأرض برهة طويلة ، وبعد أن رفعت رأسها تحدثت بصوت الإله الذى تقمصها قائلة : « إنك لتطلب الكثير أيها البطل الشهير ، يا من كشفت عن بسالتك بضربات سيفك وعن ورعك وبرك بأسلافك بنفاذك وسط السنة نيران المدينة المشتعلة . فلتطرح عنك شتى ألوان القلق أيها الطروادى فستحقق أمانيك وسأكون مُرشدتك ، وستعرف عن قريب على ديار إليزيوم [العالم السفلى] آخر ممالك الكون ، وستلقى روح أبيك الحبيبة لأنه ليس ثمة طريق تعجز الفضيلة عن سلوكه » .

وأشارت إلى الغصن الذهبى المتألق فى الغابة المخصصة لجنونو الأفيرنية ربّة العالم السفلى ، وأمرت أينياس أن يقطع الغصن من الجذع الذى يحمله فانصاع لأمرها ، فإذا بصره يقع على تلك المملكة العظمى التى يحكمها أوركوس ربّ الأموال حيث شاهد أطياف أجداده وروح والده أنخيسيس الكهل السّمح القلب ، وما هى إلا هنيهة حتى كان قد ألمّ بالشرائع التى تسود هذه الديار كما عرف المخاطر التى سيتعرّض لها فى حروبه المقبلة . ثم عاد يسير بخطوات منهكة فى الطريق الصاعد محاولاً أن يتلمّس الراحة من الإرهاق الذى أحسّ به وهو يبادل مرشدته سيبيل كاهنة كوماى الحديث . حتى إذا خلف هذا الطريق الرهيب الكثيف الظلمات صاح بها : « يستوى عندى أن تكونى إلهة أو أن ترعاك إلهة فساظل دوماً معترفاً بفضلك علىّ ، لأنك أنت وجدك من أنحت لي زيارة مملكة الموت ثم مغادرتها آمناً . واعترافاً بما أسبغت علىّ من مآثر لأشيدنّ لك معبداً عند عودتنا إلى سطح الأرض ولأحرقنّ باسمك البخور » .

فالتجّعت الكاهنة نحوه وهى ترسل زفرة عميقة وقالت : « لست إلهة يا أينياس ولا يجوز أن تحرق البخور المقدّس لتكريم كائن فان . أقول لك ذلك حتى لا ترتكب خطيئة عن جهل . ولتعرف أننى لو كنت قد ضحيّت بعذريّتى واستسلمت لنزوات الإله فويوس الذى كان يعشقنى لحظيت بنور الخلود . وكان فويوس يأمل وقتذاك أن ينالنى وما فتئ يغربنى بهداياه ، ويقول لى : « يا عذراء كوماى ما أشدّ حرصى على أن ألبى لك أية رغبة تفصحين عنها » . فالتقطت حفنة من الثرى عرضتها عليه وطلبت منه فى حماقة أن يهبني أعياد ميلاد بقدر ما تحتويه قبضتى من ذرات التراب ، ولكنى نسيّت أن أطلب فى الوقت نفسه أن تكون هذه السنين كلها سبى شباب إلى نهايتها . ومع ذلك فقد كان من اليسير على فويوس أن يهبني أيضاً

الشباب الأبدى لو أننى ارتضيت أن يُشع وله منى ، لكننى ازدريت ما طلب وبقيت عانساً حتى الآن . أما اليوم فقد غاب العهد السعيد من العمر وأهلت الشيخوخة الحزينة بخطواتها الراجفة ، ومازال على احتياها سنين طويلة أخرى . فقد مرّت قرون سبعة كما ترى ومازال أمامى أن أشهد ثلاثائة مرّة حصاد الغلال ، وثلاثائة مرة انسكاب النبيذ الجديد من معصرة الكروم حتى أكمل عدد ذرّات التراب التى تقابل سنى عمرى . وسيأتى وقت أضمرّ فيه حتى أصبح مخلوقاً أشدّ ما يكون ضالّة ، وستنكمش أعضائى بفعل الشيخوخة حتى تصبح ملء قبضة يد فحسب . ولن يصدّق مخلوق يرانى على تلك الحال أنى كنت ذات يوم معشوقة إله . ومن يدرى فقد يعافنى فوبيوس نفسه ، وقد ينكر أنه مال إلى ذات يوم ؟ وسأبلغ نهاية أيامى على هذه الصورة التى تختلف عما كنت عليه ، وإذا لم يعرفنى أحد لفرط ضالّتى فسيعرفنى الآخرون بصوق ، وهو كل ما سوف تتركه لى الأقدار .

أخيمينيديس وبوليفيموس

وبينا كانت سيبيللا مسترسلة فى حديثها كان أينياس الطروادى فى سبيله إلى ضوء النهار مخلفاً مملكة ستيكس على مقربة من مدينة « كوماى » اليبوية . وبعد أن قدّم القرابين وفق الشعائر المتداولة انحدر إلى الشاطيء الذى لم يكن قد سُمى بعد باسم مُرضعته « كاييتا » . وهنا أيضاً كان مكاربيوس بن نيريتوس ١٦٠ اليونانى قد هبط هو الآخر واستقر بعد أن عانى الكثير فى مغامرة بحرية طويلة مرهقة برفقة أوديسيوس المحنك ، فإذا هو يتعرّف على أخيمينيديس الذى كان قد ترك مهجوراً منذ أمد بعيد بين صخور جبال إتنا . ودهش مكاربيوس لهذا اللقاء المباغت بشخص كان يظنه قد قضى نحبه وسأله : « أى إله هذا الذى تدين له بنجاتك يا أخيمينيديس ، وأية صدفة تلك التى ترجع لها سلامتك ؟ وأنّى ليونانى أن يجد نفسه قد أبحر فى سفينة من سفن البرابرة الطرواديين ؟ وأى ساحل كانت تقصده سفينتك ؟ » .

وأجاب أخيمينيديس وكان قد نزع ثيابه المهلهلة التى كانت مخيطة بالأشواك فيما مضى بقوله : إنه لأحبّ إلى أن ألقى بوليفيموس مرة ثانية وأنظر إلى فمه الشرّ الذى تساب منه قطرات الدم البشرى عن أن يكون وطنى إيثاكا أعزّ لى من هذه السفينة أو أن يكون تبجيل لأينياس دون تبجيل لأبى . . . فمهما بذلت فى خدمة أينياس لن أفيه حقه من العرفان بالجميل . وهل لى أن أنسى أنى بفضلله أتكلم الآن وأتنفس وأرى الشمس كوكب النهار ؟ إنى مدين له بحياتى فلقد أنقذنى من الموت فى جوف الكيكلوپيس . وما أنذا لومت الآن وفارقت الحياة ما فقدت الأمل فى أن أدفن فى قبر وليس فى أعاء الوحش . أو علمتم بما أحسسته ساعة تركتمونى وأبحرتم نحو البحر الفسيح ؟ [وإن كان الخوف قد سلبنى كل شعور وإدراك حينذاك] ، فكم كنت أودّ أن أناديكم ولكنى خشيت أن أكشف بذلك عن مكافئ للعدو ، حتى أنتم فى سفينتكم كدتم ١٨٠ أن تحيق بكم كارثة لولا هتاف أوديسيوس . فقد رأيت الكيكلوپيس ينزع كتلة من الجبل ، كما شاهدته يلقي بصخرة ضخمة فى وسط البحر ، ورأيت بعد ذلك يقذف بقوة صخوراً شاهقة بذراعى عملاق وكان

منجنيقاً يطوّح بها . وكم كنت أخاف أن تُغرق الرياح والأمواج السفينة وقد غاب عني أنى لم أكن فيها ، وما كاد الفرار ينجّيكُم من ميتة بشعة أكيدة حتى جُنّ جنون الكيكلوبيس وأنّ أنات غضب وأخذ يعدو على غير هدى حول جبل إتنا يتحسّس الغابات التي تعترض طريقه بيده . وقد عوّق به جرمانه من الإبصار فأصبح يتعثّر في الصخور البارزة ، ثم رفع ذراعيه الملطختين بالدماء واتجه صوب البحر وهو يستنزل اللعنات على سلالة الأخيين قائلاً : « لو أن الحظ أعاد إلى أوديسيوس أو أحد رفاقه ، لافترسته غاضباً ولالتهمت لحمه ولزّقت يدي أطرافه النابضة ، ولرويت حلقي بدمه وهشمت عظامه بين فكّي . لو أن هذا وقع لي لكان على فقدان نور عيني الوحيدة » !

وبهذه العبارات وغيرها التي أفصح بها عن غضبه امتنع وجهي من فرط فزعي وأنا أتأمل وجهه الذي أخذ تتساقط منه قطع اللحم ، كما حملت في كفيّ الجافيتين وفي المحجر الفارغ الذي أضحي لا يُبصر وفي أعضائه القبيحة وفي لحيته التي تلطّخت شعراتها بدماء البشر . ومثلّ الموت أمام عيني ولم يكن الموت إلّا أقلّ ما أخشاه من شرّ ، إذ كنت على يقين أنه لن يلبث أن يقبض على ويلتهم لحمي فيستقرّ في أحشائه . وتبادرت إلى ذهني صورة تلك الأيام التي رأيت فيها رفاقي يُلقى بهم اثنين اثنين على الأرض ثلاث مرات أو أربعة وهو يجلس القرفصاء فوق أجسادهم كأنه أسدّ منفوش اللبدة يلتهم أحشائهم ولحمهم وعظامهم بنخاعها الأبيض وأطرافهم التي ما تزال تنبض بالحياة . كان جسمي كله يردد وجمّدت في مكاني ، كما جمّدت الدم في عروقي وتملّكني اليأس وأنا أتطلّع إليه وهو يلوك ضحايا في فمه وينهش تلك الوجبة الدامية ثم يقىء بعضها في سبل تختلط فيه قطع اللحم بالنبيذ . وما كان أشقائي وأنا أنتظر هذا المصير إذ أمضيت الأيام الطوال أهيّم على وجهي مختبئاً بين كهف وآخر ، وكلما سمعت صوتاً ارتعدت فرائصي فكنت أخشى الموت وأتوق إليه معاً ، وكنت أسكّن جوعي بأكل الأعشاب وثمار البلوط وأوراق الأشجار وأنا أعيش في وحدة كئيبة وفي عوز ويأس ضحية مُهمّلة معرّضة للهلاك فريسة للكيكلوبيس . وبينما أنا في هذه الحالة رأيت سفينة من بُعد فاندفعت ألّوح بيدي مستنجداً وعدّوت نحو الشاطئ أنادي ملاحياً ضارعاً . وهكذا قدّر لتلك السفينة الطروادية أن تحمل رجلاً يونانياً ، فما بالك يا مكاريوس يا أعزّ رفاقي لاتكاشفي بمغامراتك ومخاطرات زعيمك والمقاتلين في رفقتك وأنتم تحت رحمة الأمواج ؟

مكاريوس وأوديسيوس

وأخذ مكاريوس يروي كيف كان أيولوس بن هيبوتيس يسود بحار إتروريا^(١٣) ، وأنه بعد ما حبس الرياح في جلد ثور قدّمه هدية لأوديسيوس ملك دوليكيوم الذي أخذه معه . وبعد أن أمضى أوديسيوس ورفاقه تسعة أيام تدفع أسطولهم في البحر ريحٌ رخية وقعت أبصارهم على البلاد التي كانوا يقصدونها . وفي فجر اليوم العاشر ملأت الغيرة نفوس رفاق أوديسيوس وتملّكتهم رغبة شرهة في تقسيم الغنيمة التي يضمّنها جلد الثور والتي خالوها ذهباً ، فمزّقوا الرّباط الذي كان يمسك الرياح سجيناً في هذا الجلد ، فإذا هي

تنطلق وتُدفع السفينة في اتجاه مضاد حتى أَلقت بها عند ميناء مملكة أيولوس . واستطرد مكاريس قائلًا :
 « ومن هناك أدركنا مدينة لاموس اللستريجية التي كان يحكمها الملك أنتيفاتس ، وقد ذهبت موفدًا إليه في
 حراسة اثنين من رفاقي ، غير أننا سرعان ما لُذنا بالفرار أنا وأحد رفيقي بعد أن رأينا رفيقنا الثالث قد أكله
 ٢٤٠ أهل لستريجون وبدت شفاهم ملطخة بدمائه . ومضينا هارين وأنتيفاتس يطاردنا على رأس شعبه الذين
 أخذوا جميعهم يلْقون كتل الصخور وجذوع الأشجار على سفننا حتى أغرقوها بما عليها من ملاحين إلّا
 سفينة واحدة نجت هي تلك التي كنت عليها مع أوديسيوس . وبعد أن بكينا من فقداننا من رفاقي ،
 وأمضينا وقتًا طويلًا نرثي لمصيرهم رَسَوْنَا على تلك الشواطئ التي يمكن أن تراها من هنا على بُعد .
 وصدّقني أنه خير لك أن ترى تلك الجزيرة من بعيد من أن تراها عن قُرب كما رأيتها . أما أنت يا أشرف
 الطرواديين يا ابن الإلهة [إذ يتعذر عليّ يا أينياس أن أدعوك بالعدو بعد أن انتهت الحرب بيننا] فنصيحتي
 لك أن تتجنّب شواطئ كيركي . ولَمَّا رَسَتْ سفينتنا بشواطئ كيركي أبَيْنَا أن نغادر السفينة أو أن نقصد
 بيتًا لا نعرف أهله ، فقد كنا ما نزال نذكر مغامرتنا مع أنتيفاتس والكيلوكويس المقترسين . لكن الأقدار
 اختارتني — حين اقترعنا — أن أذهب ومعى پوليتيس الوفيّ ويوريلوكوس والپينور الشديد الولع باحتساء
 النبيذ في صحبة ثمانية عشر من رفاقنا لتتعرّف على أسوار ديار كيركي^(١٤) . وما كدنا نصل حتى وقفنا بباب الدار
 وقد أفرعنا قطيع من ألف ذئب ومعها آلاف الدببة واللبؤات . ولقد عرفنا بعدُ أنه لم يكن ثمة ما نخشاه من
 هذه الحيوانات إذ لم يباغتنا واحد منها بشرّ ، بل لقد داعبتنا بذيلها ورافقت خطانا في حنان وأبت مفارقتنا
 حتى قابلتنا الخادماة اللاتي قُدُنَا إلى ربّة البيت عبر أبهاء كبيرة مرصوفة بالرخام ، وكانت تترّج على عرش
 ٢٦٠ مهيب في نهاية قاعة شامخة وترتدي ثوبًا يخطف بريقه الأبصار يغشيه معطف مزدان بخيوط القصب ، ومن
 حولها الحوريات والنيرياويس اللاتي لم يكنّ مشغولات كالعادة بغزل الصوف وجدل خيوطه الطّبعة بأناملهن
 المدربة^(١٥) بل كنّ يُنسّقن نباتات سيّدهن ، كما كنّ يورّعن الزهور والأعشاب المختلفة الألوان بلا نظام في
 سلال متعددة . وكانت كيركي ترقب أعمالهن باهتمام فلقد كانت وحدها هي التي تعرف نفع كل ورقة كما
 تعرف أثر امتزاج بعضها ببعض ، ثم كانت بعنايتها الفائقة تزن فائدة كل عُشب يميزان دقيق .

وما إن رأتنا حتى بادلتنا التحية وأشرقت طلعتها وهي تعبر لنا عن تمنياتها الطيبة ، وبدا وجهها الباسم
 وكأنه بشيرٌ بنجاح خُطتنا . ولم تلبث أن أمرت بأن يُعدّ لنا مزيج من الشعير المحمّص والزيت والنبيذ واللبن
 الخثير ، وأضافت إليه عصارات غلبت حلاوة المزيج على مذاقها ، فتناولنا من يدها الكؤوس التي قدّمتها
 لنا يمينها ، ولم تكد أفواهُنا الجافة ظمًا تُسلمها إلى أجوافنا ، ولم تكد الإلهة الرهيبة تلمس أطراف شعورنا
 ٢٨٠ بعصاها [وما أستطيع أن اذكر ذلك دون أن أحسّ العار] حتى أحسستُ بجسدي تنبت فيه شعيرات
 منتصبّة ، وغاب نُطقي وحلّ محلّه خوار أجشّ ، وانكفأت بوجهي على الأرض وإذا فمي يتحوّل إلى خطم
 متهدّل ، وإذا عنقي ينتفخ بعضلات غليظة ، وإذا يداي اللتان تناولت بهما الكأس تستحيلان قديمين أمشي
 عليهما ، ودفَعوا بنا أنا ورفاقي سجناء في حظيرة بعد أن صرنا جميعًا ضحايا لهذا السحر [ألا ما أعظم قدرة
 الشراب السحري] . وكان أوريلوكوس هو وحده الذي لم يُمسَخ خنزيرًا لأنه رفض الكأس التي قدّمت

إليه ، ولولم يكن قد ردّ تلك الكأس لكان إلى الآن خنزيراً بين القطعان الخشنة الشعر ، فكان هو الذى أنهى إلى أوديسيوس الكارثة التى حلّت بنا ، فجاء لينقذنا ويثأر لنا من كيركى .

وكان ميركورىوس إله السلام قد أعطاه زهرة بيضاء بعنق أسود يسمّيها سكان السموات « مولى »^(١٦) ، فدخل أوديسيوس دار كيركى وهو آمن من كل خطر بفضل سحر هذه الزهرة وبفضل وعد الآلهة بشدّ أزره . ولما دعتة الإلهة إلى تناول الشراب الغادر وحاولت لمس شعره بعصاها دفعها بعيداً عنه وبثّ الرعب فى الإلهة المذعورة بأن شهر عليها سيفه . وبعدها تصافحا إيذاناً بعهد جديد يسوده صفاء النية ورخبت كيركى بأوديسيوس فى فراشها ، وطلب منها جزاء معاشرته إياها أن تردّ له رفاقه على صورتهم الأولى ، فنثرت علينا عصارة عُشب مجهول وضربتنا على رؤوسنا بعصاها معكوسة ونطقت بَعُوْذَة تُبْطِل أثر العوْذَة الأولى . وكانت كلما رتلّت عوذتها أخذ قوامنا يعتدل وتساقط الشعر التى يكسو جلدنا واختفت شقوق أظلالنا واعتدلت لنا مناكبنا وعادت سواعدنا تظهر من جديد كما كانت . وما كاد أوديسيوس يرى هذا التحول حتى انخرط فى البكاء تأثراً وبكىنا معه نحن أيضاً بينما نحتضنه بأذرعتنا ، وكان أول ما نطقنا به هو الاعتراف بالجميل . وقضينا هناك سنة واحدة رأيت خلالها الكثير من الغرائب وسمعت الكثير من العجائب . ومن بين ما سمعت ما روته لى سرّاً إحدى الوصيف . الأربع المنوط بهن الأعمال السحرية . فذات يوم بينما كانت كيركى مختلية بقائدى قادتى وصيفتها إلى تمثال شاب من الرخام الأبيض الناصع كالجليد وعلى رأسه طائر النّقار . وكان هذا التمثال فى معبد على جوانبه أكاليل زهور كثيرة ، فازددت تشوّفاً لمعرفة من يكون هذا الشاب ، ولماذا يُعبد على مثل هذا النحو فى مثل هذا المكان المقدس ، وما هو سرّ الطائر الأخضر الذى على التمثال . فقالت لى : أصبح السّمع يا مكارىوس وستعرف من خلال ما سأقصّه عليك مدى قدرة ربّتى ، فامنحنى إذن أذنًا صاغية :

بيكوس وكاننز

« كان يحكم بلاد أوزونيا فى الماضى الملك بيكوس بن ساتورن الذى كانت جياد الحرب المدربة هى شغله الشاغل . وأمام عينيك صورته تستطيع منها أن تكتشف كم كان وسيماً ، كما تستطيع منها أيضاً أن تستشف طباعه . وكانت شجاعته تعادل جمال شكله ، ومع أنه لم يكن قد بلغ من العمر ما يكفى لأن يشترك مرات أربع فى مباريات المصارعة التى يقيمها الإغريق كل خمس سنوات فى إحدى مدن إيليس ، إلّا أن جمال وجهه قد اجتذب إليه أنظار الدرايديدس حوريات جبال لاتيوم ، كما سعت إليه أيضاً حوريات الينابيع وجارتها فى مسعاها الناياديس بنات مياه نهر ألبولا ونهر نوميكيوس ونهر أنيو ونهر المون التى هى قصيرة مجاريها ونهر النار المتدفق الصاخب ونهر الفارفاروس ذى الأشجار الظليلة ، كما سعت إليه أيضاً حوريات تلك البركة التى تحيط بها غابات الإلهة ديانا السكوئية^(١٧) وحوريات البحيرات المجاورة . غير أن الفتى كان ينأى عنهن جميعاً ولا يقدم فروض الولاء لغير حورية واحدة يقول الرواة أن فينيليا كانت قد أنجبتها فوق جبل بالاتينوس بعد مضاجعة الإلهة جانوس^(١٨) الأيونى . وما كادت الفتاة تشبّ ويتكوّر

نهداها حتى آثرت بيكوس من أهل لاتيوم على كل من تقدّم لخطبتها فتزوجت منه . كانت فتاة نادرة الجمال غير أن قدرتها على الغناء كانت أكثر ندرة وتفرداً ، ومن هنا سُميت كاننز [أى مغنية باللاتينية] . وكان لوقع أنغامها صدى يحرك الصخور والغابات ويروّض الحيوان الكاسر ويوقف جريان الماء في الأنهار الكبرى ، ويجمّد بالطيور عن أن تحفّق بأجنحتها . وبينما كانت منهمكة بترديد أغانيها ذات يوم انطلق بيكوس من داره مطارداً بسهامه الخنازير البرية في برارى لاتيوم وقد امتطى جواداً جاعاً وقبض بيده ٣٤٠ اليسرى على رمحين وارتنى الخلاميس^(١٩) الأرجواني اللون المضموم بمشبك من الذهب الأشقر . وكانت بنت إله الشمس الوافدة من البرارى التى تحمل اسمها . . . برارى كيركى ، قد دلفت إلى الغابة لتقطف من تلالها الخصبية بعض الأعشاب النضرة وما كادت عيناها تقعان على الفتى المختبئ وراء إحدى الشجيرات حتى فتنّت به وسقطت من بين يديها الأعشاب التى كانت تضمّها ، وخيّل إليها أن ناراً ملتهبة تسرى كالبرق في عظامها . وبعد أن استعادت رشدها كادت تقرّ لبيكوس بحبّها إلا أن انشغاله برقص جواده والتفاف تابعيه حواليه حالا بينها وبين أن تُغرّب عن افتتانها به ، وعندئذ تمتمت تناجى نفسها : « لن تُفلت مني أيها الفتى ولو حملتك الرياح بعيداً عنى اللهم إلا إذا بطل سحر الأعشاب التى أجمعها وإلا إذا فقدت عوداتي قدراتها » .

وانكفأت على سحرها فإذا شبح خنزير برّى أطلقته ليقطع الطريق على الملك ، وإذا الملك يتراءى له كأنه يندفع صوب أجمة من الأشجار المتضامّة المتشابكة الغصون والأوراق يتعدّر على الجواد اختراقها . فاندفع بيكوس دون رويّة أو تردّد ودون أن يظنّ إلى ما دُبر له فأخذ يطارد ذلك الخنزير الذى تخيّل ، ونزل ٣٦٠ عن صهوة جواده الذى رعى خطمه بالزبد من فرط إنهاكه ومضى الملك يعدو في الغابة العميقة وراء أمل زائف . عندها بدأت كيركى تتلو صلواتها لأربابها الخفية مرّدة تعاويز سحرية لا تقلّ خفاءً فغطت الغيوم بياض القمر ونسجت فوق وجه أبيها الشمس سحباً ممطرة ، واستطاعت بسحر عوداتها أن تغشى السماء بظلام كثيف وتطلق من الأرض ضباباً معتماً ، فهام رفاق الملك على وجوههم يبحثون عنه وقد حالت الظلمات بينه وبين حاشيته . وهكذا هيأت كيركى لنفسها المكان والزمان المناسبين ، وانطلقت تخاطبه قائلة : « يا أجهل بنى البشر الفانى ، ناشدتك بعينيك اللتين فتنتا عينيّ وبذلك القسبات الجميلة التى جعلتني أنا الإلهة أقف أمامك ضارعة أن تحفّف من لدع تلك النار التى تلتهمنى ، وأن ترضى بإله الشمس العليم بكل شيء حمّاً لك ، ولا تذهب بك قسوتك إلى ازدراء كيركى ابنة التيتان » .

غير أن بيكوس دفعها بعيداً دون اكتراث بضراعاتها قائلاً : « لن أكون لك أياً كنت ، فثمة امرأة أخرى تأسر قلبي ولا أبغى من الدنيا سوى أن أبقي أسيراً لها على مرّ السنين ، ولا أستطيع في سبيل حب محرم أن أخون عهود الزوجية مادامت الأقدار ترعى لى كاننز ابنة چانوس » . ٣٨٠

وبعد أن كررت بنت التيتان محاولاتها وضراعاتها سدى حدّرت قائلة : « لا يبلغن بك الغرور أن تظن أنك بمنجاة من العقاب فلن تعود أبداً لزوجتك كاننز ، وهاك مثلاً يدلّك على ما تقدّر عليه المرأة العاشقة حين تُهان . وإن هذه المرأة التى أحبت ثم أهينت هى أنا . . . كيركى » . وعندها التفت مرتين نحو

مغرب الشمس ومرتين نحو مشرقها ، ثم مسّت الفقى مرات ثلاث بعصاها السحرية وتمتت بعوذات ثلاث ، ولكن بيكوس فرّ من أمامها غير أنه ما لبث أن دُهِش حين رأى أن سرعته تفوق قدرته المعهودة وإذا هو يرى أن الريش قد نبت على جانبيه . وإذا أحسّ المهانة لمسخه في غير إبطاء طيراً ينضمّ إلى طيور غابات لاتيوم غرس منقاره الصّلب في جذع شجرة بلوط برى كما نقر به غصونها الفارعة ، وإذا هو يرى أن ريشه قد اتخذ لون أرجوان الخلايس الذى كان يرتديه ، وتحول مشبكه إلى دائرة من الريش تحيط بعنقه وكأنها قلادة من ذهب ، ولم يبق من الإنسان الذى كان يحمل اسم بيكوس غير اسمه^(٢٠) [الطائر النّقار] .

وبينما بيكوس قد انتهى إلى هذا المصير كان رفاقه قد انطلقوا يبحثون عنه في الغابات والوديان فلم تقع عيونهم إلا على كيركى ، وكانت قد أعادت الضوء ينير الأجواء وسمحت للريح والشمس بأن تبدّد السحب ، فانهال رجال بيكوس عليها شاكين مطالبين بمليكمهم ، ثم هدّدوها أن يعنفوا بها وتهيئوا لرشق سهامهم المروعة في جسدها ، ولكنها أسرعت فأطلقت عليهم سُمّاً مُبيداً ونثرت حولها عصارات فتاكة ، ونادت على الليل وآلهته من أعماق جحيم إيريبوس وعالم الفوضى والعماء ، ثم أطلقت صرخات طويلة متوسلة بها إلى الإلهة هيكاكى . ألا ما أعجب ما حدث : فقد وثبت الغابات بعيداً عن مكانها ، وأرسلت الأرض أنات ملتاعة ، وشجبت الأشجار من حوالهم ، وابتلت المروج في كل مكان بقطرات الدم ، وسمع الناس الأحجار تتأوه تأوهات صارخة كما سمعوا الكلاب تعوى ، وتغطت الأرض بحشود من الأفاعى الخبيثة ، ومضت أرواح الموتى ترفرف في الهواء فذهل القوم ما شاهدوه . ولما رأتهم كيركى على هذا النحو من الهول لمست بعصاها السحرية وجوههم التى علاها الذهول ، فإذا معجزة أخرى تتجلى إذ مُسخ البشر حيوانات ضارية وتجردوا من هيئاتهم الأولى .

كان فويوس قد غمر بضوئه سواحل تارتيسوس^(٢١) قبل أن يتوارى ، وعبثاً ظلت كاننز ترصد عودة زوجها بعينها وبقلبها ، وكان خدماها قد انتشروا في كل مكان وتبعهم أهل المدينة بحثاً عن بيكوس في أعماق الغابات حاملين الشعلات يبدّدون بها حلقة الليل . ولم تكتف الحورية بالبكاء وشدّ شعرها وضرب صدرها والتعبير عن ألمها بشقى الوسائل ، وإنما انطلقت خارج قصرها إلى وديان مملكة لاتيوم وقد مسّها الجنون ، وشهدت أياماً سبعة وليالى سبعة لا تطعم طعاماً ولا تذوق نوماً تهيم بين الجبال حيث تقودها المصادفة ، وكان آخر من رآها هوربّ نهر التير الذى ألقت بنفسها على ضفّته بعد أن هدّتها آلام الأسى وقسوة الحزن . ومع دموعها وبأسها كانت تردّد بصوتها المتهلّج شكاة ما أشبهها في شجنها بأنغام حزينة موقّعة لبجعة قد أشرفت على الموت . وتحلّل جسدها مع الألم حتى ذاب نخاع عظامها ، وتهاوت شيئاً فشيئاً مختلطة بالهواء الذى علقت به . ومع ذلك فإن ذكرها ظلت خالدة حيث هلكت ، وكان هذا المكان هو الذى أطلقت عليه حوريات الماء المسمّيات بالكاميناي^(٢٢) اسم هذه الحورية كاننز .

تلك عجيبة من عجائب ظللت طوال سنة أسمعها من الآخرين بأذى أو أشهداها بعينى . وكان الفراغ والخمول قد سلبانا الرغبة في الإبحار حتى أمرنا يوماً بأن نبحر . وقد أنذرتنا بنت التيتان أن الملاحة

غير آمنة في هذه المياه وأن الطريق طويل ، وأن هيجان البحر العنيف يندرنا بأخطار شتى فإذا الخوف يملؤني . وإذ كنت قد أدركت هذا الشاطئ قرّ عزمي على استيظانه .

٤٤٠

رفاق ديوميديس

وبعد أن فرغ مكاريوس من سرد قصته وضع أينيّاس رماد جثة مرضعته في إناء رخامى ونقش على قبرها هذه العبارة الموجزة : « ها أنذا كاييتا . هنا أودع البطل الورع الذى أرضعته ثدى بقايا جثمانى فى النار المقدسة كما تقضى شرائع الدين بعد أن انتشلنى من نار العدو الإغريقى الحارقة » . وما لبث الطرواديون أن أرخوا حبال سفنهم من المرسى المغطى بالأعشاب وخلفوا وراءهم تلك الجزيرة الغادرة مأوى الإلهة السيئة السيرة ، ثم اتجهت السفن نحو منطقة الغابات حيث يصب نهر التير مياهه المختلطة بالغرين الأصفر فى البحر تحت ظلال الأشجار . وكما قدّم لاتينوس بن فاونوس داره لأينيّاس قدّم له ابنته بالمثل ، غير أن تلك المشيئة لم يُكتب لها أن تتحقق دون قتال ، فشبتّ حرب مع شعب عنيد شديد المراس . وكان تورنوس قد بذل كل ما يملك من وسائل الترهيب لكى يظفر بابنة لاتينوس التى كانت خطيبته فيما مضى ، وخاضت مملكة لاتيوم حرباً ضد مملكة تيرينيا (إتروريا) بأسرها وبقي جيشاهما يتنازعان طويلاً نصراً عصبياً . وأخذ كل منهما يحاول تدعيم قوته بما يستعين به من إمدادات خارجية ، وكافحت شعوب شتى متحالفة مع شعب الروتولين أتباع لاتينوس ، كما كافح آخرون مساندة للمعسكر الطروادى (٢٣) . ولم تكن زيارة أينيّاس لـ « إيفاندر » (٢٤) بلا جدوى على حين باءت بالفشل زيارة فينولوس [المتنمى إلى الروتولين] لمدينة ديوميديس البُعْد عن وطنه (٢٥) . وكان ديوميديس يحكم البلاد التى كانت مهراً من زوجته ، ولكنه كان يحكمها فى ظل حماية داونوس الياپيجى (٢٦) واستطاع أن يشيد فى هذه الأراضى مدينة ذات أسوار عالية . ولكن ما إن جاءه فينولوس بناء على أوامر تورنوس يطلب عونه حتى تخاذل عن مساعدته معتذراً بقلّة موارده وضعف جيوشه إذ كان عاجزاً عن توريث رعايا حميه . هذا إلى أنه لم يكن بين مواطنيه ما يكفى من المحاربين للاشتراك فى القتال فاعتذر يقول : « ما أحب أن تحملوا ردى على أنه ذرائع وتعلّات ، إذ كلما استعدت ذكرياتى أثارت فىّ آلاماً مبرّحة ، ولكنى مع ذلك سأتجمل بالشجاعة لأقصّ عليكم قصتى : بعد أن احترقت قلعة إليوم [طروادة] وبعد أن التهمت النيران التى أشعلها الإغريق مدينة پرجامون ، لأن بطل ناريكس [أجاكس] اختطف عذراء ممن تشملهن إلهة العذارى بالرعاية [كاساندرا] ، حُقّ علينا أن نتقاسم العقاب الذى كان يستحقه هو وحده . ودفعت الرياح سفننا فى المياه المضطربة الثائرة وجعلتنا نصارع البرق والظلمات والأمطار وغضب السموات والبحر ثم نلقى الهول الذى كان خاتمة المطاف فى برزخ كافاريوس (٢٧) . ولست أبغى الإسهاب فى رواية ما حدث لنا من مغامرات فاجعة ، فلقد اجتازت اليونان كلها وقتذاك محنةً كان سيراً أن تستدر حتى دموع پرّام ملك طروادة . أما أنا فقد نجوت لأن رحمة الإلهة منيرفا ذات الدرع والرمح قد أنقذتنى من غضبة المياه ، وها أنذا الآن أجدنى مطروداً من حقول أبى ، تعاقبنى الإلهة فينوس الطيبة على جرح قديم جرحته إياها عن غير قصد (٢٨) .

٤٨٠

وهكذا قُدِّر لي أن أشقى بهذه المحن في رحلاتي بالبحار العميقة كما عانيت محناً أخرى على اليابسة في معارك القتال ، حتى لقد صرت أعداً أولئك الذين لم يشاركوا في القتال جدّ محظوظين ، وكم أسفت أن العواصف عند برزخ كافاريوس المنيع لم تأت على مثلهم . أما رفاقي الذين ذاقوا متاعب الحرب ومغالبة الأمواج فقد انهارت شجاعتهم وأخذوا يتوسلون إلى أن أضع نهاية لرحلاتهم التي غناء فيها ، إلى أن صاح أكمون ابن مدينة بليورون الذي كان ثائراً بطبعه والذي أذكت المحن المتتالية من ثورته قائلاً : « تُرى بعد كل ما عانيتم أيها الرفاق ما سوف يكون مدى احتمالكم ؟ وهل ثمة محن أخرى تحببها لنا إلهة كثيرًا ؟ فكلما خاف المرء أن يعرض له مزيد من المحن فوجيء بمحن أكثر . وما أقدر الإنسان على أن يغلب مخاوفه إذا ما انتهى إلى ذروة شقائه فلا يعود قلقه من المستقبل يساوره . ألا فلتسمعني الإلهة ولتلاحقنا بكراهيتها نحن رفاق ديوميديس ، فكلنا نزدري كراهيتها ولا ترهبنا سطوتها الكبرى » . ولقد ضاعفت قولة أكمون المفعمة بالتحدي من ثورة غضب فينوس . وعلى حين هلل بعض رفاق أكمون لقولته لامته الكثرة وكنت أنا من بينهم . وحين حاول الردّ علينا إذا صوته يضيع وحلقه ينطبق وإذا هو يضمّر جسده ويتحوّل شعره ريشاً ، كما كسا الريش عنقه المسوخ وصدره وظهره ونبت ريش أطول على ذراعيه وتقوّس كوعاه فغدّتا جناحين خفيفين ، وامتلأ ما بين أصابع قدميه بغشاء رقيق ، وإذا فمه منقار مدبّب فحملق فيه زملاؤه ميكوس وإيداس ونكتيوس وركسنور وأباس مذهولين وإذا هم الآخرون يمسخون على هيئته . وهكذا انطلق أكثر رفاقي سرباً من الطيور يخفق بأجنحته في الهواء ويدور حول المجذّفين بمجاذيفهم . وإذا أردت أن تعرف هيئة هذه الطيور التي وُلدت لتوها فاعرف أنها ليست بجعاً وإن كانت تشبهه كثيراً لبياض ريشها^(٢٩) .

أما أنا وتلك القلّة الباقية من رفاقي فلقد غدونا نضطلع بشئون هذه الديار ونفّح تلك السهول الجرداء التي انتهت إلى مهراً من داونوس الياييجي لزواجي من ابنته .

شجرة الزيتون البرية

وبعد أن قصّ ديوميديس حفيد أوينيوس قصصه غادر فينولوس مملكة كاليدون عائداً إلى بلاده عبر خليج بيوكيتيا وحقول ميسايا فوق بصره على كهف تظللّه أشجار كثيفة وتحجبه عن العيون قصبات من الغاب ، وكان يسكنه بان الإله نصف التيس ، وإن تكن حوريات الأنهار قد سكنته قبل قديماً . ويروى أن راعياً من أبوليا حلّ ذات يوم بهذا الكهف فذعرت الحوريات من حلوله وهربن فزعات . غير أنهن سرعان ما جمعن شتات رشدهن غير مباليات بمطاردهن وعادن الرقص تدقّ أقدامهن الأرض على إيقاع نشيدهن ، فمضى الراعي يسخر منهن ويقلّدهن بوثبات ثقيلة هوجاء ويقذفهن بشتائم بذيئة ولم يكفّ إلا بعد أن وقع ساق شجرة على حلقه فإذا هو يمسح شجرة زيتون برّى ، وأصبحت عصارة ثمرة هذه الشجرة خير دليل على طبعه ، فمرارتها التي اكتسبتها من خشونة أسلوبه تبيّن عن بداءة لسانه .

سفن أينيّاس وقصة أروديا

وحين عاد الرسل من بعتهم برفض الإيتوليين تقديم العون لم يقعد الروتوليون عن القتال على الرغم من عدم عون أولئك الحلفاء لهم فتدفقت سيول الدماء من الطرفين . وها هو ذا تورنوس يقذف شعلات النيران النّهمة على السفن المصنوعة من خشب الصنوبر فإذا هي تلتهب ، وإذا الرجال الذين نجوا من الموت غرقاً يتهيّون الموت حرقاً ، وكان مولكيسير إله النار قد أخذ يقذف في جوفه بالقطران والشمع وبكل ما يغذى النار وتسلّق الصبارى الكبير مُصعداً نحو الشراع وسط الدخان المنبعث من العروق التي في مؤخرة السفن . وحين تذكرت كوييلي أم الآلهة المبجلة أن خشب الصنوبر الذى صُنعت منه هذه السفن قد جاء من أشجار جبل إيدا الذى تباركه ملأت الهواء بصفير المصفار وبقرع الصنوج ، وأقبلت تشقّ الهواء الرقيق على مركبتها التى يجرها زوج من الأسود المروّضة وصاحت : « عبثاً تطوّح يداك الجاحدتان بهذه المشاغل المحرقة يا تورنوس فلسوف أنزعها منك ، ولن آذن لنار أن تحيل جزءاً من غاباقي رماداً » .

٥٤٠

وما انتهت الإلهة من تحذيرها حتى أرعدت السماء ، وهبطت في إثر البرق أمطار غزيرة يتخلّلها برد متساقط . وأثارت الرياح أبناء آسترايوس^(٣٠) في الهواء فتنة وفي المياه ثورة في هبوبها ، على حين جعلت أم الآلهة الحنون ريحاً من هذه الرياح تمزّق جبال الكتان التى تربط الأسطول الفريجي فدفعت سفنه أمامها حتى غرقت ، غير أن خشب السفن لم يلبث أن تحوّل لحماً واستحالت حيازيمها المقوّسة وجوها بشرية ، كما أصبحت المجاذيف أنامل وسيقاننا قادرة على السباحة . وتحوّل ما كان جوانب السفن إلى ضلوع . أما الصالب^(٣١) الذى يتوسط قاع السفينة فقد استحال عموداً فقرياً ، وأصبحت الجبال شعوراً مسترسلة ، وغدت ساريتا السفينة ذراعين غير أن لونها بقي لازورديا كما كان من قبل ، وتحوّلت السفن التى كانت تهاب الأمواج إلى حوريات بحر يعشن بالمياه . ومن عجب أن أولئك الحوريات اللاتي ولدن على صخور الجبال بتن لا يفكرن في أصولهن بعد أن ضمتّهن المياه ، إلّا أنهن لم ينسِينَ مخاطر رحلاتهن في الخضم ، فما أكثر ما كنّ يسندن السفن التى تلطمنها العواصف بأيديهن غير سفن الأخيين إذ كن مازلن يذكرن مآسى الفريجين التى غدّت كراهيتهنّ للبيلازيين [الإغريق] ، لذلك فرحن لما رأين حطام سفينة ملك نيريتوس [أوديسيوس] ، كما قرّت عيونهن بفرحة دونها عندما شهدن سفينة ألكينوس تتجمّد ، ويتحول خشبها إلى صخر وسط البحار .

٥٦٠

وحينما سرت الحياة في هذه السفن — التى تحوّلت إلى حوريات بحار — كان ثمة أمل في أن يفزع الروتوليون من هذه المعجزة وينفضون أيديهم من الحرب ، غير أن الروتوليين لم يعدلوا عن الحرب بل استمروا يواصلونها . وكان لكل فريق آلهته التى ترعاه ، كما كانت لكل منهم شجاعته التى تعدل رعاية الإله . فلم يَعدّ النزاع قائماً حول مملكة أتفق أن تكون مهراً ، ولا حول صولجان صِهْر ، ولا حولك أنت يا لافينيا العذراء ، بل أصبح هدف المعركة هو النصر وحده . واستمرت الحرب خشيّة عار الانسحاب ، إلى أن اطمأنت فينوس في نهاية الأمر إلى فوز جيش ولدها وهزيمة جيش تورنوس ، وسقطت مدينة أروديا

التي اشتهرت ببأسها في حياة تورنوس^(٣٢) ، حتى إذا تهاوت محرقة وسط السنة النيران التي أشعلها الدردانيون وتساقطت بيوتها تحت الجمر المتوهج ، انطلق من بين الخرائب والأطلال طير لم يشهده أحد من قبل أخذ يرفرف فوق المدينة وينفض الرماد من أجنحته الخفّاقة ، وأخذت صيحاته وشحوبه ونحوه تذكّر كلها بالمدينة الضائعة ، حتى اسم المدينة نفسه قد حمله هذا الطير فسُمّي أرديا [أى مالك الخزين] ، وهو طير دائم الخفقان بجناحيه والبكاء على مصيره والرتاء لمصابه . ٥٨٠

تأليه أينياس

لقد أنست شجاعة أينياس الآلهة جميعاً ومن بينهم چونو الكراهية التي كانوا يضمرونها له منذ القدم . وكانت سلطة ابنه يولوس التي اكتمل نموها قد رسخت ، وأن لهذا البطل أينياس بن فينوس أن يصعد في السماء ، ومن أجل هذا أخذت فينوس تسعى سعيها لدى الآلهة واحداً بعد الآخر وطوّقت بذراعيها عنق أبيها جوبيتر قائلة : « أبتاه ، أنت لم تقس علىّ يوماً ما ولم ترفض لي رجاء ، لذا فلنأ أسألك أن تمنحني اليوم أعظم ما أتمناه عليك فتهب ابني العزيز أينياس نصيباً من الربوبية مهما كان ضئيلاً ، فهو من دم ابنتك ومن ثم فهو حفيدك . فحقّق رجائي يا أجلّ الملوك ، وحسبه أنه ألم بمملكة الظلال يوماً وأنه عبر نهر ستيكس ذات مرة » .

وما إن سمع كبير الآلهة رجاءها حتى أجابها إلى ما طلبت ، وقد قابسته ملكة السموات رضاها فبدت غير متجهمة يفيض وجهها بالخير . وقال لها كبير الآلهة : إنك وابنتك جديران بهذه الهبة السماوية ، أنت يا من رفعت إلىّ رجاءك ، وهذا الذي تتوسّلين من أجله ، فلإليك يا ابنتي ما تبتغين » .

كانت هذه كلمة كبير الآلهة ، وعندها قدّمت فينوس التي عمّا الفرح فروض الشكر لأبيها واعتلت مركبتها التي تجرّها الليمات البيضاء ، وحلّقت في الأثير حتى وصلت شواطئ لاورنتوم حيث ينعطف نهر نوميكيوس ليصبّ في البحر المجاور ، هذا النهر الذي تفيض على جانبيه القصبات . وهناك أمرت فينوس ربّ النهر أن يغمس فيه أعضاء أينياس حتى لا يُصيّبها الموت بالتحلّل ، كما أمرته أن يغوص بها إلى أعماق النهر الهادئة ، فاستجاب لها إله النهر ذو القرنين وغسل منه كل عضو فان إلا ما كان أسمى وأنبل فلا يحتاج إلى أن يمسّه ماء النهر . وعكفت أمه بعد ذلك على دهان جسمه بعطر إلهي ثم مسّت شفّتيه بمزيج من شهد الآلهة « الأمبروزيا » ونبذهم العذب « النكتار » ، وهكذا جعلت منه إلهاً ، فرحّب به أهل كويرينوس [أحد تلال روما] ودّعوه ربّاً للمكان فشيدوا له معبداً وهيكل . ٦٠٠

يومونا وقيرتومنوس : إيفيس وأناكساريتي

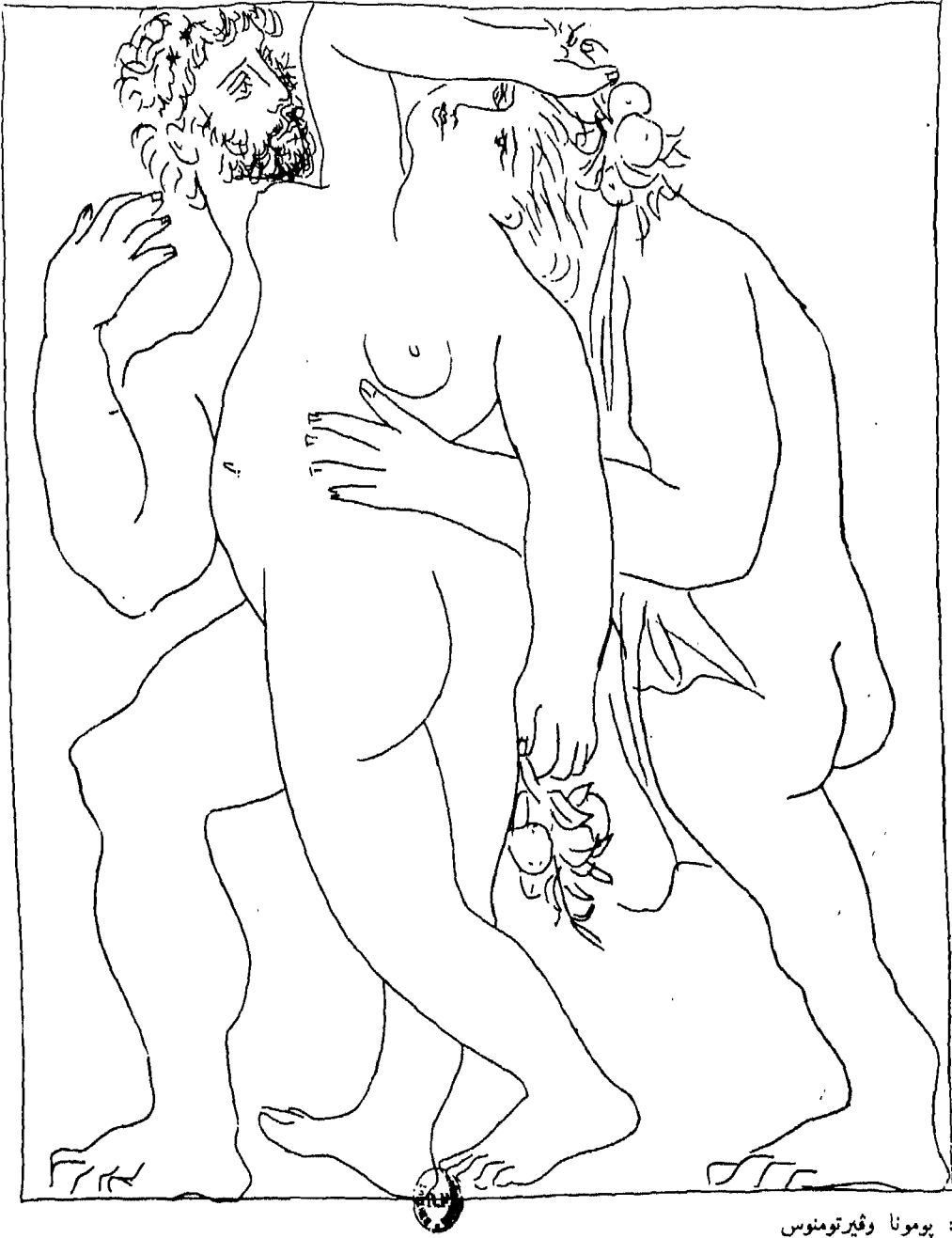
وأصبحت مملكة ألبا ومملكة لاتيوم بعد ذلك تحت حكم أسكانيوس بن أينياس الذي حظي باسمين^(٣) ، إلى أن خلفه سلفيوس . ومن بعده حمل لاتينوس بن سلفيوس اسم سلفه ملك لاتيوم القديم

كما حمل صولجان حكمه . وجاء ألبا الشهير بعد لاتينوس ثم ابنه إبيثوس ثم تولّى كاپيس الحكم ومن بعده كاييتوس . ومنها تسلم التاج تيرينوس الذى سُمى النهر الإترورى باسمه بعد أن غرق فيه . وأنجب تيرينوس ريمولوس وأكروا المقاتل المعز بنفسه . وقد صعق البرق ريمولوس أكبر الأخوين عندما كان يحاول أن يقلّد البرق فى صعقه . وكان أكروتا أقل طموحاً من أخيه فسلم صولجان الحكم إلى أفتينوس الباسل الذى دُفن بعد موته فى سفح التل الذى كان قد تقلّد الحكم فوقه ، فأطلق اسمه على هذا التل بعد مماته . ٦٢٠

وأصبح پروكا ملكاً لشعب الپالائينوس [أحد تلال روما] ، وفى عهده عاشت پومونا ، ولم تكن من بين حوريات غابات لاتيوم حورية تفوقها فى فلاح البساتين وتنسيق الحدائق ، أو تنافسها فى العناية بشمار الأشجار ومن هنا أطلق عليها اسمها پومونا^(٣٤) ، فلم تكن تعشق الغابات والأنهار فحسب بل تعشق أيضاً الحقول المزروعة وغصون الأشجار المثقلة بالفاكهة الوفيرة ، ولا تحمل يدها حربة تُثقل يدها بل تحمل المنجل المقوس تشدّب به أحياناً ذؤابات النبات وتنسّق الغصون المشعّبة أحياناً أخرى . كما تنشق أحياناً لحاء جذوع الشجر لتدسّ فيه غصن شجرة يتغذى من عصارة شجرة أخرى ، وكانت دائمة السّهر على النباتات لا تدعها تعاني ظمأً بل كانت تروىها من الجداول الجارية حتى تتشرب بها أطراف الجذور المشعّبة . كان هذا همّها الأكبر ومتعتها الوحيدة فى الحياة ، لا تعاني من لهفة الحب . وكان خوفها من عنف سكان الريف الذين من طبعهم دوماً الشوق إلى المرأة سبب عزلتها فى غوطة الفاكهة التى حرّمت على الرجال دخولها . وكم حاول الساتير أولئك الفتيان المعربدون الذين لا يعرفون غير الرقص عملاً ، وكم حاول أتباع پان ذوو القرون المحاطة بأكاليل ورق الصنوبر ، وكم حاول سيلينوس^(٣٥) الذى يبدو دائماً أصغر سنّاً من حقيقته ، وكم حاول پرياپوس ذلك الإله^(٣٦) الذى كان يروّع اللصوص بالكشف عن مذاكيره الضخمة المُمعنة طولاً والتلويح بمنجله الحاد ، كم حاول سدى أولئك جميعاً الاستمتاع بها . ٦٤٠

كذلك كان فيرتومنوس يكرّ لها حباً أعظم من حب هؤلاء جميعاً ولكنه مثلهم لم يسعد بها . كم مرة ارتدى رداء الفلاح البسيط كى يحمل إليها سنايل القمح فى سلّة فبدا فلاحاً حقاً ! وما أكثر ما ظنّ مشاهدوه وحزمة العشب الغضّ المحصود حول رأسه أنه عائد لتوه من حقل الحصاد . وما أكثر ما كان يقبض على السّوط بيده القوية مما يجعل الناس توقن أنه منته لتوه من رفع النير عن أعناق ثيرانه المنهكة ، وإذا أمسك بالمنجل ظن الناس أنه إما قد فرغ من تشذيب الأغصان أو من تقليم الكروم .

وكان يسير أحياناً والسلم على كتفه فيظن الناس أنه ذاهب لقطف الفاكهة ، وإذا أمسك بسيف ظنّوه جندياً محارباً ، وإذا أمسك بقصبة ظنّوه صياد سمك . وأخيراً استطاع بعد هذه الحيل الكثيرة من التكرّر أن يجد الوسيلة التى يقترب بها من پومونا التى كان دائم الشوق إلى إمتاع عينيه بجهاها . وذات يوم أحاط جبينه بشريط مطرّز بألوان مختلفة واتكأ على عصا ، وسوى شعراً أبيض فوق صدغيه ليبدو فى صورة امرأة عجوز ، ودلف إلى حدائقها المنسّقة الغرس ، وأبدى إعجابه بالفاكهة التى شهدا قائلًا : « ما أعظم هذا التاج الغزير الوفير ! » وأغرق فى الثناء على پومونا ، ثم هو بعد هذا الثناء يقبلها قبلات لم يُشَهد مثلها من امرأة عجوز ، وافترش الأرض وقد قوس ظهره ورفع بصره إلى الغصون المتدلّية بثقل عطاء الخريف . ٦٦٠



بيكاسو : يومونا وفيرتوموس

وكانت ثمة شجرة دردار شاحخة تنتصب أمامه تحيط بها عناقيد الكروم وكأنها قلادة لها مبهرة ، فأطرى تلك الشجرة ورفيقتها الكرمة قائلاً : « لو كانت هذه الشجرة قد نهضت وحدها جذعاً وحيداً دون الكرمة التي تكتنفها لما قصدتها أحد إلا ليقطف أوراقها ، كذلك هذه الكرمة التي تستند إلى جذع الدردار لو لم تقترن به لهبطت إلى الأرض متخاذلة . أما أنت فما يبدو عليك أنك تدركين هذا المثل الذي تضربه هذه الشجرة ،

فأنت دائمة الهروب من مباحج الحب ولا تحرصين على الاقتران برجل . ألا فلتكن مشيئة الآلهة أن ترضى يوماً بالزواج . فكم من عشاق قصدوك أكثر ممن قصدوا هيلينا نفسها ، أو هيبوداميا التي كانت سبب المعركة بين اللايث والقنطور ، أو بينيلوبي زوجة أوديسيوس الذي كان يبدو شجاعاً حيناً وجباناً حيناً آخر^(٣٧) . وإلى الآن وأنت تتمنين على العشاق ، فكم من ألوف من الرجال وقعوا في هোক ، وكم هناك من عشاق لك من بين الآلهة وأنصاف الآلهة ومن هم دونهم من الآلهة التي تعيش على جبال ألبا . ولو رُزقت شيئاً من الحكمة وشيئاً من الدراية بمصلحتك ، ثم لو كانت لك الرغبة في أن تعيش في ظل رجل تسعدان معاً لأنصت إلى تلك المرأة العجوز التي تقف أمامك ، فحبها لك يطغى على حب الرجال لك وفوق هذا الحب . وما أنصح لك به يا ابنتي ألا تهبطي إلى مستوى العامة واجعلي من فيرتومنوس رفيقاً لك في مضجعك ، وأنا كفيلة باقناعه فما أدراي به . وهو ليس ممن يهيمون على وجوههم في الأرض وراء مغامرات لا طائل تحتها ، بل هو هذا الذي يُفلق تلك الحقول الشاسعة الممتدة أمام بصرك . وهو لا يسقط في حب امرأة رآها آخر ما رأى كما هو شأن من يتوددون إليك كل يوم ، بل ستكونين له أول من أحب ولن يحب بعدك لأنه مشوق أن يجعل حياته كلها لك . ولا تنسى أنه مازال شاباً وأن الطبيعة قد أسبغت عليه حظاً كبيراً من الوسامة ، وأنه قادر على أن يتحول إلى أية هيئة شاء ، وأنه رهن إشارتك دوماً لأن يتحول إلى الهيئة التي تؤثرين . هذا إلى أنكما تتفقان مشارب وأذواق . أليس هو أول من يذوق التفاح الذي تزرعين ، ومن يملأ كفيهِ فرحاً بشمار الأشجار التي رَعَيْتها ؟ ولكني أقول لك إنه ما به من رغبة الآن في شمار أشجارك ، كما أنه ما به من رغبة في نتاج بستانك ولا في فاكهتك الغضة ، بل هو أشوق ما يكون إلى طعمتك أنت . فارحمي عاشقاً يعصف به عاصفُ الحب ، واستيقني أن كل ما تمنّاه قد عبر عنه على لسان . واحذري آلهة الانتقام وإلهة إيدليا [فينوس] ، تلك الإلهة التي تبغض القلوب الغليظة المتحجرة ، ولتحدري غضب نيميسيس المتحفظ إلهة الثار وراعية رامونتي التي لا تخونها الذاكرة أبداً . ولكي تدركي ما قد تتعرضين له من سطوة الآلهة إليك قصة ذاعت في قبرص ، فقد جعلتني حياتي الطويلة أقف على الكثير من الخفايا ، ومن يدرى لعل قصتي تلين قلبك وترقق عواطفك .

٧٠٠ « كان ثمة رجل من أسرة متّضعة يدعى إيفيس قد وقع بصره على الأميرة أناكساريقي حفيدة تيوكير [ملك فريجيا في قديم الزمان] ، وسرعان ما أحسّ بنار الهوى تلهب عظامه . وحاول كثيراً أن يكبح حبه غير أن العقل قلما يكبح جنون العشق ، فجاء متوسلاً إلى عتبة بيت معبودته حيث اعترف لمرضعتها بحبه اليائس للأميرة والتمس منها السعى لديها لتبثها ما له عليها من آمال ، كما توسل إلى وصيفاتها بصوت العاشق المعذب ليمنحنه تأييدهن ومساندتهن . وكثيراً ما أودع في رسائله عواطفه الحانية ، وكثيراً ما كان يعلّق فوق باب القصر أكاليل الزهور مبتلة بدموعه ، وكثيراً أيضاً ما كان يلقي بنفسه على عتبة الباب مُسلماً جسده لقسوة الحجر الصُّلب وهو يلعن القفل المنيع الذي حال بينه وبين الدخول بصوت حزين . وكانت أناكساريقي أشد قسوة من البحر نفسه ، ذلك البحر الذي يهيج عندما يأفل نجما الجديين زيتا وإيتا ، وكان قلبها أعتى من حديد مسابك نوريكوم^(٣٨) وأصلب من الصخور الراسخة في الأرض . وما

أكثر ما سخرت منه ، وما أكثر ما ردت على تشبيهه بعبارات قاسية ملؤها التعالي والخيلاء حتى سدت في وجه عاشقها طريق الأمل . ولم يستطع إيفيس صبراً بعد أن غلب شقاؤه قدرته على المعاناة فانطلق أمام بيت الفتاة يردد كلماته الأخيرة بصوت عال : « لقد كتب لك الفوز يا أناكساريقي ولن تضيقى بإلحاحى بعد اليوم ذرعاً . فلتفرحى ولتسعدى بنصرك المؤزر ، ولتنشدى نشيد النصر ولتعصبى جيئك بأكاليل الغار المتلاثة . فانت من كتب لك الفوز ، وما أنذا أموت طوع إرادى . اذهبى راضية يا من قد قلبك من فولاذ ، ولعل يوماً يُقبل تشهدين فيه أن موقفك منى جعلنى أفعلى ما يحرك إعجابك بى وتقديرينى قدرى . ولكن اذكرى أن حبى لك دائم مادمت حيّاً إذ أن نور الحياة ونور الحب يمدان معاً . ولن يحمل لك خبر موق شائعة من الشائعات المتداولة بل سأمثل أنا نفسى أمام عينيك حتى يكون لك يا أفسى النساء أن تمتعى نظرك برؤية جسدى الهامد . ناشدتكم أيتها الآلهة فى علاكم أن تجعلوا قصتى مروية على ألسنة الناس على مرّ العصور كلما عنّ لكم أن تنظروا فى أعمال البشر [وما يملك لسان أن يتوسّل إليكم بأكثر من هذا] ، وأن تضموا إلى ذكراى تلك السنين التى اقتطعتموها من عمرى . »

٧٢٠

ثم رفع عينيه الدامعتين أمام الباب الذى كثيراً ما علّق عليه أكاليل الزهور ، وبذراعيه الممدودتين ربط حبلاً بأعلى مصراعى الباب وشدّ به أنشودة ، وصاح من جديد قائلاً : « انظرى . هاك الأكاليل التى ترتضيها يا أناكساريقي القاسية ! » ثم دسّ رأسه فى الأنشودة وشنق نفسه . وظل حتى بعد أن لفظ آخر أنفاسه معلّقاً بالباب فاقد الحياة متجهاً ببصره صوب الأميرة . وأخذت قدماء ترتبطان بمصراعى الباب فإذا لهما نحيبٌ وكأنه يندب ما حدث فى مرارة ، وانفتح الباب قليلاً وإذا أهل البيت تتكشف لهم المأساة وصرخ الخدم والأتباع وأقبلوا يحاولون رفع إيفيس ، ثم حملوا جثته إلى دار أمه الأرملة ، فضمت ابنها بين ذراعيها واحتضنت الجثة الهامدة الباردة وفاهت بعبارات الأسى التى نسمعها للأباء والأمهات فى مثل هذه المواقف ، وأقدمت على ما تقدم عليه الأمهات الشقيّات فانفجرت بكاء وقادت جنازة طويلة اجتازت المدينة حاملة جثمان ابنها على النعش فى طريقه إلى المحرقة . وكان بيت أناكساريقي قريباً من الطريق الذى تمرّ به الجنازة ، وبلغت أصوات النحيب أذن الفتاة المتحرّجة القلب ، وشرع إله الثار فى إثارة ضميرها . وعلى الرغم من طبيعتها التى لا مبالاة فيها بدأت الشفقة تتسلل إلى قلبها وصاحت : « دعونى أشرف على هذه الجنازة الحزينة . » ثم صعدت إلى حجرة مرتفعة فى بيتها لتطلّ على المشهد من نافذتها المفتوحة على مصراعيها ، وما كاد طرفها يقع على إيفيس وهو مُسجى على نعشه حتى جمدت عينها وسرى فى جسدها شحوب الموت وجفّت دماؤها وانطفأت فيها حرارة الحياة وحاولت أن تعود إلى حيث كانت ولكنها ظلت جامدة فى مكانها ، وحاولت سدى أن تتلفّت بوجهها مرة إثر مرة ، وإذا التحجّر الكامن فى قلبها يسرى فى جسدها كله . وحتى لا تظنّى أن هذه القصة من بنات الخيال اعلمى أن فى سلاميس إلى يومنا هذا تمثالاً لمعشوقة إيفيس بجوار معبد أطلق عليه اسم « فينوس المتغطرة المتوجّسة » .

٧٤٠

٧٦٠

فلتذكرى هذه القصة أيتها الحورية وخلى عنك هذا الكبرياء الذى يملوك صداً وتمنّعا ، وهبى نفسك

لعاشقك ، حتى لا يُحمد لفح الصباح البارد في الربيع براعم ثمارك ، ولا تنثر ريحه في هبوبها زهراتك التي هي الأمل في ثمارك .

وهكذا حاول الربّ المنتكر في صورة امرأة عجوز أن يعرض قضيته على پومونا ، ولكن إذ ذهبت مساعيه هباء عاد إلى هيئته الأولى وكشف عن وسامته الجذابة ، وخلع رداء الشيخوخة وظهر أمام الفتاة في أوج مجده كالشمس حين تظهر من وراء السحب البادية أمام طلعتها ، وتأهب لأن يأخذ أموره بالعنف فيحقق مأربه على حين لم تكن ثمة ضرورة لذلك ، إذ ما أسرع ما افتتنت الحورية بجمال الربّ وأولعت به كما كان هو بها مولعاً .

رومولوس وهيرسيليا

وحكم مملكة أوزونيا ذات الثروة الوفرة بعد بروكا أمولوس الظالم اعتماداً على جيشه الجرار إلى أن استرد نوميتور^(٣٩) العجوز بعون حفيده مملكته السلية . واكتمل خلال مهرجان الهاليليا^(٤٠) إرساء أسس أسوار مدينة روما . ثم جاء تاتئوس ورؤساء قبائل السايين فشنوا الحرب على قلاع المدينة ، وكانت الفتاة طارياً قد مهدت لهم الطريق إلى القلعة وإذا هي تلقى جزاءها العادل حين لقيت حتفها بقذائفهم المتتابعة . ثم تسلل أبناء قبيلة السايين^(٤١) من مدينة كوريس في خفاء وصمت الذئاب وهاجموا حراس المدينة وهم غارقون في نومهم . وكان رومولوس بن إيليا قد أحكم إغلاق أبواب المدينة عدا باب واحد فتحته چونوبنت ساتورن في حرص حتى لا يكون له صرير . وكانت فينوس هي وحدها التي رأت مزلاج الباب وهو ينزع وكادت تحاول إغلاقه لولا ما جرى عليه عُرف الآلهة بالأيّطل إله عمل إله آخر . وإذا كانت حوريات المياه الأوزونيات يعشن قريبات من هذا المكان إلى جوار معبد چانوس في منطقة تتدفق فيها مياه عين نديّة ، لجأت فينوس إليهن فلم يستطعن إلا أن يُعاونها فقد كان مطلبها عادلاً ، ففجّرن مياه الأنهار والجداول التي تُمدُّ ينابيعهن [للحيلولة دون العدو وبين اقتحام أسوار المدينة] . وبالرغم من ذلك عجزن عن أن يَسُدُّن الطريق المؤدى إلى باب معبد چانوس ولم يُفلح الماء وحده في صدّ العدو ، فوضعت الحوريات كبريتاً أصفر في أعماق النبع المتدفق وأضرمن النار فيه تحت سطح الأرض بالقار الذي يتصاعد منه الدخان ، فتسرّبت الحرارة إلى أعماق الينبوع وغدت المياه التي تحدّت برودتها ذات يوم برودة جبال الألب في حرارة المُهل والنار نفسها . ومن هذا الشواظ الناري الملهب اندلع الدخان في جِصْنِي بوابة المدينة التي استعصى على السايين الغلاظ أن ينفذوا منها حين طمعوا في احتراقها [وما كان أضعف أملهم] ، فقد وجد أهل المدينة في هذه المياه المتدفقة عوناً لهم ريثما يجد جنود مارس فسحة من الوقت يتسلّحون فيها ويحملون تروسهم .

٨٠٠ وقاد رومولوس جنوده في الهجوم وانتثرت جثث السايين على الأرض الرومانية وقد اختلطت بها جثث المواطنين الرومان ، فامتزج دُمُ الصُّهر بدمِ زوج ابنته على نصال السيوف الغادرة يجرى في جداول .

وعندها رأى الجيشان أن يكفّا عن مواصلة القتال ، وأن يُبرّما بينهما صلحاً ينهى الحرب ، وأن يشارك تاتايوس رومولوس عرشه .

ومات تاتايوس وتوّج رومولوس ملكاً على الشعبين فخلع مارس إله الحرب خوذته وتوجّه إلى كبير الآلهة والبشر قائلاً : « ألا لقد حان الوقت يا مولاي . ها هي ذى روما قد استقرت ولم تعد تركز إلى حماية بطل واحد ، وأطلّ الأوان الذى ستمنحني فيه الجائزة التى وعدتني بها فترقى برومولوس من الأرض إلى السماء . وإنى لأستعيد قولك لى فى مجلس من مجالس الآلهة [وإنى لأذكر كلمتك الجليلة التى بقيت مغفورة فى ذاكرتي] : لترفعنّ يا مارس أحد أبنائك إلى ذروة القبة الزرقاء . ألا فلتكن كلمتك الآن أفعالاً » .

فأوماً چوپیتر الجبار برأسه مستجيباً ، وما لبث أن ملأ الأجواء بسحب داكنة وألقى الفزع والرعب فى قلوب الناس برعده وبرقه ، فأدرك مارس أن هذه بشائر رضاء رب الأرباب على ارتقاء ابنه إلى السماء . واعتماداً على رحمة الطويل اعتلى مركبته التى تجرّها الجياد يشقّ الأنفس وبينها عريش ملطّخ بالدم ، وساطها بسوطة مراراً فانطلقت تنهب الفضاء إلى أن هبطت فوق قمة تل الهالاتينوس المكسو بالغابات حيث كان رومولوس بن إيليا يقضى بين شعبه بالحكمة والعدالة فانترعه مارس من بينهم ، وتناثر جسد الملك الفانى فى الفضاء كما تتناثر فى السماء قذيفة متفجرة قذف بها المنجنيق وإذا جسده البشرى فى جلال يليق بجلال الآلهة فى علاهم ، وغدا اسمه كويرينوس مُرتدى الترابيا [ثياب الاحتفالات السماوية] .

٨٢٠

وحين انخرطت هيرسيليا زوجة رومولوس باكية عليه متخيلة أنها قد فقدته ، أمرت چونو كبيرة الآلهة وصيفتها ورسولتها إيريس أن تهبط إلى الأرض لتزفّ للأرملة البائسة بُشراها : « أيتها الملكة ، يا فخر القبائل اللاتينية والسايينية ، ما كان أجدرك فى الماضى أن تكونى زوجة لمثل هذا البطل العظيم ، ثم ما أجدرك الآن أن تصبّحى زوجة لكويرينوس . جفّفى دمعك ، ولو شئت رؤية زوجك فهلّمى معى إلى الغيضة الخضراء فوق الكويريناليس الذى تظل أشجاره معبد ملك الرومان » .

ونفذت إيريس رغبة چونو وانزلت نحو الأرض عبر قوس قزح ذى الألوان البهيجة ، وأنهت إلى هيرسيليا مشيئة چونو ، ولم تجسر الملكة أن ترفع عينيها فأجابت فى خشوع وتواضع : أنا لا أعرف من تكونين أيتها الإلهة إلا أنه من الجلى أنك تحملين سمات الألوهية . خذينى لأرى وجه زوجى ، فلو أذنت لى الأقدار أن أراه مرة واحدة لحسبت نفسى قد دلفت إلى الجنة » .

واتجهت هيرسيليا إلى تل رومولوس فى رفقة بنت ثاوماس العذراء [إيريس] ، وإذا بنجمة من السماء تسقط بغتة إلى الأرض لتشعل النار فى شعر هيرسيليا وتتحد بها ثم تعرج بها إلى السماء حيث استقبلها مؤسس مدينة روما وضّمّها إلى صدره وعانقها بذراعيه اللتين تعرفهما حق المعرفة ، ثم وهبها جسداً واسماً جديدين ، فأصبحت « هورا »^(٤٢) الإلهة التى ارتبطت عبادتها بعبادة كويرينوس .

التعقيبات

- (١) اسم العملاق المشار إليه إنكيلاديس [انظر الإلياذة لفرجيل الكتاب الثالث ٥٧٨] .
- (٢) مدينة بصقلية .
- (٣) كان إله الشمس قد وشى بحب مارس وثينوس [انظر الكتاب الرابع] .
- (٤) كان فراره في المرة الأولى برفقة أبيه وابنه من طروادة بعد سقوطها .
- (٥) جبل في صقلية كان أينياس قد دفن أباه إلى جواره .
- (٦) ملك من ملوك صقلية قدم العون إلى پريام في الحرب الطروادية وساعد أينياس خلال رحلته .
- (٧) أمير طروادى تحول إلى نهر وهو والد أيولوس .
- (٨) جزيرة إسكيا اليوم بليطاليا .
- (٩) جزيرة پروكيدا الآن .
- (١٠) تملو جبلاً بجزيرة پيشيكوزا التي يظن البعض أنها سميت كذلك نسبة إلى أن سكانها قد مسخهم چوپيتر فرودا . وپيشخوى تعنى القرد الصغير باللغة اليونانية .
- (١١) الاسم القديم لنابل .
- (١٢) أطلق اسم ميسينوس على لسان ناتيء في البحر عند شواطئ كامپانيا ، وكان ميسينوس قد دفن به بناء على توصية أينياس [انظر إنياذة فرجيل الكتاب السادس] .
- (١٣) أقحم أوفيد خطبة مكاريبوس كما فعل فرجيل من قبل في قصته عن پوليفيموس لكى يمزج بين مغامرات أوديسيوس وأينياس .
- (١٤) اقتبس أوفيد هذه الحادثة من الأوديسيا [الكتاب العاشر البيت : ٨٧ وما بعده] . أما فرجيل فلا يروى في إنياذته وقوف أينياس عند ديار الساحرة بل يجعل الإله نپتون يحرف سفن البطل عند الجزيرة [الإنياذة ٧] .
- (١٥) يتبع أوفيد هنا وصف هوميروس بدقة ولكنه ينحرف عن الأصل في وصف غزل الصوف ، فإن النص الهوميروى يقول إن يوريلوكوس ورفاقه قد سمعوا كيركى وهى تغنى أمام نولها نشيدها الذى دعاه هوميروس « نشيد النسجية » .
- (١٦) يرى بعض العلماء أن المقصود بنبات « المولى » هو « رجلة البحر » غير أن هذا الرأى ليس له ما يسانده .
- (١٧) هى بحيرة نيمى المشهورة بجوار روما ، وسميت أيضاً مرآة ديانا . وكان بجوار شواطئها معبد مقدس لديانا ربة مدينة أرسيا ، ويلاحظ أن عبادة ديانا في هذا المعبد كانت قريبة جداً في طقوسها من عبادة أرتيمس [ديانا] بجبال طوروس ، مما جعل أوفيد يلقبها بديانا السكوثة .
- (١٨) چانوس هو ابن أهوللو وقد أسس قرية بجوار نهر التير سميت چانيكولوم ثم أصبحت فيما بعد جزءاً من روما ، وقد تُوِّج أول ملك لإيطاليا القديمة كما آله بعد موته ، وكان يمثل بوجهين لأنه كان يعرف الماضى والمستقبل .
- (١٩) قميص قصير خفيف يرتديه الشباب .

(٢٠) تعني بيكوس باللاتينية الطائر النّار .

(٢١) منطقة مصب نهر الوادي الكبير بإسبانيا .

(٢٢) الكامييائ اسم لحوريات المياه وأشهرهن إيجيريا التي كانت ملهمة الفيلسوف نوأ پومبيليوس ، ومن ثم كان اسم إيجيريا يطلق على أية امرأة تكون ملهمة لأحد المفكرين أو الفنانين .

(٢٣) يشير أوفيد إلى الكتاب السابع من الإنيادة الذي تدور كل أحداثه حول ما يومئ إليه أوفيد .

(٢٤) جاء من أركاديا وأسس مدينة پالتيوم على سفح تلال پالاتيوس ، وقد أصبحت فيها بعد جزءاً من روما .

(٢٥) تدور هذه الأحداث في الكتاب الثامن والحادي عشر من إنيادة فرجيل ، ويذكرها هنا أوفيد في إيجاز مفرط اعتياداً على أن جمهور القراء وقتئذ كان على بينة كاملة بكل ما ورد في الإنيادة وبخاصة تلك الأساطير التي تقصّ نشأة روما .

(٢٦) المقصود زوجته الثانية ، فقد تزوج ديوميديس ابنة أدرستوس ملك أرجوس ، غير أن زوجته خائنته فطلقها وعاد إلى بلاده في أيتوليا . وخلال عودته إلى دياره انحرفت سفينته نحو شواطئ يايجيا التي يحكمها الملك داونوس . وقد طلب داونوس من ديوميديس أن يعينه في حربه ضد الميسايين وهو شعب مجاور لبلاده ، وبعد انتصارهما زوجه الملك إينته إيفييه .

(٢٧) في الطرف الجنوبي الشرقي لمقاطعة يوبويا .

(٢٨) كان ديوميديس قد جرح يد فينوس عن غير قصد وهو يقاتل أينياس .

(٢٩) المقصود طائر النورس .

(٣٠) استرايوس هو ابن التيتان كريسوس ، تزوج من إيوس [أورورا عند الرومان] وأنجب رياحاً ثلاثة هي النسيم « زفير » وريح الشمال « بورياس » وريح الجنوب « نوطوس » .

(٣١) المعارضة الرئيسية التي تمتد على طول قاع المركب .

(٣٢) كانت لافينيا ابنة الملك لاتينوس من زوجته أماتا ، وكانت قد خطبت لقرينها الملك تورنوس ولكن الهاتف الإلهي أمر أباهما أن يزوجهما من أمير أجني ، لذلك قدّمت لأينياس عروساً له .

(٣٣) أسكانيوس ويولوس .

(٣٤) نسبة إلى پوموم أي ثمار الفاكهة أو التوت .

(٣٥) ابن راع وعزّة كان يعيش في الغابات ، وكثيراً ما يصوّر ممسكاً بغصن شجرة سرو لأنه كان قد عشق غلاماً تحول إلى شجرة سرو هروباً من ملاحقته له .

(٣٦) كان الساتير وأتباع پان وسيلينوس من أرباب الريف . أما هذا الإله فهو الإله اللاتيني القديم راعي الحقول . ويصفه أوفيد بأنه بريابوس الذي كانت تُشيد له التماثيل العارية الناعضة العضو التناسلي لطرّد شرور الحسد ولضمان خصوبة الأرض .

(٣٧) أورد العلامة هاينسيوس تصحيحاً لهذا النص أخذ به الكثير من الشارحين ، وهو « الشجاع أمام الجبناء » ، ورأيت الأخذ بالنص القديم .

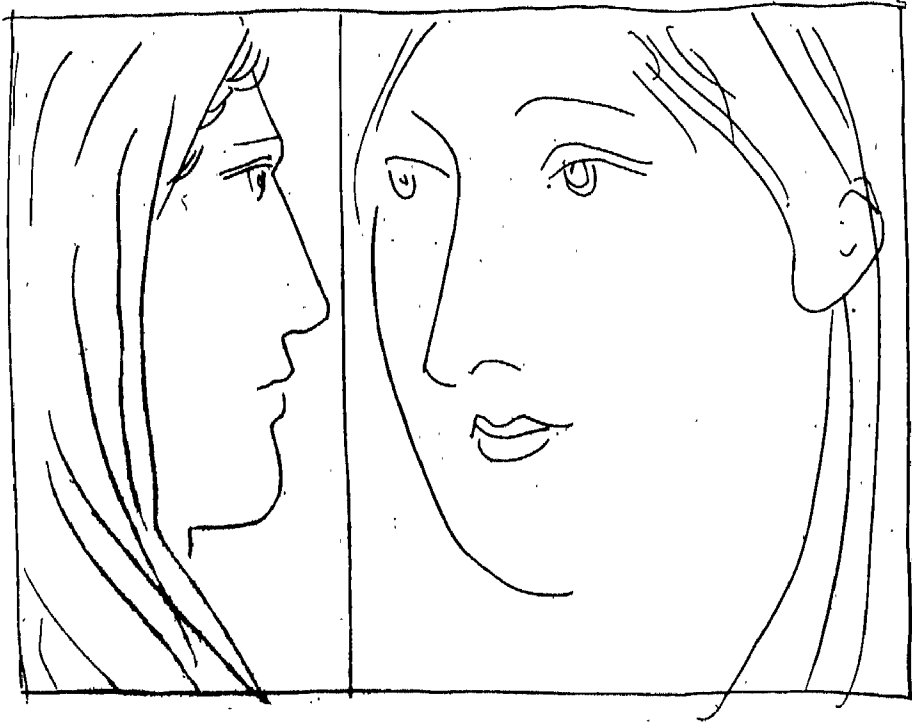
(٣٨) منطقة جبلية في وسط أوروبا على الضفة اليمنى لنهر الدانوب مشهورة بمناجم الحديد .

(٣٩) الابن الأكبر لپروكا وكان أخوه أموليوس قد خلعه ، ولكن حفيديه رومولوس وريموس ساعده على أن يسترد ملكه المسلوب .

(٤٠) عيد لتكريم پاليس إلهة القطعان والمراعى وهي التي أضفت اسمها على تل پالاتيوس في روما .

(٤١) السابين قبيلة مجاورة للآتين الذين احتلوا منبت روما الأصلي ، ولم يكن بين الآتين من النساء سوى بعض العاهرات ، وقد شاء رومولوس لرجاله الظفر بنساء كريمات حتى يتكاثروا فيخلقوا حضارة جديدة . وكان السابين يأبون الزواج من غير عشيرتهم فدعا رومولوس أشراف السابين إلى حفل كبير في الهواء الطلق وهمس إلى رفاقه أن ينفخوا سيوفهم في المشب حتى إذا أطلق إشارته أمسك كل بسيفه وقتل أحد رجال السابين ودفع إحدى العذارى السابينات إلى قلعة المدينة الجديدة . [انظر الكتاب الأول من « فن الهوى » لأوفيد . ترجمة كاتب هذه السطور] .

(٤٢) كانت هورا كويريني [أي التابعة لكويرينوس] توصف أحياناً بأنها الربة فورتونا السابينية الأصل التي تلعب دوراً كبيراً في الأساطير الرومانية . وأحياناً أخرى كان يخلط بين مويريني وبين الإلهة هورتا التي يبدو أنها من أصل إتروسكي ، والتي أقام الرومان لها فيما بعد معبداً مفتوح الأبواب . ويقول بعض الشراح أن هورا كويريني قد تحولت إلى إلهة راعية للشباب في العقيدة الرومانية .



بيكاسو

الكتاب الخامس عشر

نوما . موسكيلوس وكروتون

كان الناس آنذاك يتطلعون إلى رجلٍ له القدرة على حمل تلك المسئولية الضخمة على نحو ما كان عليه السلف العظيم . وظهرت المتنبئة وإذا هي تصطفى نوما^(١) الذائع الصيت ليمسك بزمام السلطة . وكان نوما حكيماً لم يقنع بتعرف طقوس الشعب السابيني بل سعى إلى ما هو أسمى ، وهو اكتشاف أسرار الكون . وأملت عليه حماسته أن يهجر موطنه في مدينة كوريس^(٢) ويقصد قصد مدينة كروتونا^(٣) التي التجأ إليها هرقل يوماً . وهناك سأل عن أول من شيد مدينة يونانية على سواحل إيطاليا ، فأجابه شيخ من قاطني البلدة وكان عنده قصص الماضي قائلاً :

٢٠

يروى الرواة أن هرقل بن جوبيتر عاد من المحيط ومعه قطعان أبييرية كان قد اغتتمها ، وبعد رحلة موفقة بلغ شواطئ لاكينوم فترك هذه القطعان ترعى العشب الغض ودلف إلى بيت كروتون العظيم الفيّاض الجُود حيث وجد منتصباً يرتاح فيه من عناء الرحلة . وحين عَنّ له أن يغادر المكان قال : « لتقومن في هذا الموقع مدينة على أيدي خَلَفِنَا من الأحفاد » وحققت الأيام ما قال . وكان لاليمون الأرجوسي ابن اسمه موسكيلوس كان من أحب الناس إلى الآلهة ، فمال عليه الإله حامل المراهة وهو مستغرق في نومه وهمس إليه : « هلمّ معي ، واهجر بيت أبيك ولتقصّد الجداول المغطى قاعها بالحصى في بلاد آيسار البعيدة » . وخشى الشاب أن يخالف أمره فتتوالى الكوارث الطاحنة ، وحين نهض ابن آليمون من سباته وأخذ يتدبّر رؤياه احتدم في نفسه صراع بين الاستجابة لأمر الإله وبين الشرائع التي تحرّم الهجرة وتقضى بإعدام كل من يستبدل بوطنه وطناً آخر .

٤٠

وحين غاب وجه الشمس المشرق جمالاً في البحر ، ورفع الليل رأسه المرصع بالنجوم خيّل للأمير أنه يواجه الإله من جديد ، وأنه يسمعه يكرّر تهديده ووعيده ، وأنه سيصيبه بأضرار أشد قسوة إن لم يستجب لندائه . واستحوذ الخوف على موسكيلوس فإذا هو يعدّ العُدّة لينقل ما ورثه عن أبيه إلى موطن جديد . وإذا الناس قد بدأوا يتهايمسون بخبره وإذا هو يقدم إلى القضاء متهماً بالخروج على قانون البلاد ، وانتهت المحاكمة بإدائته دون حاجة إلى سماع شهود ، فارتسمت على وجه الفتى المتهم آيات الأسى ورفع بصره إلى السماء باسماً كفيه وهو يستغيث قائلاً : « يا هرقل يا من صعدت إلى السماء بمأثرك الاثنى عشر ، أتوسل إليك أن تمّدّ إلّى يد العوزة فانت من دفعني إلى هذا الموقف » . وجرت العادة أن يستخدم المحلفون الحصى الأسود إذا كان المتهم مديناً والحصى الأبيض إذا كان بريئاً . وإذا حكم المحلفون في هذه القضية بإدانة المتهم وضعوا الحصى الأسود في الوعاء ، غير أنه سرعان ما استحال ما فيه من حصى أسود إلى حصى أبيض بقدرة الآلهة فتغيّر الحكم وبُرت ساحة موسكيلوس ، فهبّ يزجى الشكر لربه ابن أمفيريون ، ثم ركب سفينته وأقلع بها في البحر الأيوني تدفعه الرياح المواتية ، فمرّ بالقرب من مستعمرة تارنتوم اللاكيديمونية [الأسبرطية] ، ثم مدينة سيباريس وفيريتوم مدينة السالنتيين^(٤) ثم بخليج الثوريين^(٥) بتييميسا^(٦) ، ثم بحقول يابكس^(٧) ومضى بمحاذاة الشاطئ يرقب الأراضي المطلة على البحر حتى بلغ مصب نهر آيسار الذي دفعته الأقدار إليه ، حيث وجد مقبرة يضم تراها المقدس عظام كروتون ، فبدأ يشيّد في ذلك الموقع — استجابة لأمر تلقاه — أسوار مدينة تحمل إسم البطل المدفون في ثراها . وهذه هي قصة أصل المكان كما رواها الرواة من قديم الزمان ، وتلك كانت أسباب بناء هذه المدينة في أطراف إيطاليا .

پیشاجوراس

٦٠

وفي جزيرة ساموس^(٨) ولد پیشاجوراس ، غير أنه تركها لطغيان حكامها واختار عليها أرضاً أخرى هرباً من البطش والاستبداد . وكان پیشاجوراس مشغول الفكر بالآلهة في علباء سمائها ، وببصيرته النافذة تعمق أسرار الطبيعة الكامنة التي تخفى عن البشر . وكان له من رجاحة العقل وعمق الدراسة ما نفذ به من

ظلمة الجهل إلى نور العلم الذى بسطه ليدركه العامة فى سر ، فاحتشد تلاميذه من حوله مبهورين بعبقريته وسحر حديثه وهو يلقيهم أسرار الكون الفسيح معللاً الأسباب ، شارحاً ماهية الطبيعة وكُنْه الألوهية ، وهل هو جوبيتر الذى يسوق الرعد عبر قبة السماء أم هى الرياح التى تفرق السحب عن بعضها البعض ، وأسباب الزلازل وقوانين دورة الكواكب وغوامض الطبيعة ، كما كان أول من أخذ على البشر أكل لحم الحيوان . وهكذا كان بحق أول من نطق بالحكمة لكن أحداً عندها لم يصدقه حين قال : « أيها البشر الفاني لا تدنسوا أجسادكم بطعام تبغضه الآلهة وبين أيديكم الغلال والفاكهة التى تثقل غصون الأشجار وعناقيد الكروم الناضجة وطيبات من النباتات تنضجها النار وتحيلها لينة شهية . وما تضن الطبيعة عليكم باللبن ولا بالشهد الذى يفوح بأريج الزعتر ، وحقول الأرض سخية تقدم لكم نتائجها ، وغذاؤها الشهى تُزحم به مواثدكم دون حاجة إلى ذبح أو سفك دماء . فالوحوش هى التى تُشبع جوعتها بلحوم بعضها وليس هذا دأبها كلها ، فالخيل والأغنام والأبقار لا تغتدى إلا بالأعشاب . أما الحيوان المعروف بالقسوة والمطبور على الوحشية مثل غور أرمينيا والأسود السريعة الغضب والذئاب والذئبة فهى التى تجد متعتها فى لعق الدم . وأسفاه . ما أبشع أن تزدرد الأمعاء أمعاء أخرى ، وأن يسمن الجسد على لحم جسد آخر ، وأن يحيا كائن على قتل آخر ! أولاً تقنع بكنوز الأرض الأم وخيراتهما عن أن تمزق بأنيابك أشلاء جسد آخر لتملأ فمك كما يفعل الكيكلويس ؟ هل من وسيلة أخرى لتسدّ بهم معدتك غير التهام كائن آخر مثلك ؟ ففى العهد السحيق الذى كنا ندعوه العهد الذهبى كان الناس لا يأكلون إلا من ثمار الأشجار ونباتات الأرض ، ولا يدنس الإنسان فمه بدماء الذبائح . وكانت الطيور أيامها تحلق فى الأجواء دون أن تتهددها أخطار ، وكان الأرنب البرى يعدو بين الأعشاب بلا خوف ولا وجل ، ولم يكن السمك يقع ضحية بريئة بالطعم الملقى إليه فيعلق بالشخص . كانت الطمأنينة والسلام يرفرفان وقتئذ فى كل مكان دون أن يحسب أحد حساباً للمكائد والخداع ، حتى ظهر إنسان شرير واسع الحيلة لا أدرى من هو ، حسد السباع على طعامها ، وقذف فى أحشائه النهمة لحم ذبيحة بادئاً الطريق إلى الجريمة الآثمة . وأظن الأمر بدأ بتخضيب السيوف بدم الوحوش التى تهدد البشر ، وقد كان هذا أمراً ينال الرضا فليس ثمة إثم فى سفك دم حيوان لا هم له إلا افتراسنا . وإذا كان للإنسان الحق فى أن يدافع عن نفسه ، فما أبعد عن الحق حين يتخذ من الحيوان غذاءه . ولكن الجريمة ما لبثت أن اتسع نطاقها ، ويقال إن الخنزير كان أول الضحايا التى استحققت الموت لاقتلاعه البذور من التربة بخطمه المدبب هادماً بذلك الآمال المعقودة على الحصاد ، ثم جاء دور التيس الذى نُحر فوق مذابح باكخوس عقاباً له على قرضه الكروم ، فإن كانت هذه هى جريرة تلكما الحيوانين فما هى جريرتك أيتها النعاج الوادعة التى ما خلقت إلا لنفع البشر . فى ضروعك شراب نغذى به ، وعلى ظهورك أصواف ننسج منها ثياباً حانية ، فنفعك لنا حياة أكثر من نفعك لنا ميتة . وما أشقى الثور الذى لم يعرف الخديعة والمكر ولا الدهاء ولا الأذى وقد وُلد قوياً ليحتمل أثق الأعباء ! وكم صار الإنسان ناكراً للجميل حين دفعه شرهه إلى أن يرفع النير عن عنق الثور الذى يحرق له حقله فيذبحه غير راض بما يغل له ، هاوياً بالساطور على ذلك العنق المكدود فى خدمته وفى حراثة الأرض الصلبة لإنبات الحصاد بعد الحصاد .

ولم يقنع البشر بارتكاب هذه الجرائم بل شاءوا إشراك الآلهة في إثمهم وخالوها تستمتع هي الأخرى
بذبح الثيران الوديدة ! لقد اتخذوا من فتوة الثور مسوغاً لهلاكه فقادوه إلى المذبح متوجّين بأكاليل الغار
والذهب ، يسمع صلوات الكاهن دون أن يفهمها ، ويرى بذور الغلال التي حرثها من قبل تنثر على جبينه
وتنسب من بين قرنيه ، ثم يهرون عليه بالساطور الذي سرعان ما يتخضب بدمه ، ذلك الساطور الذي
كان الثور يرى صورته منذ حين وديعاً ساكناً في المياه الطاهرة التي تحتويها آنية المعبد فلا يراه يحمل له شراً .
ثم يستخرجون أحشائه وهي ما تزال تنبض وترف بالحياة يتفحصونها بحثاً عما تدبره الآلهة للبشر . كيف
تجسرون إذن أيها البشر على أكل هذه اللحوم ، ألا ما أشدّ نهم الإنسان إلى الغذاء المحرّم . ناشدتكم أن
تقلعوا عن ذلك ولتصغوا إلى نصيحتي ، واعلموا أنكم حينما تمضغون بأسنانكم لحم الثور الذبيح إنما
تلتهمون حارثكم الوفيّ .

١٤٠

ومادمت أتحدث عن أمر إله فسأنصاع لأمره كلمة كلمة ، وسأكشف لكم الستار عن أسرار دلفي^(٩)
التي أكنّها في صدري ، وسأفتح أمام عيونكم منافذ السموات ، وأكشفكم برسائل الحكمة العليا وأبشركم
الأسرار العميقة التي لم تستطع عبقرية بشر بلوغها فظلت خفية عليهم . وكم أود أن أخلّق في الأفاق بين
الكواكب والنجوم تاركاً هذه الأرض التي تُقعد المهمل معتلياً السحاب حتى أهبط على كتفي « أطلس »
الجبار ، وأتطلع ببصري إلى البشر عن بُعد وهم يهيمون على وجوههم على غير هدى فأنشر لهم لفافة القدر
المطوية وأبشّر في قلوبهم إيماناً لا يخشون معه الموت . أيها الجنس البشري المفرّج الذي وقف جامداً خوفاً من
الموت الجاثم ، لماذا تخشى نهر ستيكس والظلمات والكلمات الجوفاء التي ليست غير بضاعة يستخدمها
الشعراء في قصائدهم ؟ لماذا تخشى أخطار عالم لا وجود له ؟ فلتطمئن نفوسكم إلى أن أجسادكم لن تستشعر
ألماً بعد الموت سواء تحوّلت إلى رماد فوق المحرقة أم تحلّلت بطيئاً في الثرى مع مرور الأيام . أما الروح فإن
الموت لا يدركها ، فهي ما تكاد تخلف ماوى حتى تجد لها ماوى جديداً يفتح أمامها وتعيش فيه
راضية^(١٠) . وأذكر واعياً أنني وقت حرب طروادة كنت يوفوريوس بن پانثوس الذي تلقى في صدره طعنة
قاتلة من رمح منيلاوس ثاني قادة الإغريق . وقد تعرّفت على تلك الترس التي كنت أحمّلها على ذراعي
اليسرى أيامها حين رأيته منذ قليل بمعبد چونوفى أرجوس مدينة أباس^(١١) . إن كل شيء يتحوّل ولكنه لا
يفنى ، وإن نسيات الحياة تمضي في الكون من هنا وهناك تضم من الأطراف ما تشاء ، وتنفذ إلى جسد من
تختار . قد تكمن في جسد حيوان ثم تدعه إلى جسد بشر . وهذه النسيات التي تبثّ فينا الحياة قد تنتقل منا
إلى الحيوان دون أن تفقد ذاتيتها ، فهي كالشمع المرن الذي يتشكل صوراً جديدة مختلفة ولا يبقى على
شكل ثابت ومع ذلك لا يفقد طابعه . أقول لكم إنى أومن أن الروح تبقى هي هي دوماً معها حلّت في
أجساد مختلفة ، فاحذروا — ناشدتكم الآلهة — أن تطردوا من دوركم روحاً قد تكون بينها وبين أرواحكم
وشائج قربى فتنتهكوا بذبحها الحرمات ، ولا تجعلوا الجشع ينسيكم البرّ بأقربائكم ، ولا تدعوا الدم يعدو
على الدم .

١٦٠



بيكاسو

ومادمت قد أبحرت كالسفينة في خضمّ أفكارى وجعلتُ الرياح تملأُ شراعٍ حديثى فسأستطرد إلى ما هو أبعد وأقول لكم إنه ليس في الكون كله ثمة شيء ثابت ، فكل شيء في تغيرٍ مستمر يسيل كالماء ، وأشكال الكائنات عارضة ، والزمن نفسه يمضي منساباً وكأنه النهر بل أسرع ، لأن ساعة الزمن العجلى لا تستطيع أن تتوقف ولو شاءت . فكما تدفع الموجة الموجة أمامها وتأخذ مكانها فكذلك الساعات تهرب

١٨٠

الواحدة من الأخرى ، وتطارد هذه تلك في تجدد بلا تلبث ، ويصبح ما حدث منذ قليل بعيداً ، ثم يحدث ما لم يكن قد حدث من قبل . وليست كل برهة من الزمن إلا خلقاً جديداً ، وإنكم لتشهدون الليل ساعة يفرغ من رحلته يمدّ يده إلى الفجر ، ويشرق نور النهار ليخلف ظلمات الليل ، وإن لون السماء ليختلف في أوج الليل ساعة يسترخى الناس بعد الكدّ عنه ساعة يصعد لوسيفر حاملاً النور من أمواج الخضمّ ممطياً جواده الأبيض ، كما يختلف قبيل الفجر ساعة ترقش أورورا إبنة باللاس العالم بألوانها قبل أن تسلمه إلى فوبيوس . وإن قرص الإله نفسه ليأخذ اللون الأحمر عندما يطفو قليلاً فوق سطح الأرض في الصباح الباكر ، كما يأخذ اللون نفسه آخر النهار عندما يبدأ في المغيب على المستوى نفسه من سطح الأرض . وهو يضحي أبيض حين يبلغ سمت السماء لأن الهواء في الطبقات العليا أكثر نقاء لبعده عن أدران الأرض . أما كوكب ديانا [القمر] الذي يتألق ليلاً فإنه لا يبقى في صورة واحدة بل يتغير حجمه من ليلة إلى أخرى ، إذ يكبر كل يوم وهو في طريقه إلى الاكتمال ، ثم يصغر كل يوم وهو في طريقه إلى المحاق .

ثم ماذا ؟ ألا ترون العام يأخذ أشكالاً أربعة متتابعة هي الفصول التي تحاكي مراحل حياتنا . فهي طفل وديع يتغذى بلبن الثدي حين يهلّ الربيع ، ويظهر العشب الجديد غضاً رقيقاً لكنه زاحراً بالعصارة ، يبعث السعادة في قلوب المزارعين الذين يمثل لهم الأمل ، ثم يزدهر كل شيء وتأخذ الورود المختلفة الألوان في الابتسام للأرض الحانية ، ولكن ما تزال الأوراق غضة يعوزها النماء . وبعد انصرام الربيع يصبح العام أقوى جلدأ مع دخول الصيف مثلما يصبح الطفل شاباً قوياً ، فهي المرحلة الحافلة بالقوة والخصوبة والدفع والحماة . وحين تفتت حرارة الشباب يهلّ الخريف في إثر الصيف ، وهو فصل الامتلاء بالنضج ، يلتقى فيه الشباب بالشيخوخة ، وتظهر بعض الشعرات الشهباء فوق الصدغين . ثم يأتي الشتاء الهرم مرتجفاً متعزّز الخطى ناحل الشعر ، وإن بقيت منه بقية كانت ذات لون ناصع البياض .

وكذلك تتغير أجسادنا نفسها ، ولا تكون في الغد مثل ما كانت عليه بالأمس ولا مثل ما هي عليه اليوم . ولقد كنا يوماً في أرحام أمهاتنا - يوم كنا فيها نطفة فحسب - الأمل في إنسان مكتمل ، فتناولتنا يد الطبيعة المخضمة وأمدتنا بالعون ، ولم تشأ أن نبقي سجناء في رحم الأم الضيق لا نستطيع به حراكاً فدفعتنا إلى الهواء الطلق . وحين يخرج الطفل إلى النور لأول مرة يبقى مستلقياً لا حول له ، ثم يجوزاحفاً على يديه وقدميه كذوات الأربع . ورويداً رويداً ينتصب على ساقين مرتجفتين لا تثبتان ، وقد يعتمد على ما يسنده ، ثم يصبح قوياً سريع الحركة والعدو ، يمر بمراحل الشباب إلى أن يبلغ سنوات الرجولة ، ثم يأخذ في الانزلاج على منحدر الشيخوخة التي توهم عزم السنين الخالية وتزعزع أركانها . ويروى أن ميلون^(١٢) كان لا يكفّ عن البكاء في شيخوخته كلما أحسّ ضعف ذراعيه ونحوهما بعد ما كانتا في قوة وصلابة ذراعي

هرقل . كذلك أجهشت هيلينا ابنة تندارس بالبكاء حين تأملت وجهها في المرأة وقد بدت فيه تجاعيد السنين وتساءلت متعجبة كيف حدث أن اختطفرت مرتين متتاليتين^(١٣) ؟ إيه أيها الزمن ، إنك تلتهم كل شيء ولا تشبع ، وكذلك أنت أيتها الشيخوخة الغيورة ، تطحنين كل شيء بأنيابك وتنتهين به إلى الموت .

لا ثبات لعناصر الطبيعة ، وإليكم تقلباتها . إن العالم الأبدى يشمل عناصر أربعة هي أصل كل شيء ، اثنان منها ثقلان يغوص بهما ثقلها إلى أدنى وهما التراب والماء ، واثنان لا وزن لهما فلا يعوقهما شيء عن الانطلاق إلى أعلى وهما الهواء والنار الأشد نقاء . وعلى الرغم من أنه ثمة فراغ يفصل بين هذه العناصر فإن كل شيء يبدأ منها وينتهي إليها . فالأرض حين تذيب تستحيل سائلاً ، والسائل حين يتبخّر يصبح ريحاً وهواء ، والهواء بعد أن يفقد وزنه كله ويرقّ ينطلق نحو الأثير الملتهب . ثم نشهد بعد ذلك سلسلة من التحوّلات في اتجاه عكسي ، فنعود هذه العناصر إلى شكلها الأصلي مرة ثانية بعد أن تكون قد تحوّلت على النحو الذي ذكرته . فالنار مثلاً تتكاثف فتصبح هواء . والهواء يصبح ماء ، والماء عند تجمّده يشكّل أرضاً صلبة ، فلا شيء يحتفظ بشكله الأصلي ، فالطبيعة في جدد مستمر ، والمادة دائمة التشكّل في أشكال مختلفة ، إذ لا شيء يفنى ، فالكون فسيح ، وكل شيء فيه يتشكل على صور جديدة متغيرة . والميلاد ليس إلّا بداية حال جديدة تختلف عن حال سبقتها ، وليس الموت غير نهاية لهذه الحال من أجل بداية حال غيرها ، ومن الممكن نقل جزء من المادة إلى مكان ما وجزء آخر إلى مكان غيره ، ولكن حاصل جمع هذه الأجزاء يبقى بلا تغير ، فليس ثمة شيء يستمر على مظهره وقتاً طويلاً . وهكذا انتقلت العصور من الذهب إلى الحديد ، وهكذا تقلّبت مصائر الأمم والحضارات . وقد رأيت أنا نفسي تحوّل أرض جامدة إلى بحر متدفق ، كما رأيت بحراً يتحوّل إلى أرض صلبة ، وكثيراً ما نجد أرضاً مغطاة بالأصداف رغم بُعدها عن البحر ، أو نعرثر على مرساة قديمة فوق قمة جبل ، كما حوّل الفيضان سهولاً إلى وديان ، وكم دفعت السيول جبلاً إلى وسط السهول ، وكم جفّت مستنقعات وتركت مكانها صحارى جرداء ، كما تحوّلت أراض جافة إلى مستنقعات راكدة الماء . وفي ذلك دليل على قدرة الطبيعة على إظهار أشياء في مكان ما وحجب غيرها في مكان آخر . والزلازل الهادرة في أعماق الأرض تفجّر الأنهار فوقها تارة وتمتصها تارة أخرى تاركة مكانها بواراً . وقد انشقت الأرض تحت نهر الليكوس^(١٤) وابتلعتته في جوفها ، وإذا هو يتفجّر ثانية في مكان بعيد عبر فجوة خرج منها إلى النور . وتكرر ذلك مع نهر إيراسينوس العظيم^(١٥) ، فبعد أن ابتلعتته الأرض ظل يسرى في أعماقها حتى طلع من جديد في حقول أرجوس ، وكذلك نهر كاياكوس^(١٦) في ميسيا لم يرض عن ضفافه الأصلية فتركها إلى ضفاف أخرى . أما نهر أمينانوس^(١٧) الذي يشقّ مجراه في رمال صقلية فإنه يفيض حيناً ويحجف حيناً آخر . وقد كان الناس يشربون في سالف الأيام من مياه نهر الأنيجروس^(١٨) بينما لا نملك اليوم أن ندنو منها بعد أن غسل فيها القنطور جراحه التي أحدثتها سهام هرقل حامل الهراوة ، اللهم إلا إذا لم نأخذ بما يزعم الشعراء .

٢٨٠

ولنذكر أيضاً نهر الهيبانيس^(١٩) الذي ينبع من جبال سكوثيا فقد اختلطت عذوبة مياهه قديماً بماء البحر الأجاج . وفي قديم الزمان كانت مدن أنتيسا^(٢٠) وفاروس^(٢١) وصور الفينيقيّة محاطة بالمياه ، وقد خلصت اليوم ثلاثتها من الماء فلم تعد جزراً . ويذكر شيوخ ليوكاديا^(٢٢) تلك الجزيرة عندما كانت جزءاً من القارة وهي اليوم محوطة بالبحر من كل الجهات ، ويقال كذلك إن زانكلييه^(٢٣) كانت متصلة بإيطاليا حتى ذهبت الأمواج ببرزخ هذه المدينة وأحالتها إلى جزيرة . وإذا كنت تبحث عن مدينتي هيليكيه^(٢٤)

وبورا^(٢٥) في البلاد الآخية فإنك لن تعثر عليهما إلا تحت المياه ، فما يزال الملاحون يشيرون حتى اليوم إلى أسوار هاتين المدينتين المتداعية الغائرة في الماء . وثمة تل عال أجرد بجوار ترويزن^(٢٦) مدينة الملك پيشوس كان في الماضي سهلاً مستوياً وأصبح اليوم ركاماً من التراب ، فعندما حُبست الرياح في كهوف مظلمة انطلقت تبحت عن متنفس فلما لم تجد شقاً ولا منفذاً ثارت ثورة عارمة وأخذت تنفث في الأرض كما ينثف امرؤ في مthane حيوان أو قربة من جلد جدى ذى قرنين ، فإذا هذا النفث يخلف تلاً عالياً عذباً . ٣٠٠

وكم من أمثلة تتتابع على ذهنى سمعت بعضها وشهدت البعض الآخر ، وسوف أسرد لكم طرفاً منها . فالماء مثلاً يتخذ أشكالاً غريبة المظهر ، فنبعك يا آمون ياذا القرنين^(٢٧) مياهه باردة في الظهيرة دافئة عند الشروق والغروب ، ويقال إن الأثامانيين^(٢٨) يوقدون مشاعلهم بمسها بتلك المياه حين يكون قرص القمر قد انكمش أصغر ما يكون . ولدى شعب السيكونيس نهر تُجمد مياهه أحشاء من يشرب منه وتحيل إلى رخام كل ما تمسه من أشياء . وهناك نهر الكرائيس والسيباريس ، وهما يبلغان مشارف حقولنا ويحيلان لون الشعر إلى كهرمان وذهب^(٢٩) ، وأكثر من ذلك غرابة أن هناك مياه ذات قدرة على تغيير النفوس لا الأجساد وحدها . ومن ذا الذى لم يسمع عن بحيرة سالماكيس ذات المياه المسحورة أو البحيرات الإثيوبية^(٣٠) التى يُجنّ من يشرب منها جرعة أو يسقط في نوم عميق ، وينبوع كليثور^(٣١) الذى يُصاب شاربُه بتقرّز يجعله لا يقرب النبيذ بعد ذلك أبداً . ولعل ذلك مرده إلى ما بين مياه ذلك ينبوع وبين النشوة التى يولدها النبيذ ، فيروى أهل البلاد أن ميلامپوس بن أميثاؤون استطاع أن يشفى بسحره وبعقاقيره بنات پرويتوس من هذيانهنّ حين ألقى العقاقير في هذا النبع الذى كنّ يشربن منه ، ومنذ ذلك اليوم بعثت مياهه الكراهية للنبيذ . أما مياه نهر اللينكستيد^(٣٢) فإنها أثراً على النقيض من ذلك فمن شرب قليلاً منها ترنح سكرأ كمن شرب نبيذاً صرّفاً . وهناك بحيرة في أركاديا سماها الأقدمون فينيوس^(٣٣) تُخشى مياهها لخواصها المتباينة المتغيرة ، فهي ضاربة خلال الليل لا النهار ، وهكذا تختلف خواص كل بحيرة عن الأخرى . وفي قديم الزمان كانت جزيرة أورتيجيا^(٣٤) طافية فوق سطح الماء بينما هى اليوم ثابتة . وكانت سفينة الأرجو تخشى صخور السميليجاديز^(٣٥) التى تتمايل في المياه كلما لطمتها الأمواج ، أما الآن فهى ثابتة لا قدرة للرياح ولا للمياه عليها . وحتى بركان إتنا - ذو الحَمَم الكبريتية - لم يعد يقذف بلهيبه دوماً كما كان في الماضي ، لأنه إذا كانت الأرض تنفّس تنفس الكائن الحى في أماكن مختلفة تلفظ منها أنفاسها الملتهبة ، فمن الممكن تغيير تلك المنافذ كلما تحركت فتسدّ بعضها لتفتح البعض الآخر . وإذا كانت هناك رياح سجيئة في كهوف الأرض العميقة هى التى تقذف الأحجار في إثر الأحجار ومعها مواد قابلة للاشتعال تلتهب حين تصطدم بأشياء صلبة ، فإن هذه الكهوف تبقى باردة حين تهدأ الرياح . ٣٢٠

وإذا كان القار هو الذى يشتعل فجأة ، والكبريت هو الذى تلتهب مادته الصفراء هو الآخر فجأة مُطلقة دخاناً خفيفاً ، فإن الأرض ما تكاد تفقد قدرتها مع الزمن على مدّ النار بهذه العناصر القابلة للالتهاب حتى تفقد الطبيعة النّهمة مادة غذائها وتتوقف قدرتها على خلق اللهب^(٣٦) . ويروى أن في مناطق

الهيپيربورين^(٣٧) في پالينى يكسو أجسادهم زغب خفيف إذا هم اغتسلوا تسع مرات في بحيرة تريتون^(٣٨) ولست أصدق شيئاً من ذلك ، وإن قيل أيضاً إن نساء سكوثيا يستطعن تحقيق هذه المعجزة بدهن أجسادهن بعقاقير سحرية .

وإذا كان لنا أن نسلّم بالأشياء التى هناك أدلة قاطعة على صحتها^(٣٩) ، فأمامكم الأجساد التى تتحلّل بفعل الزمن أو الأشياء التى تتحلّل بفعل الحرارة . ألا تعلمون أنها تتحول بهذا الفعل إلى حيوانات صغيرة ؟ اختاروا بضعة ثيران ممتازة واذبحوها وضعوها في حفرة ثم غطّوها ، وسوف ينبثق منها نحل يمتص الزهور ويعشق الحقول ويعمل دؤوباً من أجل الحصول على غذائه ، يشبه في ذلك الحيوانات التى تولّد عنها . وإذا دفنت جواد حرب في التراب فسوف تولد من بقاياها أسراب من الزنابير ، وإذا نزع من سرطان البحر مخالبه المقوسة ودفنت بقاياها في التراب لم يلبث أن يخرج منها عقرب يهدّدك بذيله المعقوف . واليسروع الذى ينتشر في الحقول ويغشى ورق النباتات بخيوط نسيجه يتحول إلى فراش جنائزى كما يشهد بذلك الفلاحون أنفسهم ، ويحتضن الغرين بذوراً تُنبِت الضفادع الخضراء ، ولكنها تُنبِتُها في بادئ الأمر بلا سيقان ثم تأخذ القوائم الشبيهة بالزعانف في النمرور ويدا رويداً حتى تنمو بعد ذلك قوائم خلفية تطول عن القوائم الأمامية وتعينها بعد ذلك على الوثب البعيد . وما تضع أنثى الدب دباً صغيراً بل كتلة من لحم لا تكاد تنبض فيها حياة ، وتظل تلحقها حتى تبرز لها أعضاء وتتشكّل كما تشكّلت هي من قبل وتأخذ صورتها . ألا ترون أن يرقات النحل منتجة الشهد التى تعيش في خلايا النحل لا تكون ساعة ولادتها إلا أجساداً بلا أعضاء وتظل كذلك طويلاً حتى تنمو لها أجنحة وقوائم ؟ أما طير جونو [الطاووس] المرصع الذيل بالنجوم ، وطير چويتر [النسر] حامل صاعقته ، وبعامات فينوس إلهة كثيرها ، وجماعات الطير كلها ، فهي تولد جميعاً في بيضات . ولكن أنى لمصدّق أن يصدّق ذلك إذا لم يكن يعلم أن هذه هي الحقيقة ؟ وهناك من يعتقد أنه حين يتحلل الكائن الحى في قبره يتحول نخاعه الشوكى إلى ثعبان .

على أن جميع هذه الحيوانات تدين بوجودها لحيوانات أخرى ، وليس هناك غير طائر وحيد هو الذى يتكاثر ذاتياً وهو ما يسمّيه الأشوريون العنقاء ، ولا يتغذى هذا الطائر على الأعشاب أو الحبوب وإنما يمتص عصارة أعواد البخور وعصارة الحبّان ، فإذا قارب عمره الذى يطول إلى خمسة قرون من الانتهاء اتخذ لنفسه عُشّاً وسط السعف في قمة النخلة المتأرجحة في مهب الريح ، يجمع بمخالبه وبمنقاره النقى من كل دنس أجزاء عُشه من نبات القرفة وعلوج عطر الناردين الطيب الرائحة ، ويسط فوقها أعواد الكافور المختلط بالمرّ البرى ، ثم يرقد فوقها حتى يلفظ أنفاسه وسط جو من العطور العبقّة . ويقال إن ذكّر عنقاء صغير يتولّد بعد ذلك من جسد أبيه ليبدأ حياة تمتد إلى عمر أبيه نفسه . ومع تطوّر نموّه تتطوّر قواه على حمل الأثقال ، فيتخفّف من أعواد عُشه التى هي من سعفات نخل باسق شيئاً فشيئاً ، ثم يحمل في خشوع ما بقى من مهده الذى كان قبلُ لحد أبيه ، ويشقّ به الفضاء إلى مدينة هيپيريون حيث يضعه أمام البوابة المقدسة لمعبد هيپيريون^(٤٠) ، وإذا كان في هذا ما يُدهش فلسوف تكون دهشتكم أكبر حين تسمعون عن الضبع الذى يتحوّل من ذكر إلى أنثى ثم من أنثى إلى ذكر^(٤١) ، كما استدeshون أيضاً من حيوان يتغذى على

الريح والهواء ويتلَوْنَ بلون المكان الذى يحلّ فيه^(٤٢) . وقديماً أهدت الهند المهزومة حيوان الوشق^(٤٣) إلى باكخوس الإله المتوجّ بعناقيد العنب ، ويقال إن كل ما تلفظه مئانة هذا الحيوان يجمد ويتحجّر إذا ما خرج إلى الهواء^(٤٤) ، وهذه حال المرجان أيضاً وهو عود لين يعيش تحت الماء ويتجمد حين يخرج إلى الهواء .

سينطفىء النهار وسيقود فويبوس جياذه اللاهثة إلى أعماق البحار قبل أن أفرغ من إحصاء كل ما يتحوّل في الكون ووصف كل ما يتخذ لنفسه مظهراً جديداً ، فسنة الحياة أن يتغير كل شيء ، وهكذا تقوى بعض الأمم وتزدهر كما تضمحل أخرى وتندهور . وقد كانت طروادة مدينة عظيمة البأس شائعة بأبطالها ومواردها وظلت تدافع عن نفسها بدماء أبنائها طيلة أعوام عشرة ، وها هي ذى اليوم كومة من الأطلال الحربة التى لا ترتفع كثيراً عن سطح الأرض ، وقبور شيوخها هي كل ثروتها الباقية . وكانت أسبرطة ذاتة الصيت ، وموكناي مزدهرة ، ولم تكن تقل عنها مجدداً مدينة كيكرويس [أثينا] ولا مدينة أمفيون [طيبة] ، ولم تعد أسبرطة اليوم غير أرض جرداء ، كما تقوّضت أسوار موكناي الشاخنة ، وماذا خلّفت طيبه مدينة أوديپ غير أسطوره ؟ وماذا بقى من أثينا مدينة پانديون ؟^(٤٥) لم يبق لها إلا اسمها . واليوم يقال إن ثمة مدينة شاخنة أسسها أحفاد داردانوس بجوار نهر التير هي روما تُرسى أسس دولة قوية لا يقوّضها الزمن ، وقد أخذت تكبر يوماً بعد يوم ، وستصبح عاصمةً للكون الفسيح كما تكهّن بذلك الهاتف الإلهي والمنبثون بالمصائر والأقدار . وإذا لم نخشّ ذاكرت فإني أذكر أن أينياس كان ينشج متشككاً في الخلاص ساعة أخذت طروادة تترنح فوق دعائمها ، فجاءه هيلينوس بن پريام قائلاً : « إذا كان لك أن تصدّق ما تنبأنا به يا ابن الإلهة فلتطمئن إلى أن طروادة لن تزول حقاً ، لأنك سوف تحيا ، ولسوف يفتح لك الحديد والنار معبراً فتغادر هذا المكان مصطحباً معك پرجامون بعد أن تنزعها من وسط الكارثة ، وستحملها إلى حيث تجد أرضاً أجنبية ترحب بكما أكثر مما رحبت بك أرض آبائك . وإني أنبأ كذلك بأن أحفاد الفريجيّين سوف يؤسسون مدينة لا مثيل لها ولن يكون لها مثيل كما لم يكن لها مثيل في الماضي . وعلى مدى القرون الممتدة سيهيمى لها قادتها البأس والسلطان ، غير أن واحداً من نسل يوليوس سيجعل منها سيدة العالم ، حتى إذا عرف الناس قدره عرج إلى السماء ضيفاً ، تاركاً الأرض إلى أسمى البقاء » .

ذلك ما أذكر أن هيلينوس قد تكهّن به حين كان أينياس يمضى حاملاً معه تماثيل آلهتنا^(٤٦) ، وما أسعدنى أن أعرف أن هذه المدينة ذات صلة القربى بمدينتنا تكبر وتزدهر ، وأن انتصار الپيلازجيين [الإغريق] قد استفاد منه الفريجيّون [الطرواديون] .

ولا ينبغي الآن أن نترك مجال القول يذهب بنا بعيداً عن مقصدنا ولنعد إلى موضوعنا . إن السماء وكل ما تحتها يتغير ، وكذلك الأرض وما تضمّه ، ونحن كذلك جزء من الكون لأننا لسنا أجساداً فحسب ، بل نحن كذلك أرواح مجنّحة تستطيع أن تجد لها مأوى في أجساد الحيوانات المفترسة والأليفة . لذلك علينا ألاّ نَمْسُ هذه الأجساد بأذى ، فقد تضمّ أرواح آبائنا أو إخواننا أو غيرهم من أقربائنا أو من البشر الآخرين ، فلتترفع إذن عن تدنيس جنسنا ولنعتف عن حشوبطوننا بلحوم كلحوم المأدبة التى أقامها

أثريوس لأخيه ثايستيس^(٤٧) . ألا ما أبشع عادة أكل اللحم وما أكبر استعداد الإنسان الجاحد لسفك الدم البشري حين يتقدم ممسكاً سكيناً ويهوى بها على عنق الثور اليافع دون أن يلين قلبه لخواره . من منكم من يرتاح ضميره إذا ما ذبح حملاً يصرخ صراخ الطفل الوليد ؟ وهل منكم من يستطيع أن يقطع لحم طير غداه بيده ؟ وهل ثمة فرق بين هذا الفعل وبين الجريمة الحقّة ؟ وإلى أين تنتهي بنا هذه الأفعال ؟ اتركوا الثور يُفْلَح الأرض لا تقضى عليه غير الشيخوخة . اتركوا الأنعام تزودنا بما يكون لنا فيه دفء من ريح الشمال الباردة . اتركوا الماعز تملأ بطونها لتُدّر علينا من ضروعها لبناً تحلبه أيدينا . اتركوا الشراك جانباً والكباش ووسائل الغدر ، ولا تتحدعوا الطير بعضاً مكسوّة بعصارات النباتات اللزجة فتلتصق بها ، ولا تسخرها من العمل بإثارة فزعه من ذلك الريش الذي تضعونه في طريقه فيتحول عنه إلى شراككم^(٤٨) . ولا تخفوا الشصّ المعقوف في الطعم الخادع . لكم أن تقضوا على الحيوانات الضارة ، وحسبكم هذا ، دون أن تجعلوا من لحومها طعاماً لأفواهكم . ولتبحثوا عن وجبات لا تحصلوا عليها بأساليب همجية ، ولا تجعلوا شفاهمك تلمس غير غذاء حصلتم عليه دون عنف أو عدوان .

إيجيريا وهيپوليتوس

كانت هذه - كما قيل - هي الدروس التي انبنى عليها فكر نوما حين عاد إلى وطنه واستجاب لنداء شعب لاتيوم [الشعب اللاتيني] وأمسك بزمام السلطة . ومن حسن حظ أن زوجته كانت حورية ، كما كانت الكاميناى حوريات الماء^(٤٩) ملهاته ، فلقد شعبه الشعائر الدينية ، وحول أمة تجنح إلى الحرب والعنف إلى أمه تجنح إلى فنون السلام . ولما أدركته الشيخوخة كانت نهاية حكمه وحياته قد قاربا الانتهاء معاً ، وبكته نساء لاتيوم كما بكاه الشعب ومجلس الشيوخ . وقد هجرت زوجته المدينة وآوت إلى أدغال أريسيا حيث أخذت تبكي وتندب حتى بلبت أناتها شعائر الإلهة ديانا التي كان أوريستيس قد أرسى قواعدها^(٥٠) . وكم من مرة حاولت حوريات الغابة والبحيرة التخفيف من آلامها ، وكم من مرة قال لها البطل هيپوليتوس وهي غارقة في دمعها : « هوّن عليك من عذاب نفسك ، فليست مأساتك بالمأساة الفريدة وكم من كثيرات غيرك عانين مثلها ، فلتكن لك فيهن عظة وعبرة ولتخفف من شجنك ، وإليك ما وقع لي أقصه عليك حتى تهون عليك مصيبتك . أو لم يبلغ سمعك نبأ موت هيپوليتوس الذي ذهب ضحية لسذاجة والده وخيانة زوجة أبيه الأثمة ، وستدهشين حين تعلمين ما حدث كله وإن لم أكن أقوى على أن أقدم لك دليلاً على صحة ما أقول من أنني أنا هيپوليتوس ، وعلى الرغم من هذا فهیپوليتوس هذا ليس غريباً . وكانت فيدرا بنت پاسيفاي زوجة أبي قد حاولت إغوائى وما نجحت في حملى على أن أدنس فراش أبى وأحمل وزر جرمها ، فاتهمتنى بأننى كنت أبغى منها ما كانت هى تبغى منى ، ولست أدري حتى اليوم أكان اتهامها لى عن خوف من أن أفصح أمرها أم عن كراهية لى لرفض الإذعان لرغبتها . ولقد طردنى أبى من المدينة رغم براءتى وشيئنى بلعنات كلها كراهية ، فركبت عربى وقصدت المنفى فى ترويزن مدينة الملك پيثيوس . وبينما كنت فى طريقى إليها عبر شاطئ كورنثه ، رأيت البحر يثور فجأة وترتفع كتلة من الماء

وكانها جبل لها خوار الثيران ، وإذا هذا الجبل المائي ينشق وينطلق من وسطه ثور ذو قرنين قد برز صدره ، وأخذ يلفظ مياه البحر من خطمه ومن خياشيمه ، فملاً الفزع قلوب رفاقي ولم يتطرق الفزع إلى قلبي الذي كان مشغولاً بأمر منقاي ، فتحولت جيادى الجامعة عن طريقها واتجهت صوب البحر ، ثم انتصبت آذانها وانتفش شعرها هلعاً من الوحش فجمحت شاردة ملقية بالعربة بين الصخور العالية . وحاولت بيد عاجزة أن أجعلها تحس بجذب الشكائم في أفواها المزبدة بالرغاء الأبيض ، فملت إلى الوراء أجذب الزمام ، وكنت واثقاً من أن جموح جيادى لن يغلبني على أمرى لو لم تصطدم إحدى العجلات بجذع شجرة هشمة العربة وإطارها ، فسقطت أسفل عربتي متعثراً في اللجام ، وكادت أحشائي ترى على الأرض نابضة متحركة ، ولصقت عضلاتي بجذع الشجرة وتناثرت أشلائي إلى الأمام وإلى الوراء ، وتهشمت عظامي وكانت لها قعقة مسموعة ، ولفظت آخر أنفاس حياتي المكدودة . ولم يكن ثمة جزء من جسدى يمكن ضمّه إلى جزء آخر ، فلم يعد جسدى غير أشلاء . فهل ترى أيتها الحورية بعد هذا أن مَصَابِك يبلغ مصابى ؟ لقد شاهدت أنا الآخر مملكة الظلمات وحاولت أن أغتسل بمياه « فليجيثون »^(٥١) ملتصقاً الشفاء لأعضائي الممزقة ، ولولا عقاقير إسكليبيوس بن أبوللو ما عادت إلى حياتي . وإذا كنت قد عدت للحياة بأعشاب إسكليبيوس الشافية وفن بيون [أبوللو] طبيب الآلهة رغم إعتراض ديس [بلوتو] ملك العالم السفلى ، فقد غشّني الإلهة ديانا بسحابة كثيفة حتى لا أثير حسد من يشهد هذا العطاء الذي مُنِحْتُهُ وحتى تحميني من كل الأخطار فأظهر دون أن يُصيّبني أذى ، ثم أضافت بعض السنين إلى عمري وغيّرت من قسّيات وجهي حتى لا يعرفني أحد . وقد أنعمت الإلهة التفكير طويلاً فيما إذا كانت تمنحني جزيرة كريت أم جزيرة ديلوس لتكون وطناً لي إلى أن استقر رأيها على ألاّ تمنحني واحدة منها فحملتني إلى هنا ، كما طلبت إلى أن أُبدّل اسمي الذي يوحى بذكرى الجياد قائلة : يا من كنت هيبوليتوس ، لتكن منذ اليوم « فيريوس »^(٥٢) . ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش في الغابة متخفياً رهن أوامر سيدتي التي أخدمها ، ولست غير واحد من الآلهة الثانويين .

تاجيس وكيبيوس

ولم يُخَفِّف ما قصصته من مآسى الآخرين شيئاً من آلام إيجيريا التي بقيت مستلقية عند سفح الجبل تنسكب دموعها منهمرة ، حتى أقبلت عليها ديانا أخت فوبيوس التي تأثرت بوفاء الحورية التعسة لزوجها فبدلت جسدها نافورة ندية وجعلت من أطرافها جداول من الماء لا تنضب . وقد ثارت الحوريات دهشات لهذه المعجزة ، كذلك لم تقل دهشة ابن الأمازون [أبوللو] عن دهشة الفلاح التيريني^(٥٣) الذي شاهد وسط حقلة كتلة من الأرض تتحرك من تلقاء نفسها دون أن يدفعها أحد إذ كانت في يد القدر يحركها كيف يشاء ، ثم تحولت إلى إنسان وفغرت فمها برز بين قسّيات وجهها ، فأخذ يُحدّثُ بنبوءات المستقبل . وقد أطلق أهل المنطقة اسم تاجيس على هذا المخلوق ، وكان أول من علّم الأمة الإيتروسكية أسرار التنبؤ بالمستقبل . وكان رومولوس قد أصيب في غابر الزمان بالدهشة نفسها حين رأى حربته مثبتة في سفح تل

٥٦٠ الفلانيوس وقد اكتست فجأة بأوراق أشجار قد اتخذت لنفسها جذراً جديداً ، فلم تعد النصل الحديدى نفسه الذى غرسه فى الثرى وإنما استحالت شجرة تبسط فروعها اللدنة ظلاً لم يكن يتخيله المشاهدون . وكذلك أصابت الحيرة كيبوس [قائد جيوش الجمهورية] حين شاهد صورته منعكسة فوق صفحة النهر ، إذ رأى قرنين خالهما فى بادىء الأمر وهماً فرفع يديه إلى جبينه مرّة بعد مرّة ، وما كان أشدَّ عَجَبَه حين لمسهما فلم يكذب بعد ذلك عينيه ، وتلبّث فى طريق عودته بعد أن رجع متصراً على عدوّه ، ورفع عينيه وذراعيه إلى السماء هاتفاً : « لست أدري يا آلهة السموات عن أى شىء تنبىء هذه المعجزة ، فإن تكن بشير خير فليكن الخير لوطنى ولشعب كويرينوس ، وإن تكن نذير سوء فليقع علىّ وحدى شرّ ذلك » . وتناول حزماً من العشب الأخضر أقام بها مذبحاً أطلق فوقه البخور قرباناً للآلهة ، وأراق أمامه نبذ القربان من أوانى الأضحية ، ثم نحر أغناماً وبقر بطونها كى يعرف من أحشائها التى ما تزال نابضة بالحياة ما يجنبه له القدر . وما كاد العراف الإيتروسكى يشهد الأمعاء حتى أدرك أن المستقبل يجبىء له أحداثاً كبرى وإن لم يتبيّن ما هى ، ثم رفع عينيه الثاقبتين عن أحشاء الأغنام إلى قرن كيبوس وقال له : « مرحباً بك أيها الملك . لك أنت يا كيبوس ولقرنيك^(٥٤) ستخضع هذه المنطقة ، بل وقلاع لاتيوم كلها . فلا تضع الوقت هباءً وامض إلى أبواب المدينة المفتوحة ترحيباً بك . تلك هى مشيئة الأقدار ، فلن تدخل المدينة حتى تتوج بها مليكاً ، وترتقى عرشاً خالداً » .

ارتد كيبوس إلى الورا وأشاح بوجهه العابس عن أسوار المدينة ، وأجاب الكاهن قائلاً : « فلتحجب الآلهة عنى ما تعد ، وخيرلى أن أقضى حياى فى المنفى عن أن يراى الكاپيتولينيوس ملكاً » . ولم يكذ ينتهى من قوله هذا حتى جمع الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ الموقر بعد أن أخفى قرنيه تحت أوراق الغار رمز السلام^(٥٥) ، ثم اعتلى ربوة سواها له جنوده البواسل ، وأقام الصلاة لآلهة الأجداد حسب العرف المألوف ، ثم خطب فى الحشد محدّراً : « إن بينكم رجلاً إن لم تبادروا بطرده بعيداً عن المدينة فسوف يصبح عليكم ملكاً ، فمن تُراه يكون ذلك الرجل ؟ لسوف أكشف لكم عنه لتعرفوه ، لا بذكر اسمه بل بذكر العلامة التى تميّزه ، فله قرنان يعلوان جبينه ، وقد أعلن العراف أنه إذا دخل روما فسيخضعها لقوانين تستعبدكم ، وقد كان بوسعه أن يدخل أبوابكم المفتوحة ، ولكنى منعه من ذلك على الرغم من أنه أقرب أقاربى ، إن عليكم أن تمنعوا هذا الرجل من دخول مدينتكم ، ولتقيّدوه بالسلاسل الغلاظ إذا ارتأيتم ذلك ، أو فلتتخلّصوا من مخاوفكم بقتل ذلك الطاغية الذى يتهددكم » .

وانتشر الهمس وسرت المهمة بين الناس وكأنها الريح الشرقية العنيفة تصفع غصون أشجار الصنوبر الشاخغة أو هدير أمواج البحر المنحدرة من بعيد ، غير أن صيحة ارتفعت فوق جميع الصيحات تقول « من هو ؟ » ، فأخذ الناس يتطلّعون إلى رؤوس بعضهم البعض ليتعرفوا لمن تكون له هذه القرون ، فانطلق كيبوس قائلاً : « ها هو ذا من تتطلّعون إليه » ، وعندها نزع إكليل الغار الذى يغطى رأسه رغم معارضة الناس ، وكشف عن صدغيه وقرنيه المطّين منها فعرّفه الجميع .

وزبحر الشعب وغض من بصره ، ولم تثرثب إليه الأعناق بأبصارها وإنما تطلعت إليه القلوب ببصيرتها لترى ذلك الرأس المهيب وقد توجته جلائل الأعمال ، ورفض الجميع أن تبقى رأس كيبوس عارية عن رمز مجده وأرغموه على إعادة الإكليل إلى رأسه . ورأى شيوخ المدينة — إذ كان محرماً عليه الدخول إلى قلب المدينة — أن يهبوه نصيباً من الحقول بقدر ما يقوى على حرثه بزواج من الثيران من شروق الشمس حتى غروبها ، ونقشوا على الأعمدة البرونزية القائمة عند مدخل المدينة قرنين يمثلان قرني البطل تخليداً لذكرى هذه المعجزة لسنين مديدة مقبلة .

٦٢٠

إسكيبوس

حدّثني يا ربّات الفنون يا ملهيات الشعراء ، فأنتن أدري بما أسأل عنه ، وما يخفى عنكن شيء من أسرار الماضي البعيد ، فلتكشفن لي كيف استقبلت الجزيرة التي يحتضنها حوض نهر التiber العميق ابن كورونيس^(٥٦) وجعلته واحداً من آلهة مدينة رومولوس ؟

فلقد حدث قديماً أن لوّث وباء بشع جوّ لاتيوم ، وأخذ سكانها يتساقطون واحداً في إثر الآخر بعد أن جمّدت أجسادهم الشاحبة وقد غاب عنها الدم ويات مشهدها بشعاً كريهاً . وحين ضاق أهل روما صدرأ بكثرة من يشيعون من الموق ورأوا عجز جهود الناس وقصور فن الأطباء عن القضاء على الوباء طلبوا عون السماء ، فقصدوا دلفى « صرّة » العالم ليستشيروا عراف فوبيوس متوسلين للإله أن يدركهم برحمته ويُسعفهم بما يطمئنتهم ويضع نهاية لهذه الآلام الفادحة التي طحنت مدينتهم . واهتزّت الأرض واهتزّ معها شجر الغار وارتقت كنانة السهام التي يحملها الإله نفسه ، وإذا كرسى العرافة الثلاثي القوائم يصوت فاهتزّت لصوته أعماق الهيكل مما أثار الفرع في نفوس الحاضرين وإذا صوتها يقول :

« كان بوسعك أيها الروماني أن تلتمس وأنت قريب من بيتك ما جئت تطلبه هنا ، فعد إلى هناك ولست في حاجة إلى أبوللو ليخفّف عنك شقاءك . إن ابنه هو الذي سيجعل عدد موتاكم يتناقص ، فاقصدوه محمّلين ببركاتي أنا واستضيفوا عندكم ولدى الذي أنجبته . »

٦٤٠

وحين علم حكماء مجلس الشيوخ ما أمر به الإله تساءل أعضاؤه عن المدينة التي يحيا بها ابن فوبيوس ، واختاروا وفداً حملته سفينة دفعتها الرياح إلى شواطئ إبيداوروس ، وما كادوا يبلغونها بسفيتهم المحدّبة الجوانب حتى مثلوا أمام مجلس كبار المدينة اليونانية ، ورجّوه أن يدلّهم على الإله الذي سيتحقّق خلاص أمة الأوزونيين [الإيطاليين] على يديه حسبما صاح به هاتف إلهي موثوق به له شأنه . وتداول المجلس الأمر ، وتفرقت الآراء بين قلة ترى أنه لا يمكن رفض مدّ يد المساعدة ، وكثرة تشير بالرفض حتى لا يُجرّموا رعاية الإله حين يُسلّمونه إلى غيرهم . وطال نقاشهم حتى طارد الشفق ضوء النهار ولفّ الليل وجه الأرض بظلمته ، وإذا أنت تحلم برؤية الإله المُغيث منتصباً أمام سريرك أيها الروماني على نفس هيئته وهو في معبده ، تمسك يده اليسرى بعصاه الخشبية ، ويمسح بيمنه لحيته الطويلة ، ويقول في

صوت رفيق : « لا تخشى شيئاً فسوف آتى مخلفاً طيفى ورائى وإن كنت سابدو فى غير صورتى . فأنعم
 ٦٦٠ النظر إلى هذا الشعبان الذى يلتف على عصاى ، وتبين أجزاءه لتتعرف عليه حق المعرفة ، فلسوف أبدو فى
 هيئته غير أن حجمى سيكبر حجمه ، وسوف ترى لى قامة عالية لا تليق إلاً بالآلهة حين تتحول من هيئة إلى
 أخرى » (٥٧) .

ثم اختفى الإله واحتجب صوته وتبدد النوم . ومع انقشاع النعاس عن العيون بدأ شعاع الخير
 يومض ، وأخذ فجر اليوم الجديد يطغى على نور النجوم ، ومضى أعيان المدينة وهم لا يعلمون ما هم
 فاعلون يتوافدون على المعبد الرائع^(٥٨) للإله الذى طلب إليهم أن ينزلوا عنه ، والتمسوا من الإله أن يوحى
 إليهم بالمكان الذى يختاره للنزول فيه . ولم يكد دعاؤهم ينتهى حتى كان الإله قد تحول إلى شعبان ضخم
 العُرف يُفصح بفحيحه عن ظهوره بينهم ، وعندها اهتز التمثال^(٥٩) والهيكل والباب والأرض المرمرية
 والسقف المذهب . ثم شمع الإله برأسه وصدره وتوسط المبنى مجيلاً فيه نظرات لها وميض فأرعد الناس
 هلعاً حين تعرف عليه الكاهن - الذى كان يعقد شعره المقدس بشريط أبيض - وقال : « انظروا ها هو ذا
 الإله ، ها هو ذا الإله . فليصمت الجميع ، ولتطردوا الأفكار المدنسة من رؤوسكم ، وليكن ظهورك بيننا
 ٦٨٠ أيها الإله العظيم بشير خير للشعب الذى يخلص فى عبادتك » . وسجد الحاضرون للإله المائل أمامهم
 مرددين دعاء الكاهن . وضم ممثلو شعب أيناس دعاءهم إلى دعاء الإغريق ، وتقبل الإله طقوس الطاعة
 والولاء وحرك عُرْفه تعبيراً عن رضاه ، واستأنف فحيحه بلسانه المتذبذب ، ثم انزلج على درج السلم
 المصقول ، والتفت إلى الورا قبل رحيله يلقي نظرة أخيرة على المعبد العتيق . وبعد أن حيّا مسكنه الأليف
 والمعبد الذى عاش به زحف بجسده الضخم على الأرض التى غطتها الزهور ينثرها الناس على طريقه .
 واخترق المدينة حتى بلغ المرفأ الذى يكتنفه رصيف صخرى دائرى ، فتلبّث ونظر إلى مودّعيه الذين جاءوا
 فى إثره تكريماً له نظرة مفعمة بالسكينة تحمل الشكر وتأذن لهم بالانصراف ، ثم أخذ مكانه فى السفينة
 الأوزونية التى أحسّت هى الأخرى أنها تحمل فى جوفها إلهاً إذ بدأت تميل تحت ثقله وغاصت قليلاً فى
 الماء .

وامتلأت قلوب وفد مدينة أيناس بالفرحة ، ونحروا ثوراً قرباناً على الشاطىء ، وفكّوا حبال
 السفينة المزدانة بالزهور فدفعتها الرياح الرقيقة فى طريقها إلى بلادهم ، وقد انتصب الإله بقامته مُسنداً
 ٧٠٠ عنقه على مؤخرها المقوس يتأمل الأمواج اللازوردية . وعندما أشرقت أورورا ابنة پالاس للمرة السادسة
 أدركت السفينة إيطاليا مارة بشواطىء لاكنيوم الشهيرة بمعبد جونو ، وبشواطىء سكولاكيوم مخلفة وراءها
 يا بينجيا^(٦٠) ، وتحاشى الملاحون بمجاديفهم صخور أمفريزا عن يسارهم وصخور كوكشوس عن يمينهم ، ثم
 مضوا بمحاذاة روميثيوس وكولون وناريسيا لا تعوقهم أخطار البحر ، واخترقوا مضيق پيلوروس الصّقلّى
 حتى بلغوا مملكة ابن الملك هيپوتيس ، ومناجم تيميسيا وليوكوزيا وبساتين الورد فى پايستوم المشمسة . ثم
 لزمت السفينة الشاطىء بجوار كاهرى وبرزخ منيرفا^(٦١) وتلال سورنتوم ذات الكروم الشهيرة ، ثم مدينة
 هرقل^(٦٢) وستاباى وپارثينوي^(٦٣) التى يقصدها الناس للاستمتاع بأوقات الفراغ ، حتى أدركت كوماى

حيث تقيم الكاهنة سيبلا في معبدها . وتابعت السفينة سيرها حتى بلغت مدينة باياى الدافئة المياه ، ثم مدينة ليتيرنوم الشهيرة بشجرة المصطكا ، وتجاوزتها إلى مصب نهر الفولتورنوس الذى تحمل مياهه المدومة قدراً ضخماً من الرمال . ثم أدركت سينووسا التى يَحَنُّ إليها اليام الأبيض ، ثم مستنقعات ميتورناى الموبوءة ، وكايتا التى دفن فيها البطل أينياس مرضعته ، إلى أن اجتازت ديار أنتفاتس ومدينة تراخاس المحاطة بالمستنقعات وأرض كيركى ، وأخيراً بلغت شاطئ أنثيوم برماله الراسخة ، وكان البحر عاصفاً فقام الملاحون بربط سفينتهم وأشرعتها مبسوطة .

٧٢٠

ومدَّ الإله جسده وزحف حتى بلغ المعبد المكرس لأبيه بجوار الشاطئ الذهبى . ولما هدأت الأمواج ترك حامى إبيداوروس هيكل أبيه الذى لقي فيه أجلَ ترحيب ، وعاد زاحفاً إلى السفينة غلخفاً أخذودا في الرمال شقّه جسده بحراشفه الحادة ، وتسَلَّق مؤخرة السفينة واستقر فوقها معتمداً برأسه على حافتها ، وظل كذلك حتى بلغت السفينة مدينة كاستروم ومدينة لاثنيوم العريقة ثم مصب نهر التير . فلما بلغ ذلك الموقع توافد الناس للترحيب به ، وأقبل الرجال والنساء وكاهنات قُستا العذارى الطرواديات الساهرات على نيران الهياكل ، وكان الجميع يتصايحون فرحاً تحية للاله . وعلى امتداد الطريق الذى تشقّه السفينة كانت المذابح والهياكل المشيدة على الضفتين تتصاعد منها سحب الدخان المنطلق من البخور يشيع عطره في الأجواء ، وكانت دماء القرايين تسيل فوق نصال المُلدى المستخدمة في نَحْرِها ، ثم ها هى ذى السفينة تدخل مدينة روما عاصمة العالم فيتنصب الثعبان مستنداً إلى قمة الصارى يتأمل ما حوله باحثاً عن مقام يليق به .

وفي الموضع الذى يتفرّع عنده نهر التير إلى فرعين يضمن ما يسمى الجزيرة ، وكأنما يمد النهر ذراعيه ليضم الأرض بينهما ، اتجه الثعبان ابن فوبيوس بعد أن هبط من السفينة اللاتينية إلى تلك الجزيرة حيث ارتدت إليه هيئته الإلهية فإذا هو يقضى على الوباء ويخلص المدينة منه .

٧٤٠

تأليه يوليوس قيصر

على أن هذا الإله لم يكن غير غريبٍ نزع إلى بلادنا ، على حين أن قيصر إله مدينة هو منها . ولقد كان قيصر رجل حرب وسلام معاً ، ولكن لا الحروب التى خاضها وانتهى فيها إلى النصر ، ولا أعماله الضخمة في روما ، ولا الهيأة التى رُزقها في لمح البصر ، ما كان هذا كله ليصل به إلى أن يضىء على صورة كوكب جديد مذنب في السماء ، بل مرّة هذا كله إلى أرومته التى ينتمى إليها فهم وحدها التى بلغت به هذه المرتبة . فلم يكن من بين مآثر قيصر ما هو أروع من أنه كان أباً لمثل هذا الابن^(٦٤) . وما فعله قيصر من قهر للبريطانيين فرسان البحر ، وما فعله من بعثه بسفنه الطافرة في النيل ذى الروافد السبعة والذى تغشى مياهه أوراق البردى ، وما كان من إخضاعه الثوار النوميديين [الليبيين] لشعب كويرينوس . وما كان من انتصاره على الملك « چوبا » سيد الكينيسس وپونتوس المزهوة بملوكها المثيريداتيس^(٦٥) . ثم ما كان من

انتصارات لا عدّ لها وخروج شعبه في مواكب نصر عديدة شارك قيصر في أكثرها^(٦٦) ، كل هذا لا يبلغ في جلاله أنه كان أباً لهذا الابن العظيم . وحين غدا ابن قيصر وصيّاً على هذا العالم أسبغت الآلهة على البشر رحمته العميمة ، وحتى لا يكون ابنه من بذرة فانية ارتقى هو إلى مصاف الآلهة .

وإذا فِينوس أم أيُنَاس الإلهة المزدانة بالذهب تشهد مراسم تأليهه ، غير أنها شهدت قبل تلك المؤامرة التي حيكت ضده ، كما رأت تلك الميته البشعة التي كانت تترصد الكاهن الأعظم لمدينة روما ومؤسس حضارتها ، فانتابها فرع شحب له وجهها ، وبدأت تشكو لكل إله تلقاه قائلة : أترون تلك المؤامرات التي تحاك لي ، ثم هذه المؤامرة التي تهدد حياة من بقى لي من أسرة يوليوس سليل داردانوس ؟ ترى هل سأبقى وحدي تنازعني الهموم ويساورني القلق ؟ أصبح يوماً جريحة برمخ ديوميديس بن تايدِيوس الكاليدوني ، وإذا أنا يوم آخر أحمل عار سقوط طروادة التي أخفقت في الدفاع عنها ، ثم أرى ابني يميم السنين الطوال على وجهه تتقادفه البحار ، وأشهده ينفذ إلى عالم الموت الهامد ثم وهو يصارع تورنوس ، وإذا شئنا الحق نقول إنه كان يصارع چونو نفسها ، ولكن لماذا أستعيد اليوم ذكرى المصائب التي نزلت بأسرق في الماضي ؟ إن الخوف الذي أستشعره اليوم يفوق كل ذكريات الماضي ، هاهي ذى السيوف الغادرة تُشحذ من أجلى ، هلاً رددتموها عني وحلّتم دون وقوع هذا العدوان حتى لا تدعوا نيران معبد فستا تخمد غريقة في دماء الكاهن الأعظم .

وعبثاً حاولت فِينوس أن تشيع شكواها في أرجاء السماء لتستثير شفقة الآلهة ، فقد كانت الآلهة عاجزة عن أن تحول دون نفاذ الإرادة الصلدة للأخوات العنيدات [ربات القدر الثلاثة] ، لكن الآلهة لم تفعل غير أن أرسلت بعض النُذر التي تُنذر باقتراب الكارثة ، فإذا السحب الداكنة تسمع خلالها قعقة السيوف ، وإذا صخب الأبواق الحربية يزلزل السماء بعنف منذراً بالمأساة ، ولم يعد للشمس المكتسبة غير أشعة باهتة ترسلها على الكون القلق ، وخفقت أذنان المذنبات بين نجوم السماء ، وتساقطت خلال الأمطار قطرات دماء ، وخُسيّف وجه كوكب النهار وغشّت وجهه صُفرة قائمة ، وتلطّخت مركبة القمر بالدماء ، وتردّد نعيق البومة طير نهر ستيكس المشثوم في أكثر من ألف مكان . وفي أكثر من ألف مكان بكت تماثيل الآلهة العاجية بدموع حقّة^(٦٧) ، وتردّدت الصرخات وأصوات الوعيد في أرجاء الغابات المقدسة ، ولم تدلّ القرابين المذبوحة على دلائل طيبة بل كانت أحشاؤها تحمل نُذراً باقتراب الكارثة ، فقد بدا رأس الكبد مبتوراً^(٦٨) ، ودلّ الكبد نفسه على أن الحرب الأهلية أصبحت وشيكة ، وإذا الروايات أيضاً تنقل أنه قد سُمع عواء كلاب ، كما شوهدت أشباح موت صامته تجوس في السوق وبين الدور والمعابد خلال الليل ، وإذا زلزالٌ هيزّ أرض روما . وعلى الرغم من تحذيرات الآلهة فلم تُفلح في القضاء على الخيانة والغدر . وشهّرت السيوف المسلولة من أعقادها داخل المبنى المقدس ، ومن الغريب أنه لم يكن ثمة مكان يُختار لارتكاب جريمة الاغتيال البشع إلا قاعة مجلس الشيوخ . عندها ضربت فِينوس على صدرها بيدها وحاولت إخفاء أيُنَاس العظيم في السحابة التي أنقذت باريس من غضب ابن أترِيوس كما حمت أيُنَاس من سيف ديوميديس ، غير أن أباه ناداها قائلاً : أو تخالين يا ابنتي أنك في قدرتك وحدك تغيير القدر

المقدور . توجَّهِي إلى مقرَّ ربَّات القدر الثلاث حيث ترين سجلَّات الكون . ستجدين اللوح المصنوع من البرونز والحديد ، ذلك اللوح الخالد الذي لا يتحطم ولا يخشى رعد السماء ولا غضب البرق ولا أى زلزال عاصف ، وسترين ما قُدِّر على ذراريك محفوراً على الصَّلب الذي لا يبلى . ولقد طالعت بنفسى ما هو مكتوب ووعته ذاكرتى ، وسأعيد على سمعك ما قرأتُ يا فينوس إلهة كثيراً حتى لا تظلين يا ابنتى جاهلة بالمستقبل . لقد انتهى عمر هذا الإنسان الذى تبكين من أجله وأكمل سنه التى كُتبت له فى لوح القدر أن يحياها ، غير أنه سيصبح بعدُ إلهاً يصعد إلى السماء ، وسوف تُقام طقوس عبادته فى معابد الأرض جمعاء . وسيكون هذا على يديك أنت وعلى يدى ابنه الذى سيرث اسمه ويحمل وحده عبء الحكم الذى سيُلْقَى على عاتقه ، وسيثار فى جراحة لأبيه الذى اغتيل ، وسيجدنا إلى جانبه نشدُ أزره فى معارك القتال ، وسيقود جيشاً يحاصر أسوار مودينا حتى تفتح له أبوابها طالبة السلام» (٦٩) ، وستشعر حقول فارساليا بقوة بأسه ، وسيسيل الدم ثانية فى فيليبى ، وسيلقى اسم بومبى العظيم الهزيمة فى مياه صقلية ، وستسقط الزوجة المصرية لقائد رومانى مخدوعة فى أملها بالزواج منه ، ويصبح هباء تهديدها بأن تُخضع الكايبيتولينوس المقدس لمدينتها كانوبى (٧٠) . وما لى أقصَّ عليك قصص بلاد البرابرة والأمم التى تعيش على شواطئ المحيطين ، فلسوف يملك هذا البطل جميع ما تحمل الأرض المعمورة ، ولسوف يذلُّ له البحر نفسه . وحينما ينشر السلام على العالم سوف يرعى حقوق المواطنين ويشرِّع القوانين التى تكفل العدالة بينهم ويطبِّقها بنفسه ، وسيصبح مسئلكه مثلاً يُحتذى من رفيع الأخلاق ، وسيتجه بفكره وينفذ بصيرته إلى المستقبل وذرارى شعبه ، فيأمر أن يحمل ابن قرينته المُبجَّلة اسمه وأثقال الحكم معاً . ثم إنه فى النهاية حين يبلغ من العمر ما بلغه نيسطور حاكم بيلوس الكهل سيقى إلى السماء حيث سيتخذ مكانه بين كواكب أسرته . أما الآن ، فخذى معك هذه الروح التى فاضت عن جسد قيصر الذبيح وأحليها نجماً حتى يسهر يوليوس المؤلِّه إلى الأبد من علياء سمائه على الكايبيتولينوس المقدَّس والفورم » .

٨٢٠

٨٤٠

وما إن فرغ جوبيتر من حديثه حتى وقفت فينوس الحانية وسط قصر مجلس الشيوخ دون أن تلمحها عين بشر ، ورفعت روح قيصرها الغالى من جسده بعد ما فارقت وقبل أن تتبدد فى الهواء وحملتها وسط نجوم السماء ، فإذا هى تحسُّ وهى تحملها أنها تشتعل شيئاً فشيئاً إلى أن التهمت حقاً ، وإذا هى تنفلت من صدر فينوس حلقة عالياً حتى جاوزت القمر وهى تجرُّ وراءها جدائل من أشعة لها شكل كوكب متألِّق (٧١) .

وحين رأى قيصر من علياء السماء مآثر ابنه أذعن إلى أنها تفوق مآثره وسعد بأن يتفوق ابنه عليه ، وإن كان الإبن قد حرَّم على الناس أن يُقدِّروا أعماله فوق تقديرهم لأعمال أبيه ، غير أن شهرة الإنسان تجرى على السنة الناس طليقة لا تخضع للقيود . ولقد رفعته الشهرة عالياً على الرغم منه ولم تخضع لغير إرادة القدر وحده ، كما تراجع مجد أترىوس أمام مجد أجائمنون العظيم ، وكما بزَّت شهرة ثيسىوس شهرة أبيه إيجيوس ، وكما فاق أخيل أباه بيلىوس . ثم يأتى فى ختام الأمثلة الجديرة ببطلينا (٧٢) ذكر ساتورن الذى

تراجع أمام ذكر ابنه چوپيتر حاكم السماوات العُلى وممالك الكون الثلاث . كذلك خضعت الأرض لسلطان أوغسطس ، وكان كل من چوپيتر وأوغسطس أباً لدولته وسيّداً عليها .

٨٦٠

ابتهال

أيتها الآلهة المقدسة ، يارفاق أينياس ، أنتم يا من تفتح أمامكم السنة اللهب وصليل السيوف الطريق رحباً لا نهاية له ، يا آلهة أرضنا ، يا كويرينوس [رومولوس] ، يا أب المدينة الحاني عليهم وصاحب الطول فيها ، وأنت يا جراديفوس [مارس] والد كويرينوس الذى لم يُقهر قط ، وأنت يا فُستا يا من تُقام لك الصلوات تسبيحاً باسمك الكريم وسط آلهة أسرة قبصر . وأنت يا فوييوس يا من تسكن مع فُستا قصور القياصرة ، وأنت يا چوپيتر يا ساكن قمة تل تارپيوس^(٧٣) . أيتها الآلهة جميعاً ، يا من يحقّ للشاعر بل يلزمه أن يسبّح بأسمائكم القدسيّة ، ناشدتكم جميعاً أن تُرجئوا إلى ما بعد هذا الجيل ذلك اليوم الذى يغادر فيه أوغسطس العظيم هذه الدنيا التى تدين لحكمه تُناصع ، يوم يصعد إلى السماء نجماً مضئاً ، حيث يستجيب لضراعات البشر إلهاً ، ولو أنهم سيُحرمون منه ملكاً يستجيب لضراعاتهم .

ختم

٨٨٠ . ها أنذا قد فرغت من كتابي ، هذا الكتاب الذى تعجز غضبة چوپيتر الجبار عن أن تمحو أثره ، وتعجز النار والحديد بل وأنياب الزمن العاصف عن أن تطمس كلماته . ولتضع الأقدار - ما شاءت - خاتمة لحياقي ، فهى لا تملك إلّا جسدى ، أما أنبل ما فى ذاتي فسينطلق خالداً فوق مسرى النجوم والأفلاك ، وسيبقى اسمى مشرقاً ما بقى الدهر . وأنى ينبسط سلطان الدولة الرومانية ، فلسوف تردّد ألسنة الناس شعري ، وإن صدق حدس الشعراء فلسوف أخلد باقياً على مرّ العصور علماً خفّاقاً شهيراً .

التعقبات

- (١) اشتهر نوما بومبيليوس من السابينيين بالحكمة والمعرفة ، وقيل إنه تتلمذ على پيشاجوراس وتولى العرش فى أوائل القرن الثامن ق.م. على الأرجح .
- (٢) مدينة قديمة كان السابينيون قد اختاروها عاصمة لهم .
- (٣) مدينة عند بداية خليج تورنتو وكانت جزءاً من « اليونان الكبرى » افتتح فيها پيشاجوراس مدرسته الشهيرة .
- (٤) شعب كان يقطن الطرف الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة ايطاليا .
- (٥) أهل مدينة كانت تحمل الاسم نفسه ، وحلت محل سيباريس بعد تدميرها ، وكانت أيضاً تشرف على خليج تورنتو فى جنوب إيطاليا .
- (٦) مدينة قديمة فى مقاطعة پروتيوم ، وهو اسم الإقليم الذى يشغل كل جنوب شبه جزيرة ايطاليا ، وقد اشتهرت بمناجم النحاس .
- (٧) هم الياپيجيون [انظر الكتاب الرابع عشر] .
- (٨) الاسم القديم لجزيرة كيفالونيا ، وهو أيضاً اسم أكبر مدينة بها .
- (٩) يدعى پيشاجوراس هنا أنه استوحى كلامه من وحى إلهى ، مثله فى ذلك مثل الهاتف الإلهى فى دلفى الذى يصوتُ بصوت أبولو .
- (١٠) يبدأ پيشاجوراس هنا عرض نظرية تناسخ الأرواح التى اقترنت باسمه عبر التاريخ .
- (١١) كان أباس الملك الثانى عشر لدولة أرجوس . وروى أن معبد جونو [هيرا] فى أرجوس الذى كان يحوى تمثالاً للإلهة من صنع بوليكليتوس كان يضم ترس البطل الطروادى يوفوريوس الذى قتله منيلاوس إثر محاولته نزع الأسلحة من جثة پاتروكلوس الهامدة .
- (١٢) كان ميلون بطلاً شهيراً فى حلبة ألعاب القوى بمدينة كروتونا عاش فى أوائل القرن السادس عشر ق.م. وفى الإشارة إلى شيخوخته مفارقة زمنية ، إذ المفروض أنه كان من تلاميذ پيشاجوراس الذى يتحدث بنفسه فى هذا النص .
- (١٣) اختطف ثيسبيوس هيلينا وهى بعدُ فتاة بينا كانت تقدم القرابين لأرتميس وذهب بها إلى أثينا ، ثم اختطفها باريس بعد زواجها من منيلاوس وهرب بها إلى طروادة .
- (١٤) نهر فى فريجيا يختفى فى غار ثم يظهر من جديد ليرقى فى نهر مياندر .
- (١٥) نهر فى أركاديا يصب فى خليج كورنث .
- (١٦) نهر فى آسيا الصغرى .

- (١٧) نهر في صقلية بجوار مدينة قطانيا .
- (١٨) نهر في اليونان .
- (١٩) نهر في صارماتيا جنوب روسيا يصب في البحر الأسود واسمه الآن نهر البوج .
- (٢٠) مدينة صغيرة على الشاطئ الغربي لجزيرة ليزبوس .
- (٢١) جزيرة صغيرة مواجهة للإسكندرية يربط بينها لسان ضيق من اليابسة ، اشتهرت بمنارتها (رأس التين حالياً) .
- (٢٢) إحدى الجزر الأيونية .
- (٢٣) الاسم القديم لميسينا بصقلية .
- (٢٤) دمرها زلزال عام ٣٧٢ ق.م .
- (٢٥) كانت توأم هيليكيه ودمرت معها .
- (٢٦) لعل أوفيد كان يقصد برزخ ميثونه أو ميثانا ، ويقع إلى الشمال من المنطقة التي يشير إليها .
- (٢٧) ذكرى هيروdotus ينوع آمون في « تاريخه » وما يزال معروفاً في الصحراء السودانية ، ويبدو أن حرارته قد تصل أحياناً إلى خمسين درجة مئوية ثم تهبط أحياناً أخرى إلى درجة الصفر .
- (٢٨) شعب كان يقطن إبيروس على الحدود الألبانية .
- (٢٩) اشتهر هذان النهران بغزارة طميهما فكان من يستحم فيهما من بشر أو حيوان يخرج من النهر مُغشًى بالطين البني .
- (٣٠) انظر الكتاب الرابع حيث تحرى أحداث قصة هيروdotus وسالماكييس . أما البحيرات الأثيوبية فلا نعرف ما يقصده أوفيد منها .
- (٣١) مدينة أركاديا .
- (٣٢) منطقة جبلية في مقدونيا .
- (٣٣) اسم للمدينة في شمال أركاديا وللبحيرة المجاورة لها .
- (٣٤) هي جزيرة ديلوس الآن ، وكانت في الماضي تتأرجح فوق المياه ، اختارتها ليتوماوى تلد فيه بعد أن طاردها جونو في جميع أنحاء الأرض ، ولم تثبت الجزيرة إلا بعد وضعها لأبوللو وأرتميس .
- (٣٥) جزيرتان صخريتان عند مدخل البحر الأسود .
- (٣٦) يعالج سنيكا في كتابه السادس « عن أمور الطبيعة » سر الزلازل بما لا يخرج عن النص الوارد هنا .
- (٣٧) شعب خرافي كان يسكن منطقة في أقصى شمال العالم المعروف .
- (٣٨) خلط أوفيد هنا بين تريتون الموجودة في طرايا وباليبي الموجودة في خالكيديكس .
- (٣٩) يبدأ پيثاجوراس في سرد بعض الخرافات الشعبية السائدة .
- (٤٠) ذهب هيروdotus إلى أن معبد هيريون هو معبد الشمس في هليوبوليس بمصر ، بينما ذهب پلينيوس إلى أنه موجود في جزيرة خرافية اسمها پانشايا في بحر إريتريا بين آسيا الصغرى وببوتيا .
- (٤١) كان ثمة اعتقاد شعبي بأن الضبع يبذل جنسه مرة كل سنة إلى أن دحض أرسطو هذا الزعم الخاطئ .
- (٤٢) هو الحرباء التي قال عنها « پلينيوس » إنها تتلون بكل الألوان عدا الأحمر والأبيض .
- (٤٣) من فصيلة السنائير وهو أصغر حجماً من النمر .
- (٤٤) ثمة حجر كريم يسمى « بول الوشق » يقابل حجر التورمالين لدينا .
- (٤٥) أحد ملوك أثينا في قديم الزمان .
- (٤٦) سبق أن ذكر پيثاجوراس أنه عاش حياة سالفة في طروادة ، إذ كانت روحه تنمض جسد البطل الطروادي يوفوربوس المعاصر لأينياس .
- (٤٧) كان أتريوس بن پيلوبس عدواً لأخيه ثايسيتيس ، وقد تظاهر بالصلح معه ودعاه إلى وليمة بح فيها أبناء أخيه وقدم إليه لحم أبنائه فأكله وهو لا يدري .

- (٤٨) أحدى طرق صيد الوعول ، وتقوم على وضع جبل في طريقها مزدان بالريش الأحمر الذى يصيبها بالفزع فتتحرف نحو الشراك التى تنتظرها .
- (٤٩) الكامينات كن حوريات ماء ، أشهرهن إيجيريا التى كانت مُلَهمة نوما كما أسلفنا ثم تزوجها حسيبا يقرر أوفيد في هذا النص . وكن يتكهنن بالمستقبل كربات الفن « الموساى » ، وكان لمن معبد عند أحد أبواب روما ، هو الباب الكاميني في طريق آبيا جنوى المدينة .
- (٥٠) كان وادى آرسيا عند سفح جبال ألبانوس بإيطاليا غير بعيد من بحيرة نيمى وعلى مقربة من معبد ديانا الأرسينية الذى كان يتولى كاهنه منصبه فيه بعد أن يقتل سلفه . وكانت الشعائر تقام فيه لديانا الطوريسية الذى كان أوريستيس قد اختطف منه صنم « الإكسوانون » بصحبة إيفيجينيا كاهنة المعبد . وكان سكان أرسيا يدعون حيازة هذا الصنم الذى حمله إليهم أوريستيس ، غير أن الروايات اليونانية كلها تؤكد أنه موجود بمعد أرتيس في هالاي بأتيكا [وذلك بالنسبة لأهل أثينا] بينما يدعى أهل أسهرطه أنه في معبد أرتيس أورثيا في أسهرطه نفسها .
- (٥١) نهر من اللهب في الجحيم .
- (٥٢) اسم جنى غابة قرب بحيرة نيمى ، وكانت هذه الغابة محرمة على الجياد ، وقد أصبحت عبادة فيريوس مقترنة بعبادة ديانا الأرسينية ، وكان فيريوس أول كاهن لها في معبدها .
- (٥٣) أى فلاح إتروريا .
- (٥٤) كانت القرون في الماضى رمزاً للقوة .
- (٥٥) هى رمز الانتصار وبالتالي السلام الذى يجيء في إثر الانتصار .
- (٥٦) إسكليپوس بن أبوللو من الحورية كورنيس ، وقد بدأت الطقوس تقام له في نيساليا ، ثم أخذت تنتشر حتى عمت أنحاء اليونان ، وركزت في إبيداوروس ، ولم تدخل روما إلا عام ٢٩١ ق.م . بعد الطاعون الذى اجتاحتها عام ٢٩٣ ق.م .
- (٥٧) كانت الآلهة تبدو في التماثيل الفنية القديمة أكبر حجماً من البشر .
- (٥٨) أقيم هذا المعبد عام ٣٨٠ — ٣٧٥ ق.م . وكان على بعد خمسة عشر كيلو متراً من المدينة ، وقد اكتشفت في أطلاله آثار فنية ووثائق بالغة القيمة .
- (٥٩) قام بنحته المثال تراسيميديس الفاروسى .
- (٦٠) اسم قديم للوكانيا .
- (٦١) برزخ كامبانللا حالياً .
- (٦٢) هرقولانيوم .
- (٦٣) الاسم القديم لنابلى .
- (٦٤) يضع أوفيد أوكثافىوس وهو ابن قيصر بالتبني في مصاف أبناؤه الحقيقيين ، ويتحدث عنه بهذه الصفة .
- (٦٥) اسم ملوك وحكام ولايات پونتوس الموجودة في آسيا الصغرى والمطلة على البحر الأسود وعاصمتها طرابزون .
- (٦٦) يشير أوفيد هنا إلى حملة قيصر على بريطانيا عام ٥٤ ق.م . وحرب الإسكندرية عام ٤٨ ق.م . وهزيمة جوبا ملك نيميديا ، وإلى انتصاره على فارناكيوس بن مثريدات الأعظم ملك پونتوس عام ٤٧ ق.م . ويلاحظ أن قيصر لم يشارك في غير موكبين من مواكب نصره ، أولها عام ٤٦ ق.م . بعد انتصاره في بلاد الغال ومصر وپونتوس وثانيها عام ٤٥ ق.م . بعد انتصاره في أيبيريا .
- (٦٧) كان العلاج يستخدم في صنع تماثيل الآلهة أو بعض أجزائها ، وكانت التماثيل العاجية تدهن بالزيت فترسل بريقاً يوحى أنها تدمع .
- (٦٨) كان الكهنة يفحصون أحشاء الذبائح ويهتمون بالقلب والرئين والمعدة والطحال والكليتين ، وكانوا يسمون أعلى الكبد رأسه ويعدون فصله عن بقية الكبد نذير سوء .
- (٦٩) انتصار أوكثافىوس على أنطونيوس في مودينا عام ٤٣ ق.م . ، وكان أنطونيوس هو الذى حاصر المدينة التى كان على رأسها ديكيموس بروتوس محافظ المقاطعات الرومانية جنوبى الألب ، ويبدو أن أوفيد قد خلط هنا بين المحاصر والمحاصر .

- (٧٠) كانت كليوباترة هي ملكة مصر التي تزوجت أنطونيوس ، وتقع كانوبى شرقى الإسكندرية ، وكانت مركزاً دينياً بينما كان معبد الكايتولينيوس أقدس معابد روما ، وبهذا يريد أوفيد اتهام كليوباترة بمحاولة إحلال آلهة المصريين محل آلهة الرومان .
- (٧١) يروى سويتونيوس أنه أثناء الألعاب التي أقامها أوكتافىوس تكريماً لقيصر المؤله ، كان الكوكب المذنب يتألق في السماء طوال ليال سبع ، وقد شاع الاعتقاد بأنه روح قيصر قد تحول إلى كوكب هو المعروف باسم فينوس .
- (٧٢) يوليوس قيصر وأوغسطس .
- (٧٣) الجزء الشرقى من تل الكايتولينيوس وكان يضم القلعة التي سميت باسمه ، بينما يضم الجزء الغربى معبد جوبيتر ، وكان يسمى قبلاً بجبل تاريوس ، وقد انحصر اسم تاريوس بعد ذلك في صخرة بالطرف الجنوبي الغربى من التل كانت تستخدم في تنفيذ أحكام الإعدام بقذف المحكوم عليهم من فوقها .

ثبت التراجم

THE METAMORPHOSES OF OVID: TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY MARY M. INNES. PENGUIN BOOKS, HARMONDSWORTH, 1955.

OVID: THE METAMORPHOSES. 2 VOLS. TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY F. J. MILLER (THE LOEB CLASSICAL LIBRARY) LONDON AND NEW YORK. (ND)

OVIDE: LES METAMORPHOSES. TRADUCTION NOUVELLE AVEC UNE INTRODUCTION ET DES NOTES PAR JOSEPH CHAMONARD. 2 VOLS. EDITIONS GARNIER, PARIS, 1955.

OVIDE: LES METAMORPHOSES.
TEXTE ETABLI ET TRADUIT PAR GEORGE LAFAZE (COLLECTION DES UNIVERSITES DE FRANCE PUBLIEE SOUS LE PATRONAGE DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE) PARIS, 1928. 3 VOLS.

ثبت المعاجم

CARY, M., DENNISTON, J.D., WIGHT DUFF, J, NOCK, A. D, ROSS, W. D., SCULLARD, H. H., WITH THE ASSISTANCE OF ROSE, H. J, HARVEY, H. P. AND SOUTER, A, THE **OXFORD CLASSICAL DICTIONARY.** OXFORD, 1949

ERNOUT, A. ET MEILLET, A. **DICTIONNAIRE ETYMOLOGIQUE DE LA LANGUE LATINE.** 3 EME EDITION. PARIS, 1951.

- HOWE, GEORGE & HARRER, G. A.: *A HANDBOOK OF CLASSICAL MYTHOLOGY*. F.S. CROTS. NEW YORK 1987.
- LEMPRIERE, J.: *LEMPRIERE CLASSICAL DICTIONARY OF PROPER NAMES MENTIONED IN ANCIENT AUTHORS*. ROUTLEDGE & KEGAN PAUL. LONDON 1963
- LEWIS, CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLES: *A LATIN DICTIONARY*. LONDON 1879.
- STIMPSON, D.P.: *CASSELLE'S NEW LATIN-ENGLISH-LATIN DICTIONARY* 2nd EDITION. LONDON 1962.

ثبت المراجع

- BEAMER, MAUDE: *GREEK ART IN OVID'S POEMS*. (PUBLISHED ABSTRACT OF UNIVERSITY OF MISSOURI DISSERTATION, 1936)
- BREWER, W.: *OVID'S METAMORPHOSES IN EUROPEAN CULTURE*. 1933.
- CLARK, KENNETH: *LANDSCAPE INTO ART*. LONDON 1949.
- FRANKEL, HERMANN: *OVID-A POET BETWEEN TWO WORLDS*. BERKELEY AND LOS ANGELES, 1945.
- HAGSTRUM, JANH.: *THE SISTER ARTS*. CHICAGO 1958.
- LAFAYE, G.: *LES METAMORPHOSES D'OVIDE ET LEURS MODELES GRECS*. (UNIVERSITE DE PARIS, BIBLIOTHEQUE DE LA FACULTE DES LETTRES, XIX) PARIS, 1904.
- LASLO, NICOLAS: *RIFLESSI D'ARTE FIGURATA NELLE METAMORFOSI DI OVIDIO* (EPHEMERIS DACOROMANA, VI) ROME 1935.
- MORNAND, PIERRE & THOME, J.R.: *VINGT ARTISTES DU LIVRE. LE COURRIER GRAPHIQUE*, ALBERT CYMBOLISTE, EDITEUR, PARIS.
- MURRAY, GILBERT: *ESSAYS AND ADDRESSES*. LONDON, 1291.
- PANOVSKY, ERWIN: *PROBLEMS IN TITIAN MAINLY ICONOGRAPHIC*. PHAIDON, OXFORD, 1970.
- RAND, EDWAD K: *OVID AND HIS INFLUENCE*. BOSTON 1925.
- RIPERT. EMILE: *OVID, POETE DE L'AMOUR, DES DIEUX ET DE L'EXIL*. PARIS 1921.
- WILKINSON, L.P.: *OVID RECALLED*. CAMBRIDGE, 1955.

المُلحق الأول

دليل المنجزات الفنية التشكيلية
المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد(*)

التصوير

آدم إلزهايمر : « الطوفان » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
آنجر : « تأليه هوميروس » . متحف اللوفر .
أحد أتباع بيزيلينو : « صيد الخنزير البري في كاليدونيا » . متحف متروبوليتان بنيويورك .
أحد أتباع فرا أنجيليكو : « باريس يختطف هيلينا » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
إدوارد بيرن جونز : « بهجاليون » . متحف برمنجهام .
إجرتشينو : « أبولو يسلخ مارسيا » . جاليري بيتي بفلورنسا .
إجرتشينو : « أورورا » . قصر لودوفيزي بروما .
إجرتشينو : « كيركي » . متحف اللوفر بباريس .
أنطون فان دايك : « جويتر وأنتيوي » . متحف ميونخ .
أنطون فان دايك : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تورنتو بكندا .
أنطون فان دايك : « سيلينوس ثملا » . متحف درسدن .
أنطون فان دايك : « كيوييد وبيسخيه » . هامبتون كورت بانجلترا .
أنطون فان دايك : « فينوس إلى جوار كور فولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
أنطون فان دايك : « فينوس وفولكانوس » . متحف اللوفر .
أنطونيو بولايولو : « أبولو ودافني » . الناشونال جاليري بلندن .
أنطونيو بولايولو : « خطف ديانرا » . متحف الفنون بجامعة ييل بنيوهافن .
أنطونيو بولايولو : « هرقل والهيدرا » . متحف الأوفيتزي بفلورنسا .
أنطونيو فانتوزي : « كيركي وملاحو أوديسيوس » . مدرسة فونتنبلو .
أوجين ديلاكروا : « ميديا وأطفالها » . متحف اللوفر بباريس .
بارثولوميو سيرانجر : « فينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا

(*) للمزيد من التفاصيل انظر : « الإغريق بين الأسطورة والإبداع » ، لكاتب هذه السطور . الطبعة الثانية ١٩٩١ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- بارثولومئوس سهرانجر : « منيرفا » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- بارثولومئوس سهرانجر : « هيرمافروديتوس وسالماكيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- بارثولومئوس سهرانجر : « أوديسيوس وكيركي » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- باروتشي : « أينياس يفر من طرواده مع زوجته وابنه حاملاً أباه » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
- باسانو : « هرقل وأومفالوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- برودون : « اختطاف يسى » . متحف اللوفر .
- برويجل : « أينياس في العالم السفلي » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- برويجل : « سقوط إيكاروس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- برويجل : « سيريس توزع الخيرات » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- بلانشار : « حفل باكخوسى » . متحف نانسى .
- بنفوتو تشللى : « پيرسيوس وأندروميذا » . متحف البارجلو بفلورنسا .
- بوتيشيللى : « أثينا [منيرفا] والقنطور » . متحف أوفيتزى بفلورنسا .
- بوتيشيللى : « مولد فينوس » . متحف أوفيتزى بفلورنسا .
- بوشيه : « حوريتان وجان الغاب [الساتير] » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
- بوشيه : « دانائى » . متحف كونياك .
- بوشيه : « ديانا تأخذ زينتها » .
- بوشيه : « زيوس وأنتيوى » . متحف پوشكين بموسكو .
- بوشيه : « ليذا وطائر البجع » . متحف لوكسمبورج .
- بيرو دى كوزيمو : « إنقاذ أندروميذا » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
- بيرو دى كوزيمو : « مصرع پروكريس » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
- بيرو دى كوزيمو : « المعركة بين اللايث والقنطورى » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
- بيير نارسيس جيزان : « تقديم القربان لإسكليپوس » . متحف اللوفر بباريس .
- تسيانو : « اختطاف أوروبا » . متحف جاردنر ببوسطن .
- تسيانو : « باكخوس وأريادنى » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
- تسيانو : « پيرسيوس وأندروميذا » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
- تسيانو : « تانتالوس » . المتحف البريطانى .
- تسيانو : « جوبيتر وأنتيوى » . متحف اللوفر .
- تسيانو : « دانائى » . متحف الهرادو بمدريد .
- تسيانو : « ديانا وأكتايون » . متحف بردچوتر هاوس بلندن .
- تسيانو : « ديانا وكالستو » . متحف بردچوتر هاوس بلندن .
- تسيانو : « سيزيفوس يحمل الحجر » . متحف الهرادو بمدريد .
- تسيانو : « فينوس وأدونيس » . المتحف القومى للفنون بواشنطن .
- تسيانو : « فينوس تتوسل إلى أدونيس كى لا يخرج إلى الصيد » . متحف الهرادو بمدريد .
- تسيانو : « فينوس على أجنحة النغم » . متحف الهرادو بمدريد .
- تسيانو : « فينوس فى استرخاء حالم » . متحف أوفيتزى بفلورنسا .
- تسيانو : « فينوس وكوييد » . متحف فيلا بورجيزى بروما .
- تسيانو : « كالستو » . متحف جلاسجو .
- تسيانو : « مصرع أكتايون » . متحف جلاسجو .

- تتسيانو: «النسر ينهش كبد تيتوس». متحف اليرادو بمديريه .
- تتوريو: «أريادنى وباكخوس». قصر الدوج بالبندقية .
- تتوريو: «باكخوس وأريادنى». قصر الدوج بالبندقية .
- تتوريو: «پيرسيوس وأندروميديا». متحف اليرميتاج بلنجراد .
- تتوريو: «چونو وهرقل». كويام هول بانجلترا .
- تتوريو: «ربات الفنون فى الأوليمپ». هامپتون كورت بانجلترا .
- تتوريو: «كور فولكانوس». قصر الدوج بالبندقية .
- تتوريو: «كيوبيد وفينوس وفولكانوس». متحف بيتى بفلورنسا .
- تيرنر: «پوليفيموس يهزأ بسفينة أوديسيوس». متحف الناشونال جاليرى بلندن .
- تيرنر: «ديدو تشيد قرطاجه». الناشونال جاليرى بلندن .
- تيرنر: «ديدو وأينياس». الناشونال جاليرى بلندن .
- تسيولو: «أبوللو ودافنى». متحف اللوفر بپارىس .
- تسيولو: «تشيد حصان طرواده». متحف الناشونال جاليرى بلندن .
- تسيولو: «دانائى». متحف ستوكهولم .
- تسيولو: «سحب حصان طرواده». متحف الناشونال جاليرى بلندن .
- تسيولو: «فينوس والزمن». متحف الناشونال جاليرى بلندن .
- چان راو: «پيجاليون وجالاطيا وفينوس». متحف اللوفر بپارىس .
- چان ريسنو: «هيرا [چونو] تزور أوقيانوس وثيتيس». متحف پوشكين بموسكو .
- جانستر: «فينوس وأدونيس». متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- جوتزولى: «اختطاف هيلينا». الناشونال جاليرى بلندن .
- چورچ فردريك واطسن: «أورفيوس ويورديكى». متحف تيت جاليرى بلندن .
- چوردانو: «أريادنى». متحف درسدن .
- جوستاف مورو: «پاسيفاي والثور». متحف مانتوا .
- چوليو رومانو: «پوليفيموس». متحف مانتوا .
- چوليو رومانو: «چونو وهرقل». بريدج ووتر هاوس بلندن .
- چوليو رومانو: «رقصة أبوللو مع ربات الفن». متحف بيتى بفلورنسا .
- چوليو رومانو: «طفولة چوبيتر». الناشونال جاليرى بلندن .
- چوليو رومانو: «فينوس وفولكانوس». متحف اللوفر .
- جيدورينى: «أبوللو يسلخ جلد مارسيا». متحف ميونخ .
- جيدورينى: «اختطاف هيلينا». متحف اللوفر .
- جيدورينى: «أورورا». قصر روسيليزى بروما .
- جيدورينى: «باكخوس معتلا». متحف فيلا بورجيزى بروما .
- جيدورينى: «هرقل وأخيلوس». متحف اللوفر بپارىس .
- جيدورينى: «هرقل والهيدرا». متحف اللوفر بپارىس .
- جيران: «أورورا وكيفالوس». متحف اللوفر .
- جيران: «تقديم القربان لاسكليپوس». متحف اللوفر .
- دافيد: «پارىس وهيلينا». متحف اللوفر .
- دانتي جابريلى روسيتى: «پروسيرينا». متحف ليثربول .

- ديرير : « الحوريات ينعين إيكاروس » . تيت جاليري بلندن .
- دورر : « هرقل والطير الستمفالية » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- دومينيكيوتو : « ديانا وأكتايون » . قصر بيتي بفلورنسا .
- ديلاكروا : « القنطور خيرون يعلم أخيل تصويب السهام » . مجموعة خاصة .
- ديلاكروا : « هرقل يحمل الخنزير البري » . متحف كارنافاليه .
- دوسو دوسى : « كيركى وعشاقها » . المتحف القومى للفنون بواشنطن .
- ديبيه : « بيجاليون وجالاطيا » . متحف تور بفرنسا .
- رافائيل : « أبوللو ومارسياس » . متحف اللوفر بباريس .
- رافائيل : « جالاطيا » . قصر فارنيزينا بروما .
- رافائيل : « حفل الالهة فى الهارناسوس » . متحف الفاتيكان .
- رافائيل : « كيوييد وبسيخيه » . قصر فارنيزينا بروما .
- رمبرانت : « اختطاف پروسيرينا » . متحف برلين .
- روبنز : « آچاكس وكساندرا » . متحف ليختنشتاين بفيينا .
- روبنز : « اختطاف پروسيرينا » . قصر بلنهم وودستك بانجلترا .
- روبنز : « أتالانتا وملياجر » . متحف الهرادو بمدريد .
- روبنز : « أورفيوس ويوريديكى » . متحف الهرادو بمدريد .
- روبنز : « أينياس وديدو » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
- روبنز : « پيرسيوس وأندروميذا » . متحف الإرميتاج بليننجراد .
- روبنز : « پيرسيوس وأندروميذا » . قصر بلنهم .
- روبنز : « تحكيم باريس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
- روبنز : « چونو وهرقل » . متحف الهرادو بمدريد .
- روبنز : « ديانا » . متحف درسدن .
- روبنز : « زيوس يختطف جانيميديس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- روبنز : « سيلينوس فى حفل باكخوسى » . متحف أوفيتزى بفلورنسا .
- روبنز : « عيد فينوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- روبنز : « فايثون وأمفيتري » . متحف برلين .
- روبنز : « فينوس وأدونيس » . متحف الإرميتاج .
- روبنز : « منيرفا تحمى السلام من مارس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
- روبنز : « مولد فينوس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
- روبنز : « هاديس [بلوتو] يختطف پروسيرينا [پيرسيفونى] » . متحف لويى پاليه بباريس .
- روبنز : « هزيمة المردة » . متحف بروكسل .
- رينيو : « تحكيم باريس » .
- رينولدز : « موت ديدو » . قصر باكنجهام بلندن .
- سباستيان بوردون : « انتحار ديدو » . متحف بيزيه .
- سيزان : « ليدا وطائر البجع » . مجموعة بيليران بباريس .
- سكيافونى : « أسطورة ميداس » . أكاديمية الفنون الجميلة بالبندقية .
- شارل ده لافوس : « باكخوس وأرديانى » . متحف ديچون .
- شازيران : « پوزيدون [نبتون] » . متحف بيزانسون .
- فاتو : « زيوس وأنتيوى » . متحف اللوفر .

- فنان هيمز كرك : « فينوس ومارس وفولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فرانسوا لوموان : « نارسيسوس » . متحف هامبورج .
 فركبوز : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فرنشسكو ألباني : « أبولو ودافني » . متحف اللوفر بباريس .
 فرنشسكو ألباني : « أوروبا » . متحف الأوفيتزي بفلورنسا .
 فرنشسكو ألباني : « فوز جالاتيا » . متحف درسدن .
 فرنشسكو جويبا : « كرونوس يلتهم أبناءه » . متحف الهراو بمدريد .
 فرانكسكو : « كيوييد يعدّ قوسه ويشحد سهمه » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فرنشسكو ميلزي : « فيرتومنوس وبومونا » . متحف برلين .
 فلاكسمان : « أوديسيوس يفتأ عين بوليفيموس » .
 فنان مجهول : « رأس ميدوسا بعد جزّ عنقها » . فيلا لودوفيزي بروما .
 فيرونيزي : « اختطاف أوروبا » . قصر الدوج بالبندقية .
 فيرونيزي : « اختطاف أوروبا » . متحف الكابيتولينوس .
 فيرونيزي : « بيرسيوس وأندروميذا » . متحف الإرميتاج بليننجراد .
 فيرونيزي : « فينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فيرونيزي : « فينوس وفولكانوس » . متحف فيلا بورجيزي .
 فيرونيزي : « فينوس ومارس » . متحف المتروبوليتان بنيويورك .
 فيرونيزي : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فيلاسكيز : « باكخوس » . متحف الهراو بمدريد .
 فيلاسكيز : « فينوس في المرأة » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 فيلاسكيز : « كور فولكانوس » . متحف الهراو بمدريد .
 فيلاسكيز : « ميركوريوس وأرجوس » . متحف الهراو بمدريد .
 فيورنتينو روسو : « ربات الفنون أو الپيريديس » . متحف اللوفر بباريس .
 كاراتشي : « بوليفيموس وأكيس وجالاتيا » . قصر فارنيزي بروما .
 كاراتشي : « بيرسيوس وأندروميذا » . قصر فارنيزي بروما .
 كاراتشي : « چويتير وچونو » . قصر فارنيزي بروما .
 كارافاجيو : « پسيخيه في الأوليمپ » . متحف اللوفر .
 كارافاجيو : « رأس ميدوسا » . متحف أوفيتزي بفلورنسا .
 كراناخ : « فينوس » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 كراناخ : « فينوس وكيوييد » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
 كراناخ : « فينوس وكيوييد » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 كراناخ : « نهاية العصر الفضّي وبداية العصر البرونزي » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 كرسبي : « القنطور خيرون يعلم البطل أنخيل الصيد » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 كوريچيو : « جانيميديس والنسر » . متحف درسدن .
 كوريچيو : « چويتير وإيو » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 كوريچيو : « داناي » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 كوريچيو : « زيوس وإيو » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 كوريچيو : « ميركوريوس يملّ تعلّياته على كيوييد بحضور فينوس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .

- كلودلوران : « أبوللو ومارسياس » . متحف الإرميتاج بليينجراد .
كلودلوران : « أوروبا » . متحف قصر باكنجهام بلندن .
كلودلوران : « نارسيسوس وإكو » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
كلويه : « ديانا الصيادة » . متحف روان .
كياري : « أبوللو ودافني » . جاليريا سيادا بروما .
لاستان : « هيرا تكتشف علاقة زيوس بإيو » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
لوقا چوردانو : « أريادني » . متحف درسدن .
لوقا چوردانو : « پيرسيوس وفينوس » . متحف درسدن .
لوکاس : « أكيس وجالاطيا وپوليفيموس » . قصر تريانون بقرساي .
لوکليک ده جوبلان : « اختطاف أوروبا » . متحف دنکرك .
لوموان : « اختطاف أوروبا » . متحف پوشكين بموسكو .
لوموان : « هرقل وأومفالوس » . متحف اللوفر .
لوی ده بولوني : « چويتير وسيميليه » . متحف لومان .
ليوناردو دافنشي : « ليدا وطائر البجع » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
ماتوار : « زيوس وإيو » .
ماتوار : « هيبى تصب الخمر في كأس أبيها چويتير » . متحف تروا .
مدرسة پيزيلينو : « چاسون وملاحو الأرجو » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيلينو : « چاسون يضع النير على الثيران النحاسية ويذبح الجند المسلحين » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيلينو : « چاسون يغادر الملك أيتيس لتنفيذ ما كلفه به » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيلينو : « عصر الحديد » . مكتبة پيريونت مورجان .
المدرسة الفرنسية : « مصرع أدونيس » . متحف بلوا .
مدرسة فونتبلو : « حمام ديانا » . متحف اللوفر .
مصانع بروكسل للنسجيات المرسمة : « فيرتوموس وپومونا » . متحف بروكسل .
نيكولا پوسان : « أبوللو ودافني » . متحف ميونخ .
نيكولا پوسان : « إكو ونارسيسوس » . متحف اللوفر بپاریس .
نيكولا پوسان : « أورفيوس ويوريديكى » . متحف اللوفر بپاریس .
نيكولا پوسان : « حفل باکخوسى أمام تمثال لپان » : متحف الناشونال جاليري بلندن .
نيكولا پوسان : « سيريس إلهة الحصاد » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
نيكولا پوسان : « أينياس عند ديدو » . متحف بيزانسون .

النت

- أندريا پيزانو : « دايدالوس » . متحف الكامپانيلى [برج الأجراس] بفلورنسا .
أنطوان لوى باری : « القنطور واللايٹ » . متحف اللوفر بپاریس .
أنطونيو كانوفا : « آچاكس » . متحف الفاتيكان بروما .
أنطونيو كانوفا : « پسيخيه تسترد الحياة إثر قبلة كيوييد » . متحف اللوفر .
أنطونيو كانوفا : « ثيسيسوس » . حدائق الفولكسجارتن بشينا .
أنطونيو كانوفا : « ثيسيسوس يصرع القنطور » . متحف تاريخ الفنون بشينا .

أنطونيو كانوفا : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 أنطونيو كانوفا : « هرقل وليتساس » . المتحف القومي بروما .
 أوتريكولي : « جويتر » . متحف الفاتيكان .
 برتل ثورفالدسن : « أدونيس » . متحف ميونخ .
 برتل ثورفالدسن : « باكخوس وأريادني » . متحف كوينهاجن .
 برتل ثورفالدسن : « جانياميدس » . متحف ثورفالدسن بكوينهاجن .
 برتل ثورفالدسن : « فولكانوس يعدّ سهام كيوييد » متحف ثورفالدسن بكوينهاجن .
 برتل ثورفالدسن : « مارس وكيوييد » . متحف ثورفالدسن بكوينهاجن .
 برتل ثورفالدسن : « منيرفا وپروميثيوس » . نقش بارز .
 پوجيه : « هرقل يصرع الهيدرا » . متحف روان .
 چان ده بولوني : « هرقل يحمل الكون » .
 چان ده بولوني : « هرقل يقتل القنطور نيسوس » . متحف چاكمار أندريه پباريس .
 چيمس پرادييه : « ربات الحسن الثلاث » . متحف اللوفر .
 چيمس پرادييه : « مصرع أولاد نيوي » . متحف اللوفر .
 جيوم كوستون : « بان يعلم أبوللو العزف على المزمار » .
 ديپوا : « ليدا وطائر البجع » . متحف لوکسمبورج .
 رود : « الإله ميركوريوس [هرمس] » . متحف اللوفر .
 رينزو برنيي : « أبوللو ودافني » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 رينزو برنيي : « پلوتو وپروسيپينا » . فيلا بورجيزي بروما .
 رينزو برنيي : « نافورة تريتون » بروما .
 سانسوفينو : « باكخوس » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
 سلوطز : « سقوط إيكاروس » . متحف اللوفر .
 فرانز فيل : « أورفيوس » . متحف اللوفر .
 فنان مجهول : « أبوللو ودافني » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 فنان مجهول : « أولاد نيوي » . متحف الأوفيتزي بفلورنسا .
 فنان مجهول : « نيوي وطفلها » . متحف الأوفيتزي بفلورنسا .
 كلوديون : « موكب عابدات باكخوس » . متحف اللوفر .
 ميكلانچلو : « أدونيس يمتضر » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
 ميكلانچلو : « باكخوس ثملا » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
 نيقولا سباستيان آدم : « پروميثيوس مغلولاً والنسر ينهش كبده » . متحف اللوفر .

المُلحق الثاني

دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والراقصة المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد(*)

- أبوللو : باليه من مشهدين من موسيقى سترافنسكي (١٩٤٧) .
 أنالانتا : أوبرا من موسيقى هيندل (١٧٣٦) .
 أدميتوس ملك ثيساليا : أوبرا من موسيقى هيندل ، عرضت لأول مرة في لندن سنة ١٧٢٧ .
 أريادنى : أوبرا من موسيقى مونتفردى عن قصة رينوتشيني ، قدمت لأول مرة في بلاط دوق مانتوا بمناسبة قران إحدى أميرات أسرة سافوى سنة ١٦٠٨ . ولم يبق من هذه الأوبرا إلا جزء واحد أعاد المؤلف صياغته في شكل مادريجال لأصوات خمسة ، نشرت سنة ١٦١٤ في كتابه السادس عن المادريجال .
 أريادنى : أوبرا من موسيقى هيندل (١٧٤٣) .
 أريادنى وذو اللحية الزرقاء : أوبرا من موسيقى پول دوكا (١٩٠٨) .
 أريادنى فى ناكسوس : أوبرا من موسيقى ريتشارد شتراوس عن قصة هوفمانستال . قدمت لأول مرة في شتوتجارت سنة ١٩١٢ ، وكانت خاتمة من فصل واحد لمسرحية « البرجوازي النبيل » التى اقتبسها هوفمانستال عن «ولير . وأعيد تقديم « أريادنى فى ناكسوس » فى فيينا سنة ١٩١٦ حيث كتب لها شتراوس مقدمة جديدة استغنى بها عن رواية مولير .
 إفيجينيا فى أوليس : أوبرا فى ثلاثة فصول من موسيقى جلوك ، عن قصة لرواية مقتبسة عن راسين ، وعن أوريبيديس . قدمت لأول مرة فى باريس سنة ١٧٧٤ ، وهى أول ما كتب الموسيقىار للمسرح الفرنسى ولاقت نجاحاً باهراً . وقد راجع فاجنر هذه الأوبرا فغير من توزيعها الموسيقى ، وأعاد كتابة الإلقاء الغنائى ، وأضاف شخصية جديدة فى الفصل الثالث . وقدمها جوستاف مالر فى فيينا سنة ١٩٠٤ ، كما عزفت بلندن فى نهاية سنة سنة ١٩٣٣ .
 إفيجينيا فى تاوروس : أوبرا من أربعة فصول من موسيقى جلوك عن قصة جيبار ، قدمت لأول مرة فى باريس سنة ١٧٧٩ وهى امتداد لقصة إفيجينيا فى أوليس . وقدم ريتشارد شتراوس صورة محورة لهذه الأوبرا فى نيويورك سنة ١٩١٦ ، حيث غير خاتمتى الفصلين الأول والرابع .
 أكيس وجالاطيا : أوراتوريو من موسيقى هيندل (١٧١٩) .
 أكيس وجالاطيا وپوليفيموس : سيريناده من موسيقى هيندل قام موتسارت بتوزيع موسيقاها (١٧٠٨) .
 إلكترا : أوبرا من موسيقى ريتشارد شتراوس عن قصة هوفمانستال ، وهى صورة حديثة مبتكرة لمأساة سوفوكليس ، قدمت لأول مرة فى درسدن سنة ١٩٠٩ .
 الكستيس : أوبرا فى ثلاثة فصول من موسيقى جلوك مقتبسة عن مأساة أوريبيديس ، وقدمت لأول مرة فى فيينا سنة ١٧٦٧ ، ثم فى باريس سنة ١٧٧٦ .
 انتصار أفروديتي : مشاهد موسيقية للمؤلف الموسيقى كارل أورف (١٩٥٣) .
 انتصار نبتون : باليه من موسيقى لورد برنرز وتصميم « بالانشين » ، قدم فى لندن لأول مرة سنة ١٩٢٦ .
- (*) للمزيد من التفاصيل انظر : « الزمن ونسيج النغم » لكاتب هذه السطور . دار المعارف ١٩٧٨ .

- أهل أوليمپوس : أوبرا من موسيقى بليس عن قصة ج . ي . پرستلى ، قدمت لأول مرة في لندن سنة ١٩٤٩ .
- أوديب ملكا : أوبرا من موسيقى كارل أورف (١٩٥٩) .
- أوديب ملكا : أورتوريو مسرحي من موسيقى سترافنسكى عن نص لاتينى كتبه دانيلو ، ترجمه إلى الفرنسية جان كوكتو ، والقصة مقتبسة عن سوفوكليس . قدم لأول مرة في باريس سنة ١٩٢٧ .
- أورفيو : باليه من مشاهد ثلاثة من موسيقى سترافنسكى (١٩٤٧) .
- أورفيوس : أوبرا من موسيقى مونتفردى عن قصة ستريجيو ، قدمت لأول مرة في بلاط أمير جونزاجا بمانتوا سنة ١٦٠٧ .
- أورفيوس في الجحيم : أوبرا هزلية من موسيقى أوفناخ عن قصة كرميو وهاليفى ، قدمت لأول مرة في باريس سنة ١٨٥٨ .
- أورفيوس ويوريديكى : أوبرا في ثلاثة فصول من موسيقى جلوك عن قصة كالزابيجى ، قدمت لأول مرة في فيينا سنة ١٧٦٢ .
- باكخوس وأريادنى : باليه تصميم سيرجى ليفار على موسيقى ألبرو-ويل ، قدم لأول مرة في باريس سنة ١٩٢١ . وقد أعد المؤلف متاليتين للأوركسترا ضمن موسيقى الباليه .
- پروميثيوس : باليه من موسيقى بيتهوفن ، تصميم فيجانو ، قدم لأول مرة في فيينا سنة ١٨٠١ . واستمد بيتهوفن من هذا الباليه لحنا جعله أساساً للتنوعات رقم ٣٥ للبيانو ، ثم جعله مرة أخرى موضوعاً موسيقياً في الحركة الأخيرة من سيمفونيته الثالثة « البطولة » .
- پروميثيوس : قصيد سيمفونى من تأليف فرانز ليست كتبه سنة ١٨٥٠ كمقدمة للكورس في قصيدة لهردر .
- پروميثيوس ، قصيد النار : مصنف للبيانو من تأليف سكريبين عزف لأول مرة في موسكو سنة ١٩١١ .
- پرسيفونى : ميلودراما للمسرح أفاعى الكونسير من موسيقى سترافنسكى عن قصة لأندريه چيد ، قدمت لأول مرة في باريس سنة ١٩٣٤ .
- پسيخيه : قصيد سيمفونى من موسيقى سيزار فرانك (١٨٨٧) .
- پششيليا : قصيد سيمفونى من تأليف فولف ١٨٨٣ — ١٨٨٥ .
- پيجاليون : أوبرا من موسيقى كيروينى (١٨٠٩) .
- ثيسوس : أوبرا من موسيقى لولى قدمت لأول مرة في بلاط ساكس-جورمان سنة ١٦٧٥ ، ثم خرجت للجهاير أول مرة في باريس سنة ١٦٧٥ أيضاً .
- دافنى : أوبرا من موسيقى چاكوبو پيرى عن قصة أوتافيو رينوتشيني . قدمت لأول مرة في مهرجان فلورنسا سنة ١٥٩٧ ، وهى أول أوبرا إيطالية وفاتحة المؤلفات الموسيقية المعروفة في تلك الفترة .
- دافنى : أوبرا عن نفس القصة من موسيقى شوتز قدمت في تورجاو سنة ١٦٢٧ فكانت أول أوبرا ألمانية معروفة .
- دافنى : تراچيديا موسيقية من تأليف ريتشارد شتراوس عن قصة لجريجور ، وقدمت لأول مرة في درسدن سنة ١٩٢٨ .
- دافنيس وكلوييه : باليه من موسيقى رافيل من تصميم فوكين ، قدم لأول مرة في باريس سنة ١٩١٢ . وتعتبر المتاليتان الموسيقيتان من هذا الباليه أكثر مؤلفات رافيل شعبية وانتشاراً .
- ديدو وأينياس : أوبرا من موسيقى هنرى پورسيل (١٦٨٩) .
- الطرواديون : أوبرا من موسيقى هكتور برليوز .
- ١ — فتح طروادة وقدمت لأول مرة في سنة ١٨٩٠ .
 - ٢ — الطرواديون في قرطاج ، وقدمت لأول مرة في باريس سنة ١٨٦٣ .
- وكانت الأوبرا أصلاً عملاً واحداً في ستة فصول ، ولكن نظراً لظولها قسمت قسمين ، وقدم القسمان معاً في ليلة واحدة لأول مرة في لندن سنة ١٩٥٧ .
- فوبيوس وپان : غنائية دنيوية من موسيقى باخ كتبها سنة ١٦٣١ .
- فينوس وأدونيس : قناعية من موسيقى بلو ، لكاتب مجهول . قدمت لأول مرة في بلاط لندن سنة ١٦٨٤ .
- كيفالوس وپروكريس : أوبرا من موسيقى جريترى ، قدمت لأول مرة في بلاط فرساي بفرنسا سنة ١٧٧٣ ، ثم قدمت للجهاير لأول مرة سنة ١٧٧٥ بباريس .
- ميديا : أوبرا من موسيقى لويچى كيروينى ، قدمت لأول مرة سنة ١٧٧٩ .

ميديا : باليه من موسيقى ريفاز كابتشادزه وتصميم رقصات جورجي الكسديزه .
 نهاية العمالة : أوبرا من موسيقى جلوك (١٧٤٦) .
 هذا تيريزياس : أوبرا هزلية من موسيقى بولانك عن قصة لأبوللينير ، قدمت لأول مرة في باريس سنة ١٩٤٧ .
 شباب هرقل : قصيد سيمفوني لكامي سان صانس .
 هرقل وهيبى : قصيد سيمفوني من موسيقى جلوك (١٦٤٧) .
 هيبوليتوس وأريسيا : أوبرا من موسيقى رامو عن قصة بيلجران . قدمت في باريس لأول مرة سنة ١٧٣٢ .
 هيلينا وباريس : أوبرا من موسيقى جلوك عن قصة كالزاييجي قدمت في فيينا لأول مرة سنة ١٧٧٠ .
 هيلينا المصرية : أوبرا من موسيقى ريتشارد شتراوس عن قصة هوفمانستال ، قدمت لأول مرة سنة ١٩٢٨ في درسدن ، وهى
 تتناول الآثار المترتبة على حرب طروادة وعفو منيلاوس عن هيلينا . وقد اهتم كل من مؤلف القصة
 والموسيقار بالجانب الأسطوري للقصة .
 يوريديكى : أوبرا من موسيقى بيرى عن قصة مينوتشي ، قدمت لأول مرة في فلورنسا سنة ١٦٠٠ . وإذ كانت موسيقى
 أوبرا دافنى مفقودة ، يعد البعض أوبرا يوريديكى أولى الأوبرات . وكتبت هذه الأوبرا بمناسبة زواج هنرى
 الرابع من ماريا ده ميديتشى ، وقد استخدم كاتشيني نفس القصة لأوبراه بنفس الاسم

ثبت ببلو جرافى لكاتب هذه السطور

● موسوعة تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى .*

١٩٧١	طبعة أولى	دراسة	١ - الفن المصرى : العمارة
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٧٢	طبعة أولى	دراسة	٢ - الفن المصرى : النحت والتصوير
١٩٩١	طبعة ثانية		
١٩٧٦	طبعة أولى	دراسة	٣ - الفن المصرى القديم : الفن السكندرى والقبلى
١٩٧٤	طبعة أولى	دراسة	٤ - الفن العراقى القديم
١٩٧٨	طبعة أولى	دراسة	٥ - التصوير الإسلامى الدينى والعربى
١٩٨٣	طبعة أولى	دراسة	٦ - التصوير الإسلامى الفارسى والتركى
١٩٨١	طبعة أولى	دراسة	٧ - الفن الإغريقى
١٩٨٩	طبعة أولى	دراسة	٨ - الفن الفارسى القديم
١٩٨٨	طبعة أولى	دراسة	٩ - فنون عصر النهضة
١٩٩١	طبعة أولى	دراسة	١٠ - الفن الرومانى
١٩٩٢	طبعة أولى	دراسة	١١ - الفن البيزنطى
١٩٩٢	طبعة أولى	دراسة	١٢ - فنون العصور الوسطى
١٩٩١	طبعة أولى	دراسة	١٣ - التصوير المغولى الإسلامى فى الهند
١٩٨٠	طبعة أولى	دراسة	١٤ - الزمن ونسيج النغم (من نشيد أبوللو إلى أوليفيه ميسيان)
١٩٨١	طبعة أولى	دراسة	١٥ - القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية
١٩٩٢	طبعة ثانية		
١٩٧٨	طبعة أولى	دراسة	١٦ - الإغريق بين الأسطورة والإبداع
١٩٩٢	طبعة ثانية		

*) الصور الملونة بالأجزاء التسعة الأولى من هذه الموسوعة طبعت بمؤسسة رينبرد للطباعة بلندن على نفقة المنظمة

الدولية للتربية والعلوم والثقافة « يونسكو »

١٩٨٠	طبعة أولى	دراسة	١٧ - ميكلا نجلو
١٩٧٤	طبعة أولى	دراسة وتحقيق	١٨ - فن الواسطي من خلال مقامات الحريري
١٩٩٢	طبعة ثانية		[أثر إسلامي مصور]
١٩٨٧	طبعة أولى	دراسة وتحقيق	١٩ - معراج ثامه [أثر إسلامي مصور]
			● أعمال الشاعر أوقييد .
١٩٧١	طبعة أولى	ترجمة	٢٠ - ميتامور فوزيس [مسخ الكائنات]
١٩٩١	طبعة ثالثة		
١٩٧٣	طبعة أولى	ترجمة	٢١ - آرس أماتوريا [فن الهوى]
١٩٩١	طبعة ثالثة		
			● أعمال جبران خليل جبران
١٩٥٩	طبعة أولى	ترجمة	٢٢ - النبي : لجبران خليل جبران
١٩٩٠	طبعة سابعة		
١٩٩١	طبعة ثامنة		
١٩٦٠	طبعة أولى	ترجمة	٢٣ - حديقة النبي : لجبران خليل جبران
١٩٩٠	طبعة سابعة		
١٩٦٢	طبعة أولى	ترجمة	٢٤ - عيسى ابن الإنسان : لجبران خليل جبران
١٩٩٠	طبعة رابعة		
١٩٦٣	طبعة أولى	ترجمة	٢٥ - رمل وزبد : لجبران خليل جبران
١٩٩٠	طبعة رابعة		
١٩٩١	طبعة خامسة		
١٩٦٥	طبعة أولى	ترجمة	٢٦ - أرباب الأرض : لجبران خليل جبران
١٩٩٠	طبعة ثالثة		
١٩٨٠	طبعة أولى	ترجمة	٢٧ - روائع جبران خليل جبران . الأعمال المتكاملة
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٦٠	طبعة أولى	تحقيق	٢٨ - كتاب المعارف لابن قتيبة
١٩٩٢	طبعة سادسة		
١٩٦٥	طبعة أولى	ترجمة	٢٩ - مولع بقاجز : لبرنارد شو
١٩٩٢	طبعة ثانية		
١٩٧٥	طبعة أولى	دراسة نقدية	٣٠ - مولع حذر بقاجز
١٩٩٣	طبعة ثالثة		
١٩٦٧	طبعة أولى	ترجمة	٣١ - المسرح المصري القديم : لإيتين دريوتون
١٩٨٩	طبعة ثانية		

١٩٧١	طبعة أولى	تأليف	٣٢ - إنسان العصر يتوج رمسيس
١٩٦٤	طبعة أولى	ترجمة	٣٣ - فرنسا والفرنسيون على لسان الراحل طومسون : لبييردانيوس
١٩٨٩	طبعة ثانية		
١٩٥٢	طبعة أولى	تأليف	٣٤ - إعصار من الشرق أو جنكيز خان
١٩٩٢	طبعة خامسة		
١٩٥٠	طبعة أولى	ترجمة	٣٥ - العودة إلى الإيمان : هنري لنك
١٩٦٤	طبعة ثالثة		
١٩٤٨	طبعة أولى	ترجمة	٣٦ - السيد آدم : ليات فرانك
١٩٦٥	طبعة ثانية		
١٩٥٢	طبعة أولى	ترجمة	٣٧ - سروال القس : إثورن سميث
١٩٧٦	طبعة ثانية		
١٩٤٢	طبعة أولى	ترجمة	٣٨ - الحرب الميكانيكية : للجنرال فولر
١٩٥٢	طبعة ثانية		
١٩٥٢	طبعة أولى	ترجمة	٣٩ - قائد البانزر : للجنرال جوديريان
١٩٥١	طبعة أولى	تأليف بالشاركة	٤٠ - حرب التحرير
١٩٦٧	طبعة ثانية		
١٩٤٤	طبعة أولى	ترجمة بالشاركة	٤١ - تربية الطفل من الوجهة النفسية
١٩٤٥	طبعة أولى	ترجمة بالشاركة	٤٢ - علم النفس في خدمتك
١٩٨٤	طبعة أولى	دراسة	٤٣ - مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانيين والأدباء (١٨٠٠ - ١٩٠٠)
١٩٩٢	طبعة ثانية		
١٩٨٨	طبعة أولى	تأليف	٤٤ - مذكراتي في السياسة والثقافة
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٩٣	طبعة ثالثة		
١٩٩٠	طبعة أولى	إعداد وتحرير	٤٥ - المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية [إنجليزية - فرنسية - عربي]

بالفرنسية

Ramses Re-Couronne: Hommage Vivant au Pharaon Mort,
"UNESCO" 1974.

- ٤٦

بالإنجليزية

- In The Minds of Men. Protection and Development of Mankind's Cultural Heritage "UNESCO". 1972. - ٤٧
- The Muslim Painter and the Divine . The Persian Impact on Islamic Religious Paninting. Rainbird Publishing Group, Park Lane Publishing Press.London 1981. - ٤٨
- The Miraj- Mameh: A Masterpiece of Islamic Painting. Pyramid Studies and other Essays presented to. I. E. S. Edwards. The Egypt Exploration Society. London 1988. - ٤٩

أبحاث

- The Portrayal of the Prophet. The Times Literary Supplement December 1976. - ٥٠
- Problematiche de la Figuration dans l'art Islamique. - ٥١
- La Figuration Sacree.
- La Figuration Profane.
- Plastique et musique dans l'art pharaonique.
- Wagner enter la theorie et l'application.
- سلسلة محاضرات ألفت بالكوليج ده فرانس بباريس خلال شهرى يناير ومارس ١٩٧٣.
- Annuaire du College de France. 73 e Annee Paris, 11, Place Marceelin-Berthelot 1973.

- ٥٢ - المشاكل المعاصرة للفنون العربية . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة « مواقف » عدد ٢ آيار ١٩٧٤ . بيروت .
- ٥٣ - حرية الفنان . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة عالم الفكر . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ . الكويت .
- ٥٤ - رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة ألفت بنادى الجسرة الثقافى بالدوحة (دولة قطر) فبراير ١٩٨٩ .
- ٥٥ - إطلالة على التصوير الاسلامى : العربى والفارسى والمغولى والتركى . محاضرة ألفت بالمجمع الثقافى . أبو ظبى . ابريل ١٩٩١ .

٥٦ - سبيل إلى تعميم مُدُن التكنولوجيا « تكنوپوليس » في العالم العربي . معهد العالم العربي . بباريس .
يونيه ١٩٩٠

تحت الطبع

موسوعة التصوير الإسلامي [مكتبة لبنان . بيروت]

تحت الإعداد

فنون القرن الثامن عشر والتاسع عشر

فهرس

صفحة

٥	تقديم
٣١	الكتاب الأول
٣١	أصل العالم
٣٥	العمالقة
٣٥	ليكاوون
٣٨	ديوكاليون وبيرا
٤١	بيثون
٤٢	دافني
٤٤	إيو وأرجس وسيرينكس
٤٨	فايثون
٤٩	التعقيبات
٥١	الكتاب الثاني
٥١	فايثون
٥٩	سيجنوس
٦٠	كاليستو
٦٢	أركاس
٦٣	كورونيس
٦٤	أوكيرويه
٦٥	خيرون
٦٥	باتوس
٦٦	أجلاروس
٦٩	أوروبا
٧٠	التعقيبات

صفحة

٧٥	الكتاب الثالث
٧٥	كادموس
٧٨	أكتايون
٨٠	سيميليه
٨٢	تيريزياس
٨٣	نارسيوس وإكو
٨٦	پنثيوس وأكريتيس
٩١	التعقيبات
٩٣	الكتاب الرابع
٩٣	بنات مينياس
٩٥	پيراموس وثيزبي
٩٧	فينوس ومارس . ليوكوثوي . كليتيه
١٠٠	سالماكيس وهرمافروديتوس
١٠٢	أثاماس وإينو
١٠٥	كادموس وهارمونيا
١٠٦	پيرسيوس . أطلس . أندروميديا
١١١	التعقيبات
١١٥	الكتاب الخامس
١١٥	پيرسيوس
١٢١	هيپوكريفي . ربّات الفن . بنات پيروس
١٢٣	سيريس وپروسيرينا
١٢٤	كياني
١٢٦	أسكالافوس والسيرينات
١٢٧	أريثوزا وترپيتوليموس
١٣٠	التعقيبات
١٣٣	الكتاب السادس
١٣٣	باللاس وأراخني
١٣٦	نيوي

صفحة

١٣٩	فلاحوليكييا
١٤٢	مارسياس وبيلويس
١٤٢	پروكنى وفيلوميللا
١٤٧	بورياس وزيتيس وكالايس
١٤٩	التعقييات

الكتاب السابع

١٥١	چاسون وميديا
١٥١	أيسون
١٥٤	پلياس
١٥٧	ثيسوس
١٥٩	آياكوس
١٦٠	الطاعون فى إيجينا
١٦٢	الميرميدون
١٦٤	كيفالوس وپروكريس
١٦٥	التعقييات

الكتاب الثامن

١٧٣	مينوس وسكيللا
١٧٣	المتاهة وتاج أريادنى
١٧٦	ديدالوس وإيكاروس
١٧٧	پيرديكس
١٧٨	الخنزير الكاليدونى . ملياجر
١٧٩	نار ألتايا
١٨٣	أخيلووس
١٨٥	فيليمون وبوكيس
١٨٦	إيريزيخثون
١٨٩	التعقييات

الكتاب التاسع

١٩٥	أخيلووس وهرقل
١٩٥	

صفحة

١٩٧	نيسوس وموت هرقل
٢٠١	الكمينا وجالا نثيس
٢٠٢	دريوي . يولاووس
٢٠٤	بيليس
٢٠٩	إيفيس
٢١٢	التعقيبات
٢١٥	الكتاب العاشر
٢١٥	أورفيوس
٢١٧	كياريسوس
٢١٨	جانيميديس
٢١٩	هياكيتوس
٢٢٠	الكراستيس والبرويتيديس
٢٢١	بيجاليون
٢٢٢	مورها
٢٢٦	أدونيس وفينوس . أتالانتا وهيومينيس
٢٣٢	التعقيبات
٢٣٥	الكتاب الحادي عشر
٢٣٥	موت أورفيوس
٢٣٨	ميداس
٢٤٠	لاوميدون . هيزيونيه
٢٤٠	بيليوس وثيتيس
٢٤١	بيليوس لدى كيكس
٢٤٤	كيكس والكيونيه
٢٥١	أيساكوس
٢٥٣	التعقيبات
٢٥٥	الكتاب الثاني عشر
٢٥٥	الإغريق في أوليس . ربة الشهرة
٢٥٧	سيجنوس

صفحة

٢٥٨	كاينوس
٢٦٠	القنطوري
٢٦٦	پيريكليمينوس
٢٦٦	موت أخيل
٢٦٨	التعقيبات

الكتاب الثالث عشر

٢٦٩	أچاكس يطالب بأسلحة أخيل
٢٧٨	هيكوبا
٢٨٢	ممنون
٢٨٣	أينياس عند أنيوس
٢٨٥	أكيس وجالاطيا پوليفيموس
٢٨٨	جلالوكوس
٢٩٠	التعقيبات

الكتاب الرابع عشر

٢٩٣	سكيللا وكيركي
٢٩٥	الكيركوبيس
٢٩٦	سبيلا
٢٩٧	أخيمينيديس وپوليفيموس
٢٩٩	مكاريس وأوديسيوس
٣٠٠	پيكوس وكاننز
٣٠٣	رفاق ديوميديس
٣٠٤	شجرة الزيتون البرية
٣٠٥	سفن أينياس وقصة أرديا
٣٠٦	تأليه أينياس
٣٠٦	پومونا وفيرتومنوس . إيفيس وأناكساريتي
٣١١	رومولوس وهيرسليا
٣١٣	التعقيبات

صفحة

٣١٥	الكتاب الخامس عشر
٣١٥	نوما . موسكيلوس وكروتون
٣١٦	پيثاجوراس
٣٢٥	إيجيريا وهيپوليتوس
٣٢٦	تاجيس وكيپوس
٣٢٨	إسكيلپوس
٣٣٠	تأليه يوليوس قيصر
٣٣٣	ابتهال
٣٣٣	ختام
٣٣٤	التعقييات
٣٣٩	ثبت التراجم والمعاجم
٣٤٠	ثبت المراجع
٣٤١	الملحق الأول : دليل المنجزات الفنية التشكيلية [التصوير]
٣٤٦	» » » » [النحت]
٣٤٨	الملحق الثاني : دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والرامضه
	ثبت بيليوجرافى للمترجم

مطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٠١٠ / ١٩٩٢

ISBN 977 - 01 - 3144 - X

هذا الكتاب

أحد الشوامخ القليلة .. ولسوف يبقى في ذاكرة الأجيال القادمة ولأمد طويل ، فترجمة الميثامورفوز لأوثريد بقلم الدكتور ثروت عكاشة كانت اقتحاماً خطيراً في لغة ساذجة - بفاقة الحيوية .. هي بالنسبة للمثقف المستنير عمل ممتع ونافع معا ، وهو من أجله يستحق كل تحية وثناء .

دكتور لويس عوض (الأهرام ١١/٢٤/١٩٧٢)

لأبد لكل قارئ مثقف أن يقر بعينيه أياماً على واحد من هذه الأعمال الكبرى لأنه سوف يجد صداها في كل الآداب العالمية القديمة والحديثة . ولابد أن نـ . ثروت عكاشة يجد لذته في أن يتحدى الأعمال الأدبية والفنية العسيرة . ومن هذه الندة يتكون إقباله على الأعمال الأدبية البعيدة عن تناول المثقفين . هذه موسوعة العذاب الإغريقي أحكمت ترجمتها وصياغتها وقدمت بكل إخلاص إلى المكتبة العربية

أنيس منصور (الأخبار ١/١٠/١٩٧٢)

لقد ظل هذا العمل الكبير الذي يعتبر من شوامخ الأدب القديم الفين من الأعوام دون أن تقدم الأقلام العربية على ترجمته إلى لغة الضاد حتى ظهر هذا الكتاب المترجم الأنيق ليملا هذا الفراغ . لقد أقبل الدكتور ثروت عكاشة على هذا الجهد الشاق حباً وعشقا لمادته وإيماناً بأهميته للاكتمال والنضج الثقافي ، مضيفاً إلى معطياته الثقافية السابقة هذا العمل الجاد والممتع والمفيد

حسين بيكار (الخيار اليوم ١٦/١٢/١٩٧٢)

إن بلادنا بحاجة إلى مزيد من الأصول الكبرى للفكر والفن ، وهي بحاجة إلى المؤسسات الثقافية الكبرى ، وينبغي أن نستقبل الأعمال الكبيرة مثل «مسخ الكائنات» بالحب والتقدير . ومرحباً بأوثريد إمام العاشقين في المكتبة العربية مترجماً مثل هذه الترجمة الأمينة الجميلة . إن مثل هذا العمل الكبير الذي يقدمه إلينا الدكتور ثروت عكاشة يجمع معه دليلاً جديداً على ما يملكه من طموح ثقافي بالغ السمو في محاولة خلق اتصال «كهربائي» بين الثقافة العربية والثقافة العالمية حتى تتوهج ثقافتنا بنور العصر وتتخلص من غبار انتخلف الفكرى . هو أحد الكتب الأساسية في الأدب العالمي ، ومن الخطأ والتقصير أن تخلو المكتبة العربية من هذا الأثر الفنى والفكرى الهام

رجاء النفاش (المصور ١/٢٦/١٩٧٢)

لأبد أن يغبط المرء الدكتور ثروت عكاشة ويحسده أيضاً على هذا الإنتاج المتلاحق الفياض . وترجمة أوثريد بهذه الأمانة والعناية والعذوبة نموذج للترجمة التي ليست نقلاً ولكن خلقاً

محمد عوده (الجمهورية ٩/١٢/١٩٧٢)